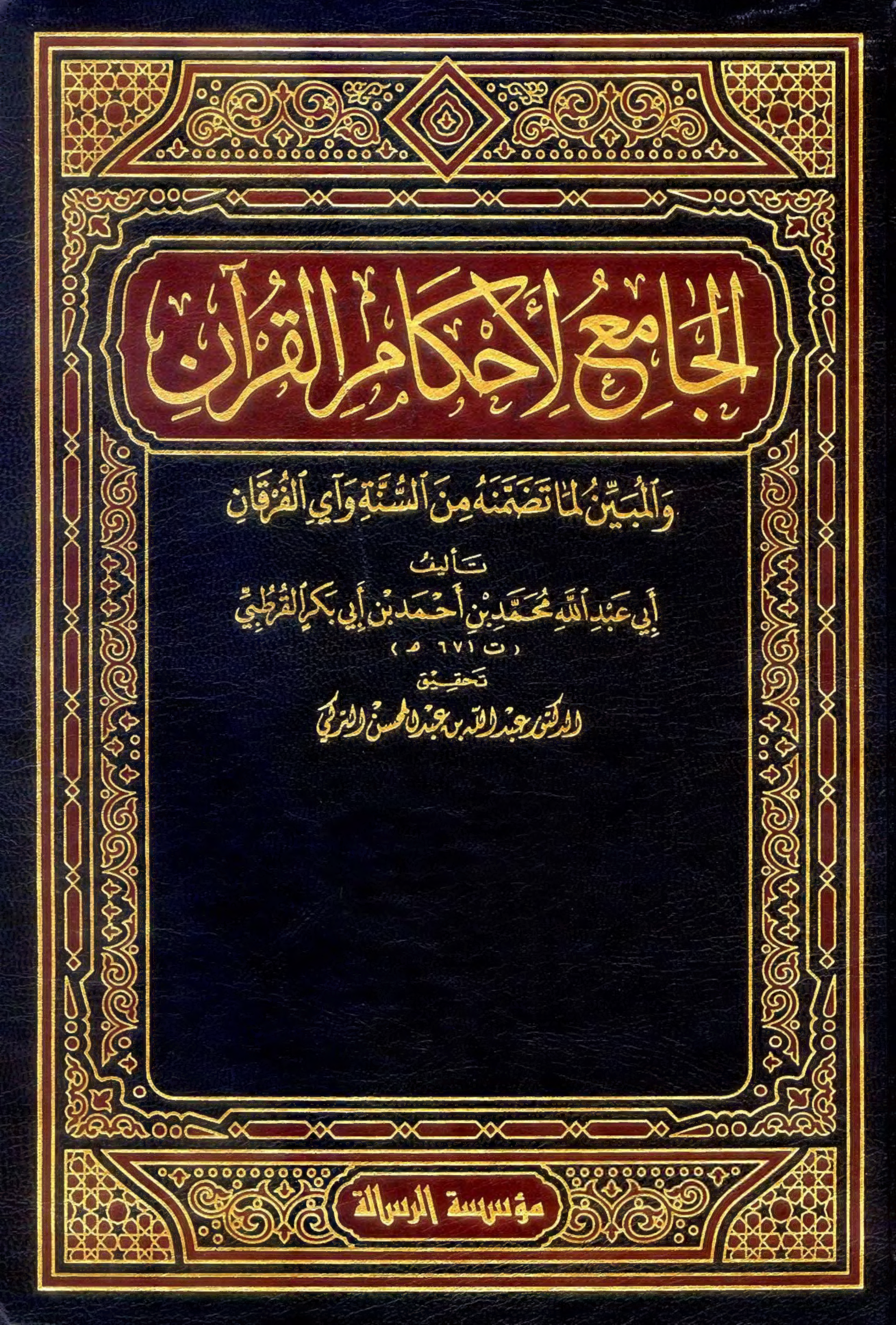

الجامع لأحكام القرآن
والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان
تأليف
أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي
(ت ٦٧١ هـ)
تحقيق
الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
مؤسسة الرسالة



الجامع لأحكام القرآن

والمبيّن لما تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر القرطبيّ

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم


الجامع لأحكام القرآن
والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا- بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً

قال الشيخُ الفقيهُ، الإمامُ العالمُ، العامِلُ، المحدِّثُ، أبو عبد الله محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أبي بكر بنِ فَرْح، الأنصاريُّ، الخزرجيُّ، الأندلسيُّ، ثم القُرْطُبيُّ، تغمَّده اللهُ برحمته، وأسكنه فَسِيحَ جنَّته:

الحمدُ لله المبتدىءِ بحمد نفسِه قبل أن يَحمَده حامد، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، الرَّبُّ الصَّمَدُ الواحد، الحيُّ القيُّومُ الذي لايموت، ذو الجلالِ والإكرام، والمواهبِ العِظام، والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمُنعِمُ عليه بالإيمان، والمُرسِلُ رسولَه بالبيان، محمداً ﷺ، ما اختلفَ المَلَوان، وتعاقبَ الجديدان[1]، أرسلَه بكتابه المبين، الفارقِ بين الشكِّ واليقين، الذي أعجزَتِ الفُصحاءَ مُعارَضَتُه، وأعيَتِ الألبَّاءَ[2] مُناقَضَتُه، وأخرسَتِ البلغاءَ مُشاكَلَتُه[3]، فلا يأتون بمثله، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً. جعلَ أمثالَه عِبراً لمن تَدَبَّرَها، وأوامرَه هُدًى لِمَنِ استَبصَرَها، وشرحَ فيه واجباتِ الأحكام، وفَرَقَ فيه بين الحلالِ والحرام[4]، وكرَّرَ فيه المواعظَ والقَصَصَ للأفهام، وضربَ فيه الأمثالَ، وقَصَّ[5] فيه غيبَ الأخبار، فقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. خاطبَ به أولياءَه، ففهموا، وبيَّنَ لهم فيه مُرادَه، فعلموا. فَقَرَأَةُ[6] القرآن حَمَلَةُ سِرِّ الله

---

(١) الجديدان: الليل والنهار، وكذلك المَلَوان.

(٢) في (ظ): الألباب.

(٣) في (د) و(ز): وأعيت الألبَّاء مشاكلته، وأخرست البلغاء مناقضته.

(٤) في (ز): وقرر فيه رموز الحلال والحرام.

(٥) في النسخ الخطية: ونصَّ، والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): فقرّاء.

المَكْنُون، وحَفَظَةُ عِلمِهِ المخزُون، وخلفاءُ أنبيائه وأُمناؤه، وهم أهلُه وخاصَّتُه، وخِيرتُه وأصفياؤه، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ للهِ أهلِينَ مِنَّا». قالوا: يارسولَ الله، مَن هُم؟ قال: «هُم أهلُ القُرآن، أهلُ الله وخَاصَّتُه». أخرجه ابن ماجه في «سننه»، وأبو بكر البَزَّار في «مسنده»[١].

فما أَحَقَّ مَن عَلِمَ كتابَ الله أن يَزدَجِرَ[٢] بنواهِيه، ويَتَذَكَّرَ[٣] ما شُرِحَ له فيه، ويخشى اللهَ ويتَّقيه، ويراقبَه ويَستَحييه. فإنه قد حُمِّلَ أعباءَ الرُّسل، وصار شهيداً في القيامة على مَنْ خالفَ من أهلِ المِلل، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ألا وإنَّ الحُجَّةَ على مَنْ عَلِمَه فأغفلَه، أوكَدُ منها على مَنْ قَصَّرَ عنه وجَهِلَه. ومَن أوتيَ عِلمَ القرآن فلم ينتفع، وزَجَرَته نواهيه فلم يَرتَدع، وارتكبَ من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فُضُوحاً، كان القرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصماً لَدَيه، قال رسول الله ﷺ: «القرآنُ حُجَّةٌ لكَ، أو عليك». خرَّجه مسلم[٤].

فالواجبُ على مَن خَصَّه الله بحفظ كتابه أن يتلوَه حقَّ تلاوتِه، ويَتَدَبَّرَ حقائقَ عبارته، ويَتفهَّمَ عجائبَه، ويتبيَّنَ غرائبَه، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. جعلَنا الله ممَّن يرعاه حَقَّ رعايتِه، ويَتَدَبَّرُه حقَّ تدبُّرِه، ويقومُ بقِسطِه، ويُوفي بشرطِه، ولا يلتمسُ الهُدَى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامِه

---

(١) سنن ابن ماجه (٢١٥)، وهو من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: «أهلين من الناس»، وهو حديث حسن. وليس الحديث في القسم المطبوع من مسند البزار، وهو في مسند أحمد (١٢٢٧٩).
وأبو بكر البزار: هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، ومسنده المذكور (والمسمى بالبحر الزخار) طبع منه أجزاء. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٥٤.

(٢) في (ظ): ينزجر.

(٣) في (ز) و(ظ): يذكر.

(٤) صحيح مسلم (٢٢٣)، وهو قطعة من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٠٢).

القاطعةِ الباهرة، وجمعَ لنا به خَيْرَي[1] الدنيا والآخرة، فإنه أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة.

ثم جَعل إلى رسوله ﷺ بيانَ ما كان فيه[2] مُجمَلاً، وتفسيرَ ما كان منه مُشكِلاً، وتحقيقَ ما كان له[3] مُحتَمِلاً، ليكونَ له مع تبليغ الرسالة ظهورُ الاختصاص به، ومنزلةُ التفويض إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ثم جَعَلَ إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباطَ ما نبَّه على معانيه، وأشارَ إلى أصوله، ليتوصَّلوا بالاجتهاد فيه إلى عِلم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصُّوا بثوابِ اجتهادهم. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فصار الكتابُ أصلاً، والسنةُ له بياناً، واستنباطُ العلماء[4] إيضاحاً وتِبْياناً. فالحمد لله الذي جعل صدورَنا أوعِيةَ كتابِه، وآذانَنا مواردَ سُننِ نبيِّه، وهِمَمَنا مصروفةً إلى تعلُّمِهما، والبحثِ عن معانيهما وغرائبِهما، طالبين بذلك رِضا ربِّ العالمين، ومندرجين[5] به إلى علم المِلَّة والدِّين.

وبعد: فلما كان كتابُ الله هو الكفيلَ بجميع علومِ الشرع، الذي استقلَّ بالسُّنَّة والفَرْض، ونزلَ به أمينُ السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغلَ به مَدَى عُمْري، وأستفرغَ فيه مُنَّتِي[6]، بأن أكتبَ فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمَّن نُكَتاً من التفسير واللغات، والإعرابِ والقراءات، والردَّ على أهل الزَّيغ والضلالات، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكرُه من الأحكام ونزولِ الآيات، جامعاً بين معانيها، ومُبَيِّناً ما أشكلَ منها[7]، بأقاويل السلف، ومَن تَبِعَهم من الخَلَف.

---

(١) في (د) و(ز) و(م): خير، والمثبت من (ظ).

(٢) في (م): منه، وفي (د) و(ز): ما كان صفة منه.

(٣) في (ظ): فيه، وفي (م): منه.

(٤) في (م): واستنباط العلماء له.

(٥) في (م): ومتدرجين.

(٦) المُنَّة، بالضم: القوة. القاموس (منن).

(٧) في (ظ) و(م): معانيهما... منهما.

وعملتُه تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسِي[1]، وعملاً صالحاً بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَعَ عنه[2] عملُه إلا مِن ثلاث: صدقةٍ جارية، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدعُولَهُ»[3].

وشرطي في هذا الكتاب: إضافةُ الأقوال إلى قائليها، والأحاديثِ إلى مُصنِّفيها، فإنه يقال: من بركة العِلم أن يُضافَ القولُ إلى قائله[4]. وكثيراً ما يجيء الحديثُ في كتبِ الفقه والتفسير مُبهماً، لا يَعرِفُ مَن أخرجَه إلا مَن اطَّلعَ على كتبِ الحديث، فيَبقَى مَن لا خِبرةَ له بذلك حائراً، لا يَعرِف الصحيحَ من السقيم، ومعرفةُ ذلك علمٌ جسيم، فلا يُقبَلُ منه الاحتجاجُ به، ولا الاستدلالُ، حتى يُضيفَه إلى مَن خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقاتِ المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نُشيرُ إلى جُمَلٍ من ذلك في هذا الكتاب، واللهُ الموفقُ للصواب.

وأُضرِبُ عن كثير من قصص المفسِّرين، وأخبارِ المؤرخين، إلّا مالا بُدَّ منه، ولا غِنًى عنه للتبيين، واعتَضتُ من ذلك تبيينَ آيِ الأحكام، بمسائلَ تُسفر عن معناها، وتُرشد الطالبَ إلى مقتضاها، فَضَمَّنتُ كلَّ آية تتضمَّن حُكماً ـ أو حُكمين فما زاد ـ مسائلَ يتبيَّنُ[5] فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسيرِ الغريب، والحُكمِ، فإن لم تتضمن حُكماً، ذكرتُ ما فيها منَ التفسير والتأويل. هكذا إلى آخر الكتاب.

وسمَّيتُه بـ «**الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لما تضمَّنه من السُّنةِ وآيِ الفُرقان**».

جعلَه اللهُ خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديَّ، ومَن أراده، بمنِّه، إنه سميعُ الدعاء، قريبٌ مجيبٌ، آمين.

---

(١) في القاموس: الرَّمس: الدَّفن، والقبر.

(٢) قوله: عنه، ليس في المطبوع.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٤٤)، ومسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) لكن المصنف رحمه الله لم يلتزم بشرطه هذا، فقد يترك ذلك في بعض الحالات، كما سنشير إليه، على حسب ما يمكننا الوقوف عليه.

(٥) في (م): نبيِّن.

بابُ ذِكر جُمَلٍ من فضائل القرآن، والترغيبِ فيه، وفضلِ طالبِه وقارئهِ، ومستمعِه، والعاملِ به

إعلم أنَّ هذا البابَ واسعٌ كبير، أَلَّفَ فيه العلماءُ كُتباً كثيرةً، نذكُر من ذلك نُكَتاً تدلُّ على فضله، وما أعدَّ اللهُ لأهله، إذا أخلصوا الطلبَ لوجهه، وعَمِلوا به.

فأوَّلُ ذلك أن يَستشعرَ المؤمنُ من فضلِ القرآن أنه كلامُ ربِّ العالَمين، غيرُ مخلوق، كلامُ مَن ليس كَمِثلِه شَيءٌ، وصِفةُ مَن ليس له شبيهٌ ولا نِدٌّ، فهو مِن نُور ذاتِهِ جلَّ وعَزَّ، وأنَّ القراءةَ أصواتُ القُرَّاء ونَغَماتُهم، وهي أكسابُهم[1] التي يُؤمَرون بها في حال إيجاباً في بعضِ العبادات، ونَدباً في كثير منَ الأوقات، ويُزجَرُون عنها إذا جَنُبُوا[2]، ويُثابون عليها، ويُعاقَبون على تركها. وهذا مما أَجمع عليه المسلمون أهلُ الحقِّ، ونَطَقَت به الآثارُ، ودلَّ عليها المستفيضُ منَ الأخبار، ولا يتعلَّق الثوابُ والعقابُ إلا بما هو من أكسابِ العباد، على ما يأتي بيانُه.

ولولا أنه سبحانه جَعَلَ في قلوب عبادِه منَ القُوَّة على حَملِه ما جعلَه، ليتدبَّروه وليعتبروا به، وليتذكَّروا مافيه من طاعته وعبادته، وأداءِ حقوقه وفرائضه، لَضَعُفَت ولَاندَكَّت بِثِقَله، أو لَتَضعضعَت له. وأنَّى تُطِيقُه! وهو يقول - تعالى جَدُّه وقولُه الحقُّ -: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ؟! فأين قُوَّةُ القُلوبِ من قوَّة الجبال ؟! ولكنَّ الله تعالى رَزَقَ عبادَه منَ القوَّة على حمله ما شاء أن يرزقَهم، فضلاً منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب:

فأوَّلُ ذلك ما خرَّجه الترمذيُّ، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: مَنْ شَغَلَه قراءةُ القُرآن عن مَسألتي[3]، أعطيتُه أفضَلَ ما أُعطِي

---

(١) في (د) و(ز): اكتسابهم، وفي (ظ): اكتابهم، والمثبت من (م).

(٢) في (م): أجنبوا، وهما بمعنى، واضطربت العبارة في (د) و(ز).

(٣) في (م): من شغله القرآن وذكري عن مسألتي.

السَّائلين». قال: وفَضلُ كلامِ الله على سائرِ الكلام، كفَضلِ اللهِ على خَلْقِه. قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[١].

وروى أبو محمد الدَّارِميُّ السَّمَرْقَنْديُّ[٢] في «مسنده» عن عبد الله قال: السَّبعُ الطُّوَل مِثلُ التوراة، والمِئونَ مِثلُ الإنجيل، والمَثاني مِثلُ الزَّبور، وسائرُ القرآنِ بعدُ فَضْل[٣].

وأسند عن الحارث[٤]، عن عليٍّ رضي الله عنه ـ وخرَّجه الترمذيُّ[٥] ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستكونُ فِتَنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظلِم». قلت: يارسولَ الله، وما المَخرجُ منها؟ قال: «كتابُ الله تبارك وتعالى، فيه نَبأُ مَن قَبلَكُم، وخبرُ ما بَعدَكُم، وحُكْمُ ما بينَكم، هو الفَصْلُ، ليس بالهَزْل، مَن تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ، قَصَمَه اللهُ، ومَنِ ابتَغَى الهُدَى في غيره، أضلَّه اللهُ، هو حَبْلُ اللهِ المتينُ، ونورُه المبينُ، والذِّكْرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزِيغُ به[٦] الأهواءُ، ولا تَلتَبِسُ به الألسنةُ، ولا تَتَشعَّبُ معه[٧] الآراءُ، ولا يَشبَعُ منه العلماءُ، ولا يَمَلُّه الأتقياءُ، ولا

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف. وفيه أيضاً محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو ضعيف جداً. وذكر الذهبي هذا الحديث في الميزان ٣/ ٥١٥ وقال: حسَّنَه الترمذي، فلم يُحسِن. وقوله: فضلُ كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه، ذكره البخاري في خلق أفعال العباد ص١٩ ومحمد بن نصر المروزي (كما في مختصر قيام الليل ص٧٥) من قول أبي عبد الرحمن السُّلمي، وزاد ابنُ نصر نسبته إلى شهر بن حوشب. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٦٦: بيَّن العسكري أنها من قول أبي عبد الرحمن السُّلمي.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، التميمي، صاحب التصانيف، توفي سنة (٢٥٥هـ). السير ١٢/ ٢٢٤.

(٣) سنن الدارمي (٣٤٠٠)، وأخرج الإمام أحمد نحوه في المسند (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً، وإسناده حسن.
وسيتكلم المصنف على السبع الطول، والمثاني، آخر الباب الأول من سورة الفاتحة، وفي تفسير الآية (٨٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

(٤) سنن الدارمي (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). الحارث: هو ابنُ عبد الله الأعور، الهمداني.

(٥) سنن الترمذي (٢٩٠٦)، وهو في مسند أحمد (٧٠٤).

(٦) في (ظ): فيه.

(٧) في (د) و(ز): به.

يَخلُقُ[١] عن[٢] كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبُه، وهو الذي لم تَنتَهِ الجنُّ إذ سَمِعَتْه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، من عَلِمَ عِلمَه سَبَق، ومَن قال به صَدَق، ومَن حَكَمَ به عَدَل، ومَن عَمِلَ به أُجِر، ومَن دَعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم» خُذها إليك يا أعوَر[٣].

الحارث: رماه الشعبيُّ[٤] بالكذب، وليس بشيء، ولم يَبِنْ مِن الحارث كذِب، وإنما نُقِمَ عليه إفراطُه في حبِّ عليٍّ وتفضيلُه له على غيره. ومن هاهنا - والله أعلم - كذَّبه الشعبيُّ[٥]، لأن الشعبيَّ يذهَبُ إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنه أوَّلُ مَن أسلم. قال أبو عمر بنُ عبد البَرِّ[٦]: وأظنُّ الشعبيَّ عُوقب لقوله في الحارث الهَمدانيِّ: حدَّثني الحارثُ، وكان أحدَ الكذَّابين.

وأسند أبو بكر محمدُ بنُ القاسم بنِ بشار بن محمد الأنباريُّ[٧] النحويُّ اللغويُّ في كتاب «الردِّ[٨] على مَن خالف مصحفَ عثمان»، عن عبد الله بن مسعود قال: قال

---

(١) قال النووي في التبيان في الفصل العاشر منه: يَخلُق، بضم اللام، ويجوز فتحها، والياء فيهما مفتوحة، ويجوز ضم الياء مع كسر اللام، يقال: خَلُقَ الشيءُ، وخَلَقَ، وخَلِقَ، وأخلَقَ: إذا بَلِيَ.

(٢) في (م): على.

(٣) حديث ضعيف، فقد أعلَّه الترمذي بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وانظر علل الدارقطني ٣/ ١٣٧.

(٤) هو عامر بنُ شراحيل بن عبد، أبو عمرو الهمداني، رأى عليًّا رضي الله عنه وصلى خلفه، وروى عن عدد من الصحابة. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٤/ ٢٩٤.

(٥) وكذَّبه أيضا أبو إسحاق، وعلي ابنُ المديني، وضعَّفه أبو زرعة، وأبو حاتم، وابنُ عدي، والدارقطني. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال في موضع آخر: ليس به بأس. ووثَّقه ابنُ مَعِين، وأحمد بن صالح المصري. كذا في التهذيب ٢/ ٢٦٤.

(٦) في جامع بيان العلم ص٤٤٥ وتمام القصة فيه. وابنُ عبد البَرِّ: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البَرِّ، أبو عمر، النَّمَريُّ، الأندلسيُّ، القُرطبيُّ، المالكيُّ، صاحب التمهيد و الاستذكار وغيرهما. توفي سنة (٤٦٣هـ). السير ١٨/ ١٥٣.

(٧) كذا نسبه القرطبي، والذي في أغلب المصادر: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن، وهو من أئمة القراءة والأدب، توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٧٤. وكتابُ الردّ الذي ذكره المصنف له لم يصلنا، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست ص٨٢، وياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ٣١٣، والداودي في طبقات المفسرين ٢/ ٢٢٩، وغيرهم.

(٨) في النسخ الخطية: الرد له، والمثبت من (م).

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ مأدُبَةُ الله، فتعلَّموا من مَأدُبَتِهِ ما استطعتُم، إنَّ هذا القرآنَ حَبْلُ الله، النورُ المبينُ[١]، والشفاءُ النافعُ، عِصمةٌ لمن[٢] تمسَّك به، ونجاةٌ لمن[٢] اتَّبعه، لا يَعْوَجُّ فيُقوَّم، ولا يزيغُ فيُستَعتب، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يَخلُق عن كثرة الرَّدِّ، فاتلوه، فإنَّ الله يأجُركم على تلاوته بكل حرف عشرَ حسنات، أما إني[٣] لا أقول: «الم» حَرفٌ، ولا أُلْفِيَنَّ أحدَكم واضعاً إحدى رِجلَيه يَدَعُ أن يقرَأ سورة البقرة، فإنَّ الشيطانَ يَفِرُّ من البيتِ الذي تُقرَأُ فيه سورةُ البقرة، وإنَّ أصفَرَ البيوتِ لَجوفٌ أصفرُ من[٤] كتاب الله»[٥].

وقال أبو عبيد في «غريبه»[٦] عن عبد الله قال: إن هذا القرآنَ مَأدُبَةُ الله، فمن دخَلَ فيه فهو آمِن. قال: وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ، شَبَّه القرآنَ بصنيعٍ صنعَه اللهُ عزَّ وجلَّ للناس، لهم فيه خيرٌ ومنافع، ثم دعاهم إليه. يقال: مَأدُبة ومَأدَبة، فمن قال: مَأدُبة، أرادَ الصنيعَ يصنعُه الإنسانُ، فيدعو إليه الناسَ. ومَن قال: مَأدَبَة، فإنه يذهَبُ

---

(١) في (م): وهو النور المبين.

(٢) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ).

(٣) في (ظ): ألا إني، وفي (د): أما أنا.

(٤) في (م): وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من. . .

(٥) اختلف في رفعه ووقفه، والصواب أنه موقوف من قول ابن مسعود رضي الله عنه فيما ذكر الدارقطني وغيره. وقوله: «اتلوه، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: الم حرف» له حكم المرفوع، لأنه مما لايقال بالرأي، وسيكرره المصنف بنحوه قريباً (ص١٤). وقوله: «إن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه سورةُ البقرة» له شاهد صحيح من حديث أبي هريرة رفعه: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم (٧٨٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢١). وسنورد بعض أهم مصادر الحديث إجمالاً (دون تفصيل فيمن أخرجه بتمامه، أو مقطَّعاً، أو مرفوعاً، أو موقوفاً، بغية الاختصار)، فهو عند عبد الرزاق في مصنفه (٥٩٩٣) و(٥٩٩٨) و(٦٠١٧)، وأبي عبيد في فضائل القرآن ص٢١ و٢٥ و٢٦ و٣٢، وابن أبي شيبة ١٠/٤٦١ و٤٦٢ و٤٨٢ ـ ٤٨٣ و٤٨٤ و٤٨٦، والدارمي (٣٣٠٧) و(٣٣٠٨) و(٣٣١٥) و(٣٣٢٢) و(٣٣٧٥) و(٣٣٧٧) و(٣٣٧٩)، والترمذي (٢٩١٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٣٣ ـ ١٠٧٣٥)، والدارقطني في العلل ٥/٣٢٦، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٥).

(٦) غريب الحديث ٤/١٠٧ ـ ١٠٨. وأبو عبيد: هو القاسم بن سلّام، وله من الكتب أيضاً: الأموال، وفضائل القرآن، والطَّهور، وغيرها. توفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). السير ١٠/٤٩٠.

به إلى الأدب، يجعلُه «مَفْعَلَة» من الأدَب، ويحتجُّ بحديثه الآخر: «إن هذا القرآنَ مَأدَبةُ الله عزَّ وجلَّ، فتعلَّموا من مَأدَبته». وكان الأحمر[(١)] يجعلُهما[(٢)] لغتين بمعنًى واحد، ولم أسمع أحداً يقول هذا غيرَه. والتفسيرُ الأولُ أعجبُ إليَّ.

وروى البخاريُّ عن عثمانَ بنِ عفَّان، عن النبيِّ ﷺ قال: «خَيرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ»[(٣)].

وروى مسلمٌ، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يَقرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُترُجَّة، رِيحُها طيِّب، وطَعْمُها طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يقرَأُ القرآنَ مَثَلُ التمرة، لا ريحَ لها، وطَعْمُها حُلْوٌ[(٤)]، ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرَأُ القرآنَ مَثَلُ الرَّيْحانة، ريحُها طيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يقرَأُ القرآنَ، كَمَثَل الحَنظَلة، لا ريحَ لها، وطَعْمُها مُرٌّ». وفي رواية: «مَثَلُ الفاجِر» بدل «المنافق»[(٥)].

وقال البخاريُّ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يقرَأُ القرآنَ، ويعملُ به كالأُتْرُجَّة[(٦)]، طَعْمُها طَيِّبٌ، ورِيحُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يقرَأُ القرآنَ كمَثَل التمرة» وذكر الحديث[(٧)].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ: وقد أخبرنا أحمدُ بنُ يحيى الحلوانيُّ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا هشيم (ح) وأنبأنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا هُشَيم، عن العوَّام بن حَوْشَب، أن أبا عبد الرحمن السُّلَميَّ، كان إذا ختَم عليه الخاتِمُ القرآنَ،

---

(١) هو عليُّ بن المبارك، وقيل: عليُّ بن الحسن، شيخ العربية، تلميذ الكسائي. توفي سنة (١٩٤هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ٩٢.

(٢) في (ظ): يجعلها.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٢٧)، وهو في مسند أحمد (٤١٢).

(٤) في (ظ): طيب.

(٥) صحيح مسلم (٧٩٧)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٤٩). قوله: الأُترجّة، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٦٦: هو بضم الهمزة والراء، بينهما مثناة ساكنة، وآخره جيم ثقيلة، وقد تخفف، ويزاد قبلها نون ساكنة، ويقال بحذف الألف مع الوجهين.

(٦) في (م): يقرأ القرآن كمثل الأترجة.

(٧) صحيح البخاري (٥٠٥٩).

أجلَسه بين يديه، ووضَع يده على رأسه، وقال له: ياهذا، اتقِ الله، فما أعرِفُ أحداً خيراً منك إنْ عَمِلْتَ بالذي عَلِمْتَ.

وروى الدارميُّ، عن وَهْب الذِّمارِيِّ[1] قال: مَنْ آتاهُ اللهُ القرآنَ، فقام به آناءَ الليل، وآناءَ النهار، وعَمِلَ بما فيه، وماتَ على الطاعة، بعثَه اللهُ يومَ القيامة مع السَّفَرَةِ والأحكام. قال سعيدٌ[2]: السَّفَرة: الملائكة، والأحكامُ: الأنبياء[3].

وروى مسلم عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهِرُ بالقرآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَة، والذي يقرَأُ القرآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران»[4]. التَّتَعْتُعُ: التردُّدُ في الكلامِ عِيًّا وصعوبة، وإنما كان له أجرانِ من حيثُ التلاوةُ، ومن حيثُ المشقَّةُ. ودرجاتُ الماهر فوق ذلك كلِّه، لأنه قد كان القرآنُ مُتَعْتَعاً عليه، ثم تَرَقَّى عن ذلك إلى أن شُبِّه بالملائكة. والله أعلم[5].

وروى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرَأَ حَرْفاً مِن كتابِ الله، فله به حَسَنةٌ، والحَسَنةُ بعَشر أمثالها، لا أقول «الم» حَرْفٌ، ولكن أَلِفٌ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ». قال: حديثٌ حَسنٌ صحيح، غريب من هذا الوجه، وقد رُوِيَ موقوفاً[6].

وروى مسلم عن عُقبةَ بن عامر قال: خرَج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيُّكم يُحِبُّ أن يَغدُوَ كلَّ يومٍ إلى بُطْحانَ، أو إلى العَقيق، فيأتيَ منه بناقتين كَوْمَاوَيْن في غير إثم، ولا قطيعةِ[7] رَحِم؟». فقلنا: يارسول الله، كلُّنا نحبُّ ذلك، قال: «أفلا يغدُو أحدُكم إلى المسجد، فيَعلَمَ، أو يَقرَأَ آيتَينِ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) هو وهب بن منبّه، أبو عبد الله، الصنعاني، يروي الكثير من الإسرائيليات، مات سنة (١١٠هـ). وقيل: سنة (١١٤). السير ٤/ ٥٤٤.

(٢) في النسخ الخطية: سعد، وهو خطأ، وهو سعيد بن عبد العزيز التنوخي، أحد رجال السند.

(٣) هو في سنن الدارمي (٣٣٦٩) بأتم منه، وهو مقطوع.

(٤) صحيح مسلم (٧٩٨)، وهو أيضاً عند البخاري (٤٩٣٧)، وفي مسند الإمام أحمد (٢٤٢١١).

(٥) المفهم ٢/ ٤٢٥.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٠)، وقد ذكره المصنف مطولاً ص١١ ـ ١٢.

(٧) في (م): قطع.

خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربع، ومِن أعدادِهنَّ من الإبل»[(١)].

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مُسلم كُربَةً من كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ الله عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومَن يَسَّرَ على مُعْسِر، يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن سَتَرَ مسلماً، سَتَرَه اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عَونِ العبد ما كانَ العبدُ في عَونِ أخيه، ومَن سلَكَ طريقاً يَلتَمِسُ فيه عِلماً، سَهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتَمَعَ قومٌ في بيت من بيوتِ الله، يتلُون كتابَ الله، ويَتَدارَسُونه بينهم، إلا نَزَلَت عليهمُ السكينةُ، وغَشِيَتهُم الرحمةُ، وحفَّتهمُ الملائكةُ، وذَكَرَهمُ اللهُ فيمَن عنده، ومَن بَطَّأَ[(٢)] به عَمَلُه، لم يُسرِعْ به نَسَبُه»[(٣)].

وروى أبو داودَ، والنسائيُّ، والدارميُّ، والترمذيُّ، عن عقبةَ بن عامر قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «الجاهِرُ بالقُرآن كالجاهِر بالصَّدَقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصَّدَقة». قال الترمذيُّ: حديث حسن غريب[(٤)].

وروى الترمذيُّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ صاحبُ القرآن[(٥)] يومَ القيامة، فيقول: يارَبِّ حَلِّهِ، فيُلبَسُ تاجَ الكرامة، ثم يقول: ياربِّ زِده، فيُلبَسُ حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: ياربِّ ارْضَ عنه، فيَرضى عنه، فيقال له: اقرَأ، وارقَ، ويُزاد بكلِّ آية حَسَنة». قال: حديث صحيح[(٦)].

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُقال لصاحبِ

---

(١) صحيح مسلم (٨٠٣)، وهو في مسند أحمد (١٧٤٠٨). قوله: بُطحان والعقيق: هما واديان بظاهر المدينة. وقوله: «كوماوَيْن»: هو مثنى كوماء، يعني الناقة العظيمة السَّنام.

(٢) في (م): أبطأ.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٩٩)، وهو في مسند أحمد (٧٤٢٧).

(٤) سنن أبي داود (١٣٣٣)، والسنن الصغرى للنسائي ٣/ ٢٢٥ و ٥/ ٨٠ والكبرى (١٣٧٨) و (٢٣٥٣) وسنن الترمذي (٢٩١٩)، ولم نجده عند الدارمي، وهو في مسند أحمد (١٧٣٦٨).

(٥) كذا في النسخ الخطية، وتحفة الأحوذي ٨/ ٢٢٧. ووقع في مطبوع الترمذي وعارضة الأحوذي ١١/ ٣٧ وتحفة الأشراف ٩/ ٤٢٨: يجيء القرآن.

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٥).

القرآن: اقْرَأ، وارْتَقِ، ورتِّل كما كنتَ تُرتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلَتَك عند آخرِ آية تقرؤها»[١].

وأخرجه ابنُ ماجه في «سننه» عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُقال لصاحبِ القرآنِ إذا دخَلَ الجنةَ: اقرَأ، واصْعَد، فيَقرَأُ، ويَصعَدُ بكلِّ آية درجة، حتى يقرَأَ آخِرَ شيء معه»[٢].

وأسند أبو بكر الأنباريُّ عن أبي أمامةَ الحمصيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن أُعطِيَ ثُلُثَ القرآن، فقد أُعطيَ ثُلثَ النبوَّة، ومَن أُعطيَ ثُلُثي القرآن، فقد أُعطيَ ثُلُثي النبوَّة، ومَن قَرَأَ القرآنَ كلَّه، فقد أُعطيَ النبوَّةَ كلَّها، غيرَ أنه لا يُوحَى إليه، ويُقال له يوم القيامة: اقْرَأ، وارْقَ، فيَقرَأُ آية، ويصعدُ درجة، حتى يُنجِزَ ما معه من القرآن، ثم يقال له: اقبِض، فيَقبِضُ، ثم يقال له: اقبض، فيقبض[٣]، ثم يقال له: أتدري ما في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخُلْدُ، وفي اليُسرىٰ النعيمُ»[٤].

حدثنا إدريسُ، عن خَلَف[٥]، حدثنا إسماعيلُ بنُ عيَّاش، عن تمَّام، عن

---

(١) سنن أبي داود (١٤٦٤)، وهو في مسند أحمد (٦٧٩٩).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (١١٣٦٠).

(٣) قوله: «ثم يقال له: اقبض، فيقبض» لم يكرر في (م) و(د)، وهو ثابت في (ظ) و(ز) والمصادر، وجاء عند الأنباري وغيره: فيقبض بيده، بزيادة لفظ: «بيده» في الموضعين.

(٤) هو عند أبي بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١١، وعنده: «من قرأ» بدل: «من أُعطيَ» في كل المواضع. وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٥٠)، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٥٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٨٣، من طريق بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، به. وبشرُ بن نُمير، قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جداً. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: هذا الحديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.
وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (١٤)، والرازي (٤٩)، من طريق مسلمة بن عُلَيّ الخُشني، عن زيد بن واقد، عن مكحول، عن أبي أمامة. ومسلمة بن عُلَي متروك، ومكحول لم يثبت له سماع من أبي أمامة.

(٥) تحرف في النسخ و(م) إلى: حدثنا إدريس بن خلف، والصواب ما أثبتناه. إدريس: هو ابن عبد الكريم الحدَّاد، شيخ ابن الأنباري، وخَلَف: هو ابن هشام بن ثعلب البغدادي، أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سُليم، عن حمزة. طبقات القراء ١/ ١٥٤ و٢٧٢ ـ ٢٧٣.

الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن أخَذَ ثُلُثَ القرآنِ وعَمِلَ به، فقد أخَذَ أمرَ ثُلُثِ[(١)] النبوَّة، ومَن أخَذَ نِصفَ القرآن، وعَمِلَ به، فقد أخَذَ أمرَ نِصفِ[(٢)] النُّبوَّة، ومَن أخَذَ القرآنَ كُلَّه، فقد أخذَ النبوَّةَ كلَّها»[(٣)].

قال: وحدثنا محمدُ بنُ يحيى المَروَزيُّ، أخبرنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ حدثنا الحُسين[(٤)] بنُ محمد، عن حفص، عن كثير بن زاذان، عن عاصم بن ضَمرة، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قَرَأَ القرآنَ وتلاه وحَفِظَهُ، أدخلَه اللهُ الجنةَ، وشَفَّعَهُ في عَشَرَة من أهلِ بيتِهِ، كُلٌّ قد وَجَبت له النار»[(٥)].

وقالت أمُّ الدَّردَاء[(٦)]: دخلتُ على عائشةَ رضي الله عنها، فقلت لها: ما فَضلُ مَن قَرَأَ القرآنَ على مَن لم يقرأه ممَّن دخلَ الجنة؟ فقالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ عددَ آيِ القرآنِ على عَدَدِ دَرَج الجنة، فليس أحدٌ دخَلَ الجنةَ أفضلَ ممن قَرَأَ القرآن. ذكره أبو محمد مكيٌّ[(٧)].

وقال ابنُ عباس: مَن قَرأَ القرآنَ واتَّبعَ ما فيه، هداه الله من الضَّلالة، ووقاه يومَ القيامة سوءَ الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ

---

(١) في (ظ): ثلث أمر.

(٢) في (د) و(ز): أخذ نصف.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٩٢)، وهو مرسل. تمَّام: هو ابن نَجيح الأسَدي. والحَسَن: هو البصري.

(٤) في (د) و(ز): الحسن.

(٥) إسناده ضعيف. حفص ـ وهو ابنُ سليمان الأسدي، القارىء، صاحب عاصم ـ ضعيف الحديث، وكثير بن زاذان: مجهول. وأخرجه أحمد (١٢٦٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن ماجه (٢١٦). قال الترمذي: ليس إسناده بصحيح. اهـ وقد رُوي من وجه آخر عن عائشة، وهو منكر. تاريخ بغداد ٤/ ٨١ و٤٣٠ و١١/ ٣٩٥.

(٦) هُجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية، الدمشقية، وهي أم الدرداء الصغرى، اشتهرت بالعلم والعمل والزُّهد، وليس لها صحبة، ماتت بعد سنة (٨١هـ). السير ٤/ ٢٧٧.

(٧) في الرعاية ص٦٤، ومكي: هو ابن أبي طالب، أبو محمد القيسي، القيرواني، ثم القرطبي، المقرىء، صاحب التصانيف، توفي سنة (٤٣٧هـ). السير ١٧/ ٥٩١.
وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٦، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص٧٤، والآجري في أخلاق حملة القرآن (١١)، من طريق أم الدرداء، به.

وَلَا يَشْقَىٰ﴾[١] [طه: ١٢٣]. قال ابن عباس: فضَمِنَ الله لمن اتَّبعَ القرآنَ ألَّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يَشقَى في الآخرة. ذكره مكيٌّ أيضاً[٢].

وقال الليث[٣]: يُقال: ما الرحمةُ إلى أحد بأسرعَ منها إلى مستمع القُرآن، لقول الله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. و «لَعَلَّ» من الله واجبةٌ[٤].

وفي «مُسنَد» أبي داودَ الطَّيالسيِّ[٥] ـ وهو أولُ مُسنَد أُلِّفَ في الإسلام[٦] ـ عن عبدِ الله بنِ عمرو، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَن قامَ بِعَشرِ آيات، لم يُكتَب من الغافلين، ومَن قامَ بمئة آية، كُتِبَ من القانتين، ومن قامَ بألفِ آية، كُتِبَ من المُقَنطِرِين»[٧].

والآثار في معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يُكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في ذلك

روى البخاريُّ عن قتادةَ[٨] قال: سألتُ أنساً عن قراءةِ رسولِ الله ﷺ، فقال: كان

---

(١) الرعاية ص٦٤، وأخرجه عبد الرزاق (٦٠٣٣)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٧، وابن نصر المروزي كما في مختصر قيام الليل ص٧٦، والحاكم ٢/ ٣٨١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) في الرعاية ص٦٤ و٦٥، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧١، وابن نصر المروزي ص٧٦، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٨٤).

(٣) ابنُ سعد بنِ عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمي، عالم الديار المصرية، مات سنة (١٧٥هـ). السير ٨/ ١٣٦.

(٤) الرعاية ص٦٦.

(٥) سليمان بن داود بن الجارود، الفارسي، ثم الأسدي، الحافظ، مات سنة (٢٠٤هـ). السير ٩/ ٣٧٨.

(٦) في هذا الكلام نظر؛ قال السيوطي في تدريب الراوي ١/ ١٩٠: قيل: الذي حمل قائلَ هذا القولِ عليه تقدُّمُ عصر أبي داود في أعصار مَنْ صَنَّفَ المسانيد، فظنَّ أنه هو الذي صنَّفه، وليس كذلك، فإنما هو من جمع بعض الحفاظ الخُراسانيِّين، جمعَ فيه ما رواه يونس بن حبيب خاصة عنه، ويشبه هذا مسند الشافعي، فإنه ليس تصنيفَه، وإنما لقطه بعض الحفاظ النيسابوريّين من مسموع الأصمّ من الأمّ، وسمعه عليه.

(٧) لم نجده في مسند الطيالسي، وأخرجه أبو داود السجستاني (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان (٢٥٧٢)، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢١٩٤)، وهو حديث حسن.

(٨) هو ابنُ دِعامة، أبو الخطاب السدوسي، البصري، الضرير، قدوة المفسرين والمحدثين. مات سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٢٦٩.

يَمُدُّ مَدًّا. [ثم] قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمدُّ بسم الله، ويمدُّ بالرحمن، ويمدُّ بالرحيم[١].

وروى الترمذيُّ عن أمِّ سَلَمَةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يُقَطِّعُ قراءتَه[٢]، يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقفُ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، وكان يقرأ[٣]: ﴿مَلِكِ يومِ الدِّين﴾. قال: حديث غريب[٤]. وأخرجه أبو داودَ بنحوه[٥].

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أحسنُ الناسِ صَوتاً مَن إذا قرأ[٦]، رأيتَه يخشى الله تعالى»[٧].

ورُوي عن زياد النُّمَيرِيِّ أنه جاء مع القرَّاء إلى أنس بن مالك، فقيل له: اقرأ، فرفعَ صوتَه وطرَّب، وكان رفيعَ الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه ـ وكان على وجهه

(١) صحيح البخاري (٥٠٤٥) و (٥٠٤٦) وفيه: «يمدُّ ببسم الله» واستدركنا لفظة «ثم» منه. وهو في مسند أحمد (١٢١٩٨). وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٩١ أن المرادَ بمد القراءة المدُّ الأصلي (يعني الطبيعي).

(٢) في (ظ): القراءة.

(٣) في (م): يقرؤها.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٢٧)، وهو في مسند أحمد (٢٦٤٥١) و(٢٦٥٨٣).

(٥) سنن أبي داود (٤٠٠١).

(٦) في (ظ): قرأ القرآن.

(٧) حديث ضعيف. أخرجه عَبد بنُ حُميد في المنتخب (٨٠٢)، والبزار (٢٣٣٦) (زوائد)، وابن نَصر المَرْوَزي ـ كما في مختصر قيام الليل ص٥٩ ـ والطبراني في الأوسط (٢٠٩٥)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٦٩٣، وتمَّام الرازي في فوائده (١٣١٩) (الرَّوض البسام)، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٢٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٨ من حديث ابن عمر. وأخرجه ابنُ ماجه (١٣٣٩)، والآجُرّي في أخلاق حَمَلَة القرآن (٨٩) من حديث جابر. وأخرجه ابن عدي ٢/ ٦٩٣، وأبو نُعَيم في الحِلية ٤/ ١٩، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢١٤٥) من حديث ابن عباس. وأخرجه أبو نُعيم أيضاً في أخبار أصبهان ٢/ ٥٨ من حديث عائشة، وأخرجه ابنُ المبارك في الزهد (١١٣)، وعبد الرزاق (٤١٨٥)، وابن سلاَّم في فضائل القرآن ص٨٠، وسعيد بن منصور في تفسيره (٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٤، والدارمي (٣٤٨٩)، وابن عدي ٢/ ٦٩٣، والبيهقي (٢١٤٦) من حديث طاوس مرسلاً. وأخرجه ابن المبارك (١١٤)، والآجري (٩٠) من حديث الزهري مرسلاً. قال ابن عدي: والصحيح مرسل عن طاووس.

خِرقةٌ سوداء ـ فقال: ياهذا، ما هكذا كانوا يفعلون ! وكان إذا رأى شيئاً يُنكره، كشفَ الخِرقة عن وجهه[١].

ورُوي عن قيس بن عُبَاد[٢] أنه قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يكرهون رفعَ الصوتِ عندَ الذِّكرِ[٣].

وممن رُوي عنه كراهةُ رفعِ الصوت عند قراءةِ القرآن: سعيدُ بنُ المُسيِّب[٤]، وسعيدُ بنُ جُبَير[٥]، والقاسمُ بنُ محمد[٦]، والحسنُ[٧]، وابنُ سِيرِين[٨]، والنَّخَعيُّ[٩]، وغيرُهم[١٠].

وكَرِهه مالكُ بنُ أنس، وأحمدُ بنُ حنبل، كلُّهم كرهَ رَفعَ الصوتِ بالقرآن، والتَّطريبَ فيه.

ورُويَ عن سعيد بن المسيّب أنه سمع عمرَ بنَ عبد العزيز يَؤُمُّ الناس، فَطرَّبَ في قراءته، فأرسلَ إليه سعيدٌ يقول: أصلحكَ اللهُ، إنَّ الأئمةَ لا تقرأُ هكذا. فتركَ عمرُ التطريبَ بعدُ[١١].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٤٦٦، وزياد النُّميري ـ وهو ابن عبد الله ـ ضعيف.

(٢) القيسي، البصري، قدم المدينة في خلافة عمر. وهو من رجال التهذيب.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٠.

(٤) أبو محمد القرشي، المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، مات سنة (٩٤هـ). السير ٤/ ٢١٧.

(٥) أبو محمد الأسدي، الوالبي، مولاهم، الكوفي، الحافظ، المفسر، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ). السير ٤/ ٣٢١.

(٦) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي، التميمي، المدني، الحافظ، أحد فقهاء المدينة. مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥/ ٥٣.

(٧) ابن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، مات سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٥٦٣.

(٨) محمد، أبو بكر الأنصاري، البصري، مولى أنس بن مالك، مات سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٦٠٦.

(٩) إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران النخعي، اليماني، ثم الكوفي، فقيه العراق. مات سنة (٩٦هـ). السير ٤/ ٥٢٠.

(١٠) فضائل القرآن لابن سلّام ص٨٢ ـ ٨٤، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٠.

(١١) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٤٨٤.

ورُوي عن القاسم بنِ محمد أن رجلاً قرأ في مسجد النبيِّ ﷺ، فَطَرَّب، فأنكرَ ذلك القاسمُ، وقال: يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢] الآية[١].

ورُوِيَ عن مالك أنه سُئل عن النَّبْر في قراءة القرآن[٢] في الصلاة، فأنكر ذلك، وكَرِهه كراهةً شديدة، وأنكر رَفعَ الصوت به.

ورَوى ابنُ القاسم[٣] عنه، أنه سُئِلَ عن الألحان في الصلاة، فقال: لا يُعجبُني، وقال: إنَّما هو غِناءٌ يَتَغَنَّوْنَ به ليأخذوا عليه الدَّراهم.

وأجازت طائِفةٌ رفعَ الصوت بالقرآن، والتطريبَ به؛ وذلك لأنه إذا حَسَّنَ الصوتَ به، كان أوقعَ في النفوس، وأسمعَ في القلوب.

واحتجُّوا بقوله عليه السلام: «زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكم» رواه البَرَاء بن عازب. أخرجه أبو داود والنَّسائي[٤]. وبقوله عليه السلام: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن». أخرجه مسلم[٥]. وبقول أبي موسى للنبي ﷺ: لو أعلمُ[٦] أنك تستمِعُ لقراءتي لَحَبَّرْتُهُ لك تَحْبِيراً[٧]. وبما رواه عبدُ الله بن مُغَفَّل قال: قرأ رسولُ الله ﷺ عامَ الفَتح في مسير له سورةَ الفتح على راحلته، فَرَجَّعَ في قراءته[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٤٦٦.

(٢) يعني رفع الصوت به.

(٣) هو عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العُتَقي مولاهم، المصري، صاحب مالك، عالم الديار المصرية ومفتيها، توفي سنة (١٩١هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٠.

(٤) سنن أبي داود (١٤٦٨)، والسنن الصغرى للنسائي ٢/ ١٧٩، وهو في مسند أحمد (١٨٤٩٤)، وهو حديث صحيح.

(٥) ليس في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٤٧٦)، وأبو داود (١٤٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) في (ظ): علمتُ.

(٧) قطعة من حديث أخرجه ابن حبان (٧١٩٧). وأصل الحديث في صحيح البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، وأخرجه أحمد (٨٦٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٨) أخرجه أحمد (١٦٧٨٩)، والبخاري (٥٠٤٧)، ومسلم (٧٩٤)، وسيذكر المصنف معنى الترجيع في القراءة ص٣٠.

وممن ذهبَ إلى هذا أبو حنيفة وأصحابُه، والشافعيُّ، وابنُ المبارك[١]، والنَّضْرُ بنُ شُمَيل[٢]، وهو اختيارُ أبي جعفر الطبري[٣]، وأبي الحسن بن بَطّال[٤]، والقاضي أبي بكر بن العربي[٥]، وغيرِهم.

قلت: القولُ الأوَّل أصحُّ لما ذكرناه، ويأتي.

وأما ما احتجّوا به من الحديث الأول، فليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب، أي: زَيِّنوا أصواتكم بالقرآن.

قال الخَطابي[٦]: وكذا فسَّره غيرُ واحد من أئمة الحديث: زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن، وقالوا: هو من باب المقلوب، كما قالوا: عَرَضتُ الناقةَ على الحَوض، وإنما هو: عرضتُ الحَوضَ على النَّاقة[٧]. قال: ورواه مَعمَر، عن منصور، عن طلحة، فقدَّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح.

قال الخطَّابي: ورواه طلحة، عَن عبد الرحمن بن عَوْسَجة، عن البَرَاء أنَّ رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم»[٨]. أي: الهَجُوا بقراءته، واشغَلُوا به

---

(١) هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن الحنظلي، المروزي، الحافظ، عالم زمانه، توفي سنة (١٨١هـ). السير ٨/ ٣٧٨.

(٢) أبو الحسن المازني، البصري، الحافظ، نزيل مرو وعالمُها، توفي سنة (٢٠٤هـ) السير ٩/ ٣٢٨.

(٣) محمد بن جرير، صاحب التفسير، والتاريخ، وتهذيب الآثار. توفي سنة (٣١٠هـ). السير ١٤/ ٢٦٧.

(٤) هو علي بن خلف بن بطّال القرطبي، يعرف بابن اللَّجّام، شارح صحيح البخاري، توفي سنة (٤٤٩هـ). السير ١٨/ ٤٧.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي، الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، له: عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، وأحكام القرآن. توفي سنة (٥٤٣هـ). السير ٢٠/ ١٩٧.

(٦) في معالم السنن ١/ ٢٩٠. والخطَّابي: هو أبو سليمان، حَمْدُ بنُ محمد بن إبراهيم، البُستي، الحافظ، اللغوي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٨٨هـ). السير ١٧/ ٢٣.

(٧) اضطربت العبارة في (ز)، ووقعت مقلوبة في (م) والتذكار للمصنف ص١٤٨. والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الموافق لمعالم السنن ١/ ٢٩٠، وانظر الصحاح واللسان (عرض).

(٨) كذا قال القرطبي، وهو وهم منه رحمه الله، فإن الخطابي بعد أن أشار إلى رواية طلحة، وذكر أن فيها تقديم الأصوات على القرآن، أخرج روايته، فقال: أخبرناه محمد بن هاشم، حدثنا الدَّبَري، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء أن رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا أصواتكم بالقرآن». فجعلهما القرطبي روايتين، وقال أيضاً: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»، وصوابُه في هذا الموضع لفظ: «زيِّنوا أصواتكم بالقرآن».

أصواتَكُم، واتَّخِذوه شعاراً وزينة.

وقيل: معناه الحَضُّ على قراءة القرآن والدُّؤوب عليه. وقد رُويَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «زَيِّنُوا أصواتَكم بالقرآن»[١].

ورُويَ عن عمر أنه قال: حَسِّنُوا أصواتَكم بالقرآن[٢].

قلتُ: وإلى هذا المعنى يرجعُ قولُه عليه السلام: «ليس منَّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن». أي: ليس منَّا من لم يُحَسِّن صَوتَه بالقرآن، كذلك تأوَّلَه عبدُ الله بنُ أبي مُلَيكَةَ[٣]. قال عبد الجبار بنُ الوَرد: سمعتُ ابنَ أبي مُلَيكَة يقول: قال عُبيد الله[٤] بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لُبَابة[٥]، فاتَّبَعناه حتى دخلَ بيتَه، فإذا رجلٌ رَثُّ الهيئة، فسمعتُه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس منَّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن». قال: فقلتُ لابنِ أبي مُلَيكة: يا أبا محمد، أرأيتَ إذا لم يكن حَسَنَ الصوت؟ قال: يُحَسِّنُهُ ما استطاع. ذكره أبو داود[٦].

وإليه يرجع أيضاً قولُ أبي موسى للنبيِّ ﷺ: إنِّي لو علمتُ أنَّك تستمعُ لقراءتي، لَحَسَّنتُ صوتي بالقرآن، وزيَّنتُه به[٧]، ورتَّلتُه. وهذا يدلُّ أنه كان يَهُذُّ في قراءته[٨] مع حُسنِ الصوت الذي جُبِل عليه. والتَّحبيرُ: التزيين والتَّحسين. فلو علم

(١) لم نجده بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، إنما أخرجَ ابنُ حبان (٧٥٠) حديثَ أبي هريرة بلفظ حديث البراء المذكور أعلاه: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم». وأخرجَ عبد الرزاق عن معمر (٤١٧٦) لفظَ: «زيِّنُوا أصواتكم بالقرآن» من حديث البراء أيضاً، وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك ١/ ٥٧١ و٥٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٦٤.

(٣) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُليكة، أبو بكر وأبو محمد، القرشي، التميمي، المكي، القاضي، توفي سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٨٨.

(٤) وقع في (م): عبد الله، وفي (ز): عبد الحق، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الصواب.

(٥) هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، صحابي مختلف في اسمه، فقيل: اسمه بَشِير، وقيل: رفاعة، مات في خلافة علي رضي الله عنه، وقيل غير ذلك. الإصابة ١١/ ٣٢٢.

(٦) سنن أبي داود (١٤٧١).

(٧) لفظة: به، من (د) و(ز).

(٨) أي: يسرع فيها. القاموس (هذَّ).

أنَّ النبيَّ ﷺ كان يسمعُه، لَمَدَّ في قراءته، ورتَّلَها، كما كان يقرأُ على النبيِّ ﷺ، فيكون ذلك زيادة في حُسن صوتِه بالقراءة. ومعاذ الله أن يتأوَّل على رسول الله ﷺ أن يقول: إن القرآن يُزَيَّن بالأصوات، أو بغيرها، فَمن تأوَّلَ هذا، فقد واقع أمراً عظيماً أن يُحوِجَ القرآنَ إلى من يُزَيِّنُهُ، وهو النُّور والضِّياء، والزَّيْنُ[1] الأعلى لمن أُلبِسَ بهجتَه، واستَنارَ بضيائه.

وقد قيل: إن الأمرَ بالتَّزيين اكتسابُ القراءات وتزيينُها بأصواتنا، وتقدير ذلك أي: زيِّنوا القراءةَ بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءةَ الفجر، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي: قراءته. وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمرو قال: إنَّ في البحر شياطينَ مَسْجُونةً، أوثقَها سليمانُ عليه السلام، يُوشِكُ أن تَخرُجَ، فتقرأَ على النَّاسِ قُرآناً[2]. أي: قراءةً.

وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بأشمَطَ عُنوانُ السجودِ به ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسبيحاً وقُرآنا[3]

أي: قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحاً، إلاَّ أن يُخرِجَ القراءةَ ـ التي هي التلاوةُ ـ عن حدِّها ـ على ما نبيِّنُه ـ فيمتنِع.

وقد قيل: إنَّ معنى «يتغنَّى به»: يستغني به، من الاستغناء الذي هو ضِدُّ الافتقار، لا من الغِناء؛ يقال: تغنَّيتُ وتغانيت، بمعنى: استغنيتُ. وفي «الصحاح»: تَغَنَّى الرجلُ، بمعنى استَغنَى، وأغنَاهُ الله. وتَغَانَوا، أي: استَغنَى بعضُهم عن بعض. قال

---

(١) في النسخ الخطية: الدين، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١٢. وهو موقوف على ابن عمرو رضي الله عنهما، وكان قد رَوَى عن أهل الكتاب، كما ذكر الذهبي في السير ٣/ ٨١، وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ١٢٠: هذا ونحوه لا يُتوصَّل إليه بالرأي والاجتهاد، بل بالسمع، والظاهر أن الصحابة إنما تستند في هذا للنبي ﷺ، مع أنه يحتمل أن يُحدِّثَ به عن بعض أهل الكتاب.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٤٦٩. قوله: الأشمط، يعني المختلط سوادُ شعرِه ببياض.

المغيرة بن حَبناء التميمي[1] وأجاد[2]:

كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حَياتَه ونحن إذا مِتنا أشدُّ تَغانِيا[3]

وإلى هذا التأويل ذهبَ سفيان بن عُيَينَة، ووَكيع بنُ الجرَّاح[4]، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وَقاص[5].

وقد رُوي عن سفيان أيضاً وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهَوَيه[6]، أي: يستغني به عماسواه من الأحاديث.

وإلى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[7] [العنكبوت: ٥١]. والمرادُ الاستغناءُ بالقرآن عن علم أخبار الأمم. قاله أهل التأويل.

وقيل: إن معنى يتغنى به: يتحزَّن به، أي: يَظهرُ على قارئه الحُزنُ ـ الذي هو ضدُّ السُّرور ـ عند قراءته وتلاوته، وليس من الغُنية؛ لأنه لو كان من الغُنية لقال: يَتَغانى

---

(١) من شعراء الدولة الأموية، له مدائح في المهلَّب بن أبي صُفرة وطلحة الطلحات. الشعر والشعراء ١/ ٤٠٦ و الأغاني ١٣/ ٨٤.

(٢) قوله: وأجاد، من (ظ).

(٣) نسبه صاحب اللسان إلى المغيرة بن حَبناء، ونسبه المبرِّد في الكامل ١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ونقله عنه البغدادي في شرح أبيات المغني ٤/ ٢٦٦، وذكر في ٤/ ٢٧٠ أن هذا البيت وقع في عدة أشعار لشعراء. وأوردهم.

(٤) أخرجه عنهما أبو داود (١٤٧٢). وسفيان بن عيينة: هو أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، انتهى إليه علو الإسناد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٨/ ٤٥٤.
ووكيع بن الجراح: هو أبو سفيان الرؤاسي، محدث العراق، له كتاب الزهد. توفي سنة (١٩٧هـ). السير ٩/ ١٤٠.

(٥) رواية سفيان لحديث سعد بن أبي وقاص عند أبي داود (١٤٧٠)، ورواية وكيع لحديث سعد عند أحمد (١٤٧٦)، وجاء أيضاً تفسير سفيان للتغني بالاستغناء في صحيح البخاري إثر روايته لحديث أبي هريرة (٥٠٢٨): «ما أذن الله لشيء....».

(٦) هو إسحاق بن إبراهيم، أبو يعقوب، سيد الحفاظ، صاحب المسند، وراهويه لقبٌ لُقِّب به أبوه، لأنه ولد في طريق مكة، توفي سنة (٢٣٨هـ). السير ١١/ ٣٥٨.

(٧) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، ولفظ الترجمة: باب من لم يتغن بالقرآن. وينظر الفتح ٩/ ٦٨.

به، ولم يقل: يتغنَّى به. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، منهم الإمام أبو [حاتم] محمد بنُ حِبَّان البُستي[١].

واحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يُصلِّي، ولصدرِه أزيزٌ كأزيز المِرجَل من البكاء[٢]. الأزيز، بزايين: صَوتُ الرعد وغَلَيانُ القِدر. قالوا: ففي هذا الخبر بيانٌ واضحٌ على أن المراد بالحديث التحزُّن. وعَضَدُوا هذا أيضاً بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لي[٣] النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ». فقرأتُ عليه سورةَ النساء، حتَّى إذا بلغتُ[٤]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٤١] فنظرتُ إليه، فإذا عيناه تَذْمَعان[٥].

فهذه أربعُ تأويلات، ليس فيها ما يدلُّ على القراءة بالألحان والترجيع فيها.

وقال أبو سعيد بنُ الأعرابي[٦] في قوله ﷺ: «ليس منَّا مَن لَم يَتَغَنَّ بالقرآن» قال: كانت العرب تُولَعُ بالغِناء والنَّشيد في أكثر أقوالها، فلمَّا نزلَ القرآنُ، أحبُّوا أن يكون القرآنُ هِجِّيراهم[٧] مكان الغِناء، فقال: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[٨].

التَّأويل الخامس: ما تأوَّلَه مَنِ استَدَلَّ به على التَّرجيع والتَّطريب، فذكر عمرُ بن شَبَّة[٩] قال: ذكرتُ لأبي عاصم النَّبيل[١٠] تأويلَ ابنِ عُيَينَة في قوله: «يتغنَّى»:

---

(١) في صحيحه بإثر الحديث (٧٥١) (الإحسان). وابنُ حِبَّان: هو الإمام الحافظ شيخ خراسان، توفي بسجستان سنة (٣٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٢١)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي ٣/ ١٣، وهو حديث صحيح.

(٣) لفظة: لي، من (ز) و(ظ).

(٤) في (د): حتى بلغت.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٠٦)، والبخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٦) أحمد بن زياد، أبو سعيد، المحدِّث، نزيل مكة وشيخ الحرم، صنف المعجم في الحديث، وطبقات النساك وغيرهما، توفي سنة (٣٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧.

(٧) يعني دأبهم وشأنهم.

(٨) نقل الخطابي كلام ابن الأعرابي هذا في معالم السنن ١/ ٢٩١.

(٩) أبو زيد النميري البصري النحوي، الحافظ، نزيل بغداد، له تاريخ المدينة وأخبار الكوفة وغيرهما، توفي سنة (٢٦٢هـ). السير ١٢/ ٣٦٩.

(١٠) هوالضَّحَّاك بن مَخْلَد البصري، أجلُّ شيوخ البخاري وأكبرهم، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ٩/ ٤٨٠.

يستغني، فقال: لم يصنَع ابنُ عُيَينَة شيئاً.

وسُئلَ الشافعيُّ عن تأويلِ ابنِ عُيَينَةَ، فقال: نحن أعلمُ بهذا، لو أراد النبيُّ ﷺ الاستغناء، لقال: مَن لم يَسْتَغْنِ، ولكن لمَّا قال: «يتغنَّى[١]»، علمنا أنَّه أراد التغنِّي.

قال الطبري: المعروفُ عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغِناء الذي هو حُسنُ الصوت بالتَّرجيع. وقال الشاعر:

تَغَنَّ بالشِّعرِ مهما كُنتَ قائلَه ... إنَّ الغِناء لهذا[٢] الشِّعر مِضمارُ[٣]

قال: وأمَّا ادِّعاءُ الزَّاعمِ أنَّ «تغنَّيتُ» بمعنى «استَغنَيتُ» فليس في كلام العرب وأشعارِها، ولا نعلمُ أحداً من أهل العلم قاله. وأمَّا احتجاجُه بقولِ الأعشى[٤]:

وكنتُ امرأً زَمَناً بالعِراق ... عفيفَ المُناخِ طَويلَ التَّغَنّ[٥]

وزعم أنه أراد الاستغناء، فإنَّهُ غلَطٌ مِنه، وإنَّما عَنَى الأعشى في هذا الموضع الإقامةَ، من قولِ العَرب: غَنِيَ فلانٌ بمكان كذا، أي: أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ [الأعراف: ٩٢]. وأما استشهاده بقوله:

ونحنُ إذا مِتْنَا أشدُّ تَغانيا

فإنَّه إغفالٌ منه، وذلك أنَّ التَّغانيَ تفاعلٌ من نَفْسَين، إذا استغنى كلُّ واحد منهُما عن صاحبه، كما يقال: تضاربَ الرَّجُلان: إذا ضربَ كلٌّ واحد منهما صاحبَه. ومن قال هذا في فعل الاثنين، لم يجز أن يقول مثله في الواحد، فغير جائز أن يقال: تغانى زيد، وتضاربَ عمرو. وكذلك غيرُ جائز أن يُقال: تغنى، بمعنى: استغنى.

قلت: ما ادَّعاهُ الطبري من أنَّه لم يَرد في كلام العرب تغنَّى بمعنى: استغنى، فقد

---

(١) في (م): يتغن، وفي (ظ): يتغنى به.

(٢) في (م): بهذا.

(٣) قائله حسان، كما في شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٠، وهو في اللسان وتاج العروس (غنى).

(٤) هو ميمون بن قيس، أبو بصير، شاعر جاهلي قديم، أدرك الإسلام في آخر عمره، ولم يسلم، ويُسمَّى صنَّاجة العرب. الشعر والشعراء ١/ ٢٥٧.

(٥) ديوانه ص٧٥، قوله: المُناخ، يعني محل الإقامة.

ذكره الجوهريُّ[١] كما ذكرنا، وذكره الهَرَوي[٢] أيضاً.

وأمَّا قوله: إنَّ صيغة فاعل إنما تكون من اثنين، فقد جاءت من واحد في مواضعَ كثيرة، منها قولُ ابن عمر: وأنا يومَئذ قد ناهزتُ الاحتلام[٣]. وتقول العرب: طارقتُ النعلَ، وعاقبتُ اللِّصَّ، وداوَيتُ العليل. وهو كثير، فيكون «تَغَانَى» منها. وإذا احتَمَلَ قولُه عليه الصلاة والسلام: «يتغنَّ» الغِناءَ والاستغناءَ، فليس حملُه على أحدِهما بأولى من الآخر، بل حملُه على الاستغناء أولَى، لو لم يكن لنا تأويلٌ غيره، لأنَّه مرويٌّ عن صحابي كبير، كما ذكر سفيان. وقد قال ابنُ وَهْب[٤] في حقِّ سفيان: ما رأيتُ أحداً[٥] أعلمَ بتأويل الأحاديث من سفيانَ بن عُيَينَة. ومَعلومٌ أنَّه رأى الشافعيَّ وعاصَرَه.

وتأويلٌ سادس: وهو ماجاء من الزِّيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أذِنَ اللهُ لِشَيء ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يتغنَّى بالقرآن يَجهَرُ به»[٦].

قال الطبريُّ: ولو كان كما قال ابنُ عُيَينة، لم يكن لذِكرِ حُسنِ الصَّوتِ والجهرِ به معنى.

---

(١) إسماعيل بن حماد، أبو نصر الفارابي، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، قيل: إنه اختلط في آخر عمره، ومات متردياً من سطح داره بنيسابور في حدود سنة أربع مئة. السير ١٧/ ٨٠.

(٢) في غريب الحديث ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٢.

(٣) كذا وقع في النسخ: ابن عمر، ولم نجد هذا القول له فيما بين أيدينا من مصادر، وسيكرره المصنف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]. وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عباس فيما أخرجه أحمد (٣١٨٥)، والبخاري (٧٦)، ومسلم (٥٠٤) من حديثه قال: أقبلتُ راكباً على أتان، وأنا يومئذ قد ناهزتُ الاحتلام، ورسولُ الله ﷺ يصلي بالناس بمنى، فمررتُ بين يدي الصف، فنزلتُ، فأرسلتُ الأتان ترتع، ودخلتُ في الصف، فلم ينكر ذلك عليَّ أحد.

(٤) هو عبد الله بن وَهْب بن مسلم، أبو محمد الفِهري مولاهم، المصري الحافظ، لقي بعض صغار التابعين، له: الجامع، وتفسير غريب الموطأ، توفي سنة (١٩٧هـ). السير ٩/ ٢٢٣.

(٥) قوله: أحداً، من (ز) و(ظ).

(٦) صحيح مسلم (٧٩٢) (٢٣٣)، وعنى المصنف بالزيادة قولَه: يجهر به. والحديث في صحيح البخاري (٥٠٢٣) بلفظ: «لم يأذنِ اللهُ لشيء ما أذنَ لنبيٍّ أن يتغَنى بالقرآن». وقال صاحبٌ له: يريد: يجهرُ به. وهو في مسند أحمد (٧٨٣٢).

قلنا: قوله: «يَجهَرُ به» لا يخلو[(١)] أن يكون من قول النبيِّ ﷺ، أو من قول أبي هريرة، أو غيرِه، فإن كان الأوَّل - وفيه بُعدٌ - فهو دليلٌ على عَدمِ التَّطريب والتَّرجيع، لأنَّه لم يقُل: يُطَرِّبُ به، وإنما قال: يَجهَرُ به، أي: يُسمِعُ نفسَه ومَن يليه، بدليل قوله عليه السلام للَّذي سمعَهُ وقد رفع صوتَه بالتَّهليل: «أيُّها الناس، اربَعُوا على أنفسِكم، فإنَّكم لستُم تدعُونَ أصمَّ ولا غائباً» الحديث، وسيأتي[(٢)]. وكذلك إن كان من صحابيٍّ أو غيره، فلا حُجَّةَ فيه[(٣)] على ما رَامُوه. وقد اختار هذا التأويلَ بعضُ علمائنا[(٤)]، فقال: وهذا أشبَهُ، لأن العرب تُسمِّي كلَّ مَن رفع صوته ووالَى به غانياً، وفِعلَه ذلك غِناءً، وإن لم يُلحِّنْهُ بتلحين الغِناء. قال: وعلى هذا فسَّرهُ الصَّحابي، وهو أعلم بالمقال، وأقعَدُ بالحال.

وقد احتَجَّ أبو الحسن بن بَطَّال لمذهب الشافعي، فقال: وقد رفعَ الإشكالَ في هذه المسألة ما رواه ابنُ أبي شيبة قال: حدثنا زيدُ بنُ الحُبَاب، قال: حدثنا موسى بن عُلَي بن رَباح، عن أبيه، عن عُقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعلَّموا القرآنَ، وغَنُّوا به، واكتُبوه، فوالذي نفسي بيدِه لَهُوَ أشدُّ تَفَصِّياً من المخَاض من العُقُل»[(٥)].

قال علماؤنا[(٦)]: وهذا الحديث، وإن صَحَّ سنَدُه، فيردُّه ما يُعلَمُ[(٧)] على[(٨)] القَطع والبتاتِ[(٩)] من أنَّ قراءةَ القرآن بَلَغَتْنا متواتِرةً عن كافة المشايخ، جِيلاً فجيلاً إلى العصر الكريم، إلى رسولِ الله ﷺ، وليس فيها تلحينٌ، ولا تَطريبٌ، مع كثرة

---

(١) في (ظ): لا يخلو إما.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥٢٠)، والبخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

(٣) في (ظ): لهم.

(٤) المفهم ٢/ ٤٢٣.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥٠٠، وفيه: «واتلوه»، بدل: «وغنُّوا»، وهو في مسند أحمد (١٧٣١٧)، وفيه: وتَغَنَّوا. وهو حديث صحيح. قوله: تفصِّياً أي: خروجاً. النهاية (فصى).

(٦) المفهم ٢/ ٤٢٢.

(٧) في (ظ): نعلم.

(٨) في (د) و(ز): من.

(٩) في (ظ): البيان، وفي (ز) و(د): الثبات، والمثبت من (م).

المتعمِّقين في مخارج الحروف، وفي المدِّ والإدغام والإظهار، وغير ذلك من كيفيَّةِ القراءات.

ثم إنَّ في التَّرجيع والتَّطريب هَمْزَ ما ليس بمهموز، ومدَّ ما ليس بممدود، فترجعُ الألِفُ الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، والشُّبهةُ الواحِدةُ شُبُهات[١]، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك ممنُوع، وإن وافقَ ذلك موضعَ نَبْر وهَمْز، صيَّروهما[٢] نَبَرات وهَمَزَات. والنَّبرةُ حيثُما وقعت من الحروف، فإنما هي همزةٌ واحدة لا غير، إمَّا ممدودةٌ وإمَّا مقصورة.

فإن قيل: فقد روى عبدُ الله بنُ مُغَفَّل قال: قرأ رسولُ الله ﷺ في مسير له سورةَ الفتح على راحلتِه، فرجَّعَ في قراءته، وذكره البخاري، وقال في صفة التَّرجيع: آ،آ،آ، ثلاث مرات[٣]. قلنا: ذلك محمولٌ على إشباع المَدِّ في موضعِه. ويحتمل أن يكون حِكَايَةَ صَوتِهِ عند هَزِّ الرَّاحِلَة. كما يعتري رافعَ صوتِه إذا كان راكباً من انضغاطِ صوتِه وتقطيعِه لأجل هَزِّ المركوبِ. وإذا احتمل هذا، فلا حُجَّةَ فيه.

وقد خَرَّج أبو محمد عبدُ الغني بنُ سعيد الحافظُ[٤] من حديث قتادة، عن عبد الرَّحمن بن أبي بَكْرة[٥]، عن أبيه قال: كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ المدَّ، ليس فيها ترجِيع[٦].

---

(١) يريد: الحروف، كما صرح به ص١٠٨، باب ذكر معنى السورة والآية.

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): صيروها، والمثبت من (د).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٤٧) و(٧٥٤٠)، وسلف ص٢١ ـ ٢٢.

(٤) محدِّثُ الديار المصرية، له كتاب المؤتلف والمختلف، توفي سنة (٤٠٩هـ). السير ١٧/ ٢٦٨.

(٥) تحرف في (ظ) و(د) و(م) إلى: أبي بكر، والمثبت من (ز)، وهو الصواب.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٤٤)، وابنُ عدي في الكامل ٧/ ٢٥٤٤ (في ترجمة الوليد بن القاسم الهمداني)، وفي إسناده عمر بن موسى، المعروف بابن وجيه. قال ابن عدي: يضع الحديث. وأورده الذهبي في ميزانه ٤/ ٣٤٤ (في ترجمة الوليد المذكور) وقال: تفرَّد به عمر، وهو متهم. وحسَّنه السيوطي في الجامع الصغير ! فتعقبه المناوي في «الفيض» ٥/ ١٧٣ بقوله: وليس كما ظنَّ، فقد قال الهيثمي [في المجمع ٢/ ٢٦٦]: فيه عمر بن وجيه، وهو ضعيف. اهـ وقد وجَّه ابن الأثير هذه الرواية في النهاية ٢/ ٢٠٢، فقال: وجهُه أنه لم يكن حينئذ راكباً، فلم يحدث في قراءته الترجيع. قلنا: وقد صحَّ من حديث أنس رضي الله عنه أن قراءة النبي ﷺ كانت مدًّا، فيما أخرجه أحمد (١٢٢٨٣)، والبخاري (٥٠٤٦) وغيرهما، وسلف ص ١٨ ـ ١٩.

وروى ابنُ جُرَيج[١]، عن عطاء[٢]، عن ابن عبَّاس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذِّنٌ يُطرِّبُ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأذانَ سَهْلٌ سَمْحٌ، فإذا كان أذانُكَ سمحاً سَهلاً، وإلَّا، فلا تُؤذِّن». أخرجه الدارقُطني[٣] في «سُننه»[٤]. فإذا كان النبيُّ ﷺ قد منعَ ذلك في الأذان، فأحرى ألا يُجوِّزَه في القرآن الذي حفظَهُ الرَّحمن، فقال ـ وقولُه الحقُّ ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قُلتُ: وهذا الخِلافُ إنَّما هو ما لم يُفهم معنى القُرآن، بترديد الأصواتِ، وكثرةِ الترجيعات، فإن زادَ الأمر على ذلك حتى لا يُفهم معناهُ، فذلك حرامٌ باتفاق، كما يفعل القرَّاء بالدِّيار المصريَّة الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضلَّ سَعيُهُم، وخابَ عملُهم، فيستحلُّون بذلك تغييرَ كتابِ الله، ويُهوِّنُونَ على أنفسهم الاجتِراءَ على الله، بأن يَزيدُوا في تنزيله ما ليس فيه، جهلاً بدينهم، ومُرُوقاً عن سُنَّة نبيِّهم، ورفضاً لسيرِ الصَّالحين فيه من سَلَفِهم، ونُزوعاً إلى ما يُزيِّنُ لهم الشيطانُ من أعمالهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، فهم في غَيِّهم يَتَردَّدُون، وبكتاب الله يتَلاعَبُون، فإنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعون، لكن قد أخبَرَ الصَّادقُ أنَّ ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ: ذكر الإمامُ الحافظُ أبو الحسن[٥] رَزِين[٦]، وأبو عبد الله التِّرمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[٧]، من حَديث حُذيفة أنَّ

---

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج، أبو الوليد القرشي، الإمام، وهو أول من دوَّن العلم بمكة. توفي سنة (١٥٠هـ). السير ٦/ ٣٢٥.

(٢) هو عطاء بن أبي رباح، أبو محمد القرشي، مفتي الحرم، مات سنة (١١٥هـ). السير ٥/ ٧٨.

(٣) علي بن عمر بن أحمد، أبو الحسن البغدادي، الحافظ، صاحب التصانيف، منها: السنن، والعلل، مات سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/ ٤٤٩.

(٤) ٢/ ٨٦، وفي إسناده إسحاق بن أبي يحيى الكَعبي الراوي عن ابن جُرَيج، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٠٥: هالكٌ يأتي بالمناكير عن الأثبات، وذكر له هذا الحديث.

(٥) في (م): أبو الحسين، وهو خطأ.

(٦) هو رَزِينُ بنُ معاوية بن عمَّار، العَبدريُّ، الأندلسيُّ، السَّرَقُسطي، المحدِّثُ، له كتاب تجريد الصحاح. توفي سنة (٥٣٥هـ). السِّيَر ٢٠/ ٢٠٤.

(٧) ص٣٣٤، والحكيم الترمذي: هو محمد بن علي بن الحسن، له مصنفات وحكم ومواعظ، قدم نيسابور وحدث بها سنة (٢٨٥هـ)، توفي نحو سنة (٣٢٠)هـ. السير ١٣/ ٤٣٩.

رسولَ الله ﷺ قال: «اقرؤُوا القرآنَ بلُحُون العرب وأصواتِها، وإيَّاكم ولُحُونَ أهلِ العِشْق[(١)]، ولُحونَ[(٢)] أهلِ الكتابَين، وسَيَجيءُ بعدي قَومٌ يُرَجِّعُون بالقُرآنِ ترجيعَ الغِناء والنَّوح، لا يُجاوِزُ حَناجِرَهم، مَفتُونَةٌ قلوبُهُم، وقُلوبُ الذين يُعجِبُهم شأنُهم».

اللُّحونُ: جَمعُ لَحْن، وهو التَّطرِيبُ، وتَرجِيعُ الصَّوتِ، وتحسينُه، بالقراءة والشِّعر والغِناء[(٣)].

قال علماؤنا: ويُشبِهُ أن يكونَ هذا الذي يفعلُه قراءُ زمانِنا بين يَدَيِ الوُعَّاظِ، وفي المجالس، من اللُّحونِ الأعجمية التي يقرؤون بها ما نَهى عنه رسولُ الله ﷺ.

والترجيعُ في القراءَةِ: ترديدُ الحروف، كقراءة النصارى. والترتيلُ في القراءة: هو التَّأنِّي فيها، والتَّمهُّلُ، وتَبيِينُ الحروف والحركاتِ، تشبيهاً بالثَّغر المُرَتَّل، وهو المُشبَّه بنَوْر الأُقحُوان، وهو المطلوب في قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وسُئلت أمُّ سَلَمةَ عن قراءة رسول الله ﷺ وصَلاتِه، فقالت: مالكم وصَلاتَه؟ ثم نَعَتَت قراءتَه، فإذا هي تَنْعَتُ قراءَةً مُفَسَّرةً حَرفاً حَرفاً. أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب[(٤)].

بابُ تحذيرِ أهلِ القرآنِ والعلم من الرِّياء وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

روى مُسلمٌ عن أبي هُريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضَى عليه يَومَ القِيامَةِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلتَ

---

(١) في فضائل أبي عبيد، وشُعب الإيمان، والعلل المتناهية: الفِسق.

(٢) في (ظ): وترجيع.

(٣) حديث ضعيف، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٨٠، والطبراني في الأوسط (٧٢١٩)، وابنُ عدي في الكامل ٢/ ٥١٠ ـ ٥١١، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٦٤٩) و(٢٦٥٠)، وابنُ الجوزيُّ في العلل المتناهية (١٦٠). وقال: هذا حديثٌ لا يصحُّ.

(٤) سنن النسائي ٢/ ١٨١ و٣/ ٢١٤، وسنن أبي داود (١٤٦٦)، وسنن الترمذي (٢٩٢٣)، وهو في المسند (٢٦٥٢٦).

فيها ؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشهِدتُ. قال: كَذَبتَ، ولَكِنَّك قَاتَلتَ ليقال[١]: جَرِيءٌ، فقد قِيل. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ في النَّار.

ورجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ، وَقَرأَ القُرآنَ، فأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلتَ فيها ؟ قال: تَعلَّمتُ العِلمَ وَعَلَّمتُه، وَقَرأتُ فيك القُرآنَ. قال: كَذَبتَ، ولَكنَّك تَعلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هُو[٢] قارِىءٌ، فقد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ في النَّار.

ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأَعطاهُ مِن أصنافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها ؟ قال: ماتَرَكتُ مِن سَبِيل تُحبُّ أن يُنفَقَ فيها إلا أَنفَقتُ فيها لك. قال: كَذَبتَ، وَلَكنَّك فَعَلتَ لِيُقال: هو جَوادٌ، فقد قِيل. ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجهِهِ، ثُمَّ[٣] أُلقِيَ في النَّار»[٤].

وقال التِّرمِذي في هذا الحديث: ثُمَّ ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ على رُكبتي، فقال: «يا أبا هُريرة، أُولئك الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلقِ الله، تُسَعَّرُ بهم النَّارُ يومَ القِيامة»[٥]. أبو هريرة: اسمُه عبدُ الله، وقيل: عبدُ الرَّحمن، وقال: كُنِّيتُ أبا هُرَيرةَ لأنِّي حَمَلتُ هِرَّة في كُمِّي، فرآني رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذه» ؟ قلتُ: هِرَّة، فقال: «يا أبا هُرَيرَة»[٦].

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: وهذا الحديثُ فيمَن لَم يُرِد بِعمَلِه وعِلمِه وَجهَ الله تعالى[٧].

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن طَلَبَ العِلمَ لِغَيرِ الله، أو أرادَ به غَيرَ الله، فَليَتَبَوَّأ مَقعَدَهُ مِنَ النَّار»[٨].

---

(١) في (م): لأن يقال.

(٢) كلمة هو، ليس في (د).

(٣) في (ظ): حتى.

(٤) صحيح مسلم (١٩٠٥)، وهو في المسند برقم (٨٢٧٧).

(٥) سنن الترمذي (٢٣٨٢).

(٦) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي هريرة ١٢/ ١٧١ (بهامش الإصابة).

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٢٤٠.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٦٥٥)، والنسائي في الكبرى(٥٨٧٩)، وابن ماجه (٢٥٨)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٢٧ من طريق خالد بن دُرَيك عن ابن عمر. قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ وإسناده منقطع، فقد ذكر المِزِّي في تهذيب الكمال أن خالد بن دُرَيك روى عن عبد الله بن عمر ولم يدركه.

وخرَّجَ ابنُ المُبارك في «رقائقه»[١] عن العَبَّاس بنِ عبدِ المُطَّلب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَظهَرُ هذا الدِّينُ حتَّى يُجاوِزَ البِحار، وحَتَّى تُخاضَ البِحارُ بالخَيل في سبيل الله تبارَكَ وتعالى، ثُمَّ يَأتي أقوامٌ يقرؤون القُرآنَ، فإذا قَرؤوه قالُوا: مَن أقرأُ مِنَّا؟ مَن أعلَمُ مِنَّا؟» ثمَّ التفَتَ إلى أصحابه، فقال: «هل تَرَونَ في أولئكم مِن خَير؟» قالوا: لا. قال: «أُولئكَ مِنكم، وأولئِكَ مِن هَذه الأُمَّة، وأولئك هُم وَقُودُ النَّار».

وروى أبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن تَعَلَّمَ عِلماً مِمَّا يُبتَغَى به وَجهُ الله، لا يَتَعَلَّمُهُ إلَّا لِيُصِيبَ به عَرَضاً من الدُّنيا، لم يَجِد عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ القيامة». يعني ريحَها. قال التِّرمذي: حديثٌ حسن[٢].

ورَوَى عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا باللهِ من جُبِّ الحَزَن» قالوا: يارسولَ الله، وما جُبُّ الحَزَن؟ قال: «وَادٍ في جَهَنَّم، تتعوَّذُ منه جَهَنَّمُ في كُلِّ يَوم مئةَ مَرَّة». قيل: يارسولَ الله، ومَن يَدخُلُهُ؟ قال: «القُرَّاءُ المراؤون بأعمالهم». قال: هذا حديث غريب[٣].

وفي كتاب أسَدِ بن مُوسى[٤] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في جَهَنَّمَ لَوادِيا، إنَّ جَهَنَّمَ لَتَتَعَوَّذُ من شَرِّ ذلك الوادي كُلَّ[٥] يوم سَبعَ مَرَّات، وإنَّ في ذلك الوادي لَجُبًّا، إنَّ جهنم وذلك الوادي، لَيَتعوَّذُون بالله مِن شَرِّ ذلك الجُبِّ[٦]، وإنَّ في ذلك[٧] الجُبِّ

---

(١) الزهد والرقائق (٤٥٠)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦ وقال: فيه موسى بن عُبيدة الرَّبَذي، وهو ضعيف.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٦٤)، وليس في سنن الترمذي كما ذكر المصنف، انظر تحفة الأشراف ١٠/ ٧٧ ـ ٧٨. وهو في المسند برقم (٨٤٥٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٣٨٣)، وفي إسناده أبو معان (ويقال: أبو معاذ) وهو مجهول، وعمار بن سيف وهو ضعيف. تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٥.

(٤) هو أبو سعيد القرشي الأموي، ذو التصانيف، ويقال: هو أول من صنف المسند. توفي سنة (٢١٢هـ). السير ١٠/ ١٦٢.

(٥) في (م): في كل.

(٦) في (ظ) زيادة: سبع مرات.

(٧) في (م): وإن في الجبّ.

لَحَيَّةً، وإن جهنم والواديَ والجُبَّ لَيتَعوَّذُون بالله من شَرِّ تلك الحَيَّةِ سبعَ مرَّات، أَعَدَّها الله للأشقياء مِن حَمَلَةِ القرآن، الذين يَعصُونَ الله»[١].

فَيَجبُ على حامل القرآن وطالبِ العِلم أن يَتَّقيَ الله في نفسه، ويُخلِصَ العملَ لله. فإن كانَ تَقَدَّمَ له شيءٌ ممَّا يَكرهُ، فَليُبَادِرِ التوبةَ والإنابةَ، وليَبتَدِىء الإخلاصَ في الطلب[٢] وعمله. فالذي يلزمُ حاملَ القرآن من التَّحفُّظ أكثرُ ممَّا يلزمُ غيرَه، كما أنَّ له من الأجرِ ما ليس لغيره، روى التِّرمذي عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلَ اللهُ في بَعضِ الكُتُبِ - أو أوحَى إلى بعض الأنبياء -: قُل للَّذين يَتَفقَّهُون لِغَير الدِّين، ويتَعَلَّمون لِغَيرِ العَمَل، ويطلُبون الدُّنيا بعمل الآخرة، يَلبَسُون للناس مُسُوكَ الكِباش، وقُلُوبُهم كقلوب الذِّئاب، ألسِنَتُهم أحلَى من العَسَل، وقلوبُهم أمَرُّ من الصَّبر، إيَّايَ يُخادِعون وبي يَستَهزِؤون؟! لأُتِيحَنَّ لهم فِتنَةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيرَان»[٣].

وخرَّج الطَّبري في كتاب «آدابِ النُّفوس»[٤]: حدَّثنا أبو كُرَيب محمَّد بنُ العَلاء، حدَّثنا المُحاربي، عن عَمرو بن عامر البَجَليِّ، عن ابن صَدَقة، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، أو مَن حدَّثه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُخادِعِ الله، فإنَّه مَن يُخادِعِ الله، يَخدَعْهُ الله، ونَفسَه يَخدَعُ لو يَشعُر». قالوا: يارسولَ الله، وكيف يُخادَعُ الله؟ قال: «تعمَلُ بما أمَرك اللهُ به، وتطلُبُ به غيرَه، واتَّقُوا الرِّياءَ فإنَّه الشِّركُ، وإنَّ المُرائي يُدعَى

---

(١) وذكره مكي في الرعاية ص ٧٤، وقد نقل الحافظ ابن حجر في تهذيبه عن ابن يونس قوله في أسد بن موسى: حدَّث بأحاديث منكرة، وأحسبُ الآفة من غيره.

(٢) في (د): التوبة.

(٣) لم يخرجه الترمذي، إنما أخرج نحوه (٢٤٠٤) من حديث أبي هريرة، وفي إسناده يحيى بن عبيد الله، وهو متروك الحديث، وبرقم (٢٤٠٥) من حديث ابن عمر، وفي إسناده حمزة بن أبي محمد، وهو ضعيف. وأما حديث أبي الدرداء (الذي أورده المصنف) فقد أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٢٩، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو متروك الحديث أيضاً. ومثل هذه الطرق لا تتقوَّى ببعضها، فالحديث ضعيف.

(٤) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٤ أن للطبري كتاب ترتيب العلماء، ابتدأه بآداب النفوس، ولم يتمَّه، وذكر له صاحب هدية العارفين ٦/ ٢٧ كتاب الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة، ولعله هو.

يومَ القيامة على رؤوس الأشهاد بأربَعَةِ أسماء يُنسَبُ إليها: يا كافر، ياخاسر، ياغادر، يافاجر، ضَلَّ عَمَلُك، وبَطَلَ أجرُكَ، فلا خَلاقَ لك اليَوم، فالتَمِس أجرَكَ ممَّن كُنتَ تَعمَلُ له يامُخادِع»[١].

وروى عَلقَمَةُ[٢]، عن عبد الله بن مَسعُود قال: كيفَ أنتُم إذا لَبِسَتْكُم[٣] فِتنةٌ يَربُو فيهاالصَّغِير، ويَهرَمُ الكَبِير، وتُتَّخَذُ سُنَّةٌ مُبتَدَعَةٌ، يجري عليها النَّاسُ، فإذا غُيِّرَ منها شَيءٌ قيل: قد غُيِّرتِ السُّنَّة. قيل: متَى ذلك يا أبا عبد الرَّحمن؟ قال: إذا كَثُر قُرَّاؤكم، وقَلَّ فُقَهاؤكم، وكَثُرَ أُمَراؤكم، وقَلَّ أُمَناؤكم، والتُمِسَتِ[٤] الدُّنيا بعَمَلِ الآخِرة، وتُفُقِّه لِغَيرِ الدِّين[٥].

وقال سُفيانُ بنُ عُيَينَة: بلَغَنا عن ابن عَبَّاس أنَّه قال: لو أنَّ حَمَلَةَ القُرآن أخَذُوه بحَقِّه وما يَنبَغِي، لأَحَبَّهُمُ الله، ولَكِنْ طَلَبُوا به الدُّنيا، فأَبغَضَهُمُ الله، وهانُوا على النَّاس[٦].

ورُوي عن أبي جعفر محمَّد بن عليّ[٧] في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ

---

(١) المحاربي ـ وهو عبد الرحمن بن محمد ـ وثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: يروي عن المجهولين أحاديث منكرة. (كذا في التهذيب). وعمرو بن عامر البجلي؛ قال الحافظ في التقريب: مقبول. اهـ يعني حيث يُتابَع، وإلا فليِّن الحديث. وابنُ صدقة ـ وهو صخر ـ لم يُذكر له روايةٌ عن الصحابة، وذكره ابن حبان في الثقات ٨/ ٣٢٢ وقال: يروي المقاطيع. وقد أورد السيوطي هذاالخبر في الدر المنثور ١/ ٣٠، وضعَّفه.

(٢) هو علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي، أبو شبل، فقيه الكوفة ومقرئها، روى عن كثير من الصحابة، توفي سنة (٦٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ٥٣.

(٣) في (د) و(ز): لبستم.

(٤) في (د): والتمستم.

(٥) أخرجه الدارمي (١٨٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٣)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٢٢٨ من طريق علقمة، عن ابن مسعود. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٤، والدارمي (١٨٥)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥ من طريق شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود، وهو صحيح إليه.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٢٨.

(٧) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، مات سنة بضع عشرة ومئة. السير ٤/ ٤٠١.

﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤] قال: قَومٌ وَصَفُوا الحقَّ والعَدلَ بألسنتهم، وخالفوه[١] إلى غيره[٢].

وسيأتي لهذا الباب مَزيدُ بيان في أثناء الكتاب، إن شاء الله تعالى.

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذَ نفسَه به، ولا يغفلَ عنه

فأولُ ذلك أن يُخلِصَ في طَلَبِه لله جَلَّ وعَزَّ، كما ذكرنا، وأن يأخُذَ نفسَه بقراءةِ القرآن في ليله ونهارِه، في الصلاة، أو في غير الصلاة، لئلا ينساه. روى مسلمٌ عن ابنِ عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنما مَثَلُ صاحِبِ القرآنِ كَمَثَلِ صاحِبِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ، إن عاهَدَ عَلَيها، أمسَكَها، وإن أطلَقَها ذَهَبَت، وإذا قامَ صاحبُ القرآن، فقرأه بالليل والنهار، ذَكَره، وإذا لم يقم به، نَسِيَه»[٣].

وينبغي له أن يكونَ لله حامداً، وَلِنِعَمِه شاكراً، وله ذاكراً، وعليه مُتوكِّلاً، وبه مُستعيناً[٤]، وإليه راغباً، وبه مُعتَصِماً، وللموتِ ذَاكراً، وله مُستعدًّا.

وينبغي له أن يكونَ خائفاً من ذنبه، راجياً عَفوَ ربِّه، ويكونَ الخوفُ في صحته أغلَبَ عليه، إذ لا يَعلمُ بما يُختَمُ له، ويكونَ الرجاءُ عند حضورِ أجَلِه أقوى في نفسه، لِحُسنِ الظَّنِّ بالله، قال رسول الله ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظَّنَّ»[٥]. أي أنه يرحمُه ويغفرُ له.

وينبغي له أن يكون عالماً بأهل زمانِه، مُتَحَفِّظاً من سلطانه، ساعياً في خلاصِ نفسِه، ونجاةِ مُهجَتِه، مقدِّماً بين يديه ما يَقدِرُ عليه من عَرَض دنياه، مُجاهِداً لنفسه في ذلك ما استطاع.

وينبغي له أن يكونَ أهمَّ أمورِه عندَه الوَرَعُ في دينه، واستعمالُ تقوى الله ومراقبتُه فيما أمره به، ونهاه عنه.

---

(١) في (د): وخالفوا.

(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٢٣٨.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٩)، وهو في مسند أحمد (٤٦٦٥).

(٤) في (د): مستغيثاً.

(٥) أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال ابنُ مسعود: ينبغي لقارىء القُرآنِ أن يُعرَفَ بِلَيلِهِ إذا الناسُ نائمون، وبِنهارِه إذا الناسُ مُفطِرُون[١]، وببكائِه إذا الناسُ يَضحَكون، وَبِصَمتِه إذا الناسُ يَخُوضُون، وبخشوعه[٢] إذا الناسُ يَختالُون، وبِحُزنِه إذا الناسُ يَفرَحُون[٣].

وقال عبد الله بنُ عمرو[٤]: لا ينبغي لحاملِ القرآنِ أن يَخُوضَ معَ مَن يخُوضُ، ولا يجهلَ مع مَن يَجهَلُ، ولكن يعفُو ويصفحُ، لِحقِّ القرآن، لأنَّ في جوفه كلامَ الله تعالى[٥].

وينبغي له أن يأخذَ نفَسه بالتَّصاون عن طُرُق الشُّبُهات، ويُقِلَّ الضحك والكلامَ في مجالس القرآنِ وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذَ نفسَه بالحِلم والوَقار.

وينبغي له أن يتواضعَ للفقراء، ويَتَجنَّبَ التَّكَبُّر والإعجابَ، ويَتَجافَى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويتركَ الجِدال والمِراء، ويأخذَ نفسَه بالرِّفق والأدب.

وينبغي له أن يكونَ ممَّن يُؤمَنُ شَرُّه، ويُرجَى خَيرُه، ويُسلَمُ مِن ضَرِّه، وألا يَسمَع ممَّن نَمَّ عندَه، ويُصاحِبَ مَن يُعاونُه على الخير، ويَدُلُّه على الصِّدقِ ومكارم الأخلاق، ويَزِينُه ولايَشِينُه.

وينبغي له أن يتعلمَ أحكامَ القرآن، فيفهمَ عن الله مُرادَه، وما فَرَضَ عليه، فينتفعَ بما يقرأُ، ويعملَ بما يتلُو، فما أقبحَ لحاملِ القُرآن أن يَتلُوَ فرائضَه وأحكامَه عن ظَهرِ قلب، وهو لا يَفهَمُ ما يتلُو، فكيف يعملُ بما لا يَفهَمُ معناه ؟! وما أقبحَ أن يُسألَ عن فِقهِ ما يتلوه ولا يَدرِيه! فما مَثَلُ مَن[٦] هذه حالتُه إلَّا كَمَثَلِ الحمار يَحمِلُ أسفَاراً.

وينبغي له أن يعرفَ المَكِّيَّ منَ المَدَنِيِّ، لِيُفرِّقَ بذلك بين ما خاطب الله به عباده

---

(١) في (م): مستيقظون، وهو خطأ.

(٢) في (م): وبخضوعه.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٢، وأحمد في الزهد ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ والآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧).

(٤) في (د): عمر.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٣ بنحوه أطول منه.

(٦) في النسخ الخطية: فما من، والمثبت من (م).

في أوَّلِ الإسلام، وما نَدَبَهم إليه في آخِرِ الإسلام، وما افترضَ اللهُ في أولِ الإسلام، وما زادَ عليه منَ الفرائض في آخِره. فالمَدَنيُّ هو الناسخُ للمكِّيِّ في أكثرِ القرآن، ولا يمكنُ أن يَنسَخَ المَكِّيُّ المَدَنيَّ؛ لأن المنسوخَ هو المتقدِّمُ في النزول قبل الناسخ له.

ومِن كمالِهِ أن يَعرِفَ الإعرابَ والغَرِيبَ، فذلك مما يُسَهِّلُ عليه معرفةَ ما يقرأُ، ويُزِيلُ عنه الشكَّ فيما يتلُو. وقد قال أبو جعفر الطبريُّ[1]: سمعتُ الجَرمِيَّ[2] يقول: أنا منذ ثلاثينَ سنةً أُفتي الناسَ في الفقه من كتاب سِيبويه، قال محمد بنُ يزيد[3]: وذلك أن أبا عمر الجَرمِيَّ كان صاحبَ حديث، فلما عَلِمَ كتابَ سيبويه، تَفَقَّه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّمُ منه النظرُ والتفسير.

ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فبها يصلُ الطالبُ إلى مراد الله عزَّ وجلَّ في كتابه، وهي تفتحُ له أحكام القرآن فتحاً، وقد قال الضَّحَّاك[4] في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال: حَقٌّ على كلِّ مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ أن يكونَ فَقِيهاً.

وذكر ابنُ أبي الحواريِّ[5] قال: أتينا فُضَيلَ بنَ عِياض[6] سنة خمس وثمانين ومئة ونحن جماعة، فَوَقَفنا على الباب، فلم يَأذَن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء، فسيخرجُ لتلاوة القرآن، فأمَرْنا قارئاً فقرأ، فاطَّلعَ علينا من كُوَّة، فقلنا: السلامُ عليك ورحمةُ الله، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا عليٍّ؟

---

(١) أحمد بن محمد بن رستم الطبري النحوي، كان متصدرا لإقراء النحو. له: غريب القرآن والمقصور والممدود وغيرهما. إنباه الرواة ١/١٢٨، وذكر أنه سُمع منه ببغداد سنة (٣٠٤هـ).

(٢) هو صالح بن إسحاق البصري، أبو عمر الجَرمي، إمام العربية، صاحب التصانيف، له: الأبنية، والعروض، وغريب سيبويه وغير ذلك، توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/ ٥٦٠، وقد ذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص٧٤ ـ ٧٥ وذكر له هذه القصة.

(٣) أبو العباس المبرد، البصري، إمام النحو، صاحب الكامل. مات سنة (٢٨٦هـ). السير ١٣/ ٥٧٦، طبقات النحويين واللغويين ص١٠١.

(٤) ابنُ مُزاحم الهلالي، أبو محمد، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وليس بالمجوّد لحديثه، وهو صدوق في نفسه، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ٥٩٨.

(٥) أحمد بن عبد الله بن ميمون، شيخ أهل الشام، أصله من الكوفة، توفي سنة (٢٤٦هـ). السير ١٢/ ٨٥.

(٦) هو أبو علي التميمي، اليربوعي، الخراساني، توفي سنة (١٨٧هـ). السير ٨/ ٤٢١.

وكيف حالُك ؟ فقال: أنا مِنَ الله في عافية، ومنكم في أذًى، وإنَّ ما أنتم فيه حَدَثٌ في الإسلام، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما هكذا كنَّا نطلبُ العِلمَ، ولكنَّا كنَّا نأتي المَشيخَةَ، فلا نَرَى أنفسَنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلسُ دونَهم، ونَستَرِقُ السَّمعَ، فإذا مَرَّ الحديثُ سألناهم إعادتَه، وقَيَّدناه، وأنتم تطلبون العِلمَ بالجهل، وقد ضَيَّعتُم كتابَ الله، ولو طلبتُم كتابَ الله، لوجدتُم فيه شِفاءً لما تريدون. قال: قلنا[١]: قد تَعَلَّمنا القرآن، قال: إنَّ في تعلُّمكم القرآنَ شُغلاً لأعماركم، وأعمارِ أولادِكم. قلنا: كيف يا أبا عليٍّ ؟ قال: لَن تَعَلَّمُوا القرآنَ حتى تعرفوا إعرابَه، ومُحْكَمَه من مُتَشابِهِه، وناسِخَهُ مِن مَنسُوخِه، إذا عرفتُم ذلك، استَغنَيتُم عن كلام فُضَيل وابنِ عُيَينَة. ثم قال: أعوذُ بالله السميعِ العليمِ من الشيطان الرجيم[٢]، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قلت: فإذا حَصلَت هذه المراتبُ لقارىء القرآن، كان ماهراً بالقرآن، وعالِماً بالفُرقان، وهو قريبٌ على مَن قَرَّبَه الله عليه[٣]، ولا ينتفعُ بشيء مما ذكرنا[٤] حتى يُخلِصَ النيةَ فيه للهِ ـ جلَّ ذِكرُه ـ عند طلبه، أو بعدَ طلبه، كما تقدَّم. فقد يبتدئُ الطالبُ للعلم يريدُ به المباهاةَ والشرفَ في الدنيا، فلا يزالُ به فَهمُ العلم حتى يتبيَّنَ أنه على خطأ في اعتقاده، فيتوبَ من ذلك، ويخلصَ النيةَ لله تعالى، فينتفعَ بذلك، ويَحسنَ حالُه. قال الحسن: كنا نطلبُ العلمَ للدنيا، فَجَرَّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثَّوري[٥]. وقال حبيب بنُ أبي ثابت[٦]: طَلَبنا هذا الأمرَ وليس لنا فيه نِيَّة، ثم جاءتِ النيةُ بعدُ[٧].

---

(١) في (د): قالوا كنا، وفي (ظ): قالوا فعلنا.

(٢) في (د) و(ظ): أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(٣) في (م): قرّبه عليه.

(٤) في (ظ): علم.

(٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، الكوفي، إمام الحفاظ، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٧/ ٢٢٩.

(٦) أبو يحيى القرشي، الأسدي مولاهم، فقيه الكوفة، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٥/ ٢٩٠.

(٧) المحدث الفاصل للرامهرمزي ص١٨٣، والجامع لأخلاق الراوي (٦٩٨) و(٧٧٧)...(٧٨٢)، وجامع بيان العلم ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

باب ماجاء في إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه وثوابِ مَن قَرأَ القرآنَ مُعرَباً

قال أبو بكر بنُ الأنباري[١]: جاء عن النبيِّ ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم ـ رضوانُ الله عليهم ـ من تفضيلِ إعرابِ القرآن، والحضّ على تعليمِه، وذمِّ اللَّحنِ وكراهيتِهِ، ما وجبَ به على قُرَّاء[٢] القرآن أن يأخذُوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلُّمه[٣].

من ذلك ما حدثنا سليمان بن يحيى[٤] الضَّبِّيُّ قال: حدثنا محمد ـ يعني ابنَ سعدان[٥] ـ قال: حدثنا أبو معاوية، عن عبد الله بن سعيد المَقبُري، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «أعرِبُوا القُرآنَ، والتَمِسُوا غَرائِبَه»[٦].

حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بنُ الهيثم قال: حدثنا آدمُ ـ يعنى ابنَ أبي إياس ـ قال: حدثنا أبو الطَّيِّب المَرْوَزيُّ قال: حدثنا عبد العزيز بنُ أبي رَوَّاد، عن نافع، عن ابن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرأَ القُرآنَ، فلم يُعرِبْهُ، وُكِّلَ به مَلَكٌ، يَكتُبُ له كما أُنزلَ بكلِّ حَرف عَشرَ حَسَنات، فإنْ أعرَبَ بَعضَه، [ولم يُعربْ بعضَه][٧]، وُكِّلَ به مَلَكانِ، يكتُبانِ له بكلِّ حرف عشرينَ حسنة، فإن أعرَبَه، وُكِّلَ به أربعةُ أملاك، يكتُبُون له بكلِّ حَرف سَبعينَ حَسَنة»[٨].

---

(١) في كتابه إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٤، وقد نقل عنه المصنف ما أورده في هذا الباب.

(٢) في (ظ): أهل.

(٣) في (ز) و(ظ): تعليمه.

(٤) في النسخ الخطية و (م): يحيى بن سليمان، والتصويب من الإيضاح ١/ ١٥، وترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٦٠، وطبقات القراء ١/ ٣١٧.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ابن سعيد، وهو خطأ. والمثبت من (ظ). وترجمته في تاريخ بغداد ٥/ ٣٢٤، وطبقات القراء ٢/ ١٤٣.

(٦) إسناده ضعيف جداً. عبد الله بن سعيد المقبري متروك الحديث. وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٨، وابنُ أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩، وقال: صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: بل أجمع على ضعفه.

(٧) ما بين حاصرتين من مصادر الحديث.

(٨) إسناده تالف. أبو الطيب المروزي (وهو الحربي) قال ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٦٠: يروي عن عبد العزيز بن أبي روَّاد الأعاجيب، لا يجوز الاحتجاج به بحال. ثم أخرج له هذا الحديث، ونقل=

ورَوَى جُوَيبِر، عن الضَّحَّاك قال: قال عبد الله بنُ مسعود: جَوِّدُوا القرآنَ، وزَيِّنُوه بأحسنِ الأصواتِ، وأعرِبُوه، فإنه عَرَبيٌّ، واللهُ يحبُّ أن يُعرَبَ به.

وعن مجاهد[١]، عن ابن عمر قال: أعرِبُوا القرآنَ.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد[٢] قال: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: لَبَعضُ إعرابِ القرآنِ، أَحَبُّ إلينا مِن حِفظِ حروفِه.

وعن الشعبي قال: قال عمر رحمه الله: مَن قَرَأَ القُرآنَ، فأَعرَبَه، كانَ له عند الله أجرُ شَهِيد.

وقال مكحول[٣]: بلغني أنَّ مَن قَرَأَ بإعراب، كان له مِنَ الأجرِ ضِعفانِ ممَّن قرأ بغير إعراب.

وروى ابنُ جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا[٤] العَرَبَ لثلاث: لأنِّي عربيٌّ، والقرآنَ عَربيٌّ، وكلامَ أهلِ الجنة عَرَبيٌّ»[٥].

وروى سفيان، عن أبي حمزة قال: قيل للحسن في قوم يَتَعَلَّمونَ العربيَّة، قال: أحسَنُوا، يتعلَّمون لغةَ نبيِّهم ﷺ[٦].

وقيل للحسن: إن لنا إماماً يَلحَنُ، قال: أَخِّروه.

= الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/٥٤١ قول ابن معين فيه: كان في الحديث كذَّاباً. وأخرجه أيضاً أبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (١١٠).

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، شيخ القراء والمفسرين، أخذ القرآن والتفسير والفقه عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/٤٤٩.

(٢) في إيضاح الوقف والابتدا ص٢٠: عن زيد.

(٣) أبو عبد الله بن أبي مسلم، الدمشقيُّ، عالم أهل الشام، من أقران الزهري، توفي سنة (١١٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ٥/١٥٥.

(٤) في (د) و(ظ): أحبَّ.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/٣٤٨، والحاكم في المستدرك ٤/٨٧، وفي معرفة علوم الحديث ص ١٦١ ـ ١٦٢، وابن الجوزي في الموضوعات ١/٣٤٨. قال العقيلي: منكر لا أصل له، وقال الحاكم: حديث صحيح، فتعقبه الذهبي بقوله: هو من رواية العلاء بن عمرو الحنفي وليس بعمدة.. وأظن الحديث موضوعاً، وأورد الحديث أيضاً في ميزان الاعتدال ٣/١٠٣ وقال: هذا موضوع، قال أبو حاتم: هذا كذب.

(٦) سفيان: هو الثوري، وأبو حمزة: لعله الأعور، واسمه ميمون، والحسن: هو البصري.

وعن ابنِ أبي مُلَيكَةَ قال: قَدِمَ أعرابيٌّ في زمان عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، فقال: مَن يُقرِئُني مما أُنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأَهُ رجلٌ «براءة»، فقال: «أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله» بالجرِّ، فقال الأعرابيُّ: أوَقَد بَرِئَ الله مِن رسوله؟! فإن يكنِ الله بَرِئَ من رسولِهِ، فأنا أبرأُ منه، فبلغَ عُمرَ مقالةُ الأعرابيِّ، فدعاه، فقال: يا أعرابيُّ، أتبرأُ من رسول الله ﷺ؟! فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَدِمتُ المدينةَ، ولا عِلمَ لي بالقرآن، فسألتُ: مَن يُقرِئُني؟ فأقرأني هذا سورةَ براءة فقال: «أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله»، فقلت: أوَقَد بَرِئَ اللهُ مِن رَسولِهِ؟! إن يكنِ اللهُ بَرِئَ من رسولِهِ، فأنا أبرأُ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ، قال: فكيف هي يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أبرأُ مما بَرِئَ الله ورسولُه منه. فأمر عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ألا يُقرِئَ الناسَ إلا عالمٌ باللغةِ، وأمرَ أبا الأسودِ، فوضَع النَّحو.

وعن عليِّ بنِ الجَعد[(١)] قال: سمعتُ شُعبةَ[(٢)] يقول: مَثَلُ صاحِبِ الحديثِ الذي لا يعرفُ العربية، مَثَلُ الحمار، عليه مِخلاةٌ، لا عَلَفَ فيها.

وقال حمَّاد بنُ سَلَمة[(٣)]: مَن طَلَبَ الحديثَ، ولم يتعلَّمِ النَّحو - أو قال: العربية - فهو كَمَثَلِ الحمارِ، تُعلَّقُ عليه مِخلاةٌ، ليس فيها شعير[(٤)].

قال ابنُ عَطِيَّة: إعرابُ القرآنِ أَصلٌ في الشَّريعة، لأنَّ بذلك تَقومُ[(٥)] معانيه التي هي الشَّرع[(٦)].

---

(١) هو أبو الحسن البغدادي، الجوهري، مُسند بغداد، توفي سنة (٢٣٠هـ). السير ١٠/ ٤٥٩.

(٢) هو شعبة بن الحجاج، أبو بسطام الأزدي العتكي مولاهم، الواسطي، عالم أهل البصرة. توفي سنة (١٦٠هـ). السير ٧/ ٢٠٢.

(٣) أبو سلمة البصري، الإمام، النحوي، ابن أخت حُميد الطويل، توفي سنة (١٦٧هـ). السير ٧/ ٤٤٤.

(٤) أخرج الأخبار السالفة ابنُ الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ١٥ - ٦١ ونقلها المصنف عنه كما صرح به أول الباب.

(٥) في (ظ): ذلك يقوم.

(٦) المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) ١/ ٤٠، ومؤلفه: هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية. توفي سنة (٥٤١هـ) وقيل: (٥٤٢). السير ١٩/ ٥٨٧.

قال ابنُ الأنباريّ[١]: وجاء عن أصحابِ النبيِّ ﷺ وتابعيهم رضوانُ الله عليهم من الاحتجاجِ على غريب القرآن ومُشكِلِه باللغةِ والشِّعر، ما بَيَّنَ صحةَ مذهبِ النَّحوِيين في ذلك، وأوضحَ فسادَ مَذهبِ مَن أنكرَ ذلك عليهم.

من ذلك ما حدَّثنا عُبَيدُ بنُ عبد الواحد بنِ شَريك البزاز قال: حدَّثنا ابنُ أبي مريم قال: أنبأنا ابنُ فَرُّوخ قال: أخبرني أسامة قال: أخبرني عكرمة أنَّ ابنَ عباس قال: إذا سألتموني عن غَريبِ القرآنِ، فالتَمِسُوه في الشِّعر، فإن الشِّعر ديوانُ العرب.

وحدثنا إدريس بنُ عبد الكريم قال: حدثنا خَلَفٌ قال: حدثنا حمَّاد بنُ زيد، عن عليِّ بن زيد بن جُدعان قال: سمعتُ سعيدَ بنَ جُبَير ويوسفَ بنَ مِهرانَ يقولان: سمعنا ابنَ عباس يُسألُ عن الشيء من القرآن، فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول فيه كذا وكذا[٢].

وعن عكرمة، عن ابن عباس، وسألَه رجلٌ عن قوله الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] قال: لا تَلبَس ثيابَك على غَدر، وتَمثَّلَ بقول غَيلانَ الثَّقَفيِّ[٣]:

فإنِّي بحَمدِ الله لا ثَوبَ غادِرٍ لَبِستُ ولا مِن سَوأة أتَقَنَّعُ[٤]

وسأل رجل عِكرِمَةَ عن الزَّنِيم، فقال[٥]: هو ولدُ الزِّنى، وتمثَّلَ ببيت شعر:

زَنِيمٌ ليس يُعرفُ مَن أبوه بَغِيُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لَئِيم[٦]

وعنه[٧] أيضاً: الزَّنيم: الدَّعِيُّ الفاحش اللئيم، ثم قال:

---

(١) في الوقف والابتداء ١/ ٦١. وما بعدها، مما نقله عنه المصنف حتى آخر الباب.

(٢) في (م): يُسألُ عن الشيء بالقرآن، فيقول فيه هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا. والمثبت من النسخ، غير قوله: فيقول فيه كذا وكذا، فمن إيضاح الوقف والابتداء ص٦٢.

(٣) هو غَيلانُ بنُ سَلَمة بن معتب بن مالك الثقفي، أسلم بعد فتح الطائف، ولم يهاجر، وهو شاعر مقلّ، وقد روى عنه ابنُ عباس شيئاً من شعره. الأغاني ١٣/ ٢٠٠، والإصابة ٨/ ٦٣.

(٤) ذكره ابنُ قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٤٩٥ عند الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، وكذا الطبري ٢٣/ ٤٠٦، والماوردي ٦/ ١٣٦، وابن منظور في اللسان (طهر).

(٥) في (ظ) و(م): قال.

(٦) ذكره الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ٢٣/ ١٦٤.

(٧) أي: عن عكرمة، والخبر في الإيضاح ص٦٥: عن عكرمة عن ابن عباس.

زَنِيمٌ تداعاهُ الرِّجالُ زيادةً كما زِيد في عَرضِ الأدِيم أكارعُه[١]

وعنه في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] قال: ذواتا ظلٍّ وأغصان، ألم تسمع إلى قول الشاعر:

ما هاجَ شوقَكَ من هَدِيلِ حمامةٍ تَدعُو على فَنَنِ الغُصونِ حَماما
تَدعُو أبا فَرْخَيْنِ صادَفَ طائراً ذا مِخْلَبَيْنِ من الصُّقُور قَطاما[٢]

وعن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] قال: الأرض. قال[٣] ابن عباس: وقالَ أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلت[٤]:

عِندَهُم لحمُ بحر ولحمُ ساهِرة

قال ابنُ الأنباريِّ: والرواة يروون هذا البيت:

وفيها لحمُ ساهِرة وبَحر وما فاهُوا به لهُمُ مُقِيمُ[٥]

وقال نافع بن الأزرق[٦] لابن عباس: أخبرني عن قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٦٥ (والكلام منه)، ووقع في حاشيته وفي المصادر الآتية: الأكارع. وقد ذكره المبرد في «الكامل» ٣/ ١١٤٦، وابن عطية في تفسيره ٥/ ٣٤٨ ونسباه إلى حسان بن ثابت، وذكره ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣٦١)، وابن بري (كما في اللسان) (زنم) ونسباه إلى الخطيم التميمي.

(٢) ذكرهما الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٤٠، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٣٨، ونسبهما الأصفهاني في الأغاني ١٤/ ٢٦٢ لثابت قطنة. وعندهما: صادف ضارياً، وأورد الأول منهما ابن منظور في اللسان (هدل) عن ابن بري.

(٣) في (م): قاله، وهو خطأ.

(٤) شاعر جاهليٌّ أدرك الإسلام ولم يُسلِم. قال ابنُ قُتيبة في الشعر والشعراء ص٤٥٩: قد كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يُبعث قد أظلَّ زمانه، ويؤمِّل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصتُه، كفرَ حَسَداً له. وذكر البغدادي في خزانته ١/ ٢٥٢ أنه مات في السنة التاسعة، وقال: لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً. اهـ. وقد أنشد الشَّريدُ بنُ سُوَيد رسولَ الله ﷺ مئة بيت من شعر أمية. كما في صحيح مسلم (٢٢٥٥). فقال رسول الله ﷺ: «إن كادَ لَيُسلِمُ».

(٥) البيت في ديوانه ص ١٢١. وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٧٤، والماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٦، وسيكرر المصنف هذا البيت وما سلف من الأبيات قبله في المواضع من الآيات المذكورة.

(٦) من رؤوس الخوارج، وإليه تنسب طائفة الأزارقة، وكان قد خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية. له أسئلة عن ابن عباس، أخرج الطبراني بعضها في الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤.

سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ما السِّنة؟ قال: النُّعاس، قال زُهير بنُ أبي سُلمَى[١]:

لاسِنَـةٌ فـي طَـوالِ الـلَّـيـلِ[٢] تـأخُـذُهُ ولا يـنـامُ ولا فـي أمـرِه فَـنَـدُ

باب ماجاء في فضل تفسير القرآنِ وأهلهِ

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين:

فمن ذلك أن عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابرَ بنَ عبد الله، ووصفَه بالعلم، فقال له رجل: جُعلتُ فداءك، تصف جابراً بالعلم، وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال مجاهد: أَحَبُّ الخلق إلى الله تعالى أعلمُهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزلَ الله آيةً إلا أَحَبَّ أن يُعلم فيما[٣] أُنزلت، وما يَعني بها.

وقال الشعبيُّ: رَحَلَ مسروق[٤] إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يُفسِّرُها رَحَلَ إلى الشام[٥]، فَتَجَهَّزَ، ورَحَلَ إلى الشام حتى عَلِمَ تفسيرَها[٦].

وقال عكرمة[٧] في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠]: طلبتُ اسمَ هذا الرجلِ أربعَ عَشرةَ سنة حتى وجدتُه[٨].

---

(١) شاعر جاهلي، لم يدرك الإسلام، وكان من المقدَّمين على سائر الشعراء. الشعر والشعراء ١/ ١٤١.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٨: في طوال الدهر.

(٣) في (د) و(ز): أعلم فيمن.

(٤) ابن الأجدع، أبو عائشة الوادعي، الهمداني، الكوفي، عداده في كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، توفي سنة (٦٢هـ) وقيل: سنة (٦٣هـ). السير ٤/ ٦٣.

(٥) في (د): رجل بالشام.

(٦) أورد ابن عطية هذه الأخبار في تفسيره ١/ ٤٠.

(٧) أبو عبد الله القرشي مولاهم، المدني، البربري الأصل، الحافظ المفسر، لازم ابن عباس وأخذ عنه العلم، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ٥/ ١٢.

(٨) أورده ابنُ عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ضمرة بن العيص بن ضمرة (بهامش الإصابة ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

وقال ابنُ عبد البَرّ: هو ضَمرةُ[1] بنُ حَبيب، وسيأتي[2].

وقال ابن عباس: مَكَثتُ سَنَتَين[3] أُريد أن أسألَ عُمرَ عن المرأتين اللتَينِ تَظاهَرَتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابتُه، فسألتُه، فقال: هي حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية[4]: مَثَلُ الذين يقرؤون القرآنَ وهم لا يعلمون تفسيرَه، كَمَثَل قوم جاءهم كتابٌ من مَلِكِهم ليلاً، وليس عندَهم مصباح، فتدَاخَلَتْهُم رَوْعَة، ولا يَدْرُون ما في الكتاب، ومَثَلُ الذي يعرفُ التفسيرَ كَمَثلِ رجل جاءهم بمصباح، فقرؤوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن، ومَن هو، وفيمن عاداه

قال أبو عمر[5]: رُوِيَ من وجوه فيها لِينٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن تَعظيم جَلالِ الله إكرامُ ثلاثة: الإمام المُقسِطِ، وذي الشَّيبةِ المُسلمِ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه، ولا الجافي عنه»[6].

وقال أبو عمر: وحَمَلَةُ القرآنِ هم العالِمونَ بأحكامِه، وحَلالِهِ وحَرامِه، والعامِلُون بما فيه. ورَوَى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «القُرآنُ أفضَلُ من كلِّ شيء، فَمَن

---

(١) في (ز) و(ظ): ضميرة.

(٢) سيذكر المصنف الاختلاف في اسمه عند تفسير الآية المذكورة من سورة النساء، وينظر الإصابة ٥/ ١٩٧ ترجمة ضمرة بن ابي العيص.

(٣) في (ظ): سنين، وفي صحيح البخاري (٤٩١٣) وصحيح مسلم (١٤٧٩): مكثت سنة.

(٤) أبو واثلة قاضي البصرة، كان يُضرب به المَثَلُ في الدهاء والعقل، توفي سنة (١٢١هـ). السير ٥/ ١٥٥. وقد أورد ابن عطية قوله في المحرر الوجيز ١/ ٤٠.

(٥) هو ابنُ عبد البر، ولعل قوله هذا في كتابه البيان عن تلاوة القرآن، الذي ذكره هو في الاستذكار ٨/ ٢٤ و٢٦، والذهبي في السير ١٨/ ١٥٩.

(٦) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري: البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٥٧)، وأبو داود (٤٨٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٨٥) و(١٠٩٨٦)، وحسَّنه الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٦٥، والنووي في التبيان ص٣٤. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦٧٣٢)، وابنُ عدي في الكامل ٤/ ١٥٩٦، والبيهقي في الشعب (٢٦٨٧) من حديث جابر. وأخرجه البيهقي في الشعب أيضاً من حديث ابن عمر موقوفاً. وأخرجه الفريابي في فضائل القرآن (٩١) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز مرسلاً.

وَقَّرَ القرآنَ، فقد وَقَّرَ الله، ومَنِ استَخَفَّ بالقرآن، استَخَفَّ بحقِّ الله تعالى، حَمَلَةُ القُرآنِ هم المحفُوفُون[١] برحمةِ الله، المُعظِّمون كلامَ الله، المُلبَسون نورَ الله، فَمن وَالَاهم فقد وَالَى الله، ومن عاداهم فقدِ استخفَّ بحقِّ الله تعالى»[٢].

باب ما يلزمُ قارئَ القرآنِ وحاملَه من تعظيم القرآنِ وحُرمَتِه

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[٣]: فَمِن حُرمَةِ القرآن ألَّا يَمَسَّه إلا طاهراً.

ومِن حُرْمَتِه أن يقرأه وهو على طهارة.

ومِن حُرْمَتِه أن يَستاكَ ويتخلَّلَ، فيُطَيِّبَ فاهُ، إذ هو طريقُه. قال يزيد بن أبي مالك[٤]: إن أفواهَكم طُرُقٌ من طرقِ القرآن، فَطَهِّرُوها ونَظِّفُوها ما استطعتُم.

ومن حُرْمَتِه أن يستويَ له قاعداً إن كان في غير صلاة، ولا يكون متكئاً[٥].

ومِن حُرْمَتِه أن يَتَلَبَّسَ له[٦]، كما يَتَلَبَّسُ للدخول على الأمير، لأنه مُناجٍ.

ومِن حُرْمَتِه أن يستقبلَ القِبلَةَ لقراءته. وكان أبو العالية[٧] إذا قرأ اعتَمَّ، ولبسَ وارتَدَى، واستقبلَ القِبلَةَ.

---

(١) في مصادر الحديث: المخصوصون.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٤٢ (في ترجمة داود بن محمد المعيوفي الحجوري) وفي إسناده أكثرُ من علة، وأورده ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٤، وقال: فيه علي بن الحسن السامي. اهـ. وعليٌّ هذا؛ قال ابن حبان في المجروحين: لا يحل كتابة حديثه إلا على سبيل التعجب، وقال ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٥٤: ضعيف جداً. وانظر كشف الخفا ١/ ٢٠.

(٣) في الأصل (٢٥٣) منه، ص ٣٣٣.

(٤) يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الهمداني، قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك، توفي سنة (١٣٠هـ). السير ٥/ ٤٣٧، وقوله هذا الذي أورده له المصنف ليس في المطبوع من نوادر الأصول، وهو في الرعاية لمكي ص٨٢.

(٥) قوله: ومن حرمته أن يستوي له قاعداً... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٦) لفظة: له، ليست في (م).

(٧) هو رُفَيعُ بنُ مِهران، أبو العالية الرِّياحي البصري، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ بسنتين، مات سنة تسعين. تهذيب الكمال ٩/ ٢١٤.

ومن حُرْمَتِه أن يتمضمضَ كلَّما تنخَّع. روى شعبةُ، عن أبي حمزة[١]، عن ابن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[٢]، إذا تَنَخَّع مَضمَضَ، ثم أخَذَ في الذِّكر، وكان كلَّما تنخَّعَ مَضمَضَ.

ومِن حُرْمَتِهِ إذا تثاءَبَ أن يُمسِكَ عن القراءة، لأنه إذا قرأ، فهو مُخاطِبٌ ربَّه ومُناجٍ، والتثاؤبُ من الشيطان.

قال مجاهد: إذا تَثاءَبتَ وأنتَ تقرأُ القرآن، فأمسِك عن القرآن[٣] تعظيماً حتى يذهبَ تثاؤبُك. وقاله عكرمة. يريدُ أنَّ في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن.

ومن حُرْمَتِهِ أن يستعيذَ بالله عند ابتدائهِ للقراءةِ من الشيطانِ الرجيم، ويقرأ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» إن كانَ ابتدأ قراءَته من أولِ السورةِ، أو من حيثُ بلَغَ.

ومن حُرْمَتِه إذا أخذَ بسورة، لم يشتغل بشيء حتى يَفرَغَ منها إلا من ضرورة[٤].

ومِن حُرْمَتِه إذا أخذَ في القراءة، لم يَقطَعها ساعة فساعة بكلامِ الآدميين من غير ضرورة.

ومِن حُرْمَتِه أن يَخلُوَ بقراءتِهِ حتى لا يقطعَ عليه أحدٌ بكلام، فيخلِطَه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك، زالَ عنه سلطانُ الاستعاذةِ الذي استعاذ في البَدء.

ومِن حُرْمَتِه أن يقرأه على تُؤَدَة وتَرسِيل[٥] وترتيل.

ومن حُرْمَتِه أن يستعملَ فيه ذِهنَه وفهمَه حتى يَعقِلَ ما يُخاطَبُ به.

ومن حُرْمَتِه أن يقفَ على آيةِ الوَعدِ، فيرغَبَ إلى الله تعالى، ويسألَه من فضلِه، وأن يقفَ على آيةِ الوَعيد، فيستجيرَ بالله منه.

ومن حُرْمَتِه أن يقفَ على أمثاله، فَيَمتَثِلَها.

ومن حُرْمَتِه أن يلتمسَ غَرائبَه.

---

(١) هو عمران بن أبي عطاء الأسدي، أبو حمزة القصاب، الواسطي، قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: صدوق له أوهام.

(٢) التَّور إناء يُشرب فيه.

(٣) في (ز) و(د): القراءة.

(٤) قوله: ومن حرمته إذا أخذ بسورة... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) التَّرسِيلُ في القراءة: الترتيل. القاموس (رسل).

ومن حُرْمَتِه أن يُؤدِّيَ لكلِّ حرف حقَّه من الأداءِ، حتى يبرزَ الكلامُ باللفظ تماماً، فإنَّ له بكلِّ حرف عَشرَ حسنات.

ومن حُرْمَتِه إذا انتَهت قراءتُه، أن يُصَدِّقَ ربَّه، ويَشهَدَ بالبلاغِ لرسولهِ ﷺ، ويَشهدَ على ذلك أنه حقٌّ، فيقولَ: صَدَقتَ ربَّنا، وبَلَّغَتْ رُسُلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين، اللهمَّ اجعَلنا من شهداءِ الحقِّ، القائمين بالقِسط. ثم يدعوَ بدعوات.

ومِن حُرْمَتِه إذا قرأه ألا يَلتَقِطَ الآيَ من كلِّ سورة، فيقرأها، فإنه رُوِيَ لنا عن رسول الله ﷺ أنه مَرَّ ببلال وهو يقرأُ من كلِّ سورة شيئاً، فأمَرَه أن يقرأَ السورةَ كلَّها[1]. أو كما قال عليه السلام.

ومِن حُرْمَتِه إذا وَضَعَ المصحفَ[2] ألا يتركَه منشوراً، وألا يضعَ فوقَه شيئاً من الكُتبِ، حتى يكونَ أبداً عالياً لسائرِ الكتبِ، عِلماً كان أو غيرَه.

ومن حُرْمَتِه أن يضعَه في حِجرِه إذا قرأه، أو على شيء بين يديه، ولا يضعَه بالأرض.

ومن حُرْمَتِه ألا يمحوَه من اللَّوح بالبُصاق، ولكن يغسِلُه بالماء.

ومِن حُرْمَتِه إذا غَسَلَه بالماء، أن يَتَوَقَّى النجاساتِ من المواضعِ والمواقع التي تُوطَأُ، فإنَّ لتلك الغُسالة حُرمةً، وكان مَن قَبلَنا مِنَ السلفِ، منهم مَن يستشفي بغُسَالَتِه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يتخذَ الصحيفةَ إذا بَلِيَت ودَرَسَت وقايةً للكتب، فإنَّ ذلك جفاءٌ عظيم، ولكن يمحوها بالماء.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُخلِيَ يوما من أيامه من النظرِ في المصحف مَرَّة، وكان أبو موسى [الأشعريُّ] يقول: إني لأستحيي ألا أنظرَ كلَّ يوم في عهدِ ربي مَرَّة.

ومِن حُرْمَتِه أن يُعطِيَ عينَيه حظَّهما منه، فإنَّ العينَ تؤدي إلى النفس، وبين النفس

---

(١) في النسخ الخطية: أن يقرأ على السور، والمثبت من (م)، وفي نوادر الأصول ص٣٣٣ (والكلام منه): يقرأ السور كلها، وأخرج الخبر ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٥٣٢ و١٠/ ٥٥١. ٥٥٢ عن سعيد بن المسيب وزيد بن يُثيع مرسلاً وفيه: السورة على نحوها.

(٢) في النسخ الخطية: الصحيفة، والمثبت من (م).

والصَّدر حجابٌ، والقرآنُ في الصدر، فإذا قرأه عن ظهرِ قلب، فإنما يُسمِعُ أُذنَه، فتؤدِّي إلى النفس، فإذا نَظَرَ في الخطِّ، كانت العينُ والأذنُ قد اشترَكتا في الأداءِ، وذلك أوفرُ للأداء، وكانت العين قد أخذت حظَّها[١] كالأذن. رَوَى زيدُ بنُ أسلمَ[٢]، عن عطاء بن يَسار[٣]، عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطُوا أَعيُنَكم حَظَّها من العبادةِ». قالوا: يارسول الله، وما حظُّها من العبادة؟ قال: «النَّظرُ في المصحفِ، والتفكُّرُ فيه، والاعتبارُ عند عجائبِهِ»[٤]. ورَوَى مكحولٌ، عن عُبَادةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضَلُ عبادةِ أُمتي قراءةُ القرآن نظراً»[٥].

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يتأوَّلَه عندما يَعرِضُ له شيءٌ من أمر الدنيا. حدثنا عمرو بنُ زياد الحنظليُّ قال: حدثنا هُشَيمُ بنُ بَشِير، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: كان يكره أن يُتأوَّلَ شيءٌ من القرآن عندما يَعرِضُ له شيءٌ من أمر الدنيا[٦]. والتأويلُ: مثلُ قولك للرجل إذا جاءك: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] هذا عند حضور الطعام، وأشباهِ هذا.

ومِن حُرْمَتِهِ ألا يقال: سورة كذا، كقولك: سورةُ النحل، وسورة البقرة، وسورة النساء، ولكن يقال: السورة التي يُذكر فيها كذا.

قلت: هذا يعارضُه قولُه ﷺ: «الآيتانِ مِن آخِرِ سورةِ البقرةِ، مَن قَرَأَ بهما في ليلة

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وكان قد أخذت العين حظها، والمثبت من (ظ).

(٢) أبو عبد الله العدوي، العمري، المدني، الفقيه، حدث عن جمع من الصحابة، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ). السير ٥/ ٣١٦.

(٣) المدني، مولى ميمونة، كان فقيهاً واعظاً ثبتاً، وهو أخو سليمان بن يسار، توفي سنة (١٠٣هـ)، ويقال: قبل المئة. السير ٤/ ٤٤٨.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٢) وقال: إسناده ضعيف. وضعفه أيضا الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ٤٢٤.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٢) (دون قوله: نظراً) من حديث النعمان بن بشير، ونسبه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ٢٧٣ إلى أبي نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن أنس، وضعفه.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٨ عن هشيم، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥١٥ عن جرير، عن مغيرة بنحوه. هُشَيم: هو ابنُ بشير، ومُغيرة: هو ابنُ مِقسَم الضَّبِّي.

كَفَتَاه». خرَّجه البخاريُّ ومُسلم، من حديث عبد الله بن مسعود[١].

ومِن حُرْمَتِه ألا يُتلَى منكوساً، كفعل مُعلِّمي الصِّبيان، يلتمسُ أحدُهم بذلك أن يُرِيَ الحِذقَ من نفسه والمَهارَة، فإن تلك مَجانَة[٢].

ومِن حُرْمَتِه ألا يُقَعِّرَ في قراءته، كفعلِ هؤلاء الهمزيِّين المبتدعين، المتنطِّعين في إبرازِ الكلام من تلك الأفواه المنتِنة تكلُّفاً، فإن ذلك مُحدَثٌ، ألقاه إليهمُ الشيطانُ فقَبِلُوه عنه[٣].

ومِن حُرْمَتِه ألا يقرأه بألحانِ الغِناءِ، كلحونِ أهلِ الفِسق[٤]، ولا بترجيعِ النَّصارى، ولا نَوحِ الرَّهبانيَّة، فإنَّ ذلك كلَّه زَيغٌ. وقد تقدَّم[٥].

ومن حُرْمَتِه أن يجلل تخطيطَه إذا خطَّه. وعن أبي حُكَيمَة أنه كان يكتبُ المصاحف بالكوفة، فمر عليٌّ رضي الله عنه، فنظرَ إلى كتابتِهِ، فقال له: أُجِلْ[٦] قَلَمَكَ، فأخذتُ القلمَ فقَطَطتُه[٧] من طَرَفِهِ قَطًّا، ثم كتبتُ وعليٌّ رضي الله عنه قائمٌ ينظرُ إلى كتابتي، فقال: هكذا، نَوِّرْه كما نوَّرَه الله عزَّ وجلَّ[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٠٨)، وصحيح مسلم (٨٠٧).

(٢) من المُجون، وهو قلة الحياء وخلط الجدّ بالهزل، ووقع في (م): مخالفة.

(٣) في (د) و(ظ): فتلقوه عنه، والمثبت من (م)، ومن قوله: ومن حرمته ألا يقعر في قراءته... إلى هذا الموضع، لم يرد في المطبوع من نوادر الأصول. والمقصود بالهمزيين مَن يَغلُون في تلاوتهم لحمزة، وقد نقل الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ ١٧٥ عن الإمام حمزة قوله: إن لهذا التحقيق حدًّا ينتهي إليه، ثم يكون قبيحاً، وعنه قال: إنما الهمز رياضة، فإذا حسَّنَها الرجل سَهَّلَها. اهـ. ثم ذكر الذهبي أن الإجماع انعقد على ثبوت قراءة حمزة وصحتها، وقال: وبالجملة إذا رأيتَ الإمامَ في المحراب لَهِجا بالقراءات، وتَتَبُّع غريبها، فاعلم أنه فارغٌ من الخشوع، مُحِبٌّ للشهرة والظهور، نسأل الله السلامة في الدين. وانظر جمال القراء لعلم الدين السخاوي ٢/ ٥٦٥ ـ ٥٧٤.

(٤) في (ظ): العشق.

(٥) ص٣١ ـ ٣٢.

(٦) في نوادر الأصول ص٣٣٤ (والكلام منه): اجلل.

(٧) في (ظ) ونوادر الأصول ص٣٣٤: فقططت.

(٨) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٣، وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤، والدولابي في الكنى ١/ ١٥٥، والبيهقي في الشعب (٢٦٦٣). أبو حُكَيمة ـ بالتصغير كما في تبصير المنتبه ١/ ٤٥٠ ـ هو عِصمة البصري. وجاء عند الدولابي: فقططتُ من قلمي ثم كتبت أجلى من ذلك... وترجم له أبو عبيد بقوله: باب كتابة المصاحف، وما يستحب من عظمها، ويكره من صغرها. اهـ. وقوله: فقططتهُ، يعني قَطَعَهُ عرضاً.

ومن حُرْمَتِه ألا يَجهَرَ بعضٌ على بعض في القراءة، فيفْسدَ عليه، حتى يُبغِّضَ إليه ما يسمع، ويكونَ كهيئةِ المُغالبةِ.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُمارِيَ، ولا يجادلَ فيه في القراءات، ولا يقولَ لصاحبه: ليس هكذا هو، ولعله أن تكونَ تلك القراءةُ صحيحةً جائزةً من القرآن، فيكونَ قد جحدَ كتابَ[1] الله.

ومِن حُرْمَتِه ألا يقرأ في الأسواقِ، ولا في مواطن اللَّغَط واللَّغو، ومَجمَعِ السفهاء، ألا تَرَى أنَّ الله تعالى ذَكَرَ عبادَ الرَّحمن، وأثنى عليهم، بأنَّهم إذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً ؟! هذا لمرورِه بنفسهِ، فكيف إذا مَرَّ بالقرآن الكريمِ تلاوةً بين ظَهرانَي أهلِ اللَّغو ومجمعِ السفهاء ؟!

ومِن حُرْمَتِه ألا يَتوسَّدَ المصحفَ، ولا يَعتمِدَ عليه، ولا يَرمِيَ به إلى صاحبه إذا أرادَ أن يُناوِلَه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُصَغِّرَ المصحفَ. روى الأعمش، عن إبراهيم، عن علي رضي الله عنه قال: لا يُصغَّرُ المصحف[2].

قلت: ورُوي عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل، فقال: مَن كتبَه ؟ قال: أنا، فضرَبَه بالدِّرَّة، وقال: عَظِّمُوا القرآن[3]. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يقال: مُسَيْجِد، أو مُصَيْحِف[4].

ومِن حُرْمَتِه: ألا يخلطَ فيه ما ليس منه.

ومِن حُرْمَتِه ألا يُحَلَّى بالذَّهبِ، ولا يُكتبَ بالذَّهب، فتُخلَطَ به زينةُ الدنيا. وروى مغيرةُ، عن إبراهيم[5]، أنه كان يكرهُ أن يُحَلَّى المصحفُ، أو يُكتَبَ بالذهبِ، أو

---

(١) في (ظ): كلام.

(٢) أخرج نحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٤٤.

(٣) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص٢٤٣.

(٤) لم يصح مرفوعاً، فيما ذكر ابن عدي في الكامل ١/ ٣٢٥، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٥٤٤، وابن أبي داود في المصاحف ١٥٢ ـ ١٥٣، والبيهقي في الشعب من قول مجاهد، وأخرجه ابن أبي داود أيضاً في المصاحف ص١٥٣ من قول إبراهيم النخعي. وينظر ميزان الاعتدال ١/ ٢٠٠، و٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ترجمة إسحاق بن نجيح الملطي، وعيسى بن إبراهيم بن طهمان.

(٥) مغيرة: هو ابنُ مِقسَم الضَّبِّي، وإبراهيم: هو ابن يزيد النخعي.

يعلَّم عند رؤوس الآي، أو يُصَغَّرَ. وعن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا زَخْرَفتُم مَساجِدَكم وحَلَّيتُم مَصاحِفَكم، فالدَّبارُ عليكم»[١]. وقال ابن عباس وقد رأى مصحفاً زُيِّنَ بفضَّة: تُغْرُونَ به السارقَ، وزِينتُه في جوفه.

ومن حُرْمَتِه ألا يُكتبَ على الأرض، ولا على حائط، كما يُفعل بهذه[٢] المساجد المُحْدَثَة. حدثنا محمد بنُ علي الشَّقيقيُّ، عن أبيه، عن عبد الله بن المبارك، عن سفيانَ، عن محمد بن الزبير قال: سمعتُ عمرَ بن عبد العزيز يحدثُ قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بكتاب في أرض، فقال لشابٍّ من هُذَيل: «ما هذا؟» قال: من كتاب الله، كتبه يهوديٌّ، فقال: «لعنَ اللهُ مَن فعلَ هذا، لا تضعوا كتابَ اللهِ إلا مَوضِعَه»[٣]. قال محمدُ بن الزبير: رأى عمرُ بنُ عبد العزيز ابناً له يكتبُ القرآنَ على حائط، فضربَه.

ومن حُرْمَتِه أنه إذا اغتَسَلَ بكتابته مُستشفياً من سَقَم، ألا يَصُبَّه على كُناسَة، ولا في موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطَأ، ولكن ناحية من الأرض في بُقعة، لا يطؤه الناس، أو يَحفِرَ حَفِيرة في موضع طاهر حتى ينصبَّ من جسده في تلك الحَفيرة، ثم يَكبِسُها، أو في نهرٍ كبير يختلطُ بمائه، فيجري.

ومِن حُرْمَتِه أن يَفتَتِحَه كلَّما ختمَه، حتى لا يكونَ كهيئة المهجور، وكذلك كان رسولُ الله ﷺ إذا ختمَ، يقرأُ من أوَّل القرآنِ قَدرَ خَمسِ آيات، لئلا يكونَ في هيئة المهجور[٤]. وروى ابنُ عباس قال: جاء رجلٌ، فقال: يارسولَ الله، أيُّ العمل أفضلُ؟ قال: «عليك بالحالِّ المُرتَحِل». قال: وما الحالُّ المُرتَحِلُ؟ قال: «صاحِبُ القرآن، يَضرِبُ من أوَّلِه حتى يَبلُغَ آخِرَه، ثم يَضرِبُ في أوَّله، كلَّما حَلَّ ارتَحَلَ»[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٩٧)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٤٢، وابن أبي داود في المصاحف ص١٥٠ عن أبي الدرداء موقوفاً. قال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص٢٥: لا يصح رفعه. اهـ قوله: الدَّبار، بالفتح: الهلاك. النهاية (دبر).

(٢) في (م): به في.

(٣) إسناده ضعيف جداً. محمد بن الزبير ـ وهو الحنظلي ـ متروك، ثم إن الخبر مرسل، فعمر بن عبد العزيز ـ أمير المؤمنين ـ من التابعين.

(٤) ذكر نحوه مكي في الرعاية ص٥٦.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٩٤٨)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٦٠، وأبو الفضل الرازي في فضائل القرآن (٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٠١). قال الترمذي: حديث حسن غريب... وإسناده ليس بالقوي. =

قلتُ: ويستحبُّ له إذا ختم القرآنَ أن يَجمَعَ أهلَه:

ذكر أبو بكر الأنباري: أنبأنا إدريسُ، حدثنا خَلَف، حدثنا وكيعٌ، عن مِسعَر، عن قتادةَ، أن أنسَ بن مالك كان إذا ختم القرآنَ، جمع أهلَه، ودعا[١]. وأخبرنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا جريرٌ، عن منصور، عن الحَكَم قال: كان مجاهدٌ وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابَةَ[٢] وقومٌ يَعرِضُون المصاحفَ، فإذا أرادُوا أن يَختِمُوا، وجَّهُوا إلينا: أُحضُرُونا، فإنَّ الرحمةَ تَنزِلُ عند خَتمِ القرآن[٣]. وأخبرنا إدريسُ، حدثنا خَلَفٌ، حدثنا هُشَيم، عن العوَّام، عن إبراهيم التَّيميِّ قال: مَن خَتَمَ القرآنَ أوَّلَ النهار، صَلَّت عليه الملائكةُ حتى يُمسِيَ، ومَن خَتَمَ أوَّلَ الليل، صَلَّت عليه الملائكةُ حتى يُصبِحَ. قال: فكانوا يَستحبُّون[٤] أن يَختِمُوا أوَّلَ الليل، وأوَّلَ النهار[٥].

ومِن حُرْمَتِه ألا تَكتُبَ التعاويذَ منه، ثم تَدخُلَ به في الخلاء، إلا أن يكونَ في غلاف من أَدَم، أو فِضَّة، أو غيره، فيكونَ كأنَّه في صدرك.

ومِن حُرْمَتِهِ إذا كتبَه وشَرِبَه، سَمَّى اللهَ على كل نَفَس، وعَظَّمَ النيةَ فيه، فإنَّ اللهَ يُؤتيهِ على قَدْرِ نيَّته. روى ليث، عن مجاهد قال: لا بأس أن يكتبَ القرآنَ، ثم يسقيَه[٦] المريضَ. وعن أبي جعفر قال: مَن وَجَدَ في قلبه قساوة، فَلْيَكتُب «يس» في جامٍ بزعفران، ثم يشربه[٧].

= وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن ابن عباس مرسلاً، وقال: وهذا عندي أصح.

(١) أخرجه في فضائل القرآن أبو عبيد ص٤٨، والفريابي (٨٥) (٨٦)، وابن الضُّريس (٨٤). وإسناده صحيح.

(٢) أبو القاسم الأسدي، ثم الغاضري مولاهم، الكوفي التاجر، أحد الأئمة، نزل دمشق، توفي في حدود سنة (١٢٧هـ). السير ٥/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه في فضائل القرآن أيضاً أبو عُبيد ص ٤٧ ـ ٤٨، والفريابي في (٨٧) و(٨٨) و(٨٩)، وابنُ الضُّريس (٨١)، وهو أثر صحيح.

(٤) في (د): يستحسنون.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٤٩، والدارمي في السنن (٣٤٧٧)، وابن الضُّريس في فضائل القرآن (٥٠).

(٦) في (م): تكتب... تسقيه.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٦٨) وقال بإثره: وكان إبراهيم يكره ذلك، ولو صحَّ الحديثُ لم يكن للكراهة معنى، إلا أن في صحته نظراً، والله أعلم. اهـ أبو جعفر: هو الباقر. وقوله: جام: هو إناء من فضة.

قلتُ: ومن حُرْمَتِه ألا يقال: سورة صغيرة. وكره أبو العالية أن يقال: سورةٌ صغيرة، أو كبيرة، وقال لمن سمعه قالها: أنت أصغرُ منها، وأما القرآنُ، فكلُّه عظيم. ذكره مكيٌّ رحمه الله[١].

قلتُ: وقد روى أبو داود ما يُعارضُ هذا من حديث عَمرِو بنِ شُعَيب[٢]، عن أبيه، عن جدِّه، أنه قال: مامِنَ المُفَصَّلِ سُورةٌ، صغيرةٌ ولا كبيرةٌ، إلا قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَؤُمُّ بها الناسَ في الصلاة[٣].

باب ماجاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجُرأة على ذلك، ومراتب المفسرين

رُوِيَ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يُفسِّرُ من كتاب الله إلا آياً بعدد، عَلَّمَهُ إيَّاهنَّ جبريلُ[٤].

قال ابنُ عطية: ومعنى هذا الحديثِ في مُغيَّبات القرآن، وتفسيرِ مُجمَلِهِ، ونحو هذا مما لا سبيلَ إليه إلا بتوقيف[٥] من الله تعالى، ومن جملةِ مُغَيَّباته ما لم يُعلِمِ اللهُ به، كوقت قيامِ الساعة، ونحوِها مما يُستَقرَأُ من ألفاظه، كعدد النَّفَخات في الصور، وكرتبةِ خَلقِ السماوات والأرض[٦].

رَوى الترمذيُّ، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «اتَّقُوا الحديثَ عليَّ إلا ما

---

(١) الرعاية ص٨٣.

(٢) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، أبو إبراهيم، ويقال: أبو عبد الله. ورواية أبيه عن جده إنما يعني بها جدَّه الأعلى عبد الله بن عمرو لا محمد بن عبد الله. تهذيب التهذيب ٣/٢٧٩.

(٣) سنن أبي داود (٨١٤). قوله: المفصَّل؛ ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢/٢٥٩ أنها من سورة ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وذكر الإمام النووي في شرح مسلم ٦/١٠٦ أنه سمي مفصلاً لقصر سوره، وقرب انفصال بعضهن من بعض.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٥٢٨)، والبزار (٢١٨٥) (زوائد). وإسناده ضعيف، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٧٠٣ وقال: فيه راو لم يتحرر اسمه عند واحدٍ منهما، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) في (م): بتوفيق، وهو خطأ.

(٦) المحرر الوجيز ١/٤١.

علمتُم، فَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعمِّداً، فَلْيَتَبوَّأ مَقْعَدَه منَ النَّار، ومَن قالَ في القرآن برأيه، فَليتبوَّأ مَقعَدَه مِنَ النَّار»[١]. ورَوَى أيضاً عن جُنْدُب[٢] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قالَ في القرآن[٣] برأيه، فأصابَ، فقد أخطأ». قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّمَ في أحد رواته[٤]. وزاد رَزِين: ومَن قال برأيه، فأخطأ، فقد كفرَ.

قال أبو بكر محمدُ بن القاسم بنِ بشار بنِ محمد الأنباريُّ النَّحويُّ اللغويُّ في كتاب «الردّ»: فُسِّرَ حديثُ ابنِ عباس تفسيرَين: أحدهما: مَن قالَ في مُشكِلِ القرآنِ بما لايَعرِفُ مِن مَذهبِ الأوائل من الصحابة والتابعين، فهو مُتعرِّضٌ لِسَخَطِ الله. والجوابُ الآخر ـ وهو أثبتُ القولَين وأصحُّهُما معنى ـ: مَن قالَ في القرآن قولاً يعلَمُ أنَّ الحقَّ غيرُه، فَليتبوَّأ مَقعَدَهُ من النار. ومعنى يَتَبَوَّأ: يَنزِلُ ويَحُلُّ. قال الشاعر[٥]:

وبُوِّئَتْ في صَميمِ مَعْشَرِها ... فَتَمَّ في قومِها مُبَوَّؤُها

وقال في حديث جُنْدُب: فحملَ بعضُ أهلِ العلمِ هذا الحديثَ على أنَّ الرأيَ معنيٌّ به الهَوَى، مَن قالَ في القرآن قولاً يُوافِقُ هواه، لم يأخُذْه عن أئمَّةِ السَّلَف، فأصابَ، فقد أخطأ، لِحُكمه على القرآن بما لا يعرفُ أصلَه، ولا يقفُ على مذاهب أهلِ الأثر والنَّقل فيه.

وقال ابنُ عطية: ومعنى هذا أن يُسأل الرجلُ عن معنًى من[٦] كتاب الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٥١) وقال: حديث حسن. وفيه: «اتقوا الحديث عني...». وهو في المسند برقم (٢٩٧٤). وسيذكره المصنف مختصراً ص ١٢٦. وقوله: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً، فليتبوأ مقعدَه من النار» من الأحاديث المتواترة. فتح الباري ١/ ٢٠٣، والأزهار المتناثرة (٢).

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان، أبو عبد الله البجلي العلقي، الصحابي، نزل الكوفة والبصرة، وعاش إلى حدود سنة (٧٠هـ). السير ٣/ ١٧٤.

(٣) في (د): بالقرآن.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٥٢)، وسنن أبي داود (٣٦٥٢)، وفي إسناده سهيل بن أبي حزم (مِهران أبو عبد الله) القُطَعي، ضعَّفه البخاري وأبو حاتم الرازي والنسائي.

(٥) هو إبراهيم بن هَرْمة القُرشي، من شعراء الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ. السير ٦/ ٢٠٧، والبيت في ديوانه ص٥٧. وأورده الخليل في العين ٨/ ٤١١، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة ١/ ٣١٢ باب الباء والواو (بوأ)، وابن منظور في اللسان (بوأ).

(٦) في (م): في.

فَيَتَسوَّرَ[(١)] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماءُ، واقتَضَته قوانينُ العلم، كالنحو والأصول. وليس يدخلُ في هذا الحديث أن يُفسِّرَ اللغويون لغتَه، والنَّحويون نحوَه، والفقهاءُ معانيَه، ويقولَ كلُّ واحد باجتهاده المبنيِّ على قوانينِ علم ونَظَر، فإنَّ القائلَ على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرَّدِ رأيِه[(٢)].

قلتُ: هذا صحيحٌ. وهو الذي اختاره غيرُ واحد من العلماء، فإنَّ مَن قال فيه بما سَنَحَ في وَهمه، وخَطَر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطِئٌ، وإنَّ مَنِ استَنبَطَ معناه بحَملِهِ على الأصول المُحكَمَةِ المتَّفَقِ على معناها، فهو ممدوحٌ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّ التفسيرَ موقوفٌ على السماع، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا فاسدٌ، لأن النهيَ عن تفسير القرآن لا يَخلُو: إمَّا أن يكونَ المرادُ به الاقتصارَ على النقل والمسموع، وتَركَ الاستنباط، أو المرادُ به أمراً آخرَ. وباطلٌ أن يكونَ المرادُ به ألا يَتَكلَّمَ أحدٌ في القرآن إلا بما سَمِعَه، فإنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم قد فسَّروا[(٣)] القرآنَ، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كلُّ ماقالوه سمعوه من النبيِّ ﷺ، فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لابن عباس، وقال: «اللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعَلِّمْهُ التأويلَ»[(٤)]. فإن كان التأويلُ مسموعا كالتنزيل، فما فائدةُ تخصيصه بذلك؟! وهذا بيِّنٌ لا إشكالَ فيه، وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى[(٥)].

وإنما النَّهيُ يُحمَلُ على أحدِ وجهين:

أحدهما: أن يكونَ له في الشيء رأيٌ، وإليه مَيلٌ من طبعه وهواه، فيتأوَّلَ القرآنَ على وَفقِ رأيِه وهواه، ليحتجَّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكُن له ذلك الرأيُ والهوى، لكان لا يلوحُ له من القرآن ذلك المعنى.

---

(١) في (ظ): فيتبور.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٣) في (م): قرؤوا.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣) دون قوله: «وعلمه التأويل»، من حديث ابن عباس، وأخرجه مسلم من حديثه (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فَقِّهْهُ»، وأخرجه بتمامه أحمد (٢٣٩٧).

(٥) في تفسير الآية المذكورة منها.

وهذا النوعُ يكون تارةً مع العلم، كالذي يحتجُّ ببعض آياتِ القرآنِ على تصحيح بِدعَتِه، وهو يعلمُ أن ليس المرادُ بالآية ذلك، ولكنَّ مقصودَه أن يَلبِسَ على خَصمِه. وتارة يكونُ مع الجهل، وذلك إذا كانت الآيةُ مُحتمِلة، فيميلُ فهمُه إلى الوجه الذي يوافقُ غَرَضَه، ويُرجِّحُ ذلك الجانبَ برأيه وهواه، فيكون قد فسَّر برأيه، أي رأيُه حملَه على ذلك التفسير، ولولا رأيُه لما كان يترجَّح عنده ذلك الوجهُ. وتارة يكون له غرضٌ صحيح، فيطلبُ له دليلاً من القرآن، ويستدلُّ عليه بما يَعلم أنه ما أُريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول: قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] ويشير إلى قلبه، ويومىءُ إلى أنه المرادُ بفرعون.

وهذا الجنسُ قد يستعملُه بعضُ الوعَّاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو ممنوعٌ، لأنه قياسٌ في اللغة، وذلك غيرُ جائز. وقد تستعملُه الباطنيَّةُ في المقاصد الفاسدة، لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزِّلون القرآنَ على وَفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غيرُ مُرادَة. فهذه الفنونُ أحدُ وَجهَي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارعَ إلى تفسير القرآنِ بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلقُ بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المُبهَمَةِ والمُبدَلة، وما فيه من الاختصار، والحذفِ والإضمار، والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكِم ظاهرَ التفسير، وبادرَ إلى استنباط المعاني بمجرَّد فَهمِ العربية، كَثُرَ غَلَطُه، ودخلَ في زُمرةِ مَن فَسَّر القرآنَ بالرأي.

والنقلُ والسماع لابُدَّ له منه في ظاهر التفسير أوَّلاً ليتَّقيَ به مواضعَ الغَلَط، ثم بعد ذلك يتَّسعُ الفهمُ والاستنباط.

والغرائبُ التي لا تُفهم إلا بالسماع كثيرةٌ، ولا مَطمَعَ في الوصول إلى الباطن قبلَ إحكام الظاهر، ألا ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] معناه: آية مُبصِرَة، فظلموا أنفسَهم بقتلها. فالناظرُ إلى ظاهر العربية يظنُّ أنَّ المرادَ به أنَّ الناقةَ كانت مُبصِرة، ولا يدري بماذا ظلمُوا، وأنهم ظلموا غيرَهم وأنفسَهم، فهذا من الحذف والإضمار. وأمثالُ هذا في القرآن كثيرٌ، وما عدا هذين الوجهين، فلا يتطرَّقُ النهيُ إليه. والله أعلم.

قال ابن عطية[١]: وكان جِلَّةٌ من السلف الصالح، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبيِّ، وغيرِهما، يُعظِّمُون تفسيرَ القرآن، ويتوقَّفُون عنه تورُّعاً، واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدُّمهم.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وقد كان الأئمةُ من السلف الماضي يتورَّعون عن تفسير المُشكِلِ من القرآن، فبعضٌ يُقَدِّرُ أنَّ الذي يُفسِّرُه لا يوافقُ مُرادَ الله عزَّ وجلَّ، فَيُحجِمُ عن القول. وبعضٌ يُشفِقُ من أن يُجعَلَ في التفسير إماماً يُبنَى على مذهبه، ويُقتفَى طريقُه، فلعلَّ متأخِّراً أن يُفسِّرَ حرفاً برأيه، ويُخطىءَ فيه، ويقولَ: إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلانٌ الإمامُ من السَّلَف.

وعن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: سُئِل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، وأين أذهَبُ، وكيف أصنعُ، إذا قلتُ في حرف من كتاب الله بغير ما أرادَ تبارك وتعالى[٢].

قال ابنُ عطية: وكان جِلَّةٌ منَ السَّلَف كثيرٌ عددُهم يُفَسِّرون القرآنَ، وهم أبْقَوْا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم. فأما صَدرُ المفسِّرين والمؤيَّد فيهم، فعليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، ويتلُوه عبدُ الله بنُ عباس، وهو تَجرَّدَ للأمر وكمَّله، وتَبِعَهُ[٣] العلماءُ عليه، كمجاهد، وسعيد بنِ جُبير، وغيرِهما. والمحفوظُ عنه في ذلك أكثرُ من المحفوظ عن عليٍّ. وقال ابنُ عباس: ما أخذتُ من تفسير القرآن، فعن عليِّ بن أبي طالب. وكان عليٌّ رضي الله عنه يُثنِي على تفسير ابنِ عباس، ويَحُضُّ على الأخذِ منه[٤]، وكان ابنُ مسعود[٥] يقول: نِعم تَرجَمانُ القرآنِ عبدُ الله بنُ عباس[٦]. وقال عنه عليٌّ رضي الله عنه: ابنُ عباس؛ كأنما ينظرُ إلى الغَيب من سِتر رقيق.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٢) أورده البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧٩)، وهو منقطع. ابن أبي مُليكة ـ وهو عبد الله بن عبيد الله ـ ليس له رواية عن أبي بكر.

(٣) في (د): وتفقه.

(٤) في (م): عنه.

(٥) في (م): ابن عباس، وهو خطأ.

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٦، والطبري في تهذيب الآثار (٢٦٨) (مسند ابن عباس).

ويتلوه عبدُ الله بنُ مسعود، وأُبَيُّ بنُ كَعب، وزيدُ بنُ ثابت، وعبدُ الله بنُ عَمرو بنِ العاص. وكلُّ ما أُخِذَ عن الصحابة، فَحَسنٌ مقدَّمٌ[١]، لشهودهم التنزيلَ، ونزولِهِ بلغتهم.

وعن عامر بن واثلةَ[٢] قال: شَهِدتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يخطُبُ، فسمعتُه يقولُ في خُطبته: سلوني، فوالله، لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتُكم به، سلُوني عن كتاب الله، فوالله، ما من آية إلا أنا أعلمُ أبِلَيلٍ نزلَت أم بنهار، أم في سَهلٍ نزلَت أم في جَبَل، فقامَ إليه ابنُ الكَوَّاء، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما الذَّاريات ذَرْواً؟ وذكر الحديث[٣].

وعن المِنهال بن عمرو قال: قال عبدُ الله بنُ مسعود: لو أعلمُ أحداً أعلمَ بكتاب الله مني تَبلُغُه المَطِيُّ، لأتيتُه، فقال له رجلٌ: أما لَقِيتَ عليَّ بنَ أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لَقِيتُه[٤].

وعن مسروق قال: وجدتُ أصحابَ محمد ﷺ مِثلَ الإخاذ: يُروِي الواحدَ، والإخاذُ يُروِي الاثنين، والإخاذُ لو وردَ عليه الناسُ أجمعون لأَصْدَرَهُم، وإنَّ عبدَ الله بنَ مسعود من تلك الإخاذ[٥]. ذكر هذه المناقبَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الرَّدّ»، وقال: الإخاذُ عند العرب: الموضع الذي يَحبِسُ الماءَ، كالغدير.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١.

(٢) هو أبو الطفيل الليثي، الكناني، الحجازي، آخر من رأى النبي ﷺ في حجة الوداع، توفي بمكة سنة (١١٠هـ). السير ٣/ ٤٦٧.

(٣) أخرجه بتمامه ومختصراً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤١، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٣٨، والطبري في التفسير ٢١/ ٤٨١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧، والضياء المقدسي في المختارة ٢/ ١٧٦. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. ابن الكوَّاء: هو عبد الله؛ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ٣/ ٣٢٩: له أخبار كثيرة مع علي، وكان يلزمه ويُعيِيه في الأسئلة، وقد رجع عن مذهب الخوارج، وعاود صحبة علي.

(٤) قوله: عن المنهال بن عمرو قال: قال عبد الله، فيه نظر، فقد ذكر ابن سعد الخبر في الطبقات ٦/ ٢٠٢ وقال: المنهال، وليس بابن عمرو، سمع عبد الله يقول: لو أن أحداً أعلم... فذكره. والمنهال بن عمرو، من رجال البخاري وأصحاب السنن، وروايته عن كبار التابعين. وقد أخرج الخبر بأتم منه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣) من طريق مسروق، عن عبد الله، دون ذكر الرجل.

(٥) قال ابن الأثير في النهاية: جمعُ أُخُذ، مثل كتاب وكتب، وقيل: هو جمع الإخاذة. قال: يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

قال أبو بكر: حدثنا أحمدُ بنُ الهيثم بن خالد، حدثنا أحمدُ بنُ عبد الله بن يونس، حدثنا سلَّام، عن زيدٍ العَمِّي، عن أبي الصدِّيق الناجي، عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أرحمُ أمتي بها أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمرُ، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيدٌ، وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَيُّ بن كعب، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذُ بن جَبَل، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، وأبو هريرةَ وِعاءٌ من العلم، وسلمانُ بحرٌ من علم لا يُدرَك، وما أظَلَّتِ الخَضْراءُ، ولا أقلَّتِ الغَبْراءُ ـ أو قال: البطحاء ـ من ذي لَهجَة أصدَقَ من أبي ذرٍّ»[(١)].

قال ابن عطية: ومن المبرِّزين في التابعين: الحسنُ البصريُّ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبير، وعَلقَمَةُ. قرأ مجاهدٌ على ابنِ عباس قراءةَ تَفَهُّمٍ، ووقوفٍ عند كلِّ آية. ويتلوهم عِكرمةُ، والضَّحّاكُ، وإن كان لم يلقَ ابنَ عباس، وإنما أخَذَ عن ابنِ جُبير. وأما السُّدِّي[(٢)]، فكان عامرٌ الشَّعبِيُّ يَطعُنُ عليه، وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مُقَصِّرَيْنِ في النَّظَر[(٣)].

---

(١) في هذا الحديث تفصيل، فإن إسناده ضعيف جدا. سلّام ـ وهو ابنُ سَلْم الطويل ـ متروك الحديث، وزيد العَمّي ضعيف. وقد أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» ٢/ ١٥٩ من طريق سلام بالإسناد الذي أورده المصنف. وقوله منه: «أرحم أمتي بها أبو بكر...» إلى قوله: «وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»: أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) (دون قوله: وأقضاهم علي)، وابن ماجه (١٥٤) (١٥٥) من حديث أنس بن مالك. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقوله منه: «وما أظلَّت الخضراء...»: أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١) وحسَّنه، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٧٢٦) و(٢٧٤٩٣) من حديث أبي الدرداء. وأما قوله: «وأبو هريرة وعاء من العلم، وسلمانُ بحر من علم لا يُدرك» فضعيف.
وقد أخرج البخاري (٢٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس مرفوعاً: «إنَّ لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وانظر ما ذكره البيهقي في السنن ٦/ ٢١٠، والحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٩٣ حول وصل الحديث وإرساله. وقد أخرج البخاري (٤٤٨١) عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أُبيّ، وأقضانا علي.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد الحجازي، وهو السُّدِّي الكبير، المفسِّر، مات سنة (١٢٧هـ) السير ٥/ ٢٦٤.

(٣) المحرَّر الوجيز ١/ ٢٤. أبو صالح: هو باذام ـ ويقال: باذان ـ مولى أم هانئ بنت أبي طالب.

قلتُ: وقال يحيى بن مَعِين[١]: الكَلبيُّ[٢] ليس بشيء. وعن يحيى بن سعيد القَطَّان[٣]، عن سفيانَ قال: قال الكلبيُّ: قال أبو صالح: كلُّ ما حدَّثتُك كَذِبٌ. وقال حَبِيبُ بنُ أبي ثابت: كنا نسميه الدرُوغزَن[٤]. يعني أبا صالح مولى أمِّ هانىء. والدرُوغزَن: هو الكذابُ بلغة الفُرس.

ثم حمل تفسيرَ كتاب الله تعالى عدولُ كلِّ خَلَف، كما قال ﷺ: «يَحمِلُ هذا العِلمَ مِن كُلِّ خَلَف عُدُولُه، يَنفُونَ عنه تَحرِيفَ الغالِين، وانْتِحالَ المُبْطِلِين، وتأويلَ الجاهلين». خرَّجه أبو عمر وغيره[٥].

قال الخطيبُ أبو بكر أحمدُ بن علي البغدادي[٦]: وهذه شهادةٌ من رسول الله ﷺ بأنهم أعلامُ الدِّين، وأئمةُ المسلمين، لحفظهم الشريعةَ من التحريفِ، والانتحالِ للباطل، وردِّ تأويل الأبلَهِ الجاهلِ، وأنه يجبُ الرجوعُ إليهم، والمعوَّلَ في أمر الدِّين عليهم، رضي الله عنهم.

قال ابن عطية: وألَّفَ الناسُ فيه، كعبدِ الرزاق[٧]، والمُفَضَّل[٨]، وعليِّ بن أبي طلحة[٩]،

---

(١) أبو زكريا، البغدادي، الحافظ، المجتهد، مات في طريق الحج سنة (٢٣٣هـ). السير ١١/ ٧١.

(٢) محمد بن السائب بن بشر، أبو النضر الكوفي، النسَّابة المفسر. قال ابن عدي في الكامل: رضُوه في التفسير، وأما في الحديث ففيه مناكير.

(٣) التميمي البصري، أمير المؤمنين في الحديث، مات سنة (١٩٨هـ). السير ٩/ ١٧٥.

(٤) في (ظ): الدروغي. وهي نسبة إلى دروغ، بالفارسية، وتعني الكذب، ولم تجود اللفظة في (د) و(ز)، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في التمهيد ١/ ٥٩، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص١١ و٢٩ من حديث أبي هريرة وغيره، ونقل الخطيب البغدادي تصحيحه عن الإمام أحمد.

(٦) صاحبُ تاريخ بغداد وغيره من التصانيف، التي بلغَ عددُها ستة وخمسين مصنفاً. توفي سنة (٤٦٣هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٧٠.

(٧) هو ابنُ همَّام، أبو بكر الصنعاني، صاحب المصنف، توفي سنة (٢١١هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٢٩٦، وترجمته في سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٦٣.

(٨) هو ابنُ سَلَمة، أبو طالب، توفي بعد التسعين ومئتين، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢/ ٣٢٨، وله ترجمة في السير ١٤/ ٣٦٢.

(٩) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في تهذيب التهذيب: روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، وقال: نقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح، عنه، عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه لا يسميه. مات سنة (١٤٣هـ).

والبخاري، وغيرهم. ثم إنَّ محمد بنَ جَرِير رحمه الله، جَمَعَ على الناس أشتاتَ التفسير، وقَرَّبَ البعيدَ منها، وشَفَى في الإسناد. ومن المُبَرِّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزَّجَّاج[١]، وأبو عليٍّ الفارسيُّ[٢]. وأما أبو بكر النقَّاشُ[٣]، وأبو جعفر النحاسُ[٤]، فكثيراً ما استدركَ الناسُ عليهما. وعلى سَنَنِهما مكيُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه. وأبو العباس المَهدَوِيّ[٥] متقنُ التأليف، وكلُّهم مجتهدٌ مأجورٌ، رحمهم الله، ونَضَّرَ وجوهَهم[٦].

باب تبيين الكتاب بالسنة، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفَرَضَ طاعتَه في غير آية من كتابه، وقرَنَها بطاعته عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ذكر ابنُ عبد البَرِّ في كتاب «العلم» له، عن عبد الرحمن بن يزيد[٧]: أنه رأى مُحْرِماً عليه ثيابُه، فنهى المُحرِمَ، فقال: ايتني بآية من كتاب الله تَنزِعُ ثيابي، قال:

---

(١) إبراهيم بن محمد بن السري البغدادي، النحوي، صاحب التصانيف، منها معاني القرآن. مات سنة (٣١١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٧، وترجمته في السير ١٤/ ٣٦٠.

(٢) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، صاحب الحجة وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٧٧هـ). السير ١٦/ ٣٧٩.

(٣) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي، له شفاء الصدور في التفسير، مات سنة (٣٥١هـ)، ذكره الداودي في طبقات المفسرين ٢/ ١٣١.

(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، صاحب إعراب القرآن وغيره من التصانيف، مات سنة (٣٣٨هـ)، أورده الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٦٨، وله ترجمة في السير ١٥/ ٤٠١.

(٥) أحمد بن عمار المهدوي، نسبة إلى المهدية بالمغرب، توفي بعد (٤٣٠هـ). ذكره الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٥٢.

(٦) المحرر الوجيز١/ ٤٢.

(٧) النخعي، الفقيه، حدث عن عمر وعثمان، وثقه ابن معين، مات بعدالثمانين وقد شاخ. السير ٤/ ٧٨.

فقرأ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. وعن هشام بنِ حُجَير[(١)] قال: كان طاوسٌ[(٢)] يُصَلِّي ركعتين بعدَ العصر، فقال ابنُ عباس: اترُكهُما، فقال: إنما نهى عنهما أنْ تُتَّخذا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسولُ الله ﷺ عن صلاة بعدَ العصر، فلا أدري، أتُعَذَّبُ عليهما[(٣)] أم تُؤجَرُ؟ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦][(٤)].

وروى أبو داودَ، عن المِقدام بن مَعدِي كَرِب[(٥)]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أوتِيتُ الكتابَ ومثلَه مَعَه، ألا يُوشِكُ رجلٌ شَبعانُ على أرِيكَتِهِ يقول: عليكُم بهذا القرآن، فما وَجَدتُم فيه من حلالٍ، فأحِلُّوه، وما وَجَدتُم فيه من حرام، فحَرِّمُوه، ألا لا يَحِلُّ لكم[(٦)] الحمارُ الأهليُّ، ولا كُلُّ ذي ناب من السِّباع، ولا لُقَطَةُ معاهَد إلا أن يَستغنيَ عنها صاحبُها، ومَن نَزَلَ بقوم فعليهم أن يَقرُوه، فإن لم يَقرُوه، فله أن يُعقِبَهم بمثلِ قِراهُ»[(٧)].

قال الخطابي[(٨)]: قوله: «أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه»: يَحتَمِلُ وجهَين من التأويل:

أحدُهما: أن معناه: أنه أُوتِيَ من الوَحي الباطنِ غيرِ المتلوّ مثلَ ما أُعطيَ من الظاهر المتلوّ.

والثاني: أنه أُوتِيَ الكتابَ وَحياً يُتلَى، وأُوتِيَ من البيانِ مثلَه، أي: أُذِنَ له أن يُبَيِّنَ ما في الكتاب، فيَعُمَّ ويَخُصَّ، ويزيدَ عليه، ويُشَرِّعَ ما [ليس له] في الكتاب [ذكرٌ]، فيكونَ [ذلك] في وجوب العمل به، ولزوم قبوله، كالظاهر المتلوّ من القرآن.

---

(١) المكي، ضعّفه جماعة، وقوّاه آخرون، وروى له البخاري ومسلم. تهذيب التهذيب ٤/٢٦٧.
(٢) ابن كيسان، أبو عبد الرحمن الفارسي، ثم اليمني، الحافظ، الفقيه، مات سنة (١٠٦هـ). السير ٥/٣٨.
(٣) في (ظ): عليها.
(٤) جامع بيان العلم ص٤٩٢.
(٥) الصحابي، يكنى أبا كريمة، وقيل غير ذلك، نزيل حمص، توفي سنة (٨٧هـ). السير ٣/٤٢٨.
(٦) في (د): لكم أكل.
(٧) سنن أبي داود (٤٦٠٤)، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند(١٧١٧٤).
(٨) في معالم السنن ٤/٢٩٨، وما بين حاصرتين منه.

وقوله: «يُوشِكُ رجلٌ شبعانُ» الحديث. يُحَذِّرُ بهذا القول من مخالفة السُّنن التي سَنَّها[١] مما ليس له في القرآن ذِكر، على ما ذهبت إليه الخوارجُ والروافضُ، فإنهم تعلَّقوا بظاهرِ القرآن، وتركوا السننَ التي قد ضَمَّنَت بيانَ الكتاب. قال: فتحيَّروا وضلُّوا. قال: والأريكةُ: السرير، ويقال: إنه لا يُسَمَّى أريكةً حتى يكون في حَجَلة[٢]. قال: وإنما أرادَ بالأريكة[٣] أصحابَ التَّرفُّهِ والدَّعَةِ، الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العِلمَ من مظانِّه.

وقوله: «إلا أن يستغنيَ عنها صاحبُها» معناه: أن يتركَها صاحبُها لمن أخَذَها؛ استغناءً عنها، كقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]. معناه: تركَهم اللهُ استغناءً عنهم.

وقوله: «فله أن يُعْقِبَهُم بمثل قِراهُ». هذا في حال المضطرِّ الذي لا يجد طعاماً، ويخافُ التَّلَفَ على نفسه، فله أن يأخذَ من مالهم بِقَدرِ قِراه عِوَضَ ما حَرَمُوه من قِراه. و«يُعقِبُهم» يُروى مُشدَّداً ومُخفَّفاً، من المعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦] أي: فكانت الغلبةُ لكم، فغنمتُم منهم، وكذلك لهذا أن يغنمَ من أموالهم بقَدرِ قِراه[٤].

قال: وفي الحديث دَلالةٌ على أنه لا حاجةَ بالحديث إلى أن يُعرَضَ على الكتاب، فإنه مهما ثبتَ عن رسول الله ﷺ كان حجةً بنفسه. قال: فأما ما رواه بعضُهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديثُ، فاعْرِضُوه على كتاب الله، فإن وافقَه، فخذُوه، وإن لم يُوافقه، فرُدُّوه»، فإنه حديثٌ باطلٌ، لا أصلَ له[٥].

---

(١) في (د): بيّنها.

(٢) في مختار الصحاح: الحَجَلة ـ بفتحتين ـ واحدة حِجال العروس، وهي بيت يُزيَّنُ بالثياب والأسرَّة والستور.

(٣) في معالم السنن ٤/٢٩٨: وإنما أراد بهذه الصفة. وهو الأشبه.

(٤) من قوله: ويعقبهم يروى مشددا ومخففا، إلى هذا الموضع، ليس في المعالم.

(٥) إلى هذا الموضع من كلام الخطابي في المعالم، ونقل بعده عن ابن معين قوله: هذا حديث وضعته الزنادقة. اهـ. وقال الشافعي في الرسالة (٦١٨): ما روى هذا أحدٌ يثبت حديثُه في شيء صغر ولا كبر، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٥: هذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، ونقل عن عبد الرحمن بن مهدي قوله: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث.

ثم البيانُ منه ﷺ على ضربين: بيانٌ لمُجمَل في الكتاب، كبيانه للصَّلوات الخمس، في مواقيتها، وسجودِها وركوعِها، وسائرِ أحكامِها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتِها، وما الَّذي تُؤخَذُ منه من الأموال، وبيانِه لمناسِك الحجِّ؛ قال ﷺ إذ حَجَّ بالناس: «خُذُوا عَنِّي مَناسِكَكُم»[١]. وقال: «صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي». أخرجه البخاريُّ[٢].

وروى ابنُ المبارك، عن عِمرانَ بن حُصَين أنه قال لرجل: إنكَ امرؤٌ[٣] أحمقُ، أتجد الظُّهر في كتاب الله أربعاً، لا يُجهر فيها بالقراءة ؟! ثم عدَّدَ عليه الصلاةَ والزكاةَ، ونحوَ هذا، ثم قال: أتجدُ هذا في كتاب الله مفسَّراً ؟! إنَّ كتابَ الله تعالى أبهمَ هذا، وإن السُّنةَ تفسِّر هذا.

وروى الأوزاعيُّ[٤]، عن حسانَ بن عطيَّةَ[٥] قال: كان الوحيُ ينزلُ على رسول الله ﷺ، ويحضرُه جبريلُ بالسُّنَّة التي تفسِّرُ ذلك.

وروى سعيدُ بنُ منصور[٦]: حدثنا عيسى بنُ يونُسَ، عن الأوزاعيِّ، عن مكحول قال: القرآنُ أحوجُ إلى السُّنَّة من السُّنَّة إلى القرآن.

وبه عن الأوزاعيِّ، قال: قال يحيى بنُ أبي كثير[٧]: السُّنةُ قاضيةٌ على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السُّنَّة. قال الفضلُ بنُ زياد[٨]: سمعتُ أبا عبد الله ـ يعني أحمدَ بن حَنبل ـ وسُئلَ عن هذا الحديث الذي رُوي أن السُّنَّةَ قاضيةٌ على الكتاب،

---

(١) من قوله: ثم البيان منه ﷺ على ضربين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٤ ـ ٤٩٥. والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٤٤١٩)، ومسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»، وأخرجه باللفظ الذي أورده المصنف البيهقيُّ في السنن ٥/ ١٢٥، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٧٢.

(٢) صحيح البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث، وهو في المسند (٢٠٥٣٠).

(٣) في (م): رجل.

(٤) عبد الرحمن بن عمرو، أبو عمرو، عالم أهل الشام، مات سنة (١٥٧هـ). السير ٧/ ١٠٧.

(٥) المحاربي، مولاهم، الدمشقي، الفقيه العابد، مات بعد سنة (١٢٠هـ). السير ٥/ ٤٦٦.

(٦) أبو عثمان الخراساني، أحد أئمة الحديث، له كتاب السنن، توفي سنة (٢٢٧هـ). السير ١٠/ ٥٨٦.

(٧) أبو نصر الطائي، مولاهم، اليمامي، الحافظ، توفي سنة (١٢٩هـ). السير ٦/ ٢٧.

(٨) أبو العباس القطان، البغدادي، من أصحاب الإمام أحمد، وله عنه مسائل جياد. طبقات الحنابلة للنابلسي ص١٨٥.

فقال: ما أجسُرُ على هذا أن أقولَه، ولكنّي أقول: إن السُّنَّةَ تُفسِّرُ الكتاب وتُبَيِّنُه[١].

وبيانٌ آخرُ: وهو زيادةٌ على حكم الكتاب، كتحريم نكاحِ المرأةِ على عَمَّتها وخالتها، وتحريمِ الحُمُرِ الأهليَّة، وكلِّ ذي ناب من السِّباع، والقضاءِ باليمين مع الشاهِد، وغيرِ ذلك، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلُّم والفِقهِ بكتاب اللهِ تعالى، وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، وما جاء أنَّه سَهُلَ على مَن تَقدَّمَ العملُ به دونَ حفظِه

ذكر أبو عَمرو الدَّاني[٢] في كتاب «البيان» له بإسناده، عن عثمانَ وابنِ مسعود وأُبَيٍّ، أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقرِئُهم العَشر، فلا يُجاوِزُونها إلى عَشر أخرى حتى يَتَعَلَّموا ما فيها من العمل، فيعلِّمُنا[٣] القرآنَ والعَمَلَ جميعاً[٤].

وذكر عبدُ الرزَّاق، عن مَعمَر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ قال: كنا إذا تَعَلَّمنا عَشرَ آياتٍ مِنَ القُرآن، لم نتعلَّم العَشْرَ التي بعدَها حتى نعرفَ حلالَهاوحرامَها، وأمْرَها ونَهْيَها[٥].

وفي «موطأ» مالك: أنه بلغَه أنَّ عبدَ الله بنَ عمر مكثَ على سورة البقرة ثماني سنينَ يتعلَّمُها[٦].

وذكر أبو بكر أحمدُ بنُ عليِّ بن ثابت الحافظُ[٧] في كتابه المسمى[٨]: «أسماء مَن

---

(١) من قوله: وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين... إلى هذا الموضع، من كلام ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي مولاهم، الأندلسي، ثم القرطبي ثم الداني، إليه المنتهى في تحرير علم القراءات، مصنف التيسير وجامع البيان وغير ذلك. توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٨/ ٧٧.

(٣) في (ز) و(ظ): فتعلمنا.

(٤) أخرج الحاكم في المستدرك ١/ ٥٥٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣) عن ابن مسعود قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي أنزلت بعدها حتى نتعلم مافيه. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٦٠٢٧).

(٦) الموطأ١/ ٢٠٥.

(٧) هو الخطيب البغدادي، وكتابه المذكور «الرواة عن مالك» ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٢٩٠.

(٨) في النسخ الخطية: المسمى في ذكر، والمثبت من (م).

رَوى عن مالك»: عن مِرْدَاس بنِ محمد أبي بلال الأشعريِّ[١] قال: حدثنا مالكٌ، عن نافع، عن ابن عمرَ قال: تَعَلَّمَ عُمرُ البقرةَ في اثنتي عشرةَ سنة، فلما ختمَها، نَحَر جَزُوراً[٢].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ: حدثني محمدُ بنُ شَهْرَيار، حدثنا حسينُ بنُ الأسود[٣]، حدثنا عُبيد الله بنُ موسى، عن زياد بن أبي مسلم أبي عمر[٤]، عن زياد بن مِخراق قال: قال عبدُ الله بنُ مسعود: إنَّا صَعُبَ علينا حفظُ القرآن[٥]، وسَهُلَ علينا العملُ به، وإنَّ مَن بَعدَنا يَسهُلُ عليهم حِفْظُ القرآن، ويَصعُبُ عليهم العملُ به.

حدثنا إبراهيمُ بنُ موسى، حدثنا يوسفُ بنُ موسى، حدثنا الفَضْلُ بنُ دُكَيْن، حدثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بن المهاجر، عن أبيه، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كان الفاضلُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظُ مِن القرآن إلا السورةَ، أو نحوَها، ورُزِقُوا العملَ بالقرآن، وإنَّ آخِرَ هذه الأمةِ يقرؤونَ القرآنَ، منهم الصبيُّ والأعجمي[٦]، ولا يُرزَقونَ العملَ به[٧].

حدثني حسنُ بنُ عبد الوهَّاب أبو محمد بن أبي العنبر، حدثنا أبو بكر بنُ حماد المقرىءُ، قال: سمعتُ خَلَفَ بنَ هشام البزَّار يقول: ما أظنُّ القرآنَ إلا عاريَّةً في أيدينا، وذلك أنا روينا أن عمرَ بنَ الخطاب حفظَ البقرةَ في بضعَ عَشْرةَ سنة، فلما حَفِظَها، نَحَرَ جَزُوراً شكراً لله، وإن الغلامَ في دهرنا هذا يجلسُ بين يديَّ، فيقرأُ ثُلُثَ القرآن، لا يُسقِطُ منه حرفاً، فما أحسبُ القرآنَ إلا عاريَّةً في أيدينا.

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٥٠٧/٤ وقال: ضعفه الدارقطني.

(٢) وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٧).

(٣) هو الحسين بن علي بن الأسود، نسبه إلى جدّه. قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطىء كثيراً.

(٤) في النسخ و(م): أبي عمرو، والتصويب من تهذيب الكمال، وهو زياد بن مسلم أو ابن أبي مسلم أبو عُمر الفراء البصري، صدوق فيه لين.

(٥) في (م): ألفاظ القرآن.

(٦) في (م): والأعمى.

(٧) وأخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٣٥). إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر وأبوه ضعيفان.

وقال أهلُ العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصرَ على سماع الحديث وكَتبِهِ، دونَ معرفتِه وفَهمِه، فيكون قد أتعبَ نفسَه من غير أن يظفَرَ بطائل، وليكُن تَحفُّظُه للحديث على التدريج، قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام.

وممن وردَ عنه ذلك من حفَّاظ الحديث: شعبةُ، وابنُ عُلَيَّةَ[(١)]، ومَعمَرٌ[(٢)]. قال مَعمَرٌ: سمعتُ الزُّهريَّ[(٣)] يقولُ: مَن طَلَبَ العِلمَ جُملةً، فاتَهُ جُملةً، وإنما يُدرَك العلمُ حديثاً وحديثين[(٤)]، والله أعلم.

وقال معاذُ بنُ جَبَل: اعلموا ماشئتُم أن تعلموا، فلن يأجُرَكم الله بعلمه حتَّى تعمَلوا[(٥)].

وقال ابنُ عبد البَرِّ: ورُويَ عن النبيِّ ﷺ مثلُ قولِ معاذ من رواية عبَّاد بن عبد الصمد [عن أنس]. وفيه زيادة: إن العلماءَ هِمَّتُهم الدِّرايةُ[(٦)]، وإن السفهاءَ هِمَّتُهم الرِّوايةُ. ورُوي موقوفاً، وهو أولى من رواية من رواه مرفوعاً، وعبَّادُ بنُ عبد الصمد ليس ممن يُحتجُّ به[(٧)].

ولقد أحسنَ القائلُ في نظمه في فضل العلم، وشرفِ الكتابِ العزيز والسُّنة الغرَّاء فقال[(٨)]:

إنَّ العلومَ وإن جَلَّتْ مَحاسنُها ... فتاجُها ما به الإيمانُ قد وَجَبا
هو الكتابُ العزيزُ الله يَحفَظُهُ ... وبعدَ ذلك عِلمٌ فَرَّجَ الكُرَبا

---

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم، أبو بشر الكوفي، الحافظ، وعُلَيَّة أمه. مات سنة (١٩٣هـ). السير ٩/ ١٠٧.

(٢) ابن راشد، أبو عروة، الأزدي، نزيل اليمن، الحافظ، توفي سنة (١٥٣هـ) السير ٧/ ٥.

(٣) هو محمد بن مسلم بن شهاب، أبو بكر القرشي، حافظ زمانه، توفي سنة (١٢٤هـ) السير ٥/ ٣٢٦.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٤٤٩).. (٤٥٣)، وجامع بيان العلم ص ١٣٨.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٢)، والدارمي (٢٦٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٢٤٤.

(٦) في جامع بيان العلم ص٢٤٥: الوعاية.

(٧) جامع بيان العلم ص ٢٤٥، وما بين حاصرتين زيادة منه. عباد بن عبد الصمد؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٣٦٩: واه، ونقل عن الشافعي قوله فيه: منكر الحديث، وذكر عن ابن حبان أن له عن أنس نسخة أكثرُها موضوعة.

(٨) قوله: فقال، من (ظ).

فذاك فاعلَم حديثَ المصطفى فَبِهِ نورُ النبوَّةِ سَنَّ الشَّرعَ والأَدَبا
وبعدَ هذا علومٌ لا انتهاءَ لها فاختَر لنفسك يامَن آثَرَ الطَّلَبا
فالعلمُ كَنزٌ تَجِده في مَعادِنِه ياأيها الطالبُ ابحَث وانظُرِ الكُتُبا
واتلُ بفهمٍ كتابَ الله فيه أتَت كلُّ العلوم تَدَبَّرْه تَرَ العَجَبا
واقرأ هُدِيتَ حديثَ المصطفى وَسَلَنْ[1] مولاكَ ماتَشتَهي يقضي لك الأَرَبا
مَن ذَاقَ طَعماً لِعِلمِ الدِّينِ سُرَّ به إذا تَزَيَّدَ منه قالَ واطَرَبا

باب معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سَبعَةِ أحرُف، فاقرَؤوا ماتَيَسَّرَ منه»

رَوَى مسلمٌ عن أُبيِّ بنِ كَعب، أن النبيَّ ﷺ كان عند أَضاةِ بني غِفار، فأتاهُ جبريلُ عليه السلام، فقال: إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أن تَقرَأَ أُمَّتُكَ القرآنَ على حَرف، فقال: «أسأَلُ اللهَ مُعَافَاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلك». ثم أتاه الثانيةَ، فقال: إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أن تَقرَأَ أُمَّتُكَ القُرآنَ على حَرفَينِ، فقال: «أسألُ اللهَ مُعافاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلك». ثم جاءَه الثالثةَ، فقال: إن الله يأمُرُكَ أن تَقرَأَ أُمَّتُك القُرآنَ على ثلاثة أحرف، فقال: «أسألُ الله معافاتَه ومَغفِرَتَهُ، وإنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذلك». ثم جاءَه الرابعة، فقال: إن الله يأمُرُكَ أن تَقرَأَ أُمَّتُكَ القُرآنَ على سَبعَةِ أحرُف، فأَيُّما حَرف قرؤوا عليه، فقد أصابوا[2].

وروى الترمذيُّ عنه، قال: لَقِيَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ، فقال: «ياجِبريلُ، إني بُعِثتُ إلى أمَّة أُمِّيَّة، منهم العجوزُ، والشيخُ الكبيرُ، والغُلامُ، والجاريةُ، والرجلُ الذي لا يقرأُ كتاباً قطُّ، فقال لي: يامحمدُ، إنَّ القرآنَ أُنزلَ على سبعة أحرف». قال: هذا حديثٌ حسن صحيحٌ[3].

وثبتَ في الأُمهات: البخاريِّ، ومسلم، والموطأ، وأبي داود، والنسائي،

---

(١) في (ز): ثم سل.

(٢) صحيح مسلم (٨٢١)، وهو في مسند أحمد (٢١١٧٢). قوله: أضاة بني غِفار؛ قال ابن الأثير في النهاية (آض): الأضاة بوزن الحصاة: الغدير، وجمعها أضًى وإضاء، كأكَم وإكام.

(٣) سنن الترمذي (٢٩٤٤). ولفظة «حسن» ليست في (م).

وغيرها من المصنَّفات والمسنَدات، قصةُ عمرَ مع هشام بنِ حَكِيم[١]، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبيَّناً إن شاء الله تعالى[٢].

وقد اختلف العلماءُ في المراد بالأحرف السَّبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمدُ بنُ حِبَّانَ البُستيُّ[٣]، نذكر منها في هذا الكتاب خمسةَ أقوال:

الأول: وهو الذي عليه أكثرُ أهل العلم، كسفيانَ بنِ عُيَينَة، وعبدِ الله بنِ وَهْب، والطَّبَريِّ، والطَّحاويِّ[٤]، وغيرِهم، أن المرادَ سبعةُ أوجه مِنَ المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو: أقبِل، وتَعالَ، وهَلُمَّ[٥].

قال الطحاويُّ: وأبيَنُ ماذُكِرَ في ذلك حديثُ أبي بَكرَةَ[٦] قال: جاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: اِقرَأ على حَرف، فقال ميكائيل: اِستَزِدهُ، فقال: اِقرأ على حَرفَين، فقال ميكائيل: اِستَزِدهُ. حتى بلغَ إلى سبعة أحرف، فقال: اِقرأ، فكُلٌّ شافٍ كافٍ، إلا أن تَخلِطَ آيةَ رحمة بآيةِ عذاب، أو آيةَ عذاب بآية رحمة، على نحو: هَلُمَّ، وتَعالَ، وأقبِلْ، واذهَبْ، وأسرِعْ، وعَجِّلْ[٧].

وروى وَرقاءُ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ [الحديد: ١٣]: للذينَ آمنوا أمهِلُونا، للذينَ آمنوا أخِّرُونا، للذين آمنوا ارقُبُونا. وبهذا الإسناد عن أُبي، أنه كان يقرأ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: مَرُّوا فيه، سَعَوا فيه[٨].

---

(١) الصحابي ابن الصحابي حكيم بنِ حِزام، توفي أول خلافة معاوية. السير ٣/ ٥١.

(٢) ص ٨١، فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام، ونذكر تخريجه ثمة.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ٩/ ٢٣ ما أورده المصنف عن ابن حبان في عدد الأقوال في الأحرف السبعة، وقال: لم أقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تتبعي مظانه من صحيحه.

(٤) هو أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر، الأزدي، الحافظ، له شرح مشكل الآثار ومعاني الآثار، وغير ذلك، مات سنة (٣٢١هـ) السير ١٥/ ٢٧.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٤٥.

(٦) نُفيع بن الحارث، الثقفي، الطائفي، مولى النبيِّ ﷺ، وكان من فقهاء الصحابة. مات سنة (٥١هـ). السير ٣/ ٥.

(٧) شرح مشكل الآثار (٣١١٨). وفيه: اقرأه، بدل: اقرأ. وقد نقل المصنف كلام الطحاوي بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٨/ ٢٩٠.

(٨) التمهيد ٨/ ٢٩١.

وفي البخاري ومسلم: قال الزُّهريُّ: إنما هذه الأحرفُ في الأمر الواحد، ليس يختلفُ في حلال ولا حرام[١].

قال الطحاوي: إنَّما كانت السَّبعةُ[٢] للنَّاس في الحروفِ لعجزهم عن أخذِ القرآن على غير لُغاتِهم[٣]، لأنَّهم كانوا أمِّيِّين، لايكتبُ إلا القليلُ منهم، فلما كان[٤] يَشُقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللغات، ولو رامَ ذلك، لم يتهيَّأ له إلا بمشَقَّة عظيمة، فوُسِّعَ لهم في اختلافِ الألفاظ إذ كان المعنى متَّفِقاً، فكانوا كذلك حتَّى كثُر منهم مَن يكتبُ، وعادَت لغاتُهم إلى لسانِ رسول الله ﷺ، فقرؤوا[٥] بذلك على تحفُّظ ألفاظِه، فلم يَسَعهُم حينئذ أن يقرؤوا بخلافِها[٦].

قال ابنُ عبد البَر: فبانَ بهذا أنَّ تلك السَّبعَةَ الأحرفِ إنَّما كان في وقت خاصٍّ لضرورة دَعَت إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضَّرورةُ، فارتفعَ حُكمُ هذه السَّبعةِ الأحرفِ، وعاد مايُقرأ به القرآنُ إلى[٧] حرف واحد[٨].

وروى أبو داود عن أُبَيٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أُبَيُّ، إنِّي أُقرِئتُ القرآنَ، فقيلَ لي: على حرف، أو حرفين؟ فقال المَلَك الذي معي: قُل: على حرفين. [قلت: على حرفين]، فقيل لي: على حرفَين أو ثلاثة؟ فقال المَلَك الذي معي: قُل: على ثلاثة. [قلت: على ثلاثة] حتَّى بلغ سبعةَ أحرُف، ثمَّ قال: ليس

(١) ليس هو في صحيح البخاري، وذكره مسلم بإثر الحديث (٨١٩)، وذكره أيضاً الطبري ١/ ٢٧، والطحاوي بإثر الحديث (٣١١٦).

(٢) في (ظ) و(م): السعة، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لشرح مشكل الآثار والتمهيد. (تنظر التعليقات الثلاثة التالية).

(٣) في (ظ): لغتهم.

(٤) في التمهيد ٨/ ٢٩٤: «فكان»، بدل: «فلما كان»، وهو الأشبه.

(٥) في (م): فقدروا.

(٦) كلام الطحاوي هذا قاله في شرح مشكل الآثار ٨/ ١٢٥ و ١١٧ ـ ١١٨، وقد نقله عنه ابن عبد البَر في التمهيد ٨/ ٢٩٤، ونقله المصنف هنا عن ابن عبد البر.

(٧) في (م): على.

(٨) التمهيد ٨/ ٢٩٤.

منها[١] إلا شافٍ كافٍ، إن قُلتَ: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تَخلِطْ آيةَ عذابٍ برحمَة، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب»[٢].

وأسند ثابتُ بن قاسم[٣] نحوَ هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، وذكر من كلامِ ابن مسعود نحوه[٤].

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٥]: وإذا ثَبَتَت هذه الرِّوايةُ - يريدُ حديثَ أُبَيّ - حُمِل على أنَّ هذا كان مُطلَقاً، ثم نُسِخ، فلا يجوز للنَّاس أن يُبدِّلوا اسماً لله تعالى في موضع بغيره ممَّا يوافقُ معناه أو يُخالِفُ[٦].

القولُ الثاني: قال قومٌ: هي سبعُ لغات في القرآن على لغاتِ العرب[٧]، يَمَنِها ونِزارِها، لأنَّ رسول الله ﷺ لم يَجهَلْ شيئاً منها، وكان قد أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِم، وليس معناه أن يكونَ في الحرفِ الواحدِ سبعةُ أوجُه، ولكنَّ هذه اللُّغاتِ السَّبعَ مُتفرِّقةٌ في القرآن، فبعضُه بلغةِ قريش، وبعضُه بلغةِ هُذَيْل، وبعضُه بلغةِ هَوَازِن، وبعضُه بلغةِ اليَمَن.

قال الخطَّابي: على أنَّ في القرآنِ ما قَد قُرِىء بسبعَةِ أوجُه، وهو قولُه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقولُه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]. وذكر

---

(١) في (ظ): فيها.

(٢) سنن أبي داود (١٤٧٧) وما بين حاصرتين منه، وفيه: مالم تختم آية عذاب برحمة...

(٣) ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن العوفي، من أهل سَرَقُسطة، حدّث بكتاب أبيه المسمى الدلائل (وهو في شرح الحديث). توفي سنة (٣٥٢هـ). كذا في تاريخ علماء الأندلس ١/ ١٠٠. وجاء في ترجمة أبيه قاسم بن ثابت ١/ ٣٦١ صاحب الدلائل: بلغ فيه الغاية من الإتقان، ومات قبل إكماله (سنة ٣٠٢هـ)، فأكمله أبوه ثابت بعده. وانظر جذوة المقتبس ص٣٣١.

(٤) حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٣٩٠)، وكلام ابن مسعود أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٧، والطبري ١/ ٤٦.

(٥) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م)، وهو الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، البصري، ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني، صاحب الانتصار للقرآن وغيره من التصانيف، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. مات سنة (٤٠٣هـ). السير ١٧/ ١٩٠.

(٦) من قوله: وأسند ثابت بن قاسم، إلى هذا الموضع، من كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٤٤.

(٧) في (م): لغات العرب كلها.

وجوهاً، كأنَّه يذهبُ إلى أنَّ بعضَه أُنزلَ على سبعةِ أحرف، لا كُلَّه[١].

وإلى هذا القول ـ بأنَّ القرآن أُنزل على سبعةِ أحرُف، على سبعِ لُغات ـ ذهبَ أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلَّام، واختاره ابنُ عطيَّة[٢]. قال أبو عُبيد: وبعضُ الأحياءِ أسعدُ بها وأكثرُ حظًّا فيها من بعض، وذكر حديثَ ابنِ شهاب عن أنَس، أنَّ عُثمان قالَ لهم حين أمَرَهُم أن يكتبوا المصاحِفَ: ما اختلفتُم أنتم وزيد، فاكتبوه بلُغةِ قُريش، فإنه نزل بلُغَتِهم[٣]. ذكره البخاري[٤]. وذكرَ حديثَ ابنِ عبَّاس قال: نزلَ القُرآن بِلُغَة الكَعبَين: كعبِ قُريش، وكعبِ خُزاعة، قيلَ: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ الدَّارَ واحدةٌ. قال أبو عُبيد: يعني أنَّ خُزاعة جيرانُ قريش، فأخذوا بِلُغَتِهم[٥].

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٦] رضي الله عنه: معنى قولِ عثمانَ: فإنَّه نزلَ بلسان قُريش، يريد مُعظَمَهُ وأكثرَه، ولم تَقُم دِلالَةٌ قاطِعةٌ على أنَّ القرآن بأسرِهِ مُنزلٌ بلُغة قُريش فقط، إذ فيه كلماتٌ وحروفٌ هي خِلافُ لُغةِ قُريش، وقد قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقُل: قُرَشِياً، وهذا يدلُّ على أنَّه مُنزلٌ بجميع لسانِ العرَب، وليس لأحد أن يقولَ: إنه أرادَ قُريشاً من العَرب دون غيرها، كما أنَّه ليس له أن يقولَ: أرادَ لُغةَ عَدنانَ دون قَحطانَ، أو ربيعةَ دون مُضَرَ، لأنَّ اسمَ العرب يتناول جميعَ هذه القبائلِ تناولاً واحداً.

وقال ابنُ عبد البَرِّ: قولُ مَن قال: إنَّ القُرآن نزلَ بِلُغة قُريش، معناهُ عندي: في الأغلبِ. والله أعلم. لأنَّ غيرَ لُغةِ قُريش موجودةٌ في صحيحِ القراءات، من تحقيقِ الهَمَزَاتِ ونحوِها، وقُريشٌ لا تَهمِزُ[٧].

---

(١) ليس هذا الكلام كلُّه للخطابي، إنما نقل الخطابيُّ عن ابن الأنباري كلامه في الآيتين المذكورتين، ثم قال: وذكر وجوهاً..، كأنه يذهب (يعني ابن الأنباري) في تأويل الحديث... الخ. انظر معالم السنن ١/ ٢٩٣.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص٢٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦.

(٣) في فضائل القرآن ص٢٠٣: فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٨٧).

(٥) فضائل القرآن ص٢٠٤.

(٦) في النسخ الخطية: أبو الطيب، والمثبت من (م).

(٧) التمهيد ٨/ ٢٨٠.

وقال ابن عطيَّة: معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «أُنزِلَ القرآنُ على سَبعَةِ أحرُف» أي: فيه[١] عبارةُ سبع قبائِلَ، بِلُغةِ جُملَتِها نزلَ القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مَرَّة بعبارة قريش، ومَرَّة بعبارة هُذَيل، ومَرَّة بغير ذلك، بحسبِ الأفصح، والأوجَزِ في اللفظ. ألا ترى أنَّ «فَطَر» معناه عند غير قريش: ابتدأ، فجاءت في القرآن، فلم تَتَّجِهْ لابن عباس، حتَّى اختَصَمَ إليه أعرابيَّان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، قال ابنُ عبَّاس: ففهمتُ حينئذ موقع[٢] قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. وقال أيضاً: ما كنتُ أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تَعالَ أُفاتِحْكَ، أي: أُحاكِمْكَ.

وكذلك قال عمرُ بنُ الخطاب، وكان لا يفهمُ معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] أي: على تَنَقُّص لهم.

وكذلك اتَّفَقَ لقُطبَةَ بنِ مالك[٣]، إذ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقرأُ في الصَّلاة: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠]. ذكره مُسلمٌ في باب القراءة في صلاة الفجر[٤] إلى غير ذلك من الأمثلة[٥].

القولُ الثالث: أنَّ هذه اللُّغاتِ السَّبعةَ إنَّما تكون في مُضَر. قاله قومٌ، واحتجُّوا بقول عثمان: نزلَ القُرآنُ بِلُغةِ مُضَر، وقالوا: جائزٌ أن يكونَ منها لقُريش، ومنها لِكنانَة، ومنها لأَسَد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَمِيم[٦]، ومنها لِضَبَّة، ومنها لِقَيس، قالوا: هذه قبائلُ مُضَرَ تستوعِبُ سبعَ لُغات على هذه المراتِبِ، وقد كان ابنُ مسعود يُحبُّ أن يكون الذين يكتُبون المصاحِفَ من مُضَر[٧]. وأنكَر آخرونَ أن تكونَ كُلُّها في[٨] مُضَرَ، وقالوا: في مُضَرَ شَواذُّ لا يجوزُ أن يُقرَأَ القرآنُ بها، مثلُ كَشكَشَةِ قَيس،

---

(١) في (ز): في.

(٢) في (م): موضع.

(٣) الثعلبي، ويقال: الذبياني، من أهل الكوفة، وهو عم زياد بنِ عِلاقة، وهو ممن أخرج لهم مسلم في الصحابة دون البخاري. الإصابة ٨/ ١٦٥.

(٤) صحيح مسلم (٤٥٧)، وهو عند أحمد (١٨٩٠٣).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٦ ـ ٤٧، وانظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٧١ ـ ٧٢.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): لتيم، ولم ترد في (ز)، و المثبت من التمهيد ٨/ ٢٧٧.

(٧) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٠٥.

(٨) في (م): من.

وعَنْعَنَةِ[١] تميم. فأمَّا كَشْكَشَةُ قيس، فإنَّهم يجعلون كافَ المؤنَّثِ شِيناً، فيقولون في ﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]: «جعل رَبُّشِ تحتشِ سَرِيًّا». وأمَّا عَنْعَنَةُ تميم، فيقولون [في أن: عن، فيقولون: «عَسَى اللهُ عن يأتيَ بالفتح»، وبعضهم يُبدلُ السينَ تاءً، فيقولُ] في النَّاسِ: النَّات، وفي أكيَاس: أكيَات[٢]. قالوا: وهذه لُغَاتٌ يُرغَبُ عن القرآن بها، ولا يُحفَظُ عن السَّلَفِ فيها شيءٌ.

وقال آخرون: أمَّا بدل[٣] الهمزَةِ عَيناً، وبدل حروفِ الحَلق بعضِها من بعض، فمشهورٌ عن الفُصحاء، وقد قرأ به الجِلَّةُ، واحتَجُّوا بقِرَاءةِ ابنِ مسعود: «لَيَسجُنُنَّهُ عتَّى حِين». ذكرَها أبو داود[٤]، وبقولِ ذي الرُّمَّة[٥]:

فعيناكِ عيناها وجِيدُكِ جِيدُها ... ولَونُكِ إلا عَنَّها غيرُ طائِلِ

يريدُ: إلا أنَّها.

القولُ الرَّابع: ما حكاهُ صاحبُ «الدَّلائِل»[٦] عن بعضِ العلماء، وحكى نحوَهُ القاضي ابنُ الطَّيِّب[٧] قال: تَدَبَّرتُ وجُوهَ الاختلافِ في القراءَةِ، فوجدتُها سبعة:

منها: ما تَتَغيَّرُ حركَتُه، ولا يزولُ معناه ولا صورَتُه، مثل: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] وأطهَرَ[٨]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] ويَضيقَ[٩].

---

(١) تحرف في النسخ الخطية و(م) (في الموضعين) إلى: تمتمة، ونقله الزرقاني في مناهل العرفان ١/ ١٧٥. وعَنْعَنَةُ تميم: إبدالهم العين من الهمزة كما سيمثّل له المصنف.

(٢) وهو الوتم في لغة اليمن، كما في المزهر للسيوطي ١/ ٢٢٣.

(٣) في (م) (في الموضعين): إبدال.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٨/ ٢٧٨ من طريق أبي داود السجستاني، (وليس هو في سننه). وقراءة ابن مسعود هذه ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٣. وقد نقل المصنف القول الثالث بتمامه من التمهيد ٨/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وما بين حاصرتين منه.

(٥) هو غَيلان بن عقبة بن بُهيش، أبو الحارث، من فحول الشعراء، مات بأصبهان سنة (١١٧هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٧، والبيت في ديوانه ٢/ ١٣٤١.

(٦) هو قاسم بن ثابت السَّرَقُسطي، سلفت ترجمته ص٧٤.

(٧) في الانتصار ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥ مخطوط نشرة سزكين.

(٨) بالنصب، وهي قراءة شاذة، ذكرها ابن خالويه في كتابه ص ٦٠، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٢٥، ونقل أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٤٧ عن سيبويه قوله: هو لحن.

(٩) بالنصب، عطف على «يكذبون» في الآية قبلها، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣٣٥.

ومنها: مالا تَتَغيَّرُ صُورَتُه، ويتغيَّرُ معناه بالإعراب، مثل: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، و[ربُّنا] بَاعَدَ[١].

ومنها: ما تَبقى صورتُه، ويتغيَّرُ معناه باختلافِ الحروف، مثل قوله: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ونُنشِرُها[٢].

ومنها: ما تَتَغيَّرُ صورتُه، ويبقى معناه: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وكالصُّوفِ المَنفُوش[٣].

ومنها: ماتتغيَّرُ صورتُه ومعنَاهُ، مثل: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٩]: وطَلعٍ مَنضُود[٤].

ومنها: بالتَّقديم والتَّأخير، كقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: ١٩]: وجاءت [سكرةُ] الحقِّ بالمَوت[٥].

ومنها: بالزِّيادةِ والنُّقصان، مثل قولِهِ: «تِسعٌ وتسعُونَ نَعجَةً أنثى»[٦]، وقولِهِ: «وأمَّا الغُلامُ فكان كافِراً وكان أبَواه مؤمنَين»[٧]، وقولِهِ: «فإنَّ اللهَ مِن بَعدِ إكراهِهِنَّ لهنَّ غفورٌ رحيم»[٨].

القولُ الخامس: أنَّ المرادَ بالأحرُفِ السَّبعَةِ معاني كتاب الله تعالى، وهي أمرٌ

---

(١) أي على جهة الخبر، وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) من: أنشَرَ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وأبي جعفر ويعقوب من العشرة. انظر السبعة ص ١٨٩، والتيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢٣١. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦ لأبان عن عاصم: نَنشُرُها، بفتح النون، ونسبها صاحب إتحاف فضلاء البشر ص٢٠٨ للحسن.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٧٨ لابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٥١، أن علياً رضي الله عنه قرأها على المنبر، فقيل له: أفلا نغيره في المصحف؟ قال: ما ينبغي للقرآن أن يُهاج، أي: لا يغير.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٤ لأبي بكر الصديق وأُبي رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٣ وقد حكاه ابن عطية عن صاحب الدلائل وابن الطيّب الباقلاني، ونسب ابن خالويه لابن مسعود رضي الله عنه في القراءات الشاذة ص ١٣٠ قراءة: ولي نعجة أنثى. وانظر التمهيد ٨/ ٢٩٥.

(٧) ذكرها ابن عطية في تفسير الآية (٨٠) المذكورة من سورة الكهف، ونسبها لأبيّ، وانظر البحر المحيط ٦/ ١٥٤.

(٨) نسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٨ لابن عباس، وسعيد بن جبير. وذكرها ابن عطية في تفسيره ٤/ ١٨٢، ونسبها لابن مسعود وجابر وسعيد بن جبير.

ونَهيٌ، ووَعدٌ ووَعيدٌ، وقَصَصٌ، ومُجادَلَةٌ وأمثالٌ. قال ابنُ عطيَّة: وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذا لا يُسمَّى أحرُفاً، وأيضاً؛ فالإجماعُ على أن التَّوسِعَةَ لم تَقَع في تحليلِ حلال[1]، ولا في تغييرِ شيءٍ من المعاني. وذكر القاضي ابنُ الطَّيِّب في هذا المعنى حديثاً عن النبيِّ ﷺ، ثمَّ قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءةَ بها، وإنَّما الحرفُ في هذه بمعنى الجهةِ والطريقة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١] فكذلك معنى هذا الحديثِ على سبعِ طرائقَ من تحليل وتحريم، وغيرِ ذلك[2].

وقد قيل: إنَّ المرادَ بقوله عليه السلام: «أُنزل القرآنُ على سَبعَةِ أحرف» القراءاتُ السَّبعُ التي قرأ بها القُرَّاءُ السَّبعةُ، لأنَّها كلَّها صَحَّت عن رسولِ الله ﷺ. وهذا ليسَ بشيء، لظهورِ بُطلانِه على ما يأتي.

فصل

قال كثيرٌ من علمائنا، كالدَّاوُدِي[3]، وابنِ أبي صُفْرة[4]، وغيرِهما: هذه القراءاتُ السَّبعُ التي تُنسبُ لهؤلاء القرَّاءِ السبعةِ، ليست هي الأحرفَ السَّبعةَ التي اتَّسعتِ الصحابةُ في القراءة بها، وإنَّما هي راجعةٌ إلى حرف واحد من تلك السَّبعةِ، وهو الذي جمعَ عليه عثمانُ المصحفَ، ذكره ابنُ النَّحاس وغيرُه. وهذه القراءاتُ المشهورةُ هي اختياراتُ أولئك الأئمةِ القرَّاء، وذلك أنَّ كلَّ واحد منهم اختارَ ـ فيما رَوى، وعَلِمَ وجهَةً من القراءات ـ ما هو الأحسَنُ عندهَ والأولى، فالتزمَه طريقةً، ورواه وأقرأ به، واشتهرَ عنه، وعُرِفَ به، ونُسِب إليه، فقيل: حرفُ نافع، وحرفُ ابنِ كَثير، ولم يمنع واحدٌ منهم اختيارَ الآخَر، ولا أنكرَه، بل سوَّغَه وجَوَّزه، وكلٌّ واحد من هؤلاء السبعةِ رُوي عنه اختياران، أو أكثر، وكلٌّ صحيح. وقد أجمعَ المسلمون

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٣: أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣ ـ ٤٤، وفيه كلام ابن الباقلاني السالف.

(٣) لعله أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي؛ ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٦٢٣ وقال: من أئمة المالكية بالمغرب، والمتَّسمين بالعلم، المجيدين للتأليف... توفي بتلمسان سنة (٤٠٢هـ).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبي صفرة أخو أبي القاسم المهلب، سمع من الأصيلي، وكان من كبار أصحابه، وتوفي بالقيروان. ترتيب المدارك ٤/ ٧٥٢، و٢/ ٢٠١، وإكمال المعلم ٣/ ١٩٠.

في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صَحَّ عن هؤلاء الأئمةِ مما رَوَوه ورأوهُ من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنَّفات، فاستَمرَّ الإجماعُ على الصَّواب، وحصلَ ما وعدَ اللهُ به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمةُ المتقدِّمون، والفضلاءُ المحقِّقون، كالقاضي أبي بكر بن الطَّيِّب، والطَّبريِّ، وغيرِهما[١].

قال ابنُ عطيَّة: ومَضَتِ الأعصارُ والأمصارُ على قراءة السَّبعةِ، وبها يُصَلَّى، لأنَّها ثبتت بالإجماع. وأما شاذُّ القراءات[٢]، فلا يُصَلَّى به، لأنَّه لم يُجمِعِ الناسُ عليه، أما أنَّ المرويَّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين، فلا يُعتَقَدُ فيه إلا أنَّهم رَوَوْه. وأمَّا ما يُؤثَرُ عن أبي السَّمَّال[٣] ومَن قارنَه، فإنَّه لا يُوثَقُ به[٤].

قال غيرُه: أمَّا شاذُّ القراءة عن المصاحف المتواترة، فليست بقرآن، ولا يُعمَلُ بها على أنَّها منه، وأحسَنُ مَحامِلِها أن تكونَ بيانَ تأويلِ مذهَبِ مَن نُسِبَت إليه، كقراءة ابنِ مسعود: «فصيامُ ثلاثةِ أيام مُتَتابعات»[٥]. فأما لَو صَرَّح الراوي بسماعها من رسول الله ﷺ، فاختلفَ العُلماءُ في العمل بذلك على قولين: النَّفي والإثبات، وجهُ النَّفي[٦]: أنَّ الراويَ لم يروه في مَعرِض الخبر، بل في مَعرِض القرآن، ولم يُثبت، فلا يَثبت. والوجه الثاني: أنَّه وإن لم يَثبت كونُه قرآناً، فقد ثبتَ كونُه سنَّةً، وذلك يُوجِبُ العملَ، كسائر أخبارِ الآحاد.

فصل في ذكر معنى حديثِ عُمر وهشام

قال ابنُ عطيَّة[٧]: أباحَ اللهُ تعالى لنبيِّه عليه السلامُ هذه الحروفَ السَّبعةَ،

---

(١) من قوله: قال كثير من علمائنا... هو كلام أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/ ٤٥٠.

(٢) في النسخ الخطية: القرآن، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٨.

(٣) في النسخ الخطية: ابن السماك، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٨، وهو قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري، ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢/ ٢٧ وقال: له اختيار في القراءة شاذ عن العامة، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٣٤ وقال: لا يُعتمد على نقله، ولا يوثق به.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨، وفيه: قاربَه، بدل: قارنه.

(٥) أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١٦١٠٢) (١٦١٠٣) (١٦١٠٤)، والطبري في التفسير ٨/ ٦٥٢. وقال: ذلك خلاف ما في مصاحفنا.

(٦) في (ز) و(ظ): النافي.

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٧.

وعارضَه بها جبريلُ عليه السلامُ في عَرَضَاته على الوجه الذي فيه الإعجازُ، وجودةُ الرَّصف(١)، ولم تقعِ الإباحةُ في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه» بأن يكون كلُّ واحد من الصَّحابة إذا أرادَ أن يُبَدِّلَ اللَّفْظةَ من بعض هذه اللُّغاتِ، جَعَلَها من تلقاءِ نفسِه، ولو كان هذا، لذهبَ إعجازُ القرآن، وكان مُعرَّضاً أن يُبدَّلَ هذا وهذا، حتَّى يكون غيرَ الذي نزلَ من عند الله، وإنَّما وقعت الإباحةُ في الحروف السَّبعة للنبيِّ ﷺ ليوسِّعَ بها على أُمَّتِه، فأقرأَ مَرَّةً لأُبَيٍّ بما عارضَه به جبريلُ، ومَرَّةً لابن مسعود بما عارضَه به أيضاً، وعلى هذا تجيءُ قراءةُ عمرَ بنِ الخطاب لسورة الفرقان، وقراءةُ هشام بنِ حَكِيم لها، وإلا، فكيف يستقيمُ أن يقولَ النبيُّ ﷺ في كلِّ قراءة منهما وقد اختلفا: «هكذا أقرأني جبريلُ»؟ هل ذلك إلا أنَّه أقرأه مَرَّةً بهذه، ومَرَّةً بهذه؟ وعلى هذا يُحملُ قولُ أنس حين قرأ: «إن ناشِئَةَ اللَّيلِ هي أشدُّ وَطْأً وأصْوَبُ قِيلاً»، فقيل له: إنَّما تُقرأ: «وأقوَمُ قِيلاً»، فقال أنس: وأصوَبُ قِيلاً، وأقوَمُ قِيلاً، وأهيأ، واحدٌ(٢). فإنَّما معنى هذا أنَّها مرويَّةٌ عن النبي ﷺ، وإلا، فلو كان هذا لأحد من الناس أن يَضَعَه، لَبَطَل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن عمرَ بنِ الخطاب قال: سمعتُ هشامَ بنَ حَكِيم يقرأ سورةَ الفُرقانِ على غير ما أقرؤُها، وكان رسولُ الله ﷺ أقرَأَنيها، فَكِدتُ أن أعجَلَ عليه، ثم أمهَلتُه حتَّى انصرفَ، ثم لَبَّبتُه بردائه، فجئتُ به رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يارسول الله، إنِّي سمعتُ هذا يقرأ سورةَ الفرقان على غيرِ ما أقرَأتَنِيها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسِلْه. اِقْرأ». فقرأ القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هكذا أُنزِلَت». ثمَّ قال لي: «اِقْرأ»، فقرأتُ، فقال: «هكذا أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سَبعَةِ أحرُف، فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ منه»(٣).

قلتُ: وفي معنى حديثِ عُمر هذا ما رواه مسلم عن أُبَيِّ بنِ كعب قال: كنتُ في المسجد، فدخلَ رجلٌ يصلِّي، فقرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ثمَّ دخَلَ آخَرُ، فقرأ قراءة

---

(١) في النسخ الخطية: الوصف. والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧ و٢٣/ ٣٧٣، وابن جني في المحتسب ٢/ ٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٩٢)، و صحيح مسلم (٨١٨). وهو في المسند (٢٧٧).

سِوَى قراءةِ صاحبِه، فلمَّا قَضَينا الصلاةَ، دَخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنَّ هذا قَرَأَ قراءةً أنكرتُها عليه، ودَخَلَ آخَرُ، فقرأ سِوَى قراءةِ صاحبِه، فأمَرَهما النبيُّ ﷺ فقرَأا، فَحسَّنَ النبيُّ ﷺ شأنَهما، فَسُقِطَ في نفسي من التَّكذيب، ولا إذ كنتُ في الجاهليَّة، فلما رأى النبيُّ ﷺ ماقد غَشِيَني، ضَرَبَ في صدري، فَفِضْتُ عَرَقاً، وكأنَّما أنظرُ إلى الله تعالى فَرَقاً، فقال[1]: «يا أُبَيُّ، أُرسِلَ إليَّ أن أقرأَ القرآنَ على حَرف، فَرَدَدتُ إليه: أن هَوِّنْ على أمَّتي، فَرَدَّ إليَّ الثانيةَ: اِقرَأْهُ[2] على حَرفَين، فَرَدَدتُ إليه: أن هَوِّنْ على أمَّتي، فَرَدَّ إليَّ الثالثةَ: اِقرَأْهُ على سبعةِ أحرُف، ولك[3] بكلِّ رَدَّةٍ رَدَدتُكَها مسألةٌ تَسأَلُنِيها، فقلتُ: اللَّهمَّ اغفِر لأمتي، اللَّهم اغفِر لأمتي، وأخَّرتُ الثالثةَ ليوم يَرغَبُ إليَّ فيه الخلقُ كُلُّهم، حتَّى إبراهيمُ عليه السَّلام»[4].

قولُ أُبَيٍّ رضي الله عنه[5]: فَسُقِطَ في نفسي، معناه: اعتَرتني حَيرةٌ ودَهشَةٌ، أي: أصابتهُ نَزغَةٌ من الشيطان ليشوِّشَ عليه حالَه، ويُكدِّرَ عليه وقتَه، فإنه عَظُمَ عليه من اختلاف القراءاتِ ماليس عظيماً في نفسه، وإلا، فأيُّ شيء يلزمُ من المحال والتَّكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك ـ والحمد لله ـ في النَّسخ الذي هو أعظم، فكيفَ بالقراءة؟

ولمَّا رأى النبيُّ ﷺ ما أصابه من ذلك الخاطر، نَبَّهَهُ، بأن ضرب[6] في صدره، فأعقَبَ ذلك بأنِ انشرحَ صدرُه، وتَنَوَّرَ باطنُه، حتَّى آلَ به الكَشفُ والشَّرحُ إلى حالةِ المُعَاينة. ولمَّا ظهر له قُبحُ ذلك الخاطر، خافَ من الله تعالى، وفاضَ بالعَرَق استحياءً من الله تعالى، فكان هذا الخاطرُ من قبيل ما قال فيه النبيُّ ﷺ حين سألوه: إنَّا نَجِدُ في أنفُسنا ما يَتَعَاظَمُ أحَدُنا أن يَتَكَلَّمَ به، قال: «وقد وَجَدتُموه؟!». قالوا:

---

(١) في (م): فقال لي.

(٢) في (ظ): أن اقرأه.

(٣) في (م): فلك.

(٤) صحيح مسلم (٨٢٠)، وهو في المسند برقم (٢١١٧١).

(٥) الكلام من هذا الموضع إلى آخر الباب، من المفهم ٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ بتصرف يسير.

(٦) في (م): ضربه.

نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة[١]. وسيأتي الكلام عليه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى[٢].

بابُ ذِكرِ جمعِ القرآن، وسببِ كَتْبِ عثمانَ المصاحفَ، وإحراقِه ما سواها، وذِكرِ مَن حَفِظَ القرآنَ من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبيِّ ﷺ

كان القرآنُ في مدَّة النبيِّ ﷺ متفرِّقاً في صدور الرجال، وقد كتبَ الناسُ منه في صُحُف، وفي جَرِيد، وفي لِخاف وظُرَر، وفي خَزَف، وغير ذلك. قال الأصمعيُّ[٣]: اللِّخاف: حجارةٌ بِيضٌ رِقاق، واحدتُها لَخْفَة. والظُّرَرُ: حجرٌ، له حدٌّ كحدِّ السكين، والجمع ظِرارٌ؛ مثلُ رُطَب ورِطاب، ورُبَع ورِباع، وظِرَّان أيضاً، مثلُ صُرَد وصِردان[٤].

فلما استَحَرَّ القتلُ بالقُرَّاء يومَ اليمامة في زمن الصدِّيق رضي الله عنه، وقُتِلَ منهم في ذلك اليوم - فيما قيل - سبعُ مئة، أشار عمرُ بنُ الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، مخافةَ أن يموتَ أشياخُ القرَّاء، كأُبَيٍّ، وابنِ مسعود، وزيد، فندبا زيدَ بنَ ثابت إلى ذلك، فجمَعَه غيرَ مرتَّب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضي الله عنه[٥].

روى البخاري عن زيد بنِ ثابت قال: أرسلَ إليَّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامةِ، وعندَه عُمرُ، فقال أبو بكر: إنَّ عمرَ أتاني، فقال: إنَّ القَتلَ قدِ استَحَرَّ يومَ اليمامةِ بالناس، وإني أخشَى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاء في المواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن، إلا أن تَجمعوه، وإني لأرى أن تَجمعَ القرآنَ. قال أبو بكر: فقلتُ لعمر: كيف أفعلُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣٢).

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الآية: ٢٠٠).

(٣) عبد الملك بن قُريب، أبو سعيد الأصمعي البصري، اللغوي الأخباري، توفي سنة (٢١٥هـ) وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٧٥.

(٤) الرُّبَع: الفصيل يُنتَجُ في الربيع، وهو أول النتاج، والصُّرَد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، وكانوا يتشاءمون به. (المعجم الوسيط).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٩.

شيئاً لم يَفعَلْه رسولُ الله ﷺ؟! فقال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَل يُراجِعُني حتى شرحَ اللهُ لذلك صدري، ورأيتُ الذي رأى عمرُ.

قال زيدٌ: وعندَه عمرُ جالسٌ لا يَتكلَّمُ، فقال لي أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ، ولا نَتَّهمُك، كنتَ تَكتُبُ الوحيَ لرسولِ اللهِ ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ، فاجْمَعْه. فواللهِ، لو كلَّفَني نقلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمعِ القرآن. قلتُ: كيف تَفعلانِ شيئاً لم يَفعَلهُ رسولُ الله ﷺ؟! فقال أبو بكر: هو واللهِ خيرٌ. فلم أزَل أراجِعُه حتى شرحَ اللهُ صَدرِي للذي شرحَ له صَدرَ أبي بكر وعمرَ، فقمتُ، فتَتَبَّعتُ القرآنَ أجمعُه من الرِّقاع، والأكتاف، والعُسُبِ، وصُدورِ الرجال، حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع خُزيمةَ الأنصاريِّ[1]، لم أجِدهما مع غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. فكانت الصُّحُفُ التي جُمِعَ فيها القرآنُ عند أبي بكر حتى توفَّاه الله، ثم عند عمرَ حتى توفَّاه الله، ثم عند حفصةَ بنتِ عمر.

وقال اللَّيثُ: حدثني عبدُ الرحمن بنُ خالد[2]، عن ابن شِهاب، وقال: مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ. وقال أبو ثابت: حدثنا إبراهيمُ، وقال: مع خُزيمة، أو أبي خُزَيـمـة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

وقال الترمذيُّ في حديثه عنه: فوجَدتُ آخِرَ سورة براءةَ مع خُزيمةَ بنِ ثابت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[4].

---

(١) هو خُزيمة بن ثابت، أبو عمارة، الخطمي، ذو الشهادتين، شهد أحداً وما بعدها، واستشهد يوم صفّين سنة (٣٧هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٨٥.

(٢) تحرف في النسخ و(م) إلى: غالب.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٧٩)، وهو في المسند(٥٧). الليث: هو ابنُ سَعد، وابنُ شِهاب: هو الزُّهري، وأبو ثابت: هو محمد بن عُبيد الله المدني، وإبراهيم: هو ابنُ سَعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عَوف.

(٤) سنن الترمذي (٣١٠٣).

وفي «البخاري»: عن زيد بن ثابت قال: لما نَسَخْنا الصُّحُفَ في المصاحف، فَقَدْتُ آية من سورة الأحزاب، كنتُ أسمَعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها، لم أجِدها مع أحد إلا مع خُزيمةَ الأنصاري، الذي جعلَ رسولُ الله ﷺ شهادتَه بشهادة رجلَين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] [١].

وقال الترمذيُّ عنه: فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب، كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ فالتمستُها، فوجدتُها عند خُزيمةَ بن ثابت، أو أبي خُزيمةَ، فأَلحقتُها في سورتها[٢].

قلتُ: فسقَطَتِ الآيةُ الأولى من آخِر «براءَة» في الجمع الأوَّل، على ما قاله البخاريُّ والترمذيُّ، وفي الجمع الثاني فُقِدَتْ آيةٌ من سورة الأحزاب. وحكى الطبريُّ: أنَّ آيةَ «براءة» سَقَطَت في الجمع الأخير، والأوَّل أصحُّ[٣]، والله أعلم.

فإن قيل: فما وجهُ جمعِ عثمانَ للناسِ[٤] على مُصْحَفِه، وقد سبقَه أبو بكر إلى ذلك، وفرَغَ منه؟.

قيل له: إنَّ عثمانَ رضي الله عنه لم يَقصِد بما صنعَ جَمعَ الناسِ على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسلَ إلى حَفصَةَ أن أرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسَخُها في المصاحف، ثم نَردُّها إليكِ؟ على ما يأتي. وإنما فعلَ ذلك عثمانُ، لأنَّ الناسَ اختلفوا في القراءات بسبب تفرُّق الصحابة في البلدان، واشتدَّ الأمرُ في ذلك، وعَظُمَ اختلافُهم وتَشَتُّتُهم[٥]، ووقعَ بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفةُ رضي الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا في غَزوة إرمِينِيَةَ، فقرأت كُلُّ طائفة بما رُوِيَ لها، فاختَلَفوا، وتَنازَعُوا، وأظهرَ بعضُهم إكفارَ بعضٍ[٦]، والبراءةَ منه، وتلاعَنوا، فأشفَقَ حذيفةُ مما

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٨٤)، وهو في مسند أحمد (٢١٦٤٠).

(٢) سنن الترمذي (٣١٠٤).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩. وانظر تفسير الطبري ١/ ٥٤ ـ ٥٦.

(٤) في (م): الناس.

(٥) في (م): وتشبثهم.

(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٤٧: فاختلفوا وتنازعوا حتى قال بعضُهم لبعض: أنا كافر بما تقرأ به.

رَأى منهم، فلما قَدِم حُذَيفَةُ المدينةَ ـ فيما ذكر البخاريُّ والترمذي[١] ـ دخل إلى عثمانَ قبل أن يَدخُلَ إلى بيته، فقال: أدرِكْ هذه الأمةَ قبل أن تَهلِكَ! قال: فيماذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرتُ هذه الغزوةَ، وجَمَعَت ناساً من العراق والشام والحجاز. فوصفَ له ما تقدَّم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفُوا في كتابهم، كما اختلف اليهودُ والنصارى[٢].

قلت: وهذا أدلُّ دليل على بطلان مَن قال: إنَّ المرادَ بالأحرف السبعة قراءاتُ القُرَّاء السبعة، لأنَّ الحقَّ لا يُختلَفُ فيه.

وقد روى سُوَيدُ بنُ غَفَلَةَ[٣]، عن عليِّ بنِ أبي طالب أنَّ عثمان قال: ما تَرَونَ في المصاحف؟ فإنَّ الناسَ قد اختلفوا في القراءة، حتى إنَّ الرجلَ لَيقول: إنَّ قراءتي خيرٌ من قراءتك، وقراءتي أفضلُ من قراءتك. وهذا شبيهٌ بالكفر؟ قلنا: ما الرأيُ عندك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: الرأيُ عندي أن يجتمعَ الناسُ على قراءة، فإنكم إذا اختلفتُم اليومَ، كان مَن بَعدَكم أشَدَّ اختلافاً، قلنا: الرأيُ رأيُك يا أميرَ المؤمنين. فأرسلَ عثمانُ إلى حَفصَةَ أن أرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسَخُها في المصاحف، ثم نَرُدُّها إليك. فأرسلَت بها إليه، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بنَ الزُّبير، وسعيدَ بنَ العاصي[٤]، وعبدَ الرحمن بنَ الحارث بنِ هشام[٥]، فنسخُوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرَّهط القُرَشِيِّين: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بنُ ثابت في شيء من القرآن، فاكتُبُوه بلسان قريش، فإنما نزلَ بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصُّحُفَ إلى حفصةَ، وأرسلَ إلى كلِّ أفُق بمصحف مما نَسخُوا، وأمرَ بما سوى ذلك من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يُحرقَ[٦].

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٨٧)، وسنن الترمذي (٣١٠٤).

(٢) من قوله: ووقع بين أهل الشام والعراق... إلى هذا الموضع، من المحرر الوجيز ١/ ٤٧.

(٣) أبو أمية، الجُعفي الكوفي، أسلَم في حياة النبي ﷺ، وقدم المدينة حين فرغوا من دفن رسول الله ﷺ، وشهد اليرموك، مات سنة (٨١هـ). السير ٤/ ٦٩.

(٤) الأموي، كان له عند موت النبي ﷺ تسع سنين، وَلِيَ إمرة الكوفة لعثمان، وإمرةَ المدينة لمعاوية، مات سنة (٥٧هـ). السير ٣/ ٤٤٤.

(٥) المخزومي، رأى النبي ﷺ، مات في خلافة معاوية بالمدينة، سنة (٤٣هـ) السير ٣/ ٤٨٤.

(٦) أخرجه مختصراً ابن أبي داود في المصاحف ص٢٢، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح ٩/ ١٨.

وكان هذا من عثمانَ رضي الله عنه بعد أن جمعَ المهاجرين والأنصارَ، وجِلَّةَ أهلِ الإسلام، وشاورَهم في ذلك، فاتفقُوا على جَمعِه بما صحَّ، وثبتَ من[1] القراءات المشهورةِ عن النبيِّ ﷺ، واطِّراحِ ما سواها، واستَصوَبُوا رأيَه، وكان رأياً سَديداً مُوفَّقاً، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

وقال الطبري فيما رَوى: إن عثمانَ قَرَنَ بزيد أبَانَ بنَ سعيد بنِ العاصي[2] وحدَه، وهذا ضعيفٌ[3]. وما ذكره البخاريُّ والترمذيُّ وغيرُهما أصحُّ.

وقال الطبري أيضاً: إن الصُحُفَ التي كانت عند حفصةَ، جُعلت إماماً في هذا الجمع الأخير[4]. وهذا صحيحٌ.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبيدُ الله بن عبد الله، أنَّ عبدَ الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نَسخَ المصاحفِ، وقال: يامعشرَ المسلمين، أُعزَلُ عن نَسخِ المصاحف، ويتولاها[5] رجلٌ، والله، لقد أسلمتُ وإنه لَفي صُلب رجل كافر! يُريد زيدَ بنَ ثابت. ولذلك قال عبدُ الله بنُ مسعود: يا أهلَ العراق، اكتُمُوا المصاحفَ التي عندَكم وغُلُّوها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فَالْقَوُا اللهَ بالمصاحف. خرَّجه الترمذي[6]. وسيأتي الكلام في هذا في سورة آل عمران، إن شاء الله تعالى[7].

---

(١) في (م): في.

(٢) هو أبو الوليد الأموي، أسلم قبل الفتح، واستعمله النبي ﷺ على البحرين، استُشهد يوم أجنادين. السير ١/ ٢٦١.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٤ ـ ٥٥، وفي إسناده عُمارة بنُ غَزيَّة. قال الخطيب ـ فيما نقله عنه الحافظ في الفتح ٩/ ١٩ ـ: ووهم عُمارةُ في ذلك، لأن أبان قُتل بالشام في خلافة عمر، ولا مدخل له في هذه القصة.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٥٦، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩..

(٥) في (م): ويتولاه.

(٦) سنن الترمذي (٣١٠٤). ابنُ شِهاب: هو الزُّهرِي، وعُبيد الله بنُ عبد الله: هو ابنُ عُتبةَ بنِ مسعود. وقال الترمذي بعده: قال الزُّهري: فبلغني أن ذلك كَرِهَه من مقالة ابنِ مسعود رجالٌ من أفاضل أصحابِ النبي ﷺ.

(٧) لم يذكر المصنف في تفسير الآية المذكورة التأويلَ الذي ذهب إليه عبد الله بنُ مسعود رضي الله عنه. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند (٣٩٢٩): كان هذا من ابن مسعود... خشية اختلافهم، فغضب ابن مسعود، وهذا رأيُه، ولكنه رحمه الله أخطأ خطأ شديداً في تأويل الآية على ما =

قال أبو بكر الأنباريُّ: ولم يكن الاختيارُ لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمانَ على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ـ وعبدُ الله أفضلُ من زيد، وأقدمُ في الإسلام، وأكثرُ سوابقَ، وأعظمُ فضائلَ ـ إلا لأن[1] زيداً كان أحفظَ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلَّه ورسولُ الله ﷺ حَيٌّ، والذي حَفِظَ منه عبدُ الله في حياة رسولِ الله ﷺ نَيِّفٌ وسبعون سورة، ثم تَعلَّمَ الباقيَ بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ، فالذي ختمَ القرآنَ وحفظَه ورسولُ الله ﷺ حيٌّ، أَولَى بجمع المصحف، وأحقُّ بالإيثار والاختيار. ولا ينبغي أن يَظنَّ جاهلٌ أنَّ في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود، لأن زيداً إذا كان أحفظَ للقرآن منه، فليس ذلك مُوجِباً لتقدمته عليه، لأنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيدٌ أحفظَ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب.

قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك، فشيءٌ نَتَجَهُ الغضب، ولا يُعمَل به، ولا يُؤخذ به، ولا يُشكُّ في أنه رضي الله عنه قد عَرَفَ بعد زوالِ الغضبِ عنه حُسنَ اختيار عثمانَ، ومَن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقيَ على موافقتهم، وتركَ الخلافَ لهم. فالشائعُ الذائعُ المتعالَمُ عند أهل الرواية والنقل أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود تعلَّم بقيَّةَ القرآنِ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ. وقد قال بعضُ الأئمة: مات عبدُ الله بنُ مسعود قبلَ أن يَختِمَ القرآنَ. قال يزيدُ بنُ هارون[2]: المُعَوِّذَتان بمنزلة البقرة وآلِ عمران، مَن زعمَ أنهما ليستا من القرآن، فهو كافرٌ بالله[3] العظيم، فقيلَ له: فقولُ عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلافَ بين المسلمين في أنَّ عبدَ الله بن مسعود مات وهو لا يَحفَظُ القرآنَ كلَّه.

قلتُ: هذا فيه نظرٌ، وسيأتي[4].

وروى إسماعيلُ بن إسحاقَ وغيره، قال حمَّادٌ: أظنُّه عن أنس بن مالك قال: كانوا يختلفون في الآية، فيقولون: أقرأها رسولُ الله ﷺ فلانَ بنَ فلان، فعسى أن

= أوّل، فإنَّ الغُلول هو الخيانة، والآيةُ واضحةُ المعنى في الوعيد لمن خان أو اختلس من المغانم.

(١) في النسخ الخطية: أن، والمثبت من (م).

(٢) أبو خالد الواسطي، ثقة متقن، توفي في خلافة المأمون سنة (٢٠٦هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٥٨.

(٣) في (ظ): بالقرآن.

(٤) ص ٩٥.

يكونَ من المدينة على ثلاثِ ليال، فُيرسَلُ إليه، فُيجاء به، فيقال: كيف أقرأكَ رسولُ الله ﷺ آيةَ كذا وكذا ؟ فيكتُبون كما قال[١].

قال ابنُ شِهاب: واختلفوا يومئذ في «التابوت»، فقال زيدٌ: «التابوه». وقال ابنُ الزُّبير وسعيد بن العاصي: «التابوت»، فرُفع اختلافُهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتاء، فإنه نَزَلَ بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي[٢].

قال ابن عطية[٣]: قرأه زيد بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء، وكُتبتِ المصاحفُ على ما هو عليه غابِرَ الدهر، ونَسخَ منها عثمانُ نُسَخاً. قال غيره: قيل: سبعة، وقيل: أربعة، وهو الأكثر، ووجَّه بها إلى الآفاق، فوجَّه للعراق والشام ومصر بأمَّهات، فاتخذَها قُرَّاءُ الأمصار مُعتمَدَ اختياراتِهم، ولم يخالِف أحدٌ منهم مصحفَه على النحو الذي بلغَه، وما وُجدَ بين هؤلاء القُرَّاء السبعةِ من الاختلاف في حروف يَزيدُها بعضُهم، ويَنقُصُهابعضُهم، فذلك لأنَّ كلاًّ منهم اعتمدَ على ما بلغَه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمانُ كتب تلك المواضعَ في بعض النسخ، ولم يكتُبها في بعض، إشعاراً بأنَّ كلَّ ذلك صحيحٌ، وأنَّ القراءةَ بكلٍّ منها جائزةٌ.

قال ابنُ عطية: ثم إنَّ عثمانَ أمرَ بما سواها من المصاحف أن تُحرقَ، أو تُخرقَ ـ تُروى بالحاء غير منقوطة، وتُروى بالخاء على معنى ـ ثم تُدفنَ، وروايةُ الحاء غير منقوطة أحسن[٣].

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» عن سُوَيدِ بنِ غَفَلَةَ قال: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يقول: يامعشرَ الناس، اتقوا الله، وإيَّاكم والغُلُوَّ في عثمانَ وقولَكم: حرق[٤] المصاحف، فوالله ما حَرقَها إلا عن ملأ منَّا أصحابَ

---

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في المقنع ص٧، وقد اختصر القرطبي إسنادَه. حماد: هو ابن زيد، وأخرج ابنُ أبي داود في المصاحف ص٢١ . ٢٢ نحوَه من وجه آخر.

(٢) لم يخرجه البخاري، وإنما أخرجه الترمذي (٣١٠٤)، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٢٠ عن الخطيب أن هذه الزيادة رواها ابن شهاب ـ وهو الزُّهري ـ مرسلة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩.

(٤) في (م): حرَّاق.

محمد ﷺ[١]. وعن عُميربن سعيد قال: قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنتُ الواليَ وقتَ عثمان، لفعلتُ في المصاحف مثلَ الذي فعل عثمان[٢].

قال أبو الحسن بنُ بطّال: وفي أمرِ عثمانَ بتحريق الصُّحُف والمصاحف حين جمعَ القرآنَ جوازُ تحريقِ الكتبِ التي فيها أسماءُ الله تعالى، وأنَّ ذلك إكرامٌ لها، وصيانةٌ عن الوطء بالأقدام، وطرحِها في ضِياع من الأرض.

روى مَعمَرٌ، عن ابن طاوس، عن أبيه، أنه كان يَحرِقُ الصُّحُفَ إذا اجتمعَت عنده الرسائلُ فيها «بسم الله الرحمن الرحيم». وحرقَ عروةُ بنُ الزُّبير[٣] كتبَ فقه كانت عندَه يومَ الحَرَّة. وكرهَ إبراهيمُ أن تُحرَقَ الصُّحُفُ إذا كان فيها ذكرُ الله تعالى[٤]. وقولُ من حرقها أولى بالصواب، وقد فعلَه عثمان.

وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة[٥]: جائزٌ للإمام تحريقُ الصُّحُف التي فيها القرآن، إذا أدَّاه الاجتهادُ إلى ذلك.

فصل

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وفي فعل عثمانَ رضي الله عنه ردٌّ على الحُلُولية[٦] والحَشْوِيَّة[٧] القائلين بقِدَمِ الحروف والأصوات، وأنَّ القراءةَ والتلاوةَ قديمةٌ، وأنَّ

---

(١) أخرجه ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٩٤ ـ ٩٩٥ مطولاً.

(٢) وأخرج هذين الأثرين ابنُ أبي داود في المصاحف ص٢٢ و٢٣، وأخرج الثاني منهما أبو عمرو الداني في المقنع ص٨.

(٣) أبو عبد الله القرشي، أحدُ الفقهاء السبعة، أبوه الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ، توفي سنة (٩٤هـ). السير ٤/ ٤٢١.

(٤) أخرج الآثار الثلاثة عبدُ الرزاق في مصنفه ١١/ ٤٢٥ (٢٠٩٠١) (٢٠٩٠٢) (٢٠٩٠٣).

(٥) هو أبو بكر ابنُ الطيب الباقلاني، وسلفت ترجمته ص٧٤، وقد لقَّبه بلسان الأمة القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٥.

(٦) هم القائلون: إن الله حالٌّ في كل شيء، مُتَّحِدٌ به، حتى جوَّزوا أن يطلق على كل شيءٍ أنه الله! تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.
وينظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٦٤ وما بعدها.

(٧) الحَشْوِيَّة ـ بسكون الشين؛ نسبة إلى الحَشْو ـ طائفة من المبتدعة؛ لُقِّبُوا بهذا اللقب؛ لاحتمالهم كل حَشْوٍ رُويَ من الأحاديث المختلفة، أو لأن منهم المجسِّمة، والجسم محشوّ. المستصفى للغزالي ٢/ ٤٦٢، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ودائرة المعارف الإسلامية (حشو).
وقد يطلق بعض المبتدعة هذا اللقب على المخالف لهم. وقيل: إن أول من أطلق هذا اللقب عمرو بن=

الإيمانَ قديمٌ، والروحَ قديم. وقد أجمعتِ الأمةُ، وكُلُّ أمة من النصارى واليهود والبراهمة، بل كلُّ مُلحِدٍ وموحِّد، أنَّ القديمَ لا يُفعَل، ولا تتعلقُ به قدرةُ قادر بوجه ولابسبب، ولا يجوز العدمُ على القديم، وأنَّ القديمَ لا يصيرُ مُحدَثاً، والمُحدَثُ لا يصيرُ قديماً، وأنَّ القديمَ ما لا أوَّلَ لوجوده، وأنَّ المُحدَثَ هو ما كانَ بعدَ أن لم يكن، وهذه الطائفةُ خَرَقَت إجماعَ العقلاء من أهل المِلل وغيرِهم، فقالوا: يجوز أن يصيرَ المُحْدَثُ قديماً، وأنَّ العبدَ إذا قرأ كلامَ الله تعالى، فعلَ كلاماً لله قديماً، وكذلك إذا نَحتَ حروفاً من الآجُرِّ والخشب، أو صاغَ أحرفاً من الذهب والفضة، أو نسجَ ثوباً، فنقشَ عليه آيةً من كتاب الله، فقد فعل هؤلاء كلامَ الله قديماً، وصار كلامُه منسوجاً قديماً، ومنحوتاً قديماً، ومَصُوغاً قديماً. فيقال لهم: ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوزُ أنْ يذابَ ويُمحى ويُحرقَ؟ فإن قالوا: نعم، فارقوا الدِّينَ، وإن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولُكم في حروف مصوَّرة آية من كتاب الله تعالى من شَمَع، أو ذهب، أو فضة، أو خشب، أو كاغَد، فوقَعَت في النار، فذابَت واحترقَت، فهل تقولون: إنَّ كلامَ الله احترق؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولَهم، وإن قالوا: لا، قيل لهم: أليس قلتُم: إنَّ هذه الكتابةَ كلامُ الله وقد احترقت، وقلتُم: إن هذه الأحرفَ كلامُه وقد ذابَت؟! فإن قالوا: احترقتِ الحروفُ، وكلامُه تعالى باقٍ، رَجَعوا إلى الحقِّ والصواب، ودَانُوا بالجواب، وهو الذي قاله النبيُّ ﷺ مُنَبِّهاً على ما يقول[1] أهلُ الحق: «لو كان القرآنُ في إهاب، ثم وقعَ في النار، ما احتَرقَ»[2]. وقال الله عز وجل: «أنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث. أخرجه مسلم[3].

= عُبيد المعتزلي على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٧٦-٨٠.

(١) في (ظ): يقوله.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣٦٥) من حديث عقبة بن عامر، وإسناده ضعيف، ونقل البغوي في شرح السنة ٤/ ٤٣٧ عن الإمام أحمد قوله: معناه: لو كان القرآن في إهاب، يعني في جلد، في قلب رجل، يُرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسَّه النار. ونقل عن أبي عبد الله البوشنجي قوله: معناه: أن من حمل القرآن وقرأه، لم تمسَّه النار يوم القيامة. وانظر جمال القراء للسخاوي ١/ ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو قطعة من حديث عِياض بن حمار المجاشعي، وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤). قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٩٨: معناه: محفوظ في الصدور، لايتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الأزمان. يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل: تقرأه في يسر وسهولة.

فثبت بهذا أنَّ كلامَه سبحانه ليس بحرف، ولا يُشبه الحروفَ. والكلامُ في هذه المسألة يطول، وتتميمُها في كتب الأصول، وقد بيَّنَّاها في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

فصل

وقد طعن الرافضةُ ـ قبَّحهم الله تعالى ـ في القرآن، وقالوا: إنَّ الواحدَ يكفي في نقل الآيةِ والحرفِ، كما فعلتُم، فإنكم أثبتُّم بقول رجل واحد ـ وهو خُزيمةُ بنُ ثابت وحدَه ـ آخرَ براءة[١]، وقولَه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالجوابُ: أن خُزيمةَ رضي الله عنه لمَّا جاء بها تَذكَّرَها كثيرٌ من الصحابة، وقد كان زيدٌ يعرفها[٢]، ولذلك قال: فقدتُ آيتَينِ من آخر سورةِ التوبة. ولو لم يعرفها[٣]، لم يَدرِ هل فَقَدَ شيئاً أو لا، فالآيةُ إنما ثَبتَت بالإجماع، لا بخزيمةَ وحدَه.

جوابٌ ثان: إنما ثَبتَت بشهادة خُزيمةَ وحدَه لقيام الدليل على صِحَّتها في صفة النبيِّ ﷺ، فهي قرينة تُغني عن طلب شاهد آخرَ، بخلاف آية الأحزاب، فإنَّ تلك ثبتَت بشهادة زيد وأبي خُزيمةَ، لسماعهما إيَّاها من النبيِّ ﷺ. قال معناه المهلب[٤]، وذكر أنَّ خُزيمةَ غيرُ أبي خُزيمةَ، وأنَّ أبا خُزيمةَ الذي وُجدَت معه آيةُ التوبة معروفٌ من الأنصار، وقد عَرَفه أنسٌ، وقال: نحن وَرِثناه، والتي في الأحزاب وُجدَت مع خُزيمةَ بنِ ثابت، فلا تَعارضَ، والقصةُ غيرُ القصة، لا إشكالَ فيها ولا التباس.

وقال ابنُ عبد البَر: أبو خُزيمةَ لا يُوقَفُ على صحة اسمه، وهو مشهورٌ بكُنيته، وهو أبو خُزيمةَ بنُ أوس بن زيد بن أَصْرم بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وتُوفِّي في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان، وهو أخو مسعود بنِ أوس[٥]. قال ابنُ شِهاب، عن عُبَيد بنِ السبَّاق، عن زيدِ بنِ ثابت: وجدتُ آخِرَ التوبة

---

(١) في (م): سورة براءة.

(٢) في (م): لما جاء بهما تذكرهما وقد كان زيد يعرفهما.

(٣) في (م): يعرفهما.

(٤) هو أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صُفرة أسيد بن عبد الله الأسدي الأندلسي، ولي قضاء المريَّة. توفي سنة (٤٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧٩.

(٥) هو أبو محمد الأنصاري، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، قيل: توفي في خلافة عمر. الاستيعاب ١٠/ ٧٩ (بهامش الإصابة).

مع أبي خُزَيمةَ الأنصاري. وهو هذا، ليس[١] بينه وبين الحارث بنِ خُزيمةَ[٢] أبي خزيمة نسبٌ إلا اجتماعُهما في الأنصار، أحدُهما أوسيٌّ، والآخَرُ خَزرَجِيٌّ[٣].

وفي «مسلم» و«البخاري»، عن أنس بن مالك قال: جمعَ القرآنَ على عهد النبيِّ ﷺ أربعةٌ، كلُّهم من الأنصار: أُبَيُّ بنُ كعب، ومعاذُ بنُ جَبَل، وزيدُ بنُ ثابت، وأبو زيد. قلتُ لأنس: مَن أبو زيد؟ قال: أحدُ عمومتي[٤].

وفي «البخاري» أيضاً، عن أنس قال: ماتَ النبيُّ ﷺ ولم يجمعِ القرآنَ غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذُ بن جبل، وزيد، وأبو زيد، ونحن وَرِثْناه[٥].

وفي أُخرى قال: مات أبو زيد ولم يَترك عَقِباً، وكان بَدرِيًّا[٦]، واسمُ أبي زيد: سَعدُ بنُ عُبَيد[٧].

قال ابنُ[٨] الطَّيِّب رضي الله عنه: لا تدلُّ هذه الآثارُ على أنَّ القرآنَ لم يَحفَظه في حياة النبيِّ ﷺ، وأنه لم[٩] يجمعه غيرُ أربعة من الأنصار، كما قال أنسُ بن مالك، فقد ثبتَ بالطرق المتواترة أنه جمعَ القرآنَ عثمانُ، وعليٌّ، وتَميمٌ الداريُّ[١٠]، وعُبادةُ بنُ الصامت، وعبدُ الله بنُ عَمرو بنِ العاص.

فقولُ أنس: لم يجمعِ القرآنَ غيرُ أربعة، يَحتَمِلُ أنه لم يجمعِ القرآنَ، وأخذَه تَلَقِّياً[١١]

---

(١) في (م): وليس.

(٢) شهد بدراً وما بعدها، ومات بالمدينة سنة (٤٠هـ). الاستيعاب ٢/ ٢٣٤.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١١/ ٢١٤ (بهامش الإصابة)، وقول زيد بن ثابت أخرجه البخاري ضمن حديث جمع القرآن (٤٩٨٦)، وانظر كلام الحافظ في الفتح ٨/ ٣٤٥ و٩/ ١٥.

(٤) صحيح البخاري (٣٨١٠)، وصحيح مسلم (٢٤٦٥)، وهو في مسند أحمد (١٣٩٤٢).

(٥) صحيح البخاري (٥٠٠٤).

(٦) صحيح البخاري (٣٩٩٦).

(٧) ذكر الحافظ في الفتح ٧/ ١٢٨ أن الأرجح في اسمه: قيس بن السكن، وذكر أيضاً في ٩/ ٥٣ أن ابن أبي داود روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمامة عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال: وكان رجلاً منا من بني عدي بن النجار، أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقباً، ونحن ورثناه.

(٨) وقع في هذا الموضع وفي المواضع السالفة في (ظ): أبو، وهو خطأ.

(٩) في (م): ولم.

(١٠) أبو رقية، صاحب رسول الله ﷺ، وفد سنة تسع وأسلم، حدث عنه النبي ﷺ بقصة الجسّاسة، توفي سنة (٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٢.

(١١) في (م): تلقيناً.

من في رسول الله ﷺ، غيرُ تلك الجماعة، فإنَّ أكثرَهم أخذَ بعضَه عنه، وبعضَه عن غيره، وقد تظاهرتِ الرواياتُ بأنَّ الأئمةَ الأربعةَ جمعُوا القرآنَ على عهد النبيِّ ﷺ لأجل سَبقِهم إلى الإسلام، وإعظامِ الرسول ﷺ لهم.

قلت: لم يذكر القاضي عبدَ الله بنَ مسعود وسالماً مولى أبي حُذيفة[١] رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما ممَّن جمعَ القرآن.

روى جريرٌ، عن عبد الله بن يزيدَ الصُّهباني، عن كُمَيْل قال: قال عمرُبن الخطاب: كنتُ مع رسول الله ﷺ، ومعه أبو بكر، ومن شاء الله، فمرَرنا بعبد الله بنِ مسعود وهو يُصلِّي، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَن هذا الذي يقرأُ القرآن؟» فقيل له: هذا عبدُ الله بنُ أُمِّ عَبد، فقال: «إنَّ عبدَ الله يَقرأُ القرآنَ غَضًّا كما أُنْزِلَ»[٢] الحديث.

قال بعضُ العلماء: معنى قوله: «غَضًّا كما أُنزل» أي: إنه كانَ يقرأُ الحرفَ الأوَّلَ الذي أُنزِل عليه القرآنُ دون الحروفِ السبعة التي رُخِّصَ لرسول الله[٣] ﷺ في قراءته عليها بعد معارضة[٤] جبريلَ عليه السلام القرآنَ إيَّاه في كلِّ رمضان.

وقد روى وكيعٌ وجماعةٌ معه، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان قال: قال لي عبدُ الله بنُ عباس: أيَّ القراءتين تقرأ؟ قلتُ: القراءةَ الأولى؛ قراءةَ ابنِ أُمِّ عَبْد، فقال لي: بل هي الآخِرةُ[٥]، إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَعرِضُ القرآنَ على جبريلَ في كلِّ عام مرَّة، فلما كان العامُ الذي قُبِضَ فيه رسولُ الله ﷺ، عَرَضَه عليه مرَّتين، فحضَرَ ذلك عبدُ الله، فعَلِمَ ما نُسِخَ من ذلك، وما بُدِّل[٦].

---

(١) أبو حذيفة: هو ابنُ عتبة بن ربيعة، القرشي، قيل: اسمه مِهشَم، أحدُ السابقين، وقد أسلم قبل دخولهم دار الأرقم، استشهد هو ومولاه سالم يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة. ومولاه سالم، هو ابنُ معقل، أصلُه من اصطخر، وهو من السابقين الأولين، وهو الذي أرضعته سهلة بنتُ سهيل زوجة أبي حذيفة لتظهر عليه، وخُصَّا بذلك الحكم عند جمهور العلماء. السير ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣١٧ من الطريق التي ذكرها المصنف، لكن قال فيه: عن علي قال: كنتُ مع النبي ﷺ... الحديث. وكذا ذكره الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة ١١/ ٦٠٠. فلعلَّ قوله أعلاه: عمر بن الخطاب، خطأً، أو وهم. وقد أخرجه أحمد في المسند (١٧٥) من طريق إبراهيم النخعي، عن علقمة، عن عمر بن الخطاب، وأخرجه أيضاً (٤٢٥٥) من طريق عاصم، عن زر، عن ابن مسعود.

(٣) في النسخ الخطية: رسول الله، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: معارضته، والمثبت من (م).

(٥) في (ظ): لا بل الآخرة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢٢)، وإسناده صحيح.

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بنِ عَمرو قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خُذُوا القرآنَ من أربعة: من ابنِ أمِّ عبد. فبدأ به. ومعاذِ بنِ جَبَل، وأُبَيِّ بنِ كَعب، وسالم مَولى أبي حُذَيفةَ»[١].

قلتُ: هذه الأخبارُ تدلُّ على أنَّ عبدَ الله جمعَ القرآنَ في حياة رسول الله ﷺ، خلافَ ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب «الرَّد»: حدثنا محمدُ بن شَهرَيار، حدثنا حسينُ بنُ الأسود، حدثنا يحيى بنُ آدمَ، عن أبي بكر، عن أبي إسحاقَ قال: قال عبدُالله بن مسعود: قرأتُ من في رسول الله ﷺ ثنتين وسبعين سورة ـ أوثلاثاً وسبعين سورة ـ وقرأتُ عليه من البقرة إلى [قوله تعالى]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال أبو إسحاق: وتعلَّم عبدُ الله بقيَّةَ القرآن من مُجَمِّع بنِ جارِيَةَ الأنصاريِّ.

قلت: فإن صَحَّ هذا، صحَّ الإجماعُ الذي ذكره يزيدُ بن هارون، فلذلك لم يذكُره القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب مع مَنْ جمع القرآنَ وحَفِظَه في حياة النبيِّ ﷺ. والله أعلم.

قال أبو بكر الأنباري: حدثني إبراهيمُ بن موسى الجَوْزي[٣]، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا مالك بن إسماعيلَ، حدثنا زهيرٌ، عن أبي إسحاقَ قال: سألتُ الأسودَ: ما كان عبدُ الله يصنعُ بسورة الأعراف؟ فقال: ما كان يَعلَمُها[٤] حتى قَدِم الكوفةَ. قال: وقد قال بعضُ أهلِ العلم: مات عبدُ الله بن مسعود رحمه الله قبلَ أن يتعلَّمَ المعوِّذَتَيْن. فلهذه العلةِ لم تُوجدا في مصحفه، وقيل غيرُ هذا على ما يأتي بيانُه آخِرَ الكتاب، عند ذكر المعوِّذتين، إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر: والحديثُ الذي حدثناه إبراهيمُ بن موسى، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا عُمر بن هارون الخُراساني، عن ربيعةَ بن عثمان، عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: كان ممَّن ختمَ القرآنَ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: عثمانُ بنُ عفان، وعليُّ بنُ أبي

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٦٤)، وهو عند أحمد (٦٧٩٠).

(٢) ص ٨٨.

(٣) في (م): الخوزي، وهو خطأ، انظر السير ١٤/ ٢٣٤.

(٤) في (د): تعلَّمها.

طالب، وعبدُ الله بنُ مسعود، رضي الله عنهم، حديثٌ ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصورٌ على محمد بن كعب، فهو مقطوع، لا يُؤخذ به، ولا يُعوَّلُ عليه.

قلت: قوله عليه السلام: «خُذُوا القرآنَ من أربعة: من ابنِ أُمِّ عَبد» يدلُّ على صِحَّته، ومما يبيِّنُ لك ذلك أنَّ أصحابَ القراءات من أهل الحجاز والشامِ والعراقِ، كلٌّ منهم عَزَا قراءَتَه التي اختارها إلى رجل من الصحابة، قرأها على رسول الله ﷺ، لم يستثن من جملة القرآنِ شيئاً، فأسندَ عاصمٌ[١] قراءتَه إلى عليٍّ وابنِ مسعود، وأسندَ ابنُ كثير[٢] قراءتَه إلى أُبَيٍّ، وكذلك أبو عمرو بنُ العلاء[٣]؛ أسندَ قراءتَه إلى أُبَيٍّ، وأما عبدُ الله بنُ عامر[٤]، فإنه أسنَدَ قراءتَه إلى عثمان، وهؤلاء كلُّهم يقولون: قرأنا على رسول الله ﷺ، وأسانيدُ هذه القراءات متصلةٌ، ورجالُها ثقاتٌ. قاله الخَطَّابي[٥].

باب ما جاء في ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشَكْلِه ونَقْطِه، وتَحْزِيبِه، وتعشيرِه، وعددِ حروفِه، وأجزائِه[٦]، وكلماتِه، وآيِهِ

قال ابنُ الطَّيِّب: إن قال قائلٌ: قد اختلفَ السَّلَفُ في ترتيبِ سُوَرِ القرآن، فمنهم مَن كتبَ في مُصحفه السورَ على تاريخ نزولها، وقَدَّم المكيَّ على المدنيِّ، ومنهم مَن جَعَلَ في أوَّل مصحفه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، ومنهم مَن جعلَ في أوَّله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وهذا أوَّلُ مصحف عليٍّ رضي الله عنه. وأما مصحفُ ابن مسعود؛ فإنَّ أوَّلَه: ﴿مَٰلِكِ

---

(١) هو عاصم بنُ أبي النَّجود بَهدَلة (وقيل: بهدلة أمُّه) أبو بكر الأسدي، شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القُرَّاء السبعة. توفي آخر سنة (١٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٦.

(٢) هو عبد الله بن كثير، مقرئُ مكة، أحد القُرَّاء السبعة، أبو معبد الكناني. توفي سنة (١٢٠هـ). السير ٥/ ٣١٨.

(٣) البصري، أحد القراء السبعة، اختلف في اسمه على أقوال، أشهرها زبَّان، كان أعلم الناس بالقراءات والعربية والشعر وأيام العرب، مدحه الفرزدق وغيره، توفي سنة (١٥٤هـ)، وقيل (١٥٧هـ). السِّيَر ٦/ ٤٠٧.

(٤) أبو عمران اليَحصُبي، الدمشقي، مقرىء الشام، أحد القُرَّاء السبعة، توفي سنة (١٢٨هـ). السِّيَر ٥/ ٢٩٢.

(٥) في أعلام الحديث ٣/ ١٨٥٥.

(٦) في (ظ): وأحزابه، وهو تكرار.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثم البقرة، ثم النساء، على ترتيب مختلف. وفي مصحف[١] أُبَيٍّ كان أوَّلُه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [ثم البقرة] ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة، ثم كذلك على اختلافٍ شديد.

قال القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب: فالجواب أنه يَحتمل أن يكونَ ترتيبُ السور على ما هي عليه اليومَ في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة[٢].

وذكر ذلك مكيٌّ رحمه الله في تفسير سورة براءة[٣]، وذكر أنَّ ترتيبَ الآيات في السور، ووضعَ البَسملة في الأوائل، هو من النبيِّ ﷺ، ولما لم يأمُر بذلك في أوَّل سورة براءة، تُركت بلا بسملة. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، وسيأتي[٤].

وذكر ابنُ وَهْب في «جامعه» قال: سمعتُ سليمانَ بنَ بلال[٥] يقول: سمعتُ ربيعةَ[٦] يُسأل: لم قُدِّمتِ البقرةُ وآلُ عمران، وقد نزلَ قبلَهما بضعٌ وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعةُ: قد قُدِّمتا، وأُلِّف القرآنُ على علم ممَّن ألَّفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ننتهي إليه، ولانَسألُ[٧] عنه.

وقد ذكر سُنَيْدٌ[٨] قال: حدثنا مُعتَمِرٌ، عن سلَّام بنِ مسكين، عن قتادةَ قال: قال ابنُ مسعود: مَن كان منكم متأسِّياً، فَليتأسَّ بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمةِ قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تَكَلُّفاً، وأقومَها هَدياً، وأحسنَها حالاً، اختارهم اللهُ لصحبة نبيِّه ﷺ، وإقامة دينه، فاعْرِفوا لهم فضلَهم، واتَّبِعُوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم.

---

(١) في (م): ومصحف.

(٢) الانتصار (١٦٥ ـ ١٦٦ مخطوط) بتصرف واختصار، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لعله ذكر ذلك في كتابه «الهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن وأنواع علومه في سبعين جزءًا، ذكره صاحب هدية العارفين ٦/ ٤٧١.

(٤) في أول سورة براءة.

(٥) القرشي التيمي مولاهم، المدني، المفتي الحافظ، توفي سنة (١٧٢هـ). السير ٧/ ٤٢٥.

(٦) هو ابنُ أبي عبد الرحمن، أبو عثمان، ويقال: أبو عبد الرحمن القرشي، المشهور بربيعة الرأي، مفتي المدينة، توفي سنة (١٣٦هـ) السير ٦/ ٨٩. ولم نجد قول ابن وهب في جامعه الذي بين أيدينا.

(٧) في (ظ): تسأل.

(٨) هو ابنُ داود المِصِّيصي، من رجال التهذيب.

وقال قومٌ من أهل العلم: إنَّ تأليفَ سُوَر القرآن على ما هو عليه في مُصحفنا كان عن توقيف من النبيِّ ﷺ، وأمَّا ما رُوي من اختلاف مُصحفِ أُبَيٍّ وعليٍّ وعبدِ الله، فإنما[1] كان قبلَ العَرضِ الأخير، وإنَّ رسولَ الله ﷺ رتَّبَ لهم تأليفَ السور بعد أن لم يكُن فعلَ ذلك.

روى يونسُ، عن ابنِ وَهْب قال: سمعتُ مالكاً يقول: إنما أُلِّف القرآنُ على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ.

وذكر أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ» أنَّ الله تعالى أنزلَ القرآنَ جملة إلى سماء الدُّنيا، ثم فُرِّقَ على النبيِّ ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورةُ تَنزِلُ في أمر يحدُثُ، والآيةُ جواباً لمستخبرٍ يَسأل، ويُوقِفُ جبريلُ رسولَ الله ﷺ على موضع السورة والآية، فاتِّساقُ السُّور كاتِّساق الآيات والحروف، فكلُّه عن محمد خاتم النبيِّين عليهم السلام، عن ربِّ العالمين، فمَن أخَّرَ سورة مُقدَّمة، أو قَدَّمَ أخرى مُؤخَّرة، فهو كمن أفسدَ نَظْمَ الآيات، وغيَّر الحروفَ والكلماتِ، ولا حُجَّةَ على أهل الحقِّ في تقديم البقرةِ على الأنعام ـ والأنعامُ نزلَت قبلَ البقرة ـ لأنَّ رسولَ الله ﷺ أُخِذَ عنه هذا الترتيبُ، وهو كان يقول: «ضَعُوا هذه السورةَ موضعَ كذا وكذا من القرآن»[2]. وكان جبريلُ عليه السلام يَقِفُ على مكان الآيات.

حدثنا حسنُ بن الحُبَاب، حدثنا أبو هشام، حدثنا أبو بكر بنُ عيَّاش، عن أبي إسحاقَ، عن البراء قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن[3]: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦][4].

قال أبو بكر بنُ عيَّاش: وأخطأ أبو إسحاقَ، لأنَّ محمدَ بنَ السائب حدثنا عن أبي صالح[5]، عن ابن عباس قال: آخِرُ ما نزلَ من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

---

(١) في النسخ الخطية: إنما، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩) من حديث عثمان بن عفان مطولاً.

(٣) قوله: من القرآن، ليس في (ظ).

(٤) أبو هشام ـ وهو محمد بن يزيد الرفاعي ـ ضعيف، لكن الحديث صحيح، فقد أخرجه من وجه آخر البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٥) في النسخ الخطية و(م): عن أبي السائب، وهو خطأ.

إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. فقال جبريلُ للنبيِّ عليهما السلام: يا محمدُ، ضَعْها في رأس ثمانين ومئتين من البقرة[١].

قال أبو الحسن بنُ بطَّال: ومَن قالَ بهذا القولِ، لا يقولُ: إنَّ تلاوةَ القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكونَ مرتَّبةً على حسب الترتيب الموقَّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليفُ سُوَرِهِ في الرسم والخطِّ خاصَّة، ولا يُعلَمُ أنَّ أحداً منهم قال: إنَّ ترتيبَ ذلك واجبٌ في الصلاة، وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يَحِلُّ لأحد أن يَتلقَّنَ الكهفَ قبلَ البقرة، ولا الحجَّ قبل[٢] الكهف. ألا ترى قولَ عائشةَ رضي الله عنها للذي سألها: لا يَضرُّكَ أيَّهُ قرأتَ قبلُ[٣]؟

وقد كان النبيُّ ﷺ يقرأ في الصلاة السورةَ في ركعة، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها.

وأما مارُوي عن ابن مسعود وابن عمر، أنهما كَرِها أن يُقرأَ القرآنُ منكوساً، وقالا: ذلك منكوسُ القلب[٤]؛ فإنما عَنَيا بذلك مَن يقرأُ السورةَ منكوسة، ويَبتدئُ من آخرها إلى أوَّلها، لأنَّ ذلك حرامٌ محظورٌ، ومن الناس مَن يتَعاطى هذا في القرآن والشِّعر، لِيُذَلِّلَ لسانَه بذلك، ويَقدِرَ على الحفظ، وهذا حظَره اللهُ تعالى، ومنعَه في القرآن؛ لأنه إفسادٌ لِسُوَرِه، ومخالفةٌ لما قُصِدَ بها.

ومما يدلُّ على أنه لا يجب إثباتُه في المصاحف على تاريخ نزوله، ما صحَّ وثبتَ أنَّ الآياتِ كانت تَنزِلُ بالمدينة، فتُوضَعُ في السورة المكيَّة. ألا ترى قولَ عائشةَ رضي

---

(١) محمد بن السائب: هو الكلبي، وقد تكلموا فيه، وأبو صالح (وهو باذام ـ ويقال باذان ـ مولى أم هانىء) ضعيف. والكلبي معروف بروايته عنه، وقد أخرجه الفرَّاء في معاني القرآن ١/ ١٨٣ عن أبي بكر بن عياش، بهذا الإسناد. وكذلك أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٣٧ من طريق سفيان الثوري، عن الكلبي بنحوه. وقد صحَّ هذا الحديث من طرق أخرى فيما أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٦٧ وغيرُه. وجمع الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٠٥ بين هذه الرواية والرواية السالفة بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلاً منهما آخر بالنسبة لما عداهما.

(٢) في النسخ الخطية: بعد، والمثبت من (م).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٤) أثر صحيح، وأخرجه عبد الرزاق (٧٩٤٧)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٦٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣١٢) و(٢٣١٣) من طريقين عن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود.

الله عنها: وما نزلَت سورةُ البقرة والنساء إلا وأنا عنده[١] ؟ يعني بالمدينة. وقد قُدِّمَتا في المصحف على ما نزلَ قبلَهما من القرآن بمكة. ولو ألَّفوه[٢] على تاريخ النزول، لوجب أن يَنتقِضَ ترتيبُ آياتِ السُّوَر.

قال أبو بكر الأنباريُّ: حدثنا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي، حدثنا حجَّاج بن مِنهال، حدثنا همَّامٌ، عن قتادةَ قال: نزلَ بالمدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرَّعد، والنَّحل، والحجّ، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحُجُرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحَشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ إلى رأس العَشر، وإذا زُلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السُّوَرُ نزلنَ[٣] بالمدينة، وسائرُ القرآن نزل بمكة[٤].

قال أبو بكر: فمَن عَمِلَ على تركِ الأثر، والإعراضِ عن الإجماع، ونظَمَ السُّوَرَ على منازلها بمكةَ والمدينة، لم يَدرِ أينَ تقعُ الفاتحةُ، لاختلاف الناس في موضع نزولِها، ويضطرُّ إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومئتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسَدَ نَظمَ القرآن، فقد كفرَ به، وردَّ على محمد ﷺ ما حكاه عن رَبِّه تعالى.

وقد قيل: إنَّ عِلَّةَ تقديمِ المدنيِّ على المكِّيِّ هو أنَّ الله تعالى خاطَبَ العربَ بلغتها، وما تعرِفُ من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فَنٌّ من كلامِهم مبنيًّا على تقديمِ المؤخَّر، وتأخيرِ المقدَّم، خُوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى، الذي لو فقدوه من القرآن، لقالوا: ما بالُه عَرِيَ من هذا الباب الموجود في كلامنا، المُستَحلَى من نِظامنا. قال عَبِيدُ بنُ الأبرص[٥]:

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

(٢) في (ظ): أبقوه.

(٣) في (ظ): نزلت.

(٤) وأورده كذلك السيوطي في الإتقان ١/١١ ـ ١٢ عن ابن الأنباري.

(٥) شاعر جاهلي قديم، من المعمَّرين، شهد مقتل حُجر أبي امرىء القيس. الشعر والشعراء ١/٢٦٧، وذكره ابن سلَّام الجُمحي في الطبقة الرابعة من طبقاته ١/١٣٨، وقال: قديم، عظيم الذكر، عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب. والبيتان في ديوانه ص٢٤.

أن بُدِّلَتْ أهلَها وُحوشاً[١] وغَيَّرتْ حالَها الخُطوبُ
عَيناكَ دَمعُهُما سَرُوبُ كأنَّ شأنَيهما شَعِيبُ

أراد: عيناكَ دمعُهما سَروبُ لأنْ تَبَدَّلَت من أهلها وُحوشاً، فقَدَّمَ المؤخَّر، وأخَّرَ المقدَّمَ. ومعنى سَروب: منصبٌّ على وجه الأرض من كثرته[٢]، ومنه السارِب، للذاهب على وجهِهِ في الأرض. قال الشاعر[٣]:

أنَّى سَرَبتِ وكُنتِ غيرَ سَرُوبِ

وقوله: شَأنَيهما؛ الشأنُ: واحدُ الشؤون، وهي مَوَاصِلُ قبائلِ الرأس ومُلتقاها[٤]، ومنها يجيءُ الدمع[٥]. شَعِيب: مُتفرِّق.

فصل[٦]

وأما شَكْلُ المصحف ونَقْطُه، فَرُوِيَ أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان[٧] أمرَ به وعَمِلَه، فتجرَّد لذلك الحجَّاجُ[٨] بواسِط، وجدَّ فيه، وزادَ تحزيبَه[٩]، وأمرَ ـ وهو والي العراق ـ

---

(١) اضطربت النسخ في هذا الشطر من البيت، فوقع في (ظ): لأن تبدَّلت من أهلها وحوشاً (وعليه شرحَ المصنف)، وفي (د): أن يبدل من أهلها...، وفي (م): أن بدلت منهم...، وما أثبتناه من ديوانه ص٢٤. وقد اختلفت المصادر في روايته، فوقع في جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب القرشي ص ٤٦٠: أإن تبدَّلت من أهلها...، وأعاده ص ٤٦٢: أن بدلت من أهلها. وفي شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٣٢٥: وبُدِّلت من أهلها...، وفي المعلقات العشر للشنقيطي ص ١٧٠: وبُدِّلَت منهم... ونقل شارح ديوانه ص ٢٤ عن ابن كناسة قوله: لم أرَ أحداً يُنشد هذه القصيدة على إقامة العَروض.

(٢) قوله: من كثرته، ليس في (م).

(٣) هو قيس بنُ الخَطِيم، من الأوس، أدرك الإسلام ولم يسلم، ذكره ابن سلَّام في طبقاته ١/ ٢١٥. وتمام البيت: وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريب. وهو في ديوانه ص٥٥.

(٤) في (د) و(ظ): وملتقاهما.

(٥) في (د) و(ظ): الدموع.

(٦) هذا الفصل بتمامه من المحرر الوجيز ١/ ٥٠.

(٧) ابن الحكم بن أبي العاص، الأموي، الخليفة، من رجال الدهر ودهاة الرجال، مات سنة (٨٦هـ). السير ٤/ ٢٤٦.

(٨) ابن يوسف الثقفي، توفي سنة (٩٥هـ). السير ٤/ ٣٤٣.

(٩) في (ظ): تجزئته.

الحسنَ ويحيى بنَ يَعمَرَ[1] بذلك، وألَّفَ إثرَ ذلك بوَاسِط كتاباً في القراءات، جمعَ فيه ماروِي من اختلاف الناس فيما وافق الخطَّ، ومشى الناسُ على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن ألَّفَ ابنُ مجاهد كتابَه[2] في القراءات.

وأسندَ الزُّبيديُّ في كتاب «الطبقات»[3] إلى المبرِّد أنَّ أوَّلَ من نَقَطَ المصحفَ أبو الأسود الدُّؤلي[4]، وذكر أيضا أنَّ ابنَ سِيرِينَ كان له مُصحفٌ، نَقَطَهُ له يحيى بنُ يَعمَرَ[5].

فصل

وأما وضعُ الأعشار، فقال ابن عطيَّة: مرَّ بي في بعض التواريخ أنَّ المأمون العباسي[6] أمر بذلك، وقيل: إنَّ الحجَّاجَ فعل ذلك[7].

وذكر أبو عمرو الدَّاني في كتاب «البيان»[8] له عن عبد الله بن مسعود، أنه كَرِه التَّعشيرَ في المصحف، وأنه كان يَحُكُّه. وعن مجاهد أنه كره التعشيرَ والطِّيبَ في المصحف.

وقال أشهبُ[9]: سمعتُ مالكاً، وسُئِلَ عن العُشُور التي تكون في المصحف بالحُمرة وغيرها من الألوان، فكرهَ ذلك، وقال: تَعشِيرُ المصحف بالحِبر لا بأسَ به.

---

(١) هو أبو سليمان العَدواني البصري المقرىء، قاضي مرو، مات قبل سنة (٩٠هـ). السير ٤/ ٤٤١.

(٢) في (د): كتاباً، وابن مجاهد: هو أحمد بن موسى بن العباس، أبو بكر البغدادي، المحدث النحوي شيخ المقرئين، توفي سنة (٣٢٤هـ). السير ١٥/ ٢٧٢.

(٣) ص٢١، والزُّبيدي: هو محمد بن الحسن بن عبيد الله، أبو بكر الأندلسي، إمام النحو، توفي سنة (٣٧٩هـ). السير ١٦/ ٤١٧.

(٤) ظالم بن عمرو، كان معدوداً في الفقهاء والشعراء والمحدِّثين، وهو أول من تكلم في النحو، مات سنة (٦٩هـ). السير ٤/ ٨١.

(٥) المصدر السالف ص ٢٩.

(٦) هو عبد الله بن هارون الرشيد، أبو العباس، الخليفة، مات سنة (٢١٨هـ) السير ١٠/ ٢٧٢.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٠.

(٨) لعله البيان في عد آي القرآن، ذكره صاحب هدية العارفين ٦/ ٦٥٣. وقد أخرج أبو عمرو الدَّاني هذه الآثار أيضاً (التي سيوردها المصنف عنه) في كتابه المحكم في نقط المصاحف ص١٤ ـ ١٧. وفيه بدل أشهب: ابنُ وهب، وابن القاسم، وعبد الله بنُ عبد الحكم. وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٤٠. ٢٤٢، والمصنَّف لابن أبي شيبة ١٠/ ٥٤٨. ٥٤٩، والمصاحف لابن أبي داود ص ١٣٨. ١٣٩.

(٩) ابنُ عبد العزيز بن داود بن إبراهيم، مفتي مصر، يقال: اسمه مسكين، وأشهب لقب له، سمع مالك بنَ أنس، مات سنة (٢٠٤هـ). «السير» ٩/ ٥٠٠.

وسُئل عن المصاحف يُكتَبُ فيها خَواتِمَ السُّوَرِ في كلِّ سورة ما فيها من آية، قال: إني أكرهُ ذلك في أمَّهات المصاحف أن يُكتَبَ فيها شيء، أو يُشكَلَ، فأما ما يَتعلَّمُ به الغِلمان من المصاحف، فلا أرى بذلك بأساً. قال أشهبُ: ثم أخرج إلينا مُصحفاً لِجَدِّه، كَتَبَهُ إذ كتبَ عثمانُ المصاحفَ، فرأينا[1] خواتِمَهُ من حِبر، على عمل السلسلة في طول السطر، ورأيتُه معجومَ الآي بالحِبر.

وقال قتادة: بدؤوا فنقَطوا، ثم خَمَّسوا، ثم عَشَّروا.

وقال يحيى بنُ أبي كثير: كان القرآنُ مجرَّداً في المصاحف، فأوَّلُ ما أحدثوا فيه النَّقْطُ على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لابأسَ به، هو[2] نورٌ له، ثم أحدَثوا نَقْطاً عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتِحَ والخواتيمَ[3].

وعن أبي حمزةَ[4] قال: رأى إبراهيمُ النَّخَعِيُّ في مُصحفي فاتحةَ سورة كذا وكذا، فقال لي: أُمحُهُ، فإنَّ عبدَ الله بن مسعود قال: لا تَخْلِطُوا في كتاب الله ماليس فيه.

وعن أبي بكر السَّرَّاج[5] قال: قلتُ لأبي رَزِين[6]: أأكتبُ في مُصحفي سورةَ كذا وكذا؟ قال: إني أخافُ أن ينشأَ قومٌ لا يعرِفونه، فيظنُّونه من القرآن.

قال الدَّاني رضي الله عنه: وهذه الأخبارُ كلُّها تُؤْذِنُ بأنَّ التعشيرَ والتخميسَ وفواتِحَ السور ورؤوسَ الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم، قادَهم[7] إلى عمله الاجتهادُ. وأرى أنَّ من كَرِه ذلك منهم ومن غيرهم، إنما كَرِه أن يُعملَ بالألوان، كالحُمْرةِ والصُّفْرة وغيرِهما، على أنَّ المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها. والحرَجُ والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (د): فرأينا قرآناً.

(٢) في (د): ثم هو.

(٣) قال أبو عمرو في المحكم ص١٧: وهذا يدل على التوسعة في ذلك.

(٤) ميمون الأعور الكوفي، صاحب إبراهيم النخعي، من رجال التهذيب.

(٥) هو الزبرقان بن عبد الله الأسدي، كما ذكر ابن أبي داود في المصاحف ص١٣٨، من أهل الكوفة، وذكره ابن حبان في الثقات ٦/ ٣٤١.

(٦) لعله مسعود بن مالك، الكوفي، وهو من رجال التهذيب، وانظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٩٦.

(٧) في (د): فأداهم، ولم تجوّد اللفظة في (ظ).

فصل

وأما عددُ حُروفِهِ وأحزابه[١]، فروى سلَّام[٢] أبو محمد الحِمَّاني، أن الحجَّاجَ بنَ يوسف جمع القُرَّاءَ والحُفَّاظَ والكُتَّاب، فقال: أخبِروني عن القرآن كلِّه: كم من حرفٍ هو ؟. قال: وكنتُ فيهم، فحسَبنا، فأجمَعنا على أنَّ القرآن ثلاثُ مئة ألفِ حرفٍ، وأربعون ألفَ حرف، وسبعُ مئة حرف، وأربعون حرفاً. قال: فأخبِروني إلى أيِّ حرف ينتهي نصفُ القرآن ؟ فإذا هو في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء. قال: فأخبِروني بأثلاثه، فإذا الثُّلثُ الأوَّلُ رأسُ مئة من براءة، والثلثُ الثاني رأسُ مئة ـ أو إحدى ومئة ـ من «طسم» الشعراء، والثُّلثُ الثالثُ ما بقي من القرآن. قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أوَّلُ سُبع في النساء: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ [٥٥] في الدال، والسُّبعُ الثاني في الأعراف: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[٣] [١٤٧] في التاء، والسُّبعُ الثالثُ في الرَّعد: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [٣٥] في الألف من آخِر ﴿أُكُلُهَا﴾، والسُّبعُ الرابعُ في الحجِّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾[٣٤] في الألف، والسُّبعُ الخامسُ في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [٣٦] في الهاء، والسُّبعُ السادسُ في الفتح: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[٦] في الواو، والسُّبعُ السابعُ ما بقي من القرآن.

قال سلَّامٌ أبو محمد: عملناه في أربعة أشهر، وكان الحجَّاجُ يقرأُ في كلِّ ليلة رُبعاً، فأوَّلُ رُبعه خاتِمةُ الأنعام، والرُّبعُ الثاني في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [١٩] في الفاء[٤]. والربعُ الثالثُ خاتمةُ الزُّمَر، والربعُ الرابعُ مابقي من القرآن[٥]. وفي هذه الجملة خلافٌ مذكورٌ في كتاب «البيان» لأبي عمرو الدَّاني، من أراد الوقوفَ عليه، وجدَه هناك.

---

(١) في (م): وأجزائه.

(٢) قال ابنُ أبي داود في المصاحف ص١١٩: إنما هو راشد. اهـ وهو ابنُ نَجِيح الحِمَّاني، من رجال التهذيب.

(٣) في النسخ وعند ابن أبي داود: أولئك حبطت، وهو خطأ.

(٤) قوله: في الفاء، ليس في (م).

(٥) أخرجه ابنُ أبي داود في المصاحف ص ١١٩ ـ ١٢٠.

فصل

وأما عددُ آي القرآن في المدنيِّ الأوَّل[١]، فقال محمدُ بن عيسى[٢]: جميعُ عدد آي القرآن في المدني الأوَّل ستةُ آلاف آية.

قال أبو عمرو: وهو العدد الذي رواه أهلُ الكوفة عن أهل المدينة، ولم يُسَمُّوا في ذلك أحداً بعينه يُسندونه إليه.

وأما المدنيُّ الأخير، فهو في قول إسماعيلَ بن جعفر[٣] ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وأربعَ عَشْرةَ آية.

وقال الفضلُ[٤]: عددُ آي القرآن في قول المكيِّين ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وتسعَ عَشْرةَ آية.

قال محمدُ بن عيسى: وجميعُ عددِ آيِ القرآن في قول الكوفيِّين ستةُ آلاف آية، ومئتا آية، وثلاثون وستُّ آيات، وهو العددُ الذي رواه سُليم[٥] والكِسائيُّ[٦]، عن حمزةَ[٧]، وأسنده الكِسائي إلى عليٍّ رضي الله عنه.

---

(١) نقل السيوطي في الإتقان ص ٦٧ عن أبي عبد الله الموصلي أن لأهل المدينة في عدد آي القرآن عددَين، الأول: لأبي جعفر يزيد بن القعقاع (وهو من العشرة)، وشيبة بن نصاح مولى أم سَلَمة وختن أبي جعفر. والثاني: لإسماعيل بن جعفر بن أبي كَثير الأنصاري، وسيرد ذكره.

(٢) محمد بن عيسى بن إبراهيم، أبو عبد الله الأصبهاني، إمام في القراءات، وله اختيار في القراءة، صنف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد، وغيرهما. مات سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٣.

(٣) هو إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، الإمام الحافظ، أبو إسحاق الأنصاري، كان مقرىء المدينة في زمانه. توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٢٣٠، وطبقات القراء ١/ ١٦٣.

(٤) هو الفضل بن شاذان بن عيسى، أبو العباس الرازي، قال الداني: لم يكن في دهره مثل علمه وفهمه وعدالته وحسن اطلاعه، مات في حدود (٢٩٠هـ). طبقات القراء ٢/ ١٠.

(٥) هو سُليم بن عيسى بن سليم، أبو عيسى ـ ويقال: أبو محمد ـ الحنفي مولاهم الكوفي المقرىء، عرض القرآن على حمزة، وهو أخصُّ أصحابه، توفي سنة (١٨٨هـ)، وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٣١٨ وانظر السير ٩/ ٣٧٥.

(٦) أبو الحسن عليُّ بنُ حمزة شيخُ القراءة والعربية، اختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السَّبع، مات بالري سنة (١٨٩هـ). السير ٩/ ١٣١، وطبقات القراء ١/ ٥٣٥.

(٧) هو ابن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، أبو عمارة، التيمي، مولاهم، الكوفي، الزيات، شيخ القراء. توفي سنة (١٥٦هـ). انظر السير ٧/ ٩٠.

قال محمد: وجميعُ عددِ آي القرآن في عدد البصريين ستةُ آلاف، ومئتان، وأربعُ آيات، وهو العددُ الذي مضى عليه سلفُهم حتى الآن.

وأما عددُ أهل الشام، فقال يحيى بنُ الحارث الذِّماري[١]: ستةُ آلاف ومئتان، وستٌّ وعشرون. وفي رواية: ستةُ آلاف ومئتان وخمسٌ وعشرون، نقصَ آية.

قال ابن ذَكوان[٢]: فظننتُ أنَّ يحيى لم يعدَّ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾.

قال أبو عمرو: فهذه الأعدادُ التي يتداولُها الناسُ تأليفاً، ويعدُّون بها في سائر الآفاق قديماً وحديثاً.

وأما كلماتُه؛ فقال الفضلُ بنُ شاذان: جميعُ كلمات[٣] القرآن ـ في قول عطاء بن يسار ـ سبعةٌ وسبعون ألفاً، وأربعُ مئة، وتسعٌ وثلاثون كلمة. وحروفهُ ثلاثُ مئة ألف، وثلاثةٌ وعشرون ألفاً، وخمسةَ عشرَ حرفاً.

قلت: هذا يُخالف ما تقدَّم عن الحِمَّاني قبل هذا.

وقال عبدُ الله بن كثير، عن مجاهد قال: هذا ما أَحصَينا من القرآن، وهو ثلاثُ مئة ألف حرف، وأحدٌ وعشرون ألفَ حرف، ومئة وثمانون حرفاً، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحِمَّاني من عدد[٤] حروفه.

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السُّورةِ في كلام العرب: الإبانةُ لها من سُورة أخرى، وانفصالُها عنها، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفعُ فيها من منزلة إلى منزلة. قال النَّابغةُ[٥]:

أَلَـم تَـرَ أنَّ اللهَ أعـطَـاكَ سُـورةً ... تَـرىَ كُـلَّ مَـلْـك دُونَـهـا يَـتَـذَبـذَبُ

(١) أبو عمرو الغساني الذِّماري، ثم الدمشقي، شيخ المقرئين إمام جامع دمشق، مات سنة (١٤٥هـ). السير ٦/ ١٨٩.

(٢) عبد الله بن أحمد، أبو عمرو، القرشي الدمشقي، شيخ الإقراء بالشام، وإمام جامع دمشق. توفي سنة (٢٤٢هـ). طبقات القراء ١/ ٤٠٤.

(٣) في النسخ الخطية: كلام، والمثبت من (م).

(٤) في (م): عدّ.

(٥) زياد بن معاوية الذبياني، يكنى أبا أمامة، والنابغة لقب له، من فحول الشعراء. والبيت في ديوانه ص ١٨. وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٥٧.

أي: منزلةَ شرَف، ارتفعتَ إليها عن مَنزِل الملوك.

وقيل: سُمِّيت بذلك لِشَرَفِها وارتفاعِها، كما يُقال لما ارتفعَ من الأرض: سُور.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ قارئها يُشرِفُ على ما لم يكن عنده، كسُورِ البناء. كلُّه بغير همز.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها قُطِعَت من القرآن على حِدَة، من قول العرب للبقيَّة: سُؤر، وجاء في أسآرِ الناس، أي: بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصلُ: سُؤرة بالهمزة، ثم خُفِّفَت، فأُبدلت واواً، لانضمام ما قبلَها.

وقيل: سُمِّيت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامَّة: سُورة.

وجمعُ سُورة: سُوَر، بفتح الواو. وقال الشاعر:

سُودُ المَحاجِرِ لا يَقرَأنَ بالسُّوَرِ[1]

ويجوز أن يُجمع على: سُوْرَات، وسُوَرَات.

وأما الآيةُ، فهي العلامةُ، بمعنى أنها علامةٌ لانقطاع الكلامِ الذي قبلَها من الذي بعدَها وانفصالِه، أي: هي بائنةٌ من أختها ومنفردةٌ. وتقولُ العربُ: بيني وبين فلان آيةٌ، أي: علامةٌ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقال النابغة[2]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها ... لِستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

وقيل: سُمِّيَت آية، لأنها جماعةُ حروف من القرآن، وطائفةٌ منه، كما يقال: خرج القومُ بآيَتِهم[3]، أي: بجماعتهم. قال بُرْجُ بنُ مُسْهِرٍ الطائي[4]:

خَرَجْنا من النَّقْبَينِ لا حَيَّ مِثلُنا ... بآيَتِنا[5] نُزجي اللِّقاحَ المَطافِلا

---

(١) قائله الراعي، أبو جندل، عُبيد بن حُصَين النُّميري، من شعراء العصر الأموي. وصدر البيت: هنَّ الحرائرُ لَا ربَّاتُ أحمرة. وهو في ديوانه ص ١٢٢. وينظر الشعر والشعراء ١/ ٤١٥. ونُسب البيت أيضاً للقتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص ٥٣، وسيرد البيت بتمامه عند تفسير الآية (٢٠) من سورة المؤمنون.

(٢) ديوانه ص ٧٩.

(٣) في (م): بآياتهم.

(٤) ابن الجُلاس، أحدُ بني جَديلة، ثم أحدُ بني طَريف، من معمَّري الجاهلية. ينظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص٨٠، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٦٨١، والبيت في إصلاح المنطق لابن السكيت ص٣٣٧، والتنبيهات لعلي بن حمزة البصري ص٣٠٨، وانظر اللسان (أيا)، وخزانة الأدب ٦/ ٥١٥.

(٥) في (م): بآياتنا.

وقيل: سُمِّيَت آيةً، لأنها عَجَبٌ، يَعجِزُ البشرُ عن التكلُّم بمثلها[١].

واختلف النَّحويون في أصل «آية»، فقال سيبويه[٢]: أَيَيَة على فَعَلَة، مثل: أَكَمَة، وشَجَرَة، فلما تحرَّكت الياءُ، وانفتحَ ما قبلَها، انقلَبَت ألفاً، فصارَت آية، بهمزة بعدَها مدَّة.

وقال الكِسائيُّ: أصلُها آيِيَة، على وزن فاعلة، مثلُ آمِنة، فقُلِبَتِ الياء ألفاً، لتحرُّكها وانفتاحِ ماقبلها، ثم حذفَت، لالتباسِها بالجمع[٣].

وقال الفرَّاء[٤]: أصلُها أيّية؛ بتشديد الياء الأولى، فقُلِبَت ألفاً كراهةً للتشديد، فصارَت آية[٥].

وجمعُها آيٌ، وآياتٌ، وآياءٌ. وأنشدَ أبو زيد[٦]:

لـم يُـبْـقِ هـذا الـدَّهـرُ مـن آيـائِـه غـيـرَ أثـافِـيـه وأَرْمِـدائِـهِ[٧]

وأما الكلمةُ، فهي الصورةُ القائمةُ بجميع مايختلطُ بها من الشُّبُهات، أي: الحروف. وأطولُ الكَلِم في كتاب الله عزَّ وجلَّ مابلغَ عَشَرةَ أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، وشبهِهما. فأما قولُه: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فهو عشرةُ أحرف في الرسم، وأحدَ عشرَ في اللفظ.

وأقصَرُهُنَّ ما كان على حَرفَين، نحو: ما، ولا، ولك، وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثلُ همزة الاستفهام، وواو العطف، إلا أنه لا يُنطقُ به مفرداً.

---

(١) وقع قوله: وقيل سميت آية لأنها عجب ... إلى هذا الموضع في (د) قبل قوله: قال برج بن مسهر.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، البصري، إمام النحو، مات سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٣٥٢.

(٣) الذي نقله ابن عطيَّة في تفسيره ١/ ٥٧ عن الكسائي في تعليله هو قوله: حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في «دابَّة». وينظر البحر المحيط ١/ ١٦٠، والدر المصون ١/ ٣٠٨.

(٤) يحيى بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي، له معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وغيرهما، مات بطريق الحج سنة (٢٠٧هـ). السير ١٠/ ١١٨.

(٥) المنقول عن الفرَّاء (كما في المصادر السالفة) أنها فَعْلَة، بسكون العين، ثم أبدلت الياء الساكنة ألفاً، استثقالاً للتضعيف.

(٦) سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، النحوي، صاحب كتاب النوادر، مات سنة (٢١٥هـ). السير ٩/ ٤٩٤.

(٧) هو في أدب الكاتب ص٥٨٧، والمنصف ٢/ ١٤٣، وينظر اللسان (رمد، أيا).

وقد تكون الكلمةُ وحدَها آيةً تامَّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾. ﴿وَالْعَصْرِ﴾. وكذلك ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ في قول الكوفيِّين، وذلك في فواتح السُّور، فأما في حَشْوِهنَّ، فلا.

قال أبو عمرو الدَّاني: ولا أعلم كلمة هي وحدَها آية إلا قولَه في «الرَّحمن»: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [٦٤] لا غير[1].

وقد أتت كلمتانِ متصلتان، وهما آيتان، وذلك في قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١ و٢]. على قول الكوفيِّين لا غير.

وقد تكون الكلمةُ في غير هذا الآيةَ التامَّةَ، والكلامَ القائمَ بنفسه، وإن كان أكثرَ أو أقلَّ، قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. قيل: إنما يعني بالكلمة هاهنا قولَه تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] إلى آخر الآيتين، وقال عز وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]؛ قال مجاهد: لا إله إلا الله، وقال النبيُّ ﷺ: «كلمتانِ خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمن: سبحان اللهِ وبحمده، سبحان الله العظيم»[2]. وقد تُسمِّي العربُ القصيدةَ بأسرها، والقصةَ كلَّها كلمة، فيقولون: قال قُسٌّ[3] في كلمته كذا، أي: في خطبته. وقال زُهيرٌ في كلمته كذا، أي: في قصيدته. وقال فلانٌ في كلمته، يعني في رسالته، فتُسمِّي[4] جملةَ الكلام كلمة، إذ كانت الكلمةُ منها، على عادتهم في تسميتهم الشيءَ باسم ما هو منه، وما قاربَه وجاورَه، وكان بسبب منه، مجازاً واتِّساعاً.

وأما الحرف، فهو الشُّبهةُ القائمةُ وحدَها من الكلمة، وقد يُسمَّى الحرفُ كلمة، والكلمةُ حرفاً، على ما بيَّنّاه من الاتِّساع والمجاز.

---

(١) وذكره السيوطيُّ في الإتقان ١/ ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٦٧) والبخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو قُس بن ساعدة بن عمرو بن إياد، خطيبُ العرب وشاعرُها وحكيمها في عصره، يقال: إنه أول من علا على شَرَف، وخطب عليه، وأولُ من قال في كلامه: أما بعد، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا، أدركه الرسول ﷺ، ورآه بعكاظ. الأغاني ١٥/ ٢٤٦، وينظر الأوائل للعسكري ١/ ٨٤.

(٤) في (د): فسمي.

قال أبو عمرو الدَّاني: فإن قيل: فكيف يُسمَّى ماجاء من حروفِ الهجاء في الفواتح على حرف واحد، نحو ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ حرفاً أو كلمة؟ قلتُ: كلمة لاحرفاً، وذلك من جهة أنَّ الحرفَ لا يُسكَتُ عليه، ولا ينفردُ وحدَه في الصورة، ولا ينفصلُ مما يَختلِطُ به، وهذه الحروفُ مسكوتٌ عليها، منفردةٌ منفصلةٌ، كانفرادِ الكَلِم وانفصالها، فلذلك سُمِّيت كلماتٍ لا حروفاً.

قال أبو عمرو: وقد يكون الحرفُ في غير هذا المَذهبَ والوجهَ، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] أي: على وَجهٍ ومَذهب، ومن ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «أُنزِلَ القرآنُ على سبعةِ أحرف»[١] أي: سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم.

باب هل ورد في القرآن كلماتٌ خارجةٌ عن لغات العرب، أو لا

لاخلافَ بين الأمة[٢] أنه ليس في القرآن كلامٌ مركَّبٌ على أساليبِ غيرِ العرب، وأنَّ فيه أسماءً أعلاماً لِمن لسانُه غيرُ لسان العرب، كإسرائيلَ، وجبريلَ، وعمرانَ، ونوح، ولوط.

واختلفوا هل وقعَ فيه ألفاظٌ غيرُ أعلام[٣] مفردةٌ من غير كلام العرب؟

فذهب القاضي أبو بكر بن الطَّيِّب والطبريُّ[٤] وغيرُهما إلى أنَّ ذلك لا يُوجد فيه، وأنَّ القرآنَ عربيٌّ صريحٌ، وما وُجد فيه من الألفاظ التي تُنسب إلى سائر اللُّغات إنما اتَّفق فيها أن تواردَت اللُّغاتُ عليها[٥]، فتكلَّمَت بها العربُ والفُرسُ والحبشةُ وغيرُهم.

وذهبَ بعضُهم إلى وجودها فيه، وأنَّ تلك الألفاظَ لِقلَّتها لا تُخرِجُ القرآنَ عن كونه عربيًّا مُبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه مُتكلِّماً بلسان قومه. فالمِشكاةُ: الكَوَّةُ، ونشأ:

---

(١) سلف تخريجه ص ٧١.

(٢) في (م): الأئمة.

(٣) في (د): وقع فيه أعلام.

(٤) تفسير الطبري ١/ ١٤ ـ ٢٠.

(٥) قوله: عليها من (م).

قامَ من الليل، ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦]، و﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: ضِعْفَين، و﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥١]، أي: الأسد، كلُّه بلسان الحبشة. والغَسَّاقُ: البارِدُ المُنتنُ، بلسان التُّرك، والقِسطاسُ: الميزانُ، بلغة الرُّوم، والسِّجِّيلُ: الحجارةُ والطين، بلسان الفُرس، والطُّورُ: الجبلُ، واليَمُّ: البحرُ، بالسُّريانية، والتَّنُّور: وَجْهُ الأرض، بالعجمية.

قال ابن عطية: فحقيقةُ العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العربُ، وعَرَّبَتها، فهي عربيةٌ بهذا الوجه. وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآنُ بلسانها[١] بعضُ مخالطة لسائر الألسنةِ بتجارات، وبرحلَتَي قريش، وكسفرِ مُسافر بن أبي عمرو[٢] إلى الشام، وكسفر عمرَ بن الخطاب، وكسفر عمرو بنِ العاصي وعُمارة بن الوليد[٣] إلى أرض الحبشة، وكسفرِ الأعشى إلى الحِيرة، وصُحبته لنصاراها، مع كونه حُجَّةً في اللُّغة، فعَلِقت العربُ بهذا كلِّه ألفاظاً أعجمية غيَّرت بعضَها بالنقص من حروفها، وجَرَت إلى تخفيف ثِقَلِ العُجْمَة، واستعملَتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مَجرى العربيِّ الصحيح[٤]، ووقع بها البيانُ، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآنُ. فإن جَهِلَها عربيٌّ مَا، فكَجَهله الصريحِ بما في لغة غيره، كما لم يَعرِف ابنُ عباس معنى «فاطر»[٥] إلى غير ذلك.

قال ابن عطية[٦]: وما ذهب إليه الطبريُّ رحمه الله من أنَّ اللُّغتين اتفقتا في لفظة لفظة، فذلك بعيدٌ، بل إحداهما أصلٌ، والأخرى فرعٌ في الأكثر[٧]، لأنَّا لا[٨] ندفع أيضاً جوازَ الاتفاق قليلاً شاذًّا.

---

(١) في (د): بلغاتها.

(٢) يكنى أبا أمية، كان سيداً جواداً، وهو أحدُ شعراء قريش، وكان يناقضُ عُمارة بن الوليد، وله شعر ليس بالكثير. الأغاني ٩/ ٤٩ ـ ٥٥.

(٣) الجاهلي المخزومي، أحد مَن دعا عليهم النبي ﷺ، ومات كافراً. الإصابة ٨/ ٢٤.

(٤) في المحرر الوجيز (والكلام منه) ١/ ٥١: الصريح.

(٥) سلفت هذه القصة ص ٧٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١.

(٧) قوله: في الأكثر، من المحرر الوجيز.

(٨) في (ز) و(ظ): لا أنا، وفي (د): لأنا، والمثبت من المحرر الوجيز.

قال غيره: والأوَّلُ أصحُّ.

وقوله: هي أصلٌ في كلام غيرهم، دَخيلةٌ في كلامهم، ليس بأولى من العكس، فإنَّ العربَ لا يخلُو أن تكونَ تخاطَبَت بها، أو لا، فإن كان الأوَّل، فهي من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم وكلامِهم إلا ما كان كذلك عندَهم، ولا يَبعُدُ أن يكونَ غيرُهم قد وافقَهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة[١].

فإن قيل: ليست هذه الكلماتُ على أوزان كلام العرب، فلا تكون منه.

قلنا: ومَن سلَّم لكم أنكم حصرتُم أوزانَهم حتى تُخرجوا هذه منها؟ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب، وردَّ هذه الأسماءَ إليها على الطريقة النَّحوية.

وأما إن لم تكن العربُ تخاطَبَت بها، ولا عَرَفَتها، استحالَ أن يُخاطِبَهم اللهُ بما لا يَعرِفون، وحينئذ لا يكون القرآنُ عربيًّا مبيناً، ولا يكون الرسولُ مُخاطِباً لقومه بلسانهم. والله أعلم.

باب ذكرِ نُكَت في إعجاز القرآن، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزةُ واحد[٢] معجزات الأنبياءِ الدَّالة على صدقهم، صلواتُ الله عليهم، وسُمِّيَت مُعجِزةً لأنَّ البشرَ يَعجِزُون عن الإتيان بمثلها.

وشرائِطُها خمسةٌ، فإن اختلَّ منها شرطٌ، لا تكون معجزة:

فالشرطُ الأوَّل من شروطها: أن تكونَ مما لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ سبحانه. وإنما وجبَ حصولُ هذا الشرطِ للمعجزة، لأنه لو أتى آتٍ في زمانٍ يَصِحُّ فيه مجيءُ الرُّسُل، وادَّعى الرسالةَ، وجعلَ معجزتَه أن يتحرَّكَ ويسكُن، ويقومَ ويقعُدَ، لم يكن هذا الذي ادَّعاه معجزةً له، ولا دالاً على صدقه، لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجبُ أن تكونَ المعجزاتُ كفَلْقِ البحر، وانشقاقِ القمر، وما شاكلَها مما لا يقدرُ عليها البشر.

---

(١) معمر بن المثنى التيمي البصري النحوي، صاحب التصانيف، قال المبرِّد: كان هو والأصمعي متقاربين في النحو، وكان أبو عبيدة أكمل القوم، مات سنة (٢٠٩هـ)، وقيل غير ذلك. السير ٩/ ٤٤٥.

(٢) في (م): واحدة.

والشرطُ الثاني: هو أن تَخرِقَ العادةَ. وإنما وجبَ اشتراطُ ذلك، لأنه لو قال المدَّعي للرسالة[(١)]: آيتي مجيءُ الليل بعدَ النهار، وطلوعُ الشمسِ من مَشرِقها، لم يكُن فيما ادَّعاه معجزة، لأنَّ هذه الأفعالَ، وإن كان لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ، فلم تُفعَل من أجله، وقد كان قبلَ دَعواه على ما هي عليه في حين دَعواهُ، ودعواه في دلالتها على نبوَّته، كدعوى غيره، فبانَ أنه لا وجهَ له لاستشهاده بها[(٢)] يَدُلُّ على صِدقه. والذي يَستَشهِدُ به الرسولُ عليه السلام له وجهٌ يَدُلُّ على صِدقِه، وذلك أن يقولَ: الدليلُ على صدقي أن يَخرِقَ اللهُ تعالى العادةَ من أجل دعواي عليه الرسالةَ، فيَقلِبَ هذه العصا ثُعباناً، ويَشُقَّ الحجرَ، ويُخرِجَ من وَسطِه ناقة، أو يُنبِعَ الماءَ من بين أصابعي، كما يُنبِعُه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي يَنفرِدُ بها جبَّارُ الأرضِ والسماوات، فتقومُ له هذه العلاماتُ مقامَ قولِ الربِّ سبحانه ـ لو أسمَعَنا كلامَه العزيزَ وقال ـ: صَدَقَ، أنا بعثتُه.

ومثالُ هذه المسألةِ ـ ولله ولرسوله المَثَلُ الأعلى ـ ما لو كانت جماعةٌ بحضرة ملك من ملوك الأرض، وهم بمرأى أو مسمعٍ منه، فقال أحد رجاله والملكُ يَسمَعُهُ[(٣)]: الملكُ ـ أيها الجماعة[(٤)] ـ يأمُرُكم بكذا وكذا، ودليلُ ذلك أنَّ الملكَ يُصدِّقُني بفعل من أفعاله، وهو أن يُخرِجَ خاتِمَهُ من يده قاصداً بذلك تصديقي، فإذا سمع الملكُ كلامَه لهم، ودعواه فيهم، ثم عَمِلَ ما استَشهَدَ به على صِدقه، قام ذلك مقامَ قوله ـ لو قال ـ: صَدَقَ فيما ادَّعاه عليَّ. فكذلك إذا عَمِلَ اللهُ عملاً لا يَقدِرُ عليه إلا هو، وخَرَقَ به العادةَ على يدي[(٥)] الرسول، قام ذلك الفعلُ مقامَ كلامه تعالى لو أسمَعَناه[(٦)] وقال: صَدَقَ عبدي في دعوى الرسالةِ، وأنا أرسلتُه إليكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

---

(١) في (ظ): مدعي الرسالة.
(٢) قوله: لاستشهاده بها، من (د) و(ز)، وفي (ظ): لا وجه يدل ...
(٣) في (م): وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه.
(٤) في (م): الملك يأمركم أيها الجماعة.
(٥) في (م): يد.
(٦) في (د): سمعناه.

والشرطُ الثالثُ: هو أن يَستَشهِدَ بها مُدَّعي الرسالةِ على الله عزَّ وجلَّ، فيقولَ: آيتي أن يَقلِبَ الله سُبحانه هذا الماءَ زَيتاً، أو يُحرِّكَ الأرضَ عند قولي لها: تزلزلي، فإذا فعلَ اللهُ سبحانه ذلك، حصل المُتَحدَّى به.

الشرطُ الرابعُ: هو أن تقعَ على وَفقِ دعوى المتحدِّي بها، المُستَشهِدِ بكونها معجزةً له. وإنما وجبَ اشتراطُ هذا الشرطِ؛ لأنه لو قال المدَّعي للرسالة: آيةُ نبوَّتي ودليلُ حُجَّتي أن تَنطِقَ يدي، أو هذه الدَّابَّةُ، فنَطَقَت يدُه، أو الدَّابَّةُ، بأن قالت: كذبَ، وليس هو بنبي، فإنَّ هذا الكلامَ الذي خَلَقَه اللهُ تعالى دالٌّ على كَذِبِ ذلك المدَّعي للرسالة؛ لأنَّ ما فعلَه اللهُ لم يَقَع على وَفقِ دعواه. وكذلك ما يُروَى أنَّ مُسَيلِمَةَ الكذَّابَ ـ لعنه الله ـ تَفَلَ في بئر ليَكثُرَ ماؤُها، فغارَت البئرُ، وذهبَ ماكانَ فيها من الماء[1]، فما فعلَ اللهُ سبحانَه من هذا، كان من الآياتِ المُكَذِّبةِ لمن ظَهرَت على يديه، لأنها وقَعت على خلافِ ما أراده المُتَنَبِّئُ الكذَّابُ.

والشرطُ الخامسُ من شروط المعجزة: ألا يأتيَ أحدٌ بمثل ما أتى به المُتحدِّي على وجهِ المعارضة، فإن تَمَّ الأمرُ المتحدَّى به، المُسْتَشْهَدُ به على النبوَّة، على هذا الشرطِ، مع الشروط المتقدمة، فهي معجزةٌ دالَّةٌ على نُبوَّةِ مَن ظَهرَت على يده، فإن أقامَ الله تعالى مَن يُعارِضُه حتى يأتيَ بمثل ما أتى به، ويَعْمَلَ مثلَ ما عَمِلَ، بَطَلَ كونُه نبيًّا، وخَرَجَ ما ظَهَرَ على يديه[2] عن كونه مُعجِزاً، ولم يَدُلَّ على صِدقه، ولهذا قال المولى سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. كأنه يقول: إن ادَّعيتُم أنَّ هذا القرآنَ من نَظمِ محمد ﷺ وعملِهِ، فاعمَلُوا عَشْرَ سُورٍ من جنس[3] نَظمِهِ، فإذا عَجَزتُم بأسركم عن ذلك، فاعلموا أنه ليس مِن نَظْمِهِ، ولا مِن عَمَلِه.

لا يقال: إنَّ المعجزاتِ المقيَّدةَ بالشروط الخمسةِ لا تظهر إلا على أيدي

---

(١) أورد الطبريُّ هذه القصة في تاريخه ٣/ ٢٨٤ـ ٢٨٥ ضمن خبر مسيلمة.

(٢) قوله: ما ظهر على يديه، ليس في (م).

(٣) في (ظ): حسن.

الصادقين، فهذا المسيح[١] الدَّجّال - فيما رويتُم عن نبيِّكم ﷺ - يظهر على يديه من الآيات العِظام، والأمورِ الجِسام، ما هو معروفٌ مشهورٌ.

فإنَّا نقول: ذلك يدَّعي الرسالةَ، وهذا يدَّعي الرُّبوبيَّةَ، وبينهما من الفُرقان مابين البُصَراءِ والعُميانِ، وقد قام الدليلُ العقليُّ على أنَّ بِعثةَ بعضِ الخَلقِ إلى بعض غيرُ مُمتنعَة، ولا مُستحيلة، فلم يَبعُد أن يُقيمَ الله تعالى الأدلَّةَ على صِدق مخلوق أتى عنه بالشرع والمِلَّةِ.

ودلَّت الأدلَّةُ العقليَّةُ أيضاً على أنَّ المسيح الدَّجّال فيه التصويرُ والتغييرُ[٢] من حال إلى حال، وثبت أنَّ هذه الصفاتِ لا تليقُ إلا بالمُحدَثات، تعالى ربُّ البريَّات عن أن يُشبِهَ شيئاً، أو يُشبِهَهُ شيءٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فصل

إذا ثبتَ هذا، فاعلَمْ أنَّ المعجزاتِ على ضربَيْن:

الأول: ما اشتَهَرَ نقلُه وانقرضَ عصرُه بموت النبيِّ ﷺ.

والثاني: ما تواترتِ[٣] الأخبارُ بصحته وحصولِه، واستفاضَت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلمُ بذلك ضرورة.

ومن شرطه أن يكونَ الناقلون له خَلقاً كثيراً وجمًّا غَفِيراً، وأن يكونوا عالِمين بما نقلوه عِلماً ضرورياً، وأن يستويَ في النقل أوَّلُهم وآخِرُهم ووسطُهم في كَثرةِ العدد، حتى يستحيلَ عليهم التواطؤُ على الكذب. وهذه صفةُ نقلِ القرآن، ونقلِ وجودِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، لأنَّ الأمةَ رضي الله عنها لم تَزَل تنقُلُ القرآنَ خَلَفاً عن سَلَف، والسَّلَفُ عن سَلَفِهِ، إلى أن يتَّصِلَ ذلك بالنبيِّ عليه السلام، المعلومِ وجودُه بالضرورة، وصِدقُه بالأدلَّةِ المُعجِزات، والرسولُ أخذَه عن جبريلَ عليه السلام، عن ربِّه عزَّ وجلَّ، فنقَلَ القرآنَ في الأصل رسولانِ معصومانِ من الزيادة والنُّقصان، ونقلَه

---

(١) في (د) و(م): المسيخ (بالخاء المعجمة). ويقال له كذلك، وسيذكر المصنف الأقوال في تسميته بذلك، عند تفسير قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية ٤٥.

(٢) في النسخ الخطية: والتغير، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية: تواردت، والمثبت من (م).

إلينا بعدَهم أهلُ التواتر، الذين لا يجوزُ عليهم الكذبُ فيما ينقُلونه ويسمَعونه، لكَثْرةِ العدد، ولذلك وقع لنا العلمُ الضروريُّ بصدقهم فيما نقلوه، من وجودِ محمد ﷺ، ومن ظهورِ القرآن على يديه، وتحدِّيه به.

ونظيرُ ذلك من عِلمِ الدنيا: عِلمُ الإنسانِ بما نُقِلَ إليه من وجود البُلدان، كالبَصرة والشام، والعراقِ وخُراسان، والمدينةِ ومكَّةَ، وأشباهِ ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة[1] المتواترة. فالقرآنُ معجزةُ نبيِّنا ﷺ الباقيةُ بعدَه إلى يوم القيامة. ومُعجزةُ كلِّ نبيٍّ انقرضَت بانقراضه، أو دخلَها التبديلُ والتغييرُ، كالتوارة والإنجيل.

ووجوهُ إعجاز القرآن العظيم[2] عشرة:

منها: النَّظمُ البديعُ المخالِفُ لكلِّ نَظم معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأنَّ نَظمَه ليس من نَظم الشعر في شيء، وكذلك[3] قال ربُّ العزَّة الذي تَوَلَّى نَظمَه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وفي «صحيح» مسلم: أن أُنيساً أخا أبي ذَرٍّ قال لأبي ذَرٍّ: لَقِيتُ رجلاً بمكَّةَ على دِينك، يَزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه، قلتُ: فما يقول الناسُ؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ. وكان أُنيسٌ أحدَ الشعراء، قال أُنيس: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنَةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قولَه على أقراء الشِّعر[4]، فلم يَلتَئِم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادقٌ، وإنهم لكاذبون[5].

وكذلك أقَرَّ عُتبةُ بنُ رَبيعةَ أنه ليس بسِحر ولا شِعر، لَمَّا قرأ عليه رسولُ الله ﷺ: «حم» فُصِّلَت، على ما يأتي بيانُه هناك[6]. فإذا اعترفَ عُتبةُ - على موضعِه من اللسان، وموضعِه من الفصاحة والبلاغة - بأنه ما سَمِعَ مثلَ القرآن قَطُّ، كان في هذا القولِ مُقِرًّا بإعجاز القرآنِ له، ولضُرَبائه من المتحقِّقين بالفصاحة، والقُدرة على

(١) في (ظ): المتظاهرة.

(٢) في (م): الكريم.

(٣) في (د): ولذلك.

(٤) في النسخ الخطية: الشعراء، والمثبت من (م).

(٥) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، وعنده: فما يلتئم. وهو في مسند أحمد (٢١٥٢٥).

(٦) أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابنُ إسحاق فيما ذكر ابن هشام ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، وسترد القصة في أول تفسير سورة فصلت.

التكلُّمِ بجميع أجناسِ القَولِ وأنواعِه.

ومنها: الأسلوبُ المخالِفُ لجميع أساليب العرب.

ومنها: الجَزالةُ التي لا تصحُّ من مخلوق بحال، وتأمَّل ذلك في سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر السورة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال ابن الحَصَّار[١]: فَمَن عَلِمَ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الحقُّ، عَلِمَ أنَّ مثلَ هذه الجَزالةِ لا تصحُّ في خطاب غيره، ولا يصحُّ من أعظم ملوك الدنيا أن يقولَ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦]، ولا أن يقولَ: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣].

قال ابنُ الحَصَّار: وهذه الثلاثةُ من النَّظم، والأسلوب، والجَزالة، لازِمةٌ كلَّ سورة، بل هي لازِمةٌ كلَّ آية. وبمجموع هذه الثلاثةِ يتميَّزُ مسموعُ كلِّ آية وكلِّ سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التَّحدِّي والتعجيزُ. ومع هذا، فكلُّ سورة تنفرِدُ بهذه الثلاثةِ، من غير أن ينضافَ إليها أمرٌ آخرُ من الوجوه العشرة. فهذه سورةُ الكوثر ثلاثُ آيات قِصار، وهي أقصرُ سورة في القرآن، وقد تضمَّنَت الإخبارَ عن مُغيَّبين:

أحدهما: الإخبار عن الكَوثر، وعِظَمِهِ وسَعتِه، وكَثرةِ أوانيه، وذلك يدُلُّ على أنَّ المصدِّقين به أكثرُ من أتباع سائر الرُّسُل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المُغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ [المدثر]. ثم أهلكَ اللهُ سبحانه مالَه وولدَه، وانقطعَ نسلُه[٢].

ومنها: التصرُّفُ في لسان العرب على وجه لا يستقلُّ به عربيٌّ، حتى يقعَ منهم الاتفاقُ من جميعهم على إصابته في وضعِ كلِّ كلمة وحرف موضعَه[٣].

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد، أبو المطرِّف، القرطبي المالكي، تفقه بأبي عمر الإشبيلي. توفي سنة (٤٢٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٧٣.

(٢) في (د): وقطع نسلَه.

(٣) في (ظ): في موضعه.

ومنها: الإخبارُ عن الأمور التي تَقدَّمَت من[١] أوَّل الدنيا إلى وقت نزولِه من أمِّيٍّ ما كان يَتلُو من قبله من كتاب، ولا يَخُطُّه بيمينه، فأخبرَ بما كان من قَصصِ الأنبياء مع أممها، والقرونِ الخالية في دهرها، وذكَرَ ما سألَه أهلُ الكتاب عنه، وتحدَّوه به، من قصةِ أهل الكهف، وشأنِ موسى والخَضِرِ عليهما السلام، وحالِ ذي القرنين، فجاءهم - وهو أميٌّ من أمَّة أُمِّيَّة، ليس لها بذلك علمٌ - بما عرَفوا من الكتب السالفة صِحَّتَه، فتحقَّقُوا صِدقَه.

قال القاضي ابنُ الطَّيِّب[٢]: ونحن نعلَمُ ضرورة أنَّ هذا مما لا سبيلَ إليه إلا عن تعلُّم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابِساً لأهلِ الآثار، وحَمَلَةِ الأخبار، ولا متردِّداً إلى التعلُّم[٣] منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقعَ إليه كتابٌ، فيأخُذَ منه، عُلِمَ أنه لا يصِلُ إلى علمِ ذلك إلا بتأييد من جهةِ الوَحي.

ومنها: الوفاءُ بالوعدِ المُدرَكِ بالحِسِّ في العِيان، في كلِّ ما وعدَ اللهُ سبحانه، وهو ينقسمُ[٤] إلى: أخباره المطلقة، كوعده بنصرِ رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيَّد بشرط، كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، و﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وشبه ذلك.

ومنها: الإخبارُ عن المُغيَّبات في المستقبل التي لا يُطَّلَعُ عليها إلا بالوحي. فمن ذلك: ماوعد اللهُ نبيَّه عليه السلام، أنه سَيُظهِرُ دينَه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] الآية، ففعلَ ذلك. وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزَى جيوشَه، عَرَّفَهم ما وعدَهم اللهُ في إظهار دينِه، ليَثِقوا بالنصر، وليَسْتَيقِنوا بالنُّجح. وكان عمرُ يفعلُ ذلك[٥]، فلم يزل الفتحُ يتوالى شَرقاً وغَرباً، برًّا وبحراً. قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

---

(١) في (د) و(م): في.

(٢) في إعجاز القرآن ص ٥١.

(٣) في (م): المتعلم.

(٤) في (د) و(ز): وهي تنقسم، وفي (م): وينقسم، والمثبت من (ظ).

(٥) من قوله: فمن ذلك ما وعد الله نبيه، إلى هذا الموضع، من إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٨.

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم].

فهذه كلُّها أخبارٌ عن الغيوب التي لا يَقِفُ عليها إلا رَبُّ العالمين، أو من أوقفه عليها ربُّ العالمين، فدَلَّ على أنَّ الله تعالى قد أوقف عليها رسولَه، لتكونَ دلالة على صدقه.

ومنها: ما تضمَّنه القرآنُ من العلم، الذي هو قِوامُ جميعِ الأنام في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

ومنها: الحِكَمُ البالغةُ التي لم تَجْرِ العادةُ بأن تصدُرَ في كَثرتِها وشَرَفِها من آدميٍّ.

ومنها: التناسبُ في جميع ما تضمَّنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قلت: فهذه عَشَرةُ أوجه، ذكرها علماؤنا رحمةُ الله عليهم.

ووجهٌ حادي عشرَ قاله النَّظَّامُ[1] وبعضُ أهل[2] القَدَرِية، أنَّ وجهَ الإعجاز هو المنعُ من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدِّي بمثله. وأنَّ المنعَ والصَّرْفةَ هو المعجزةُ دون ذات القرآن، وذلك أنَّ الله تعالى صَرَفَ هِمَمَهم عن معارضته، مع تحدِّيهم بأن يأتوا بسورة من مِثله. وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ إجماعَ الأمة قبل حدوثِ المخالف أنَّ القرآنَ هو المُعجِزُ، فلو قلنا: إن المنعَ والصَّرْفةَ هو المُعجِزُ، لخرجَ القرآنُ عن أن يكونَ مُعجِزاً، وذلك خلافُ الإجماع. وإذا كان كذلك، عُلِمَ أن نفسَ القرآن هو المُعجِزُ؛ لأنَّ فصاحتَه وبلاغَتَه أمرٌ خارِقٌ للعادة، إذ لم يُوجَد قطُّ كلامٌ على هذا الوجهِ، فلما لم يكن ذلك الكلامُ مألوفاً مُعتاداً منهم، دلَّ على أنَّ المنعَ والصَّرفةَ لم يكن معجِزاً.

واختلف مَن قال بهذه الصَّرفَة على قولين:

---

(١) إبراهيم بن سيار، أبو إسحاق البصري، شيخ المعتزلة، تكلم في القدر، وانفرد بمسائل، مات سنة بضع وعشرين ومئتين. السير ١٠/ ٥٤١.

(٢) ليست في (م).

أحدهما: أنهم صُرِفوا عن القُدرة عليه، ولو تعرَّضوا له، لَعجَزوا عنه.

الثاني: أنهم صُرِفوا عن التعرُّضِ له، مع كونه في مقدورهم، ولو تعرَّضوا له، لجاز أن يَقدِرُوا عليه.

قال ابن عطية: وجهُ الإعجاز[١] في القرآن، إنما هو بِنَظْمِه وصِحَّةِ معانيه، وتوالي فصاحةِ ألفاظِه. ووجهُ إعجازِه أنَّ اللهَ تعالى قد أحاطَ بكلِّ شيء عِلماً، وأحاطَ بالكلام كلِّه عِلماً، فَعَلِمَ بإحاطته أيَّ لفظة تصلُحُ أن تليَ الأولى، وتُبيِّنَ المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوَّلِ القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهلُ والنِّسيانُ والذُّهولُ، ومعلومٌ ضرورةً أنَّ بَشَراً لم يكن محيطاً قطُّ، فبهذا جاء نَظْمُ القرآنِ في الغاية القُصوى من الفصاحة.

وبهذا النظرِ يَبطُلُ قولُ مَن قال: إنَّ العربَ كان في قُدرتها أن تأتيَ بمثل القرآن في الغاية القُصوى من الفصاحة، فلما جاء محمدٌ ﷺ، صُرِفوا عن ذلك، وعَجَزوا عنه.

والصحيحُ أنَّ الإتيانَ بمثل القرآن لم يكُن قَطُّ في قُدرةِ أحد من المخلوقين.

ويَظهَرُ لك قصورُ البشر في أنَّ الفصيحَ منهم يصنعُ[٢] خُطبة، أو قصيدة، يَستفرِغُ فيها جُهدَهُ، ثم لا يزال يُنَقِّحُها حَولاً كاملاً، ثم تُعطَى لآخَرَ بعدَه، فيأخذُها بقريحة جامة[٣]، فيبدِّلُ فيها ويُنَقِّحُ، ثم لا تزالُ كذلك[٤] فيها مواضعُ للنظر والبَدَلِ. وكتابُ الله تعالى لو نُزِعَت منه لَفظَةٌ، ثم أُدِيرَ لسانُ العرب أن يُوجَدَ أحسنُ منها، لم يُوجَد[٥].

ومن فصاحةِ القرآنِ أنَّ اللهَ تعالى جلَّ ذِكرُه ذَكَرَ في آية واحدة أمرَيْن، ونَهْيَيْن، وخَبَرَيْن، وبِشارَتَيْن، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] الآية.

وكذلك فاتحة سورة المائدة: أمرَ بالوفاء، ونَهَى عن النَّكْثِ، وحلَّلَ تحليلاً

---

(١) في (م) والمحرر الوجيز: التحدي.

(٢) في (م): يضع.

(٣) كذا في المحرر الوجيز (والكلام منه)، وفي (ظ): جامدة، وفي (د): جامعة، ولم نتبينها في (ز).

(٤) في (م): بعد ذلك.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٢ باختلاف يسير.

عامًّا، ثم استثنى استثناءً بعدَ استثناءٍ، ثم أخبرَ عن حِكمته وقُدرته، وذلك مما لا يَقدِرُ عليه إلا الله سبحانه.

وأنبأ سبحانه عن الموت، وحَسرةِ الفَوت، والدارِ الآخرة وثوابِها وعقابِها، وفوزِ الفائزين، وتردِّي المجرمين، والتحذيرِ من الاغترار[1] بالدنيا، ووصفها بالقِلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥] الآية.

وأنبأ أيضاً عن قَصص الأَوَّلين والآخِرين، ومآلِ المُترَفين، وعواقبِ المُهلَكين، في شَطرِ آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأنبأ جَلَّ وعزَّ عن أمرِ السفينة وإجرائها، وإهلاكِ الكَفَرةِ، واستقرارِ السفينة واستوائها، وتوجيهِ أوامرِ التسخيرِ[2] على[3] الأرض والسماء، بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤١ ـ ٤٤] إلى غير ذلك.

فلما عَجَزَتْ قريشٌ عن الإتيانِ بمثله، وقالت: إنَّ النبيَّ ﷺ تَقَوَّلَه، أنزلَ الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤] ثم أنزلَ تعجيزاً أبلغَ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. فلما عَجَزوا، حَطَّهم عن هذا المِقدار إلى مثلِ سُورة من السُّوَر القصار، فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. فأُفحِمُوا عن الجواب، وتَقَطَّعَت بهم الأسبابُ، وعَدَلوا إلى الحروب والعِناد، وآثروا سَبْيَ الحَريم والأولاد. ولو قَدَروا على المعارضة، لكانَ أهوَنَ كثيراً، وأبلغَ في الحُجَّة، وأشدَّ تأثيراً. هذا مع كونهم أربابَ البلاغةِ واللَّحنِ، وعنهم تُؤخَذُ الفَصاحةُ واللَّسَنُ.

---

(١) في النسخ الخطية: التغرير، والمثبت من (م).

(٢) في (د): للتسخير.

(٣) في (م): إلى.

فبلاغةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفعِ درجاتِ الإيجازِ والبيان، بل تجاوزَت حدَّ الإحسان والإجادة، إلى حيِّزِ الإرباءِ والزيادة. هذا رسولُ الله ﷺ مع ما أُوتي من جوامع الكَلِمِ، واختصَّ به من غرائب الحِكَم، إذا تأمَّلتَ قولَه ﷺ في صفةِ الجِنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وَجَدْتَه مُنحَطًّا عن رُتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «فيها ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر»[١] فأينَ ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هذا أعدَلُ وَزْناً، وأحسنُ تركيباً، وأعْذَبُ لَفظاً، وأقلُّ حروفاً، على أنه لا يُعتبر إلا في مِقدار سورة، أو أطولِ آية؛ لأنَّ الكلامَ كلما طالَ، اتَّسعَ فيه مجالُ المُتصرِّف، وضاقَ المقالُ على القاصِر المُتَكلِّف، وبهذا قامتِ الحُجَّةُ على العرب، إذ كانوا أربابَ الفصاحةِ، ومَظِنَّةَ المعارضة، كما قامت الحُجَّةُ في مُعجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومُعجزةِ موسى عليه السلام على السَّحَرةِ، فإنَّ اللهَ سبحانه إنَّما جعلَ مُعجزاتِ الأنبياء عليهم السلام بالوجهِ الشَّهيرِ أبرعَ ما يكون في زمان النبيِّ الذي أراد إظهارَه، فكان السِّحْرُ في مدة[٢] موسى عليه السلام قد انتهى إلى غاية[٣]، وكذلك الطِّبُّ في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحةُ في زمن محمد ﷺ[٤].

باب التنبيه على أحاديثَ وُضعت في فضل سُور القرآن وغيرها[٥]

لا التفاتَ لِمَا وَضَعَه الواضعون، واختلقَه المختلِقون، من الأحاديثِ الكاذبة، والأخبارِ الباطلة، في فضل سُوَرِ القرآن، وغير ذلك من فضائلِ الأعمال، وقد ارتكَبَها جماعةٌ كثيرةٌ، اختلفَت أغراضُهم ومقاصِدُهم في ارتكابها. فمن[٦] قوم من الزَّنادقة مثلِ

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في (م): زمان.

(٣) في (م): غايته.

(٤) من قوله: قامت الحجة على العرب ... من المحرر الوجيز ١/ ٥٣.

(٥) في (م): وغيره.

(٦) في (د): فمنهم.

المغيرةِ بنِ سعيد الكوفيِّ[١]، ومحمدِ بن سعيد الشاميِّ[٢] المصلوبِ في الزندقة، وغيرِهما، وضَعوا أحاديثَ، وحدَّثوا بها، ليُوقِعُوا بذلك الشَّكَّ في قلوب الناس، فممَّا رواه محمدُ بنُ سعيد، عن أنس بنِ مالك في قوله ﷺ: «أنا خاتمُ النبيين[٣]، لا نبيَّ بعدي، إلا ماشاء اللهُ»[٤] فزاد هذا الاستثناءَ، لِمَا كان يدعو إليه من الإلحادِ والزندقةِ.

قلتُ: وقد ذكره ابنُ عبد البرِّ في كتاب «التمهيد»[٥] ولم يتكلَّم عليه، بل تأوَّلَ الاستثناءَ على الرؤيا! فالله أعلم.

ومنهم قومٌ وضَعُوا الحديثَ، لِهَوًى يَدعُونَ الناسَ إليه. قال شيخٌ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إنَّ هذه الأحاديثَ دِينٌ، فانظُروا ممن تأخُذُون دِينَكم، فإنَّا كنَّا إذا هَوِينا أمراً، صَيَّرناه حديثاً[٦].

ومنهم جماعةٌ وضعوا الحديثَ حِسْبَةً كما زعموا، يدعون الناسَ إلى فضائل الأعمال، كما رُوي عن أبي عِصْمةَ نوح بن أبي مريم المَرْوَزِيِّ[٧]، ومحمد بن عُكَّاشة الكِرماني[٨]، وأحمدَ بنِ عبد الله الجُويبارِي[٩]، وغيرهم[١٠].

---

(١) هو أبو عبد الله البجلي الرافضي الكذاب، قُتل في حدود العشرين ومئة. ميزان الاعتدال ٤/ ١٦٠.

(٢) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٥٦١ وقال: من أهل دمشق، هالك، وكان من أصحاب مكحول.

(٣) في (م): الأنبياء.

(٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٠٦، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٢١.

(٥) ١/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٤٤٣)، والخطيب في الكفاية في علم الرواية ص ١٢٣. وأخرج مسلم في مقدمة صحيحه، والخطيب في الكفاية ص١٢٢، عن محمد بن سيرين قوله: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

(٧) ولي قضاء مرو في خلافة المنصور، وامتدت حياته، قال البخاري: منكر الحديث، مات سنة (١٧٣هـ). ميزان الاعتدال ٤/ ٢٨٠.

(٨) ويقال: محمد بن إسحاق العكاشي، كذاب، قال سهل بن السري الحافظ: وضع أحمد الجويباري ومحمد بن تميم ومحمد بن عكاشة على رسول الله ﷺ أكثر من عشرة آلاف حديث، وقال ابن عساكر: بلغني أنه كان حيًّا سنة (٢٢٥هـ). لسان الميزان ٥/ ٢٨٦.

(٩) ويقال: الجوباري، وجوبار من عمل هراة، يعرف بستّوق، روى عن ابن عيينة وطبقته، قال ابن حبان: دجال من الدجاجلة، وقال الذهبي: يُضرب المثل بكذبه. ميزان الاعتدال ١/ ١٠٦.

(١٠) نقل نحو هذا الكلام الحافظُ ابنُ حجر في لسان الميزان ٥/ ٢٨٨ عن الحاكم (في ترجمة محمد بن عكاشة).

قيل لأبي عِصمةَ: من أين لك عن عِكرمةَ، عن ابن عباس في فضل سُوَرِ القرآن سورةً سورة؟ فقال: إني رأيتُ الناسَ قد أعرَضُوا عن القرآن، واشتغلُوا بفقه أبي حنيفةَ، ومَغَازي محمد بنِ إسحاقَ[١]، فوضعتُ هذا الحديثَ حِسبَةً[٢].

قال أبو عمرو عثمانُ بن الصلاح في كتاب «علوم الحديث»[٣] له: وهكذا الحديثُ الطويلُ الذي يُروَى عن أُبَيِّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ في فَضل[٤] القرآنِ سورةً سورة[٥]. وقد بحثَ باحثٌ عن مَخْرَجِه حتى انتهى إلى من اعترفَ بأنه وجماعةٌ وضعوه[٦]. وإنَّ أثر الوَضع عليه لَبَيِّنٌ. وقد أخطأ الواحديُّ المفسِّرُ[٧]، ومن ذَكَره من المفسرين، في إيداعه تفاسيرَهم.

ومنهم قومٌ من السُّؤَّال والمُكْدِينَ[٨]، يَقِفُون في الأسواق والمساجد، فيضعُون على رسول الله ﷺ أحاديثَ بأسانيدَ صِحاح قد حَفِظُوها، فيذكُرون الموضوعاتِ بتلك الأسانيد.

قال جعفرُ بن محمد الطيالسيُّ[٩]: صلَّى أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ مَعِين في

---

(١) هو أبو بكر القرشي المطلبي مولاهم، المدني، الحافظ الأخباري، صاحب السيرة النبوية، وأول مَن دوَّن العلم بالمدينة، مات سنة (١٥٠هـ). سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣.

(٢) ذكره الخليلي في الإرشاد ٣/ ٩٠٣، والسيوطي في تدريب الراوي ١/ ٢٨٢، والصنعاني في توضيح الأفكار ٢/ ٨١.

(٣) ص١٠٠ ـ ١٠١، وابن الصلاح: هو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري الشافعي، كان ذا فصاحة وعلم نافع، توفي سنة (٦٤٣هـ). السير ٢٣/ ١٤٠.

(٤) في (ظ): فضائل.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤، ثم قال: وقد فَرَّقَ هذا الحديثَ أبو إسحاق الثعلبي، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجبُ منهما، لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبتُ من أبي بكر بن أبي داود كيف فرَّقَه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال! وانظر اللآلىء المصنوعة ١/ ٢٠٥، وتنزيه الشريعة ١/ ٢٨٥.

(٦) موضوعات ابن الجوزي ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٧) أبو الحسن علي بنُ أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، مات سنة (٤٦٨هـ). السير ١٨/ ٣٣٩.

(٨) أي: الملحِّين في المسألة.

(٩) أبو الفضل البغدادي، الحافظ، كان مشهوراً بالحفظ والإتقان، توفي سنة (٢٨٢هـ). السير ١٣/ ٣٤٦.

مسجد الرُّصَافةِ، فقامَ بين أيديهما قَاصٌّ، فقال: حدثنا أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ معين قالا: حدثنا[١] عبدُ الرزاق قال: حدثنا مَعْمَرٌ، عن قَتادة، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: مَن قال: لا إله إلا الله، يُخلَقُ من كلِّ كلمة منها طائرٌ مِنقارُهُ من ذهب، وريشُه مَرْجان.. وأخذَ في قصة نحو من عشرين ورقة، فجعلَ أحمدُ ينظُرُ إلى يحيى، ويحيى ينظُرُ إلى أحمدَ، فقال: أنتَ حدَّثتَه بهذا؟! فقال: واللهِ ما سمعتُ به إلا هذه الساعةَ، قال: فسكتا جميعاً حتى فرَغَ من قَصَصِه، فقال له يحيى: مَن حدَّثك بهذا الحديثِ؟ فقال: أحمدُ بنُ حنبل ويحيى بنُ مَعِين، فقال: أنا ابنُ مَعِين، وهذا أحمدُ بنُ حنبل، ما سَمِعنا بهذا قطُّ في حديثِ رسول الله ﷺ، فإن كانَ ولا بُدَّ من الكذب، فعلى غيرِنا! فقال له: أنت يحيى بنُ مَعِين؟! قال: نعم، قال: لم أزَل أسمعُ أنَّ يحيى بنَ مَعِين أحمقُ، وما عَلِمتُه إلا هذه الساعةَ، فقال له يحيى: وكيف علمتَ أني أحمقُ؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بنُ مَعِين وأحمدُ بنُ حنبل غيركما، كتبتُ عن سبعةَ عشرَ أحمدَ بن حنبل غير هذا. قال: فوضعَ أحمدُ كُمَّهُ على وجهِه وقال: دَعهُ يقوم[٢]، فقام كالمُستهزِىء بهما[٣].

فهؤلاء الطوائف كَذَبةٌ على رسول الله ﷺ، ومَن يَجري مَجراهم.

يُذكَر أنَّ الرشيدَ[٤] كان يُعجِبُهُ الحمَامُ، واللَّهوُ به، فأُهدِيَ إليه حمامٌ وعنده أبو البَختَرِي القاضي[٥]، فقال: روى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا سَبَقَ إلا في خُفٍّ، أو حافر، أو جَناح». فزاد: «أو جَناح»، وهي لفظةٌ وضَعَها للرشيد، فأعطاه جائزة سَنِيَّة، فلما خرج، قال الرشيدُ: واللهِ لقد علمتُ أنه[٦] كذَّابٌ. وأمرَ بالحمَام أن

---

(١) في (م): أنبأنا (في الموضعين).

(٢) في (ظ): يقول.

(٣) أخرج هذه القصة ابن حبان في المجروحين ١/ ٨٥، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٣٩-٢٤٠ من طريق إبراهيم بن عبد الواحد البكري، عن جعفر بن محمد الطيالسي، وذكَرها المِزّي في تهذيب الكمال (ترجمة يحيى بن معين)، والذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٤٧، وفي السير ١١/ ٨٦ و ٣٠٠. قال الذهبي: هذه الحكاية اشتهرت على ألسنة الجماعة، وهي باطلة، أظن البلدي (يعني البكري) وضعها.

(٤) هارون بن محمد، أبو جعفر، الخليفة العباسي، كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجٍّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي، توفي سنة (١٩٣هـ). السير ٩/ ٢٨٦.

(٥) وَهْب بن وَهب بن كثير بن زَمعة، ولاه الرشيد القضاء. تاريخ بغداد ١٣/ ٤٥١، وميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣.

(٦) في النسخ الخطية: أنك، والمثبت من (م).

يُذبَحَ، فقيل له: وماذنبُ الحمَام ؟! قال: من أجلِه كُذِبَ على رسول الله ﷺ[١].
فترك العلماءُ حديثَه لذلك، ولغيره من موضوعاته، فلا يَكتُبُ العلماءُ حديثَه بحال.

قلتُ: فلو اقتصرَ الناسُ على ماثبت في الصِّحاح والمسانيد، وغيرِهما من المصنفات التي تداولها العلماءُ، ورواها الأئمةُ الفقهاءُ، لكان لهم في ذلك غُنْيَةٌ، وخَرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «اتَّقوا الحديثَ عنِّي إلا ما عَلِمتُم، فمن كَذَبَ عليَّ مُتعمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَهُ من النار» الحديث[٢]. فتخويفُه ﷺ أمَّتَه بالنار على الكذب دليلٌ على أنه كان يعلمُ أنه سيُكذَبُ عليه. فحذارِ مما وضعَه أعداءُ الدين، وزنادقةُ المسلمين، في باب الترغيب والترهيب، وغير ذلك.

وأعظمُهم ضَرَراً أقوامٌ من المنسوبين إلى الزُّهد، وضعوا الحديثَ حِسْبَة فيما زَعَموا، فتقبَّلَ[٣] الناسُ موضوعاتِهم، ثقة منهم بهم، ورُكوناً إليهم، فضَلُّوا وأَضلُّوا.

باب ما جاء من الحُجَّة في الرَّدِّ على مَن طعنَ في القرآن، وخالفَ مصحفَ عثمانَ بالزيادة والنقصان

لاخلافَ بين الأمة، ولا بين الأئمة أهلِ السُّنَّة، أنَّ القرآنَ اسمٌ لكلام الله تعالى الذي جاء به محمدٌ ﷺ معجزة له، على ما تقدَّم[٤]، وأنه محفوظٌ في الصدور، مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، معلومةٌ على الاضطرار سُوَرُهُ وآياتُه، مُبَرَّأةٌ من

---

(١) نقل الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٤٥٥ عن الإمام أحمد قوله: ماروى هذا إلا ذاك الكذاب أبو البَختَرِي. وذكر له الخطيب أيضاً أنه دخلَ على هارون الرشيد وهو يطيِّر الحمام، فحدَّثه أن النبي ﷺ كان يطيِّر الحمام، فقال له الرشيد: اخرج عني. ثم قال: لولا أنه رجلٌ من قريش لعزلتُه. اهـ. وقد رُويت القصة أيضاً (التي أوردها المصنف) عن غياث بن إبراهيم النخعي في دخوله على المهدي، كما في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢٤، وميزان الاعتدال ٣/ ٣٣٨. قال ابن القيم في المنار المنيف ١/ ١٠٦: أحاديث الحَمَام لا يصح منها شيء.
وقد أخرج حديث أبي هريرة (يعني دون قوله: أو جناح) الإمام أحمد في المسند (٧٤٨٢)، وغيرُه، ونقل الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٦١ تصحيحه عن ابن القطان وابن دقيق العيد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧٥) و(٢٩٧٤)، والترمذي (٢٩٥١) من حديث ابن عباس. وقد ذكره المصنف بأطول منه ص ٥٧. باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي.

(٣) في النسخ الخطية: فيقبل، والمثبت من (م).

(٤) في (م): على نحو ماتقدم.

الزيادة والنقصان حروفُه وكلماتُه، فلا يُحتاجُ في تعريفه بحدٍّ، ولا في حَصره بعدٍّ، فمن ادَّعى زيادةً عليه، أو نقصاناً منه، فقد أبطلَ الإجماعَ، وبَهَتَ الناسَ، وردَّ ماجاء به الرسولُ ﷺ من القرآن المُنزَل عليه، وردَّ قولَه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأبطلَ آيةَ رسولِه عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصيرُ القرآنُ مَقدوراً عليه حين شِيبَ بالباطل، ولمَّا قُدِرَ عليه، لم يكُن حُجَّةً ولا آيةً، وخرج عن أن يكونَ مُعجِزاً[١].

فالقائلُ بأنَّ القرآنَ فيه زيادةٌ ونُقصانٌ، رادٌّ لكتابِ الله، ولِمَا جاء به الرسولُ، وكان كمن قال: الصلواتُ المفروضاتُ خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلالٌ، وفرضَ اللهُ أياماً مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يَثبُت في الدِّين، فإذا رُدَّ هذا بالإجماع، كان الإجماعُ على القرآن أثبتَ وآكدَ، وألزمَ وأوجبَ.

قال الإمام أبو بكر محمدُ بنُ القاسم بن بشار بن محمد الأنباريُّ: ولم يَزَل أهلُ الفضلِ والعقلِ يَعرِفون مِن شَرَفِ القرآنِ وعُلُوِّ منزلتِه، ما يُوجِبُه الحقُّ والإنصافُ والدِّيانةُ، ويَنفُونَ عنه قولَ المُبطِلين، وتَمويهَ المُلحِدين، وتحريفَ الزائغين، حتى نَبَغَ[٢] في زماننا هذا زائغٌ زاغَ عن المِلَّةِ، وهجمَ على الأمَّة، بما يُحاولُ به إبطالَ الشريعة، التي لا يزالُ اللهُ يؤيِّدُها، ويُثبِّتُ أُسَّها، ويُنمِّي فرعَها، ويَحرُسُها من معايب أولي الحَيْف[٣] والجَوْر، ومكايدِ أهل العداوةِ والكفرِ. فزعم أنَّ المُصْحفَ الذي جمعَه عثمانُ رضي الله عنه ـ باتفاق أصحابِ رسول الله ﷺ على تصويبه فيما فعَل ـ لا يَشتَمِلُ[٤] على جميع القرآن، إذ كان قد سَقَطَ منه خمسُ مئة حرف، قد قرأتُ ببعضها، وسأقرأُ ببقيتها، فمنها: «والعصرِ ونوائبِ الدَّهر»[٥] فقد سقطَ من القرآن على جماعة المسلمين[٦]: «ونوائبِ الدَّهر». ومنها: «حتى إذا أخذتِ الأرضُ

---

(١) قوله: وخرج عن أن يكون معجزاً، من (م).

(٢) أي: ظهر، ووقع في (د) و(م): نبع، وفي (ظ): تبع، ولم تنقط في (ز)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) في (م): الجنَف.

(٤) في (ز): لا يجتمع.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٩، وانظر فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٩.

(٦) في (د): من المسلمين.

زُخرُفَها وازَّيَّنَت وظَنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها»[١]. فادَّعى هذا الإنسانُ أنه سقطَ على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان اللهُ ليُهلِكَها إلا بذنوب أهلها» وذكر مما يدَّعي حروفاً كثيرة.

وادَّعى أنَّ عثمانَ والصحابةَ رضي الله عنهم زادوا في القرآن ماليس فيه، فقرأ في صلاة الفرضِ والناسُ يسمعون: «اللهُ الواحدُ الصمد»[٢]، فأسقطَ من القرآن: «قل هو»، وغيَّر لفظَ «أحد»، وادَّعى أنَّ هذا هو الصوابُ، والذي عليه الناسُ هو الباطلُ والمُحَالُ، وقرأ في صلاة الفرض: «قُل للذين كفروا لا أعبدُ ما تعبدون»[٣] وطَعَنَ على[٤] قراءة المسلمين.

وادعى أنَّ المُصحفَ الذي في أيدينا اشتملَ على تصحيفِ حروف[٥] مُفسِدَة مُغيِّرة، منها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فادَّعى أنَّ الحِكمةَ والعِزَّةَ لا يُشاكِلان المغفرةَ، وأنَّ الصوابَ: «وإن تَغفِر لهم فإنك أنت الغفورُ الرحيمُ»[٦]. وترامَى به الغَيُّ في هذا وأشكالِه حتى ادَّعى أنَّ المسلمين يُصَحِّفون: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، والصوابُ الذي لم يُغيَّر عنده: «وكان عبداً للهِ وجيهاً»[٧]، وحتى قرأ في صلاة مُفترَضة على ما أخبرنا جماعةٌ سَمِعُوه وشَهِدُوه[٨]: «لا تُحرِّك به لسانَك، إنَّ علينا جمعَه وقراءتَه، فإذا قرأناه فاتَّبع

---

(١) أخرجها أبو عبيد في الفضائل ص١٧٣، والطبري في التفسير ١٢/ ١٥٢ وذكرها ابن عطية ٣/ ١١٥، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٤٤ وقال: ولا يحسنُ أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفةٌ لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨٢، ونسبها لعبد الله والأعمش.

(٣) نقلها أيضاً ابن عادل الحنبلي في اللباب ٢٠/ ٥٣٠ عن ابن الأنباري.

(٤) في (م): في.

(٥) في (ظ): وحروف.

(٦) نقل الذهبي في معرفة القراء الكبار ١/ ٥٤٩ عن عبد الرحمن بن عبد الله الفرائضي قوله: استُتِيبَ ابن شَنَبوذ على قراءة هذه الآية. اهـ. وذكرها كذلك أبو حيان في البحر ٤/ ٦٢ وقال: ليست من المصحف.

(٧) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٥ عن ابن مسعود، وانظر كتاب ابن خالويه ص ١٢٠.

(٨) في (ظ): وشهروه.

قراءته، ثم إنَّ علينا نبأ به». وحكى لنا آخرون عن آخَرين، أنهم سَمِعُوه يقرأ: «ولقد نصركم اللهُ ببدر بسيف عَليٍّ وأنتم أذِلَّةٌ»[١]. وروى هؤلاء أيضاً لنا عنه قال: «هذا صراط علي مستقيم»[٢]. وأخبرونا أنه أدخلَ في آية من القرآن مالا يُضاهي فصاحةَ رسولِ الله ﷺ، ولا يدخُلُ في لسان قومه الذين قال اللهُ عز وجل فيهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، فقرأ: «أليس قلتَ للناس» في موضع: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا لا يُعرَفُ في نحو المُعربين، ولا يُحمل على مذاهب النَّحْويين؛ لأنَّ العربَ لم تَقُل: ليس قُمتَ، فأمَّا: لستَ قمتَ، بالتاء، فشاذٌّ قبيحٌ، خبيثٌ رديء، لأنَّ «ليس» لا تجحَدُ الفعلَ الماضي، لم[٣] يُوجَد مثلُ هذا إلا في قولهم: ليس خلق اللهُ مثله[٤]، وهو لغةٌ شاذَّةٌ، لا يُحمَلُ كتابُ الله عليها.

وادَّعى أنَّ عثمانَ رضي اللهُ عنه لما أسندَ جَمْعَ القرآن إلى زيد بن ثابت، لم يُصِب؛ لأنَّ عبدَ الله بن مسعود وأُبَيَّ بنَ كعب كانا أَولَى بذلك من زيد، لقول النبيِّ ﷺ: «أقرأُ أمَّتي أُبَيُّ بن كعب»[٥]، ولقوله عليه السلام: «مَن سَرَّهُ أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنزِلَ، فَليقرَأْهُ بقراءة ابنِ أُمِّ عَبد»[٦]، وقال هذا القائلُ: لي أن أخالفَ مُصحفَ عثمانَ كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَين﴾ [طه: ٦٣]، ﴿فأَصَّدَّقَ وأكونَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿فَبَشِّرْ عباديَ ، الذين﴾ [الزمر: ١٧] بفتح الياء[٧]، ﴿فما

---

(١) هي قراءة واضحة البطلان.

(٢) قرأ يعقوب، وهو من العشرة: هذا صراطٌ عليٌّ مستقيم، انظر النشر ٢/ ٣٠١. وذكرها ابن جنّي في المحتسب ٢/ ٣، وقال: عليٌّ ـ هنا ـ كقولهم: كريم، وشريف، وليس المرادُ علوَّ الشخوص والنُّصْبة. اهـ. ومن الواضح أن المصنف رحمه الله يقصد تقييداً آخر للفظ، كما هو ظاهر سياق كلامه في الردّ على الزائغين عن الملّة.

(٣) في (م): ولم.

(٤) في (م): أليس قد خلق الله مثلهم.

وقال صاحب النحو الوافي ١/ ٥٥٩: اشترطَ الكوفيون للقياس على هذا الأسلوب دخولَ «قد» على خبر «ليس» مجاراة للمثال المسموع، ولأن «قد» تُقَرِّبُهُ من الحال.

(٥) سلف نحوه ص٦٢ ضمن حديث.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٥٥) وغيرُه بلفظ: «من أحبَّ ...» وانظر ما سلف ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٧) قراءة أبي عمرو في الموضع الثالث هي من رواية السوسي وصلاً، واختلف عنه وقفاً بين الحذف والإثبات. وانظر قراءته في الآيات المذكورة في السبعة ص ٤١٩، ٦٣٧، ٥٦١، والتيسير ص ١٥١، =

آتانيَ الله﴾ [النمل: ٣٦] بفتح الياء[١]. والذي في المُصحفِ: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾ بالألف[٢]، ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ بغير واو[٣]، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ بغير ياء[٤] في الموضعين[٥]. وكما خالف ابنُ كَثير ونافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ مُصحفَ عثمانَ، فقرؤوا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] بإثبات نونين، يفتحُ الثانيةَ بعضُهم، ويُسَكِّنُها بعضُهم[٦]، وفي المصحف نونٌ واحدة[٧]. وكما خالف حمزةُ المُصحفَ، فقرأ: ﴿أَتُمِدُّونّي بمال﴾ [النمل: ٣٦] بنون واحدة، ووقف على الياء[٨]، وفي المُصحف نونانِ، ولا ياء بعدَهما[٩]. وكما خالف حمزةُ أيضاً المُصحفَ، فقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] بغير تنوين[١٠]، وإثباتُ الألف يُوجِبُ التنوين[١١]. وكلُّ هذا الذي شَنَّعَ به على القُرَّاء ما يلزمُهم به خِلافٌ للمصحف.

= ٢١١، ١٨٩ على الترتيب.

(١) وقرأها كذلك من السبعة نافع وعاصم في رواية حفص وصلاً، واختلف عن قالون وأبي عمرو وحفص وقفاً بين الحذف والإثبات. وقرأ ورش بالحذف وقفاً. ذكره ابن مجاهد في السبعة ص٤٨٢، والداني في التيسير ص ١٧٠.

(٢) ذكره أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٥١، والمقنع ص ١٥.

(٣) التيسير ص ٢١١، والمقنع ص ١١٣.

(٤) في (د) و(ز) و(م): ياءين، والمثبت من (ظ).

(٥) التيسير ص ١٧٠ و١٨٩، والمقنع ص ٣٢.

(٦) لم يذكر المصنف بقية القراء السبعة ـ وهم أبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي، وعاصم ـ مع أنهم اتفقوا جميعاً على قراءتها بنونين؛ قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص عنه بإسكان الثانية، وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم. انظر السبعة ص ٣٣٠، والتيسير ص ١٢٣.

(٧) لكن أبا عمرو الداني ذكر في المقنع ص٩١ عن أبي عبيد أنه رأى في مصحف عثمان رضي الله عنه الحرفين اللذين في يونس: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ و﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بنونين، وذكر أيضاً ص٨٥ فيما اتفقت على رسمه مصاحف أهل الأمصار، أنها بنونين.

(٨) قرأ حمزة بنون واحدة مشدَّدة، فأدغمَ النون الأولى في الثانية، مع المدِّ المشبع، وأثبت الياء وصلاً ووقفاً، وكذلك قرأها يعقوب من العشرة. السبعة في القراءات ص٤٨٢، والتيسير ص ١٧٠، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٩) ذكره أبو عمرو الداني في المقنع ص ٩١.

(١٠) هي أيضا قراءة عاصم من السبعة في رواية حفص، وقراءة يعقوب من العشرة. السبعة ص٣٣٧، والتيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩.

(١١) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٩٠: كلُّ مَنْ نَوَّنَ وقف بالألف، ومَنْ لم يُنَوِّنْ وقف بغير ألف وإن كانت مرسومة.

قلتُ: قد أشرنا إلى العدِّ فيما تقدَّم[(١)] مما اختلفَت فيه المصاحفُ، وسيأتي بيانُ هذه المواضعِ في مواضعها من هذا الكتاب، إن شاء اللهُ تعالى.

قال أبو بكر: وذكر هذا الإنسانُ أنَّ أُبَيَّ بنَ كَعب هو الذي قرأ: «كأن لم تَغنَ بالأمس، وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها». وذلك باطلٌ[(٢)]؛ لأنَّ عبدَ الله بنَ كثير قرأ على مجاهد، ومجاهدٌ قرأ على ابن عباس، وابنُ عباس قرأ القرآنَ على أُبَيِّ بن كعب: ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [يونس: ٢٤] في رواية. وقرأ أُبَيٌّ القرآنَ على رسول الله ﷺ. وهذا الإسنادُ مُتَّصِلٌ بالرسول عليه السلام، نقلَه أهلُ العدالةِ والصِّيانة، وإذا صحَّ عن رسول الله ﷺ أمرٌ، لم يُؤخَذ بحديث يُخالِفُه. وقال يحيى بنُ المبارك اليزيدي[(٣)]: قرأتُ القرآنَ على أبي عمرو بنِ العلاء، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهدٌ على ابن عباس، وقرأ ابنُ عباس على أُبَيِّ بن كعب، وقرأ أُبَيٌّ على النبيِّ ﷺ، وليس فيها: «وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلِها»[(٤)]. فمن جَحَدَ أنَّ هذه الزيادةَ أنزلَها اللهُ تعالى على نبيِّه عليه السلام، فليس بكافر ولا آثم: حدثني أبي، حدثنا نَصرُ بنُ داود الصَّاغاني[(٥)]، نبَّأنا أبو عُبيد قال: ما يُروَى من الحروف التي تُخالِفُ المُصحفَ الذي عليه الإجماعُ، من الحروف التي يَعرِفُ[(٦)] أسانيدَها الخاصَّةُ دون العامَّةِ، مما[(٧)] نقلوا فيه عن أُبَيٍّ: «وما كان اللهُ لِيُهلِكَها إلا بذنوب أهلها»، وعن ابن عباس: «ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»[(٨)]، ومما يَحكُون عن عمرَ بن الخطاب أنه قرأ: «غيرِ

---

(١) ص ١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/ ١٥٢، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٥، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٤٤، وقال: ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة، لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون. وانظر ما جاء آخر هذا الباب.

(٣) أورده ابن الجزري في طبقاته ٢/ ٣٧٥، وقال: نحوي مقرىء علامة كبير، عُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، فكان يؤدب ولده ... توفي سنة (٢٠٢) بمرو.

(٤) في (ظ): إلا بذنوبها.

(٥) هو من أجلِّ أصحاب أبي عبيد، فيما نقله ابن الجزري في طبقاته ٢/ ٣٣٥ عن أبي عمرو الداني.

(٦) في (ظ): تعرف.

(٧) في (م): فيما.

(٨) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٤ وقال ص١٩٥: هذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت=

المغضوب عليهم وغير الضالين»[(١)]، مع نظائرَ لهذه الحروفِ كثيرة، لم يَنقُلها أهلُ العلم على أنَّ الصلاةَ بها تَحِلُّ، ولا على أنها مُعارَضٌ بها مُصحفُ عثمان، لأنها حروفٌ لو جَحَدَها جاحدٌ أنها من القرآن، لم يكن كافراً، والقرآنُ الذي جمعَه عثمانُ بموافقة الصحابة له، لو أنكرَ بعضَه مُنكِرٌ، كان كافراً، حُكمُه حكمُ المرتدِّ، يُستتاب، فإن تاب، وإلا ضُرِبَت عنقُه.

وقال أبو عُبيد: لم يَزَل صَنيعُ عثمانَ رضي الله عنه في جمعه القرآنَ يُعتدُّ له بأنه من مناقبه العِظام، وقد طَعَنَ عليه فيه بعضُ أهل الزَّيغ، فانكشفَ عَوارُه، ووَضَحَت فَضائِحُه.

قال أبو عُبيد: وقد حُدِّثتُ عن يزيدَ[(٢)] بنِ زُرَيع، عن عِمرانَ بنِ حُدَير[(٣)]، عن أبي مِجلَز قال: طَعَنَ قومٌ على عثمانَ رحمه الله ـ بحُمقهم ـ جَمْعَ القرآن، ثم قرؤوا بما نُسخ.

قال أبو عُبيد: يذهَبُ أبو مِجلَز[(٤)] إلى أنَّ عثمانَ أسقطَ الذي أسقطَ بعلم، كما أثبتَ الذي أثبتَ بعلم[(٥)].

قال أبو بكر: وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] دلالةٌ على كُفرِ هذا الإنسانِ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَفِظَ القرآنَ من التغيير والتبديل، والزيادةِ والنقصان، فإذا قرأ قارئٌ: «تَبَّت يَدَا أبي لهب وقد تَبَّ، ما أغنى عنه مالُه وما كَسَبَ، سيصلى ناراً ذاتَ لهب، ومُرَيَّتُه حمالةُ الحطب، في جِيدها حبلٌ من ليف» فقد كَذَبَ على الله جل وعلا، وقَوَّلَه مالم يَقُل، وبدَّل كتابَه وحرَّفه، وحاولَ ماقد حَفِظه منه، ومنعَ من اختلاطه به، وفي هذا الذي أتاه توطئةُ الطريقِ لأهل الإلحاد، لِيُدخِلُوا في القرآن ما يَحُلُّون به عُرى الإسلام، ويَنسُبونَه إلى قوم كهؤلاء

= مفسرة للقرآن. وانظر البحر ٢/ ٩٤.

(١) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص ١٦٢.

(٢) في فضائل القرآن ص١٩٤: حدثنا يزيد.

(٣) تحرف في (ز) و(م) إلى: جرير.

(٤) لاحق بن حُمَيد بن سعيد السَّدوسي، البصري، الأعور، مشهور بكنيته، ثقة، روى له الجماعة، مات سنة مئة، وقيل غير ذلك. تقريب التهذيب.

(٥) ما نقله المصنف عن ابن الأنباري عن أبي عبيد مما سلف، هو بنحوه في فضائل القرآن له ص١٩٣ ـ ١٩٥.

القومِ الذين أحالُوا هذا بالأباطيل[١] عليهم. وفيه إبطالُ الإجماعِ الذي به يُحرَسُ الإسلام، وبثباته تُقامُ الصلواتُ، وتُؤدَّى الزكَواتُ، وتُتحرَّى المتعبَّدات.

وفي قولِ الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] دلالةٌ على بِدعة هذا الإنسانِ وخروجِه إلى الكفر؛ لأنَّ معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: منْعُ الخلق من القُدرة على أن يَزيدوا فيها، أو يَنقُصوا منها، أو يُعارِضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسانَ زاد فيها: «وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ بعليٍّ وكان الله قويًّا عزيزاً». فقال في القرآن هُجْراً، وذكر عليًّا في مكان لو سَمِعَه يذكُره فيه، لأمضى عليه الحدَّ، وحَكَمَ عليه بالقتل. وأسقطَ من كلام الله «قل هو» وغيَّر «أحد» فقرأ: اللهُ الواحدُ الصمدُ. وإسقاطُ ما أسقَطَه نَفْيٌ له وكُفرٌ، ومَن كَفَرَ بحرف من القرآن، فقد كَفَرَ به كلِّه، وأبطلَ معنى الآيةِ؛ لأنَّ أهلَ التفسير قالوا: نزلتِ الآيةُ جواباً لأهل الشِّرك، لمَّا قالوا لرسول الله ﷺ: صِف لنا ربَّك، أمِن ذهب، أم مِن نحاس، أم من صُفر؟ فقال اللهُ جلَّ وعزَّ ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢]. ففي «هو» دلالةٌ على موضع الردِّ، ومكان الجواب. فإذا سَقَطَ، بطلَ معنى الآيةِ، ووَضَحَ الافتراءُ على الله عزَّ وجلَّ، والتكذيبُ لرسول الله ﷺ.

ويُقال لهذا الإنسان ومَن يَنتَحِلُ نُصْرتَه: أخبِرونا عن القرآن الذي نقرؤه، ولا نعرِفُ نحن ولا مَن كان قبلَنا من أسلافنا سواه: هل هو مُشتَمِلٌ على جميع القرآن من أوَّله إلى آخِره، صحيحُ الألفاظِ والمعاني، عارٍ من[٣] الفساد والخَلَلِ؟ أم هو واقعٌ على بعض القرآن، والبعضُ الآخَرُ غائبٌ عنَّا كما غابَ عن أسلافنا والمتقدِّمين من أهل مِلَّتنا؟ فإن أجابوا بأنَّ القرآنَ الذي معنا مُشتَمِلٌ على جميع القرآنِ، لا يسقُطُ منه شيءٌ، صحيحُ اللَّفظ والمعاني، سَليمُها من كلِّ زَلَلٍ وخَلَلٍ، فقد قَضَوا على أنفسهم

---

(١) في (ظ) و(ز): بالبواطيل.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٣٣٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٨٣، وفي الأسماء والصفات (٦٠٥) من طريق ديلم بن غزوان، عن ثابت البُناني، عن أنس. وأخرجه أيضا الطبري ١٣/ ٤٨٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٣٢ من طريق علي بن أبي سارة، عن ثابت، عن أنس. وقال: ولا يتابع (أي: علي بن أبي سارة) عليه من جهة تثبت. وقال أيضا: ولا يتابعه إلا من هو مثله أو قريب منه. وسيذكره المصنف في تفسير الآية المذكورة من سورة الرعد، عن الحسن، وسيذكر نحوه عن أبي بن كعب في تفسير سورة الإخلاص.

(٣) في (م): عن.

بالكفر حين زادوا فيه: «فليس له اليومَ هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غِسلين، من عَين تجري من تحت الجحيم» فأيُّ زيادة في القرآن أوضَحُ من هذه، وكيف تُخلَطُ[١] بالقرآن، وقد حرسَه اللهُ منها، ومنعَ كلَّ مُفْتَرٍ ومُبْطلٍ من أن يُلْحِقَ به مثلَها ؟! وإذا تُؤُمِّلَتْ وبُحِثَ عن معناها، وُجِدَتْ فاسدةً غيرَ صحيحة، لا تُشاكِلُ كلامَ البارىء تعالى، ولا تختلط[٢] به، ولا تُوافِقُ معناه، وذلك أنَّ بَعدَها: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ فكيف يُؤكَلُ الشرابُ ؟! والذي أتى به قبلَها: «فليس له اليومَ هاهنا حميمٌ، وليس له شرابٌ إلا من غِسلين، من عين تجري من تحت الجحيم، لا يأكلُه إلا الخاطئون». فهذا متناقِضٌ يُفسِدُ بعضُه بعضاً، لأنَّ الشرابَ لا يُؤكَلُ، ولا تقول العربُ: أكلتُ الماءَ، لكنَّهم يقولون: شَرِبتُه، وذُقتُه، وطَعِمْتُه. ومعناه ـ فيما أنزل اللهُ تبارك وتعالى ـ على الصِّحة في القرآن، الذي مَن خالفَ حَرفاً منه كفرَ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] لا يأكلُ الغِسلينَ إلا الخاطئون، أو لا يأكُلُ الطعامَ إلا الخاطئون. والغِسلين: ما يخرُجُ من أجوافهم من الشَّحم، وما يتعلَّقُ به من الصَّديدِ وغيره، فهذا طعامٌ يُؤكَلُ عند البَلِية والنِّقمة، والشرابُ مُحالٌ أن يُؤكَلَ.

فإنِ ادَّعى هذا الإنسانُ أنَّ هذا الباطلَ الذي زاده من قوله: «مِن عين تجري من تحت الجحيم» ليس بعدَها: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ ونفَى هذه الآيةَ من القرآن، لِتَصِحَّ له زيادتُه، فقد كفر لَمَّا جَحَدَ آية[٣] من القرآن. وحسبُك بهذا كلِّه رَدًّا لقوله، وخِزياً لِمَقَالِهِ.

وما يؤثَرُ عن الصحابة والتابعين أنهم قرؤوا بكذا وكذا، إنما ذلك على جِهة البيان والتفسير، لا أنَّ ذلك قرآنٌ يُتلَى، وكذلك ما نُسِخَ لفظُه وحُكمُه، أو لفظُه دون حُكمِه، ليس بقرآن، على ما يأتي بيانُه عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] إن شاء الله تعالى.

---

(١) في النسخ الخطية: يخلط، والمثبت من (م).

(٢) في (م): تخلط.

(٣) في (ز): أنه.

القول في الاستعاذة

وفيها اثنتا عَشرةَ مسألة:

الأولى: أمَرَ اللهُ تعالى بالاستعاذة عند أوَّل كلِّ قراءة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردتَ أن تقرأ. فأوقعَ الماضيَ موقعَ[١] المستقبَل، كما قال الشاعر[٢]:

وإنِّي لآتِيكُم لِذِكرِي الذي مَضَى ... من الوُدِّ واستئنافِ ماكانَ في غَدِ

أراد: ما يكون في غدٍ.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وأنَّ كلَّ فعلَين تقاربا في المعنى، جازَ تقديمُ أيِّهما شئتَ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]. المعنى: فتدلَّى، ثم دنا. ومثلُه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وهو كثير.

الثانية: هذا الأمرُ على النَّدب في قول الجُمهور في كلِّ قراءة في غير الصلاة. واختلفوا فيه في الصلاة. حكى النَّقَّاشُ عن عطاء أنَّ الاستعاذةَ واجبةٌ، وكان ابنُ سِيرينَ والنَّخَعِيُّ وقومٌ يتعوَّذون في الصلاة في[٣] كلِّ ركعة، ويمتثلُون أمرَ الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفةَ والشافعيُّ يتعوَّذانِ في الركعة الأولى من الصلاة، ويَرَيانِ قراءةَ الصلاة كلِّها كقراءة واحدة، ومالكٌ لا يرى التعوُّذَ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان[٤].

الثالثة: أجمع العلماءُ على أنَّ التعوُّذَ ليس من القرآن، ولا آيةً منه، وهو قولُ القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وهذا اللفظُ هو الذي عليه الجمهورُ من

---

(١) في (ظ): موضع.

(٢) هو الطِّرِمَّاح بنُ حكيم، من طيِّىء، ويكنى أبا نَفْر، والبيت في ديوانه ص٥٧٢ بلفظ:

فإني لآتيكم تَشَكُّرَ ما مضى ... من البرِّ واستيجابَ ما كان في غدِ

وهو في الخصائص ٣/ ٣٣١، وأمالي ابن الشَّجري ١/ ٦٧ و٢/ ٤٥٣.

(٣) ليست في (م).

(٤) من قوله: وكان ابن سيرين ... من تفسير ابن عطية ١/ ٥٨، وجاء فيه بعده قوله: ولم يُحفظ عن النبي ﷺ أنه تعوَّذ في صلاة.

العلماء في التعوُّذ، لأنه لفظُ كتاب الله تعالى. ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: قلتُ: أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيم، فقال لي النبيُّ ﷺ: «يا ابنَ أُمِّ عَبد، أعوذُ[١] بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريلُ عن اللَّوح المحفوظ عن القلم»[٢].

الرابعة: روى أبو داود وابنُ ماجه في «سُننهما» عن جُبَير بنِ مُطعِم أنه رأى رسولَ الله ﷺ يصلِّي صلاةً ـ قال[٣] عمرو[٤]: لا أدري أيَّ صلاة هي ـ فقال: «اللهُ أكبرُ كبيراً، اللهُ أكبرُ كبيراً، الله أكبرُ كبيراً، والحمدُ لله كثيراً، الحمدُ لله كثيراً ـ ثلاثاً ـ وسبحان اللهِ بُكرةً وأصيلاً ـ ثلاثاً ـ أعوذ بالله من الشيطان[٥] مِن نَفْخِه ونَفْثِه وهَمْزِه» قال عمرو: هَمزُه: المُوْتَةُ، ونَفثُه: الشِّعرُ، ونَفْخُه: الكِبرُ[٦]. وقال ابن ماجه: المُوْتَةُ: يعني الجنون. والنَّفْثُ[٧]: نَفْخُ الرجل مِن فيه من غير أن يُخرِجَ رِيقَه. والكِبْرُ: التِّيه.

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْري قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قام من الليل، كبَّر، ثم قال[٨]: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، تباركَ اسمُكَ، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك». ثم يقول: «لا إلهَ إلا اللهُ» ثلاثاً، ثم يقول: «اللهُ أكبرُ كبيراً ـ ثلاثاً ـ أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه». ثم يقرأُ[٩].

وروى سليمانُ بنُ سالم[١٠] عن ابن القاسم رحمه الله أنَّ الاستعاذَة: أعوذُ بالله

---

(١) في (ظ): قل أعوذ.
(٢) ذكره صاحب روح المعاني ١٤/٢٢٨ ونسبه للثعلبي والواحدي.
(٣) في (م): فقال.
(٤) هو عمرو بن مرة، أحد رجال الإسناد.
(٥) في (ز): الشيطان الرجيم.
(٦) سنن أبي داود (٧٦٤)، وسنن ابن ماجه (٨٠٧)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٨٤).
(٧) في النسخ الخطية: كل مانفخ، والمثبت من (م).
(٨) في (م): يقول.
(٩) سنن أبي داود (٧٧٥)، وهو في مسند أحمد (١١٤٧٣).
(١٠) أبو الربيع القاضي المعروف بابن الكحالة، من أصحاب سحنون. مات سنة (٢٨١هـ). الديباج المذهب ١/ ٣٧٤.

العظيمِ من الشيطان الرجيم، إنَّ اللهَ هو السميعُ العليم، بسم الله الرحمن الرحيم.

قال ابن عطيَّة[١]: وأما المقرئون، فأكثَروا في هذا من تبديل الصفةِ في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى، كقول بعضِهم: أعوذُ بالله المجيدِ من الشيطان المَريدِ، ونحوِ هذا مما لا أقولُ فيه: نِعْمتِ البِدْعةُ، ولا أقول: إنه لا يجوزُ.

الخامسة: قال المَهدَوِيُّ: أجمعَ القُرَّاءُ على إظهار الاستعاذةِ في أوَّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزةَ، فإنه أَسَرَّها.

وروى المسيَّبي[٢] عن أهل المدينة، أنهم كانوا يفتتحون القراءةَ بالبسملة[٣].

وذكر أبو اللَّيث السمرقندي[٤] عن بعض المفسرين، أنَّ التعوُّذَ فرضٌ، فإذا نَسِيَهُ القارئُ، وذَكَره في بعض الحِزْبِ، قَطَعَ وتعوَّذَ، ثم ابتدأ من أوَّله.

وبعضُهم يقول: يستعيذُ، ثم يَرجِعُ إلى موضعه الذي وقف فيه. وبالأوَّل قال أسانيدُ الحجاز والعراق، وبالثاني قال أسانيدُ الشام ومصر.

السادسة: حكى الزَّهراويُّ[٥] قال: نزلت الآيةُ في الصلاة، ونُدِبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة، وليس بفرض. قال غيرُه: كانت فرضاً على النبيِّ ﷺ وحدَه، ثم تأسَّينا به[٦].

السابعة: رُوِيَ عن أبي هريرةَ أنَّ الاستعاذةَ بعد القراءة، وقاله داودُ[٧]. قال

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٨.

(٢) تحرف في (م) إلى: السدي، والمشهورُ بهذه النسبة (المسيَّبي) الإمام أبو محمد إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن المسيَّبي، المدني المقرىء، وابنُه محمد بن إسحاق. أما أبو محمد، فقد قرأ على نافع، وهو من جِلّة أصحابه المحققين، وتوفي سنة (٢٠٦هـ). وأما محمد، فقد قرأ على والده، وتوفي سنة (٢٣٦هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٣١٢ و ٤٣٠.

(٣) من قوله: قال المهدوي ... من تفسير ابن عطية ١/ ٥٩.

(٤) هو نصر بن محمد بن إبراهيم الحنفي، الفقيه المحدِّث، صاحب التفسير، وتنبيه الغافلين. توفي سنة (٣٧٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٢.

(٥) هو محدِّث الأندلس مع ابن عبد البر، أبو حفص عمر بن عُبيد الله بن يوسف القرطبي، توفي سنة (٤٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢١٩.

(٦) ينظر المحرر الوجيز١/ ٥٨.

(٧) ابن علي بن خلف، أبو سليمان، البغدادي، رئيس أهل الظاهر، الحافظ، صاحب التصانيف كالإيضاح، والإفصاح، مات سنة (٢٧٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ٩٧.

القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ: انتهى العِيُّ[١] بقوم إلى أن قالوا: إذا فَرَغَ القارىءُ من قراءة القرآن، يستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم. وقد روى أبو سعيد الخُدرِيُّ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوَّذُ في صلاته قبل القراءة[٢]. وهذا نصٌّ. فإن قيل: فما الفائدةُ في الاستعاذة من الشيطان الرجيم[٣] وقتَ القراءة؟ قلنا: فائدتُها امتثالُ الأمر. وليس للشَّرعيَّات[٤] فائدةٌ إلا القيامُ بحقِّ الوفاء لها، في امتثالها أمراً، أو اجتنابها نَهياً. وقد قيل: فائدتُها امتثالُ الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

الثامنة[٥]: قال ابنُ العربي: ومِن أغربِ ما وجدناه قولُ مالك في «المجموعة» في تفسير هذه الآيةِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، قال: ذلك بعد قراءةِ أُمِّ القرآن لمن قرأ في الصلاة. وهذا قولٌ لم يَرِد به أثرٌ، ولا يَعضُدُه نَظَرٌ. فإن كان هذا كما قال بعضُ الناس: إنَّ الاستعاذةَ بعد القراءة، كان تخصيصُ ذلك بقراءة أُمِّ القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا تُشبهُ أصلَ مالك، ولا فَهمَه، فالله أعلمُ بسرِّ هذه الروايةِ[٦].

التاسعة[٧]: في فَضلِ التعوُّذِ: روى مسلمٌ عن سليمانَ بن صُرَد[٨] قال: استَبَّ رجلان عند النبيِّ ﷺ، فجعلَ أحدُهما يغضَبُ، ويحمَرُّ وجهُه، وتَنتَفِخُ أوداجُه، فنظر إليه النبيُّ ﷺ، فقال: «إني أعلَمُ كلمة لو قالها، لَذَهَبَ ذا عنه: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم». فقام إلى الرجلِ رجلٌ ممن سَمِعَ النبيَّ ﷺ، فقال: هل تدري ما قال

---

(١) في النسخ الخطية: الغي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي.
(٢) سلف تخريجه في المسألة الرابعة.
(٣) كلمة الرجيم، ليست في (ز).
(٤) في (د): لشرع، وفي (ز): بشرع، وليست هي في (ظ)، والمثبت من (م)، وهو موافق لكتاب ابن العربي.
(٥) ليست في (م).
(٦) أحكام القرآن ٣/ ١١٦٣ و ١١٦٤.
(٧) في (م): الثامنة.
(٨) هو أبو مطرف الخزاعي الكوفي، صحابي، شهد صفّين مع علي رضي الله عنه، استشهد سنة (٦٥هـ). سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥.

رسولُ الله ﷺ آنفاً؟ قال: «إني لأعلَمُ كلمةً لو قالها، لَذَهَبَ ذا عنه: أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم». فقال له الرجلُ: أمجنوناً تراني ؟! أخرجه البخاريُّ أيضاً[١].

وروى مسلمٌ أيضاً عن عثمانَ بنِ أبي العاص الثقفيِّ أنه أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يارسولَ الله، إنَّ الشيطانَ قد حالَ بيني وبين صلاتي وقراءتي[٢]، يَلبِسُها عليَّ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ذاك شيطانٌ يُقال له خِنزَب، فإذا أحسَستَه، فتعوَّذ بالله منه، واتفُل عن يسارك ثلاثا». قال: ففعلتُ، فأذهَبَه الله عني[٣].

وروى أبو داود عن ابن عمرَ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه اللَّيلُ، قال: «يا أرضُ، ربِّي وربُّكِ اللهُ، أعوذُ بالله من شَرِّك، ومن شَرِّ ما خُلِقَ فيك، ومِن شَرِّ ما يَدِبُّ عليك، ومن[٤] أسد وأسودَ، ومن الحيَّةِ والعَقرب، ومن ساكِني[٥] البلد، ووالِدٍ وما وَلَدَ»[٦].

ورَوَت خَولَةُ بنتُ حَكيم[٧] قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن نَزَلَ مَنزِلاً، ثم قال: أعوذُ بكلماتِ الله التامَّاتِ من شرِّ ما خَلَقَ، لم يَضُرَّه شيءٌ حتى يَرتَحِلَ». أخرجه المُوَطَّأ ومسلمٌ والترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ[٨].

وما يُتعوَّذُ منه كثيرٌ في الأخبار، واللهُ المستعانُ.

العاشرة[٩]: معنى الاستعاذةِ في كلام العرب: الاستجارةُ، والتَّحَيُّزُ إلى الشيء، على معنى الامتناعِ به من المكروه[١٠]. يقال: عُذتُ بفلان، واستعذتُ به، أي:

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٢)، وصحيح مسلم (٢٦١٠)، وهو في مسند أحمد (٢٧٢٠٥).

(٢) في النسخ الخطية: وقد أتى، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٠٣)، وهو في مسند أحمد (١٧٨٩٧).

(٤) في (د) و(ز): وأعوذ بك من.

(٥) في (ظ): ساكن.

(٦) سنن أبي داود (٢٦٠٣)، وهو في مسند أحمد (٦١٦١).

(٧) السُّلَمِيَّة، ويقال لها: خُويلة، بالتصغير، ويقال: كنيتها أم شريك، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ، وكان عثمان بن مظعون مات عنها. الإصابة ١٢/ ٢٣٣.

(٨) الموطأ ٢/ ٩٧٨، وصحيح مسلم (٢٧٠٨)، وسنن الترمذي (٣٤٣٧).

(٩) في (م): التاسعة.

(١٠) المحرر الوجيز ١/ ٥٨.

لجأتُ إليه. وهو عِياذِي، أي: مَلجَئي. وأعَذتُ غيري به، وعَوَّذتُه، بمعنى، ويقال: عَوذٌ بالله منك، أي: أعوذُ بالله منك. قال الراجز:

قــالَــت وفــيــهــا حَــيْــدَةٌ وذُعــرُ عَــوذٌ بــربِّــي مِــنــكُــمُ وحُــجْــرُ

والعربُ تقولُ عند الأمر [تُنكِرُه]: حُجراً له، بالضم، أي: دَفعاً، وهو استعاذةٌ من الأمر[١]. والعُوذَةُ والمَعَاذَةُ والتَّعويذُ، كلُّه بمعنى[٢]. وأصلُ أعُوذُ: أعْوُذُ، نُقلت الضمةُ إلى العين لاستثقالها على الواو، فسكنت.

الحادية عشرة[٣]: الشيطانُ: واحدُ الشياطين، على التكسير، والنونُ أصليةٌ، لأنه مِن شَطَنَ: إذا بَعُدَ عن الخير. وشَطَنَتْ دارُه، أي: بَعُدَتْ. قال الشاعر[٤]:

نَــأَتْ بِــسُــعــادَ عــنــكَ نَــوًى شَــطُــونُ فَــبــانَــتْ والــفُــؤادُ بــهــا رَهِــيــنُ

وبئر شَطُونٌ، أي: بعيدةُ القَعرِ. والشَّطَنُ: الحَبلُ، سُمِّيَ به لِبُعدِ طرفيه وامتدادِه. ووصَفَ أعرابيٌّ فرساً، فقال: كأنه شيطانٌ في أشطان.

وسُمِّيَ الشيطانُ شيطاناً، لِبُعدِهِ عن الحقِّ وتَمرُّدِه. وذلك أنَّ كلَّ عاتٍ مُتَمرِّدٍ من الجنِّ والإنسِ والدوابِّ شيطانٌ. قال جرير[٥]:

أيامَ يَدعونَني الشيطانَ مِن غَزَلي[٦] وهُنَّ يَهْوَيـنَني إذْ كـنـتُ شـيـطـانـا

وقيل: إنَّ شيطاناً مأخوذٌ من: شاطَ يَشِيطُ: إذا هَلَكَ، فالنون زائدة. وشاطَ: إذا احترقَ. وشَيَّطتُ اللَّحمَ: إذا دَخَّنته، ولم تُنضِجْهُ. واشتاط الرجلُ: إذا احتدَّ غضباً. وناقةٌ مِشياطٌ: التي يَطِيرُ فيها السِّمَنُ. واشتاط: إذا هَلَكَ. قال الأعشى[٧]:

---

(١) الصحاح (عوذ) و(حجر)، وما بين حاصرتين منه، والرجز للحطيئة، كما في الأغاني ٢/ ١٩٧.

(٢) أي: الرُّقيَةُ، يُرقَى بها الإنسانُ من فزع، أو جنون، لأنه يُعاذُ بها. اللسان (عوذ).

(٣) في (م): العاشرة.

(٤) هو النابغة الذُّبياني، والبيت في ديوانه ص ١٢٦.

(٥) ابنُ عطية بن الخَطَفى، التميمي البصري، جعله ابن سلّام رأس الطبقة الأولى من طبقات الإسلام ٢/ ٢٩٧، مدح خلفاء بني أمية، توفي بعد الفرزدق بشهر سنة (١٠٠هـ). سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٠، والبيت في ديوانه ١/ ١٦٥.

(٦) في (م): غزل.

(٧) هو ميمون بن قيس، والبيت في ديوانه ص ١١٣.

قد نَطعَنُ العَيرَ في مَكنونِ[1] فائِلِهِ وقد يَشِيطُ على أرماحِنا البَطَلُ[2]

أي: يَهلِكُ.

ويرد على هذه الفِرقة أنَّ سيبويهِ حكى أنَّ العربَ تقول: تَشيطَنَ فلانٌ إذا فعل أفعالَ الشياطين، فهذا بَيِّنٌ أنه تَفَيعَلَ، مِن: شَطَنَ، ولو كان من شاطَ، لقالوا: تَشَيَّطَ، ويرد عليهم أيضاً بيتُ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلت:

أيُّما شاطِنٍ عَصَاه عَكاهُ ورَمَاهُ في السِّجنِ والأغلالِ[3]

فهذا شاطِنٌ، من شَطَنَ، لا شكَّ فيه[4].

الثانية عشرة[5]: الرجيمُ، أي: المُبعَدُ من الخير، المُهان. وأصلُ الرَّجْم: الرَّميُ بالحجارة، وقد رَجَمتُه أرجُمُهُ، فهو رجيمٌ ومرجومٌ. والرَّجمُ: القتلُ، واللَّعنُ، والطَّردُ، والشَّتم، وقد قيل هذا كلُّه في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. وقولِ أبي إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

روى الأعمشُ[6]، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: رأيتُ النبيَّ ﷺ عند الصَّفا وهو مُقبِلٌ على شخص في صورة الفيل وهو يَلعَنُه، فقلتُ: ومَن هذا الذي تَلعَنُهُ يارسولَ الله؟ قال: «هذا الشيطانُ الرجيمُ» فقلتُ: واللهِ، يا عدوَّ الله، لأقتُلَنَّكَ[7]، ولأُرِيحَنَّ الأمَّةَ منك، قال: ما هذا جزائي منك. قلتُ: وما جزاؤك مني ياعدوَّ الله؟ قال: واللهِ ما أبغَضَكَ أحدٌ قطُّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِمِ أمِّهِ[8].

---

(١) في (م): تَخضِبُ العير من مكنون.

(٢) العَير: حمار الوحش، والفائل؛ قال التبريزي في شرح القصائد العشر ص٣٤٨: هو عِرق يجري من الجوف إلى الفخذ، ومكنون الفائل: الدم.

(٣) ديوانه ص٤٤٥، وأورده ابن منظور في اللسان (شطن)، وهو في وصف سليمان بن داود عليهما السلام. قوله: عكاه، أي: شدَّه في الحديد.

(٤) من قوله: ويرد على هذه الفرقة أن سيبويه ... من تفسير ابن عطية ١/ ٥٩.

(٥) في (م): الحادية عشرة.

(٦) في (د) و(ظ): الثالثة عشرة روى الأعمش ... وهو مخالف لما صرح به من عدد المسائل أول الكلام.

(٧) في (م): ياعدو الله والله لأقتلنك.

(٨) خبر موضوع. وقد أخرجه وتكلم فيه الخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٨٩ و٢٩٠، والذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٩٧، وفي إسناده إسحاق بن محمد النخعي الأحمر. قال الذهبي: كذَّاب مارقٌ، =

البسملة

وفيها ثمان[١] وعشرون مسألة:

الأولى: قال العلماءُ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قَسَمٌ من ربِّنا، أنزلَه عند رأس كلِّ سورة، يُقسِمُ لعباده: إنَّ هذا الذي وضعتُ لكم يا عبادي في هذه السورة حقٌّ، وإني أَفي لكم بجميع ما ضَمِنتُ في هذه السورةِ من وَعدِي ولُطفِي وبِرِّي[٢]. و﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ مما أنزله اللهُ تعالى في كتابِنا، وعلى هذه الأمةِ خصوصاً، بعد سليمانَ عليه السلام. وقال بعضُ العلماء: إنَّ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ تَضَمَّنَت جميعَ الشرع، لأنها تَدُلُّ على الذات وعلى الصِّفات. وهذا صحيحٌ.

الثانية: قال سعيد بن أبي سُكَينَة: بلغني أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي اللهُ عنه نَظَرَ إلى رجل يَكتُبُ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ فقال له: جَوِّدها، فإنَّ رجلاً جَوَّدَها، فَغُفِرَ له[٣].

ومِن هذا المعنى قِصَّةُ بِشرٍ الحافي[٤]، فإنه لمَّا رَفَعَ الرُّقعَةَ التي فيها اسمُ الله، وطَيَّبَها، طُيِّبَ اسمُه. ذكره القُشَيريُّ[٥].

وروى النسائي، عن أبي المَلِيح، عن رِدْفِ رسول الله ﷺ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا عَثَرَت بك الدابَّةُ، فلا تَقُل: تَعَسَ الشيطانُ، فإنه يَتَعاظَمُ حتى يَصِيرَ مثلَ

= من الغلاة. وقد اعتذرَ الذهبي لإيراده، فقال: روايتُه إثم مكرر، فأستغفر الله العظيم، بل روايتي له لِهَتكِ حاله. ثم ساقه من طريق محمد بن مَزيد بن أبي الأزهر، وقال: والحمل فيه عليه. وانظر تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٣٦٠، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٣٧٤.

(١) في (د) و(ز) و(م): سبع، ووقع في (ظ): سبع ثمان، والمثبت يوافق عدد المسائل الواردة.

(٢) هذا كلام الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٤٠١.

(٣) أخرج البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٦٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٥٣٣) عن علي رضي الله عنه قال: تَنَوَّق رجلٌ في «بسم الله الرحمن الرحيم» فغُفر له. وقوّاه ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٦٠ ـ مع أن في إسناده عمر بنَ حفص العدني، وهو ضعيف ـ وقال: له حكم الرفع.

(٤) المروزي، المحدِّث الزاهد، توفي سنة (٢٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/ ٨٩. وصاحب الرسالة هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الخراساني، الشافعي، مات سنة (٤٦٥هـ). السير ١٨/ ٢٢٧.

البيت، ويقول: بقوَّتي[١] صَنَعتُه، ولكن قُل: بسم الله[٢]، فإنه يَتَصاغَرُ حتى يَصِيرَ مثلَ الذُّبابِ[٣].

وقال عليُّ بنُ الحسين[٤] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ قال: معناه: إذا قلتَ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾[٥].

وروى وكيعٌ، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: مَن أراد أن يُنجِيَه اللهُ من الزَّبانِية التسعةَ عشرَ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ ليجعلَ اللهُ تعالى له بكلِّ حرف منها جُنَّةً مِن كلِّ واحد[٦].

فالبَسمَلةُ تسعةَ عشرَ حرفاً، على عدد ملائكة أهلِ النارِ الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وهم يقولون في كلِّ أفعالهم: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾، فَمِن هنالك قُوَّتُهم[٧]، وببسم الله استضلعوا[٨].

قال ابن عطية: ونظيرُ هذا قولُهم في ليلة القدر: إنها ليلةُ سبع وعشرين، مراعاةً للفظة «هي» من كلمات[٩] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١]. ونظيرُه أيضا قولُهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قولَ القائل: ربَّنا ولك الحمدُ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، فإنها بِضعةٌ وثلاثون حرفاً، فلذلك قال النبيُّ ﷺ: «لقد رأيتُ بِضعةً وثلاثين مَلَكاً يَبتَدِرونها أيُّهم يكتُبها أوَّل»[١٠]. قال ابن عطية: وهذا من مُلَحِ التفسير، وليس من متين العلم[١١].

---

(١) في (م): بقوته.

(٢) في (م): بسم الله الرحمن الرحيم.

(٣) سنن النسائي الكبرى (١٠٣١٢)، وهو في مسند أحمد (٢٠٥٩١). وفيه: بقوتي صرعتُه.

(٤) ابن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو الحسين، زين العابدين، توفي سنة (٩٢هـ)، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨٦.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٦٠. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الإسراء.

(٦) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٩ ونسبه لوكيع والثعلبي.

(٧) في (م): هي قوتهم.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٦١.

(٩) في (م): كلمات سورة.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (١٨٩٩٦)، والبخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي.

(١١) المحرر الوجيز ١/ ٦١.

الثالثة: روى الشعبيُّ والأعمشُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَكتُبُ: «باسمك اللهُمَّ» حتى أُمِرَ أن يَكتُبَ ﴿بسم الله﴾ فكتَبَها، فلما نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، كتب: ﴿بسم الله الرحمٰن﴾ فلما نزلَت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، كتبها[١].

وفي «مصنف» أبي داود: قال الشعبيُّ وأبو مالك[٢] وقتادةُ وثابتُ بن عُمارةَ[٣]: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يَكتُب ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ حتى نزلت سورةُ النمل[٤].

الرابعة: رُوِيَ عن جعفر الصادق[٥] رضي الله عنه، أنه قال: البسملةُ تِيجانُ السُّوَرِ[٦].

قلت: وهذا يَدُلُّ على أنها ليست بآية من الفاتحة، ولا غيرها.

وقد اختلف العلماءُ في هذا المعنى على ثلاثةِ أقوال:

الأول: ليست بآية لا في[٧] الفاتحة، ولا غيرها. وهو قولُ مالك.

الثاني: أنها آيةٌ من كلِّ سورة. وهو قولُ عبد الله بنِ المبارك.

الثالث: قال الشافعي: هي آيةٌ في الفاتحة. وتَردَّدَ قولُه في سائر السُّوَر، فمرَّةً قال: هي آيةٌ من كلِّ سورة، ومرَّةً قال: ليست بآية إلا في الفاتحة وحدَها. ولا خلافَ بينهم على[٨] أنها آيةٌ من القرآن في سورة النمل[٩].

واحتجَّ الشافعي بما رواه الدارقطني[١٠] من حديث أبي بكر الحنفي، عن

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٦١، وأخرج نحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٨١ عن الشعبي وحده، وانظر الدر المنثور ٥/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) غزوان الغفاري الكوفي، مشهور بكنيته، ثقة، من رجال التهذيب، وينظر تحفة الأشراف ١٣/ ٣٣٠.

(٣) البصري الحنفي، صدوق، من رجال التهذيب، مات سنة (١٤٩هـ).

(٤) سنن أبي داود بإثر الحديث (٧٨٧)، وهو مرسل.

(٥) هو ابن محمد بن علي بن الحسين، أبو عبد الله الهاشمي، وهو من جِلَّة علماء المدينة، توفي سنة (١٤٨هـ). سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥٥.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٦٠.

(٧) في (م): من.

(٨) في (م): في.

(٩) الاستذكار ٤/ ٢٠٥، والتمهيد ٢٠/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ لابن عبد البر.

(١٠) في السنن ١/ ٣١٢. وأبو بكر الحنفي: هوعبد الكبير بن عبد المجيد. وقد وقع أخطاء في اسمه واسم شيخه في النسخ الخطية.

عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن سعيد بن أبي سعيد المَقبُرِيِّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قرأتُم: الحمد لله ربِّ العالمين، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أُمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسَّبعُ المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم أحدُ آياتِها[١]». رَفَعَ هذا الحديثَ عبدُ الحميد بن جعفر[٢]، وعبدُ الحميد هذا: وَثَّقَه أحمدُ بنُ حنبل، ويحيى بنُ سعيد، ويحيى بنُ مَعِين. وأبو حاتم[٣] يقول فيه: مَحلُّه الصِّدق. وكان سفيانُ الثوريُّ يُضَعِّفُه، ويَحمِلُ عليه. ونوحُ بنُ أبي بلال ثقةٌ مشهورٌ.

وحُجَّةُ ابن المبارك، وأحدِ قولي الشافعي، ما رواه مسلمٌ عن أنس قال: بَيْنا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم بين أظهرنا، إذْ أَغْفَى إغفاءةً، ثم رفع رأسَه مُتَبَسِّماً، فقلنا: ماأضحَكَكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نَزلَت عليَّ آنِفاً سورةٌ»، فقرأ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم، إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾. وذكر الحديث[٤]، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى.

الخامسة: الصحيحُ من هذه الأقوالِ قولُ مالك، لأنَّ القرآنَ لا يَثبُتُ بأخبار الآحاد، وإنما طريقُه التواترُ القطعيُّ الذي لا يُختَلَفُ فيه. قال ابنُ العربي: ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلافُ الناسِ فيها، والقرآنُ لا يُختَلَفُ فيه[٥].

والأخبارُ الصِّحاحُ التي لا مَطعَنَ فيها دالَّةٌ على أنَّ البسملةَ ليست بآية من الفاتحة، ولا غيرها، إلا في النمل وحدَها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال اللهُ عز وجل: قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبين عَبدي نِصفَين، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال اللهُ تعالى: حَمِدَني عبدي، وإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال اللهُ تعالى: أثنى عَلَيَّ عبدي، وإذا قال العبدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مَجَّدَني عبدي - وقال مرَّة: فَوَّضَ إليَّ عبدي -

---

(١) في سنن الدارقطني: إحداها.

(٢) ونقل الدارقطني بإثر الحديث عن أبي بكر الحنفي قوله: ثم لقيتُ نوحاً (يعني ابن أبي بلال) فحدثني به عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، بمثله، ولم يرفعه.

(٣) محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، الناقد، شيخ المحدِّثين، مات سنة (٢٧٧هـ). السير ١٣/ ٢٤٧.

(٤) صحيح مسلم (٤٠٠)، وهو في مسند أحمد (١١٩٩٦).

(٥) أحكام القرآن ١/ ٢ ووقع في (د) و(ز): لا يختلف الناس فيه.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

فقولُه سبحانه: «قَسمتُ الصلاةَ»: يريدُ الفاتحةَ، وسَمَّاها صلاة، لأنَّ الصلاةَ لا تَصِحُّ إلا بها، فجعل الثلاثَ الآياتِ الأُوَلَ لنفسه، واختصَّ بها تباركَ اسمُه، ولم يختلف المسلمون فيها. ثم الآيةُ الرابعةُ جعلها بينه وبين عبده؛ لأنها تضمَّنَت تذَلُّلَ العبد، وطلبَ الاستعانةِ منه، وذلك يَتَضَمَّنُ تعظيمَ الله تعالى، ثم ثلاثُ آيات تتمةَ سبع آيات.

ومما يَدُلُّ على أنها ثلاثُ قولُه: «هؤلاء لعبدي». أخرجه مالك[2]. ولم يَقُل: هاتان، فهذا يَدُلُّ على أنَّ ﴿أَنْعَمْتَ عليهم﴾ آيةٌ. قال ابنُ بُكَير[3]: قال مالكٌ: ﴿أنعَمْتَ عليهم﴾ آيةٌ. ثم الآيةُ السابعةُ إلى آخرها.

فثبتَ بهذه القِسمةِ التي قَسَمَها اللهُ تعالى، وبقوله عليه السلام لأُبَيٍّ: «كيف تَقرأُ إذا افتَتَحتَ الصلاةَ؟» قال: فقرأتُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيتُ على آخرها[4] أنَّ البسملةَ ليست بآية منها. وكذا عدَّ أهلُ المدينة وأهلُ الشام وأهلُ البصرة. وأكثرُ القُرَّاء عَدُّوا ﴿أنعمت عليهم﴾ آية. وكذا روى قتادةُ، عن أبي نَضْرةَ، عن أبي هريرةَ قال: الآيةُ السادسةُ: ﴿أنعمت عليهم﴾[5]. وأمَّا أهلُ الكوفة من القُرَّاء والفقهاء، فإنهم عَدُّوا فيها ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾، ولم يَعُدُّوا ﴿أنعمت عليهم﴾[6].

فإن قيل: فإنها ثَبتَت في المُصحفِ، وهي مكتوبةٌ بخطِّه، ونُقِلَت نَقْلَه، كما نُقِلَت في «النمل»، وذلك متواترٌ عنهم؟

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٥). وهو في مسند أحمد (٧٢٩١).

(٢) الموطأ ١/ ٨٤ ـ ٨٥، وهو في مسند أحمد (٩٩٣٢).

(٣) يحيى بن عبد الله المخزومي مولاهم، أبو زكريا المصري، تكلموا في سماعه من مالك، توفي سنة (٢٣١هـ). تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٨٣.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٦، ونسبه للثعلبي.

(٦) الاستذكار ٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢، والتمهيد ٢٠/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

قلنا: ما ذكرتموه صحيحٌ، ولكن لكونها قرآناً، أو لكونها[١] فاصِلةً بين السور. كما رُوِيَ عن الصحابة: كُنَّا لا نَعرِفُ انقضاءَ السورة حتى تَنزِلَ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ أخرجه أبو داود[٢]. أو تبرُّكاً[٣] بها، كما قد اتَّفقَتِ الأمَّةُ على كَتبِها في أوائل الكُتُبِ والرسائل. كل ذلك محتمل.

وقد قال الجُرَيْريُّ: سُئل الحسنُ عن ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾؟ قال: في صدور الرسائل[٤].

وقال الحسنُ أيضاً: لم تَنزِلْ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ في شيء من القرآن إلا في «طس»: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٥] [النمل: ٣٠].

والفَيصَلُ أنَّ القرآنَ لا يَثبُتُ بالنظر والاستدلال، وإنما يَثبُتُ بالنقل المتواتر القطعيِّ الاضطراري. ثم قد اضطربَ قولُ الشافعي فيها في أوَّل كلِّ سورة، فَدَلَّ على أنها ليست بآية من كلِّ سورة. والحمد لله.

فإن قيل: فقد روى جماعةٌ قراءتها[٦]، وقد تولَّى الدارقطنيُّ جمعَ ذلك في جُزء صَحَّحَهُ[٧].

قلنا: لسنا نُنكِرُ الروايةَ بذلك، وقد أشرنا إليها، ولنا أخبارٌ ثابتةٌ في مقابلتها، رواها الأئمةُ الثِّقاتُ، والفقهاءُ الأثباتُ. رَوَت عائشةُ في «صحيح» مسلم قالت: كان رسولُ الله ﷺ يَستفتِحُ الصلاةَ بالتكبير، والقراءةَ بالحمدُلله ربِّ العالمين، الحديث. وسيأتي بكماله[٨].

---

(١) في (د) و(ز): ولكونها.

(٢) (٧٨٨) من حديث ابن عباس، ولفظه: كان النبي ﷺ لا يعرفُ فَصْلَ السورة حتى تنزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم».

(٣) في النسخ الخطية: وتبركاً، والمثبت من (م).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢٣). الجُريري: هو سعيد بن إياس أبو مسعود، والحسن: هو البصري.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٥٣٨ من قول عبد الله بن معبد الزِّمَّاني.

(٦) في (م): قرآنيَّتها.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣.

(٨) صحيح مسلم (٤٩٨). وهو في مسند أحمد (٢٤٠٣٠)، وسيذكره المصنف أيضاً ص ٢٦٩ عند تفسير الآية (٣) في المسألة العشرين، والآية (٤٣) المسألة السابعة، كلتاهما في سورة البقرة.

وروى مسلم أيضاً، عن أنس بن مالك قال: صلَّيتُ خلفَ النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمرَ، فكانوا يستفتحون بالحمدُ لله ربِّ العالمين، لا يذكُرون ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ لا في أوَّل قراءة، ولا في آخِرها[١].

ثم إنَّ مذهبَنا يترجَّحُ في ذلك بوجهٍ عظيم، وهو المعقولُ، وذلك أنَّ مسجدَ النبيِّ ﷺ بالمدينةِ انقَرضَتْ[٢] عليه العصورُ، ومرَّت عليه الأزمنةُ والدُّهورُ، من لَدُنْ رسولِ الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يَقرَأْ أحدٌ فيه قَطُّ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ اتِّباعاً للسُّنَّةِ، وهذا يَرُدُّ أحاديثَكم. بَيْدَ أنَّ أصحابَنا استحبُّوا قراءَتها في النَّفل. وعليه تُحمَلُ الآثارُ الواردةُ في قراءتها، أو على السَّعةِ في ذلك[٣].

قال مالكٌ: ولا بأسَ أن يقرأَ بها في النافلة، ومَن يعرِضُ القرآنَ عَرْضاً.

وجُملةُ مذهب مالك وأصحابه: أنها ليست عندهم آيةً من فاتحة الكتاب ولا غيرِها، ولا يقرأُ بها المصلِّي في المكتوبة [في فاتحة الكتاب] ولا في غيرها سرًّا ولا جَهْراً[٤]، ويجوزُ أن يقرأَها في النوافل. هذا هو المشهورُ من مذهبه عند أصحابه[٥].

وعنه روايةٌ أخرى: أنها تُقرَأُ أوَّلَ السورة في النوافل، ولا تقرأُ أوَّلَ أُمِّ القرآن[٦].

وروى عنه ابنُ نافع ابتداءَ القراءة بها في الصلاة؛ الفَرضِ والنَّفل، ولا تُترَكُ بحال[٧].

ومِن أهل المدينة مَن يقولُ: إنه لابُدَّ فيها من ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾، منهم ابنُ عمر، وابنُ شهاب. وبه قال الشافعيُّ، وأحمدُ، وإسحاقُ[٨]، وأبو ثور[٩]، وأبو

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٩): (٥٢) وفيه أيضاً: وعثمان، وهو في المسند (١٣٣٣٧).

(٢) في (م): انقضت.

(٣) من قوله: ثم إن مذهبنا يترجح ... من أحكام القرآن لابن العربي: ١/٣ بتصرف يسير.

(٤) في (ظ): لا يصلي بها المصلي في المكتوبة لا سرًّا ولا جهراً.

(٥) الاستذكار ٤/ ٢٠٥، والتمهيد ٢٠/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧. وما بين حاصرتين منهما.

(٦) النوادر والزيادات ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٧) الذي في الاستذكار ٤/ ٢٠٥ أن هذا القول لابنِ نافع ـ وهو عبد الله بنُ نافع الصائغ ـ من رواية يحيى بن يحيى عنه، فلعل الصواب في العبارة أن يقال: ورُوي عن ابن نافع...

(٨) ابن إبراهيم بن مخلد ابن راهويه، أبو يعقوب التميمي، المروزي، نزيل نيسابور، مات سنة (٢٣٨هـ). السير ١١/ ٣٥٨.

(٩) هو إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، الحافظ الفقيه، مات سنة (٢٤٠هـ)، السير ١٢/ ٧٢.

عُبيد. وهذا يَدُلُّ على أنَّ المسألةَ مسألةٌ اجتهاديَّةٌ، لا قطعيَّةٌ كما ظَنَّهُ بعضُ الجُهَّال من المُتَفَقِّهةِ، الذي يَلزَمُ على قوله تكفيرُ المسلمين، وليس كما ظَنَّ، لوجودِ الاختلافِ المذكورِ. والحمدُ لله.

وقد ذهب جَمعٌ من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة، منهم أبو حنيفةَ والثَّوريّ، ورُوِيَ ذلك عن عمرَ، وعليٍّ، وابنِ مسعود، وعمَّار، وابنِ الزبير. وهو قولُ الحَكَم وحمَّاد. وبه قال أحمدُ بنُ حنبل وأبو عُبيد، ورُوِيَ عن الأوزاعيِّ مثلُ ذلك. حكاه أبو عمر بن عبد البَرِّ في «الاستذكار»[1].

واحتجُّوا من الأثر في ذلك بما رواه منصورُ بن زاذان، عن أنس بن مالك قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ، فلم يُسمِعنا قراءةَ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾[2]. وما رواه عمَّار بن رُزَيق، عن الأعمش، عن شُعبةَ، عن ثابت، عن أنس قال: صلَّيتُ خلفَ النبيِّ ﷺ، وخلفَ أبي بكر وعمرَ، فلم أسمَعْ أحداً منهم يجهرُ ببسم الله الرحمن الرحيم[3].

قلتُ: هذا قولٌ حسنٌ، وعليه تَتَّفِقُ الآثارُ عن أنس، ولا تَتَضادُّ، ويُخرَجُ به من الخلاف في قراءة البسملة.

وقد رُوي عن سعيد بن جُبير قال: كان المشركون يَحضُرون المسجد[4]، فإذا قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قالوا: هذا محمدٌ يذكُر رحمانَ اليمامة - يعنون مُسَيلِمةَ - فأُمِرَ أن يُخافِتَ ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزلَ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠][5].

قال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله[6]: فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذلك الرَّسمِ،

(١) ٤/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الصغرى ٢/ ١٣٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٣٧٨٤). ومن قول المصنف: واحتجوا من الأثر في ذلك... من الاستذكار ٤/ ٢١٠ - ٢١١.

(٤) في (م): بالمسجد.

(٥) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٤). وفي إسناده شريك بن عبد الله النَّخَعي، قال الحافظ في التقريب: يخطىء كثيرا.

(٦) في نوادر الأصول ص٣٩٣، وقد نقل منه المصنف من قوله: وقد رُوي عن سعيد بن جبير ...

وإن زالت العِلَّةُ، كما بقيَ الرَّمَلُ في الطَّوافِ، وإن زالتِ العِلَّةُ، وبَقِيَت المُخافَتَةُ في صلاة النهار، وإن زالت العِلَّةُ.

السادسة: اتَّفقَتِ الأمَّةُ على جواز كَتْبِها في أوَّل كلِّ كتاب من كُتُبِ العلم والرسائل، فإن كان الكتابُ ديوانَ شِعر؛ فروى مُجالدٌ، عن الشَّعبيِّ قال: أجمَعُوا ألا يكتُبوا أمامَ الشِّعر ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾. وقال الزُّهري: مَضَتِ السُّنَّةُ ألا يكتُبوا في الشعر ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾. وذهب إلى رَسْمِ التَّسميةِ في أوَّل كُتُبِ الشعر سعيدُ بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثرُ المتأخِّرين. قال أبو بكر الخطيبُ: وهو الذي نختارُه، ونَستَحِبُّه[(١)].

السابعة: قال الماورديُّ[(٢)]: ويقال لمن قال: بسم الله: مُبَسْمِلٌ، وهي لغةٌ مُوَلَّدةٌ، وقد جاءَت في الشعر، قال عمرُ بن أبي ربيعةَ[(٣)]:

لقد بَسْمَلَتْ ليلى غَداةَ لَقِيتُها ... فيا حَبَّذا ذاك الحبيبُ المُبَسْمِلُ[(٤)]

قلت: المشهورُ عن أهل اللغة: بَسمَلَ. قال يعقوبُ بن السِّكِّيت[(٥)] والمُطَرِّز[(٦)] والثعالبيُّ[(٧)] وغيرُهم من أهل اللُّغة: بَسمَلَ الرجلُ؛ إذا قال: بسم الله. يقال: قد

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٧.

(٢) في تفسيره النكت والعيون ١/ ٥٠. والماوردي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الشافعي، أقضى القضاة، صاحب التصانيف، اتهمه ابن الصلاح بالاعتزال، وقال ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٢٦٠: ولا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال، مات سنة (٤٥٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٤.

(٣) أبو الخطاب المخزومي، شاعر قريش، ولد ليلة مقتل عمر رضي الله عنه، واستشهد غازياً في البحر سنة (٩٣هـ). السير ٤/ ٣٧٩.

(٤) ديوانه ص ١١٧.

(٥) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت، البغدادي، النحوي، المؤدب، صاحب إصلاح المنطق. توفي سنة (٢٤٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٦.

(٦) محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد، اللغوي، المعروف بغلام ثعلب، له من التصانيف: اليواقيت، و شرح الفصيح، وفائت الفصيح، وغريب مسند أحمد، وغيرها. توفي سنة (٣٤٥هـ). بغية الوعاة ١/ ١٦٤.

(٧) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري شيخ العربية، الشاعر. صاحب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر و فقه اللغة، توفي سنة (٤٣٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٧.

أكثرت من البسملة، أي: من قول بسم الله، ومثلُه: حَوْقَلَ الرجلُ؛ إذا قال: لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله، وهَلَّلَ؛ إذا قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وسَبْحَلَ؛ إذا قال: سبحانَ الله، وحَمدَلَ؛ إذا قال: الحمدُ لله، وحَيْصَلَ[١]؛ إذا قال: حَيَّ على الصلاة[٢]، وجَعفَلَ[٣]؛ إذا قال: جُعِلتُ فِداكَ، وطَبقَلَ[٤]؛ إذا قال: أطال اللهُ بقاءَك، ودَمْعَزَ؛ إذا قال: أدامَ اللهُ عِزَّكَ، وحَيفَلَ[٥]؛ إذا قال: حيَّ على الفلاح. ولم يَذكُرِ المُطَرِّزُ الحَيصَلَةَ؛ إذا قال: حيَّ على الصلاة، وجَعفَلَ؛ إذا قال: جُعِلتُ فِداكَ، وطَبقَلَ؛ إذا قال: أطالَ الله بقاءَك، ودَمعَزَ؛ إذا قال: أدام اللهُ عِزَّكَ.

الثامنة: نَدَبَ الشَّرعُ إلى ذِكرِ البسملة في أوَّلِ كلِّ فِعل، كالأكلِ والشُّرب، والنَّحرِ، والجِماع، والطَّهارة، وركوبِ البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨]. ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]. وقال رسولُ الله ﷺ: «أغلِق بابَك، واذكُرِ اسمَ الله، وأطفِئ مِصباحَكَ، واذكُرِ اسمَ الله، وخَمِّر إناءَك، واذكُرِ اسمَ الله، وأوكِ سِقاءَك، واذكُرِ اسمَ الله»[٦]، وقال: «لو أنَّ أحدَكم إذا أرادَ أن يأتيَ أهلَه قال: بسم الله، اللهمَّ جَنِّبنا الشيطانَ، وجَنِّبِ الشيطانَ مارزَقتَنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولدٌ في ذلك، لم يَضُرَّه شيطانٌ أبداً»[٧] وقال لعمرَ بنِ أبي سَلَمةَ[٨]: «يا غلامُ، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ

(١) في (د): حيعل.

(٢) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٢٥: الحيعلة: حكاية قول المؤذن: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

(٣) وكذا ذكر ابن القطاع في الأفعال١/١٩٧: جعفل. وأورد السيوطي في المزهر ١/ ٤٨٣ عن ابن السِّكيت وغيره أن حكاية قول القائل: جعلت فداك: الجعفدة.

(٤) ذكر الثعالبي في فقه اللغة ص ٢٢٥ أن الطَّلبَقَةَ حكاية قول القائل: أطال الله بقاءك.

(٥) في (ظ): حيعل.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٤٤٣٤)، والبخاري (٣٢٨٠) بأتمّ منه من حديث جابر رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (١٨٦٧)، والبخاري (٦٣٨٨)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

(٨) القرشي، المخزومي، الحبشي المولد، زَوَّجَ أمَّه بالنبي ﷺ وهو صبي. توفي سنة (٥١هـ). السير ٣/٤٠٦.

مما يَلِيكَ»[١]، وقال: «إنَّ الشيطانَ لَيَستَحِلُّ الطَّعام ألَّا[٢] يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه»[٣]. وقال: «مَن لم يَذبَح، فَلْيَذبَح باسم الله»[٤]، وشكا إليه عثمانُ بنُ أبي العاص[٥] وَجَعاً يَجِدُه في جسدِه منذ أسلمَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «ضَع يدَكَ على الذي يألَمُ[٦] مِن جَسَدِك، وقُل: بسم اللهِ ثلاثاً، وقُل سبعَ مرَّات: أعوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وقُدرَتِهِ من شَرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرُ»[٧]. هذا كلُّه ثابتٌ في الصحيح.

وروى ابنُ ماجه والترمذيُّ عن النبيِّ ﷺ قال: «سَترُ ما بين الجِنِّ وعوراتِ بني آدمَ؛ إذا دَخَلَ الكَنِيفَ أن يقولَ: بسم الله»[٨].

وروى الدارقطنيُّ عن عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا مَسَّ طَهُورَه، سَمَّى الله تعالى، ثم يُفرِغُ الماءَ على يديه[٩].

التاسعة: قال علماؤنا: وفيها ردٌّ على القَدَرِيَّةِ وغيرهم ممن يقول: إنَّ أفعالَهم مقدورةٌ لهم. وموضعُ الاحتجاج عليهم من ذلك أنَّ اللهَ سبحانه أمرَنا عند الابتداء بكلِّ فِعلٍ أن نَفتَتِحَ بذلك، كما ذكرنا.

فمعنى «بسم الله» أي: بالله، ومعنى «بالله» أي: بِخَلقِه وتقديرِه يُوصَلُ إلى ما يُوصَلُ إليه. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٦٣٣٢)، والبخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) في (ظ): إلا أن.

(٣) قطعة من حديث حذيفة رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٢٣٢٤٩)، ومسلم (٢٠١٧).

(٤) قطعة من حديث جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه، أخرجه أحمد (١٨٨١٥)، والبخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

(٥) أبو عبد الله الثقفي، الطائفي، وفد مع قومه على النبي ﷺ سنة تسع فأسلموا، وأمَّرَه عليهم، وكان أصغرهم سنًّا، توفي سنة (٥١هـ). السير ٢/ ٣٧٤.

(٦) في (م): تألم.

(٧) أخرجه أحمد (١٦٢٦٨) (دون ذكر التسمية)، ومسلم (٢٢٠٢)، واللفظ له، من حديث عثمان بن أبي العاص، رضي الله عنه.

(٨) سنن ابن ماجه (٢٩٧)، وسنن الترمذي (٦٠٦)، وهو من حديث علي رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بذاك القوي.

(٩) سنن الدارقطني ١/ ٧٢، وفيه: يسمّي، بدل: سمَّى.

وقال بعضُهم: معنى قوله: «بسم الله» يعني: بدأتُ بعون الله وتوفيقه وبَرَكَتِه. وهذا تعليمٌ من الله تعالى عبادَه، لِيَذكُروا اسمَه عند افتتاحِ القراءةِ وغيرِها، حتى يكونَ الافتتاحُ ببركةِ اسمِه[1] جلَّ وعزَّ.

العاشرة: ذَهَبَ أبو عُبيدة مَعمَرُ بنُ المُثَنَّى إلى أنَّ «اسم» صِلَةٌ زائدةٌ، واستشهدَ بقول لَبيد[2]:

إلى الحَولِ ثمَّ اسمُ السَّلامِ عليكُما ... ومَن يَبكِ حَوْلاً كاملاً فقدِ اعتَذَر

فَذِكرُ «اسم» زيادةٌ، وإنما أراد: ثم السلامُ عليكما[3].

وقد استدلَّ علماؤُنا بقول لَبِيد هذا على أنَّ الاسمَ هو المسمَّى. وسيأتي الكلامُ فيه في هذا البابِ وغيره، إن شاء الله تعالى[4].

الحادية عشرة: اختُلِفَ في معنى زيادةِ «اسم». فقال قُطرُبٌ[5]: زِيدَت لإجلال ذِكرِه تعالى وتعظيمِه. وقال الأخفشُ[6]: زِيدَت ليخرجَ بذِكرِها من حُكمِ القَسَمِ إلى قَصدِ التبرُّك، لأنَّ أصلَ الكلام: بالله.

الثانية عشرة: اختلفوا أيضاً في معنى دخولِ الباء عليه، هل دَخَلَت على معنى الأمرِ، والتقديرُ: اِبدَأ بسم الله؟ أو على معنى الخبرِ، والتقديرُ: اِبتدأتُ بسم الله[7]؟ قولان: الأوَّلُ للفرَّاء، والثاني للزجَّاج[8]. فـ«بسم» في موضع نصب على التأويلين. وقيل: المعنى: ابتدائي بسم الله، فـ«بسم الله» في موضع رَفعِ خبرُ الابتداء.

---

(١) في (م): ببركة الله.

(٢) ابن ربيعة العامري، الصحابي، الشاعر، قال الشعر في الجاهلية دهراً ثم أسلم، وعُمِّرَ طويلاً. مات في الكوفة سنة (٤١هـ). الإصابة ٩/ ٦. والبيت في ديوانه ص ٧٩.

(٣) من قوله: ذهب أبو عبيدة... من تفسير الماوردي ١/ ٤٧، وقد نقل قولَ أبي عبيدة ابنُ جني في الخصائص ٣/ ٢٩.

(٤) ص ١٥٦، وفي المسألة الثالثة من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(٥) محمد بن المستنير أبو علي النحوي اللغوي، أخذ عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين. من كتبه معاني القرآن، والاشتقاق. توفي سنة (٢٠٦هـ). إنباه الرواة ٣/ ٢٢١.

(٦) سعيد بن مسعدة، أبو الحسن البلخي البصري، إمام النحو، المعروف بالأخفش الأوسط، تلميذ سيبويه، مات سنة نيف عشرة ومئتين. السير ١٠/ ٢٠٨.

(٧) في (د) و(ز): وتقديره ابتدأت بسم الله.

(٨) النكت والعيون ١/ ٤٧ ـ ٤٨.

وقيل: الخبرُ محذوفٌ، أي: ابتدائي مستقرٌّ أو ثابِتٌ بسم الله، فإذا أظهرتَه، كان «بسم الله» في موضعِ نصبٍ بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولِكَ: زيدٌ في الدار. وفي التنزيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠] فـ«عندَه» في موضعِ نصبٍ، رُوي هذا عن نُحاةِ أهلِ البصرة.

وقيل: التقديرُ: ابتدائي بسم الله موجودٌ، أو ثابتٌ، فـ«باسم» في موضعِ نصب بالمصدر الذي هوابتدائي.

الثالثة عشرة: «بسم الله» تُكتَبُ بغير ألف، استُغنيَ[1] عنها بباء الإِلصاقِ[2] في اللَّفظ والخطِّ، لكَثرةِ الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فإنها لم تُحذَف، لقِلَّةِ الاستعمال. واختلفوا في حَذفِها مع الرحمن والقاهر. فقال الكِسائيُّ وسعيدٌ الأخفشُ: تُحذَفُ الألفُ. وقال يحيى بنُ زياد[3]: لا تُحذَفُ إلا مع «بسم الله» فقط، لأنَّ الاستعمالَ إنما كَثُرَ فيه[4].

الرابعة عشرة: واختُلِفَ في تخصيص باء الجرِّ بالكسر على ثلاثةِ معانٍ، فقيل: لِيُناسِبَ لفظُها عملَها. وقيل: لمَّا كانت الباءُ لا تَدخُلُ إلا على الأسماء، خُصَّت بالخَفْضِ الذي لا يكون إلا في الأسماءِ. الثالث: لِيُفَرَّقَ بينها وبين ما قد يكونُ من الحروف اسماً، نحو الكاف في قول الشاعر[5]:

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وَسْطَنا

أي: بمثل ابْنِ الماء، وما[6] كان مثلَه.

الخامسة عشرة: «اسم» وَزنُه: افْعٌ، والذاهبُ منه الواو؛ لأنه من: سَمَوت، وجَمْعُه

---

(١) في (م): استغناء.

(٢) في (ظ): بالإلصاق.

(٣) هو أبو زكريا الفرَّاء. وقد تحرفت كلمة «زياد» في النسخ و (م) إلى: «وثاب».

(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٦٢، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٣.

(٥) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٧٦. وشطره الثاني: تصوّب فيه العين طوراً وترتقي، قال شارحه: يقول: رُحنا بفرس كأنه ابنُ الماء في خفته وسرعة عَدْوِه. وابن الماء طائر.

(٦) في (م): أو ما.

أسماءٌ، وتصغيره سُمَيٌّ. واختُلِف في تقدير أصله، فقيل: فِعْلٌ، وقيل: فُعْلٌ. قال الجوهريُّ: وأسماءٌ يكون جمعاً لهذا الوزن[١]، وهو مِثلُ جِذْع وأجْذاع، وقُفْل وأقْفال، وهذا لا تُدرَكُ صيغتُه إلا بالسَّماع. وفيه أربعُ لغات: إِسْمٌ، بالكسر، وأُسْمٌ، بالضم. قال أحمدُ بنُ يحيى[٢]: مَن ضَمَّ الألفَ، أخذَه مِن: سَموتُ أسمُو، ومَن كَسَرَ، أخَذَه مِن: سَمِيتُ أسمَى[٣]. ويقال: سِمٌ وسُمٌ[٤]، ويُنشَدُ:

والله أسماكَ سُماً مُبارَكا   آثَرَكَ اللهُ به إيثارَكا

وقال آخرُ:

وعامُنا أعجَبَنا مُقَدَّمُهْ   يُدْعَى أبا السَّمْحِ وقِرضَابٌ سِمُهْ

مُبتَرِكاً لكلِّ عَظْمٍ يَلْحُمُهْ

قَرْضَبَ الرجلُ: إذا أكلَ شيئاً يابساً، فهو قِرضابٌ. سِمُهْ: بالضم والكسر جميعاً. ومنه قولُ الآخر:

باسم الذي في كلِّ سُورةٍ سُمُهْ[٥]

وسُكِّنَتِ السين من «باسم» اعتلالاً على غير قياس، وألِفُه ألِفُ وَصْلٍ، وربما جَعَلَها الشاعرُ ألفَ قَطْعٍ للضرورة، كقول الأحوص[٦]:

وما أنا بالمَخْسُوسِ في جِذْمِ مالكٍ   ولا مَنْ تَسَمَّى ثم يَلتزمُ الإسما

السادسة عشرة: تقولُ العربُ في النَّسب إلى الاسمِ: سِمويٌّ، وإن شِئْتَ: اسْمِيّ؛

---

(١) في الصحاح (سما): وأسماء يكون جمعاً لهذين الوزنين.

(٢) هو إمام النحو ثعلب، أبو العباس، البغدادي. مات سنة (٢٩١هـ). السير ١٤/ ٥.

(٣) في معجم متن اللغة: سَمِيَ، كَرَضِيَ. وسَمَى، كرَمَى: لغتان في سما يسمو. وينظر الصحاح (سما، سلا، علا).

(٤) وذكر أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١/١٦، وأبو البقاء العكبري في الإملاء ١/ ٥، وغيرُهما، لغة خامسة، وهي: سُمى، مثل ضحى، وعُلى.

(٥) ما سلف من الرجز أورده أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١/ ١٥ ـ ١٦، وابن منظور في اللسان (سما)، وأورد بعضَه ابن جني في المنصف ١/ ٦٠، وابن الشجري في أماليه ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٦) هو عبد الله بن محمد بن عبيد الله، أبو عاصم الأنصاري، من شعراء بني أمية. السير ٤/ ٥٩٣. والبيت في ديوانه ص ١٩٣.

تركتَه على حاله. وجمعُه أسماءٌ، وجمعُ الأسماءِ أسامٍ. وحكى الفرَّاءُ: أُعيذُكَ بأسماواتِ الله[١].

السابعة عشرة: اختلفوا في اشتقاق الاسمِ على وجهين: فقال البصريون: هو مَشتَقٌّ من السُّمُوّ، وهو العُلُوُّ والرِّفعة، فقيل: اَسم، لأنَّ صاحبَه بمنزلة المُرتَفِع به. وقيل: لأنَّ الاسمَ يسمو بالمُسَمَّى، فيرفَعُه عن غيره. وقيل: إنما سُمِّيَ الاسمُ اسماً، لأنه علا بقوَّته على قِسْمَي الكلام: الحرفِ والفعلِ، والاسمُ أقوى منهما بالإجماع، لأنه الأصلُ، فَلِعُلُوِّه عليهما، سُمِّيَ اسماً. فهذه ثلاثةُ أقوال.

وقال الكوفيون: إنه مُشتَقٌّ من السِّمَة، وهي العلامةُ، لأنَّ الاسمَ علامةٌ لمن وُضِعَ له. فأصلُ «اسم» على هذا: وسم. والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنه يقال في التصغير: سُمَيٌّ. وفي الجمع: أسماءٌ. والجمعُ والتَّصغيرُ يَرُدَّانِ الأسماء[٢] إلى أصولها، فلا يقال: وُسَيمٌ، ولا أوسامٌ. ويَدُلُّ على صِحَّته أيضا فائدةُ الخلاف، وهي:

الثامنة عشرة: فإنَّ مَنْ قال: الاسمُ مُشتَقٌّ من العُلُوِّ، يقول: لم يَزَلِ اللهُ سبحانه موصوفاً قبلَ وجودِ الخَلْقِ وبعدَ وجودِهم، وعند فنائِهم، ولا تأثيرَ لهم في أسمائه ولا صفاته، وهذا قولُ أهلِ السُّنَّة. ومَنْ قال: الاسمُ مُشتَقٌّ من السِّمَةِ، يقول: كان اللهُ في الأزَلِ بلا اسمٍ ولا صفةٍ، فلما خَلَقَ الخَلقَ، جعلوا له أسماءً وصفاتٍ، فإذا أفناهم، بَقِيَ بلا اسمٍ ولا صفةٍ، وهذا قولُ المعتزلة. وهو خلافُ ما أَجمعَت عليه الأمَّةُ، وهو أعظمُ في الخطأ مِن قولهم: إنَّ كلامَه مخلوقٌ، تعالى اللهُ عن ذلك. وعلى هذا الخلافِ وقع الكلامُ في الاسمِ والمُسَمَّى، وهي:

التاسعة عشرة: فذهب أهلُ الحقِّ ـ فيما نقل القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب ـ إلى أنَّ الاسمَ هو المُسَمَّى، وارتضاه ابنُ فُورَك[٣]، وهو قولُ أبي عُبيدةَ وسيبويه.

فإذا قال قائلٌ: اللهُ عالمٌ، فقوله دالٌّ على الذاتِ الموصوفةِ بكونه عالماً، فالاسمُ كونه عالماً، وهو المُسمَّى بعينه. وكذلك إذا قال: اللهُ خالقٌ، فالخالقُ هو الربُّ، وهو بعينه الاسمُ. فالاسمُ عندهم هو المُسمَّى بعينه مِن غير تَفْصيلٍ.

---

(١) الصحاح للجوهري (سما). وينظر تاج العروس ١٠/ ١٨٤.

(٢) في (م): الأشياء.

(٣) أبو بكر محمد بن الحسن الأصبهاني، صنف التصانيف الكثيرة، كان أشعريًا، رأساً في فن الكلام، توفي سنة (٤٠٦). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢١٤ ووفيات الأعيان ٤/ ٢٧٢.

قال ابن الحصَّار: مَنْ ينفي الصفاتِ من المبتدِعةِ يَزعُمُ أنْ لا مدلولَ للتَّسمياتِ إلا الذاتُ، ولذلك يقولون: الاسمُ غيرُ المُسمَّى، ومَنْ يُثْبِتُ الصفاتِ، يُثْبِتُ للتَّسمياتِ مدلولاتٍ هي أوصافُ الذات، وهي غيرُ العبارات، وهي الأسماءُ عندهم. وسيأتي لهذا[1] مزيدُ بيان في «البقرة» و«الأعراف» إن شاء الله تعالى[2].

المُوفية عشرين: قولُه: الله، هذا الاسمُ أكبرُ أسمائه سبحانه وأجمعُها[3]، حتى قال بعضُ العلماء: إنه اسمُ الله الأعظمُ[4]، ولم يَتَسمَّ[5] به غيرُه، ولذلك لم يُثَنَّ، ولم يُجمَع. وهو أحدُ تأويلَي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: مَن تَسَمَّى باسمه الذي هو «الله». فاللهُ اسمٌ للموجود الحقِّ الجامع لصفات الإلهيَّة، المنعوت بِنُعوت الرُّبوبيَّةِ، المنفرد بالوجود الحقيقيِّ، لا إلهَ إلا هو سبحانه. وقيل: معناه: الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَدَ. وقيل: معناه: واجبُ الوجود الذي لم يَزَل ولا يزالُ، والمعنى واحدٌ.

الحادية والعشرون: واختلفوا في هذا الاسمِ: هل هو مُشتَقٌّ، أو موضوعٌ للذات عَلَم؟.

فذهب إلى الأوَّل كثيرٌ من أهل العلم. واختلفوا في اشتقاقه وأصلِهِ. فروى سيبويهِ عن الخليل[6]، أنَّ أصلَه إلاه، مثل فِعَال، فأُدخِلَت الألفُ واللامُ بدلاً من الهمزة. قال سيبويهِ: مثل: الناس، أصلُه أناس. وقيل: أصلُ الكلمةِ: لاه، وعليه دَخَلتِ الألفُ واللام للتَّعظيمِ، وهذا اختيارُ سيبويهِ[7]. وأُنشِدَ:

---

(١) في (م): لهذه.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وعند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(٣) نقله البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٥٧ عن الحليمي.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٢٧٣ عن جابر بن زيد قال: اسم الله الأعظم الله، وحكاه أيضاً الماوردي في تفسيره ١/ ٥٠ عن أبي حنيفة.

(٥) في (د) و(ز): يسمَّ.

(٦) هو ابنُ أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي، البصري، صاحب العربية، ومنشىء علم العروض. مات سنة بضع وستين ومئة، وقيل: بقي إلى سنة سبعين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٩.

(٧) ينظر الكتاب ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٢، واشتقاق أسماء الله للزجاجي ٢٣ ـ ٢٩، والخصائص لابن جني ٢/ ٢٨٨، والأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٥٨.

لاهِ ابنُ عَمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ عنِّي ولا أنتَ دَيَّانِي فتَخْزُونِي[١]

كذا الرواية: فتخزوني، بالخاء المعجمة، ومعناه: تَسُوسُني.

وقال الكِسائيُّ والفرَّاءُ: معنى «بسم الله»: بسم الإله؛ فحذفوا الهمزةَ، وأدغموا اللَّامَ الأولى في الثانية، فصارتا لاماً مشدَّدةً[٢]؛ كما قال عز وجل: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف:٣٨]. ومعناه: لكنْ أنا، كذلك قرأها الحسنُ[٣].

ثم قيل: هو مُشتَقٌّ من «وَلِهَ»: إذا تحيَّرَ. والوَلَهُ: ذهابُ العقل. يقال: رجلٌ وَالِهٌ، وامرأةٌ والِهةٌ ووالِهٌ. وماءٌ مُوْلَهٌ: أُرْسِلَ في الصحارَى. فاللهُ سبحانه تَتَحيَّرُ الألبابُ وتذهبُ في حقائق صفاته، والفِكَرُ في معرفته. فعلى هذا أصلُ «إلاه»: «وِلاه». وأنَّ الهمزةَ مُبدَلَةٌ مِن واو، كما أُبدِلَت في إِشاح وَوِشاح، وإِسادة وَوِسادة. ورُوي عن الخليل[٤].

ورُوي عن الضحَّاك أنه قال: إنما سُمِّيَ «اللهُ» إلٰهاً؛ لأنَّ الخَلقَ يتألَّهون إليه في حوائجهم، ويتضرَّعون إليه عند شدائِدِهم، وذُكِرَ عن الخليل بن أحمدَ أنه قال: لأنَّ الخَلقَ يَأْلَهُون إليه، بنصب اللام. ويَأْلِهُون أيضاً، بكسرها. وهما لغتان.

وقيل: إنه مُشتَقٌّ من الارتفاع، فكانت العربُ تقول لكلِّ شيء مرتفعٍ: لاهاً، فكانوا يقولون إذا طَلَعتِ الشمسُ: لاهَتْ[٥].

وقيل: هو مُشتَقٌّ من أَلَهَ الرجلُ: إذا تَعَبَّدَ. وتَأَلَّهَ: إذا تنسَّك، ومِن ذلك قولُه تعالى: «وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَكَ» على هذه القراءة[٦]، فإنَّ ابنَ عباس وغيرَه قالوا: وعبادتَك[٧].

---

(١) البيت لذي الإصبع العدواني، وهو في المفضليات ص١٦٠، والخصائص ٢/ ٢٨٨ وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٩٥، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ١/ ٣٩٤.

(٢) ينظر اشتقاق أسماء الله الحسنى ص ٢٣.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٠، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٩ وزادا نسبتها إلى أبي بن كعب.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٦٣، وينظر اشتقاق أسماء الله ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) من قوله: ورُوي عن الضحاك... من تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٧٦.

(٦) الأعراف: ١٢٧، وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٥٦.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ١٢١-١٢٢، وأورد له قول رؤبة:

لله درُّ الغانياتِ المُدَّهِ سَبَّحْنَ واسترجَعْنَ من تألُّهي

قالوا: فاسمُ اللهِ مُشتَقٌّ من هذا[١]، فاللهُ سبحانه معناه: المقصودُ بالعبادة، ومنه قولُ الموحِّدين: لا إلهَ إلا اللهُ، معناه: لا معبودَ غيرُ الله. و«إلا» في الكلمةِ بمعنى «غير»، لا بمعنى الاستثناء.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّ الأصلَ فيه «الهاءُ» التي هي الكنايةُ عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجوداً في فِطَرِ عقولهم، فأشاروا إليه بحرفِ الكِناية، ثم زِيدَت فيه لامُ الملك، إذ قد عَلِمُوا أنه خالقُ الأشياء ومالِكُها، فصار «لَهُ»، ثم زِيدَت فيه الألفُ واللامُ تعظيماً وتفخيماً[٢].

القول الثاني ذَهَبَ إليه جماعةٌ من العلماء أيضاً، منهم الشافعيُّ وأبو المعالي[٣] والخطَّابي والغزالي[٤] والمفضَّل وغيرُهم. ورُوِيَ عن الخليلِ وسيبويهِ: أنَّ الألفَ واللامَ لازِمةٌ له، لا يجوزُ حذفُهما منه[٥]. قال الخطَّابيُّ: والدليلُ على أنَّ الألفَ واللامَ مِن بِنيَةِ هذا الاسمِ، ولم يدخُلا للتعريف، دخولُ حرفِ النِّداء عليه، كقولك: يا اللهُ، وحروفُ النِّداء لا تَجتمِعُ مع الألف واللام للتعريف، ألا ترى أنَّكَ لا تقولُ: يا الرحمنُ، ولا: يا الرحيمُ، كما تقول: يا اللهُ، فدلَّ على أنهما من بِنيَةِ الاسمِ. والله أعلم[٦].

الثانية والعشرون: واختلفوا أيضاً في اشتقاقِ اسمه «الرحمن»، فقال بعضُهم: لا اشتقاقَ له؛ لأنه من الأسماءِ المُختصَّةِ به سبحانه، ولأنه لو كان مُشتقًّا من الرحمة، لاتَّصلَ بذِكرِ المرحوم، فجاز أن يقال: اللهُ رَحمنٌ بعبادِه، كما يقال: رحيمٌ بعبادِه. وأيضاً لو كان مُشتقًّا مِن الرَّحمةِ، لم تُنكِرْه العربُ حين سَمِعُوه، إذ كانوا لا يُنكِرون

---

(١) هو بنحوه في تفسير ابن عطية ١/ ٦٣، وأورد خلاله قول رؤبة المذكور في التعليق قبله.

(٢) من قوله: قول الموحدين.. من كلام الخطابي، ونقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٥٨.

(٣) هو عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني، إمامُ الحرمين، شيخ الشافعية، توفي سنة (٤٧٨هـ). السير ١٨/ ٤٦٨.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي، الشافعي، صاحب الإحياء وغيره من التصانيف. توفي سنة (٥٠٥هـ). السير ١٩/ ٣٢٢.

(٥) ذكر قول الخليل البيهقيُّ في الأسماء والصفات ١/ ٥٨ نقلا عن الخطابي.

(٦) نقل كلام الخطابي البيهقيُّ في الأسماء والصفات ١/ ٥٩.

رحمةَ ربِّهم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية[(١)].

ولمَّا كَتَبَ عليٌّ رضي الله عنه في صُلحِ الحُدَيبِيةِ بأمرِ النبيِّ ﷺ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قال سُهَيل بن عمرو: أمَّا ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ فما ندري ما ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾! ولكنِ اكتُبْ ما نَعرِفُ: باسمِكَ اللَّهُمَّ. الحديث[(٢)].

قال ابنُ العربي: إنما جَهِلُوا الصِّفةَ دونَ الموصوف، واستدلَّ على ذلك بقوله[(٣)]: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]؟ ولم يقولوا: ومنِ الرحمنُ؟ قال ابنُ الحصَّار: وكأنَّه رحمه اللهُ لم يَقرَأ الآيةَ الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وذهب الجمهورُ من الناس إلى أنَّ «الرحمن» مُشتَقٌّ مِنَ الرَّحمةِ، مَبنيٌّ على المبالغة، ومعناه: ذو الرَّحمةِ الذي لا نظيرَ له فيها، فلذلك لا يُثنَّى، ولا يُجمَعُ، كما يُثنَّى «الرحيم»، ويُجمَعُ[(٤)].

قال ابنُ الحصَّار: ومما يَدُلُّ على الاشتقاق ما خَرَّجَه الترمذيُّ وصَحَّحه عن عبد الرحمن بن عَوف، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا الرحمنُ، خَلَقتُ الرَّحِمَ، وشَقَقتُ لها اسماً من اسمي، فمَنْ وَصَلَها، وَصَلْتُه، ومَنْ قَطَعَها، قَطَعْتُه»[(٥)]. وهذا نصٌّ في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفةِ والشِّقاقِ، وإنكارُ العرب له لِجَهلِهم بالله، وبما وَجَبَ له[(٦)].

الثالثة والعشرون: زَعَمَ المُبَرِّدُ - فيما ذكر ابنُ الأنباريِّ في كتاب «الزاهر»[(٧)] له -

(١) من كلام الخطابي، نقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٣٨٢٧)، والبخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) من حديث المسور ومروان، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس.

(٣) في (م): بقولهم.

(٤) الأسماء والصفات ١/ ١٣٦.

(٥) سنن الترمذي (١٩٠٧)، وهو في مسند أحمد (١٦٨٦).

(٦) وقد ردَّ ابن جرير الطبري في تفسيره ١/ ١٣٠-١٣٢ على من قال: إن العرب كانت لا تعرف «الرحمن»، وأوردَ من أشعارهم ما يبيِّنُ أن هذه التسمية كانت معروفة عندهم، وأن إنكارهم هذا إنما هو جحود وتعنت في كفرهم.

(٧) ١/ ٥٩، وقال فيه ابنُ الأنباريِّ: سمعتُ أبا العباس . . . ويعني به شيخَه ثعلب. فذهب وهم المصنف=

أنَّ «الرحمن» اسمٌ عِبْرانيٌّ، فجاء معه بـ«الرحيم». وأنشد:

لن تُدرِكُوا[١] المَجدَ أو تَشرُوا عَبَاءَكُمُ ... بالخَزِّ أو تَجعَلُوا اليَنْبُوتَ ضَمْرَانا

أو تَترُكُونَ إلى القَسَّيْنِ هِجرَتَكُم ... ومَسْحَكُم صُلْبَهُم رَحمانَ قُربانا[٢]

قال أبو إسحاقَ الزجَّاجُ في «معاني القرآن»: وقال أحمدُ بن يحيى[٣]: «الرحيم» عَرَبيٌّ، و«الرحمن» عِبْرانِيٌّ، فلهذا جمعَ بينهما. وهذا القولُ مرغوبٌ عنه.

وقال أبو العباس: النَّعتُ قد يَقَعُ للمدحِ، كما تقول: قال جريرٌ الشاعرُ. وروى مَطَر[٤]، عن قتادةَ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قال: مَدَحَ نفسَه[٥]. قال أبو إسحاقَ: وهذا قولٌ حَسَنٌ. وقال قُطرُبٌ: يجوزُ أن يكونَ جمعَ بينهما للتوكيد[٦]. قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حَسَنٌ، وفي التوكيد أعظمُ الفائدة، وهو كثيرٌ في كلام العرب، يستغني[٧] عن الاستشهاد. والفائدةُ في ذلك ما قاله محمدُ بن يزيدَ: إنه تَفَضُّلٌ بعد تَفَضُّلٍ، وإنعامٌ بعد إنعامٍ، وتَقويةٌ لِمطامِعِ الراغبين، ووَعدٌ لا يَخِيبُ آمِلُه[٨].

الرابعة والعشرون: واختلفوا: هل هما بمعنًى واحدٍ، أو بمعنيين؟ فقيل: هما

= إلى أنه أبو العباس المبرِّد، فقال: زعم المبرِّد... وقد صرَّحَ به أبو القاسم الزَّجَّاجي في اشتقاق أسماء الله ص ٤٢ ـ ٤٣.

(١) في (د) (ز): لوتتركوا، وفي (ظ): لن يتركوا، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الزاهر.

(٢) البيتان لجرير، من قصيدة يهجو بها الأخطل، وهما في ديوانه ١/ ١٦٧، ببعض اختلاف، وذكرهما الزجَّاجي في اشتقاق أسماء الله ص ٤٣، وذكر الثاني منهما الماوردي في تفسيره ١/ ٥٢. وقوله: اليَنْبُوت: هو شجر الخَشخاش، وشجرٌ آخرُ عِظام، أو شجرُ الخَرُّوب. وقوله: ضَمران: هو نبت من دِقِّ الشجر. القاموس (نبت) (ضمر).

(٣) هو أبو العباس ثعلب، ولم نجد قول الزجاج هذا في كتابه معاني القرآن. وهو عند النحاس كما سنذكر.

(٤) هو ابنُ طَهْمان الورَّاق، أبو رجاء الخراساني، نزيل البصرة، كان يكتب المصاحف ويتقن ذلك، توفي سنة (١٢٩هـ). السير ٥/ ٤٥٢. وقد تحرف اسم «مطر» في (م) و (د) إلى: مطرّف.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٣ مطولاً، من طريق مطر الوراق عن قتادة، ونسبه لعبد بن حُميد.

(٦) ذكره ابن الأنباريّ في الزاهر ١/ ٥٨.

(٧) في (م): ويستغني.

(٨) من قوله: وقال أحمد بن يحيى من معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٥ و٥٦، بتقديم وتأخير وليس للزجاج.

بمعنًى واحد، كندمانٍ ونَديم. قاله أبو عُبيدة[١]. وقيل: ليس بناءُ فَعلان كفَعيل، فإنَّ فعلان لا يَقَعُ إلا على مُبالغَةِ الفِعلِ، نحو قولك: رجلٌ غضبانُ، للممتلئ غَضَباً. وفعيل قد يكون بمعنى الفاعلِ والمفعول. قال عَمَلَّس[٢]:

فأما إذا عَضَّتْ بك الحربُ عَضَّةً فإنكَ مَعطوفٌ عليكَ رَحِيمُ

فـ«الرحمن» خاصُّ الاسمِ، عامُّ الفعل. و«الرحيمُ» عامُّ الاسمِ، خاصُّ الفعل. هذا قولُ الجُمهور[٣].

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ: «الرحمن»: اسمٌ عامٌّ في جميع أنواع الرحمة، يختصُّ به الله. «والرحيم»: إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]. وقال العرزميُّ[٤]: «الرحمنُ» بجميع خَلْقِه في الأمطار، ونِعَمِ الحواسِّ، والنِّعَمِ العامَّة. «الرحيمُ» بالمؤمنين في الهداية لهم، واللُّطفِ بهم[٥].

وقال ابنُ المبارك: «الرحمنُ» إذا سُئِلَ أعطى. و«الرحيمُ» إذا لم يُسألْ غَضِبَ[٦].

وروى ابنُ ماجه في «سننه»، والترمذيُّ في «جامعه»، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن لَم يَسألِ الله، يَغضَبْ عليه». لفظُ الترمذي. وقال ابن ماجه: «مَنْ لَم يَدْعُ اللهَ سبحانه، غَضِبَ[٧] عليه»[٨]. وقال: سألتُ أبا زُرعةَ عن أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: الفارسيُّ، وهو خُوزي، ولا أَعرِفُ اسمَه. وقد أخذَ بعضُ الشعراء هذا المعنى، فقال:

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٢١. وانظر المصدر السابق للنحاس.

(٢) هو عَمَلَّس بنُ عقيل، والبيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٤، واللسان (رحم).

(٣) الأسماء والصفات ١/ ١٤١.

(٤) عبد الملك بن أبي سليمان، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله، الكوفي، توفي سنة (١٤٥هـ). سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٩.

(٥) المحرر الوجيز ١/٦٣ ـ ٦٤.

(٦) ذكره الحافظ في فتح الباري ٨/ ١٥٥.

(٧) في (د): يغضب.

(٨) سنن ابن ماجه (٣٨٢٧)، وسنن الترمذي (٣٣٧٣)، وهو في مسند أحمد (٩٧٠١).

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تركتَ سُؤالَه ... وبُنيُّ آدمَ حين يُسأَلُ يَغْضَبُ[(١)]

وقال ابنُ عباس: هما اسمانِ رقيقان، أحدُهما أرقُّ من الآخر[(٢)]، أي: أكثرُ رحمةً.

قال الخطَّابيُّ: وهذا مُشكِلٌ، لأنَّ الرِّقَّةَ لا مَدخَلَ لها في شيء من صفاتِ الله تعالى. وقال الحسينُ بن الفَضْل البَجَلي[(٣)]: هذا وَهَمٌ من الراوي؛ لأنَّ الرِّقَّةَ ليست من صفاتِ الله تعالى في شيء، وإنما هما اسمانِ رفيقانِ، أحدُهما أرفَقُ من الآخر، والرِّفقُ من صفاتِ الله عز وجل. قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ رفيقٌ، يُحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطِي على الرِّفقِ ما لا يُعطِي على العُنفِ»[(٤)].

الخامسة والعشرون: أكثرُ العلماء على أنَّ «الرحمن» مختصٌّ بالله عزَّ وجلَّ، لا يجوزُ أن يُسَمَّى به غيرُه. ألا تراه قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[الإسراء: ١١٠]، فعادلَ به الاسمَ الذي لا يَشْرَكُه فيه غيرُه؟[(٥)]. وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، فأخبر أنَّ «الرحمن» هو المُستحِقُّ للعبادة جلَّ وعزَّ. وقد تَجاسَرَ مُسَيلِمَةُ الكذَّابُ ـ لعنه الله ـ فتسمَّى برحمانِ اليمامة[(٦)]، ولم يَتَسمَّ به حتى قَرَعَ مَسامِعَه [(٧)]نَعتُ «الكذَّاب»[(٧)]، فألزمه اللهُ تعالى نَعتَ «الكذَّابِ» لذلك، وإن كان كلُّ كافرٍ كاذباً، فقد صارَ هذا الوَصفُ لمُسَيلِمةَ عَلَماً يُعرَفُ به، ألزمَه اللهُ إيَّاه.

وقد قيلَ في اسمه «الرحمن»: إنه اسمُ اللهِ الأعظمُ. ذكره ابنُ العربيِّ.

---

(١) لم نقف عليه، وذكره المناوي في فيض القدير ٤/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ١٣٩ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قولَه. وذكر الحافظ في الفتح ١٣/ ٣٥٩ أن هذا الحديث لا يثبت، لأنه من رواية الكلبي، وهو متروك الحديث.

(٣) اللغوي أبو علي البجلي، الكوفي. توفي سنة (٢٨٢هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٤.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة. وما نقله المصنف من كلام الخطابي هو في الأسماء والصفات ١/ ١٤٠.

(٥) الصحاح (رحم).

(٦) سلف ص ١٤٩.

(٧-٧) ليس في النسخ وهو من (م).

السادسة والعشرون: «الرحيم» صِفةٌ مطلَقةٌ للمخلوقين. ولما في «الرحمن» من العموم، قُدِّمَ في كلامنا على «الرحيم» مع موافقةِ التنزيل. قاله المَهدَويُّ.

وقيل: إنَّ معنى «الرحيم»: أي: بالرحيم وَصَلْتُم إلى الله، وإلى الرحمن، فـ«الرحيم» نعتُ محمد ﷺ، وقد نَعَتَه تعالى بذلك، فقال: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكأنَّ المعنى أن يقولَ: بسم الله الرحمنِ وبالرحيمِ. أي: وبمحمد ﷺ وَصَلتُم إليَّ، أي: باتِّباعِه، وبما جاء به، وَصَلتُم إلى ثوابي وكرامتي، والنَّظَرِ إلى وجهي. والله أعلم.

السابعة والعشرون: رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب كرَّمَ اللهُ وجهَه أنَّه قال في قوله: ﴿بسم الله﴾: إنه شفاءٌ مِن كلِّ داء، وعَونٌ على كلِّ دَواء. وأما ﴿الرحمٰن﴾ فهو عَونٌ لكلِّ مَن آمنَ به، وهو اسمٌ لم يُسَمَّ به غيرُه. وأما ﴿الرحيم﴾ فهو لمن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً[١].

وقد فسَّره بعضُهم على الحروف، فرُوِيَ عن عثمانَ بنِ عفَّان أنه سألَ رسولَ الله ﷺ عن تفسير ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾، فقال: «أما الباء، فبلاءُ اللهِ ورَوْحُه ونَضْرتُه وبهاؤه، وأما السينُ، فسناءُ الله، وأما الميم، فَمُلْكُ الله، وأما الله، فلا إلهَ غيرُه، وأما الرحمنُ، فالعاطفُ على البَرِّ والفاجرِ مِن خَلقِه، وأما الرحيمُ، فالرفيقُ بالمؤمنين خاصَّةً»[٢].

ورُوِيَ عن كعب الأحبار[٣] أنه قال: الباءُ بهاؤه، والسينُ سناؤه، فلا شيءَ أعلى منه، والميمُ مُلْكُهُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلا شيءَ يُعازُّه[٤].

وقد قيل: إنَّ كلَّ حَرْفٍ هو افتتاحُ اسمٍ من أسمائه، فالباءُ مِفتاحُ اسمه بصير، والسينُ مِفتاحُ اسمه سميع، والميمُ مِفتاحُ اسمه مليك، والألفُ مفتاحُ اسمه الله، واللاَّمُ مِفتاحُ اسمه لطيف، والهاءُ مِفتاحُ اسمه هادي، والراءُ مِفتاحُ اسمه رازق،

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٧٧.

(٢) لا أصل له.

(٣) هو كعب بن ماتع، أبو إسحاق الحميري اليماني، الحبر، كان يهوديًا، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وكان يحدِّث عن الكتب الإسرائيلية، توفي في أواخر خلافة عثمان. السير ٣/ ٤٨٩.

(٤) في (ظ): يعارضه، والخبر من الإسرائيليات.

والحاءُ مِفتاحُ اسمه حليم، والنونُ مِفتاحُ اسمه نور. ومعنى هذا كلِّه دعاءُ اللهِ تعالى عند افتتاح كلِّ شيء[1].

الثامنة والعشرون: واختُلِفَ في وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله»، فرُويَ عن أمِّ سَلَمةَ، عن النبيِّ ﷺ: «الرحيمْ الحمد» يسكِّنُ الميم، ويَقِفُ عليها، ويَبتدئ بألف مقطوعة. وقَرأ به قومٌ من الكوفيين.

وقرأ جمهورُ الناس: «الرحيمِ الحمد» تُعرَبُ «الرحيم» بالخَفضِ، وبوصلِ الألف من «الحمد».

وحكى الكِسائيُّ عن بعض العرب أنها تُقرأُ: «الرحيمَ الحمد» بفتح الميم، وصِلةِ الألف، كأنه سُكِّنَتِ الميمُ، وقُطِعَتِ الألفُ، ثم أُلقِيَتْ حركتُها على الميم، وحُذِفَتْ.

قال ابنُ عطية[2]: ولم تُرْوَ هذه قراءةً عن أحدٍ فيما عَلِمتُ. وهذا نَظَرُ يحيى بنِ زياد في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢][3].

---

(١) ليس في هذه الأقوال ما يصح.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٦٤.

(٣) معاني القرآن للفراء (وهو يحيى بن زياد) ١/ ٩.

تفسير سورة الفاتحة

بحول الله وكرمه

وفيها أربعة أبواب:

الباب الأول

في فضلها[1] وأسمائها

وفيه سبع مسائل:

الأولى: رَوى الترمذيُّ عن أُبيٍّ بن كَعْب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أَنزَلَ الله في التوراة ولا في الإنجيل مِثلَ أمِّ القرآن، وهي السَّبعُ المَثَاني، وهي مَقسُومَةٌ بَيني وبينَ عبدي، ولِعبدي ما سَأل»[2].

أخرجه[3] مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، أن أبا سعيد مولى عامر بنِ كُرَيْز أخبره أنَّ رسولَ الله ﷺ نادى أُبَيَّ بنَ كعب وهو يُصلِّي. فذكر الحديث[4].

قال ابنُ عبد البَرّ: أبو سعيد لا يُوقَفُ له على اسم، وهو معدودٌ في أهل المدينة، روايتُه عن أبي هريرة، وحديثُه هذا مُرسلٌ[5].

وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أبي سعيد بنِ المُعَلَّى ـ رجلٍ من الصحابةِ ـ لا يُوقفُ

---

(١) في (م): فضائلها.

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٥)، ورجَّح بإثره أن يكون من حديث أبي هريرة، وسيذكره المصنف قريباً.

(٣) في (م): وأخرج.

(٤) الموطأ ١/ ٨٣. وقصة أُبَيٍّ في هذا الحديث هي بنحو قصة الصحابي أبي سعيد بن المُعَلَّى الآتي ذكرها.

(٥) وقال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الفاتحة: هذا ظاهره منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أُبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه، فهو على شرط مسلم.

على اسمه أيضاً، روى[١] عنه حفص بنُ عاصم، وعُبيد بنُ حُنين[٢].

قلت: كذا قال في «التمهيد»: لا يُوقف له على اسم. وذَكر في كتاب «الصحابة»[٣] الاختلافَ في اسمه.

والحديثُ خَرَّجَهُ البخاريُّ عن أبي سعيد بن المُعَلَّى، قال: كنتُ أُصلِّي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ، فلم أُجِبْهُ، فقلتُ: يا رسول الله، إني كنتُ أُصلِّي، فقال: «ألم يقُلِ الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾»؟ [الأنفال: ٢٤]. ثم قال لي[٤]: «لأُعَلِّمَنَّكَ سورةً هِيَ أعظمُ السُّوَرِ في القرآنِ قَبلَ أن تَخرُجَ من المسجد»، ثم أخذَ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلتُ له: ألم تقل: لأُعلِّمَنَّكَ سُورةً هي أعظمُ سورة في القرآن؟ قال: «الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين، هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه»[٥].

قال ابنُ عبد البَرِّ[٦] وغيرُه: أبو سعيد بنُ المُعَلَّى مِن جِلَّةِ الأنصار، وسادات الأنصار، تفرَّد به البخاريُّ[٧]، واسمُه رافع، ويقال: الحارثُ بنُ نُفَيع بنِ المُعَلَّى[٨]،

---

(١) في النسخ الخطية و(م): رواه، والمثبت من التمهيد ٢٠/ ٢١٧.

(٢) تَحرف «عُبيد بن حنين» في النسخ الخطية إلى: «سعيد بن جبير». وتحرَّف كذلك في التمهيد ٢٠/ ٢١٧، وقد نقل عنه المصنف، وجاء على الصواب في الاستيعاب ١١/ ٢٧٩ (بهامش الإصابة). حَفص بنُ عاصم - وهو ابنُ عمر بن الخطاب - روى عن أبي سعيد بن المُعَلَّى الحديثَ في فضل الفاتحة، وقد أشار إليه المصنف، أما عُبيد بن حُنَين، فقد روى عنه حديثَ تحويلِ القبلة. ذكر ذلك ابنُ عبد البَر في الاستيعاب.

(٣) يعني كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١١/ ٢٧٩ بهامش الإصابة.

(٤) في النسخ الخطية و(م): إني، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٤٤٧٤) وهو من أفراده، وهو في مسند أحمد (١٥٧٣٠). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ١٥٧: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلَّى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين واختلاف سياقهما.

(٦) في الاستيعاب في ترجمة أبي سعيد بن المعلَّى.

(٧) يعني دون مسلم، وليس لأبي سعيد بن المعلى في صحيح البخاري سوى هذا الحديث.

(٨) سماه ابن حبان في الثقات ٣/ ١٢٢ وصحيحه ٣/ ٥٧ (الإحسان): رافع بن المُعَلَّى. قال ابن عبد البَرّ في الاستيعاب: ومن قال: هو رافع بن المُعلَّى فقد أخطأ، لأنَّ رافع بن المعلَّى قُتل ببدر، وأصح ما قيل - والله أعلم - في اسمه: الحارث بن نُفَيع بن المعلى.

ويقال: أَوسُ بنُ المُعَلَّى، ويقال: أبو سعيد بنُ أوس [بنِ المُعَلَّى][١]، توفِّي سنة أربع وسبعين، وهو ابنُ أربع وستين[٢]. وهو أوَّلُ مَن صلَّى إلى القِبلة حين حُوِّلَت. وسيأتي[٣].

وقد أسندَ حديثَ أُبيٍّ يزيدُ بنُ زُرَيع، قال: حدثنا رَوحُ بنُ القاسم، عن العلاءِ بنِ عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هُريرة، قال: خرج رسولُ الله ﷺ على أُبَيٍّ وهو يصلي. فذكر الحديث بمعناه[٤].

وذكر ابنُ الأنباريِّ في كتاب «الرد» له: حدَّثني أبي، حدَّثني أبو عبيد الله الورَّاقُ، حدَّثنا أبو دَاود، حدَّثنا شَيبان، عن منصور، عن مجاهد قال: إنَّ إبليسَ لعنه الله رَنَّ أَربعَ رَنَّات: حين لُعِنَ، وحين أُهبِطَ من الجنَّةِ، وحين بُعِثَ محمدٌ ﷺ، وحينَ نَزَلَت فاتحةُ الكتابِ، وأُنزِلت بالمدينة[٥].

الثانية: اختلفَ العلماءُ في تفضيل بعضِ السورِ والآيِ على بعض، وتفضيلِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) والاستيعاب.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (في ترجمته): وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبي ﷺ وهو صغير، وسياقُ الحديث يأبى ذلك. اهـ. وجاء في تهذيب التهذيب عن ابن عبد البر أيضاً أنه توفي سنة أربع وسبعين، وهو ابن أربع وثمانين سنة.

(٣) في تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة.

(٤) أخرجه من هذه الطريق النسائي في الكبرى (١١١٤١)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٩٣٤٥) وغيرُه من وجه آخر عن العلاء. وينظر ما ذكره الحافظ في فتح الباري ٨/ ١٥٧ من الاختلاف فيه على العلاء.

(٥) إسناده صحيح إلى مجاهد. أبو عُبيد الله الورَّاق: هو حمَّاد بنُ الحسن، وأبو داود: هو سليمان بن داود الطيالسي، وشَيبان: هو ابنُ عبد الرحمن التميميُّ النحويُّ، ومنصور: هو ابنُ المُعتَمِر. وكلهم ثقات، وهم من رجال التهذيب.

وأورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥، وزاد نسبته إلى وكيع. وسيذكرالمصنف ص ١٧٧ أن الأصح فيها أنها مكية. ونقل الفخر الرازي في تفسيره ١/ ١٧٧ عن الحسين بن الفضل البجلي قوله: لكل عالم هفوة، وهذه هفوة مجاهد، لأن العلماء على خلافه. ويدل عليه وجهان: الأول: أن سورة الحجر مكية بالاتفاق، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهي فاتحة الكتاب. الثاني: أنه يبعد أن يقال: إنه أقام بمكة بضع عشرة سنة بلا فاتحة الكتاب.

بعض أسماء الله تعالى الحُسنى على بعض، فقال قوم: لا فضلَ لبعض على بعض، لأنَّ الكلامَ كلامُ الله، وكذلك أسماؤه؛ لا مُفاضلةَ بينها. ذهب إلى هذا الشيخُ أبو الحسن الأشعريُّ[(١)] والقاضي أبو بكر بنُ الطيِّب، وأبو حاتم محمد بن حِبَّان البُستيُّ، وجماعةٌ من الفقهاء. ورُوي معناهُ عن مالك. قال يحيى بنُ يحيى[(٢)]: تفضيلُ بعضِ القرآنِ على بعض خطأ. وكذلك كَرِهَ مالكٌ أن تُعادَ سورةٌ، أو تُرَدَّدَ دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ قال: مُحكَمَةٌ مكان منسوخة. وروى ابنُ كِنانة[(٣)] مِثلَ ذلك كلِّه عن مالك. واحتجَّ هؤلاء بأن قالوا: إنَّ الأفضلَ يُشعر بنقص المفضول، والذاتيةُ في الكلِّ واحدة، وهي كلامُ الله، وكلامِ الله تعالى لا نَقصَ فيه.

قال البُستيُّ[(٤)]: ومعنى هذه اللفظة: «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثلُ أُمِّ القرآن»: أنَّ الله تعالى لا يُعطي لِقارئ التوراة والإنجيل مِثلَ ما يُعطي لقارئ أُمِّ القرآن، إذِ الله بِفضله فَضَّلَ هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، إمام المتكلمين، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعريِّ. قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٥/٨٦: كان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يردُّ عليهم . . . مات سنة أربع وعشرين وثلاث مئة، حطَّ عليه جماعة من الحنابلة والعلماء، وكلُّ أحد يؤخذ من قوله ويُترك، إلا من عصم الله. ونقل الذهبي عنه قوله لما قَرُبَ حضور أجله: إني لا أكفر أحدا من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات. فقال الذهبي: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابنُ تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفِّر أحداً من الأمة، ويقول: قال النبي ﷺ: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم.

(٢) يحيى بن يحيى بن كثير بن وِسلاس، فقيه الأندلس، أبو محمد الليثيُّ البربريُّ القرطبيُّ، ارتحل إلى المشرق في أواخر أيام الإمام مالك، وسمع منه الموطأ، ثم رجع إلى الأندلس بعلم كثير، فعادت فتيا الأندلس عليه، وانتهى السلطان والعامة إلى رأيه. توفي سنة (٢٣٤هـ). السير ١٠/ ٥١٩.

(٣) أبو عمر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن كنانة اللخمي القرطبي، المحدث، ويعرف أيضاً بابن العنَّان. توفي سنة (٣٨٣هـ). السير ١٦/ ٤٢٥.

(٤) هو ابن حبان، وكلامه هذا في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، عقب الحديث (٧٧٥).

قراءة القرآن كلامِهِ أكثرَ[١] مما أعطى غيرَها من الفَضل على قراءة كلامه، وهو فَضلٌ منه لهذه[٢] الأمة.

قال: ومعنى قوله: «أعظمُ سورة»: أراد به: في الأجر، لا أنَّ بعضَ القرآنِ أفضلُ من بعض[٣].

وقال قوم بالتفضيل، وأنَّ ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وآيةُ الكُرسيِّ، وآخِرُ سورةِ الحَشر، وسورة الإخلاص، من الدَّلالات على وَحدانيته وصفاته ليس موجوداً مَثَلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مِثلها.

والتفضيلُ إنما هو بالمعاني العجيبة وكَثْرتِها، لا مِن حيث الصِّفةُ، وهذا هو الحقُّ. وممَّن قال بالتفضيل إسحاقُ بنُ راهَوَيه، وغيرُه من العلماء والمتكلِّمين، وهو اختيارُ القاضي أبي بكر ابن العربيِّ، وابنِ الحصَّار، لحديث أبي سعيد بن المُعَلَّى، وحديث أُبَيِّ بنِ كعب أنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أُبيُّ، أيُّ آية مَعَكَ في كتاب الله أعظمُ؟» قال: قلت: يارسول الله، اللهُ ورسولهُ أعلمُ، فقال: «يا أُبيّ، أتدري أيَّ آية في كتاب الله معك أعظم[٤]؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال «لِيَهنِكَ العِلمُ يا أبا المُنذِر». أخرجه البخاريُّ ومسلم[٥]. قال ابن الحصَّار: عَجَبي ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص.

وقال ابن العربي: قوله: «ما أنزلَ الله في التوراةِ ولا في الإنجيل ولا في القرآن

---

(١) في (د): أفضل.

(٢) في (ز): على هذه.

(٣) الإحسان عقب الحديث (٧٧٧).

(٤) قوله: قال: قلت: يارسول الله، الله ورسوله أعلم ... إلى هذا الموضع، من (ظ).

(٥) حديث أُبيّ أخرجه مسلم (٨١٠)، وليس هو في صحيح البخاري. قال أبو العباس القُرطبي (شيخ المصنف) في المُفهم: ٤٣٦/٢: قوله لأُبيّ حين أخبره بذلك: «لِيَهنِكَ العلم»؛ تنشيطٌ له، وترغيبٌ في أن يزداد علماً وبصيرة، وفرحٌ بما ظهرَ عليه من آثاره المباركة، وفيه إلقاء العالم المسائلَ على المتعلم ليختبره بذلك.

مثلَها» وسكتَ عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها؛ لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيءُ أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكُلّ، كقولك: زيدٌ أفضلُ العلماء، فهو أفضلُ الناس.

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل: إنَّ جميع القرآنِ فيها، وهي خمسٌ وعشرون كلمة، تضمَّنت جميعَ علومِ القرآن.

ومِن شرفِها أنَّ الله سبحانه قَسَمَها بينَه وبينَ عبدِه[1]، ولا تَصِحُّ القُربَةُ إلا بها، ولا يَلحَقُ عملٌ بثوابها، وبهذا المعنى صارت أُمَّ القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن[2]، إذ القرآن توحيد وأحكام، ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيدُ كلُّه. وبهذا المعنى وقع البيانُ في قوله عليه السلام لأُبيٍّ: «أيُّ آيةٍ في القرآنِ أعظمُ؟» قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وإنما كانت أعظمَ آية، لأنها توحيدٌ كُلُّها، كما صار قولُه: «أفضَلُ ما قلتُه أنا والنَّبِيُّون من قبلي: لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له»[3] أفضلَ الذِّكر، لأنها كلماتٌ[4] حَوَت جميعَ العلوم في التوحيد. والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يُستبعد ذلك في قدرة الله تعالى.

الثالثة: رُوِيَ عن علي[5] بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله عز وجل: قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي» وسلف ص ١٤٥.

(٢) حديث: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»: جاء من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١٠٥٣)، والبخاري (٥٠١٣)، ومن حديث أبي الدرداء عند مسلم (٨١١)، ومن حديث أبي هريرة عنده أيضاً (٨١٢).

(٣) أخرجه مالك ١/ ٢١٤-٢١٥ عن زياد بن أبي زياد، عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز مرسلاً، وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من طريق محمد بن أبي حميد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وقال: غريب من هذا الوجه، ومحمد بن أبي حميد ليس بالقوي عند أهل الحديث. وأخرج الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٩٩)، والحاكم ١/ ٥٠٣ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وصححه ابن حبان (٨٤٦).

(٤) في (ظ): كلمة.

(٥) في (م): روى علي.

«فاتحةُ الكتاب، وآيةُ الكُرسيِّ، وشَهِدَ الله أنَّه لا إله إلَّا هو، وقُلِ اللهمَّ مَالِكَ المُلكِ[١]؛ هذه الآياتُ مُعلَّقاتٌ بالعرشِ، ليس بينهنَّ وبين الله حجابٌ»[٢]. أسنده أبو عَمرو الدَّانيُّ في كتاب «البيان» له.

الرابعة: في أسمائها، وهي اثنا عشرَ اسماً:

الأول: الصلاةُ، قال الله تعالى: «قَسَمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ» الحديث. وقد تقدَّم[٣].

الثاني: الحمدُ؛ لأنَّ فيها ذِكْرَ الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

الثالث: فاتحةُ الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسُمِّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءةُ القرآن بها لفظاً، وتُفتتح بها الكتابةُ في المُصحف خطًّا، وتُفتتح بها الصلوات.

الرابع: أمُّ الكتاب، وفي هذا الاسم خلافٌ، جوَّزه الجمهور، وكَرِهَه أنس، والحسن، وابنُ سِيرِين. قال الحسن: أمُّ الكتاب: الحلالُ والحرام، قال الله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. وقال أنس وابنُ سِيرِين: أمُّ الكتاب: اسمُ اللوح المحفوظ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: ٤].

الخامس: أمُّ القرآن، واختُلف فيه أيضا، جوَّزه الجمهور، وكَرِهَهُ أنس، وابنُ سِيرِين. والأحاديثُ الثابتة تردُّ هذين القولين. روى الترمذيُّ عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ لله أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسَّبعُ المثاني». قال: هذا حديث حسن صحيح[٤]. وفي البخاريِّ قال: وسُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنه يُبتدأُ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة[٥]. وقال

---

(١) الآيات المذكورة هي على الترتيب في سورة البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ١٨ و ٢٦.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابنُ السُّنِّي في عمل اليوم والليلة (١٢٥)، وفي إسناده الحارث بن عمير؛ قال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٢٣: كان ممن يروي عن الأثبات الأشياء الموضوعات. وساق له هذا الحديث، وقال: موضوع لا أصل له.

(٣) ص١٤٥، وأشار إليه المصنف في المسألة الثانية.

(٤) سنن الترمذي (٣١٢٤)

(٥) صحيح البخاري، أول كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب. فتح الباري ٨/ ١٥٥.

يحيى بنُ يَعْمَر[١]: أمُّ القُرى: مكة، وأمُّ خراسان: مَرْو، وأمُّ القرآن سورةُ الحمد. وقيل: سُمِّيت أمَّ القرآن لأنها أوَّلُه، ومتضمِّنةٌ لجميع علومه، ومنه سُمِّيت مكةُ أمَّ القُرى؛ لأنها أوَّلُ الأرض، ومنها دُحِيَت، ومنه سُمِّيت الأمُّ أُمًّا لأنها أصلُ النَّسْلِ، والأرضُ أُمًّا في قول أميةَ بنِ أبي الصَّلت:

فالأرضُ مَعقِلُنا وكانت أُمَّنا ... فيها مقابِرُنا وفيها نُولَدُ[٢]

ويقال لراية الحرب: أمٌّ، لِتقدُّمها، واتِّباعِ الجيش لها.

وأصل أمّ: أُمَّهَةٌ، ولذلك يُجمع على أُمَّهات[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ويقال: أُمَّاتٌ، بغير هاء. قال:

فَرَجْتَ الظَّلامَ بأُمَّاتِكا[٤]

وقيل: إنَّ أُمَّهات في الناس، وأُمَّات في البهائم. حكاه ابنُ فارس في «المُجمل»[٥].

السادس: المَثَانِي، سُمِّيت بذلك لأنها تُثَنَّى في كلِّ ركعة، وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها استُثْنِيت لهذه الأمَّة، فلم تنزل على أحد قبلَها ذُخراً لها.

السابع: القرآنُ العظيم، سُمِّيَت بذلك لتضمُّنها جميعَ علومِ القرآن، وذلك أنها تشتملُ على الثَّناءِ على الله عزَّ وجلَّ[٦] بأوصاف كمالِه وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات، والإخلاص فيها، والاعترافِ بالعَجْز عن القيام بشيءٍ منها إلا بإعانته

---

(١) هو الفقيه المقرئ أبو سليمان العَدْواني البصري، قاضي مرو، ويكنى أبا عدي، الفقيه المقرئ، توفي قبل التسعين. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤١.

(٢) البيت في ديوانه ص ٣٥٦ القصيدة العاشرة.

(٣) الصحاح (أمم).

(٤) عجز بيت، صدره: إذا الأُمَّهاتُ قَبَحْنَ الوجوه؛ أورده الزمخشري في المفصَّل ١٠/ ٣ شرح ابن يعيش، والاستراباذي في شرح الشافية ٢/ ٣٨٣، وابن منظور في اللسان (أمم)، والشنقيطي في الدرر اللوامع ١/ ٨٤.

(٥) ١/ ٨١. وابن فارس: هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني، المالكي، اللغويُّ المحدِّث، توفي سنة (٣٩٥هـ). السير ١٧/ ١٠٣.

(٦) في (د): تشمل الثناء على الله عز وجل.

تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصِّراط المستقيم، وكفايةِ أحوال الناكثين، وعلى بيانِ عاقبةِ الجاحدين.

الثامن: الشِّفاء، روى الدَّارِميُّ[١] عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحةُ الكتاب شِفاءٌ مِن كلِّ سُمٍّ»[٢].

التاسع: الرُّقية؛ ثَبَتَ ذلك من حديث أبي سعيد الخُدري، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ قال للرجل الذي رَقَى سَيِّدَ الحيِّ: «ما أدْرَاكَ أنَّها رُقيةٌ»؟ فقال: يا رسولَ الله، شيءٌ أُلقِيَ في رُوعِي. الحديث خرَّجه الأئمة[٣]، وسيأتي بتمامه[٤].

العاشر: الأساسُ، شكا رجلٌ إلى الشَّعبيِّ وَجَعَ الخاصِرة، فقال: عليك بأساس القرآن؛ فاتحةِ الكتاب، سمعتُ ابنَ عباس يقول: لكلِّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الدنيا مكة؛ لأنها منها دُحِيَتْ، وأساسُ السماوات غريبٌ، وهي السماء السابعة، وأساسُ الأرض عجيبٌ[٥]، وهي الأرضُ السابعة السفلى، وأساسُ الجنان جنةُ عَدْن، وهي سُرَّةُ الجِنان، عليها أُسِّسَت الجنة، وأساسُ النار جهنَّم، وهي الدَّرَكَةُ السابعة السفلى، عليها أُسِّسَت الدَّرَكاتُ، وأساس الخلق آدم، وأساسُ الأنبياء نوح، وأساسُ بني إسرائيل يعقوب، وأساسُ الكُتب القرآن، وأساسُ القرآن الفاتحة، وأساسُ الفاتحة بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، فإذا اعتللتَ، أو اشتكيتَ، فعليكَ بالفاتحة تُشفَى[٦].

---

(١) في (د): الدارقطني، وليس الخبر في سننه.

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٧٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٧٠) من طريق سفيان الثوري، عن عبد الملك بن عمير، مرسلاً. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٧٨) (التفسير) ـ ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٢٣٦٨) ـ عن سلام الطويل، عن زيد العَمِّي، عن ابن سيرين، عن أبي سعيد الخدري. وسلام الطويل ـ وهو ابن سُليم ـ متروك. وليس هذا الحديث في سنن الدارمي من حديث أبي سعيد الخدري كما ذكر المؤلف.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٩٨٥)، والبخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٤) عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الإسراء.

(٥) في النسخ: غريباً... عجيباً.

(٦) أورد صدره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣، ونسبه للثعلبي .وقد ذكر ابن كثير في البداية ١٢/ ٤٠ أن في كتب الثعلبي من الغرائب الشيء الكثير.

الحادي عشر: الوافية. قاله سفيانُ بنُ عيينة[١]؛ لأنها لا تَتَنصَّف، ولا تَحتمل الاختزالَ، ولو قرأ من سائر السور نصفَها في ركعة، ونصفَها الآخر في ركعة، لأجزأ، ولو نُصِّفت الفاتحةُ في ركعتين لم يُجْزِ.

الثاني عشر: الكافية، قال يحيى بنُ أبي كثير: لأنها تكفي عن سِواها، ولا يكفي سِواها عنها[٢]، يدلُّ عليه ما روى محمد بنُ خلَّاد الإسكندرانيُّ قال: قال النبيُّ ﷺ[٣]: «أُمُّ القرآنِ عِوَضٌ من غيرها، وليس غيرها منها عِوَضاً[٤]».

الخامسة: قال المهلَّب: إن موضع الرُّقية منها إنما هو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقيل: السورةُ كلها رُقْيَة، لقوله عليه الصلاة والسلام للرجل لما أخبره: «وما أدراكَ أنَّها رُقْيةٌ»[٥]؟ ولم يقل: إنَّ فيها رُقيةً. وعلى هذا فالسورة[٦] بأجمعها رُقيَةٌ؛ لأنها فاتحةُ الكتاب ومبدؤه، ومتضمِّنةٌ لجميع علومه، كما تقدَّم. والله أعلم.

السادسة: ليس في تسميتها بالمثاني وأمِّ الكتاب ما يمنعُ من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مَثانيَ؛ لأن الأخبار تُثَنَّى فيه. وقد سُمِّيت السبعُ الطِّوال أيضاً مَثانيَ؛ لأن الفرائض والقَصَصَ تُثَنَّى فيها. قال ابن عباس: أُوتِيَ رسولُ الله ﷺ سَبعاً من المثاني، قال: السبع الطوال. ذكره النَّسائي[٧]، وهي من البقرة إلى الأعراف ستٌّ، واختلفوا في السابعة، فقيل:

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/٣، ونسبه للثعلبي.

(٢) ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/٣ أنه أخرجه الثعلبي، عن عفيف بن سالم قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير. وذكره من قوله، لا من قول أبيه يحيى.

(٣) الحديث من رواية محمد بن خلَّاد الإسكندراني، عن أشهب بن عبد العزيز، عن سفيان بن عيينة، عن ابن شهاب، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، مرفوعاً. وهو عند الدارقطني في السنن ١/ ٣٢٢، والحاكم ١/ ٢٣٨. ومحمد بن خلاد مجهول، قال الذهبي في الميزان: لا يُدرى من هو، ثم ذكر له هذا الحديث، وقال: انفرد بهذا الخبر، ونقل عن الدارقطني قوله: المحفوظ عن الزهري بهذا السند: «لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بأمِّ القرآن».

(٤) في (د): عوضا منها.

(٥) سلف تخريجه في الصفحة السابقة، وسيأتي بتمامه عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الإسراء.

(٦) في (م): فدلَّ هذا على أن السورة.

(٧) المجتبى ٢/١٣٩ ـ ١٤٠، والكبرى (٩٨٩) و(٩٩٠).

يونس، وقيل: الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جُبير. وقال أعشى هَمْدان[١]:

فَلِجُوا المَسجِدَ وَادْعُوا رَبَّكم وادْرُسوا هذي المَثاني والطُّوَلْ

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة الحِجر[٢]، إن شاء الله تعالى.

السابعة: المثاني جمع مَثْنَى، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطُّوَل جمع أطوَل. وقد سُميت الأنفال من المثاني؛ لأنها تتلو الطُّوَلَ في القَدر، وقيل: هي التي تزيدُ آياتُها على المفصَّل، وتنقُص عن المِئِين. والمِئون: هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مئة آية.

الباب الثاني

في نزولها وأحكامها

وفيه عشرون مسألة:

الأولى: أجمعت الأمَّةُ على أن فاتحة الكتاب سبعُ آيات، إلا ما رُوي عن حُسين الجُعفي[٣] أنها ستٌّ، وهذا شاذٌّ. وإلا ما رُوي عن عَمرو بن عبيد[٤] أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على هذا ثمانِ آيات، وهذا شاذ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]، وقولُه: «قَسَمْتُ الصلاةَ» الحديث[٥] يردُّ هذين القولين. وأجمعت الأمة أيضاً على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت قرآناً، لأثبتها عبدُ الله بن مسعود في مصحفه، ولمَّا لم يُثبِتْها، دلَّ على أنَّها ليست من القرآن، كالمعوِّذتين عنده.

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، أبو المصبِّح، كوفي، من شعراء الدولة الأموية، خرج مع ابن الأشعث، فقتله الحجّاج سنة نيف وثمانين. السير ٤/ ١٨٥.

(٢) عند تفسير الآية (٨٧) منها.

(٣) هو حسين بن علي بن الوليد، أبو عبد الله وأبو محمد الجعفي مولاهم، الكوفي، الحافظ المقرىء الزاهد، توفي سنة (٢٠٣هـ). السير ٩/ ٣٩٧.

(٤) أبي عثمان البصري، كبير المعتزلة، قال ابن المبارك: دعا إلى القدر فتركوه. توفي سنة (١٤٣هـ). السير ٦/ ١٠٤.

(٥) سلف ذكره ص ١٤٥.

الجواب ما ذكره الإمام أبو بكر الأنباري قال: حدَّثنا الحسن بنُ الحُباب، حدثنا سليمانُ بنُ الأشعث، حدَّثنا ابنُ أبي قُدامة، حدَّثنا جَرير، عن الأعمش، قال: أظنُّه عن إبراهيم، قال: قيل لعبد الله بنِ مسعود: لِمَ لَم تكتب فاتحةَ الكتاب في مصحفِك؟ قال: لو كتبتُها؛ لكتبتُها مع كلِّ سورة[1]. قال أبو بكر: يعني أن كلَّ ركعة سبيلُها أن تُفتتح بأمِّ القرآن قبلَ السورة المتلوَّة بعدها، فقال: اختَصرتُ بإسقاطها، ووَثِقْتُ بحفظ المسلمين لها، ولم أُثبتْها في موضع، فيَلزمني أن أكتبَها مع كلِّ سورة، إذ كانت تتقدَّمها في الصلاة.

الثانية: اختلفوا؛ هل هي[2] مكية أم مدنية؟ فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية الرِّياحي ـ واسمه رُفَيع ـ وغيرُهم: هي مكية. وقال أبو هريرة، ومجاهد، وعطاء بنُ يسار، والزُّهريُّ، وغيرهم: هي مدنية. ويقال: نَزَلَ نصفُها بمكة، ونصفُها بالمدينة. حكاه أبو الليث نصرُ بن محمد بن إبراهيم السَّمرقَنديُّ في «تفسيره». والأولُ أصحُّ، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، والحِجْر مكيةٌ بإجماع. ولا خلاف أن فرضَ الصلاة كان بمكة، وما حُفِظ أنه كان في الإسلام قطُّ صلاةٌ بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. يدل على هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا صلاةَ إلا بفاتحةِ الكتاب»[3]. وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء، والله أعلم.

وقد ذكر القاضي ابنُ الطيب اختلافَ الناس في أوّل مانَزل من القرآن، فقيل: المدَّثِّر، وقيل: اِقرأ، وقيل: الفاتحة.

وذكر البيهقيُّ[4] في «دلائل النبوة»: عن أبي مَيسَرةَ عمرِو بن شُرَحبيل أنَّ رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خَلَوتُ وَحدِي، سَمعتُ نداءَ، وقد ـ والله ـ خَشِيتُ أن يكونَ هذا أمراً». قالت: مَعاذَ الله، ما كان الله ليفعلَ بك، فوالله إنَّكَ

---

(١) أورد السيوطي نحوه في الدر المنثور ١/ ٢، ونسبه إلى عبد بن حميد.

(٢) في (م): أهي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت، وينظر حديث أبي هريرة في مسند أحمد (٩٥٢٩) و(٩٨٩٨)، وحديث أبي سعيد الخدري فيه أيضا (١٠٩٩٨).

(٤) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي صاحب السنن وغيرها من التصانيف النافعة، جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث. توفي (٤٥٨هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٦٣.

لَتُؤدِّي الأمانة، وتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدُقُ الحديثَ. فلما دخل أبو بكر، وليس رسولُ الله ﷺ ثَمَّ، ذكرت خديجةُ حديثَه له، قالت: يا عَتِيق، اِذهب مع محمد إلى وَرَقَةَ[1] فلما دخلَ رسولُ الله ﷺ، أخذ أبو بكر بيده، فقال: اِنطلق بنا إلى وَرَقَةَ، فقال: ومن أخبرك ؟! قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصَّا عليه، فقال: «إذا خَلَوتُ وحدي، سمعتُ نداءً خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنطلقُ هارباً في الأرض». فقال: لا تفعل، إذا أتاك، فاثْبُتْ حتى تسمعَ ما يقول، ثم ائْتِنِي فأخبرني. فلما خلا، ناداه: يا محمد، قُل: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِين﴾ حتى بلغ: ﴿ولا الضَّالِّين﴾ قال: قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقةَ، فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أَبْشِر، ثم أَبْشِر، فأنا أشهدُ أنكَ الذي بَشَّرَ به عيسى ابنُ مريم، وأنك على مِثل ناموسِ موسى، وأنكَ نبيٌّ مُرسَل، وأنك سوف تُؤمر بالجهاد بعد يومِك هذا، وإن يُدرِكْني يومك[2] ذلك، لأُجاهدنَّ معك. فلما تُوفِّي وَرَقَةُ، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُ القَسَّ في الجنَّةِ، عليه ثيابُ الحرير، لأنَّه آمَنَ بي وصدَّقَني». يعني ورقة.

قال البيهقيُّ رضي الله عنه: هذا منقطعٌ. يعني هذا الحديث. فإن كان محفوظاً، فيحتمل أن يكونَ خبراً عن نزولها بعد ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[3]..

الثالثة: قال ابنُ عطيَّة: ظنَّ بعضُ العلماءِ أنَّ جبريلَ عليه السلام لم يَنزلْ بسورة الحمد، لما رواه مسلمٌ عن ابنِ عباس قال: بينما جبريلُ قاعدٌ عندالنبيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضاً من فَوقِه، فرفَعَ رأسَهُ، فقال: «هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليومَ، لم يُفتَحْ قَطُّ، إلا اليومَ، فَنَزَلَ منه ملكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرض، لم يَنزِلْ قَطُّ إلا اليومَ، فسَلَّمَ وقال: أَبشِر بِنُورَينِ أُوتِيتَهما، لم يُؤتَهُما نَبِيٌّ قَبلَكَ: فاتحةِ الكتاب، وخواتيمِ سُورةِ البقرة، لَن تَقرَأَ بحرف منهما، إلا أُعطِيتَهُ»[4].

---

(١) ابن نوفل، ابن عم خديجة رضي الله عنها، كان في الجاهلية نصرانياً، ومات مسلماً قبل أن يدعو رسول الله ﷺ الناس. الإصابة ١٠/ ٣٠٤.

(٢) لفظ «يومك» من (ظ)، وفي (د) و(ز): ولئن أدركني.

(٣) دلائل النبوة ٢/١٥٨، وقد بيَّن البيهقيُّ علته.

(٤) صحيح مسلم (٨٠٦).

قال ابنُ عطيَّة[١]: وليس كما ظَنَّ، فإنَّ هذا الحديثَ يَدُلُّ على أنَّ جبريلَ عليه السلام تقدَّمَ الملكَ إلى النبيِّ ﷺ مُعلِماً به، وبما يَنزِلُ معه، وعلى هذا يكونُ جبريلُ شاركَ في نزولِها. والله أعلم.

قلت: الظاهرُ من الحديث يدلُّ على أنَّ جبريلَ عليه السلام لم يُعلِم النبيَّ ﷺ بشيء من ذلك. وقد بَيَّنَّا أنَّ نزولَها كان بمكَّةَ، نزلَ بها جبريلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وهذا يقتضي جميعَ القرآن، فيكون جبريلُ عليه السلام نزلَ بتلاوتها بمكَّةَ، ونزل المَلَكُ بثوابها بالمدينةِ، والله أعلم. وقد قيل: إنها مَكِّيَّةٌ مَدَنيَّةٌ، نزلَ بها جبريلُ مرتين. حكاه الثعلبيُّ[٢]. وما ذكرناه أولى، فإنه جمعَ بين القرآنِ والسُّنةِ، ولله الحمدُ والمِنَّة.

الرابعة: قد تقدَّمَ أنَّ البسملةَ ليسَت بآية منها على القول الصحيح، وإذا ثبتَ ذلك، فحُكمُ المصلِّي إذا كبَّرَ أن يَصِلَهُ بالفاتحة، ولا يَسكُتَ، ولا يذكُرَ توجيهاً ولا تسبيحاً، لحديث عائشةَ وأنس المتقدِّمَين[٣] وغيرِهما. وقد جاءت أحاديثُ بالتوجيهِ والتسبيحِ والسُّكوت، قال بها جماعةٌ من العلماء. فرُوِيَ عن عمرَ بن الخطَّاب، وعبدِ الله بن مسعود، رضي الله عنهما، أنهما كانا يقولان إذا افتَتَحا الصلاةَ: سُبحانك اللهمَّ وبحمدِك، تَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلهَ غيرُك[٤]. وبه قال سفيانُ، وأحمدُ، وإسحاقُ، وأصحابُ الرأي[٥]. وكان الشافعيُّ يقول بالذي رُوِيَ عن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ، أنه كان إذا افتَتَحَ الصلاةَ، كَبَّرَ، ثم قال: «وَجَّهتُ وَجهِيَ».

(١) لم نجد قول ابن عطية هذا، ولا الذي قبله في تفسيره.

(٢) هو أحمد بنُ محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق النيسابوري، له كتاب التفسير الكبير قال ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ٧٦: والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطبَ ليل، ينقلُ ما وجدَ في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع. وقال ابنُ كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٤٠: يوجد في كتبه من الغرائب شيء كثير .اهـ. توفي سنة (٤٢٧هـ). وينظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٥.

(٣) في المسألة الخامسة ص١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) حديث عمر أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٥٥٧)، ومسلم (٣٩٩)، وحديث ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق أيضاً في المصنف (٢٥٥٨).

(٥) معالم السنن ١/ ١٩٧.

الحديث، ذكره مسلمٌ[١]، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام، وهناك يأتي القولُ في هذه المسألةِ مستوفًى إن شاء الله.

قال ابنُ المنذر[٢]: ثبت أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا كبَّرَ في الصلاة، سكتَ هُنَيْهَة قبل أن يقرأَ، يقول: «اللهمَّ باعِدْ بيني وبين خطايايَ، كما باعَدْتَ بين المشرق والمغرب، اللهمَّ نَقِّنِي من خطايايَ، كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، اللَّهمَّ اغْسِلْني من خطايايَ بالماء والثَّلج والبَرَدِ»[٣]. واستعمل ذلك أبو هريرةَ. وقال أبو سَلَمةَ بنُ عبد الرحمن[٤]: للإمام سكتتان، فاغتنموا فيهما القراءَةَ[٥]. وكان الأوزاعيُّ وسعيدُ بن عبد العزيز[٦] وأحمدُ بنُ حنبل يميلون إلى حديث النبيِّ ﷺ في هذا الباب.

الخامسة: واختلف العلماءُ في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، فقال مالكٌ وأصحابُه: هي مُتعيِّنةٌ للإمام والمنفرد في كلِّ ركعة.

قال ابن خُويزمَنْدَاد[٧] البصري المالكي: لم يَختلِفْ قولُ مالك: أنه مَن نَسِيَها في ركعة[٨] من صلاة ركعتين، أنَّ صلاتَه تبطُل، ولا تَجزيه. واختلف قولُه فيمن تركها

---

(١) صحيح مسلم (٧٧١)، وهو في مسند أحمد (٧٢٩).

(٢) محمد بن إبراهيم أبو بكر النيسابوري، الحافظ، الفقيه، نزيل مكة، صاحب الأوسط والإشراف، وغيرهما. توفي سنة (٣١٨هـ). قال الذهبي في السير ١٤/ ٤٩٢: ولابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضاً.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة، وهو في المسند (٧١٦٤).

(٤) ابن عوف الزُّهري، أحد الفقهاء السبعة، قيل: اسمه عبد الله، وقيل إسماعيل، مات سنة (٩٤هـ). السير ٤/ ٢٨٧.

(٥) ذكره البيهقي في القراءة خلف الإمام ص ٤٦.

(٦) هو أبو محمد التنوخي، مفتي دمشق، توفي سنة (١٦٧هـ). السير ٨/ ٣٢.

(٧) في (د) و(ظ): خواز بنداد، وفي (ز): خواز منداذ، والمثبت من (م). وقيَّده الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء ٤/ ١٤١، فقال: بضم الخاء المعجمة وفتح الواو المخففة، وسكون الياء المثناة التحتية، وزاي معجمة ساكنة ومكسورة وميم مفتوحة أو مكسورة. قال: وروي بباء موحدة بدلها، ثم نون ساكنة، فذالين معجمتين بينهما ألف، وقيل: الأولى مهملة. اهـ. وهو محمد بن أحمد بن عبد الله، له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن. توفي نحو (٣٩٠هـ). الوافي بالوفيات ٢/ ٥٢، والديباج المذهب ٢/ ٢٢٩.

(٨) في (م): في صلاة ركعة.

ناسياً في ركعة من صلاةٍ رُباعيَّة أو ثُلاثيَّة، فقال مرَّة: يُعيد الصلاةَ، وقال مرَّةً أخرى: يسجدُ سجدتي السهو، وهي روايةُ ابنِ عبد الحكم[(١)] وغيرِه عن مالك. قال ابن خُوَيز مَنداد: وقد قيل: إنه يُعيدُ تلك الركعةَ، ويسجدُ للسهو بعد السلام.

قال ابن عبد البَرّ: الصحيحُ من القول إلغاءُ تلك الركعة، ويأتي بركعة بدلاً منها، كمن أسقط سجدة سواء[(٢)]. وهو اختيارُ ابنِ القاسم.

وقال الحسنُ البصري وأكثرُ أهل البصرة والمغيرةُ بن عبد الرحمن المخزومي المدني[(٣)]: إذا قرأ بأُمّ القرآن مرَّةً واحدةً في الصلاة، أجزأه، ولم يكن عليه إعادةٌ، لأنها صلاةٌ قد قرأ فيها بأُمّ القرآن، وهي تامَّةٌ، لقوله عليه السلام: «لا صلاةَ لِمَن لَم يَقرَأْ بأُمّ القرآن»[(٤)]، وهذا قد قرأ بها[(٥)].

قلت: ويَحتمِلُ: لا صلاةَ لِمَنْ لم يقرأ بها في كلّ ركعة، وهو الصحيح على مايأتي. ويحتمل: لاصلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقرَأْ بها في أكثر عددِ الرَّكَعات، وهذا هو سببُ الخلاف، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثوريُّ والأوزاعيُّ: إن تَرَكَها عامداً في صلاته كلِّها، وقرأ غيرَها، أَجزَأه، على اختلافٍ عن الأوزاعيِّ في ذلك.

وقال أبو يوسُف[(٦)] ومحمدُ بنُ الحسن[(٧)]: أقلُّه ثلاثُ آيات، أو آيةٌ طويلةٌ، كآية الدَّيْن.

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله المصري، تفقه بمذهب مالك، ولزمه مدة، وهو في عداد أصحابه الكبار، له تصانيف كثيرة، منها: الرد على الشافعي وأحكام القرآن. توفي سنة (٢٦٨هـ). سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٧.

(٢) في (د): سراً، وفي (م): سهواً.

(٣) أبو هاشم، ويقال: أبو هشام، كان فقيه أهل المدينة بعد مالك، وعرض عليه الرشيد القضاء فامتنع، مات سنة خمس أو ست وثمانين ومئة. تهذيب التهذيب ٤/ ١٣٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٧٤٣)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت.

(٥) التمهيد ٢٠/ ١٩٢-١٩٣ و١٩٨، والاستذكار ٤/ ١٤٥ و١٩٣ - ١٩٤ و١٩٨ - ١٩٩.

(٦) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، القاضي، صاحب أبي حنيفة، توفي سنة (١٨٢هـ). السير ٨/ ٥٣٥.

(٧) أبو عبد الله الشيباني الكوفي، فقيه العراق، وصاحب أبي حنيفة، توفي سنة (١٨٩هـ). السير ٩/ ١٣٤.

وعن محمدِ بنِ الحَسَن أيضاً قال: أُسَوِّغُ الاجتهادَ في مقدار آيةٍ، ومقدار كلمةٍ مفهومةٍ، نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولا أُسوِّغُه في حرف لا يكونُ كلاما[١].

وقال الطبريُّ: يقرأُ المصلِّي بأُمِّ القرآن في كلِّ ركعةٍ، فإن لم يقرأْ بها، لم يَجْزِهِ إلا مثلُها من القرآن، عددَ آيِها وحروفِها[٢].

قال ابنُ عبد البَرّ: وهذا لا معنى له؛ لأنَّ التعيينَ لها والنصَّ عليها، قد خَصَّها بهذا الحكمِ دونَ غيرِها، ومُحالٌ أن يجيءَ بالبَدَل منها مَنْ وَجبَتْ عليه، فتركها وهو قادِرٌ عليها، وإنما عليه أن يجيءَ بها، ويعودَ إليها، كسائر المفروضاتِ المتعيِّناتِ في العبادات[٣].

السادسة: وأما المأمومُ: فإنْ أدركَ الإمامَ راكعاً، فالإمام يَحمِلُ عنه القراءةَ، لإجماعهم على أنه إذا أدرَكه راكعاً، أنه يُكَبِّرُ ويركَعُ، ولا يقرأُ شيئاً. وإن أدركَه قائماً، فإنه يقرأ، وهي المسألة:

السابعة: ولا ينبغي لأحدٍ أن يَدَعَ القراءةَ خَلفَ إمامِه في صلاة السِّرِّ، فإن فعلَ، فقد أساءَ، ولا شيءَ عليه عند مالك وأصحابه[٤]. وأما إذا جَهَرَ الإمام، وهي المسألة:

الثامنة: فلا قراءةَ بفاتحة الكتاب، ولا غيرِها في المشهور من مذهب مالك[٥]، لقولِ الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقولِ رسولِ الله ﷺ: «مالي أُنازَعُ القرآنَ؟»[٦] وقولِهِ في الإمام: «إذا قَرَأَ، فأنصِتُوا»[٧] وقولِهِ: «مَنْ كانَ له إمامٌ، فقراءةُ الإمام له قراءةٌ»[٨].

---

(١) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢٠٧.

(٢) التمهيد ٢٠/ ١٩٣، والاستذكار ٤/ ١٤٥ ـ ١٤٦ و١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) التمهيد ٢٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩، والاستذكار ٤/ ٢٠٠.

(٤) التمهيد ١١/ ٥٣.

(٥) الاستذكار ٤/ ٢٢٨.

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد في المسند (٧٢٧٠).

(٧) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه أحمد (١٩٧٢٣)، ومسلم (٤٠٤)(٦٣)، وأخرجه أحمد أيضا (٨٨٨٩) من حديث أبي هريرة، وسيذكره المصنف أيضاً في ص ١٨٧.

(٨) أخرجه أحمد في المسند (١٤٦٤٣) من حديث جابر، وسيتكلم عليه المصنف في ص ١٨٨.

وقال الشافعيُّ فيما حكى عنه البُوَيْطِيُّ[١]، وأحمدُ بنُ حنبل: لا تُجزئُ أحداً صلاةٌ حتى يقرأَ بفاتحة الكتاب في كلِّ ركعة، إماماً كان أو مأموماً، جَهَرَ إمامُه، أو أسَرَّ[٢].

وكان الشافعيُّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأُ إذا أسَرَّ، ولا يقرأُ إذا جَهَرَ، كمشهورِ مذهب مالك[٣].

وقال بمصر: فيما يَجهَرُ فيه الإمامُ بالقراءة قولان: أحدهما أن يقرأَ، والآخرُ يُجزِئه ألا يقرأَ، ويكتفي بقراءة الإمام. حكاه ابن المُنذر[٤].

وقال ابنُ وهْب، وأشهَبُ، وابنُ عَبد الحَكَم، وابنُ حَبِيب[٥]، والكوفيون: لا يقرأُ المأمومُ شيئاً، جَهَرَ إمامُه، أو أسَرَّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «فقراءةُ الإمامِ له قراءةٌ»[٦] وهذا عامٌّ، ولقولِ جابر: مَنْ صلَّى ركعةً لم يقرَأْ فيها بأمِّ القرآن، فلم يُصَلِّ، إلا وراءَ الإمام[٧].

التاسعة: الصحيحُ من هذه الأقوال: قولُ الشافعيِّ، وأحمدَ، ومالك في القول الآخر، وأنَّ الفاتحةَ متعيِّنةٌ في كلِّ ركعة لكلِّ أحدٍ على العموم، لقولِهِ ﷺ: «لا صلاةَ لِمَنْ لَم[٨] يَقرَأ فيها بفاتحةِ الكتابِ»، وقولِهِ: «مَنْ صَلَّى صلاةً لم يَقرَأْ فيها بأمِّ القرآن، فهي خِداجٌ» ثلاثاً[٩]. وقال أبو هريرة: أَمَرَني رسولُ الله ﷺ أن أناديَ أنه: «لا صلاةَ إلا بقراءةِ فاتحةِ الكتابِ، فما زادَ». أخرجه أبو داود[١٠].

---

(١) هو يوسف بن يحيى، أبو يعقوب المصري، صاحب الإمام الشافعي. توفي سنة (٢٣١هـ). سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٨.

(٢) الاستذكار ٤/ ١٤٥، والتمهيد ١١/ ٤١، والأوسط ٣/ ١٠٦.

(٣) في (ظ): كمذهب مالك.

(٤) الأوسط ٣/ ١٠٦.

(٥) هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان، أبو مروان السُّلمي العباسي الأندلسي، فقيه الأندلس، ولد في حياة الإمام مالك، من كتبه: تفسير الموطأ، وطبقات الفقهاء، توفي سنة (٢٣٨هـ). السير ١٢/ ١٠٢.

(٦) سلف قريباً، وانظر النوادر والزيادات ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٨٤، والترمذي (٣١٣) وعنده: إلا أن يكون وراء الإمام. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٨) في (ظ): لا.

(٩) أخرجه أحمد في المسند (٧٢٩١)، ومسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(١٠) سنن أبي داود (٨٢٠)، وهو في مسند أحمد (٩٥٢٩).

وكما لا ينوبُ سجودُ ركعةٍ، ولا ركوعُها، عن ركعةٍ أخرى، فكذلك لا تنوبُ قراءةُ ركعةٍ عن غيرها[١]. وبه قال عبدُ الله بنُ عَون[٢]، وأيوبُ السَّختِياني[٣]، وأبو ثَور، وغيرُه من أصحاب الشافعيِّ، وداودُ بنُ عليٍّ. ورُوِيَ مثلُه عن الأوزاعيِّ، وبه قال مكحولٌ[٤].

ورُويَ عن عمرَ بن الخطاب، وعبدِ الله بنِ عبَّاس، وأبي هريرة، وأُبيِّ بنِ كعب، وأبي أيوبَ الأنصاري، وعبدِ الله بنِ عَمرو بن العاص، وعُبادةَ بنِ الصامت، وأبي سعيد الخُدرِي، وعثمانَ بن أبي العاص، وخَوَّاتِ بن جُبير[٥]، أنهم قالوا: لا صلاةَ إلا بفاتحة الكتاب. وهو قولُ ابن عمرَ[٦]، والمشهورُ من مذهب الأوزاعي[٧]. فهؤلاء الصحابةُ بهم القُدوةُ، وفيهم الأُسوةُ، كلُّهم يُوجِبُون الفاتحةَ في كلِّ ركعة.

وقد أخرَجَ الإمامُ أبو عبد الله محمد بن يزيدَ بن ماجه القَزويني في «سننه» ما يَرفَعُ الخلافَ، ويُزِيلُ كلَّ احتمال، فقال: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا محمدُ بن فُضَيل. (ح): وحدثنا سُوَيدُ بن سعيد، حدثنا عليُّ بنُ مُسهِر جميعا عن أبي سفيان السَّعْدي، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَم يَقرَأْ في كلِّ ركعة بالحمد لله، وسورةٍ، في فريضة، أو غيرِها»[٨]. وفي صحيح مسلم عن أبي

---

(١) هذا كلام الشافعي، نقله عنه ابن عبد البر في الاستذكار ٤/ ١٩٩، والتمهيد ٢٠/ ١٩٨.

(٢) أبو عون المزني مولاهم، الحافظ، عالم البصرة، توفي سنة (١٥١هـ). السير ٦/ ٣٦٤.

(٣) ابن أبي تميمة كيسان، أبو بكر العنزي مولاهم، البصري، الحافظ، توفي سنة (١٣١هـ) السير ٦/ ١٥.

(٤) الاستذكار ٤/ ١٩٩، والأوسط ٣/ ١١٠.

(٥) ابن النعمان الأنصاري، أبي عبد الله ويقال: أبو صالح، قيل: إنه شهد بدراً، مات سنة (٤٠هـ) أو بعدها. تهذيب التهذيب ١/ ٥٥٦.

(٦) كذا في الاستذكار ٤/ ١٩٥، ووقع في التمهيد ٢٠/ ١٩٣: ابن عون.

(٧) هذه الأقوال في الاستذكار ٤/ ١٩٥، والتمهيد ٢٠/ ١٩٣، والأوسط ٣/ ١٠٨ ـ ١١٠، والمفهم ٢/ ٢٥.

(٨) سنن ابن ماجه (٨٣٩). أبو سفيان السعدي ـ وهو طريف بن شهاب أو ابن سعد ـ ضعيف، وقد توبع، فقد أخرج الإمام أحمد في المسند (١٠٩٩٨) من طريق قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيسر.

هريرةَ، أنه ﷺ قال للذي علَّمه الصلاةَ: «وافعَلْ ذلك في صلاتك كلِّها»[١] وسيأتي[٢].

ومن الحُجَّةِ في ذلك أيضاً ماروواه أبو داود، عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال: أبطأ عُبادةُ بن الصامت عن صلاة الصُّبح، فأقام أبو نُعيم المؤذِّنُ الصلاةَ، فصلَّى أبو نُعيم بالناس، وأقبل عُبادةُ بن الصامت وأنا معه حتى صَفَفْنا خلفَ أبي نُعيم، وأبو نُعيم يَجهَرُ بالقرءاة، فجعل عُبادةُ يقرأ بأُمِّ القرآن، فلما انصرفَ، قلتُ لِعُبادةَ: سمعتُك تقرأُ بأمِّ القرآن وأبو نُعيم يجهَرُ؟ قال: أجل، صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ بعضَ الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة، فالتبسَتْ عليه، فلما انصرف، أقبلَ علينا بوجهه، فقال: «هل تقرؤون إذا جَهَرتُ بالقراءة»؟ فقال بعضُنا: إنا نصنع ذلك، قال: «فلا، وأنا أقولُ: مالي يُنازِعني القرآنُ، فلا تقرؤوا بشيء من القرآن إذا جَهَرتُ إلا بأُمِّ القرآن»[٣].

وهذا نصٌّ صريحٌ في المأموم. وأخرجه أبو عيسى الترمذيُّ من حديث محمد بن إسحاقَ بمعناه، وقال: حديثٌ حسنٌ، والعملُ على هذا الحديث في القرءاة خلفَ الإمام عند أكثرِ أهل العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين. وهو قولُ مالك بنِ أنس، وابنِ المبارك، والشافعيِّ، وأحمد، وإسحاقَ: يَرَونَ القراءةَ خلفَ الإمام[٤].

وأخرجه أيضاً الدارقطني، وقال: هذا إسنادٌ حسنٌ[٥]، ورجالُه كلُّهم ثِقاتٌ.

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٧)، وهو في مسند أحمد (٩٦٣٥).

(٢) ص ١٩٠، وسيذكره أيضاً ص ٢٦٢ في تفسير الآية (٣) من سورة البقرة في المسألة الرابعة عشرة، وفي تفسير الآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٣) سنن أبي داود (٨٢٤). وسلف حديث أبي هريرة ص ١٨٢. قال صاحب عون المعبود ٣/٣٦: ما لي ينازعني، أي: يعالجني، ولا يتيسر. القرآن، بالرفع، أي: لا يتأتى لي، فكأني أجاذبه، فيعصى، ويثقل عليّ. قاله الطيبي، وبالنصب، أي: ينازعني من ورائي فيه بقراءتهم على التغالب، يعني تشوش قراءتهم على قراءتي.

(٤) سنن الترمذي (٣١١)، وروايته من طريق محمد بن إسحاق، عن مكحول، عن محمود بن الربيع، عن عبادة. ونقل البيهقي في القراءة خلف الإمام ص ٦٥ ـ ٦٦ عن أبي علي الحسين بن علي قوله: مكحول سمع هذا الحديث من محمود بن الربيع ومن ابنه نافع، ونافع وأبوه سمعاه من عبادة رضي الله عنه. والحديث في المسند (٢٢٦٩٤).

(٥) في (د) و(ز): صحيح.

وذكر أنَّ محمودَ بن الربيع[١] كان يَسكُنُ إيلياءَ، وأنَّ أبا نُعيم أوَّلُ مَن أَذَّنَ في بيت المقدس[٢].

وقال أبو محمد عبد الحق[٣]: ونافعُ بن محمود لم يَذكُره البخاريُّ في «تاريخه»، ولا ابنُ أبي حاتم، ولا أخرجَ له البخاريُّ ومسلمٌ شيئاً. وقال فيه أبو عمر: مجهول[٤].

وذكر الدارقطنيُّ عن يزيدَ بنِ شَريك قال: سألتُ عمرَ عن القرءاة خلفَ الإمام، فأمَرَني أن أقرأ، قلتُ: وإن كنتَ أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قلتُ: وإن جَهَرْتَ؟ قال: وإن جَهَرْتُ. قال الدارقطنيُّ: هذا إسنادٌ صحيحٌ[٥]. ورَوَى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الإمامُ ضامِنٌ، فما صَنَعَ، فاصنعوا». قال أبو حاتم: هذا يصحح[٦] لمن قال بالقراءة خلفَ الإمام[٧].

وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها في نفسه حين قال له: إني أحياناً أكونُ وراءَ الإمام، ثم استدَلَّ بقوله تعالى: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَيْن، فنِصْفُها لي، ونِصْفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل». قال رسولُ الله ﷺ: «اقرؤوا، يقولُ العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالمين». الحديث[٨].

---

(١) هو ابن سراقة الأنصاري الخزرجي، أبو محمد ويقال: أبو نعيم، أدرك النبي ﷺ، وعقل منه مَجَّةً مجَّها في وجهه، وهو يومئذ ابن أربع سنين، وكان ختن عبادة بن الصامت، توفي سنة (٩٩هـ). السير ٣/ ٥١٩.

(٢) سنن الدارقطني ١/ ٣١٨ و٣١٩ و ٣٢٠.

(٣) ابن عبد الرحمن بن عبد الله، الأزدي، الأندلسي، الإشبيلي، المعروف في زمانه بابن الخراط، له الأحكام الصغرى والوسطى والكبرى توفي سنة (٥٨١هـ) . سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٩٨.

(٤) التمهيد ١١/ ٤٦.

(٥) سنن الدارقطني ١/ ٣١٧.

(٦) في (م): يصح، وفي سنن الدارقطني (وفيه قول أبي حاتم): تصحيح .

(٧) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٢، وفي إسناده موسى بن شيبة، نقل ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٣٦، والذهبي في الميزان ٤/ ٢٠٧ عن الإمام أحمد قوله فيه: أحاديثه مناكير .

(٨) أخرجه أحمد في المسند (٧٢٩١)، ومسلم (٣٩٥) . وسلف ص ١٤٥.

العاشرة: أَمَّا ما استدَلَّ به الأوَّلون بقوله ﷺ: «وإذا قرأ، فأنْصِتُوا». فأخرجه[١] مسلم من حديث أبي موسى الأشعريِّ، وقال: وفي حديث جرير، عن سليمان، عن قتادة من الزيادة: «وإذا قَرَأَ، فَأَنْصِتُوا»[٢]. قال الدارقطنيُّ: هذه اللفظَةُ، لم يُتابَع سليمانُ التَّيميُّ فيها عن قتادةَ، وخالفه الحُفَّاظُ من أصحاب قتادةَ، فلم يذكُروها، منهم شعبةُ، وهشامٌ، وسعيدُ بنُ أبي عَرُوبةَ، وهَمَّامٌ، وأبو عَوانةَ، ومَعمَرٌ، وعَدِيُّ بن أبي عُمارةَ. قال الدارقطني: فإجماعُهم يَدُلُّ على وهمِهِ. وقد رُويَ عن عمر بن عامر[٣]، عن قتادةَ متابعةُ التَّيميِّ، ولكن ليس هو بالقويِّ، تركه القَطَّان[٤].

وأخرج أيضاً هذه الزيادةَ أبو داود من حديث أبي هريرةَ، وقال: هذه الزيادةُ: «إذا قَرَأَ، فأَنْصِتُوا» ليست بمحفوظة[٥].

وذكر أبو محمد عبد الحق، أنَّ مسلماً صَحَّحَ حديثَ أبي هريرةَ، وقال: هو عندي صحيحٌ[٦].

قلت: ومما يَدُلُّ على صِحَّتها عنده إدخالُها في كتابه من حديث أبي موسى، وإن كانت مما لم يُجمعوا عليها. وقد صَحَّحَها الإمام أحمدُ بن حنبل، وابنُ المنذر[٧].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فإنه نزل بمكَّةَ، وتحريمُ الكلامِ في الصلاة نزل بالمدينة. كما قال زيدُ بن أرقم[٨]. فلا حُجَّةَ

---

(١) في (م): أخرجه.

(٢) صحيح مسلم (٤٠٤)(٦٣)، وهو في مسند أحمد (١٩٧٢٣).

(٣) في (م): عبد الله بن عامر، وهو خطأ.

(٤) يحيى بن سعيد، وانظر علل الدارقطني ٧/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤، وسننه ١/ ٣٣٠، وذكر في العلل ١/ ٢٥٤ رواية عمر بن عامر، عن قتادة، وأعلها بسالم بن نوح الراوي عن عمر.

(٥) سنن أبي داود (٦٠٤).

(٦) قاله مسلم (١/ ٣٠٤)، بإثر حديث أبي موسى الأشعري (٤٠٤)(٦٣) وقال: ليس كل شيء عندي صحيح وضعتُه ههنا، إنما وضعتُ ههنا ما أجمعوا عليه.

(٧) نقل ابنُ عبد البر في التمهيد ١١/ ٣٤ عن الإمام أحمد تصحيحه لحديثي أبي موسى وأبي هريرة، وقال ابن المنذر في الأوسط ٣/ ١٠٧: إذا زاد الحافظ في الحديث حرفاً وجب قبوله، وتكون زيادة، كحديث ينفرد به، وهذا مذهب كثير من أهل العلم في كثير من أبواب الشهادات، وغير ذلك.

(٨) الأنصاري الخزرجي، نزيل الكوفة من مشاهير الصحابة، ردّه رسول الله ﷺ يوم أحد لصغر سنه، =

فيها. فإنَّ المقصودَ كان المشركين، على ما قال سعيدُ بن المسيَّب. وقد روى الدارقطني عن أبي هريرةَ، أنها نَزلتْ في رفع الصوت خلفَ رسول الله ﷺ في الصلاة. وقال: عبدُ الله بنُ عامر ضعيفٌ[١].

وأما قولُه ﷺ: «مالي أُنازَعُ القرآنَ»، فأخرجه مالكٌ، عن ابن شهاب، عن ابنِ أُكَيمَةَ اللَّيثي[٢]. واسمُه ـ فيما قال مالكٌ ـ عمرو، وغيره يقول: عامر، وقيل: يزيد، وقيل: عُمارة، وقيل: عباد[٣]، يُكنَى أبا الوليد، تُوُفِّيَ سنةَ إحدى ومئة، وهو ابنُ تسعٍ وسبعين سنة، لم يَرْوِ عنه الزهريُّ إلا هذا الحديثَ الواحدَ، وهو ثقةٌ، وروى عنه محمدُ بن عمرو وغيرُه[٤].

والمعنى في حديثه: لا تجهَروا إذا جَهَرتُ، فإنَّ ذلك تنازعٌ وتجاذبٌ وتَخالُجٌ، اِقرؤوا في أنفسكم. يُبَيِّنُهُ حديثُ عُبادةَ، وفُتيا الفاروق، وأبي هريرةَ الراوي للحديثين. فلو فَهِمَ المنعَ جملةً من قوله: «مالي أُنازَعُ القرآنَ»، لَما أفتى بخلافه.

وقولُ الزهريِّ في حديث ابن أُكَيمةَ: فانتهى الناسُ عن القراءة مع رسولِ الله ﷺ فيما جَهَرَ فيه رسولُ الله ﷺ بالقراءة، حين سَمِعُوا ذلك من رسولِ الله ﷺ. يريدُ بالحمد، على ما بَيَّنَّا. وبالله توفيقنا.

وأما قولُه ﷺ: «مَنْ كان له إمامٌ، فقراءةُ الإمام له قراءةٌ»، فحديثٌ ضعيفٌ، أسنده الحسنُ بن عُمارةَ، وهو متروكٌ، وأبو حنيفة، وهو ضعيفٌ[٥]، كلاهما عن

= وشهد مؤتة وغيرها، توفي سنة (٦٦هـ). السير ٣/ ١٦٥. وينظر صحيح البخاري (١٢٠٠)، وصحيح مسلم (٥٣٩).

(١) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٦. عبد الله بن عامر: هو أبو عامر المدني الأسلمي، روى له ابن ماجه.

(٢) يعني عن أبي هريرة، وهو في الموطأ ١/ ٨٦ ـ ٨٧. ومسند أحمد (٨٠٠٧).

(٣) في (ظ): عبادة، ولم يُذكر له هذا الاسم في المصادر.

(٤) التمهيد ١١/ ٢٢ ـ ٢٣، والاستذكار ٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، وذكر له ابن عبد البر فيهما اسم عمر أيضاً، ولم يذكر له اسم يزيد، ولا ورد في المصادر. وكذلك لم يُذكر له اسم «عباد»، فلعله محرف عن «عمار» فقد أوردوا له هذا الاسم.

(٥) ليس هذا مناسباً في إمام من أئمة المسلمين، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٢ ـ ٣: وكذا لا أذكر في كتابي من الأئمة المتبوعين في الفروع أحداً لجلالتهم في الإسلام، وعظمتهم في النفوس، مثل أبي حنيفة والشافعي والبخاري، فإن ذكرتُ أحداً منهم، فأذكرُه على الإنصاف، ومايضره ذلك عند الله ولا عند الناس.

موسى بن أبي عائشة، عن عبدالله بن شدَّاد، عن جابر. أخرجه الدارقطنيُّ، وقال: رواه سفيانُ الثَّوريُّ، وشُعبةُ، وإسرائيلُ بنُ يونُس، وشَريكٌ، وأبو خالد الدَّالاني، وأبو الأحوص، وسفيانُ بنُ عُيَينَةَ، وجَرِير بنُ عبد الحميد، وغيرُهم، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن عبد الله بن شدَّاد، مُرسلاً، عن النبيِّ ﷺ، وهو الصواب[١].

وأما قولُ جابر: مَنْ صلَّى ركعةً لم يقرَأْ فيها بأمِّ القرآن، فلم يُصَلِّ إلا وراءَ الإمام، فرواه مالكٌ، عن وَهْبِ بن كَيْسان، عن جابر، قوله[٢].

قال ابنُ عبد البَرِّ: ورواه يحيى بنُ سلاَّم صاحبُ «التفسير» عن مالك، عن أبي نُعيم وَهْبِ بن كَيْسان، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ. وصوابُه موقوفٌ عن جابر، كما في «الموطأ». وفيه من الفِقْهِ إبطالُ الرَّكْعةِ التي لا يُقرأُ فيها بأُمِّ القرآن، وهو يشهدُ لصِحَّةِ ما ذهب إليه ابنُ القاسم، ورواه عن مالك، في إلغاء الرَّكعةِ، والبناءِ على غيرها، وألا يعتدَّ المصلِّي بركعة لا يقرأُ فيها بفاتحة الكتاب. وفيه أيضاً: أنَّ الإمامَ قراءتُه لمن خَلْفَه قراءةٌ. وهذا مذهبُ جابر، وقد خالفَه فيه غيرُه[٣].

الحادية عشرة: قال ابنُ العربي: لما قالَ ﷺ: «لا صَلاةَ لِمَنْ لَم يَقرَأْ بفاتحة الكتاب» واختلف النَّاسُ في هذا الأصلِ: هل يُحمَلُ هذا النفيُ على التَّمام والكمال، أو على الإجزاء؟ اختلفتِ الفتوى بحسب اختلافِ حالِ الناظر، ولما كان الأشهرُ في هذا الأصل والأقوى أنَّ النفيَ على العموم، كان الأقوى من رواية مالك أنَّ مَنْ لَم يَقرَأْ الفاتحةَ في صلاته، بَطَلَتْ. ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة، فَمَن تأوَّلَ قولَ النبي ﷺ: «اِفعَل ذلك في صلاتك كلِّها»، لَزِمَهُ أن يُعيدَ القراءةَ، كما يُعيدُ الركوعَ والسجودَ. والله أعلم.

الثانية عشرة: ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحةِ يَرُدُّ على الكوفيين قولَهم في أنَّ الفاتحةَ لا تتعيَّنُ، وأنها وغيرَها من آي القرآن سواءٌ.

---

(١) سنن الدارقطني ١/ ٣٢٣ و٣٢٥، وسلف هذا الحديث ص١٨٢، وينظر مسند أحمد (١٤٦٤٣).

(٢) الموطأ ١/ ٨٤، وقد سلف ص ١٨٣.

(٣) الاستذكار ٤/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

وقد عَيَّنَها النبيُّ ﷺ بقوله كما ذكرنا، وهو المُبيِّنُ عن الله تعالى مُرادَه في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقد رَوى أبو داود، عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيَسَّرَ[١]. فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ قولَه ﷺ للأعرابي: «اِقْرَأْ ما تَيسَّرَ معك من القرآن»[٢] ما زاد على الفاتحة، وهو تفسيرُ[٣] قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد روى مسلم، عن عُبادةَ بنِ الصَّامت، أنَّ رسولَ الله ﷺ: قال «لا صلاةَ لِمَنْ لم يَقرَأْ بأُمِّ القرآن»[٤]. زاد في رواية: «فصاعداً»[٥]. وقوله ﷺ: «هيَ خِداجٌ (ثلاثاً) غيرُ تَمام»[٦] أي: غير مُجزِئةٍ بالأدلَّة المذكورة.

والخِداجُ: النَّقْصُ والفسادُ. قال الأخفشُ: خَدَجَتِ الناقةُ: إذا ألقَتْ ولدَها لغير تَمام، وأَخْدَجَتْ: إذا قَذفَتْ به قبلَ وقتِ الولادة، وإن كان تامَّ الخَلْقِ.

والنظرُ يُوجِبُ في النُّقصان ألا تَجوزَ معه الصلاةُ؛ لأنها صلاةٌ لم تَتِمَّ، ومَن خَرَجَ من صلاته وهي لم تَتِمَّ، فعليه إعادتُها كما أُمِرَ، على حسبِ حُكمِها. ومَنِ ادَّعى أنها تَجوزُ مع إقراره بِنَقْصِها، فعليه الدليلُ، ولا سبيلَ إليه من وجه يلزم، والله أعلم[٧].

الثالثة عشرة: رُويَ عن مالك، أنَّ القراءةَ لا تجبُ في شيء من الصلاة[٨]، وكذلك كان الشافعيُّ يقول بالعراق فيمن نَسِيَها، ثم رَجَعَ عن هذا بمصر، فقال: لا تُجزِئُ صلاةٌ

---

(١) سنن أبي داود (٨١٨)، وهو في مسند أحمد (١٠٩٩٨).

(٢) قطعة من حديث المسيء صلاته، أخرجه أحمد (٩٦٣٥)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة، وقد سلفت قطعة أخرى منه ص ١٨٥.

(٣) في (د) و(ز): يفسر.

(٤) صحيح مسلم (٣٩٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢٧٤٣).

(٥) صحيح مسلم (٣٩٤): (٣٧)، وهو في مسند أحمد (٢٢٧٤٩).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٩٨٩٨)، ومسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٧) التمهيد ٢٠/ ١٩١ - ١٩٢، والاستذكار ٤/ ١٩٢ - ١٩٣.

(٨) التمهيد ٢٠/١٩٨، والاستذكار ٤/ ١٩٩ وقال ابن عبد البر: وروي عن مالك قول شاذ لا يعرفه أصحابه: أن الصلاة تجزئ بغير قراءة على ما روي عن عمر، وهي رواية منكرة.

مَنْ يُحسِنُ فاتحةَ الكتاب إلا بها، ولا يُجزِئُه أن يَنقُصَ حرفاً منها، فإن لم يَقرَأْها، أو نَقَصَ منها حرفاً، أعاد صلاتَه، وإنْ قرأَ بغيرِها. وهذا هو الصحيحُ في المسألة.

وأما ما رُوِيَ عن عمرَ رحمه الله، أنه صلَّى المغربَ، فلم يَقرَأْ فيها، فذُكِرَ ذلك له، فقال: كيف كان الركوعُ والسجودُ؟ قالوا: حسنٌ. قال: لا بأسَ إذاً. فحديثٌ مُنكرُ اللَّفظِ، مُنقَطِعُ الإسناد؛ لأنه يرويه [محمد بن] إبراهيم بن الحارث التَّيميُّ، عن عمرَ. ومَرَّة يرويه [محمد بن][1] إبراهيم، عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن، عن عمرَ، وكلاهما مُنقَطِعٌ، لا حُجَّةَ فيه[2].

وقد ذكره مالكٌ في «الموطأ»، وهو عند بعض الرواة[3]، وليس عند يحيى وطائفة معه؛ لأنه رماه مالكٌ من كتابه بأَخَرَة، وقال: ليس عليه العملُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ صلاةٍ لا يُقرَأُ فيها بأمِّ القرآن، فهي خِداجٌ».

وقد رُوِيَ عن عمرَ، أنه أعاد تلك الصلاةَ، وهو الصحيحُ عنه. روى يحيى بنُ يحيى النَّيسابوريُّ قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم النَّخَعيِّ، عن هَمَّام بن الحارث، أنَّ عمرَ نَسِيَ القراءةَ في المغرب، فأعاد بهم الصلاةَ[4]. قال ابنُ عبد البَرِّ: وهذا حديثٌ مُتَّصِلٌ شَهِدَه هَمَّامٌ من عمر، رُوِيَ ذلك من وجوه.

ورَوى أشهبُ، عن مالك قال: سُئِلَ مالكٌ عن الذي نَسِيَ القراءةَ: أيُعجِبُكَ ما قال عُمرُ؟ فقال: أنا أُنكِرُ أن يكون عُمرُ فَعَلَه. وأنكر الحديثَ، وقال: يَرى الناسُ عُمرَ يصنعُ هذا في المغرب، ولا يُسبِّحون به؟! أرى أن يعيدَ الصلاةَ مَن فعلَ هذا[5].

---

(١) ما بين حاصرتين في الموضعين سقط من النسخ الخطية، و(م)، واستُدرك من التمهيد ٢٠/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) أخرج الخبر عبد الرزاق (٢٧٤٨)، وابن أبي شيبة ١/ ٣٩٦، والبيهقي في السنن ٢/ ٣٨١ من طريق محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة، عن عمر. وأما رواية محمد بن إبراهيم عن عمر، فأخرجها الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤١١. وذكر البيهقي أن الشافعي رواه أيضاً عن رجل، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عمر. وهذا منقطع أيضاً على إبهام في سنده.

(٣) الموطأ ص ١٧٩ برواية القعنبي.

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤١١.

(٥) التمهيد ٢٠/ ١٩٣ ـ ١٩٤ والاستذكار ٤/ ١٤٢ ـ ١٤٤.

الرابعة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنْ لا صلاةَ إلا بقراءة، على ما تقدَّمَ من أصولهم في ذلك. وأجمعوا على أنْ لا توقيتَ في ذلك بعد فاتحةِ الكتاب، إلا أنهم يَستحِبُّون ألا يُقرَأَ مع فاتحةِ الكتاب إلا سورةٌ واحدةٌ؛ لأنه الأكثر مما جاء عن النبيِّ ﷺ.

قال مالكٌ: وسُنَّةُ القراءة أن يقرأَ في الركعتين الأولَيَينِ بأمِّ القرآن وسورة، وفي الأُخرَيَينِ بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعيُّ: يقرأُ بأمِّ القرآن، فإن لم يَقرَأ بأمِّ القرآن، وقرأ بغيرها، أجزأه، وقال: وإن نَسِيَ أن يقرأَ في ثلاث رَكَعات، أعاد. وقال الثوريُّ: يقرأُ في الركعتين الأولَيَين بفاتحة الكتاب وسورة، ويُسبِّحُ في الأُخرَيَين إن شاء، وإن شاء قَرَأ، وإن لم يقرَأْ، ولم يُسبِّحْ، جازَت صلاتُه، وهو قولُ أبي حنيفةَ وسائر الكوفيين[1].

قال ابنُ المنذر: وقد رَوَينا عن عليِّ بن أبي طالب رضي اللهُ عنه أنه قال: اِقْرَأْ في الأولَيَين، وسَبِّح في الأُخرَيَين. وبه قال النَّخَعِيُّ[2].

قال سفيانُ: فإنْ لم يقرَأْ في ثلاث رَكَعات، أعادَ الصلاةَ؛ لأنه لا تُجزِئُه قراءةُ ركعة. قال: وكذلك إن نَسِيَ أن يقرأَ في ركعة من صلاة الفجر.

وقال أبو ثور: لا تُجزِئ صلاةٌ إلا بقراءة فاتحةِ الكتاب في كلِّ ركعةٍ، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحابِ الشافعي. وكذلك قال ابنُ خُوَيز مَنداد المالكي؛ قال: قراءةُ الفاتحة واجبةٌ عندنا في كلِّ ركعة، وهذا هو الصحيحُ في المسألة[3].

روى مسلم، عن أبي قَتادَة[4] قال: كان رسولُ الله ﷺ يُصلِّي بنا، فيقرأُ في الظهر والعصر في الركعتين الأُولَيَين بفاتحةِ الكتاب، وسورتَينِ، ويُسمِعُنا الآيَةَ أحياناً،

---

(١) الاستذكار ٤/ ١٣٩ - ١٤٨ و ١٩٧. وينظر التمهيد ٢٠/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) الأوسط ٣/ ١١٤. وحديث علي أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٣٧٢.

(٣) الاستذكار ٤/ ١٤٥.

(٤) الحارث بن رِبْعي الأنصاري السلمي، فارس رسول الله ﷺ شهد أحداً والحديبية، توفي بالمدينة سنة (٥٤هـ). السير ٢/ ٤٤٩.

وكان يُطَوِّلُ في الركعة الأولى من الظهر، ويَقصرُ الثانيةَ، وكذلك في الصُّبحِ. وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأُخريَينِ بفاتحة الكتاب[١]. وهذا نصٌّ صريحٌ، وحديثٌ صحيحٌ لما ذهبَ إليه مالكٌ. ونصٌّ في تَعيُّنِ الفاتحة في كلِّ ركعة، خلافاً لِمَن أَبَى ذلك، والحُجَّةُ في السُّنَّةِ، لا فيما خالفَها.

الخامسة عشرة: ذهب الجمهورُ إلى أنَّ ما زادَ على الفاتحة من القراءة ليسَ بواجب، لما رواه مسلمٌ، عن أبي هريرة قال: في كلِّ صلاة قراءةٌ، فما أَسمَعَنا النبيُّ ﷺ، أسمَعناكم، وما أَخفَى مِنَّا، أخفَينا منكم[٢]، فمن قرأ بأمِّ القرآن، فقد أجزَأَت عنه، ومَن زاد، فهو أفضلُ[٣]. وفي البخاري: «وإن زِدتَ فهو خيرٌ»[٤].

وقد أبى كثيرٌ من أهل العلم تركَ السُّورة، لضرورة، أو لغير ضرورة، منهم عِمرانُ بن حُصَين، وأبو سعيد الخُدرِي، وخَوَّاتُ بنُ جُبير، ومجاهدٌ، وأبو وائل[٥] وابنُ عمر، وابنُ عباس، وغيرُهم، قالوا: لا صلاةَ لِمَن لم يَقرَأ فيها بفاتحة الكتابِ وشيء مَعَها من القرآن، فمنهُم مَن حَدَّ آيتَين، ومنهم مَن حدَّ آية، ومنهم مَن لم يَحُدَّ، وقال: شيءٌ من القرآن معها، وكلُّ هذا مُوجِبٌ لتعلُّمِ ما تَيسَّرَ من القرآن على كلِّ حال، مع فاتحة الكتاب، لحديث عُبادةَ، وأبي سعيد الخُدرِيِّ[٦] وغيرِهما. وفي «المُدَوَّنة»[٧]: وكيعٌ، عن الأعمش، عن خَيثَمَة قال: حدثني مَن سَمِعَ عمرَ بن الخطاب يقول: لا تُجزئ صلاةٌ لم[٨] يُقرَأ فيها بفاتحة الكتاب، وشيءٍ معها. واختلف المذهبُ في قراءة السورة على ثلاثة أقوال: سنة، فضيلة، واجبة.

---

(١) صحيح مسلم (٤٥١): (١٥٤)(١٥٥). والرواية الأولى في مسند أحمد (١٩٤١٨)، والرواية الثانية في المسند (٢٢٦٢٧).

(٢) في ظ: أخفيناكم.

(٣) صحيح مسلم (٣٩٦): (٤٤)، وهو في مسند أحمد (٧٥٠٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٧٢).

(٥) شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، مخضرم، أدركَ النبي ﷺ ولم يره، شهد صفِّين مع علي رضي الله عنه توفي سنة (٨٢هـ). السير ٤/ ١٦١.

(٦) تقدما ص ١٩٠.

(٧) ١/ ٦٨.

(٨) في (ظ): لا، وفي (م): صلاةٌ مَن لم.

السادسة عشرة: مَن تَعَذَّرَ ذلك عليه بعد بلوغ مجهودِه، فلم يَقدِر على تعلُّم الفاتحة، أو شيءٍ من القرآن، ولا عَلِقَ منه بشيء، لَزِمَه أن يَذكُرَ اللهَ في موضع القراءة بما أمكَنَه، من تكبير، أو تهليل، أو تحميد، أو تسبيح، أو تمجيد، أو: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، إذا صلَّى وحدَه، أو مع إمام فيما أَسَرَّ فيه الإمام، فقد روى أبو داود وغيرُه عن عبد الله بن أبي أوفى[١] قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: إني لا أستطيعُ أن آخُذَ من القرآن شيئاً، فَعَلِّمني ما يُجزِئُني منه، قال: «قُل: سبحان اللهِ، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله». قال: يا رسولَ الله، هذا للهِ، فما لي؟ قال: «قُل: اللَّهُمَّ ارحَمْني وعافِني واهدِني وارزُقني»[٢].

السابعة عشرة: فإن عَجَزَ عن إصابةِ شيء من هذا اللَّفظِ، فلا يَدَعُ الصلاةَ مع الإمام جُهدَه، فالإمامُ يَحمِلُ ذلك عنه إن شاء الله. وعليه أبداً أن يَجهَدَ نفسَه في تعلُّم فاتحة الكتاب، فما زاد، إلى أن يحولَ الموتُ دون ذلك وهو بحالِ الاجتهاد، فيَعذِرَه الله.

الثامنة عشرة: مَن لم يُواتِهِ لسانُه إلى التكلُّمِ بالعربية من الأعجَمِينَ وغيرِهم، تُرجِمَ له الدعاءُ العربيُّ بلسانه الذي يَفقَهُ، لإقامة صلاتِه، فإنَّ ذلك يُجزِئه، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: لا تُجزِىءُ صلاةُ مَن قرأ بالفارسيَّةِ وهو يُحسنُ العربيةَ في قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: تُجزِئهُ القراءة بالفارسية، وإن أحسن العربيةَ؛ لأنَّ المقصودَ إصابةُ المعنى[٣]. قال ابنُ المنذر[٤]: لا يُجزِئه ذلك؛ لأنه خلافُ ما أَمَرَ اللهُ به، وخِلافُ ما عَلَّمَ النبيُّ ﷺ، وخِلافُ جماعاتِ المسلمين. ولا نَعلَمُ أحداً وافقَه على ما قال.

المُوفية عشرين: مَنِ افتتحَ الصلاةَ كما أُمِرَ، وهو غيرُ عالم بالقراءة، فطرأ عليه العِلمُ بها في أثناء الصلاة ـ ويُتصوَّرُ ذلك بأن يكونَ سَمِعَ مَن قرأها، فَعَلِقَت بِحِفظِهِ من مجرَّد السَّماع ـ فلا يستأنفُ الصلاةَ؛ لأنه أدَّى ما مضى على حسب ما أُمِرَ به، فلا وجهَ لإبطاله. قاله في كتاب ابن سَحنون[٥].

---

(١) صحابي وابن صحابي، شهد الحديبية وغيرها، وهو آخِر من مات بالكوفة من الصحابة سنة (٨٦هـ). السير ٣/ ٤٢٨.

(٢) سنن أبي داود (٨٣٢). وهو في مسند أحمد (١٩١١٠).

(٣) ينظر المبسوط للسرخسي ١/ ٣٧، وقد ذكر ابن عابدين في حاشيته أن الأصح رجوعه عن هذا القول.

(٤) الأوسط ٣/ ١١٧.

(٥) هو محمد ابن فقيه المغرب عبدِ السلام سحنون، أبو عبد الله، القيرواني، شيخ المالكية، له كتاب=

الباب الثالث

في التامين

وفيه ثمان مسائل:

الأولى: يُسَنُّ لقارئ القرآن أن يقولَ بعد الفراغ من الفاتحة بعد سَكتةٍ على نون ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: آمين، لِيَتَمَيَّزَ ما هو قرآنٌ ممَّا ليس بقرآن.

الثانية: ثبتَ في الأُمَّهات من حديث أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أَمَّنَ الإمامُ، فأمِّنُوا، فإنه مَن وافَقَ تَأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ»[١]. قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: فترتَّبَتِ المغفرةُ للذنب على مُقَدِّماتٍ أربع تَضَمَّنَها هذا الحديثُ: الأولى: تأمينُ الإمام. الثانية: تأمينُ مَن خَلْفَه. الثالثة: تأمينُ الملائكة. الرابعة: موافقةُ التأمين؛ قيل: في الإجابة، وقيل: في الزَّمن، وقيل: في الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام: «ادعوا اللهَ وأنتم مُوقِنُونَ بالإجابةِ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ لا يَستَجِيبُ دُعاءً مِن قَلْبٍ غافلٍ لاهٍ»[٢].

الثالثة: روى أبو داود، عن أبي مُصَبِّحٍ المَقرَائيِّ قال: كُنَّا نَجلِسُ إلى أبي زهير النُّميريِّ - وكان من الصحابة - فيُحَدِّثُ أحسنَ الحديث، فإذا دعا الرجلُ منَّا بدعاء، قال: إختِمهُ بآمينَ. فإنَّ «آمينَ» مثلُ الطَّابَعِ على الصحيفة. قال أبو زهير: ألا أُخبِرُكم عن ذلك؟ خَرَجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلة، فأتَينا على رجل قد أَلَحَّ في المسألة، فوقَفَ النبيُّ ﷺ يَسمَعُ[٣] منه، فقال النبيُّ ﷺ: «أَوْجَبَ إن خَتَمَ». فقال له رجلٌ من القوم: بأيِّ شيءٍ يَختِمُ؟ قال: «بآمينَ، فإنه إن خَتَمَ بآمينَ، فقد أَوْجَبَ». فانصرفَ الرجلُ الذي سأل النبيَّ ﷺ، فأتى الرجلَ، فقال له: إختِمْ يا فلانُ، وأَبْشِر[٤].

= السير عشرون مجلداً، وكتاب التاريخ. توفي سنة (٢٦٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٠.

(١) أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠). وهو في مسند أحمد (٩٩٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) بلفظه من حديث أبي هريرة، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج الإمام أحمد (٦٦٥٥) نحوه أطول منه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) في (ظ): فسمع.

(٤) سنن أبي داود (٩٣٨). وفي إسناده صُبَيح بن مُحرز المَقْرئي، تفرَّدَ بالرواية عنه محمد بن يوسف=

قال ابنُ عبد البرّ[١]: أبو زهير النُّميري، اسمُه يحيى بنُ نُفَير، روى عن النبيِّ ﷺ[٢]: «لا تقتُلوا الجرادَ، فإنه جند الله الأعظم»[٣].

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: «آمينَ» أربعةُ أحرف، يخلُقُ اللهُ من كلِّ حرف مَلَكا يقول: اللهمَّ اغفِر لكلِّ مَن قالَ: آمين[٤]. وفي الخبر: «لَقَّنَني جبريلُ آمينَ عند فراغي من فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالخاتَمِ على الكتاب»[٥]. وفي حديثٍ آخرَ: «آمينَ خاتَمُ ربِّ العالمين»[٦]. قال الهَرَوي[٧]: قال أبو بكر: معناه أنه طابَعُ اللهِ على عبادِه؛ لأنه

= الفِرْيابيّ. وذكر ابنُ عبد البر هذا الحديث في الاستيعاب ١١/ ٣٦٤ بهامش الإصابة في ترجمة أبي زهير الأنماري، وقال: ليس إسناد حديثه بالقائم.

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ١١/ ٢٦٥، لكن ابن عبدالبر لم يذكر في ترجمة أبي زهير النميري حديثه المذكور في التأمين، إنما أورده في ترجمة أبي زهير الأنماري، وترجم أيضاً لثالث، وهو أبو الأزهر الأنماري، وقد جعلهم الحافظ ابن حجر في الإصابة اثنين، وأما المزي فقد أشار في تهذيبه إلى حديث أبي زهير النميري في ترجمة أبي الأزهر الأنماري، وقال: لا أدري هو هذا أو غيره. وقال ابنُ أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٧٤: ذُكر لأبي أنَّ رجلاً سمَّاه، فقال: يحيى بن نُفير، فلم يعرفه، وقال: إنه غير معروف بكنيته، فكيف يُعرف اسمُه؟

(٢) في (د) و(ز) زيادة: أنه قال.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ (٧٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٢٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٣٩، وقال: فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٦٤٠، ورمز لضعفه. قال البيهقي: هذا إن صح، فإنما أراد به - والله أعلم - إذا لم يتعرض لإفساد المزارع، فإذا تعرض له، جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل، أو أراد به تعذر مقاومته بالقتال والقتل.

(٤) هذا الخبر من الإسرائيليات، ونسبه النووي في تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١٢ إلى الثعلبي.

(٥) لم نقف له على مصدر، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٢٥، عن أبي ميسرة أن جبريل عليه السلام أقرأ النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: قل آمين، فقال: آمين. وأورده ابن عطية في تفسيره ١/ ٧٩. وهو مرسل.

(٦) أخرجه الطبراني في الدعاء (٢١٩)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٤٣٢، والأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٥١٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده مؤمَّل بن عبد الرحمن، وإسماعيل بن يعلى أبو أمية، وهما ضعيفان، وقال ابن عدي في مؤمَّل: عامة حديثه غير محفوظة. وقد أورد ابن عطية هذا الحديث في تفسيره ١/ ٧٩ من قول علي رضي الله عنه.

(٧) محمد بن أحمد بن الأزهر، أبو منصور، اللغوي الشافعي، صاحب تهذيب اللغة توفي سنة (٣٧٠هـ). =

يدفعُ [به عنهم] الآفاتِ والبلايا، فكان كخاتَم[1] الكتاب الذي يَصُونُه، ويمنَعُ من إفسادِه، وإظهارِ ما فيه. وفي حديث آخرَ: «آمينَ درجةٌ في الجنة»[2]. قال أبو بكر: معناه أنه حرفٌ يَكتسِبُ به قائلُه درجةً في الجنة.

الرابعة: معنى «آمينَ» عند أكثر أهل العلم: اللهمَّ استجِب لنا، وُضِعَ موضعَ الدعاء. وقال قومٌ: هو اسمٌ من أسماء الله: رُوِيَ عن جعفر بن محمد، ومجاهد، وهلال بن يِسَاف. ورواه ابنُ عباس، عن النبيِّ ﷺ، ولم يَصِحَّ. قاله ابنُ العربي[3]. وقيل: معنى «آمين»: كذلك فَلْيَكن، قاله الجوهري[4].

وروى الكَلبيُّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: ما معنى آمين؟ قال: «رَبِّ افعَل»[5]. وقال مُقاتِلٌ: هو قوَّةٌ للدُّعاء[6]، واستنزالٌ للبركة[7]. وقال الترمذي: معناه: لا تُخَيِّبْ رجاءَنا[8].

الخامسة[9]: وفي آمينَ لغتان: المَدُّ على وزن فاعيل، كياسين. والقَصر على وزن يمين. قال الشاعر[10] في المَدِّ[11]:

= وهو هَرَوِيٌّ أزهريٌّ، لكنه مشهور بالأزهري، وكلامه هذا في تهذيب اللغة ١٥/ ٥١٢ ـ ٥١٣، وما بين حاصرتين منه، وأبو بكر المذكور: هو أحد رجال الإسناد في روايته.

(١) في (د) و(ز): خاتم.

(٢) كذا أورده الأزهري في تهذيبه ١٥/ ٥١٣، ونسبه لأبي هريرة، ولم نعثر له على مصدر آخر.

(٣) أحكام القرآن ١/ ٦. وينظر مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٢٦، والمحرر الوجيز ١/ ٧٩.

(٤) الصحاح (أمن).

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٨٤، وإسناد الخبر ضعيف جدًا من أجل الكلبي وأبي صالح، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٧، ونسبه للثعلبي. وقد سلف ذكره في باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي.

(٦) في (ظ): الدعاء.

(٧) في (د) و(ز): البركة. وذكر الخبر أبو الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٨٤، وفيه: واستنزال للرحمة، وأورده النووي في التبيان ص ١٢٥، ونسبه لأبي بكر الورَّاق.

(٨) في (ز): أملنا.

(٩) قوله: الخامسة، ليس في (د) و(ز).

(١٠) هو مجنون ليلى، قيس بن معاذ، ويقال: قيس بن الملوّح. والبيت في ديوانه ص ٢٨٣، وأورده ابن منظور في اللسان (أمن)، ونسبه لعمر بن أبي ربيعة.

(١١) قوله: في المد، ليس في (ظ).

يا رَبِّ لا تَسلُبَنِّي حُبَّها أبداً ... ويَرحَمُ اللهُ عَبداً قالَ: آمِينا

وقال آخر:

آمينَ آمينَ لا أَرضَى بواحدة ... حَتَّى أُبلِّغَها ألفَينِ آمِينا[1]

وقال آخر فقصر[2]:

تَباعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ إذ سَألْتُهُ ... أَمِينَ فزاد اللهُ ما بينَنا بُعدا[3]

وتشديدُ الميم خطأٌ. قاله الجوهري[4]. وقد رُوِيَ عن الحسن وجعفر الصَّادق التشديدُ[5]، وهو قولُ الحسين بن الفَضل، مِن: أَمَّ، إذا قَصَدَ، أي: نحن قاصِدون نحوَك، ومنه قولُه: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. حكاه أبو نصر عبدُ الرحيم بن عبد الكريم القُشَيرِيُّ[6]. قال الجوهري: وهو مبنيٌّ على الفتح، مثلُ: أينَ وكيفَ، لاجتماع الساكنين. وتقول منه: أَمَّنَ فلانٌ تأمينا.

السادسة[7]: اختلفَ العلماءُ: هل يقولُها الإمامُ، وهل يَجْهَرُ بها؟

فذهب الشافعيُّ ومالكٌ في روايةِ المدنيِّين إلى ذلك. وقال الكوفيون وبعضُ المدنيِّين: لا يَجهَرُ بها. وهو قولُ الطبري[8]. وبه قال ابنُ حَبِيب من علمائنا.

وقال ابنُ بُكَير: هو مُخَيَّرٌ. وروى ابنُ القاسم، عن مالك، أنَّ الإمامَ لا يقولُ: آمينَ[9]، وإنما يقولُ ذلك مَن خلفَه، وهو قولُ ابنِ القاسم والمصريين من أصحاب

---

(١) ذكره ابن عطية في تفسيره ١/ ٨٠.

(٢) في (م): في القصر.

(٣) أورده الجوهري في الصحاح، وابن منظور في اللسان (أمن) و(فطحل)، وأورده أيضاً ابن منظور في اللسان (فحطل) (بتقديم الحاء)، وبهذا اللفظ وقع في التمهيد ٧/ ١١.

(٤) الصحاح (أمن).

(٥) ذكره النووي في التبيان ص ١٢٦، ونسبه للواحدي، واستغربَ التشديد، وقال: عدَّها أكثر أهل اللغة من لحن العوام، وقال جماعة من أصحابنا: من قالها في الصلاة، بطلت صلاتُه.

(٦) هو ابنُ أبي القاسم القشيري، النيسابوري، مات سنة (٥١٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٢٦.

(٧) في (د) و(ز): الخامسة.

(٨) لم نقف على قول الطبري، ونقله المصنف عن الاستذكار ٤/ ٢٥٤، والتمهيد ٧/ ١٣.

(٩) قال ابن عطية في تفسيره ١/ ٧٩: رُوي عن مالك أن الإمام يقولها، أسرَّ، أم جَهَرَ، ورُوي عنه أن الإمام لا يؤمِّن في الجهر، وقال ابن حبيب: يؤمِّن، وقال ابن بُكير: هو مخيَّر. وينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧.

مالك[١]. وحُجَّتُهم حديثُ أبي موسى الأشعري: إنَّ رسولَ الله ﷺ خَطَبَنا، فَبيَّنَ لنا سُنَّتَنا، وعَلَّمَنا صلاتَنا، فقال: «إذا صَلَّيتُم، فأقيموا صُفوفَكُم، ثم لْيَؤُمَّكُم أحدُكم، فإذا كَبَّرَ، فكبِّروا، وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمينَ، يُجِبْكُم اللهُ». وذكرَ الحديثَ. أخرجه مسلمٌ[٢]. ومثلُه حديثُ سُمَيٍّ، [عن أبي صالح السَّمَّان]، عن أبي هريرةَ، أخرجه مالكٌ[٣].

والصحيحُ الأوَّلُ، لحديث وائل بنِ حُجرٍ[٤] قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «آمين»، يَرفَعُ بها صوتَه. أخرجه أبو داود والدارقطني. وزاد: قال أبو بكر: هذه سُنَّةٌ تفرَّدَ بها أهلُ الكوفة. هذا صحيحٌ والذي بعدَه[٥].

وترجمَ البخاريُّ: باب جَهرِ الإمام بالتأمين، وقال عطاء: آمينَ دعاءٌ، أَمَّنَ ابنُ الزبير ومَن وراءَه حتى إنَّ للمسجدِ لَلَجَّة[٦].

قال الترمذي: وبه يقولُ غيرُ واحد من أهل العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ [والتابعين] ومَن بعدَهم، يَرَونَ أن يرفعَ الرجلُ صوتَه بالتأمين، لا يُخفِيها. وبه يقولُ الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ[٧]. وفي «الموطأ» و«الصحيحين»: قال ابنُ شهاب: وكان رسولُ الله ﷺ يقول: «آمين»[٨].

---

(١) الاستذكار ٤/ ٢٥٣.

(٢) صحيح مسلم (٤٠٤)، وهو في المسند (١٩٦٦٥).

(٣) الموطأ ١/ ٨٧، واستُدرك منه مابين حاصرتين الراوي بين سُمَيّ وأبي هريرة، وقد سقط من النسخ الخطية و(م)، وهو في المسند (٩٩٢٢)، وصحيح البخاري (٧٨٢).

(٤) الحضرمي، الصحابي، كان من ملوك اليمن، ويقال: كان على راية قومه يوم صفّين مع علي رضي الله عنه، ثم تابع معاويةَ لما دخل الكوفة، ومات في ولاية معاوية. السير ٢/ ٥٧٢.

(٥) سنن أبي داود (٩٣٢)، وسنن الدارقطني ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، وعنده: يمدُّ بها صوته، وهو في المسند (١٨٨٤٢). وأبو بكر المذكور: هو عبد الله بن أبي داود السجستاني شيخُ الدارقطني، وقد روى عنه هذا الحديث، وقوله: هذا صحيح والذي بعده، هو من كلام الدارقطني، يعني أن الدارقطني صحَّح هذا الحديث، والحديثَ الذي بعده، وهو بنحوه، وقد ساقه الدارقطني بعده، وفيه: يرفعُ صوتَه بآمين.

(٦) صحيح البخاري، باب جهر الإمام بالتأمين، قبل الحديث (٧٨٠).

(٧) سنن الترمذي، بإثر الحديث (٢٤٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٨) الموطأ ١/ ٨٧، وصحيح البخاري بإثر الحديثِ (٧٨٠)، وصحيح مسلم بإثر الحديث (٤١٠).

وفي «سنن» ابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: تَرَكَ الناسُ آمينَ، وكان رسولُ الله ﷺ إذا قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: «آمينَ»، حتى يَسمَعَها أهلُ الصَّفِّ الأوَّلِ، فيَرتَجُّ بها المسجدُ[(١)].

وأما حديثُ أبي موسى وسُمَيٍّ، فمعناهما التعريفُ بالموضع الذي يُقال فيه: آمين، وهو إذا قال الإمامُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليكونَ قولُهما معاً، ولا يتقدَّموه بقول: آمين، لما ذكرناه، والله أعلم. ولقوله ﷺ: «إذا أَمَّنَ الإمامُ، فأمِّنوا».

وقال ابنُ نافع في كتاب ابن الحارث[(٢)]: لا يقولُها المأمومُ إلا أن يَسمَعَ الإمامَ يقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وإن[(٣)] كان بِبُعد لا يَسمَعُه، فلا يَقُل.

وقال ابنُ عَبدوس[(٤)]: يَتَحَرَّى قَدرَ القراءة، ويقولُ: آمينَ[(٥)].

السابعة[(٦)]: قال أصحابُ أبي حنيفة: الإخفاءُ بآمين أولى[(٧)] من الجَهرِ بها؛ لأنه دعاءٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، قالوا: والدليلُ عليه ما رُوِيَ في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، قال: كان موسى يدعُو، وهارونُ يُؤَمِّنُ، فَسَمَّاهُما اللهُ داعِيَين[(٨)].

---

(١) سنن ابن ماجه (٨٥٣)، وفي إسناده: بشر بن رافع الحارثي، وهو ضعيف الحديث، وأبو عبد الله الدَّوسي ابنُ عم أبي هريرة، وهو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه بشر بن رافع، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٥٤٥: لا يُعرف.

(٢) هو محمد بن حارث بن أسد، الخشني، القيرواني، أبو عبد الله. توفي سنة (٣٦١هـ). ذكر له الذهبي في السير ١٦/ ١٦٦ عدة كتب، منهاالاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، ولعل قول ابن نافع (وهو عبد الله) الذي نقله عنه ابن الحارث، هو في كتابه هذا.

(٣) في (م): وإذا.

(٤) محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله، فقيه المغرب، توفي قريباً من سنة ستين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٣.

(٥) من قوله: وقال ابن نافع ... من المحرر الوجيز ١/ ٧٩ ـ ٨٠.

(٦) في (د) و(ز): السادسة.

(٧) في (ظ): أفضل.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٢٧١ من قول عكرمة، ورُوي مرفوعاً بإسناد ضعيف جدًا.

والجواب: أنَّ إخفاءَ الدعاءِ إنما كان أفضلَ، لما يدخلُه من الرِّياء. وأما ما يتعلَّقُ بصلاة الجماعة، فشهودُها إشهارُ شِعارٍ ظاهر، وإظهارُ حقٍّ يُندَبُ العبادُ إلى إظهاره. وقد نُدِبَ الإمامُ إلى إشهار قراءةِ الفاتحة المُشتَمِلَةِ على الدُّعاء والتأمين في آخرها، فإذا كان الدُّعاءُ مما يُسَنُّ الجَهرُ فيه، فالتأمين على الدعاء تابعٌ له، وجارٍ مَجراه، وهذا بَيِّنٌ.

الثامنة[١]: كلمةُ «آمينَ» لم تكُن قبلَنا إلا لموسى وهارونَ عليهما السلام. ذكرالترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»: حدثنا عبدُ الوارث بن عبد الصمد، قال: حدثنا أَبي، قال: حدثنا زَرْبِي[٢] مُؤَذِّنُ مسجدِ هشام بنِ حسَّان، قال: حدثنا أنسُ بنُ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أعطَى أُمَّتي ثلاثاً لم يُعطِ[٣] أحداً قبلَهم: السلامَ، هو تَحِيَّةُ أهلِ الجنة، وصفوفَ الملائكة، وآمينَ، إلا ما كان من موسى وهارونَ»[٤]. قال أبو عبد الله: معناه أنَّ موسى دعا على فرعونَ، وأَمَّنَ هارونُ، فقال اللهُ تبارك اسمُه عندما ذَكَرَ دعاءَ موسى في تنزيله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، ولم يَذكُر مقالةَ هارونَ. وقال موسى: رَبَّنا، فكان مِن هارونَ التأمينُ، فسمَّاه داعياً في تنزيله، إذ صَيَّرَ ذلك منه دَعوَةً[٥].

وقد قيل: إنَّ «آمينَ» خاصٌّ لهذه الأمة، لِما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما حَسَدَتْكُمُ اليهودُ على شَيء، ما حَسَدَتكُم على السلام والتَّأمِينِ». أخرجه ابنُ ماجه من حديث حَمَّادِ بنِ سَلَمَة، عن سُهَيلِ بنِ أبي صالح، عن أبيه، عن عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال... الحديث[٦].

---

(١) في (د) و(ز): السابعة.

(٢) تحرف في النسخ و(م) إلى: رزين.

(٣) في (م): تُعطَ.

(٤) نوادر الأصول ص ١٨٥. زَرْبِي ـ وهو ابنُ عبد الله الأزدي ـ قال الترمذي بإثر (١٩١٩): له أحاديث مناكير عن أنس بن مالك وغيره، وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٣١٢: منكر الحديث على قلة روايته، يروي عن أنس ما لا أصل له، فلا يجوز الاحتجاج به.

(٥) لم نقف على هذا الكلام في نوادر الأصول.

(٦) سنن ابن ماجه (٨٥٦)، وإسناده صحيح. أبو صالح: هو ذكوان السَّمَّان.

وأخرج أيضاً من حديثِ ابنِ عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما حَسَدَتْكُمُ اليهودُ على شيء ما حَسَدَتكُم على آمينَ[١]، فأكثِرُوا من قول آمينَ»[٢].

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما حَسَدَنا أهلُ الكتابِ؛ لأنَّ أوَّلَها حَمدٌ لله، وثَناءٌ عليه، ثمَّ خُضُوعٌ له واستِكانةٌ، ثم دُعاءٌ لنا بالهِدايةِ إلى الصِّراطِ[٣] المستقيم، ثم الدعاءُ عليهم مع قولنا: آمين.

الباب الرابع

فيما تَضَمَّنَته الفاتحةُ من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين

وفيه ستٌّ وثلاثون مسألة:

الأولى: قولُه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رَوى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخُدريّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قال العبدُ: الحمدُ لله، قال الله: صَدَقَ عبدي، الحمدُ لي»[٤].

ورَوَى مسلم عن أنس بنِ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرضَى عن العَبدِ أن يَأكُلَ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عليها، أو يَشرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحمَدَهُ عليها»[٥].

وقال الحسنُ: ما مِن نِعمَة إلاَّ والحمدُ لله أفضَلُ منها[٦].

وروى ابنُ ماجه عن أنس بن مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أَنعَمَ اللهُ على

---

(١) في (د) و(ظ): التأمين.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٥٧).

(٣) في النسخ الخطية: والصراط، بدل: إلى الصراط، والمثبت من (م).

(٤) وأخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٩٧٧٤) مطولاً. قال: الترمذي: حديث حسن غريب. وذكر الترمذي والنسائي أن شعبة رواه، ولم يرفعه.

(٥) صحيح مسلم (٢٧٣٤): (٨٩)، وهو عند أحمد برقم (١٢١٦٨).

(٦) ذكر البيهقي نحوه في شعب الإيمان بإثر الحديث (٤٤٠٤)، وأخرجه أيضاً (٤٤٠٦) من قول الحسن بلفظ حديث أنس الذي يليه.

عَبد نِعمَةً، فقال: الحمدُ لله، إلا كان الذي أعطاه أفضَلَ ممَّا أَخَذَ»[١].

وفي «نوادِر الأصول» عن أنس بنِ مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَو أنَّ الدُّنيا كلَّها بِحَذافِيرِها بيدِ رجل من أُمَّتي، ثم قال: الحمدُ لله، لكانتِ الحَمدُ لله أفضَلَ من ذلك». قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه مَن أُعطِيَ الدُّنيا، ثم أُعطِيَ على أثَرِها هذه الكلمةَ حتى نَطَقَ بها، لكانت[٢] هذه الكلمةُ أفضلَ من الدنيا كلِّها؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ، والكلمةَ باقِيةٌ، هي من الباقياتِ الصالحاتِ. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وقيل في بعض الروايات: لكان ما أعطَى أفضلَ ممَّا أَخَذَ[٣].

فَصَيَّرَ الكلمةَ إعطاءً من العبد، والدنيا أخذاً من الله، فهذا في التدبير[٤]. كذاك يجري في الكلام، أنَّ هذه الكلمةَ من العبد، والدُّنيا من الله، وكلاهما من اللهِ في الأصل: الدنيا منه، والكلمةُ منه، أعطاه الدنيا، فأغناه، وأعطاه الكلمةَ، فَشرَّفَهُ بها في الآخرة.

ورَوَى ابنُ ماجه عن ابن عمرَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثهم: «أنَّ عبداً من عبادِ الله قال: ياربِّ، لك الحَمدُ كما يَنبَغِي لِجَلالِ وَجهِكَ، وعَظِيمِ سُلطانِكَ، فَعَضَّلَتْ بالمَلَكَينِ، فلم يَدرِيَا كيف يَكتُبانِها، فَصَعِدا إلى السماء، فقالا: يا رَبَّنا، إنَّ عبداً[٥] قد قالَ مَقالةً لا ندري كيف نَكتُبُها، قال اللهُ عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلمُ بما قال عبدُه ـ ماذا قال عبدي؟ قالا: يارب، إنه قد قالَ: يارَبِّ، لك الحمدُ، كما يَنبَغي لجلالِ وَجهِكَ، وعظيمِ سُلطانِكَ، فقال اللهُ لهما: اكتُباها كما قال عبدي، حتى يَلقَاني، فَأَجزِيَهُ بها»[٦].

قال أهلُ اللغة: أعضَلَ الأمرُ: اشتَدَّ، واستَغلَقَ، والمُعَضِّلاتُ ـ بتشديد الضاد ـ:

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٠٥).

(٢) في النسخ: أنه قد أعطي الدنيا . . . فكانت، والمثبت من النوادر.

(٣) في النسخ و(م): أكثر مما أخذ، والمثبت من نوادر الأصول ص٢١٥ ـ ٢١٦.

(٤) في (د): التذكير.

(٥) في (م): وقالا: ياربنا إن عبدك.

(٦) سنن ابن ماجه (٣٨٠١).

الشدائدُ[١]. وعَضَّلَتِ المرأةُ والشاة: إذا نَشِبَ ولدُها، فلم يَسهُل مَخرجُه، بتشديد الضاد أيضاً. فعلى هذا يكون: أَعْضَلَتِ المَلَكَينِ، أو عَضَّلَتِ المَلَكَين، بغير باء. والله أعلم.

ورَوَى مسلم[٢] عن أبي مالك الأشعريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الطُّهور شَطرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأُ الميزان، وسبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ تملآنِ ـ أو تملأُ ـ ما بين السماءِ والأرضِ». وذكرَ الحديث[٣].

الثانية: اختلف العلماءُ أيُّما أفضلُ: قولُ العبدِ: الحمدُ لله ربِّ العالمين، أو قولُ: لا إلهَ إلا اللهُ؟ فقالت طائفةٌ: قولُه: الحمدُ لله ربِّ العالمين أفضلُ؛ لأنَّ في ضِمنِهِ التوحيدَ، الذي هو: لا إله إلا اللهُ، ففي قولِهِ توحيدٌ وحَمدٌ. وفي قولِه: لا إلهَ إلا اللهُ، توحيدٌ فقط.

وقالت طائفةٌ: لا إلهَ إلا اللهُ أفضلُ؛ لأنها تَدفَعُ الكُفرَ والإشراكَ، وعليها يُقاتَلُ الخَلقُ. قال رسولُ الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ»[٤]. واختار هذا القولَ ابنُ عطية[٥]؛ قال: والحاكِمُ بذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «أفضلُ ما قلتُ[٦] أنا والنبيون مِن قَبلِي: لا إله إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له»[٧].

الثالثة: أجمع المسلمون على أنَّ اللهَ محمودٌ على سائرِ نِعَمِهِ، وأنَّ مما أنعم اللهُ به الإيمانَ، فَدَلَّ على أنَّ الإيمانَ فِعلُه وخَلقُهُ، والدليلُ على ذلك قولُه: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

---

(١) وفي الصحاح واللسان والقاموس وغيرها: المُعْضِلات، بالتخفيف.

(٢) في (د) و(م): وروي عن مسلم، ولم ترد في (ظ)، والمثبت من (ز).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٣). وهو في مسند أحمد (٢٢٩٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (٨٥٤٤)، والبخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١): (٣٣) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١١٧)، والبخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠): (٣٢) من حديث عمر. وأخرجه أحمد (١٣٠٥٦)، والبخاري (٣٩٢) من حديث أنس. وأخرجه أحمد (١٤٢٠٩)، ومسلم (٢١): (٣٥) من حديث جابر. وأخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢): (٣٦) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٦٦.

(٦) في (د) و(ز): قلته.

(٧) أخرجه أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما.

والعالَمون جُملَةُ المخلوقات، ومِن جُملَتِها الإيمانُ، لا كما قال القَدَرِيَّةُ: إنه خَلْقٌ لهم، على ما يأتي بيانُه[١].

الرابعة: الحمدُ في كلام العرب معناهُ: الثناءُ الكاملُ. والألفُ واللامُ لاستغراقِ الجِنسِ من المحامد، فهو سبحانه يَستَحِقُّ الحمدَ بأجمَعِهِ، إذ له الأسماءُ الحسنى، والصِّفاتُ العُلا.

وقد جُمِعَ لفظُ الحمد جَمعَ القِلَّةِ في قول الشاعر:

وأبلَجَ محمودِ الثَّناءِ خَصَصْتُه بأفضَلِ أقوالي وأفضَلِ أحْمُدي[٢]

فالحمدُ نقيضُ الذَّمِّ، تقول: حَمِدتُ الرجلَ أَحمَدُه حَمداً، فهو حميدٌ ومحمودٌ. والتَّحمِيدُ أبلغُ من الحمدِ. والحمدُ أَعَمُّ من الشُّكر، والمُحَمَّدُ: الذي كَثُرت خِصالُه المحمودةُ. قال الشاعر[٣]:

إلى الماجد القَرْمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ

وبذلك سُمِّيَ رسولُ الله ﷺ. وقال الشاعر[٤]:

فَشَقَّ له مِنِ اسمِهِ لِيُجِلَّهُ فذُو العَرشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحمَدة: خلافُ المَذَمَّةِ. وأَحمَدَ الرجلُ: صار أَمرُهُ إلى الحَمدِ. وأَحمَدْتُهُ: وَجَدتُه محموداً، تقول: أتيتُ موضعَ كذا، فأَحمَدتُهُ، أي: صادفتُه محموداً مُوافِقاً، وذلك إذا رَضِيتَ سُكْناه أو مَرْعاه. ورجلٌ حُمَدَةٌ ـ مثل[٥] هُمَزَة ـ يُكثِرُ حَمدَ الأشياء، ويقولُ فيها أكثرَ ممَّا فيها. وحَمَدَةُ النَّارِ ـ بالتحريك ـ: صوتُ التهابِها[٦].

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

(٢) أورده أبو حيان في البحر المحيط ١/ ١٨، والسمين الحلبي في الدر المصون ١/ ٣٨ ـ وعنه ابنُ عادل الحنبلي في اللباب ١/ ١٧٠ ـ ونقلوه عن ابن الأعرابي، حيث حكى جمع الحمد على أفْعُل، وقالوا: الأصل فيه المصدرية، فلذلك لا يثنى، ولا يُجمع.

(٣) هو الأعشى ميمون بن قيس، والبيت في ديوانه ص ٢٣٩، وفيه: الفَرْع، بدل: القَرْم، وصدرُه:
إليك أبَيْتَ اللَّعْنَ كان كَلالُها
وهو من قصيدة يمدحُ فيها النعمانَ بنَ المنذر. قوله: القَرْم، يعني السيِّدَ المعظَّم.

(٤) هو حسان بن ثابت، رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص ٤٧ و ٩٢.

(٥) في (د) و(ز): مثال.

(٦) الصحاح (حمد).

الخامسة: ذهب أبو جعفر الطبريُّ وأبو العباس المبرد إلى أنَّ الحَمدَ والشُّكرَ بمعنًى واحدٍ سواء. وليس بِمَرْضِيٍّ. وحكاه أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ[١] في كتاب «الحقائق» له، عن جعفر الصادقِ وابن عطاء[٢]. قال ابنُ عطاء: معناه الشُّكرُ لله، إذ كان منه الامتنانُ على تعليمِنا إِيَّاه حتى حَمِدناه.

واستدلَّ الطبريُّ على أنهما بمعنًى، بِصِحَّةِ قولك: الحمدُ لله شُكراً[٣]. قال ابنُ عطيَّة: وهو في الحقيقةِ دليلٌ على خِلافِ ما ذَهَبَ إليه؛ لأنَّ قولَكَ: شُكراً، إنما خَصَصتَ به الحمدَ أنه[٤] على نِعمَة من النِّعَمِ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّ الشُّكرَ أعمُّ من الحمد؛ لأنه باللِّسان وبالجوارح والقلب، والحمدُ إنما يكونُ باللِّسان خاصَّةً. وقيل: الحمدُ أعمُّ؛ لأنَّ فيه معنى الشُّكرِ، ومعنى المَدحِ، وهو أعمُّ من الشُّكر؛ لأنَّ الحَمدَ يُوضَعُ مَوضِعَ الشُّكر، ولا يُوضَعُ الشُّكرُ مَوضِعَ الحَمدِ.

ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: الحمدُ لله كلمةُ كلِّ شاكر[٥]، وإنَّ آدمَ عليه السلام قال حين عَطَسَ: الحمدُ لله[٦]. وقال اللهُ لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]. وقال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقال في قصة داودَ وسليمانَ: ﴿وَقَالَا

---

(١) محمد بن الحسين بن محمد، الأزديُّ، السُّلَميُّ الأمِّ، صاحب طبقات الصوفية وغيره. توفي سنة (٤١٢هـ). السير ١٧/ ٢٤٧. وكتاب الحقائق الذي ذكره له المصنف، اسمه حقائق التفسير؛ قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ٣/١٠٤٦: أتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية، نسأل الله العافية.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس الأدمي، البغدادي، مات سنة (٣٠٩هـ). السير ١٤/ ٢٥٥.

(٣) هو في تفسيره ١/١٣٧-١٣٨، لكن المصنِّف نقل ذلك عن ابن عطية في تفسيره ١/ ٦٦.

(٤) في (د) و(ظ) و(م): لأنه، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لتفسير ابن عطية.

(٥) أورد ابن جرير في تفسيره ١/ ١٣٦ قول ابن عباس: الحمد لله هو الشكر. وأورد السيوطي في الدر المنثور ١/ ١١، عن ابن عباس أيضاً قوله: الحمد لله كلمة الشكر.

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) وحسَّنه، والنسائي في الكبرى (٩٩٧٥) و(٩٩٧٦).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وقال لِنبيِّه ﷺ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال أهلُ الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. فهي كلمةُ كلِّ شاكرٍ.

قلت: الصحيحُ أنَّ الحمدَ ثناءٌ على الممدوح بصفاته، من غير سَبقِ إحسان، والشُّكر ثناءٌ على المشكورِ بما أولَى من الإحسان. وعلى هذا الحدِّ قال علماؤنا: الحمدُ أعمُّ من الشُّكر؛ لأنَّ الحمدَ يَقَعُ على الثناء، وعلى التَّحميدِ، وعلى الشُّكرِ، والجزاءُ مخصوصٌ، إنما يكون مُكافأةً لمن أولاكَ معروفاً، فصار الحمدُ أعمَّ في الآية؛ لأنه يَزِيدُ على الشُّكرِ.

ويُذكَرُ الحمدُ بمعنى الرِّضا، يقال: بَلَوتُه، فَحَمِدتُه، أي: رَضِيتُه. ومنه قولُه تعالى: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقال ﷺ: «أحمَدُ إليكم غَسْلَ الإحليل»[١] أي: أرضاه لكم.

ويُذكَرُ عن جعفر الصادقِ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مَن حَمِدَهُ بصفاته كما وَصَفَ نفسَه، فقد حَمِدَ؛ لأنَّ الحمدَ حاءٌ وميمٌ ودالٌ، فالحاءُ مِنَ الوَحدانِيَّةِ، والميمُ مِنَ المُلْكِ، والدَّالُ مِنَ الدَّيمومِيَّةِ، فَمَنْ عَرَفَهُ بالوَحدانيَّةِ والدَّيموميَّةِ والمُلكِ، فقد عَرَفَهُ، وهذا هو حقيقةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال شقيقُ بن إبراهيمَ[٢] في تفسير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: هو على ثلاثةِ أوجه: أوَّلُها: إذا أعطاك اللهُ شيئاً، تَعرِفُ مَن أعطاكَ. والثاني: أن تَرضَى بما أعطاكَ. والثالث: ما دامَت قُوَّتُه في جسدِك ألا تَعصِيَه[٣]. فهذه شرائِطُ الحَمد.

السادسة: أثنَى اللهُ سبحانَه بالحمدِ على نفسِهِ، وافتتح كتابَه بحمده، ولم يَأذَن في ذلك لغيره، بل نهاهُم عن ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيِّه عليه الصلاة والسلام،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٥٤، عن ابن عباس موقوفاً.

(٢) أبو علي البلخيّ، الأزديّ، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بنَ أدهم. قُتل في غزاة كُولان سنة (١٩٤هـ). السير ٩/ ٣١٣.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٩).

فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أُحثُوا في وجوه المدَّاحين التُّرابَ». رواه المِقدادُ [١]. وسيأتي القولُ فيه في «النساء» إن شاء اللهُ تعالى [٢].

فمعنى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: سَبَقَ الحمدُ منِّي لنفسي قبلَ أن يَحمَدَني أحدٌ من العالَمين، وحَمدِي نَفسي لنفسي في الأزَلِ لم يَكُن بِعِلَّةٍ [٣]، وحَمْدُ [٤] الخَلقِ مَشُوبٌ بالعِلَلِ.

قال علماؤنا: فَيُستَقْبَحُ من المخلوقِ الذي لم يُعْطَ الكمالَ أن يَحمَدَ نفسَه، لِيستَجلِبَ لها المنافع، ويَدفَعَ عنها المَضارَّ.

وقيل: لمَّا عَلِمَ سبحانَه عَجْزَ عبادِهِ عن حَمدِهِ، حَمِدَ نفسَه بنفسه لنفسه في الأزَلِ [٥]، فاستفراغُ طَوْقِ [٦] عبادِهِ هو مَحَلُّ العَجزِ عن حَمدِهِ. ألا ترى سَيِّدَ المرسلين كيف أظهَرَ العَجزَ بقوله: «لا أُحصِي ثناءً عليك»؟ [٧].

وأنشدوا:

إذا نحن أثنَينا عليك بصالح ... فأنتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذي نُثْنِي [٨]

وقيل: حَمِدَ نفسَه في الأزَلِ، لِمَا عَلِمَ من كَثرةِ نِعَمِهِ على عبادِهِ، وعَجزِهم عن القيام بواجب حَمدِهِ، فَحَمِدَ نفسَه عنهم، لتكونَ النِّعمَةُ أهنأَ لديهم، حيث أسقطَ عنهم به ثِقَلَ المِنَّةِ.

السابعة: وأجمع القُرَّاءُ السبعةُ، وجمهورُ الناس، على رَفعِ الدَّالِ من ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٢٤) بهذا اللفظ، وبنحوه أخرجه مسلم (٣٠٠٢).

(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الآية (٤٩).

(٣) في (د) و(ظ): لعلة.

(٤) تحرف في (م) إلى: وحمدي.

(٥) في (ظ): حمد نفسه بنفسه في الأزل.

(٦) في النسخ الخطية: طرق، والمثبت من (م).

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣١٢)، ومسلم (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد أيضاً (٧٥١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٨) البيت لأبي نُواس في قصيدة يمدح بها الأمين بن الرشيد، انظر ديوانه ص ٦٤٧.

ورُوِيَ عن سفيانَ بنِ عُيَينَةَ ورُؤبَةَ بنِ العَجَّاج[١]: «الحمدَ لله»، بنصب الدَّال، وهذا على إضمارِ فِعلٍ[٢].

ويقال: «الحمدُ لله» بالرفع: مبتدأ وخبرٌ. وسبيلُ الخبر أن يُفيدَ، فما الفائدةُ في هذا؟ فالجوابُ أنَّ سيبويهِ قال: إذا قال الرجلُ: الحمدُ لله، بالرفع، ففيه من المعنى مثلُ ما في قولك: حَمِدتُ اللهَ حَمْداً، إلا أنَّ الذي يرفعُ «الحمدَ» يُخبِرُ أنَّ الحمدَ منه، ومِن جميع الخَلقِ لله. والذي يَنصِبُ «الحمدَ»، يُخبِرُ أنَّ الحمدَ منه وحدَه لله[٣].

وقال غيرُ سيبويهِ: إنما يتكلَّمُ بهذا تَعرُّضاً لعفوِ الله ومَغفِرَتِه، وتعظيماً له وتَمجيداً، فهو خِلافُ معنى الخبرِ، وفيه معنى السؤالِ. وفي الحديث: «مَن شُغِلَ بذكري عن مسألتي، أَعطَيتُهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين»[٤].

وقيل: إنَّ مَدْحَه عزَّ وجلَّ لنفسه وثناءَه عليها، لِيُعَلِّمَ ذلك عبادَه. فالمعنى على هذا: قولوا: الحمدُ لله[٥]. قال الطبري: «الحمد لله» ثناءٌ أثنَى به على نفسه، وفي ضِمنِهِ أَمَرَ عبادَه أن يُثْنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: الحمدُ لله. وعلى هذا يجيء: قولوا: إيَّاكَ. وهذا[٦] مِن حَذْفِ العرب ما يَدُلُّ ظاهرُ الكلام عليه. كما قال الشاعر:

وأعلَمُ أنَّني سأكونُ رَمْساً إذا سارَ النواعِجُ لا يَسيرُ
فقالَ السائلون[٧] لِمَن حَفَرتُم فقالَ القائلون لهم وزيرُ[٨]

---

(١) التميمي، الراجز، من أعراب البصرة، كان رأساً في اللغة، توفي سنة (١٤٥هـ) السير ٦/ ١٦٢.

(٢) من قوله: وأجمع القراء .. من كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٦٦. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ القراءة على نصب الدال، ونسبها لرؤبة.

(٣) الكتاب ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) وغيره من حديث أبي سعيد الخدري، وسلف الكلام عليه ص ٩.

(٥) في (ظ): الحمد لله ربِّ العالمين.

(٦) في (ظ): قال: وهذا.

(٧) في (د) و(ظ). القائلون.

(٨) أوردهما الفرَّاء في معاني القرآن ١/ ١٧٠، والطبري ١/ ١٤٠ و١٧/ ٩٩، ونسباهما إلى بعض بني عامر، وهما في البيان والتبيين ٣/ ١٨٤ باختلاف في بعض الألفاظ، ونسبهما للوزيري. قوله: الرَّمس: هو القبر، والنواعج جمع ناعجة، وهي الناقة البيضاء والسريعة.

المعنى: المحفورُ له وزيرٌ، فَحُذِفَ لدلالة ظاهرِ الكلام عليه، وهذا كثيرٌ[١].

ورُوِيَ عن ابن أبي عَبلَة[٢]: «الحمدُ لُلّه» بضم الدَّال واللَّام على إتباع الثاني الأوَّلَ[٣]، وليتجانَسَ[٤] اللَّفظُ.

وطَلَبُ التجانُسِ في اللَّفظِ كثيرٌ في كلامهم، نحو: أجُوءُك، وهو مُنحَدُرٌ من الجبل، بضم الدَّالِ والجيم، قال:

إِضرِبِ الساقَينُ أُمُّكَ هابِلُ[٥]

بضم النون، لأجل ضَمِّ الهمزة.

وفي قراءة لأهل مَكَّةَ: «مُرُدِّفين» بضم الراء إتباعاً للميم[٦]، وعلى ذلك «مُقُبلين»[٧] بضم القاف. وقالوا: لإِمِّك، فكسروا الهمزةَ، إتباعاً للَّام، وأنشَدَ النعمانُ[٨] بنُ بَشير:

وَيْلِمِّها في هواء الجَوِّ طالبةً ... ولا كهذا[٩] الذي في الأرضِ مطْلُوبُ[١٠]

---

(١) من قوله: قال الطبري .. من تفسير ابن عطية ١/٦٦ - ٦٧، وهو في تفسير الطبري ١/١٣٩ - ١٤٠.

(٢) هو إبراهيم بن أبي عبلة، أبو إسحاق العقيلي، الشامي، المقدسي، من بقايا التابعين، توفي سنة (١٥٢هـ). السير ٦/ ٣٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٦٦. وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص ١.

(٤) في (ظ): ولتجانس.

(٥) أورده سيبويه في الكتاب ٤/١٤٦، وابن جني في الخصائص ٢/١٤٥ و٣/١٤١، وفي المحتسب ١/٣٨ وعنده: وقال اضربِ الساقين . . .، وذكرا فيها أيضاً كسر همزة «أمك» لانكسار النون قبلها، وذكره الإستراباذي في شرح الشافية ٢/ ٢٦٢ بلفظ: وقد أضربُ الساقين . . . وأوردها ابن منظور في اللسان (أمم) و(هبل). قوله: هابل، أي: ثَكْلَى.

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/٢٧٣، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٩، وذكر فيها كسر الراء أيضاً إتباعاً لكسرة الدال.

(٧) في (م): مقتلين، وهو تصحيف.

(٨) في (م): للنعمان.

(٩) في النسخ الخطية: هكذا، والمثبت من (م)، وهو الموافق للمصادر.

(١٠) وَيْلِمِّها؛ يقال بكسر اللام وضمِّها، وأورده سيبويه في كتابه ٤/١٤٧، ونسبه للنعمان بن بشير، وأورده أيضاً في ٢/ ٢٩٤، ونسبه لامرئ القيس، وكذلك نسبه ابن جني في سرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٣٥، وابن يعيش في شرح المفصَّل ٢/ ١١٤، وهو في ديوانه ص ٢٢٧ في زيادات نسخة الطوسي، وجاء في شرحها ما نصه: قالوا: قول العرب: ويلمه: اللفظ به ذمٌّ، وهو في الظاهر عندهم مدحٌ. والطالبةُ: العُقاب، وقولُه: ولا كهذا، يريد: الذئب، يقول: لم أر كنجائه وهربه منها نجاءً، وهو مطلوبٌ!.

الأصل: ويلٌ لأُمِّها، فحُذِفَتِ اللّامُ الأُولى، واستثقَل ضَمَّ الهمزة بعد الكسرة، فنقلها للّام، ثم أَتبَع اللّامَ الميمَ.

ورُوِيَ عن الحسن بن أبي الحسن وزيد بنِ عليٍّ[1]: «الحمدِ للهِ»[2] بكسر الدَّالِ على إِتباعِ الأوَّلِ الثانيَ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالكِهم، وكلُّ مَن مَلَكَ شيئاً، فهو رَبُّه. فالرَّبُّ: المالكُ. وفي «الصحاح»: والرَّبُّ اسمٌ من أسماءِ الله تعالى، ولا يُقال في غيرِه إلا بالإضافة، وقد قالُوه في الجاهلية للمَلِكِ. قال الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ[3]:

وهو الرَّبُّ والشَّهيدُ على يَو م الحِيَارَينِ والبَلاءُ بَلاءُ

والربُّ: السَّيِّدُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. وفي الحديث: «أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها»[4] أي: سَيِّدَتَها، وقد بيَّنَّاه في كتاب «التذكرة»[5].

والرَّبُّ: المُصلِحُ والمُدَبِّرُ، والجابرُ والقائمُ[6]؛ قال الهَرَوِيُّ وغيرُه: يقال لمن قامَ بإصلاحِ شيءٍ وإتمامِهِ: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له ورابٌّ، ومنه سُمِّيَ الرَّبَّانِيُّون، لقيامهم بالكُتُبِ[7]. وفي الحديث: «هل لَكَ مِن نِعمة تَرُبُّها عليه؟»[8] أي: تقومُ بها وتُصلِحُها.

والرَّبُّ: المعبود، ومنه قول الشاعر:

---

(١) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أبو الحسين الهاشمي المدني، كان ذا علم وصلاح، استُشهد سنة (١٢٢هـ) وهو ابنُ نيِّف وأربعين عاماً. السير ٥/ ٣٨٩.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٧.

(٣) اليشكري، أحد أصحاب المعلَّقات، والبيت في معلَّقته (٣٨) شرح القصائد العشر لابن الأنباري ص ٤٧٥. وذكر فيه أنه عنى بالرَّب: المنذر بنَ ماء السماء، وكان غزا أهل الحِيارَيْن، وقال: الحياران: بلدان، ورواه ابنُ الأعرابي: يوم الحِوارين. والبيت في الصحاح (والكلام منه)، واللسان (ربب).

(٤) قطعة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريلَ عليه السلام النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام وأشراط الساعة، أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨).

(٥) واسمه بتمامه: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ولم نعثر على هذا الكلام فيه.

(٦) يعني القائم بالأمور المصلح لما يفسد منها، كما في تفسير ابن عطية ١/ ٦٧.

(٧) غريب الحديث لابن سلام ٤/ ٤٢٠، ومشارق الأنوار ١/ ٢٧٨.

(٨) قطعة من حديث أبي هريرة في رجل زار أخاً له في الله، أخرجه أحمد (٩٢٩١)، ومسلم (٢٥٦٧).

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرأسِهِ ... لَقَد هانَ[١] مَن بالَت عليهِ الثَّعالِبُ[٢]

ويقال على التكثير: رَبَّاهُ وربَّبَه، وربَّتَهُ، حكاه النَّحاسُ[٣]. وفي «الصحاح»: ورَبَّ فلانٌ ولدَه يَرُبُّهُ رَبًّا، ورَبَّبَهُ، وتَرَبَّبَهُ، بمعنًى، أي: رَبَّاهُ. والمَربوبُ: المُرَبَّى.

التاسعة: قال بعضُ العلماء: إنَّ هذا الاسمَ هو اسمُ اللهِ الأعظمُ[٤]، لِكَثرةِ دعوةِ الدَّاعينَ به، وتَأَمَّلْ ذلك في القرآنِ، كما في آخر آل عمران، وسورة إبراهيم، وغيرِهما. ولِمَا يُشعِرُ به هذا الوَصفُ من الصِّلَةِ بين الرَّبِّ والمَربوبِ، مع مايَتَضَمَّنُهُ من العَطف، والرحمةِ، والافتقارِ في كلِّ حال.

واختُلِفَ في اشتقاقه، فقيل: إنه مُشتَقٌّ من التربيةِ، فالله سبحانه وتعالى مُدَبِّرٌ لِخَلقِهِ ومُرَبِّيهم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]. فسَمَّى بنتَ[٥] الزوجةِ رَبِيبة، لتربيةِ الزوجِ لها.

فعلى أنهُ مُدَبِّرٌ لِخَلقِهِ ومُرَبِّيهم، يكون صفةَ فِعلٍ. وعلى أنَّ الرَّبَّ بمعنى المالكِ والسَّيِّدِ، يكون صفةَ ذاتٍ[٦].

العاشرة: متى أُدخِلَتِ الألفُ واللَّامُ على «رب»، اختصَّ اللهُ تعالى به؛ لأنهما[٧] لِلعَهدِ، وإن حُذِفتا منه، صارَ مُشترَكاً بين اللهِ وبين عبادِهِ، فيقال: اللهُ رَبُّ العبادِ، وزيدٌ رَبُّ الدَّارِ. فاللهُ سبحانه ربُّ الأرباب، يَملِكُ المالكَ والمملوكَ، وهو خالقُ ذلك ورازِقُهُ، وكلُّ رَبٍّ سواه غيرُ خالقٍ ولا رازقٍ، وكلُّ مملوكٍ فَمُمَلَّكٌ بعد أن لم

---

(١) في (م): ذلَّ.

(٢) أورده أبو عبيد في كتاب الأمثال ص ١٢٢، وابن قتيبة في أدب الكاتب ص ١٠٣، وابن الأنباري في المذكر والمؤنث ١/ ١٣٩. قال البكري في فصل المقال ص ١٨٤: قيل: إن هذا البيت لعباس بن مرداس السلمي. ونقلَ عن كراع في كتابه المنضد قوله: إن البيت لأبي ذر الغفاري، قاله في الجاهلية في صنم كان لهم، وقد رأى ثعلباً يبولُ عليه!.

(٣) إعراب القرآن ١/ ١٧١، ومعاني القرآن ١/ ٦٠.

(٤) نوادر الأصول ص ٣٩٥. وأخرج ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣، والحاكم ١/ ٥٠٥ عن أبي الدرداء وابن عباس قالا: إن اسم الله الأكبر: ربّ ربّ. وسكت عنه الحاكم والذهبي.

(٥) في النسخ الخطية: ولد، والمثبت من (م).

(٦) هذا الكلام وما بعده في النكت والعيون (تفسير الماوردي) ١/ ٥٤.

(٧) في (د) و(م): لأنها.

يَكُن، ومُنتَزَعٌ ذلك من يَدِهِ، وإنما يَملِكُ شيئاً دون شيء. وصفةُ الله تعالى مخالفةٌ لهذه المعاني، فهذا الفَرقُ بين صفةِ الخالق والمخلوقين[١].

الحادية عشرة: قوله تعالى: «العالمين»: اختلفَ أهلُ التأويل في «العالَمين» اختلافاً كثيراً، فقال قتادةُ: العالَمون جمع عالَم[٢]، وهو كلُّ موجودٍ سوى اللهِ تعالى، ولا واحدَ له من لَفظِهِ، مثلُ رَهْط وقوم. وقيل: أهلُ كلِّ زمان عالَم[٣]. قاله الحسينُ بن الفَضلِ، لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس. وقال العَجَّاجُ[٤]:

فَخِنْدِفٌ هامةُ هذا العالَمِ

وقال جريرُ الخَطَفى[٥]:

تَنَصَّفُهُ البَرِيَّةُ وهوَ سامٍ ... ويُضحِي العالَمون له عِيالا

وقال ابنُ عباس: العالَمون: الجنُّ والإنسُ، دليلُه قولُه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ولم يَكُن نذيراً للبهائم[٦]. وقال الفرَّاءُ وأبو عُبيدةَ: العالَمُ عبارةٌ عمن يَعقِلُ، وهم أربعةُ أُمَم: الإنسُ، والجِنُّ، والملائكةُ، والشياطينُ. ولا يقال للبهائم: عالَمٌ؛ لأنَّ هذا الجمعَ إنما هو جَمعُ مَن يَعقِلُ خاصَّة.

قال الأعشى:

---

(١) في (ظ): والمخلوق.

(٢) أخرج الطبري ١/ ١٤٦ عن قتادة قوله: كلُّ صنف عالَم.

(٣) تفسير الطبري ١/ ١٤٤، والمحرر الوجيز ١/ ٦٧، والنكت والعيون (تفسير الماوردي) ١/ ٥٤.

(٤) عبد الله بن رُؤبة أبو الشعثاء، العجَّاج الراجز، لقي أبا هريرة، وسمع منه أحاديث. والشاهد الذي أورده له المصنف هو في ديوانه: ٦٠، وصدره:

مُبارَكٌ للأنبياءِ خاتَمُ

وهو من الرَّجَز، ونقل ابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ٩٠ عنه أنه كان يهمز العالم والخاتم. قوله: خِندِف: هي امرأة إلياس بن مضر بن نزار، واسمها ليلى. اللسان (خندف).

(٥) في (م): ابن الخَطَفى، والبيت في ديوانه ٢/ ٧٥٠، وفيه: ويُمْسِي العالَمون ... قوله: تَنَصَّفُهُ، أي: تطلبُ فضلَه.

(٦) تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٤١٦.

ما إن سَمِعْتُ بمثلِهِم في العالَمينا[١]

وقال زيدُ بنُ أَسلَمَ: هم المرتزقون. ونحوه قولُ أبي عمرو بن العلاء: هم الرُّوحانيُّون. وهو معنى قولِ ابن عباس أيضاً: كلُّ ذي رُوح دَبَّ على وجهِ الأرض[٢]. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: إنَّ لله عزَّ وجلَّ ثمانيةَ عشر ألفَ عالَم، الدنيا عالَمٌ منها. وقال أبو سعيد الخدري: إنَّ لله أربعين ألفَ عالَم، الدنيا من شرقِها إلى غربها عالَمٌ واحد. وقال مُقاتل[٣]: العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم في البَرّ، وأربعون ألفَ عالَم في البحر. وروى الربيعُ بنُ أنس، عن أبي العاليةِ قال: الجِنُّ عالَمٌ، والإنسُ عالَمٌ، وسوى ذلك للأرض أربعُ زوايا في كلِّ زاوية ألفٌ وخمسُ مئة عالَم، خَلَقَهُم لعبادتِه[٤].

قلت: والقولُ الأولُّ أصحُّ هذه الأقوالِ؛ لأنه شامِلٌ لكلِّ مخلوقٍ وموجود، دليلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤]. وهو[٥] مأخوذٌ من العَلَمِ والعَلامَةِ؛ لأنه يَدُلُّ على مُوجِدِهِ. كذا قال الزجَّاج[٦]. قال: العالَمُ: كلُّ ما خَلَقَه اللهُ في الدنيا والآخرة. وقال الخليلُ[٧]:

(١) لم نقف عليه للأعشى، وفي وزنه نظر، وقد ذكر صاحب الأغاني ١٥/ ٣٧٩ للبيد بن ربيعة قوله:
ما إن رأيتُ ولا سَمِعْـ ـتُ بمثلهم في العالمينا
وهو في ديوانه ص ٢١٥.

(٢) زاد المسير ١/ ١٢.

(٣) ابنُ سليمان البَلْخي، أبو الحسن، أجمعوا على تركه، وقال ابنُ المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. مات سنة نيف وخمسين ومئة. السير ٧/ ٢٠١.

(٤) أخرج قولَ وهب أبو الشيخ في العظمة (٩٥١)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٧٠، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٤١٦. وأخرج قول أبي العالية الطبريُّ في التفسير ١/ ١٤٦، وهذه الأخبار التي ذكرها المصنف في عدد العالَمين ليست من الصحيح في شيء. قال ابن كثير بعد أن أورد قولَ أبي العالية: وهذا كلام غريب، يحتاج مثله إلى دليل صحيح. وقال أبو حيان في البحر ١/ ١٨: ونُقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالَمين، الله أعلم بالصحيح.

(٥) في (م): ثم هو.

(٦) هذا كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٦٧. ثم نقل قول الزجاج عن الماوردي في تفسيره ١/ ٥٥. وينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦.

(٧) العين ٢/ ١٥٣ (علم).

العَلَمُ والعَلَامةُ والمَعلَمُ: ما دَلَّ على الشيء، فالعالَمُ دالٌّ على أنَّ له خالقاً ومُدبِّراً، وهذا واضحٌ. وقد ذُكر أنَّ رجلا قال بين يَدَي الجُنَيد[١]: الحمدُ لله، فقال له: أتِمَّها كما قال اللهُ، قُل: رَبِّ العالمين، فقال الرجلُ: ومَن «العالَمين» حتى تُذكَرَ مع الحَقِّ؟ قال: قُل يا أخي، فإنَّ المُحدَثَ إذا قُرِنَ مع القديم لا يَبقى له أثَرٌ.

الثانية عشرة: يجوزُ الرفعُ والنَّصبُ في «ربِّ»، فالنَّصبُ على المدح، والرفعُ على القَطعِ، أي: هو ربُّ العالمين.

الثالثة عشرة: قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وَصَفَ نفسَه تعالى بعد «رَبِّ العالمين» بأنه «الرحمن الرحيم»؛ لأنه لمَّا كان في اتِّصافه بـ «ربِّ العالمين» ترهيبٌ، قَرَنَهُ بـ «الرحمن الرحيم»، لِمَا تَضمَّنَ من الترغيب، لِيَجْمَعَ في صفاتِه بين الرَّهْبَةِ منه، والرَّغبَةِ إليه، فيكونَ أعوَنَ على طاعته وأمنَعَ، كما قال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَو يَعلَمُ المؤمنُ ما عِندَ اللهِ مِنَ العُقوبةِ، ما طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أحَدٌ. ولَو يَعلَمُ الكافرُ ما عِندَ الله مِنَ الرَّحمةِ، ما قَنَطَ من جَنَّتِهِ أحدٌ»[٢]. وقد تقدَّم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته.

الرابعة عشرة: قولُه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: قرأ محمدُ بنُ السَّمَيفَع[٣] بنصب «مالك».

وفيه أربعُ لُغَات: مالِكِ، ومَلِكِ، ومَلْكِ ـ مُخَفَّفة من مَلِكِ ـ ومَلِيكِ. قال الشاعر[٤]:

---

(١) ابن محمد بن الجُنيد النهاوندي، البغدادي، يُكنى أبا القاسم، توفي سنة (٢٩٨هـ). السير ١٤/ ٦٦.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٥٥)، وهو عند أحمد (٩١٦٤).

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن السَّمَيْفَع اليماني. قال الذهبي في معرفة القراء الكبار ١/ ٣٥٥: قراءته في عداد الشاذة، فمنها «مالكَ» بفتح الكاف. توفي سنة (٢١٣هـ)، وقيل: (٢١٥).

(٤) هو عمرو بن كلثوم، أحد أصحاب المعلَّقات، وسيورد المصنف البيت منسوباً له في الصفحة ٢٢٢.

وأيـــام لــنـــا غُـــرٌّ طِـــوال عَـصَـينا الـمَـلْـكَ فـيـهـا أن نَـدِيـنـا[١]

وقال آخرُ[٢]:

فَاقْنَعْ بما قَسَمَ المَلِيكُ فإنَّما قَسَمَ الخلائقَ بينَنا علاَّمُها

الخلائق: الطبائعُ التي جُبِلَ الإنسانُ عليها.

ورُوِيَ عن نافع إشباعُ الكسرة في «مَلِكِ»، فيقرأُ: «مَلِكِي» على لغةِ مَن يُشْبعُ الحركاتِ، وهي لغةٌ للعرب، ذكرَها المَهدَوِيُّ وغيرُه[٣].

الخامسة عشرة: اختلف العلماءُ أيُّما أبلغُ: مَلِكِ أو مالك؟ والقراءتان مَرويَّتان عن النبيِّ ﷺ، وأبي بكر وعمرَ. ذكرهما الترمذيُّ[٤]. فقيل: «مَلِك» أعمُّ، وأبلغُ من «مالك»، إذ كلُّ مَلِك مالِكٌ، وليس كلُّ مالِك مَلِكاً، ولأنَّ أمْرَ المَلِكِ نافذٌ على المالك في مِلكِهِ، حتى لا يتصرَّفَ إلا عن تدبير المَلِكِ. قاله أبو عُبيدة والمبرِّد. وقيل: «مالك» أبلغُ؛ لأنه يكونُ مالكاً للناس وغيرِهم، فالمالكُ أبلغُ تصرُّفاً وأعظمُ، إذ إليه إجراءُ قوانينِ الشرع، ثم عندَه زيادةُ التملُّكِ[٥].

وقال أبو عليٍّ: حكى أبو بكر بنُ السرَّاج عن بعض مَنِ اختارَ القراءَة بـ «مَلِكِ» أنَّ اللهَ سبحانه قد وَصَفَ نفسَه بأنه مالِكُ كلِّ شيء بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلا فائدة في قراءة مَن قرأ: «مالك»؛ لأنها تكرارٌ.

قال أبو عليٍّ: ولا حُجَّةَ في هذا؛ لأنَّ في التنزيل أشياءَ[٦] على هذه الصورةِ، تَقَدُّم العامِّ، ثم ذِكر الخاصّ، كقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فالخالقُ يَعُمُّ، وذَكَرَ المصوِّرَ، لما فيه من التَّنبيهِ على الصَّنْعةِ، ووجودِ[٧] الحِكمةِ.

---

(١) البيت رقم (٢٠) من معلقته في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٣٨٨. وقال في شرح الشطر الثاني منه: معناه عصينا الملك أن نطيعه، يقال: دِنْتُ لفلان، أي: دخلتُ في طاعته.

(٢) في النسخ الأصلية: آخر، دون لفظ «وقال» وهو لَبيد بنُ ربيعة، والبيت في ديوانه ص ١٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٦٨. والقراءة المتواترة عن نافع هي: مَلِكِ، وينظر البحر المحيط ١/ ٢٠.

(٤) سنن الترمذي (٢٩٢٧) و(٢٩٢٨). وقرأ عاصم والكسائي من السبعة: مالك، وقرأ الباقون: مَلِك. انظر السبعة ص ١٠٤، والتيسير ص ١٨.

(٥) النكت والعيون (تفسير الماوردي) ١/ ٥٦، والمحرر الوجيز ١/ ٦٩.

(٦) في (ز): إنشاء.

(٧) في (ز) و(ظ): ووجوه.

وكما قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، والغَيْبُ يَعُمُّ الآخرةَ وغيرَها، ولكن ذكرَها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرَّدِّ على الكفرة الجاحدين لها، وكما قال: «الرحمن الرحيم» فذَكَرَ «الرحمن» الذي هو عامٌّ، وذَكَرَ «الرحيم» بعدَه، لِتَخصيصِ المؤمنين به في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣](١).

وقال أبو حاتم: إنَّ «مالكاً» أبلغُ في مَدحِ الخالق مِن «مَلِكٍ»، و«مَلِك» أبلغُ في مَدْحِ المخلوقين من «مالك»، والفرقُ بينهما: أنَّ المالكَ من المخلوقين قد يكون غيرَ مَلِكٍ، وإذا كان اللهُ تعالى مالكاً، كان مَلِكاً(٢).

واختارَ هذا القولَ القاضي أبو بكر بنُ العربي، وذَكَرَ ثلاثةَ أوجهٍ:

الأوَّل: أنك تُضِيفُهُ إلى الخاصِّ والعامِّ، فتقول: مالكُ الدَّارِ والأرضِ والثَّوبِ، كما تقول: مالِكُ الملوك.

الثاني: أنه يُطلَقُ على مالِكِ القليلِ والكثيرِ. وإذا تأمَّلتَ هذَينِ القَولَينِ، وَجَدْتَهما واحداً.

والثالث: أنك تقولُ: مالِكُ المُلْكِ، ولا تقول: مَلِكُ المُلكِ.

قال ابنُ الحصَّار: إنما كان ذلك؛ لأن المُرادَ من «مالك» الدَّلالةُ على المِلْكِ - بكسر الميم - وهو لايَتَضَمَّنُ المُلْك - بضم الميم - و«مَلِكِ» يَتَضَمَّنُ الأمرَينِ جميعاً، فهو أَوْلَى بالمبالغة. ويَتَضَمَّنُ أيضاً الكمالَ، ولذلك استَحَقَّ المُلْكَ على مَن دونَه، ألا تَرى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؟ ولهذا قال عليه السلام: «الإمامةُ في قريشٍ»(٣)، وقُرَيشٌ

---

(١) من قوله: وقال أبو علي: حكى أبو بكر ... من كلام ابن عطية في تفسيره ١/ ٧٠. وينظر الحجة لأبي علي الفارسي ١/ ١٠.

(٢) من قوله: وقال أبو حاتم: إن «مالكاً» أبلغ ... من تفسير الماوردي ١/ ٥٦. وأبو حاتم: هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، النحوي، اللغوي، تخرَّج به أئمة، منهم أبو العباس المبرِّد، له إعراب القرآن وغيره الكثير. توفي سنة (٢٥٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٦٨.

(٣) أخرج البخاري (٧١٤٠)، ومسلم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان». وأخرج البخاري (٧١٣٩) نحوه من حديث معاوية. وأخرج أحمد (١٢٣٠٧) من=

أفضلُ قبائلِ العرب، والعربُ أفضلُ من العَجَم وأشرَفُ. ويَتَضَمَّنُ الاقتدارَ والاختيارَ، وذلك أمرٌ ضروريٌّ في المَلِكِ، إن لم يكُن قادراً مُختاراً، نافذاً حُكْمُهُ وأمرُه، قَهَرَهُ عدوُّه، وغَلَبَهُ غيرُه، وازْدَرَتهُ رَعِيَّتُهُ. ويتضمَّنُ البَطشَ، والأمرَ والنَّهيَ، والوَعدَ والوعيدَ، ألا تَرى إلى قولِ سليمانَ عليه السلام: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢١]؟ إلى غيرِ ذلك من الأمورِ العجيبةِ، والمعاني الشريفةِ، التي لا تُوجَدُ في المالك.

قلت: وقد احتجَّ بعضُهم على أنَّ «مالِكاً» أبلغُ؛ لأنَّ فيه زيادةَ حرف، فلقارِئه عَشرُ حَسَناتٍ زيادةً على من[١] قَرَأَ: «مَلِكِ».

قلتُ: هذا نظر إلى الصِّيغةِ، لا إلى المعنى، وقد ثَبَتَت القِرَاءةُ بـ «مَلِكِ»، وفيه من المعنى ما ليس في «مالك» على ما بيَّنَّا. و اللهُ أعلم.

السادسة عشرة: لا يجوزُ أن يَتَسَمَّى أحدٌ[٢] بهذا الاسمِ، ولا يُدعَى به، إلا اللهُ تعالى. روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة، ويَطوِي السماءَ بيمينه، ثم يقولُ: أنا المَلِكُ، أينَ ملوكُ الأرض؟»[٣].

وعنه أيضاً، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أَخنَعَ اسمٍ عند اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأملاك». زاد مسلمٌ: «لا مَلِكَ[٤] إلا اللهُ عزَّ وجلَّ». قال سفيانُ: مثل: شَاهان شاه. وقال أحمدُ بن حنبل: سألتُ أبا عمرو الشيبانيَّ عن «أَخنَعَ»، فقال: أَوْضع[٥].

= حديث أنس مرفوعاً: «الأئمة من قريش». وأخرج أحمد أيضاً (١٧٦٥٤) من حديث عتبة بن عبد مرفوعاً: «الخلافة في قريش»، ولم نجد الحديث باللفظ الذي أورده المصنف.

(١) في (م): عمن.

(٢) في (د): لأحد أن يتسمَّى.

(٣) صحيح البخاري (٧٣٨٢)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧): (٢٣).

(٤) في (م): مالك.

(٥) صحيح البخاري (٦٢٠٦)، وصحيح مسلم (٢١٤٣): (٢٠)، ولم يذكر البخاري قول أحمد. والحديث في المسند (٧٣٢٩). وأبو عمرو الشيباني: هو إسحاق بن مِرار، اللغوي، صاحب العربية. توفي سنة (٢١٣هـ). إنباه الرواة ١/ ٢٢١.

وعنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أغيَظُ رَجُل على اللهِ يومَ القيامة وأخبَثُهُ، رجلٌ يُسَمَّى مَلِكَ الأملاكِ، لا مَلِكَ إلا اللهُ سبحانه»[١].

قال ابنُ الحصَّار: وكذلك «مَلِكِ يوم الدِّين» و«مالك المُلكِ»، لا ينبغي أن يُختَلَفَ في أنَّ هذا مُحرَّمٌ على جميع المخلوقين، كتحريم مَلِكِ الأملاك سواء.

وأما الوَصفُ بمالكٍ ومَلِكٍ، وهي:

السابعة عشرة: فيجوزُ أن يُوصَفَ[٢] بهما مَنِ اتَّصَفَ بمفهومهما. قال اللهُ العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وقال ﷺ: «ناسٌ من أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً في سبيل الله، يَركَبون ثَبَجَ هذا البحر، مُلُوكاً على الأَسِرَّة» أو: «مِثلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ»[٣].

الثامنة عشرة: إن قال قائلٌ: كيف قال: «مَالِكِ يَومِ الدِّينِ»، ويومُ الدِّين لم يُوجَد بعدُ، فكيف وَصَفَ نفسَه بِمِلْكِ ما لم يُوجِدهُ؟

قيل له: اِعلَم أنَّ «مالكا» اسمُ فاعل مِن مَلَكَ يَملِكُ، واسمُ الفاعل في كلام العرب قد يُضافُ إلى ما بعدَه، وهو بمعنى الفعل المُستقبَل، ويكون ذلك عندَهم كلاماً سديداً، معقولاً صحيحاً، كقولك: هذا ضاربٌ زيداً غداً، أي: سَيَضرِبُ زيداً. وكذلك: هذا حاجٌّ بيتَ اللهِ في العام المُقبِلِ، تأويلُه: سَيَحُجُّ في العام المُقبلِ، أفلا ترى أنَّ الفعلَ قد نُسِبَ[٤] إليه وهو لم يَفعَلهُ بعدُ، وإنما أُريدَ به الاستقبالُ؟ فكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: «مالكِ يومِ الدين» على تأويل الاستقبال، أي: سَيَملِكُ يومَ الدِّين، أو في يومِ الدِّين إذا حَضَرَ.

ووجهٌ ثان: أن يكونَ تأويلُ المالك راجعاً إلى القُدرَة، أي: إنه قادرٌ في يوم الدين، أو على يوم الدين وإحداثِهِ، لأنَّ المالكَ للشيء هو المتصرِّفُ في الشيء[٥]

(١) صحيح مسلم (٢١٤٣):(٢١).

(٢) في (ظ): يتصف.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٠٣٢)، والبخاري (٢٧٩٩)، ومسلم (١٩١٢) من حديث أم حرام بنت مِلحان رضي الله عنها.

(٤) في (ظ) و(م): ينسب.

(٥) في النسخ الخطية: للشيء، والمثبت من (م).

القادرُ[١] عليه. واللهُ عزَّ وجلَّ مالكُ الأشياءِ كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته، لا يمتنعُ عليه منها شيءٌ.

والوجهُ الأوَّلُ أَمَسُّ بالعربية، وأَنفَذُ في طريقها. قاله أبو القاسم الزَّجَّاجيُّ[٢].

ووجهٌ ثالثٌ: فيُقالُ: لِمَ خَصَّصَ يومَ الدِّين، وهو مالكُ يومِ الدِّين وغيرِه؟ قيل له: لأنَّ في الدنيا كانوا مُنازِعين في المُلْكِ، مثلُ فرعونَ ونُمرودَ[٣] وغيرِهما، وفي ذلك اليوم لايُنازِعُهُ أحدٌ في مُلكِهِ، وكلُّهم خَضَعُوا له، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فأجابَ جميعَ الخَلقِ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. فلذلك قال: «مالِكِ يَومِ الدِّين» أي: في ذلك اليومِ لا يكونُ مالِكٌ ولا قاضٍ ولا مُجازٍ غيرُه سبحانه، لا إلهَ إلا هو.

التاسعة عشرة: إنْ وُصِفَ اللهُ سبحانه بأنه مَلِكٌ، كان ذلك من صفات ذاته، وإن وُصِفَ بأنه مالِكٌ، كان ذلك من صفاتِ فِعلِهِ[٤].

المُوفيةُ العشرين: اليومُ: عبارة عن وقتِ طلوع الفجر إلى وقت غروبِ الشَّمسِ، فاستُعِيرَ فيما بين مبتدأ القيامة إلى وَقتِ استقرار أهل الدَّارَينِ فيهما. وقد يُطْلَقُ اليومُ على الساعةِ منه، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وجَمعُ يوم أيامٌ، وأصلُه: أَيْوَامٌ، فَأُدغِمَ. وربما عَبَّروا عن الشِّدَّةِ باليوم، يقال: يومٌ أَيْوَمُ، كما يقال: ليلةٌ لَيْلاءُ. قال الرَّاجز:

نِعْمَ أخُو الهَيْجاءِ في اليوم اليَمِي[٥]

---

(١) في (م): والقادر.

(٢) اشتقاق أسماء الله ص ٤٣ و ٤٤. والزجاجي هو عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النحوي، صاحب كتاب الجُمل والإيضاح واللامات وغيرها، وهو تلميذ الزجاج. ومنسوب إليه، مات سنة (٣٤٠هـ). السير ١٥/ ٤٧٥.

(٣) في (م): نمروذ، يقال بإهمال الدال وإعجامها.

(٤) النكت والعيون ١/ ٥٦.

(٥) الرَّجز لأبي الأخزر الحمَّاني ـ كما في اللسان ـ وشطره الثاني:

لـيـومِ رَوْعٍ أو فَـعـالٍ مـكـرمِ

وهو مقلوبٌ منه، أَخَّرَ الواوَ، وقَدَّمَ الميمَ، ثم قُلِبَتِ الواوُ ياءً حيث صارَت طَرَفاً، كما قالوا: أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ[١].

الحادية والعشرون: الدِّين: الجَزاءُ على الأعمال، والحِسابُ بها، كذلك قال ابنُ عباس وابنُ مسعود وابنُ جُريج وقتادةُ وغيرُهم[٢]، ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ.

ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي: حِسابَهم. وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، و﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي: مَجزِيُّونَ مُحاسَبونَ[٣].

وقال لَبِيدٌ:

حَصَادُكَ يوماً ما زَرَعتَ وإنَّما يُدَانُ الفتى يوماً كما هو دائنُ[٤]

آخر[٥]:

إذا ما رَمَوْنا رَمَيْناهُمُ ودِنَّاهُمُ مثلَ ما يُقرِضُونا

آخر[٦]:

واعلَمْ يقيناً أنَّ مُلْكَكَ زائلٌ واعلَم بأنَّ كما تَدِينُ تُدَانُ

وحكى أهلُ اللُّغةِ: دِنْتُهُ بِفِعلِهِ دَيْنا، بِفَتحِ الدَّال، ودِيناً، بِكَسرِها: جَزَيتُهُ. ومنه الدَّيَّانُ في صفةِ الرَّبِّ تعالى، أي: المُجازِي. وفي الحديث: «الكَيِّسُ مَن دانَ نفسَه»[٧]، أي: حاسَبَ.

---

(١) الصحاح (يوم).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٧١.

(٣) في (د) و(ز): مُجزَوْن، وفي (ظ): ومحاسبون.

(٤) لم نجده في ديوانه، ولم نقف عليه في مصدر آخر.

(٥) هو كعب بن جُعَيل التغلبي. والبيت أورده نصر بنُ مُزاحم في وقعة صفين ص ٥٧، والمبرد في الكامل ١/ ٤٢٤، والطبري في تفسيره ١/ ١٥٧، وابن سيده في المخصص ١٧/ ١٥٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧١.

(٦) هو يزيد بن الصعق الكلابي، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٢٣، والكامل ١/ ٤٢٦، وجمهرة اللغة ٢/ ٣٠٦، والمخصص ١٧/ ١٥٥، وينظر اللسان (دين).

(٧) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

وقيل: القضاءُ. رُوِيَ عن ابن عباس أيضاً[١]، ومنه قولُ طَرَفَةَ[٢]:

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولةُ مَعبَدٍ على جُدِّها حَرباً لِدِينِكَ من مُضَرْ[٣]

ومعاني هذه الثلاثةِ مُتقارِبةٌ.

والدِّينُ أيضا: الطَّاعةُ، ومنه قولُ عمرو بنِ كُلثوم:

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن نَدِينا[٤]

فعلى هذا هو لفظٌ مشتركٌ، وهي:

الثانية والعشرون: قال ثَعلَبٌ: دانَ الرجلُ: إذا أطاع، ودان: إذا عَصَى، ودان: إذا عَزَّ، ودان: إذا ذَلَّ، ودان: إذا قُهِرَ[٥]. فهو من الأضدادِ.

ويُطلَقُ الدِّينُ على العادةِ والشأن، كما قال:

كدِينكَ من أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلَها[٦]

وقال المُثَقِّب[٧] يذكر ناقته[٨]:

---

(١) روي عن ابن عباس بمعنى السلطان، وعن قتادة بمعنى القضاء، فيما أخرجه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

(٢) ابن العبد، من فحول شعراء الجاهلية، ومن أصحاب المعلقات، قُتل وهو ابن عشرين سنة. الشعر والشعراء ١/ ١٨٥.

(٣) ذكره ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ص ١٢٢، ولم نجده في ديوانه من طبعة دار صادر. قوله: حَمولة ـ بفتح الحاء ـ هي من الإبل التي تُحمل الأحمالُ على ظهورها. وجُدّ ـ بضم الجيم ـ موضع فيه ماء، ويقال: حُدّ، بالحاء المهملة. والخطاب لعمرو بن هند لما بعث إلى إبل طرفة فأخذها.

(٤) سلف في المسألة الرابعة عشرة من هذا الباب. وعمرو بن كلثوم التغلبي، أحدُ فحول شعراء الجاهلية، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة، ومات وله مئة وخمسون سنة. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٤، والأغاني ١١/ ٥٢.

(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ١٨٤. ونقله فيه عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

(٦) هذا صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: وجارتِها أمِّ الرباب بمأسَلِ، وهو في ديوانه ص ٩، وفيه: كدأبكَ من أم الحويرث ... وينظر شرح القصائد الطوال لابن الأنباري ص ٢٨، و فيه أيضا: كدأبك.

(٧) هو عائذ بن محصن بن ثعلبة العَبْدي، من فحول الشعراء، والمثقَّب لقبٌ له. وسماه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٣٩٥: مِحصَنَ بن ثعلبة.

(٨) قوله: يذكر ناقته، من (م).

تـقـول إذا دَرَأْتُ لـهـا وَضِـيـنـي ... أهــذا ديــنُــه أبــداً ودِيــنــي؟[(١)]

والدِّين: سيرة الملك. قال زُهيرٌ:

لَـئِـن حَـلَـلْـتَ بِـجَـوٍّ فـي بـنـي أسـدٍ ... في دِينِ عمرو وحالَتْ بينَنا فَدَكُ[(٢)]

أراد: في موضع طاعة عمرو.

والدِّين: الدَّاءُ، عن اللِّحياني[(٣)]، وأنشد:

يا دِينَ قلبِكَ من سَلمَى وقد دِينَا[(٤)]

الثالثة والعشرون: قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: رَجَعَ من الغَيبةِ إلى الخِطاب على التلوين؛ لأنَّ من أوَّلِ السورة إلى هاهنا خَبَرٌ عن الله تعالى، وثناءٌ عليه، كقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾. وعكسُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، على ما يأتي.

و«نَعبُدُ» معناه: نُطِيعُ. والعبادةُ: الطاعةُ والتَّذلُّلُ. وطريقٌ مُعَبَّدٌ: إذا كان مُذَلَّلاً للسالكين. قاله الهَرَوِيُّ.

ونُطْقُ المُكلَّفِ به إقرارٌ بالرُّبوبيَّةِ، وتحقيقٌ لعبادةِ الله تعالى، إذ سائرُ الناس يعبُدون سواه من أصنامٍ وغيرِ ذلك.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نطلُبُ العَوْنَ والتأييدَ والتوفيقَ.

---

(١) البيت في المفضَّلية ٧٦، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٧. الوَضِين: بِطانٌ عريض يُشَدُّ به الرَّحْل على البعير. قال ابن منظور في اللسان (درأ): درأتُ وَضِينَ البعير: إذا بسطتَه على الأرض، ثم أبركتَه عليه لتشدَّه به. وأورد بيت المثقِّب العبدي هذا.

(٢) ديوانه ص ١٨٣، بشرحه لثعلب. قال: جَوّ: واد. ودين عمرو: طاعته. وذكره ابن منظور في اللسان (خوا): لئن حللتَ بخوٍّ (بالخاءِ المعجمة)، ونقل عن أبي محمد الأسود قوله: من رواه بالجيم، فقد صحَّفه.

(٣) هو علي بن حازم أبو الحسن، ذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ١٩٥، وقال: له كتاب في النوادر شريف.

(٤) أوردَ ابنُ عطية ١/ ٧٢ قولَ اللحياني، والشاهدَ فيه، وذكر أنه يُتأول على غير هذا النحو. وأورده ابن فارس في معجمه ٢/٣١٩، وقال: معناه: يا هذا دِينَ قلبُك، أي: أُذل. وأورده ابنُ الأنباري في شرح القصائد السبع ص ٢٨ بلفظ: يا دين قلبك من أسماء يا دينا. وقال: يريد: يا حالَ قلبك وعادتَه.

قال السُّلَمِيُّ في «حقائقه»: سمعتُ محمدَ بنَ عبد الله بن شاذان[١] يقول: سمعتُ أبا حفص[٢] الفَرْغانيَّ يقول: مَن أقرَّ بـ«إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ»، فقد بَرِئ من الجَبْرِ والقَدَر.

الرابعة والعشرون: إن قيل: لِمَ قُدِّمَ المفعولُ على الفعل؟ قيل له: قُدِّمَ اهتماماً، وشأنُ العرب تقديمُ الأهمّ. يُذكر أنَّ أعرابيًّا سبَّ آخر، فأعرضَ المسبوبُ عنه، فقال له السابُّ: إيَّاك أعني، فقال له الآخرُ: وعنك أُعْرِضُ. فقدَّما الأهمَّ[٣].

وأيضا لئلا يتقدَّمَ ذكرُ العبدِ والعبادةِ على المعبود، فلا يجوز: نعبُدُكَ ونستعينكَ، ولا: نعبُد إيَّاك، ونستعين إيَّاك، فيقدَّم الفعل على كناية المفعول. وإنما يُتَّبَعُ لفظُ القرآن. وقال العَجَّاجُ:

إيَّــاك أدعُــو فــتــقــبَّــلْ مَــلَــقِــي ... واغـفِـرْ خـطـايـايَ وكَـثِّـر وَرَقِـي[٤]

ويُروى: وثَمِّرْ.

وأما قولُ الشاعر:

إلــيــكَ حــتــى بَــلَــغَــتْ إيَّــاكــا[٥]

فشاذٌّ لا يُقاسُ عليه. والوَرِق، بكسر الرَّاء: من الدراهم، وبفتحها: المال.

وكرر الاسم لئلا يُتوهَّمَ: إيَّاك نعبُد ونستعينُ غيرَك.

الخامسة والعشرون: الجمهورُ من القُرَّاء والعلماء على شدِّ الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ في

---

(١) محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان الرازي الصوفي. قال الذهبي في السير ١٦/ ٣٦٥: يروي عنه أبو عبد الرحمن السُّلَمي بلايا وحكايات منكرة. مات سنة (٣٧٦هـ).

(٢) كذا في النسخ الخطية و(م)، ولعله أبو جعفر، وهو محمد بن عبد الله، له ذكر في طبقات الصوفية للسُّلَمي، وانظر أنساب السمعاني ٩/ ٢٧٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٧٢.

(٤) ذكره ابن فارس في معجمه ٦/ ١٠٢، وابن منظور في اللسان (ورق).

(٥) هو من شواهد سيبويه ٢/ ٣٦٢ وترجم له: باب ما يجوز في الشعر، ولا يجوز في الكلام. وقائله: حُميد الأرقط. وهو في أمالي ابن الشجري ١/ ٥٨، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٦٩٩، والخزانة ٥/ ٢٨٠، وذكر أن قبله: أَتَتْك عَنْسٌ تقطعُ الأَرَاكا.

الموضعين. وقرأ عمرو بن فائد[١]: «إِيَاك» بكسرِ الهمزةِ، وتخفيفِ الياء، وذلك أنه كره تضعيفَ الياء، لِثِقَلها وكونِ الكسرة قبلَها[٢]. وهذه قراءةٌ مرغوبٌ عنها، فإنَّ المعنى يصيرُ: شمسَك نعبُد، أو ضوءَك. وإِيَاةُ الشمس ـ بكسر الهمزة ـ: ضَوْءُها، وقد تُفتَح. وقال:

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشمسِ إلَّا لِثاتِهِ أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليه بإثمِدِ[٣]

فإن أَسقَطْتَ الهاء، مَدَدْتَ[٤]. ويقال: الإياةُ للشمس كالهالةِ للقمر، وهي الدَّارةُ حولَها.

وقرأ الفضلُ الرَّقاشيُّ[٥]: «أَيَّاك» بفتح الهمزة[٦]، وهي لغةٌ مشهورةٌ. وقرأ أبو السوار الغَنَوي[٧]: «هِيَّاك» في الموضعين، وهي لغة[٨]، قال:

فهِيَّاكَ والأمرَ الذي إن تَوَسَّعتْ موارِدُه ضاقَتْ عليك مَصادِرُه[٩]

---

(١) أبو علي الأسواري البصري. ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ١/٦٠٢، وذكر له هذه القراءة. وقال ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٣٧٢: قدري معتزلي، توفي بعد المئتين.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١. وقال ابن جني في المحتسب ١/ ٤٠: لم نر لذلك أثراً في اللغة، ولا رسماً، ولا مرَّ بنا في نثر ولا نظم.

(٣) البيت لِطَرَفَةَ بن العبد، وهو في ديوانه ص ٢١. قوله: لِثات: هو جمع لِثة. وأُسفَّ: ذُرَّ عليه. والكَدْمُ: العَضُّ بأدنى الفم.

(٤) الذي ذكره ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ص ١٤٦، وابن النحاس في شرح القصائد التسع ١/ ٢١٧ ـ ٢١٨، وابن منظور في اللسان (أيا)، أنه يقال: إياة الشمس، بكسر الهمزة والهاء، وإيا الشمس، بحذف الهاء (يعني بالقصر وكسر الهمزة)، وأياء الشمس، بالمدّ وفتح الهمزة.

(٥) الفضل بن عيسى الرَّقاشي. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٣٥٦: ضعَّفوه.

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٣، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٩. وانظر المحرر الوجيز ١/ ٧٢.

(٧) ذكره ابن النديم في الفهرست ص٥٠، وفيه: أبو سرَّار، وفي نسخة منه: أبو السَّوَّار، وقال: كان فصيحاً أخذ عنه أبو عبيدة ومَن دونه. وله ذكر في مجالس العلماء للزجاجي ص٦٠، وإنباه الرواة للقفطي ٤/ ١٢٢.

(٨) القراءات الشاذة ص ١، والمحرر الوجيز ١/ ٧٢.

(٩) أنشده أبو تمَّام في الحماسة (٤١٨) (شرح المرزوقي) بلفظ: إياك والأمرَ. وأورده ابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ٢، والإستراباذي في شرح الشافية ٣/ ٢٢٣، وقال البغدادي في شرحها ص ٤٧٦: أنشده أبو تمَّام.. بحذف الفاء على أنه مخروم، مع بيت ثان.. ونسبهما إلى مضرِّس بن رِبعي. ثم ذكر أنه أورده في كتاب مختار أشعار القبائل لطُفَيْل الغَنَوي الجاهلي من جملة أبيات، وفيها: وإياك والأمرَ الذي إن تَراحَبَتْ.

السادسة والعشرون: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطفُ جُملةٍ على جُملةٍ. وقرأ يحيى بنُ وَثَّاب[١] والأعمشُ[٢]: «نِستعين» بكسر النون[٣]، وهي لغةُ تميم، وأسد، وقيس، وربيعة، ليدُلَّ على أنه مِن: اِستعانَ. فكُسِرَت النونُ كما تُكسَرُ ألفُ الوصل.

وأصلُ «نستعين»: نَستَعْوِن، قُلِبَتْ حركةُ الواو إلى العين، فصارت ياءً، والمصدرُ: اِستعانة، والأصلُ: اِستِعْوَان، قُلِبَتْ حركةُ الواوِ إلى العين، فانقلَبت ألفاً، ولا يلتقي ساكنان، فَحُذِفَتِ الألفُ الثانيةُ؛ لأنها زائدةٌ، وقيل: الأولى؛ لأنَّ الثانيةَ للمعنى، ولَزِمَتِ الهاء عِوَضاً[٤].

السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصراط الْمُسْتَقِيمَ﴾: «اِهْدِنا» دعاءٌ ورغبةٌ من المَربوبِ إلى الرَّبِّ. والمعنى: دُلَّنا على الصراطِ المستقيم، وأَرْشِدْنا إليه، وأَرِنا طريقَ هِدايتك المُوْصِلةَ إلى أُنْسِكَ وقُرْبكَ.

قال بعضُ العلماء: فجعلَ اللهُ جلَّ وعَزَّ عُظْمَ الدُّعاءِ وجُملَتَه موضوعاً في هذه السورةِ، نِصْفُها فيه مَجْمَعُ الثَّناء، ونِصفُها فيه مَجْمَعُ الحاجات، وجعلَ هذا الدعاءَ الذي في هذه السورةِ أفضلَ من الذي يدعو به[٥]؛ لأنَّ هذا كلام[٦] قد تكلَّم به ربُّ العالمين، فأنتَ تدعُو بدعاءٍ هو كلامُه الذي تكلَّم به. وفي الحديث: «ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدُّعاء»[٧].

وقيل: المعنى: أَرشِدنا باستعمال السُّنَنِ في أداء[٨] فرائضك. وقيل: الأصلُ فيه الإمالةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: مِلْنا. وخَرَجَ عليه

---

(١) الأسدي مولاهم، الكوفي، شيخ القراء، توفي سنة (١٠٣هـ) روى له الجماعة غير أبي داود. السير ٤/ ٣٧٩.

(٢) سليمان بن مهران، أبو محمد الأسدي الكاهلي مولاهم، الكوفي، شيخ المقرئين والمحدثين، مات سنة (١٤٧هـ)، روى له الجماعة. السير ٦/ ٢٢٦.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١. ونسبها لجناح بن حبيش.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٥) أي: يدعو به الداعي، كما هو واضح من سياق كلامه.

(٦) في (م): الكلام.

(٧) أخرجه أحمد (٨٧٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) في (ظ): استعمال، بدل: أداء.

الصلاة والسلام في مَرَضِهِ يَتَهادَى بين اثنين، أي: يَتمايَلُ[١]. ومنه الهَدِيَّةُ؛ لأنها تُمال[٢] من مِلْكٍ إلى مِلْكٍ. ومنه الهَدْيُ، للحيوان الذي يُساقُ إلى الحَرَمِ. فالمعنى: مِلْ بقلوبنا إلى الحَقِّ.

وقال الفُضَيْلُ بن عِياض: ﴿الصراط المستقيم﴾ طريقُ الحَجِّ. وهذا خاصٌّ، والعموم أولى. قال محمد ابنُ الحَنَفِيَّةِ[٣] في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اهدِنا الصراط المستقيم﴾: هو دينُ الله الذي لا يُقْبَلُ من العبادِ غيرُه. وقال عاصمٌ الأَحوَلُ[٤] عن أبي العاليةِ: ﴿الصراط المستقيم﴾ رسولُ الله ﷺ، وصاحباه، من بعده. قال عاصم: فقلتُ للحسن: إن أبا العالية يقول: ﴿الصراط المستقيم﴾ رسول الله ﷺ وصاحباه، قال: صَدَقَ ونَصَحَ[٥].

الثامنة والعشرون: أصلُ الصِّراطِ في كلام العرب: الطريقُ. قال عامرُ بنُ الطُّفَيل[٦]:

شَحَنَّا[٧] أَرْضَهم بالخَيلِ حتى ... تركناهم أَذَلَّ مِنَ الصِّراطِ[٨]

وقال جرير[٩]:

أميرُ المؤمنينَ على صِراطٍ ... إذا اعوَجَّ المواردُ مُسْتَقيمِ

---

(١) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٥٧٦١)، والبخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨)، وعندهم: يُهادَى.

(٢) في (د): تهاد، وفي (ز): تهال.

(٣) هو محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أبو القاسم وأبو عبد الله أمه خولة بنت جعفر الحنفية. توفي سنة (٨٠هـ)، وقيل: (٨١). سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٠.

(٤) هو عاصم بن سليمان، أبو عبد الرحمن، محدّث البصرة، توفي سنة (١٤٢هـ) السير ٦/ ١٣.

(٥) أخرج بعض هذه الأخبار الطبري في تفسيره ١/ ١٧٥، وذكر بعضها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧٤.

(٦) العامري، ابن عم لبيد الصحابي الشاعر، وَفَدَمع قومه سنة تسع للهجرة على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به فلم يفلح، وعاد ولم يسلم، ومات في طريق عودته. الشعر والشعراء ١/ ٣٤٣، وخزانة الأدب ٣/ ٨٠.

(٧) في (ظ): سفحنا.

(٨) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الطبري في تفسيره ١/ ١٧١ بلفظ:

صَبَحْنا أرضَهم بالخيل حتَّى ... تركناها أَدَقَّ من الصراط

ونسبه لأبي ذُؤيب الهُذَلي.

(٩) ديوانه ١/ ٢١٨.

وقال آخرُ:

فَصدَّ عن نَهجِ الصِّراطِ الواضِحِ[١]

وحكى النَّقَّاشُ: الصِّراطُ: الطريقُ بِلُغَةِ الرُّوم. قال ابنُ عطية: وهذا ضعيفٌ جدًّا[٢]. قُرِئ: السِّراط ـ بالسين[٣] ـ من الاستراط، بمعنى الابتلاع، كأنَّ الطريقَ يَستَرِطُ مَن يَسلُكُه[٤]. وقُرِئ بين الزاي والصَّاد[٥]، وقُرِىءَ بزاي خالصة[٦]، والسين الأصل. وحكى سَلَمةُ[٧]، عن الفرَّاء قال: الزِّراط ـ بإخلاص الزاي ـ لُغَةٌ لعُذْرةَ وكَلْب وبني القَيْن[٨]. قال: وهؤلاء يقولون: أَزْدَق. وقد قالوا: الأَزْد والأَسْد، ولَسِقَ به ولَصِقَ به.

و«الصِّرَاطَ» نصب على المفعول الثاني؛ لأنَّ الفعلَ من الهِداية يَتَعدَّى إلى المفعول الثاني بحرف جَرٍّ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]. وبغير حرفٍ كما في هذه الآية.

«المستقيم» صفةٌ لـ«الصراط»، وهو الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا انحرافَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأصلُه مُستَقْوِم، نُقِلَت الحركةُ إلى القاف، وانقلَبتِ الواوُ ياءً لانكسار ما قبلَها.

---

(١) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٤، والطبري في تفسيره ١/ ١٧١، وابن عطية ١/ ٧٤. وعند أبي عبيدة والطبري: الصراط القاصد.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٧٤.

(٣) هي قراءة ابن كثير في رواية قنبل من السبعة، وقراءة يعقوب في رواية رُويس من العشرة. انظر السبعة ص ١٠٥، والتيسير ص ١٨، والنشر ١/ ٢٧١.

(٤) في (ظ): سلكه.

(٥) أي: بالصاد مشمَّة صوت الزاي، وهي قراءة حمزة في رواية خَلَف حيث وقعت، وخلاَّد في الموضع الأول من الفاتحة. السبعة ص ١٠٦، والتيسير ص ١٨.

(٦) رواها الأصمعي عن أبي عمرو، وحكاها الفرَّاء عن حمزة، فيما ذكر ابنُ مجاهد في السبعة ١٠٥ ـ ١٠٦، وقال أبو علي الفارسي في الحجة ١/ ٥١: وأما الزاي: فأحسبُ الأصمعي لم يضبط عن أبي عمرو، لأن الأصمعي كان غير نحوي ... وأحسبُ أنه سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة للزاي فتوهَّمها زاياً.

(٧) هو ابنُ عاصم، أبو محمد البغدادي النحوي، صاحب الفرَّاء. توفي بعد السبعين ومئتين. طبقات القراء ١/ ٣١١.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٤ ونسبه لابن الأنباري.

التاسعة والعشرون: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: «صراط» بَدَلٌ من الأول، بَدَلُ الشيء من الشيء، كقولك: جاءني زيدٌ أبوك. ومعناه: أَدِمْ هدايتَنا، فإنَّ الإنسانَ قد يُهدَى إلى الطريق، ثم يُقطَعُ به.

وقيل: هو صراطٌ آخَرُ، ومعناه: العلمُ بالله جلَّ وعزَّ، والفَهمُ عنه. قاله جعفر بنُ محمد[1]. ولغةُ القرآن «الَّذِين» في الرفع والنصب والجر، وهُذَيْلٌ تقول: الذون[2] في الرفع، ومن العرب مَن يقول: اللَّذو، ومنهم من يقول: الذي. وسيأتي[3].

وفي «عليهم» عَشْرُ لغات، قُرِئ بعامَّتها: «عَلَيْهُمْ»: بضمِّ الهاء وإسكانِ الميم. و«عَلَيْهِمْ»: بكسْرِ الهاء وإسكانِ الميم. و«عَلَيْهِمِي[4]»: بكسرِ الهاء والميم، وإلحاقِ ياءٍ بعد الكسرة. و«عَلَيْهِمُو»: بكسرِ الهاء وضمِّ الميم، وزيادةِ[5] واو بعد الضمة. و«عَلَيْهُمُو»: بضمِّ الهاء والميم كلتيهما، وإدخالِ واو بعدَ الميم. و«عَلَيْهُمُ»: بضم الهاء والميم، من غير زيادة واو. وهذه الأَوْجُهُ الستة مأثورةٌ عن الأئمة من القُرَّاء[6].

وأوجهٌ[7] أربعةٌ منقولةٌ عن العرب غيرُ مَحكِيَّة عن القُرَّاءِ: «عَلَيْهُمِي»: بضمِّ الهاء وكسرِ الميم، وإدخالِ ياءٍ بعد الميم، حكاها الحسنُ البصريُّ عن العرب. و«عَلَيْهُمِ»: بضمِّ الهاء وكسرِ الميم، من غير زيادة ياء. و«عَلَيْهِمُ»: بكسر الهاء وضمِّ الميم، من

---

(١) ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، الإمام الصادق، أحد الأعلام. توفي سنة (١٤٨هـ). السير ٦/ ٢٥٥.

(٢) في (م) و(ز): اللذون.

(٣) ينظر الأزهيَّة في علم الحروف للهروي ص ٢٩٧ - ٢٩٨، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ١/ ٣٩، وتهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٣٨ - ٣٩. وينظر تفسير الآية (٤٩) من سورة غافر في هذا الكتاب.

(٤) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٥) في (ظ): مع زيادة.

(٦) قرأ حمزة من السبعة، ويعقوب من العشرة: عليهُمْ، بضم الهاء وإسكان الميم، وقرأ الباقون: عليهِمْ، بكسر الهاء وإسكان الميم، وقرأ قالون وابن كثير وأبو جعفر: عليهِمُو، حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر: عليهُمُ؛ إن جاء بعدها همزة وصل، وذلك في جميع القرآن. السبعة ص ١٠٨-١٠٩، والتيسير ص ١٩. أما قراءة: عَلَيْهِمِي: بكسر الهاء وإثبات الياء، وعَلَيْهُمُو: بضم الهاء وإثبات الواو، فمن الشواذ. قرأ بالأولى الحسن وعَمرو بن فائد، وبالثانية ابن أبي إسحاق. إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٥، والمحتسب ١/ ٤٤.

(٧) في (ظ): ووجوه.

غير إلحاق واوٍ. و«عَلَيْهِمِ»: بكسر الهاء والميم، ولا ياءَ بعد الميم. وكلُّها صوابٌ[١]. قاله ابنُ الأنباري.

المُوفِيةُ الثلاثين: قرأ عمرُ بن الخطاب وابنُ الزبير رضي الله عنهما: «صراطَ مَن أنعمتَ عليهم»[٢]. واختلف الناسُ في المُنعَمِ عليهم. فقال الجمهورُ من المفسرين: إنه أراد صراطَ النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. فالآيةُ تقتضي أنَّ هؤلاءِ على صراط مستقيم، وهو المطلوبُ في آية الحمد[٣]، وجميعُ ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال. واللهُ المستعان.

الحادية والثلاثون: في هذه الآيةِ ردٌّ على القَدَرِيَّةِ والمعتزلة والإماميَّة؛ لأنهم يَعتقِدونَ أنَّ إرادةَ الإنسان كافيةٌ في صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأنَّ الإنسانَ عندَهم خالقٌ لأفعاله، فهو غيرُ مُحتاج في صدورِها عنه إلى ربِّه، وقد أكذبَهم اللهُ تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهِدايةَ إلى الصِّراطِ المستقيم، فلو كان الأمرُ إليهم، والاختيارُ بيدهم دون ربِّهم، لَما سألوه الهِدايةَ، ولا كرَّروا السؤالَ في كلِّ صلاة، وكذلك تَضرُّعُهم إليه في دَفْعِ المكروه[٤]، وهو ما يُناقِضُ الهِدايةَ، حيث قالوا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. فكما سألوه أن يَهدِيَهم، سألوه ألاَّ يُضِلَّهم، وكذلك يدعون، فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] الآية.

الثانية والثلاثون: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: اختُلِفَ في «المغضوب عليهم» و«الضالين» مَن هم، فالجمهورُ على[٥] أنَّ المغضوبَ عليهم: اليهودُ،

---

(١) يعني لغةً، لكنها شاذة قراءةً، وقد ذكر ابن جني هذه الأوجه العشرة في المحتسب ١/ ٤٣ ـ ٤٥، نقل سبعة منها عن أبي بكر أحمد بن موسى، والثلاثة الباقية عن الأخفش، ثم قال: فتلك عشرة أوجه، خمسة مع ضم الهاء، وخمسة مع كسرها.

(٢) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١ إلى ابن مسعود، رضي الله عنه

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٧٥.

(٤) في (ظ): كل مكروه.

(٥) لفظة على، من (ز).

والضَّالِّين: النصارى، وجاء ذلك مُفَسَّرا عن النبيِّ ﷺ في حديث عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ وقصةِ إسلامه. أخرجه أبو داود الطيالسيُّ في «مسنده»، والترمذيُّ في «جامعه»[(١)]. وشَهِدَ لهذا التفسيرِ أيضا قولُه سبحانَه في اليهود: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ٦]، وقال في النصارى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقيل: «المغضوب عليهم»: المشركون. و«الضالين»: المنافقون. وقيل: «المغضوب عليهم»: هو مَن أسقطَ فرضَ هذه السورةِ في الصلاة! و«الضالِّين» عن بَرَكَةِ قراءتها. حكاه السُّلَمِيُّ في «حقائقه»، والماوردي في «تفسيره»، وليس بشيء. قال الماورديُّ[(٢)]: وهذا وجهٌ مردودٌ؛ لأنَّ ما تعارَضَتْ فيه الأخبارُ، وتقابلَت فيه الآثارُ، وانتشر فيه الخِلافُ، لم يَجُزْ أن يُطلَقَ عليه هذا الحكمُ.

وقيل: «المغضوب عليهم» باتِّباع البِدَعِ، و«الضالِّين» عن سنن الهُدى.

قلت[(٣)]: وهذا حسنٌ، وتفسيرُ النبيِّ ﷺ أوْلَى وأعلى وأحسنُ.

و«عليهم» في موضع رَفْعٍ[(٤)]؛ لأنَّ المعنى: غُضِبَ عليهم. والغَضَبُ في اللُّغةِ: الشِّدَّةُ. ورجلٌ غَضوبٌ، أي: شديد الخُلُق، والغَضُوب: الحَيَّةُ الخبيثةُ، لِشِدَّتها. والغَضبَةُ: الدَّرَقَةُ من جِلدِ البعير، يُطْوَى بعضُها على بعض، سُمِّيَت بذلك لِشِدَّتها.

ومعنى الغَضَبِ في صفة الله تعالى إرادةُ العقوبةِ، فهو صفةُ ذات، وإرادةُ الله تعالى من صفاتِ ذاته، أو نفسُ العقوبةِ، ومنه الحديثُ: «إنَّ الصدقةَ لَتُطفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»[(٥)] فهو صفةُ فِعل.

الثالثة والثلاثون: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: الضَّلالُ في كلام العرب: هو الذَّهابُ عن سَنَنِ القَصدِ، وطريقِ الحقِّ، ومنه: ضَلَّ اللَّبَنُ في الماء، أي: غابَ. ومنه: ﴿أَءِذَا

---

(١) مسند الطيالسي ص٤٠، وسنن الترمذي (٢٩٥٤)، وهو في مسند أحمد (١٩٣٨١).

(٢) لم نقف على كلام الماوردي في المطبوع من تفسيره.

(٣) في (د) و(ز): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٦.

(٥) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وابن حبان (٣٣٠٩)، والبغوي في شرح السنة (١٦٣٤) من طريق الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، أي: غِبْنا بالموت وصِرْنا تراباً، قال:

أَلَـم تَـسْـأَلْ فَـتُـخْـبِـرَكَ الـدِّيـارُ عـنِ الـحَـيِّ الـمُـضَـلَّـلِ أيـنَ سـارُوا[١]

والضُّلَضِلَةُ: حجرٌ أملسُ، يُرَدِّده الماءُ في الوادي. وكذلك الغَضْبَةُ: صخرةٌ في الجبل مخالفةٌ لونَه، قال:

وغَـضْـبَـةٍ[٢] فـي هَـضْـبَـةٍ مـا أمْـنَـعـا[٣]

الرابعة والثلاثون: قرأ عمرُ بن الخطاب وأُبَيُّ بن كعب: «غير المغضوب عليهم وغير الضالين»، ورُوِيَ عنهما في الراء النصبُ والخَفْضُ في الحرفين[٤]، فالخفضُ على البَدَلِ من «الذين»، أو من الهاء والميم في «عليهم»، أو صفة لـ «الذين». و«الذين» معرفة، ولا تُوصَفُ المعارفُ بالنَّكِراتِ، ولا النكراتُ بالمعارفِ، إلا أنَّ «الذين» ليس بمقصود قصدهم، فهو عامٌّ، فالكلامُ بمنزلة قولك: إني لأَمُرُّ بمثلِك فَأُكْرِمُهُ، أو لأنَّ[٥] «غير» تعرَّفت لكونها بين شيئين، لا وسطَ بينهما، كما تقول: الحيُّ غيرُ الميتِ، والساكنُ غيرُ المتحرِّك، والقائمُ غيرُ القاعدِ، قولان: الأول للفارسيِّ، والثاني للزمخشريِّ[٦]. والنصبُ في الراء على وجهين: على الحال مِنَ «الذين»، أو مِنَ الهاءِ والميم في «عليهم»، كأنك قلتَ: أنعمتَ عليهم لامغضوباً عليهم. أو على الاستثناء، كأنك قلتَ: إلا المغضوبَ عليهم. ويجوز النصبُ[٧] بأعني. وحُكِيَ عن الخليل[٨].

الخامسة والثلاثون: «لا» في قوله: «ولا الضالين»؛ اختُلِفَ فيها، فقيل: هي

---

(١) الدر المصون ١/ ٧٦.

(٢) في (م): أو غضبة.

(٣) العين ٤/ ٣٦٩، وجاء في اللسان (غضب): أو غَضْبةٍ في هَضْبةٍ ما أرفعا.

(٤) نقله عن ابن عطية ١/ ٧٨، وسلف ذكر هذه القراءة ص ١٣١. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١ فتح الراء في غير المغضوب.

(٥) في (ظ): ولأن.

(٦) الحجة للقراء السبعة ١/ ١٤٢، والكشاف ١/ ٧٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٦، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٧٢، والمحرر الوجيز ١/ ٧٦ - ٧٧.
والزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الخوارزمي، النحوي، كبير المعتزلة، صاحب الكشاف والمفصَّل وغيرهما. توفي سنة (٥٣٨هـ). السير ٢٠/ ١٥١.

(٧) في (د): أن تنصب.

(٨) نقله عن ابن عطية ١/ ٧٧، وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٦، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٧٢.

زائدة. قاله الطبريُّ[١]. ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقيل: هي تأكيدٌ، دَخلَتْ لئلا يُتَوَهَّمَ أنَّ «الضالين» معطوفٌ على «الذين». حكاه مَكِّيٌّ[٢] والمَهدَوِيُّ. وقال الكوفيون: «لا» بمعنى «غير»، وهي قراءةُ عُمر وأُبَيٍّ، وقد تقدَّم.

السادسة والثلاثون: الأصلُ في «الضالِّين»: الضَّالِلين، حُذِفَتْ حركةُ اللَّام الأُولى، ثم أُدغِمَت اللَّامُ في اللَّام، فاجتمع ساكنان: مَدَّةُ[٣] الألف، واللاَّمُ المُدغَمةُ[٤]. وقرأ أيوبُ السَّخْتِيانيُّ: «ولا الضأَلِّين» بهمزةٍ غيرِ ممدودة[٥]، كأنه فَرَّ من التقاءِ الساكنين، وهي لغةٌ. حكى أبو زيد قال: سمعتُ عمرو بن عُبيد يقرأُ: «فَيَوْمَئِذٍ لايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إنْسٌ ولاجَأَنٌّ»[٦] [الرحمن: ٣٩]. فَظَنَنْتُه قد لَحَنَ، حتى سمعتُ من العرب: دَأَبَّة وشَأَبَّة. قال أبو الفتح[٧]: وعلى هذه اللُّغةِ قولُ كُثَيِّر[٨]:

إذا ما العَوَالي بالعَبِيطِ احمَأَرَّتِ[٩]

نَجِزَ تفسيرُ سورة الحمد

ولله الحمدُ والمِنَّة

---

(١) تفسيره ١/ ١٩٠.

(٢) نقله المصنف عن ابن عطية، وليس في مشكل إعراب القرآن ١/ ٧٢ هذا اللفظ، وإنما قال مكي: «لا» زائدة للتوكيد عند البصريين، وبمعنى «غير» عند الكوفيين.

(٣) قوله: مَدَّة، ليس في (د).

(٤) قال النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٦: وجاز ذلك لأن في الألف مدة، والثاني مدغم.

(٥) ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١، وأبو الفتح ابن جني في المحتسب ١/ ٤٦.

(٦) ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٤٩، وأبو الفتح ابن جني في المحتسب ١/ ٤٧، وفيه ما أورده المصنف من قول أبي زيد، إلى قول كُثَيِّر.

(٧) عثمان بن جني، الموصلي، إمام العربية، صاحب سر صناعة الإعراب والمحتسب والخصائص وغيرها. توفي سنة (٣٩٢هـ). السير ١٧/ ١٧.

(٨) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود، أبو صخر الخُزاعي، المدني، من فحول الشعراء، كان قد تتيَّم بعَزَّة، وشبَّبَ بها، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٥/ ١٥٢.

(٩) كذا أورد ابن جني هذا الشطر في المحتسب ١/ ٤٧، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٧٨، ونقله المصنف عن ابن عطية، ولفظه في ديوانه ٢/ ٩٧: إذا ما احْمأَرَّتْ بالعبيط العواملُ، وهكذا أورده ابن منظور في اللسان (جنن)، وصدر البيت: وأنتَ ابنَ ليلى خيرُ قَومِك مَشْهداً. وهو من قصيدة يمدحُ فيها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أمير مصر.

تفسير سورة البقرة

بحول الله وكرمه، لا رَبّ سواه

وأوّلُ مبدوءٍ به الكلامُ في نزولها وفضلِها، وما جاء فيها، وهكذا كلُّ سورةٍ إنْ وجدنا لها ذلك، فنقولُ:

سورةُ البقرة مَدَنِيَّةٌ، نزلَتْ في مُدَدٍ شَتَّى. وقيل: هي أَوَّلُ سورةٍ نَزَلَتْ بالمدينة، إلا قولَهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [٢٨١]، فإنَّهُ[١] آخِرُ آيةٍ نزلَتْ من السماء، ونزلَتْ يومَ النَّحْرِ في حِجَّةِ الوَداع بِمِنًى؛ وآياتُ الرِّبا أيضاً من أواخِرِ ما نزَلَ من القرآنِ[٢].

وهذه السورةُ فضلُها عظيم وثوابُها جَسِيم. ويقال لها: فُسْطاط القرآن، قاله خالد بن مَعْدَان[٣]. وذلك لِعِظَمِها وبَهائها، وكثرةِ أحكامِها ومواعِظها. وتعلَّمها عمرُ رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عَشْرَةَ سَنَةً، وابنُه عبدُ الله في ثماني سنين كما تقدَّم[٤].

قال ابنُ العربيّ: سمعتُ بعضَ أشياخي يقولُ: فيها ألفُ أمْرٍ، وألْفُ نَهْي، وألفُ حُكْم، وألفُ خَبَر[٥].

وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ بَعْثاً وهم ذَوُو عَدَد، وقدَّم عليهم أحْدَثَهم سِنًّا، لِحِفْظِهِ سورةَ البقرة، وقال له: «اذْهَبْ، فأنتَ أميرُهم». أخرجه الترمذيُّ عن أبي هُريرة، وصحَّحه[٦].

ورَوَى مسلمٌ عَنْ أبي أُمامةَ الباهليّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرؤوا

---

(١) في (د) و(ظ): فإنها.

(٢) أخرج البخاري (٤٥٤٤) عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آيةُ الربا، وانظر ما سلف ص ٩٨.

(٣) أخرجه عنه الدارمي (٣٣٧٦). وخالد بن معدان: هو أبو عبد الله الكلاعي، الحمصي، من أئمة الفقه، توفي سنة (١٠٣هـ). السير ٤/ ٥٣٦.

(٤) في باب كيفية التعلم والفقه بكتاب الله تعالى ص ٦٨.

(٥) أحكام القرآن ١/ ٨.

(٦) سنن الترمذي (٢٨٧٦) وفي المطبوع منه قوله: هذا حديث حسن.

سورةَ البقرة، فإنَّ أَخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا يَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ». قال معاوية: بلغني أنَّ البَطَلَةَ: السَّحَرَةُ[١].

ورَوَى أيضاً عن أبي هُريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ[٢] مِنَ البَيْتِ الذي تُقْرَأُ فيه سورةُ البَقَرَةِ»[٣].

ورَوَى الدارميُّ عن عبد الله[٤] قال: ما مِنْ بَيْتٍ يُقْرَأُ فيه سورةُ البقرة إلا خَرَجَ منه الشيطانُ وله ضُراط. وقال: إنَّ لكلِّ شيءٍ سَناماً، وإنَّ سَنامَ القُرْآنِ سُورةُ البقرة، وإنَّ لكلِّ شيءٍ لُباباً، وإن لُبابَ القُرآنِ المُفَصَّلُ. قال أبو محمد الدارميّ: اللُّباب: الخالِصُ[٥].

وفي «صحيح» البُسْتِيِّ: عن سهلِ بنِ سَعْدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شَيْءٍ سَناماً، وإنَّ سَنامَ القرآنِ سورةُ البقرةِ، ومَنْ قَرأَها في بيتِهِ ليلاً، لم يَدْخُلِ الشيطانُ بيتَهُ ثلاثَ ليالٍ، ومَنْ قَرَأَها نهاراً، لم يَدْخُلِ الشيطانُ بيتَه ثلاثةَ أيَّام». قال أبو حاتم البُسْتيّ: قوله ﷺ: «لم يدخلِ الشيطانُ بيتَه ثلاثةَ أيام» أراد: مَرَدَةَ الشياطينِ[٦].

وروى الدّارميُّ في «مسنده» عن الشَّعْبيِّ قال: قال عبد الله: مَنْ قَرأَ عَشْرَ آياتٍ من سورةِ البقرةِ في ليلةٍ، لم يَدْخُلْ ذلك البيتَ شيطانٌ تلك الليلةَ، حتَّى يُصْبِحَ: أَرْبَعاً من أوَّلها، وآيةَ الكرسيِّ، وآيتَيْن بعدَها، وثلاثاً خواتيمَها، أوّلُها: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الآية ٢٨٤]. وعن الشعبي عنه: لم يَقْرَبْه ولا أهلَه[٧] يومئذٍ شيطانٌ، ولا شيءٌ يكرهُهُ، ولا يُقْرَأْنَ على مجنونٍ إلا أفاقَ[٨]. وقال المغيرة بنُ سُبَيْع ـ وكان من أصحاب

---

(١) صحيح مسلم (٨٠٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢١٤٦)، معاوية: هو ابن سلَّام، أحد رواة الحديث عند مسلم.

(٢) في (د) و(ز) وهامش (ظ): يفرُّ.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (٧٨٢١).

(٤) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) سنن الدارمي (٣٣٧٥) و(٣٣٧٧).

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٧٨٠)، وفي إسناده خالد بن سعيد المدني، ذكره العقيلي في الضعفاء الكبير ٢/ ٦، وقال: لا يتابع على حديثه، وأورد له هذا الحديث، ثم قال: وفي فضل سورة البقرة رواية أحسن من هذا الإسناد وأصلح، بخلاف هذا اللفظ. وأما في تمثيل القرآن، فليس فيه شيء يثبت.

(٧) في (ظ): وأهله.

(٨) سنن الدارمي (٣٣٨٢) و(٣٣٨٣). وإسناده منقطع، الشعبي ـ وهو عامر بن شَراحيل ـ لم يسمع من=

عبد الله ـ: لم يَنْسَ القرآن. وقال إسحاق بنُ عيسى: لم ينسَ ما قد حَفِظ. قال أبو محمد الدارميُّ: منهم مَنْ يقول: المغيرة بنُ سُمَيْع[١].

وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبدِ البر[٢]: وكان لَبِيدُ بنُ ربيعةَ بنِ مالك[٣] بنِ جعفرِ بنِ كلابِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، من شعراءِ الجاهليةِ، أدركَ الإسلامَ، فحَسُنَ إسلامُه، وتركَ قولَ الشِّعر في الإسلام، وسألَه عمرُ في خلافتِهِ عن شِعرِهِ، واستنشدَه، فقرأ سورةَ البقرة، فقال: إنما سألتُك عن شِعرِك، فقال: ما كنتُ لأقولَ بيتاً من الشِّعر بعد إذْ علَّمني الله البقرةَ[٤] وآلَ عمرانَ، فأعجبَ عمرَ قولُه، وكان عطاؤه ألفَيْنِ، فزادَهُ خمسَ مئة. وقد قالَ كثيرٌ من أهلِ الأخبارِ: إن لبيداً لم يَقُلْ شِعْراً منذُ أسْلَمَ. وقال بعضُهم: لم يقلْ في الإسلامِ إلَّا قولَه[٥].

الحمدُ لله إذْ لَمْ يَأْتِني أَجَلي ... حتَّى اكْتَسَيْتُ من الإسلامِ سِرْبالا

قال ابنُ عبدِ البَرّ: وقد قيل: إنَّ هذا البيتَ لقَرَدَة بنِ نُفاثَةَ السَّلُوليّ[٦]، وهو أصحُّ عندي. وقال غيرُه: بل البيتُ الذي قاله في الإسلام:

ما عاتَبَ المرءَ الكريمَ كَنَفْسِهِ ... والمرءُ يُصْلِحُهُ القَرِينُ الصالح[٧]

وسيأتي ما ورد في آية الكرسيّ وخواتيم البقرة، ويأتي في أوّل سورة آل عمران زيادةُ بيانٍ لفضل هذه السورة، إن شاء الله تعالى.

= عبد الله بن مسعود، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٣٢.

(١) سنن الدارمي (٣٣٨٥). إسحاق بن عيسى: هو شيخ الدارمي الذي روى عنه هذا الأثر.

(٢) ٩/ ٢٧٥ بهامش الإصابة.

(٣) زاد محققو (م): «ابن عامر» قبل: «ابن مالك» استناداً إلى ما وقع في الاستيعاب وأسد الغابة والإصابة، وهذه الزيادة في النسب في هذه المصادر خطأ؛ نبَّه عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٤.

(٤) في (ظ): بعد أن علمني الله سورة البقرة.

(٥) قال ذلك أبو اليقظان فيما نقله عنه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٥.

(٦) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص ٢٢٣، وابن عبد البر في الاستيعاب ٩/ ٢٠٦ (بهامش الإصابة) وذكر أنه وفد على النبي ﷺ في جماعة من بني سلول، فأسلموا، وأمَّره عليهم، وأورد له هذا البيت مع بيتين آخرين.

(٧) ديوان لبيد ص ٣٤٩، وفيه: الجليس بدل: القرين. والقصة بتمامها في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٥ في ترجمة لبيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعِنْ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

اختلفَ أهلُ التأويلِ في الحروفِ التي في أوائلِ السُّورِ، فقال عامر الشَّعْبيُّ، وسفيانُ الثَّوْرِيُّ، وجماعةٌ من المحدِّثين: هي سِرُّ الله في القرآنِ، ولله في كلِّ كتابٍ من كُتُبِهِ سِرٌّ، فهي من المتشابهِ الذي انْفَرَدَ الله تعالى بعلمه، ولا يجبُ أنْ يُتَكَلَّمَ فيها، ولكنْ يُؤمَنُ بها، وتُمَرُّ[1] كما جاءت[2]. ورُوِيَ هذا القولُ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وعليٍّ[3] بن أبي طالب، رضي الله عنهما[4].

وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيُّ[5] عن عمرَ، وعثمانَ، وابنِ مسعود، أنهم قالوا: الحروفُ المقطَّعةُ من المكتومِ الذي لا يُفَسَّر.

وقالَ أبو حاتم: لم نجدِ الحروفَ المقطَّعةَ في القرآنِ إلا في أوائلِ السُّوَرِ، ولا ندري ما أرادَ الله جلَّ وعزَّ بها[6].

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباريُّ: حدثنا الحسن بنُ الحُباب، حدّثنا أبو بكر بنُ أبي طالب، حدّثنا أبو المنذر الواسطي، عن مالك بن مِغْوَل، عن سعيد بن مسروق، عن الرَّبيع بنِ خُثَيْم قال: إن الله تعالى أنزلَ هذا القرآنَ، فاستأثَرَ منه بعلم ما شاء، وأَطْلَعَكُم على ما شاء، فأمّا ما استأثَرَ به لنفسه، فلستُم بنائليه، فلا

---

(١) في (د) و(م): وتقرأ.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨١ـ ٨٢، دون قوله: ولله في كل كتاب من كتبه سرّ. ولم يرد في تأويل هذه الحروف نصٌّ صحيح، لذا قال كثير من المفسرين فيها: الله أعلم بمراده.

(٣) في (م): وعن علي.

(٤) ذكره البغوي في التفسير ١/ ٢٦.

(٥) في تفسيره ١/ لوحه ٦.

(٦) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٧٨.

تسألُوا عنه، وأمَّا الذي أطْلَعَكُم عليه، فهو الذي تُسألُون عنه وتُخْبَرون به، وما بكلِّ[١] القرآنِ تعلمون، ولا بكلِّ ماتعلمون تعملون.

قال أبو بكر: فهذا يُوَضِّحُ أن حروفاً من القرآنِ سُتِرَتْ معانيها عن جميع العالَم، اختباراً من الله عزَّ وجلَّ وامْتِحاناً، فَمَنْ آمنَ بها، أُثيبَ وسَعِدَ، ومن كَفَرَ وشَكَّ، أثِمَ وبَعِدَ.

حدّثنا يوسف[٢] بنُ يعقوب القاضي، حدّثنا محمد بنُ أبي بكر، حدّثنا عبد الرحمن بنُ مَهْدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن عُمارة، عن حُرَيْث بن ظُهَير[٣]، عن عبد الله قال: ما آمَنَ مؤمنٌ أفضلَ من إيمانٍ بِغَيْبٍ، ثم قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قلتُ: هذا القولُ في المتشابه وحُكمه، وهو الصحيحُ على ما يأتي بيانُهُ في «آل عمران» إن شاء الله تعالى[٤]. وقال جمعٌ من العلماء كبير: بل يجبُ أن يُتَكَلَّمَ فيها، وتُلْتَمَسَ الفوائدُ التي تحتَها، والمعاني التي تتخرَّجُ عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فرُوِيَ عن ابنِ عباس وعلي أيضاً، أن الحروفَ المقطعة في القرآنِ اسمُ الله الأعظَمُ، إلا أنّا لا نعرفُ تأليفَه منها[٥]. وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما: هي إشارةٌ إلى حروف الهِجاء، أعلمَ الله بها العربَ حين تحدَّاهم بالقرآنِ أنهُ مُؤتلَفٌ من حروف هي التي منها بناءُ كلامِهم؛ ليكونَ عجزُهم عنه أبلغَ في الحجة عليهم، إذْ لم يخرجْ عن كلامهم. قال قُطْرُب: كانوا يَنْفِرون عند استماعِ القرآن، فلما سمعوا[٦]: «الم»

---

(١) في (ز) و(ظ) في الموضعين: كل.

(٢) في (د) و(ز) و(م): أبو يوسف، وهو خطأ. وهو يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، أبو محمد القاضي، توفي سنة (٢٩٧هـ). السير ١٤/ ٨٥.

(٣) في (ظ): الحارث بن ظهير، ووقع عند السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٦ وقد نسبه لابن الأنباري في المصاحف: الحارث بن قيس، ووقع عند سعيد بن منصور (١٨٠) (التفسير)، والحاكم ٢/ ٢٦٠ (وقد أخرجاه من طريق أبي معاوية عن الأعمش): عبد الرحمن بن يزيد. والله أعلم.

(٤) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ الآية (٧).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٨٢، وأخرج قول ابن عباس الطبري في تفسيره ١/ ٢٠٦.

(٦) في (د): أنزلت، وفي (ز): أنزل.

و«المص»، استنكروا هذا اللفظَ، فلما أَنْصَتوا له ﷺ، أقبلَ عليهم بالقرآن المؤتَلَفِ لِيُثْبِتَه في أسماعهم وآذانِهِمْ، ويقيمَ الحجَّةَ عليهم.

وقال قوم: رُوِيَ أنَّ المشركينَ لمَّا أَعْرَضُوا عن سماع القرآنِ بمكة وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، نزلَتْ ليستغربوها، فيفتحون[1] لها أسماعهم، فيسمعون[2] القرآنَ بعدها، فتجب عليهم الحُجَّة[3]. وقال جماعة: هي حروفٌ دالَّةٌ على أسماءٍ أُخِذَتْ منها، وحُذِفَتْ بقيَّتُها، كقول ابن عباس وغيره: الألفُ من الله، واللامُ من جبريل، والميم من محمدٍ ﷺ. وقيل: الألفُ مفتاحُ اسمه الله، واللامُ مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاحُ اسمه مجيد.

ورَوَى أبو الضُّحَى[4] عن ابن عباس في قوله: «الم» قال: أنا الله أعلمُ، «الر»: أنا الله أرى، «المص»: أنا الله أَفْصِلُ. فالألف تؤدّي عن معنى أنا، واللام تؤدِّي عن اسم الله، والميم تؤدّي عن معنى أعلم[5]. واختار هذا القولَ الزَّجاجُ[6]، وقال: أذهبُ إلى أنَّ كلَّ حرفٍ منها يؤدِّي عن معنًى؛ وقد تكلَّمتِ العربُ بالحروف المقطَّعة، نَظْماً لها ووَضْعاً، بدلَ الكلمات التي الحروف منها، كقوله[7]:

فقلتُ لها قِفِي فقالت قاف[8]

(١) في (ظ): ليفتحوا.

(٢) في (ز) و(ظ): فيسمعوا.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٥٥-٥٦، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢، والنكت والعيون ١/ ٦٥.

(٤) مسلم بن صبيح القرشي، الكوفي، مولى آل سعيد بن العاص، كان من أئمة الفقه والتفسير، مات سنة (١٠٠هـ). السير ٥/ ٧١.

(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٨٥-٨٦، وتفسير الماوردي ١/ ٦٤. وهذه الروايات وأمثالها ضعيفة. قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/ ٢٠٧: يحتاج في بيانها إلى توقيف، وأنَّى لهم به؟!

(٦) معاني القرآن ١/ ٥٦-٥٧.

(٧) قائله الوليد بنُ عقبة بن أبي مُعيط، له صحبة قليلة، وهو أخو أمير المؤمنين عثمانَ لأمه. قال الذهبي: في «السير» ٣/ ٤١٢: له أخبار طويلة في تاريخ دمشق.

(٨) معاني القرآن للزجاج ١/ ٦٢، والمحتسب ٢/ ٢٠٤، والخصائص ١/ ٣٠ و٨٠ و٢٤٦ و٢/ ٣٦١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤، ببعض اختلاف. وانظر تفسير الطبري ١/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢.

أراد: قالت: وقفتُ. وقال زهيرٌ:

بـالـخـيـر خـيـراتٍ وإن شـرًّا فَـا ولا أريــد الــشـــرَّ إلا أنْ تَـــا[١]

أرادَ: وإنْ شرًّا فَشَرٌّ. وأرادَ: إلا أنْ تشاء.

وقال آخر:

نـادَوْهُـمُ أَلَا الـجِـمُـوا أَلَا تَـا قـالُـوا جـمـيـعـاً كـلُّـهـم أَلَا فَـا[٢]

أراد: ألا تركبون، ألا فارْكَبُوا[٣]. وفي الحديث: «مَنْ أعانَ على قتْلِ مسلمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ[٤]» قال سفيان[٥]: هو أن يقولَ في «اقتُل»: اقْ، كما قال عليه الصلاة والسلامُ: «كَفَى بالسيف شا». معناه: شافياً[٦].

---

(١) البيت في الكتاب ٣/ ٣٢١، والكامل ٢/ ٥٣١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٦٣، ونسبه لِلُقَيْم بن سعد بن مالك، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٢-٢٧٠، ونسبه لِلُقَيْم بن أوس، وانظر اللسان (معى) ولم نجد من نسبه لزهير، وليس هو في ديوانه. وانظر تفسير الطبري ١/ ٢١٧، وتفسير ابن عطية ١/ ٨٣. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/ ٢١١ في هذا التأويل: هو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرجَ الألغاز والتلميح، وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد.

(٢) البيت في معاني القرآن للزجاج ١/ ٦٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ١٨٥، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤ و٢٦٦.

(٣) في (م): قالوا: ألا فاركبوا.

(٤) وتتمته: «لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله». أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٢ من حديث أبي هريرة. وفي إسناده يزيد بن أبي زياد (أو ابن زياد) الشامي، وهو متروك. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير ٤/ ١٤: بالغ ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، لكنه تبع في ذلك أبا حاتم، فإنه قال في العلل: إنه باطل موضوع.

(٥) في النسخ الخطية و(م): شقيق، وهو خطأ، وهو ابنُ عيينة، ونقل قوله المذكور الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٥ عن الخطابي، والبوصيريُّ في مصباح الزجاجة ٢/ ٨٤ عن الأصبهاني.

(٦) كذا قال: شافياً، وفي المصنف والتمهيد: شاهداً، كما سنذكر. والحديث أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٨) - ونقله عنه ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٥٧ - عن الحسن في الرجل يجد مع امرأته رجلاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شا» يريد أن يقول: شاهداً، فلم يتم الكلام حتى قال: «إذاً تتابعَ فيه السكران والغَيْران». وهو مرسل. قال ابن عبد البر: فسّر أبو عبيد التتابع قال: التهافت، فعلُ الشيء بغير تثبّت. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ٨٥: لم أر قوله: «كفى بالسيف شا»، على الاكتفاء، إلا في مرسل الحسن.

وقال زيد بنُ أسلم: هي أسماءٌ للسُّوَر[١]. وقال الكلبي: هي أقسامٌ أقسمَ الله تعالى بها لِشَرَفِها وفَضْلِها، وهي من أسمائه، عن ابن عباس أيضاً[٢].

وردَّ بعضُ العلماء هذا القولَ، فقال: لا يصحُّ أن يكونَ قَسَماً؛ لأنَّ القَسَمَ معقودٌ على حروف، مثل: إنَّ، وقد، ولقد، وما، ولم يوجد هاهنا حرفٌ من هذه الحروف، فلا يجوزُ أن يكون يميناً[٣]. والجوابُ: أن يقال: موضعُ القَسَم قولُه تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. فلو أنَّ إنساناً حلفَ، فقال: والله، هذا الكتابُ لا رَيْبَ فيه، لَكانَ الكلامُ سَديداً، وتكون «لا» جوابَ القَسَم. فثَبَتَ أنَّ قولَ الكلبيِّ، وما رُوِيَ عن ابنِ عباس، سديدٌ صحيح.

فإن قيل: ما الحكمةُ في القَسَم من الله تعالى، وكان القومُ في ذلك الزمان على صنفين: مصدِّق، ومكذِّب، فالمصدِّقُ يُصدِّقُ بغير قَسَمَ، والمكذِّبُ لا يصدِّقُ مع القَسَم[٤]؟ قيل[٥] له: القرآنُ نزلَ بلغةِ العرب، والعربُ إذا أرادَ بعضُهم أنْ يُؤكِّدَ كلامَه، أقْسَمَ على كلامه، والله تعالى أراد أن يُؤكِّدَ عليهم الحُجَّةَ، فأقْسَمَ أنَّ القرآنَ مِنْ عندِهِ.

وقال بعضهم: «الم» أي: أنزلتُ عليك هذا الكتابَ من اللوح المحفوظ، وقال قتادة في قوله: «الم» قال: اسم من أسماء القرآن[٦]. ورُوي عن محمد بن عليٍّ الترمذيِّ أنه قال: إن الله تعالى أَوْدَعَ جميعَ ما في تلك السورة من الأحكام والقَصص في الحروف التي ذكرها في أوّل السورة، ولا يَعرفُ ذلك إلا نبيٌّ أو وَلِيٌّ، ثم بَيَّنَ ذلك في جميع السورةِ لِيُفَقِّهَ الناس[٧]. وقيل غير هذا من الأقوال. فالله أعلم.

والوقْفُ على هذه الحروف على السكون، لنقصانها، إلا إذا أخبرتَ عنها، أو

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٠٦، وينظر النكت والعيون ١/ ٦٣، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٢٠٧، وذكره الماوردي في تفسيره ١/ ٦٤.

(٣) في (د) و(ز): قسماً.

(٤) في (د): والمكذب يكذب مع القسم، وفي (ظ): والمكذب لا يصدق بالقسم.

(٥) في (د): قلنا.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٩ ومن طريقه أخرجه الطبري ١/ ٢٠٤، وذكره أيضاً الماوردي في تفسيره ١/ ٦٣.

(٧) من قوله: قال الكلبي: هي أقسام... غالبُه في تفسير أبي الليث ١/ ٨٧.

عَطَفْتَها، فإنك تُعْرِبُها. واختلف: هل لها محلٌّ من الإعراب؟ فقيل: لا، لأنها ليست أسماءً متمكِّنة، ولا أفعالاً مضارِعة، وإنما هي بمنزلة حروفِ التَّهَجِّي، فهي مَحْكِيَّةٌ. هذا مذهبُ الخليلِ وسيبويه[(١)].

ومن قال: إنها أسماءُ السُّوَر، فموضِعُها عندَه الرفعُ على أنها عندَه خبرُ ابتداء مُضمر، أي: هذه «الم»، كما تقول: هذه سورةُ البقرة. أو تكون رفعاً على الابتداء، والخبرُ: «ذلك»، كما تقول: زيدٌ ذلك الرجل. وقال ابنُ كَيْسان النحوي[(٢)]: «الم»في موضع نصب، كما تقول: اقرأ «الم»، أو: عليك «الم»[(٣)]. وقيل: في موضع خفضٍ بالقسم، لقولِ ابنِ عباس: إنها أقسامٌ أقسمَ الله بها[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل: المعنى: هذا الكتاب. و«ذلك» قد تُستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعاً للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]، ومنه قولُ خُفَاف ابن نُدْبَة[(٥)].

أقولُ له والرُّمْحُ يَأطِرُ مَتْنَهُ   تأمَّلْ خُفافاً إنَّني أنا ذلِكا[(٦)]

أي: أنا هذا. فـ «ذلك» إشارةٌ إلى القرآن، موضوعٌ موضعَ هذا، تلخيصُه: الم هذا الكتابُ لا رَيْبَ فيه. وهذا قولُ أبي عُبيدة وعكرمة وغيرهما[(٧)]، ومنه قوله

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٧ ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٧٣.

(٢) محمد بن أحمد بن كيسان، أبو الحسن، النحوي، كان يحفظ مذهب البصريين والكوفيين، لأنه أخذ عن المبرد وثعلب، له المهذب في النحو، والمذكر والمؤنث، ومعاني القرآن وغيرها. إنباه الرواة ٣/ ٥٧، وبغية الوعاة ١/ ١٨.

(٣) ذكره أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٧.

(٤) سلف تخريج قول ابن عباس في الصفحة قبلها، وانظر المحرر الوجيز ١/ ٨٣.

(٥) خُفاف بن عمير بن عمرو بن الشريد السلمي، الصحابي، يكنى أبا خرشة، ونُدْبَة أمُّه، كان شاعراً مشهوراً، و شَهِدَ مع النبيِّ ﷺ فتحَ مكة، ومعه لواءُ بني سُلَيم. ثبتَ في الرِّدَّة، وبقيَ إلى أيام عمر. الاستيعاب ٣/ ٢٠٠ بهامش الإصابة. والإصابة ٣/ ١٤٨.

(٦) البيت في مجاز القرآن ١/ ٢٩ والشعر والشعراء ١/ ٣٤٢، والكامل ٣/ ١١٥٠، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٦٦، والأغاني ١٨/ ٧٤، والاستيعاب ٣/ ٢٠١ بهامش الإصابة. قال المبرّد: قوله: يأطر متنَه، أي: يثني.

(٧) كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٨، وأخرج قول عكرمة الطبري في تفسيره ١/ ٢٢٨.

تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، أي: هذه، لكنها لما انقضتْ، صارَتْ كأنَّها بَعُدَتْ، فقيل: تلك. وفي «البخاريِّ»: وقال مَعْمَر: «ذلك الكتاب»: هذا القرآن. «هدًى للمتقين»: بيانٌ ودِلالة، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]: هذا حُكْمُ الله[١].

قلت: وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»، ومنه قولُه عليه السلام في حديث أُمِّ حَرَام: «يَرْكَبونَ ثَبَجَ هذا البَحْرِ»[٢] أي: ذلك البحر. والله أعلم.

وقيل: هو على بابه، إشارةٌ إلى غائب. واختُلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة:

فقيل: «ذلك الكتاب» أي: الكتابُ الذي كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأَجَل والرِّزق، لا رَيْب فيه، أي: لا مُبَدِّلَ له.

وقيل: ذلك الكتاب، أي الذي كتبتُ على نفسي في الأَزَل: «إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبي». وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ في كتابه على نَفْسِهِ، فهو موضوعٌ عندَه: إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي». في رواية: «سَبَقَتْ»[٣].

وقيل: إنَّ الله تعالى قد كانَ وَعَدَ نبيَّه عليه السلام أن يُنزلَ عليه كتاباً لا يَمْحُوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد، كما في «صحيح» مسلم من حديث عِياض بن حِمار المُجاشعي أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن الله نَظَرَ إلى أهلِ الأرضِ، فَمَقَتَهم، عَرَبَهُم وعَجَمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتُك لأبْتَلِيَكَ، وأَبْتَلِيَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث[٤].

وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة.

---

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٧٥٣٠): كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

(٢) سلف تخريجه ص ٢١٩.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٥١): (١٤) و(١٥). وهو في صحيح البخاري (٧٤٢٢). ومسند أحمد (٧٥٠٠).

(٤) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٤)، وسلف قطعة منه ص ٩١.

وقيل: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيّه ﷺ بمكة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، لم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ مُسْتَشْرِفاً لإنجازِ هذا الوَعْدِ من ربِّه عزَّ وجلَّ، فلما أنزلَ عليه بالمدينة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، كان فيه معنى: هذا القرآنُ الذي أنزلتُه عليك بالمدينة، ذلك الكتابُ الذي وعدتُك أنْ أُوحِيَه إليك بمكة.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى ما في التوراة والإنجيل، و«الم» اسم للقرآن، والتقدير: هذا القرآنُ ذلك الكتاب المفسَّر في التوارة والإنجيل، يعني أنَّ التوراةَ والإنجيلَ يشهدانِ بِصحَّته، ويستغرقُ ما فيهما، ويزيدُ عليهما ما ليس فيهما.

وقيلَ: إنَّ «ذلك الكتاب»، إشارةٌ إلى التوراة والإنجيل كليهما، والمعنى: الم، ذانِكَ الكتابانِ، أو مثلُ ذَيْنِكَ الكتابَيْنِ، أي: هذا القرآنُ جامعٌ لِما في ذَيْنِكَ الكتابَيْنِ، فعبَّر بـ «ذلك» عن الاثنين بشاهدٍ من القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي: عَوانٌ بينَ تَيْنِكَ الفارِضِ والبِكْرِ، وسيأتي.

وقيل: إن «ذلك» إشارةٌ إلى اللَّوْحِ المحفوظ. وقال الكسائي: «ذلك» إشارةٌ إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعدُ.

وقيل: إن الله تعالى قد كانَ وَعَدَ أهلَ الكتاب أن يُنزلَ على محمد ﷺ كتاباً، فالإشارةُ إلى ذلك الوعد. قال المبرّد: المعنى: هذا القرآنُ ذلك الكتابُ الذي كنتُم تستفتحونَ به على الذين كفروا.

وقيل: [إنَّ الإشارةَ] إلى حروف المعجم في قول مَن قال: «الم» الحروفُ التي تَحدَّيْتُكُمْ بالنَّظْمِ منها[1].

و«الكتابُ» مصدر مِن: كَتَبَ يَكْتُبُ: إذا جمع، ومنه قيل: كَتِيبة، لاجتماعها. وتَكَتَّبَتِ الخيلُ: صارت كتائب[2]. وكتَبْتُ البغلةَ: إذا جمعتَ بين شُفْرَيْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر، قال:

---

(١) تفسير الماوردي ١/ ٤٤٨، وابن عطية ١/ ٨٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٧٨، وما بين حاصرتين من تفسير ابن عطية.

(٢) وفي الصحاح واللسان: تكتَّبت الخيل، أي: تجمعت.

لا تَـأْمَـنَـنَّ فَـزارِيًّـا حَـلَـلْـتَ بِـهِ عـلى قَـلُـوصِـكَ واكْـتُـبْـهـا بـأَسْـيـار[١]

والكُتْبَةُ، بضم الكاف: الخُرْزَةُ، والجمع كُتَبٌ. والكَتْبُ: الخَرْز. قال ذو الرُّمَّة[٢]:

وَفْـراءَ غَـرْفِـيَّـةٍ أَثْـأَى خَـوارِزُهـا مُـشَـلْـشَـلٌ ضَـيَّـعَـتْـهُ بـيـنَـهـا الكُـتَـبُ[٣]

والكتاب: هو خَطُّ الكاتبِ حروفَ المعجم، مجموعةً، أو متفرِّقةً، وسُمِّي كتاباً، وإنْ كان مكتوباً، كما قال الشاعر[٤]:

تُـؤمِّـلُ رَجْـعـةً مِـنِّـي وفـيـهـا كـتـابٌ مـثـلَ مـا لَـصِـقَ الـغِـراءُ

والكتاب: الفَرْضُ، والحُكْمُ، والقَدَرُ. قال الجَعْدِي[٥]:

يـا ابـنـةَ عَـمِّـي كـتـابُ الله أخـرجَـنـي عـنـكُـمْ وهَـلْ أَمْـنَـعَـنَّ الله مـا فَـعَـلا

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾: نفيٌ عام، ولذلك نُصِبَ الرَّيْب به. وفي «الرَّيْب» ثلاثةُ معانٍ:

أحدُها: الشَّكّ، قال عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى[٦]:

لـيـس فـي الـحـقِّ يـا أُمَـيْـمَـةُ رَيْـبٌ إنَّـمـا الـرَّيْـبُ مـا يـقـولُ الـجَـهُـولُ[٧]

---

(١) قائله سالم بن دارة، والبيت في الشعر والشعراء ١/ ٤٠١، والكامل ٢/ ٩٨٨، والخزانة ٦/ ٥٣١. ووقع في اللسان (كتب): على بعيرك، بدل: على قَلُوصك، والقَلُوص: الشابَّة من الإبل.

(٢) غَيْلان بنُ عُقبةَ بنِ بُهَيْس، والبيت في ديوانه ١/ ١١ (بشرح أبي نصر الباهلي).

(٣) قوله: وفراء: أي: واسعة، وغَرْفيَّة، أي: دُبغت بالغَرْف، وهو شجر، وأَثْأَى خوارزُها؛ الثأْيُ: أن تلتقيَ الخُرْزَتان فتصيرا واحدة، والمشلشل: الذي يكاد يتصل قطره. قاله أبو نصر الباهلي صاحب الأصمعي، وقال البغدادي في الخزانة ٢/ ٣٤٢: الخوارز: فاعل أثأى، وهو جمع خارزة، وهي التي تخيط المزادة.

(٤) هو مسلم بن معبد الوالبي، والبيت في تفسير الطبري ١/ ٩٣، وخزانة الأدب ٢/ ٣٠٩.

(٥) هو النابغة الجَعْدي، أبو ليلى، قيل: اسمُه حيَّان بنُ قيس، عاش إلى حدود سنة (٧٠هـ). سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٧. والبيت في «شعر النابغة الجعدي» ص ١٩٤، وفيه: كرهاً بدل: عنكم.

(٦) ابن قيس بن سعد، القرشي السهمي، كان من أشد الناس على رسول الله ﷺ وأصحابه، بلسانه ونفسه، ثم أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله ﷺ، فقبل عذره. الاستيعاب ٦/ ١٨٠ (بهامش الإصابة).

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ٦٧.

وثانيها: التُّهَمَة، قالَ جَميل[(١)]:

بُثَينةُ قالَتْ يا جَميلُ أَرَبْتَني ... فقلتُ كِلانا يا بُثَيْنَ مُرِيبُ

وثالثها: الحاجة، قال:

قَضَيْنا من تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ ثمَّ أجْمَمْنا[(٢)] السُّيُوفا[(٣)].

فكتابُ الله تعالى لا شكَّ فيه، ولا ارتيابَ، والمعنى: أنه في ذاته حقٌّ، وأنه مُنزلٌ من عند الله، وصفةٌ من صفاته، غيرُ مخلوق ولا مُحْدَثٍ، وإنْ وَقَعَ رَيْبٌ للكفَّار.

وقيل: هو خبرٌ، ومعناه النَّهْيُ، أي: لا تَرْتابُوا[(٤)]، وتمَّ الكلام، كأنَّه قال: ذلك الكتابُ حقًّا. وتقولُ: رابَنِي هذا الأمرُ إذا أدخلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفاً. وأرابَ: صارَ ذا رِيبة، فهو مُرِيبٌ، ورَابَني أمرُه. ورَيْبُ الدهر: صُرُوفُه[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «فيه» الهاء في «فيه» في موضع خفضٍ بـ«في»، وفيه خمسةُ أوجه:

أجودُها: فيهِ هُدًى. ويليه: فيهُ هُدًى، بضم الهاء بغير واو، وهي قراءةُ الزُّهْرِيِّ، وسلَّام أبي المنذر[(٦)]. ويليه: فيهِي هُدًى، بإثبات الياء، وهي قراءةُ ابنِ كثير[(٧)]. ويجوزُ: فيهُو هُدًى، بالواو[(٨)]. ويجوز: فيهْ هُدًى، مُدْغماً[(٩)].

---

(١) ابن عبد الله بن معمر، أبو عمرو العذري، صاحب بُثَيْنة، يقال: مات سنة (٨٢هـ)، وقيل: بل عاش حتى وفد على عمر بن عبد العزيز. سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨١ والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٢٩.

(٢) في (م): أجمعنا.

(٣) قائله كعب بنُ مالك، كما في اللسان والصحاح (ريب).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٨٣.

(٥) مجمل اللغة (ريب) ١/ ٤٠٨.

(٦) ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢ لمسلم بن جندب. وسلام أبو المنذر هو ابن سليمان المزني مولاهم، البصري، المقرئ، النحوي، ويعرف بالخراساني. توفي سنة (١٧١هـ) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٧٧.

(٧) يعني حالة الوصل، أما عند الوقف فيقف بالهاء الساكنة. السبعة ص ١٣٠، والتيسير ص ٢٩.

(٨) قراءة شاذة، ولم نقف عليها إلا عند النحاس حيث نقل عنه المصنف.

(٩) قاله النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٩. والإدغام المذكور أعلاه هو مذهب أبي عمرو بن العلاء من رواية السوسي. التيسير ص ٢٠.

وارتفع «هدًى» على الابتداء، والخبر: «فيه».

والهُدَى في كلام العرب معناه الرُّشْد والبيان، أي: فيه كشفٌ لأهل المعرفة، ورُشْدٌ، وزيادةُ بيانٍ وهُدًى.

الثانية: الهُدَى هُديان: هُدَى دَلالة، وهو الذي تقدرُ عليه الرُّسل وأتباعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبتَ لهم الهدى الذي معناه الدَّلالةُ، والدعوةُ، والتنبيه، وتفرَّدَ هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييدُ والتوفيق، فقال لِنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. فالهُدى على هذا يجيء بمعنى خَلْق الإيمان في القلب، ومنه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [يونس: ٢٥]. والهُدَى: الاهتداء، ومعناها[١] راجعٌ إلى معنى الإرشاد كيفما تصرَّفت.

قال أبو المعالي: وقد تَرِدُ الهدايةُ، والمرادُ بها: إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجِنان، والطرقِ المُفْضِيةِ إليها، من ذلك قولُه تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد: ٤-٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلُكوهم إليها[٢].

الثالثة: الهدى لفظ مؤنَّث. قال الفرَّاء: بعضُ بني أسد يُؤنِّثُ الهُدى، فيقول: هذه هُدًى حسنة[٣]. وقال اللحياني: هو مذكَّر، ولم يُعرب، لأنه مقصورٌ، والألِفُ لا تتحرَّك، ويتعدَّى بحرف، وبغير حرف، وقد مضى في «الفاتحة»[٤]، تقول: هدَيْتُه الطريقَ وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار، أي: عرَّفْتُه. الأولى لغةُ أهلِ الحجاز، والثانيةُ حكاها الأخفش[٥]. وفي التنزيل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) في (م): ومعناه.

(٢) سيذكره المصنف أيضاً في سورة محمد عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٠، ونقله ابن منظور في اللسان (هدى) عن الكسائي.

(٤) ص ٢٢٨.

(٥) في معاني القرآن ١/ ١٦٤.

وقيل: إن الهُدَى اسمٌ من أسماء النهار[١]؛ لأن الناسَ يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآرِبِهم، ومنه قولُ ابن مُقْبِل[٢]:

[حتى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجمةٌ يَخْشَعْنَ في الآلِ غُلْفاً أو يُصَلِّينا][٣]

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خَصَّ الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدًى للخلق أجمعين تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنُوا وصدَّقُوا بما فيه. ورُوِيَ عن أبي رَوْقٍ[٤] أنه قال: «هدًى للمتقين» أي: كرامةً لهم، يعني إنما أضافَ إليهم إجلالاً لهم، وكرامةً لهم، وبياناً لفضلهم.

وأصل «للمتقين»: للمُوتَقِيِين، بياءَيْنِ مخفَّفتين، حُذفت الكسرةُ من الياء الأولى لِثقلها، ثم حُذفت الياءُ لالتقاء الساكنين، وأُبدلت الواوُ تاءً على أصلهم في اجتماعِ الواو والتاء، وأُدغمت التاء في التاء، فصار: للمتَّقين[٥].

الخامسة: التقوى، يقال: أصلُها في اللغة قِلَّةُ الكلام، حكاه ابنُ فارس[٦].

قلت[٧]: ومنه الحديث: «التقِيُّ[٨] مُلْجَم[٩]».

---

(١) في المخصص ١٧/١٧: فأما الهدى الذي هو النهار، فمذكر، كقول ابن مقبل: حتى استنبتُ الهدى.

(٢) هو تميمُ بنُ أُبَيِّ بن مُقْبِل من بني العجلان، أدرك الإسلام فأسلم، وبلغ مئة وعشرين سنة، ذكره ابن سلّام في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء ١/ ١٤٣، وقد سقط من النسخ البيتُ المذكور له أعلاه بين حاصرتين، وأشير إلى ذلك في (د) و(ز) بلفظة: كذا، وهو في البحر ١/ ٣٣، واللسان (هجم) و(هدى) و(قمس) وفي الموضع الأخير: يقمسن، بدل: يخشعن.

(٣) قوله: البِيد، جمع بيداء، وهي المفازة، وقوله: هاجمة، أي: ساكنة. وقوله: الآل، أي: السراب، أو هو خاص بما في أول النهار وآخره.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني، الكوفي، صاحب التفسير. تهذيب التهذيب ٣/ ١١٤.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٠، والمحرر الوجيز ١/ ٨٤.

(٦) في مجمل اللغة ١/ ١٤٩. وابن فارس: هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني المالكي، اللغوي، المحدث، توفي سنة (٣٩٥هـ). السير ١٧/ ١٠٣.

(٧) في (ز) و(د): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٨) في (د): المتقي.

(٩) هو من كلام عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٥/ ٣٧٤، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٣٩ بلفظ: إن المتقي ملجم. والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٨٨)، وفي=

والمتَّقي فوق المؤمن والطائع، وهو الذي يتَّقي بصالح عملِه وخالصِ دعائه عذابَ الله تعالى، مأخوذٌ من اتِّقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينَكَ وبينَه، كما قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولَتْه واتَّقَتْنا باليدِ[1]

وقال آخر[2]:

فألقَتْ قِناعاً دونَه الشمسُ واتَّقَتْ بأحسنِ مَوْصُولَيْنِ كَفٌّ ومِعْصَمِ

وخرَّج أبو محمد عبدُ الغني الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِيّ أبي عُبَيْدة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرِّ بنِ حُبَيْش، عن ابن مسعود قال: قال يوماً لابن أخيه: يا ابنَ أخي ترى الناسَ ما أكثرهم! قال: نعم، قال: لا خيرَ فيهم إلا تائبٌ أو تقيٌّ. ثم قال: يا ابنَ أخي، تَرى الناسَ ما أكثَرَهم! قلتُ: بلى، قال: لا خيرَ فيهم إلا عالمٌ أو متعلِّم.

وقال أبو يزيد البِسْطامي[3]: المُتَّقي مَن إذا قال، قال لله، ومَن إذا عَمِلَ، عملَ لله.

وقال أبو سليمان الدَّاراني[4]: المُتَّقون الذين نزعَ الله عن قلوبهم حُبَّ الشهوات[5].

وقيل: المتَّقي الذي اتَّقى الشِّركَ، وبَرِئَ من النِّفاق. قال ابنُ عطية: وهذا فاسدٌ؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسقٌ[6].

= الزهد الكبير (٩٢٩) ولفظه في الزهد: التقى ملجمة.
وقال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٨٩: وفي المثل السائر: التقي مُلْجَم، وذكره القاسم بن سلَّام في الأمثال ص ٤٠، والبكري في فصل المقال ص ٢٢ والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٣٩.

(١) ديوانه ص ٤٠. قوله: النصيف؛ المراد به هنا الخمار، أو ثوب تتجلَّلُ به المرأة فوق ثيابها. ينظر «معجم متن اللغة».

(٢) هو أبو حية النميري، والبيت المذكور في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٦٩.

(٣) طَيْفور بنُ عيسى بن شَرْوَسَان، أحد الزهاد. توفي سنة (٢٦١هـ). السير ١٣/ ٨٦.

(٤) عبد الرحمن بن أحمد، الزاهد، توفي سنة (٢١٥هـ)، وقيل: (٢٠٥هـ). السير ١٠/ ١٨٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩٢٢).

(٦) قاله الماوردي في تفسيره ١/ ٦٨.

وسألَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أُبيًّا عن التقوى، فقال: هل أخذتَ طريقاً ذا شَوْكٍ؟ قال: نعم، قال: فما عَمِلتَ فيه؟ قال: شمَّرتُ[١] وحَذِرْتُ، قال: فذاك التقوى[٢]. وأخذ هذا المعنى ابنُ المُعتزّ[٣] فنَظَمَه:

خَلِّ الذنوبَ صَغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصْنَعْ كماشٍ فوقَ أرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى[٤]
لا تَحْقِرَنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ من الحَصَى

السادسة: التقوى فيها جِماعُ الخيرِ كلِّه، وهي وصيةُ الله في الأوَّلينَ والآخِرينَ، وهي خيرُ ما يستفيدُه الإنسان، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابَك يقولون الشِّعْرَ وأنت ما حُفِظَ عنك شيءٌ، فقال:

يُريدُ المرء أن يُؤتَى مُناهُ ويأبَى الله إلا ما أرَادا
يقولُ المرءُ فائدتي ومالي وتقوى الله أفضلُ ما اسْتَفادا[٥]

وروى ابنُ ماجه في «سننه» عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول: «ما استفادَ المرءُ[٦] بعد تقوى الله خيراً[٧] له من زَوْجةٍ صالحةٍ، إنْ أمَرَها أطاعَتْه، وإنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْه، وإنْ أقْسَمَ عليها أبَرَّتْه، وإنْ غابَ عنها نَصَحَتْهُ في نفسِها ومالِه»[٨].

والأصل في التقوى: وَقْوَى، على وزن فَعْلَى، فقُلبت الواو تاءً، من: وَقَيْتُه أَقِيه،

---

(١) في (م): تشمَّرتُ.

(٢) أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى كما في الدر المنثور ١/ ٢٤، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٦٣) من قول أبي هريرة لرجل سأله عن التقوى.

(٣) عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، الأديب الشاعر، أخذ الأدب عن المبرّد وثعلب وغيرهما، له من التصانيف: الزهر والرياض وطبقات الشعراء وغيرها، توفّي سنة (٢٩٦هـ). «وفيات الأعيان» ٣/ ٧٦ والأبيات المذكورة في ديوانه ص ٢٦.

(٤) في الديوان:

كن فوق ماشٍ فوق أرْ ضِ الشَّوْكِ يحذرُ ما يَرَى

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٥، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١١/ ٢٣١ (بهامش الإصابة).

(٦) في (م): المؤمن.

(٧) في النسخ: خيرٌ، و المثبت من (م).

(٨) سنن ابن ماجه (١٨٥٧)، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف.

أي: منعتُه، ورجلٌ تقيٌّ، أي: خائف، أصله: وَقيّ، وكذلك: تُقاة، كانت في الأصل: وُقاة، كما قالوا: تُجاه وتُراث، والأصل: وُجاه ووُراث.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

فيها ستٌّ وعشرون مسألة:

الأولى: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خَفْض نَعْت ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ويجوز الرفعُ على القطع، أي: هم الذين، ويجوزُ النصبُ على المدح. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدِّقون. والإيمانُ في اللغة: التصديق، وفي التنزيل: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدِّق، ويتعدَّى بالباء واللام، كما قال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ [يونس: ٨٣].

ورَوَى حجَّاجُ بنُ حجَّاج الأحول[١] - ويلقَّب بزِقِّ العَسَل - قال: سمعتُ قتادة يقول: يا ابْنَ آدم، إنْ كنتَ لا تريدُ أن تأتيَ الخيرَ إلا عن نشاطٍ، فإن نفسَك مائلةٌ إلى السَّآمةِ والفَتْرَةِ والمَلَّةِ، ولكنّ المؤمنَ هو المُتحامل، والمؤمن هو المُتقوّي، والمؤمنُ هو المُتشدِّد، وإن المؤمنين هم العجَّاجون[٢] إلى الله الليلَ والنهارَ، واللهِ، ما يزالُ المؤمنُ يقول: ربَّنا ربَّنا في السِّرِّ والعلانيةِ حتى استجابَ لهم في السرِّ والعلانية[٣].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ الغيبُ في كلام العرب: كلُّ ما غابَ عنك، وهو من ذوات الياء، يقال منه: غابت الشمسُ تَغيب، والغِيبةُ معروفةٌ. وأغابت المرأةُ، فهي مُغِيبة إذا غاب عنها زوجُها: ووقَعنا في غَيْبة وغَيابة، أي: هَبْطة من الأرض، والغابةُ[٤]: الأَجَمة، وهي جِماعُ الشجر يُغابُ فيها، ويُسمَّى المطمئنُّ من الأرض: الغَيْبَ؛ لأنهُ غابَ عن البصر.

---

(١) الباهلي، البصري، الحافظ، وثقه أبو حاتم وغيره، توفي سنة (١٣١هـ). السير ٦/ ١٥١ و٧/ ٧٦.

(٢) في (ظ): العاجون.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٣٥-٣٣٦. وقوله: المتحامل: من تحاملت الشيء، إذا تكلفتَه على مشقة. النهاية ١/ ٤٤٣. والعجَّاجون: من العجّ، وهو رفع الصوت بالتلبية. النهاية ٣/ ١٨٤.

(٤) في النسخ و(م): الغيابة، والمثبت من مجمل اللغة ٣/ ٦٨٨، والكلام منه.

الثالثة: واختلفَ المفسرون في تأويل الغَيْب هنا، فقالت فرقةٌ: الغَيْبُ في هذه الآية: الله سبحانه. وضَعَّفه ابنُ العربي[١]. وقال آخرون: القضاء والقَدَر. وقال آخرون: القرآنُ وما فيه من الغُيوب. وقال آخرون: الغَيْبُ كلُّ ما أخبَرَ به الرسولُ ﷺ مما لا تَهتدي إليه العقولُ؛ من أشراطِ الساعة، وعذابِ القبر، والحشر، والنَّشر، والصِّراط، والميزان، والجنة، والنار. قال ابنُ عطية[٢]: وهذه الأقوالُ لا تتعارضُ، بل يقعُ الغيبُ على جميعها.

قلت: وهذا هو الإيمانُ الشرعيُّ المشارُ إليه في حديث جبريلَ عليه السلام حين قال للنبيِّ ﷺ: فأخْبِرْني عن الإيمان. قال: «أنْ تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكُتبِهِ ورُسُلِه واليومِ الآخِر، وتُؤمنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ». قال: صَدَقْتَ. وذكر الحديث[٣]. وقال عبدُ الله بنُ مسعود: ما آمنَ مؤمنٌ أفضلَ من إيمانٍ بغيب، ثم قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٤].

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فهو سبحانه غائبٌ عن الأبصار، غيرُ مَرْئيٍّ في هذه الدار، غيرُ غائبٍ بالنظرِ والاستدلالِ، فهم يؤمنون أنَّ لهم ربًّا قادراً يُجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في سرائرهم وخَلَواتهم التي يَغيبون فيها عن الناس، لِعلمهم باطِّلاعه عليهم، وعلى هذا تتَّفقُ الآي ولا تتعارض، والحمدُ لله.

وقيل: «بالغيب» أي: بضمائرهم وقلوبهم بخلافِ المنافقين، وهذا قولٌ حسَنٌ. وقال الشاعر[٥]:

وبالغيب آمنَّا[٦] وقد كان قَوْمُنا ... يُصَلُّون للأوثان قَبْلَ[٧] محمدِ

---

(١) في أحكام القرآن ١/٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/٨٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب، وقد سلفت قطعة منه ص ١٩٣. وأخرج نحوه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٤) سلف ص ٢٣٨.

(٥) هو العباس بن مرداس، والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٥٦.

(٦) في الديوان: ومن قبل آمنا.

(٧) في (ظ): غير.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامةُ الصلاة: أداؤها بأركانها وسننِها وهيئاتِها في أوقاتها، على ما يأتي بيانُه.

يقال: قامَ الشيءُ، أي: دامَ وثبتَ، وليسَ من القيام على الرِّجْل، وإنما هو من قولك: قام الحقُّ، أي: ظهرَ وثَبَتَ، قال الشاعر:

وقامت الحربُ بنا على ساق[1]

وقال آخرُ:

وإذا يقالُ أتيتُمُ لم يَبْرَحُوا حتى تُقيمَ الخيلُ سُوقَ طِعانِ[2]

وقيل: «يُقيمون»: يُديمون، وأقامَهُ، أي: أَدامَهُ[3]، وإلى هذا المعنى أشارَ عمرُ بقوله: مَنْ حَفِظَها وحافظَ عليها، حَفِظَ دِينَه، ومَنْ ضَيَّعَها، فهو لما سَواها أضْيعُ[4].

الخامسة: إقامةُ الصلاة معروفةٌ، وهي سُنَّةٌ عند الجمهور، وأنه لا إعادةَ على تاركها. وعند الأوزاعيِّ، وعطاء، ومجاهد، وابن أبي ليلى[5] هي واجبةٌ، وعلى مَنْ تَرَكَها الإعادةُ، وبه قال أهلُ الظاهر[6]، ورُوِيَ عن مالك، واختارَهُ ابنُ العربي[7] قال: لأنَّ في حديث الأعرابي: «وأقم» فأمرَه بالإقامةِ كما أمرَهُ بالتكبيرِ، والاستقبالِ، والوضوء.

قال: فأما أنتُم الآن وقد وقفتُم على الحديث، فقد تَعيَّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقةِ للحديث، وهي أنَّ الإقامةَ فرضٌ.

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٨٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٤١ وسيذكره المصنف أيضاً في تفسير الآية (٢٩) من سورة القيامة.

(٢) ذكره ابن عطية في تفسيره ١/ ٨٥.

(٣) في (ظ): وإقامة، أي: إدامة.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٩٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٤٥، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٦٨. وابن العربي في أحكام القرآن ١/ ١٠.

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي ليلى، أبو عيسى الأنصاري، الكوفي، الفقيه، قتل بوقعة الجماجم سنة (٨٣هـ). السير ٤/ ٢٦٢.

(٦) ينظر التمهيد ١٨/ ٣١٨-٣١٩، والاستذكار ٤/ ٥٠.

(٧) عارضة الأحوذي ٢/ ٩٩ في شرح حديث الأعرابي عند الترمذي (٣٠٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي، وسيشير إليه المصنف ص ٢٦٢.

قال ابنُ عبد البَرِّ: قوله ﷺ: «وتَحريمُها التَّكبيرُ[١]» دليلٌ على أنه لم يَدْخُلْ في الصلاة مَنْ لم يُحْرِمْ، فما كانَ قبلَ الإحرام فَحكمُه ألا تُعادَ منه الصلاةُ، إلا أنْ يُجمِعوا على شيء، فيسلَّم للإجماع، كالطهارة، والقِبْلَةِ، والوقت، ونحو ذلك[٢].

وقال بعضُ علمائنا: مَنْ تَرَكَها عَمْداً أعادَ الصلاةَ، وليسَ ذلكَ لِوجُوبها، إذْ لو كانَ ذلك، لاستوى سَهْوُها وعَمْدُها، وإنما ذلك للاستخفافِ بالسُّنن، والله أعلم.

السادسة: واختلفَ العلماءُ فيمن سَمِعَ الإقامةَ، هل يُسرِعُ أَوْ لا؟ فذهبَ الأكثرُ إلى أنه لا يُسْرِعُ، وإنْ خافَ فَوْتَ الركعة؛ لقوله عليه السلام: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا تَأْتُوها تَسْعَوْنَ، وأْتُوها تَمشُون، وعليكم السَّكِينةَ، فما أَدْرَكتُم فَصَلُّوا، وما فاتَكم فَأَتِمُّوا» رواه أبو هريرةَ، أخرجه مسلم[٣].

وعنه أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا ثُوِّبَ بالصَّلاةِ، فلا يَسْعَ إليها أحدُكم، ولكنْ لِيَمْشِ وعليه السَّكِينةُ والوَقارُ، صَلِّ ما أَدْرَكْتَ، واقْضِ ما سَبَقَكَ»[٤]. وهذا نَصٌّ.

ومن جِهة المعنى: أنه إذا أسرعَ، انبهرَ[٥]، فشوَّشَ عليه دخولَه في الصلاة وقراءتَها وخشوعَها.

وذهب جماعةٌ من السَّلف منهم ابنُ عمر وابنُ مسعود ـ على اختلافٍ عنه ـ أنه إذا خافَ فواتَها، أَسْرَعَ.

وقال إسحاقُ: يُسرِعُ إذا خاف فواتَ الركعة، ورُوِيَ عن مالكٍ نحوُه، وقال: لا بأسَ لمن كان على فَرَس أنْ يُحَرِّكَ الفرسَ[٦]، وتأوَّله بعضُهم على الفرقِ بين الماشي والراكب؛ لأنَّ الراكبَ لا يكادُ أَنْ يَنْبهِرَ كما يَنْبَهِرُ الماشي.

---

(١) قطعة من حديث علي رضي الله عنه، سيذكره المصنف ص ٢٦٨.

(٢) التمهيد ١٨/٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) (٦٠٢)، وهو في مسند أحمد (٧٦٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٩٥١٤)، ومسلم (٦٠٢): (١٥٤).

(٥) أي: تتابع نَفَسُه. الصحاح (بهر).

(٦) ذكر هذه الأقوال ابن المنذر في الأوسط ٤/١٤٦ـ١٤٧، وابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٢٣٢ـ٢٣٣، والاستذكار ٤/٣٦ـ٣٨. وقول إسحاق عندهما: إذا خاف فوات التكبيرة الأولى فلا بأس أن يسعى.

قلتُ: واستعمالُ سنةِ رسول الله ﷺ في كلّ حال أوْلى، فيمشي كما جاء في[1] الحديث: «وعليه السكينةُ والوَقارُ»، لأنه في صلاة، ومُحالٌ أنْ يكونَ خبرُه ﷺ على خِلافِ ما أخبر، فكما أنَّ الداخلَ في الصلاة يَلْزَمُ[2] الوَقارَ والسُّكونَ، كذلك الماشي، حتى يحصُلَ له التَّشَبُّهُ به، فيحصُلَ له ثوابُه.

ومما يَدُلُّ على صحة هذا ما ذكرناه من السنَّة، وما خرَّجه الدَّارِميُّ في «مسنده» قال: حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ قال: حدثنا سفيانُ، عن محمدِ بن عَجْلانَ، عن المَقْبُرِيِّ، عن كعب بنِ عُجْرَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا تَوضَّأْتَ، فَعَمَدْتَ إلى المسجدِ، فلا تُشَبِّكَنَّ بين أصابِعكَ، فإنَّكَ في صلاةٍ[3]». فمنعَ ﷺ في هذا الحديث ـ وهو صحيحٌ ـ مما هو أقلُّ من الإسْراع، وجَعَلَهُ كالمصلِّي. وهذه السُّنَنُ تبيِّنُ معنى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وأنه ليس المرادُ به الاشتدادَ على الأقْدام، وإنما عَنَى العملَ والفِعْلَ، هكذا فسَّره مالكٌ. وهو الصوابُ في ذلك، والله أعلم.

السابعة: واختلفَ العلماءُ في تأويل قوله عليه السلام: «وما فاتَكُم فأَتِمُّوا» وقولِهِ: «واقْضِ ما سَبَقَكَ»، هل هما بمعنًى واحدٍ، أوْ لا؟ فقيل: هما بمعنًى واحدٍ، وأنَّ القضاءَ قد يُطلَقُ، ويُرادُ به التَّمامُ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقيل: معناهما مُختلِفٌ، وهو الصحيح.

ويَتَرتَّبُ على هذا الخلافِ خِلافٌ فيما يُدرِكُه الداخلُ: هل هو أوَّلُ صلاتِه، أو آخِرُها؟ فذهبَ إلى الأوَّلِ جماعةٌ من أصحابِ مالك ـ منهم ابنُ القاسم ـ ولكنَّه يَقْضي ما فاتَه بالحمد وسورة، فيكون بانياً في الأفعال، قاضِياً في الأقوال. قال ابنُ عبد البر[4]:

(١) لفظ: في، من (ظ).

(٢) في النسخ الخطية: لزم، والمثبت من (م).

(٣) سنن الدارمي (١٤٠٥)، وهو في مسند أحمد (١٨١١٥) من طريق قُرَّان بن تمَّام الأسدي، عن محمد بن عجلان، به.

(٤) في التمهيد ٢٠/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، والاستذكار ٤/ ٤٠ ـ ٤٣، والكلام منهما حتى آخر المسألة، دون قول القاضي عبد الوهاب.

وهو المشهورُ من المذهب. وقال ابنُ خُوَيزْمَنْداد[١]: وهو الذي عليه أصحابُنا، وهو قولُ الأوزاعيّ، والشافعيّ، ومحمدِ بنِ الحسن، وأحمدَ بنِ حنبل، والطبريّ، وداودَ بنِ عليّ. وروى أشهَبُ - وهو الذي ذكره ابنُ عبد الحكم عن مالكٍ، ورواه عيسى[٢]، عن ابن القاسم - عن مالك: أنَّ ما أدركَ فهو آخِرُ صلاته، وأنه يكونُ قاضياً في الأفعال والأقوال، وهو قولُ الكوفيين.

قال القاضي أبو محمد عبدُ الوهَّاب[٣]: وهو مشهورُ مذهبِ مالك.

قال ابنُ عبد البَرّ: مَنْ جعلَ ما أدركَ أوَّلَ صلاتِه، فأظنُّهم راعَوُا الإحرامَ؛ لأنه لا يكونُ إلا في أوَّلِ الصلاة، و التشهدُ والتسليمُ لا يكونُ إلا في آخرِها، فَمِنْ هاهنا قالوا: إنَّ ما أدركَ فهو أوَّلُ صلاتِه، مع ما وردَ في ذلك من السنَّة من قوله: «فأتِمُّوا» والتَّمامُ هو الآخِرُ.

واحتجَّ الآخَرون بقوله: «فَاقْضُوا» والذي يَقضيه هو الفائتُ، إلا أنَّ روايةَ مَنْ روى «فَأتِمُّوا» أكثرُ، وليس يستقيمُ على قولِ مَنْ قال: إنَّ ما أدركَ أوَّلُ صلاته، ويَطَّرِدُ، إلا ما قاله عبدُ العزيز بن أبي سَلَمَةَ الماجِشُون[٤]، والمُزَنيّ[٥]، وإسحاقُ، وداودُ، مِنْ أنه يقرأُ مع الإمام بالحمد وسورةٍ، إنْ أدركَ ذلك معه، وإذا قام للقضاء، قرأ بالحمد وحدَها، فهؤلاء اطَّرَدَ على أصلِهم قولُهم وفِعْلُهم، رضي الله عنهم.

الثامنة: الإقامةُ تَمنَعُ من ابتداءِ صلاةٍ نافلة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبةُ» خرَّجه مسلمٌ وغيره[٦]، فأما إذا شَرَعَ في نافلةٍ، فلا

---

(١) في (د) و(ز): خواز منداد، وفي (ظ): حوار بنداد، والمثبت من (م)، وسلف ذكره ص ١٨٠.

(٢) ابن دينار، أبو محمد الغافقي، القرطبي، فقيه الأندلس ومفتيها، لزم عبد الرحمن بن القاسم العتقي مدة، وعوَّل عليه، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ١٠/ ٤٣٩.

(٣) ابن علي بن نصر التغلبي العراقي، شيخ المالكية، له كتاب التلقين والمعرفة وغير ذلك. توفي سنة (٤٢٢هـ). السير ١٧/ ٤٢٩.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أبو عبد الله، التيمي مولاهم، المدني. توفي سنة (١٦٤هـ). وقيل: (١٦٦هـ). السير ٧/ ٣٠٩.

(٥) إسماعيل بن يحيى، أبو إبراهيم، المصري، تلميذ الإمام الشافعي، صاحب المختصر، قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي، توفي سنة (٢٦٤هـ). السير ١٢/ ٤٩٢.

(٦) صحيح مسلم (٧١٠)، من حديث أبي هريرة. وهو في مسند أحمد (٩٨٧٣).

يَقْطَعُها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وخاصَّةً إذا صَلَّى ركعةً منها. وقيل: يقطعُها لعموم الحديث في ذلك. والله أعلم.

التاسعة: واختلف العلماءُ فيمن دخَلَ المسجدَ، ولم يكُنْ ركَعَ ركعتَي الفجر، ثم أُقيمَتِ الصلاةُ. فقال مالكٌ: يدخُلُ مع الإمام ولا يركَعُهما، وإنْ كان لم يدخُلِ المسجدَ، فإنْ لم يَخَفْ فواتَ ركعة، فَلْيَركَعْ خارجَ المسجد، ولا يركَعُهما في شيء من أفنيةِ المسجد - التي يُصلَّى[1] فيها الجمعةُ - اللَّاصقةِ بالمسجد. وإن خاف أَنْ تفوتَه الركعةُ الأولى، فَلْيدخُلْ ولْيُصَلِّ معه، ثم يُصَلِّيهما[2] إذا طلعت الشمسُ إنْ أحبَّ، ولأَنْ يُصَلِّيهما إذا طلعتِ الشمسُ أحبُّ إليَّ وأفضلُ مِنْ تَرْكِهما[3].

وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه: إنْ خَشِيَ أَنْ تفوتَه الركعتان، ولا يدرك الإمامَ قبلَ رَفْعِه من الركوع في الثانية، دخَلَ معه، وإن رجا أن يُدرِكَ ركعةً، صَلَّى ركعتي الفجر خارجَ المسجد، ثم يدخُلُ مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعيُّ، إلا أنه يُجَوِّزُ ركوعَهما في المسجد ما لم يَخَفْ فَوْتَ الركعةِ الأخيرة. وقال الثوري: إنْ خَشِيَ فَوْتَ ركعة، دخَلَ معهم ولم يُصَلِّهما، وإلا صلَّاهما وإن كان قد دخلَ المسجدَ. وقال الحسنُ بن حَيٍّ - ويقال ابن حَيَّان[4] -: إذا أخذ المقيمُ في الإقامة، فلا تطوُّعَ إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعيُّ: مَنْ دخلَ المسجدَ وقد أُقيمتِ الصَّلاةُ، دخلَ مع الإمام، ولم يَركَعْهما، لا خارجَ المسجد ولا في المسجد. وكذلك قال الطبريُّ، وبه قال أحمدُ بنُ حنبل، وحُكي عن مالك، وهو الصحيحُ في ذلك؛ لقوله عليه السلام: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة».

وركعتا الفجر إمَّا سنةٌ، وإمَّا فضيلةٌ، وإمَّا رغيبة، والحُجَّةُ عند التنازع السُّنةُ[5].

---

(١) في (م): تُصلَّى.

(٢) في (ظ) في الموضعين: يصليها.

(٣) في النسخ: تركها، والمثبت من (م).

(٤) هو الحسن بن صالح بن صالح بن حيّ، أبو عبد الله الهَمْداني، الثوري، الكوفي، الفقيه، قال الذهبي: هو من أئمة الإسلام لولا تلبّسه ببدعة، توفي سنة (١٦٩هـ). السير ٧/ ٣٦١.

(٥) في (م): حجة السنة.

ومن حُجَّةِ قولِ مالك المشهور وأبي حنيفةَ: ما رُوي عن ابن عمرَ،أنه جاء والإمامُ يُصلِّي صلاةَ الصبح، فصلَّاهما في حُجرةِ حفصةَ، ثم إنه صلَّى مع الإمام[١].

ومن حُجَّةِ الثَّوريِّ والأوزاعيِّ ما رُوِيَ عن عبد الله بنِ مسعود، أنه دخلَ المسجدَ وقد أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فصلَّى إلى أُسْطُوانة في المسجد ركعتَي الفجر، ثم دخلَ الصَّلاةَ بمحضَرٍ من حذيفةَ وأبي موسى رضي الله عنهما[٢]. قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارجَ المسجد، جاز له ذلك في المسجد، روى مسلمٌ عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَةَ قال: أُقيمَتْ صلاةُ الصبح، فرأى رسولُ الله ﷺ رجلاً يُصَلِّي والمؤذِّنُ يقيمُ، فقال: «أَتُصَلِّي الصُّبحَ أربعاً؟!»[٣]. وهذا إنكارٌ منه ﷺ على الرجل لصلاته ركعتَي الفجر في المسجدِ والإمامُ يُصلِّي، ويمكن أن يُسْتَدلَّ به أيضاً على أنَّ ركعتَي الفجر إن وقعَتْ في تلك الحال صَحَّتْ؛ لأنه عليه السلام لم يقطَعْ عليه صلاتَه مع تمكُّنِه من ذلك، والله أعلم[٤].

العاشرة: الصلاةُ أصلُها في اللغة: الدُّعاءُ، مأخوذةٌ مِن صَلَّى يُصلِّي: إذا دعا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعيَ أَحَدُكم إلى طعامٍ، فَلْيُجِبْ، فإنْ كان مُفطِراً، فَلْيَطْعَمْ، وإن كان صائماً، فَلْيُصَلِّ»[٥] أي: فَلْيَدْعُ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّ المرادَ الصلاةُ[٦] المعروفة، فيُصلِّي ركعتين، وينصرِفُ، والأوَّلُ أشهرُ، وعليه من العلماء الأكثرُ[٧].

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٥، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ٧٣.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٤.

(٣) صحيح مسلم (٧١١)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٦٦٣). وأخرجه الإمام أحمد (٢١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تنظر الأقوال الواردة في هذه المسألة في التمهيد ٢٢/ ٦٨-٧٤، والاستذكار ٥/ ٣٠٤ - ٣٠٧.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٠٥٨٥)، ومسلم (١٤٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د): بالصلاة.

(٧) في (ظ): أكثر.

ولما وَلَدَتْ أسماءُ عبدَ الله بنَ الزبير، أرسلته إلى النبيِّ ﷺ. قالت أسماءُ: ثم مَسَحه، وصلَّى عليه[١]، أي: دعا له.

وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادْعُ لهم.

وقال الأعشى[٢]:

تقول بِنْتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحِلًا يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعا
عليكِ مثل[٣] الذي صَلَّيتِ فاغْتمِضِي يوماً[٤] فإنَّ لجَنْبِ المرء مُضطجَعا

وقال الأعشى أيضاً[٥]:

وقابلَها الرِّيحُ في دَنِّها وصَلَّى على دَنِّها[٦] وارْتَسَمْ

ارتسمَ الرجلُ: كبَّرَ ودعا، قاله في «الصحاح»[٧].

وقال قومٌ: هي مأخوذةٌ من الصَّلا، وهو عِرْقٌ في وَسَطِ الظَّهر، ويفترقُ عند العَجْب، فيكتنفُه، ومنه أُخِذَ المُصَلِّي في سَبْقِ الخيل؛ لأنه يأتي في الحَلْبة ورأسُه عند صَلَوي السابق، فاشتُقَّتِ الصَّلاةُ منه؛ إمَّا لأنها جاءَتْ ثانيةً للإيمان، فَشُبِّهَتْ بالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأنَّ الراكعَ تُثْنى[٨] صَلَواهُ[٩]. والصَّلا: مَغْرِزُ الذَّنَب من الفَرَس. والاثنان صَلَوان. والمُصَلِّي: تالي السابق؛ لأنَّ رأسَه عند صَلاهُ. وقال عليٌّ رضي الله عنه: سَبَقَ رسولُ الله ﷺ، وصَلَّى أبو بكر، وثَلَّثَ عمرُ[١٠].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٤٦).

(٢) في ديوانه ص ١٥١.

(٣) بالرفع أو النصب؛ قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦٢: فمن رفع «مثل» جعله: عليكِ مثلُ ذلك الذي قلتِ لي ودعوتِ لي به، ومن نصبه جعله أمراً يقول: عليكِ بالترحم والدعاء لي.

(٤) في (م): نوماً، وهي رواية للبيت.

(٥) في ديوانه ص ٨٥.

(٦) الدَّنّ: هو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

(٧) الصحاح (رسم).

(٨) في (د): ينثى، وفي (ظ): ينثني.

(٩) من قوله: قال قوم... من المحرر الوجيز ١/ ٨٥.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (٨٩٥)، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (١١) من سورة يوسف، والآية (١٠) من سورة الحديد.

وقيل: هي مأخوذةٌ من اللُّزوم، ومنه صَلِيَ بالنار: إذا لَزِمَها، ومنه﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]. قال الحارثُ بنُ عُبَاد[١]:

لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ اللّـ ـهُ وإنّي بحرِّها اليومَ صالِ[٢]

أي: مُلازِمٌ لحرِّها.

وكأنَّ المعنى على هذا: مُلازَمةُ العبادةِ على الحدِّ الذي أمرَ الله تعالى به.

وقيل: هي مأخوذةٌ من صَلَّيْتُ العودَ بالنار: إذا قوَّمتَه وليَّنْته بالصِّلاء. والصِّلاءُ: صِلاءُ النار، بكسر الصاد ممدود، فإنْ فتحتَ الصادَ قَصَرْتَ، فقلتَ: صَلا النار، فكأنَّ المُصَلِّي يُقَوِّم نفسَه بالمعاناة فيها، ويَلينُ ويخشَع، قال الخارْزَنجي[٣]:

فلا تَعْجَلْ بأمرِكَ واسْتَدِمْهُ فما صَلَّى عصاكَ كَمُسْتَدِيمِ

والصلاةُ: الدعاء، والصلاةُ: الرحمة، ومنه: «اللهمَّ صَلِّ على محمد» الحديث[٤].

والصلاةُ: العبادة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأنفال: ٣٥] الآية، أي: عبادتُهم.

والصلاةُ: النافلة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) في النسخ: هناد، وهو خطأ، وهو الحارث بن عباد البكري، كان أحلم أهل زمانه وأشدهم بأساً، اعتزل الحرب بين بكر وتغلب - وهي حرب البسوس - ثم دخلها بعد أن قتل المهلهلُ ابنَ أخيه بجير بن عمرو. خزانة الأدب ١/ ٤٧٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥، والأغاني ٥/ ٤٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٧٣.

(٣) كذا وقع في النسخ، والبيت لقيس بن زهير العبسي، كما في اللسان والصحاح (صلا)، وقد ذكره الخارزنجي، فيما ذكر ابنُ عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٢٩٠، ثم قال: وهو مشكل، فإن الصلاة من ذوات الواو، وهذا من الياء. اهـ. والخارزنجي هو: أحمد بن محمد، أبو حامد البشتي، إمام أهل الأدب بخراسان في عصره، له كتاب التكملة، كمّل به كتاب العين. توفي سنة (٣٤٨هـ). إنباه الرواة ١/ ١٠٧.

(٤) روي من أحاديث عدد من الصحابة، منهم طلحة بن عبيد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو مسعود الأنصاري وكعب بن عجرة، وأبو حُميد الساعدي. ينظر مسند أحمد (١٣٩٦) و(١١٤٣٣) و(١٧٠٧٢) و(١٨١٠٤) و(٢٣٦٠٠).

والصلاةُ: التسبيح، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من المُصَلِّين، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وقد قيل في تأويل ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]: نصلِّي.

والصلاةُ: القراءة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهي لفظٌ مُشتركٌ. والصلاةُ: بيتٌ يُصَلَّى فيه، قاله ابنُ فارس(١).

وقد قيل: إنَّ الصلاةَ اسمُ عَلَم وُضِعَ لهذه العبادة، فإنَّ الله تعالى لم يُخْلِ زماناً من شَرْع، ولم يَخْلُ شرعٌ من صلاة، حكاه أبو نصر القُشَيْرِيّ.

قلتُ: فعلى هذا القولِ لا اشتقاقَ لها، وعلى قولِ الجمهور، وهي:

الحادية عشرة: اختلف الأصوليُّون: هل هي مبقاةٌ على أصلها اللُّغويِّ الوضعيِّ الابتدائيِّ، وكذلكَ الإيمانُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ، والشرعُ إنما تصرَّفَ بالشروطِ والأحكام، أو هل تلك الزيادةُ من الشرع تُصَيِّرها(٢) موضوعةً كالوضع الابتدائيّ من قِبَلِ الشرع؟ هنا اختلافُهم، والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّ الشريعةَ ثَبَتَتْ بالعربية، والقرآنُ نزلَ بها بلسان عربيٍّ مبين، ولكن للعرب تحكُّم في الأسماء، كالدَّابةِ وُضِعَتْ لكلِّ ما يَدِبُّ، ثم خَصَّصَها العُرْفُ بالبهائم، فكذلك لِعُرفِ الشرع تحكُّمٌ في الأسماء، والله أعلم.

الثانية عشرة: واختُلِفَ في المرادِ بالصلاةِ هنا، فقيل: الفرائضُ، وقيل: الفرائضُ والنوافلُ معاً، وهو الصحيحُ؛ لأنَّ اللفظَ عامٌّ، والمتَّقي يأتي بهما.

الثالثة عشرة: الصلاةُ سببٌ للرزق، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، الآية، على ما يأتي بيانه في «طه» إن شاء الله تعالى. وشفاءٌ من وَجَعِ البطن وغيرِه، روى ابنُ ماجه، عن أبي هريرةَ قال: هَجَّرَ النبيُّ ﷺ، فهجَّرْتُ(٣)، فصلَّيتُ، ثم جلستُ، فالتفتَ إليَّ النبيُّ ﷺ، فقال: «اشكَمَتْ دَرْدَه» قلتُ: نعم يا رسولَ الله، قال: «قُمْ فَصَلِّ، فإنَّ في الصلاةِ شِفاءً». وفي(٤) رواية: «اشكَمَت دَرْد» يعني: تشتكي

(١) في مجمل اللغة (صلى) ٢/ ٥٣٨.

(٢) في النسخ: يصيرها، والمثبت من (م).

(٣) من هذا الموضع إلى قوله: لأنه مخالف للسواد ص ٢٨٣ سقط من (ز).

(٤) في (د) و(م): في رواية، والمثبت من (ظ).

بطنَك؟ بالفارسية[١]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمْرٌ، فَزِعَ إلى الصَّلاة[٢].

الرابعة عشرة: الصلاةُ لا تَصِحُّ إلا بشروطٍ وفروض، فمن شُروطها: الطهارةُ، وسيأتي بيانُ أحكامها في سورة النساء والمائدة[٣]. وسَتْرُ العورة، يأتي في الأعراف[٤] القولُ فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فروضُها: فاستقبالُ القبلةِ[٥]، والنيةُ، وتكبيرةُ الإحرام، والقيامُ لها، وقراءةُ أمِّ القرآن، والقيامُ لها، والركوعُ، والطُّمأنينةُ فيه، ورفعُ الرأس من الركوع، والاعتدالُ فيه، والسجودُ، والطُّمأنينةُ فيه، ورفعُ الرأسِ من السجود، والجلوسُ بين السجدتين، والطُّمأنينةُ فيه، والسجودُ الثاني، والطُّمأنينةُ فيه. والأصلُ في هذه الجُملةِ حديثُ أبي هريرةَ في الرجل الذي علَّمه النبيُّ ﷺ الصلاةَ لمَّا أخلَّ بها، فقال له: «إذا قمت إلى الصلاةِ، فأسْبغِ الوضوءَ، ثم استقبلِ القبلةَ، ثم كَبِّرْ، ثم اقرَأْ ما تَيَسَّرَ معك من القرآن، ثم ارْكَعْ حتى تَطْمَئنَّ راكعاً، ثم ارفَعْ حتى تَعْتَدِلَ قائماً، ثم اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثم ارفَعْ حتى تطمئنَّ جالساً، ثم افعَلْ ذلك في صلاتِكَ كلِّها» خرَّجه مسلم[٦].

ومثلُه حديثُ رِفاعةَ بن رافع[٧]، أخرجه الدارقطنيُّ وغيرُه[٨].

قال علماؤنا: فبيَّنَ[٩] ﷺ أركانَ الصلاة، وسكتَ عن الإقامةِ، ورَفْعِ اليَدَيْن،

---

(١) سنن ابن ماجة (٣٤٥٨). وفي إسناده ذوَّاد بن عُلْبة، ولَيْثُ بنُ أبي سُليم، وكلاهما ضعيف، وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٧١) (٢٧٢) (٢٧٣)، وأخرجه أيضاً (٢٧٤) عن أبي الدرداء، ثم قال: هذان حديثان لا يصحَّان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، والطبري في التفسير ١/٦١٨-٦١٩ (واللفظ له) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) النساء الآية (٤٣)، والمائدة الآية (٦).

(٤) الآية (٢٦).

(٥) الأكثر على أن استقبال القبلة شرط في صحة الصلاة.

(٦) (٣٩٧): (٤٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٩٦٣٥)، والبخاري (٧٥٧).

(٧) الأنصاري، الخزرجي، شهد بدراً والعقبة وبقية المشاهد، مات سنة (٤١هـ)، الإصابة ٣/ ٢٨١.

(٨) سنن الدارقطني ١/ ٩٥-٩٦، وأخرجه أحمد في المسند (١٨٩٩٧).

(٩) في (م): فبين قوله.

وعن حَدِّ القراءة، وعن تكبيرِ الانتقالات، وعن التسبيحِ في الركوع والسجود، وعن الجَلْسةِ الوسطى، وعن التَّشهُّدِ، وعن الجَلْسةِ الأخيرةِ، وعن السَّلام.

أمَّا الإقامةُ وتعيينُ الفاتحة، فقد مضى الكلامُ فيهما[١].

وأما رَفْعُ اليَدَيْن، فليس بواجبٍ عند جماعةِ العلماء وعامَّةِ الفقهاء، لحديث أبي هريرةَ وحديثِ رِفاعةَ بن رافع. وقال داودُ وبعضُ أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرةِ الإحرام. وقال بعضُ أصحابه: الرفعُ عند الإحرامِ وعندَ الركوع وعند الرفع من الركوع واجبٌ، وإنَّ مَنْ لم يرفَعْ يديه، فصلاتُهُ باطلةٌ، وهو قولُ الحُميديِّ[٢]، وروايةٌ عن الأوزاعيّ.

واحتجُّوا بقوله عليه السلام: «صَلُّوا كما رَأَيْتُموني أُصَلِّي» أخرجه البخاري[٣]. قالوا: فوجبَ علينا أنْ نفعلَ كما رأيناه يفعَلُ؛ لأنه المبلِّغُ عن الله مرادَه.

وأما التكبيرُ ما عدا تكبيرةَ الإحرام، فمسنونٌ عند الجمهور، للحديث المذكور. وكان ابنُ القاسم صاحبُ مالك يقول: مَنْ أسقطَ من التكبير في الصلاة ثلاثَ تكبيرات فما فوقَها، سَجَدَ للسهو قبلَ السلام، وإنْ لم يسجُدْ بطلَتْ صلاتُه، وإنْ نَسِيَ تكبيرةً واحدةً أو اثنتين، سجدَ أيضاً للسهو، فإن لم يفعَلْ، فلا شيءَ عليه، ورُوِيَ عنه أنَّ التكبيرةَ الواحدةَ لا سهوَ على مَنْ سها فيها. وهذا يَدُلُّ على أنَّ عُظْمَ التكبير وجُملتَه عنده فرضٌ، وأنَّ اليسيرَ منه مُتجاوَزٌ عنه. وقال أَصْبَغُ بنُ الفَرَج[٤] وعبدُ الله بن عبد الحَكَم[٥]: ليس على مَنْ لم يُكبِّرْ في الصلاة من أوَّلها إلى آخرها شيءٌ إذا كَبَّرَ تكبيرةَ الإحرام، فإنْ تَرَكَه ساهياً، سجدَ للسهو، فإن لم يسجُدْ، فلا شيءَ عليه، ولا ينبغي

---

(١) مضى الكلام عن تعيين الفاتحة في ص ١٨٠ ـ ١٨٢، ومضى الكلام عن الإقامة ص ٢٥٣ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن عيسى، أبو بكر القرشي، الأسدي، المكي، شيخ الحرم، صاحب المسند، توفي سنة (٢١٩هـ). السير ١٠/ ٦١٦.

(٣) صحيح البخاري (٦٣١)، وقد سلف ص ٦٧، وينظر الاستذكار ٤٠/ ١٠٣ و ١٠٧ والتمهيد ٩/ ٢١٣.

(٤) أبو عبد الله، الأموي مولاهم، مفتي الديار المصرية. توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/ ٦٥٦.

(٥) أبو محمد، صاحب مالك، مفتي الديار المصرية، توفي سنة (٢١٤هـ) السير ١٠/ ٢٢٠.

لأحد أن يترُكَ التكبيرَ عامِداً؛ لأنه سنةٌ من سُنن الصلاة، فإن فعلَ، فقد أساء، ولا شيءَ عليه، وصلاتُه ماضِيةٌ[١].

قلت: هذا هو الصحيحُ، وهو الذي عليه جماعةُ فقهاءِ الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعةِ أهلِ الحديث، والمالكيين غيرَ من ذهب مَذْهَبَ ابنِ القاسم.

وقد تَرْجَمَ البخاريُّ رحمه الله: باب إتمام التكبير في الركوع والسجود. وساقَ حديثَ مُطَرِّف بن عبد الله[٢] قال: صلَّيتُ خلفَ عليِّ بن أبي طالب أنا وعِمرانُ بنُ حُصين، فكان إذا سجدَ كبَّر، وإذا رفعَ رأسَه كبَّر، وإذا نهضَ من الركعتين كبَّر، فلما قضى الصلاةَ، أخذ بيدي عِمرانُ بنُ حُصين فقال: لقد ذكَّرني هذا صلاةَ محمدٍ ﷺ، أو قال: لقد صلَّى بنا صلاةَ محمدٍ ﷺ[٣]. وحديثَ عكرمةَ قال: رأيتُ رجلاً عند المقام يُكبِّرُ في كلِّ خَفْضٍ ورَفْع، وإذا قامَ، وإذا وَضَعَ، فأخبرتُ ابنَ عباس، فقال: أو ليس تلكَ صلاةَ النبيِّ ﷺ، لا أُمَّ لك[٤].

فدَلَّكَ البخاريُّ رحمه الله بهذا البابِ على أنَّ التكبيرَ لم يكن معمولاً به عندهم.

وروى[٥] أبو إسحاقَ السَّبِيعيُّ عن بُرَيْدِ[٦] بنِ أبي مريم، عن أبي موسى الأشعري قال: صلَّى بنا عليٌّ يومَ الجَمَلِ صلاةً أذْكَرَنا بها صلاةَ رسولِ الله ﷺ؛ كان يُكَبِّرُ في كلِّ خَفْضٍ ورَفْع، وقيامٍ وقُعود. قال أبو موسى: فإمّا نسيناها، وإما تَرَكْناها عَمْداً[٧].

قلتُ: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يُقال: مَنْ ترك التكبيرَ بَطَلَتْ صلاتُهُ؟! ولو

---

(١) التمهيد ٩/ ١٨٤.

(٢) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله الحَرشي، العامري، البصري، توفي سنة (٩٥هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ١٨٧.

(٣) صحيح البخاري (٧٨٦). وهو في مسند أحمد (١٩٩٥٢).

(٤) صحيح البخاري (٧٨٧). وهو في مسند أحمد (٣٠١٤).

(٥) في (م): روى.

(٦) في (م): يزيد، وهو خطأ.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٤٩٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٦٧، وابن عبد البر في «التمهيد» ٩/ ١٧٥ من الطريق الذي ذكرها المصنف، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٧٢٢) بزيادة رجل من بني تميم في إسناده بين أبي إسحاق السَّبِيعي وبُريد، وهو الصواب فيما ذكر الدارقطني في العلل ٧/ ٢٢٤.

كان ذلك، لم يكن فرقٌ بين السُّنةِ والفَرْض، والشيءُ إذا لم يَجِبْ أفرادُه، لم يَجِبْ جميعُه، وبالله التوفيق.

الخامسة عشرة: وأما التسبيحُ في الركوع والسجود، فغيرُ واجب عند الجمهور، للحديث المذكور، وأوجبه إسحاقُ بنُ راهَوَيه، وأنَّ من تَرَكَه، أعاد الصلاةَ، لقوله عليه السلام: «أمَّا الركوعُ، فَعَظِّمُوا فيه الربَّ، وأمَّا السجودُ، فاجتهدوا في الدعاء، فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لكم[١]».

السادسة عشرة: وأما الجلوسُ والتشهدُ، فاختلفَ العلماءُ في ذلك، فقال مالكٌ وأصحابُه: الجلوسُ الأوَّلُ والتشهُّدُ له سُنَّتان. وأوجبَ جماعةٌ من العلماء الجلوسَ الأوَّل، وقالوا: هو مخصوصٌ من بين سائرِ الفروضِ بأن ينوبَ عنه السجودُ، كالعَرايا من المُزَابنة، والقِراضِ من الإجارات، وكالوقوفِ بعد الإحرام لمن وجدَ الإمامَ راكعاً. واحتجُّوا بأنه لو كان سُنَّةً، ما كان العامِدُ لتركِه تبطُلُ صلاتُه كما لا تبطُلُ بتركِ سنن الصلاة.

واحتجَّ من لم يُوجِبْه بأنْ قال: لو كان من فرائض الصلاةِ، لَرَجَعَ السَّاهي عنه إليه حتى يأتيَ به، كما لو تركَ سجدةً أو ركعةً، ويُراعي فيه ما يُراعي في الركوع والسجودِ من الوِلاءِ والرُّتبة، ثم يسجدُ لسهوِه كما يصنَعُ مَن تركَ ركعةً أو سجدةً وأتى بهما[٢].

وفي حديث عبد الله بن بُحَيْنَةَ[٣]: أنَّ رسولَ الله ﷺ قام من ركعتين، ونَسِيَ أن يتشهَّدَ، فسبَّحَ الناسُ خلفَه كَيْما يَجلِسُ، فثبتَ قائماً، فقاموا، فلما فَرَغَ من صلاته، سَجَدَ سجدتي السهو قبلَ التسليم[٤]. فلو كان الجلوسُ فرضاً، لم يُسقِطْهُ النِّسيانُ

(١) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه أحمد في المسند (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) وسيذكره المصنف في تفسير الآية الأخيرة من سورة العَلَق.

(٢) التمهيد ١٠/ ١٨٨ ـ ١٩١، والاستذكار ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٣) هو عبد الله بن مالك بن القِشْب، أبو محمد الأزدي، وبُحينة أمه، كان حليف بني المطلب بن عبد مناف، له صحبة، توفي سنة (٥٦هـ). الإصابة ٦/ ٢٠٤.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩١٩)، والبخاري (٨٢٩)، ومسلم (٥٧٠). وليس فيه لفظ: «فسبح الناس خلفه» وإنما ورد هذا اللفظ في حديث المغيرة بن شعبة كما في مصادر الحديث، ينظر مسند أحمد (١٨١٦٣).

والسَّهْو؛ لأنَّ الفرائضَ في الصلاة يستوي في تَرْكها السهوُ والعَمْدُ، إلا في المأْثم[١].

واختلفوا في حُكْم الجلوسِ الأخير في الصلاة، وما الفرضُ[٢] من ذلك، وهي:

السابعة عشرة: على خمسة أقوال:

أحدها: أنَّ الجلوسَ فرضٌ، والتشهُّدَ فرضٌ، والسلامَ فرضٌ. وممن قال ذلك الشافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبل في رواية، وحكاه أبو مصعب[٣] في «مختصره» عن مالك وأهلِ المدينة، وبه قال داود. قال الشافعي: مَنْ ترك التشهدَ الأوَّلَ، والصلاةَ على النبيِّ ﷺ، فلا إعادةَ عليه، وعليه سجدتا السهو لِتركِهِ. وإذا تَرَكَ التشهدَ الأخيرَ ساهياً أو عامداً، أعاد.

واحتجُّوا بأنَّ بيانَ النبيِّ ﷺ في الصلاة فرضٌ؛ لأنَّ أصلَ فَرْضِها مجملٌ يفتقرُ[٤] إلى البيان، إلا ما خرج بدليل. وقد قال ﷺ: «صَلُّوا كما رَأيتموني أُصلِّي»[٥].

القول الثاني: إنَّ الجلوسَ والتشهُّدَ والسلامَ ليس بواجب، وإنما ذلك كلُّه سنةٌ مسنونةٌ. هذا قولُ بعضِ البصريين، وإليه ذهبَ إبراهيمُ ابنُ عُلَيَّة[٦]، وصرَّح بقياس الجَلْسةِ الآخرة[٧] على الأولى، فخالَفَ الجمهورَ وشَذَّ، إلا أنه يَرى الإعادةَ على من تركَ شيئاً من ذلك كلِّه.

ومن حُجَّتهم حديثُ عبد الله بنِ عَمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رَفَعَ الإمامُ رأسَه من آخِرِ سجدةٍ في صلاته، ثم أَحْدَثَ، فقد تَمَّتْ صلاتُه». وهو حديثٌ

---

(١) في (د) و(م): المؤتم، وهو خطأ. وينظر التمهيد ١٠/ ١٩٦، والاستذكار ٤/ ٣٧٤.

(٢) في (م): الغرض.

(٣) هو أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث، الزهري، الفقيه، قاضي المدينة، لازم مالكاً وتَفَقَّه به. توفي سنة (٢٤١هـ) وقيل: (٢٤٢هـ). «السير» ١١/ ٤٣٦.

(٤) في (ظ): مفتقر.

(٥) سلف الحديث ص ٦٧ و٢٦٣، وتنظر الأقوال التي ذكرها المصنف في التمهيد ١٠/ ٢١١، والاستذكار ٤/ ٣٨٢ - ٣٨٣، والأوسط ٣/ ٢١٨.

(٦) إبراهيم بن إسماعيل ابن علية، جَهْميٌّ هالك، كان يقول بخلق القرآن، له مصنَّفاتٌ في الفقه تُشبه الجدل، قال الشافعي: ابنُ عُلَيَّة ضالٌّ. وقال أحمد بنُ حنبل: ضالٌّ مُضلّ. توفِّي سنة (٢١٨هـ). تاريخ بغداد ٦/ ٢٠، وميزان الاعتدال ١/ ٢٠.

(٧) في (م): الأخيرة.

لا يَصِحُّ على ما قاله أبو عمر[١]، وقد بيَّناه في كتاب «المقتبس»[٢]. وهذا اللفظُ إنما يُسقِطُ السلامَ، لا الجلوسَ.

القول الثالث: إنَّ الجلوسَ مقدارَ التشهدِ فرضٌ، وليس التشهدُ ولا السلامُ بواجب فرضاً. قاله أبو حنيفةَ وأصحابُه وجماعةٌ من الكوفيين. واحتجُّوا بحديث ابنِ المبارك، عن الإفريقيِّ عبدِ الرحمن بن زياد، وهو ضعيفٌ، وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا جلسَ أحدُكم في آخِرِ صلاته، فأَحدَثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ، فقد تَمَّتْ صلاتُه»[٣].

قال ابنُ العربي: وكان شيخُنا فخرُ الإسلام يُنشِدُنا في الدرس:

ويَرى الخروجَ من الصلاةِ بِضَرْطَةٍ أينَ الضُّراطُ مِنَ السلامُ عليكُم!

قال ابنُ العربي: وسلكَ بعضُ علمائنا من هذه المسألةِ فرعين ضعيفين، أما أحدُهما: فروى عبدُ الملك[٤] عن عبدِ الملك، أنَّ من سلَّمَ من ركعتين متلاعباً، فخرج البيانُ أنه إن كان على أربع أنه يُجزِئه، وهذا مذهبُ أهل العراق بعينه. وأما الثاني: فوقع في الكتب المنبوذة، أنَّ الإمامَ إذا أحدثَ بعد التشهُّدِ مُتعمِّداً وقبلَ السلامِ، أنه يُجزِئُ مَنْ خَلْفَه، وهذا ممَّا لا ينبغي أن يُلتفَتَ إليه في الفتوى، وإن عَمَرَتْ به المجالسُ للذِّكرى[٥].

القول الرابع: إنَّ الجلوسَ فرضٌ، والسلامَ فرضٌ، وليس التشهُّدُ بواجب، وممَّن قال هذا: مالكُ بنُ أنس، وأصحابُه، وأحمدُ بنُ حنبل في رواية. واحتجُّوا بأنْ قالوا: ليس شيءٌ من الذِّكر يجبُ إلا تكبيرةَ الإحرام، وقراءةَ أمِّ القرآن [والتسليم][٦].

---

(١) في التمهيد ١٠/ ٢١٤، والاستذكار ٤/ ٣٨٤. والحديث المذكور أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٧٤ـ٢٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٣٩.

(٢) هو المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس، كما سيصرح به المصنف في أكثر من موضع.

(٣) هو نفسه الحديث الذي ذكره المصنف في القول الثاني، وهذا أحد ألفاظه، وقال فيه ابن عبد البر في التمهيد ١٠/ ٢١٤: لا يصح لضعف سنده واختلافهم في لفظه.

(٤) ابنُ حبيب، وسلف ذكره ص ١٨٣، وأما عبد الملك (الذي بعده، وهو شيخه) فهو ابن عبد العزيز بن الماجشون، تلميذ الإمام مالك توفي سنة (٢١٣هـ). السير ١٢/ ١٠٢ و١٠/ ٣٥٩.

(٥) لم نجد قول ابن العربي فيما بين أيدينا من مصادر.

(٦) ما بين حاصرتين من التمهيد ١٠/ ٢١٢، والاستذكار ٤/ ٣٨٣.

القول الخامس: إنَّ التشهُّدَ والجلوسَ واجبان، وليس السلامُ بواجب، قاله جماعةٌ، منهم إسحاقُ بن راهويه، واحتجَّ إسحاقُ بحديث ابن مسعود حين علَّمه رسولُ الله ﷺ التشهُّدَ، وقال له: «إذا فَرَغْتَ مِن هذا، فقد تَمَّتْ صلاتُك، وقضيتَ ما عليكَ»[1].

قال الدارقطني: قوله: «إذا فَرَغْتَ مِن هذا، فقد تَمَّتْ صلاتُك» أدرجَه بعضُهم عن زهير في الحديث، ووصلَه بكلام النبيِّ ﷺ، وفَصَلَه شَبَابَةُ عن زهير، وجعلَه من كلامِ ابن مسعود، وقولُه أشبهُ بالصواب مِن قول مَنْ أدرجَه في حديث النبيِّ ﷺ. وشَبابةُ ثقةٌ. وقد تابعه غسانُ بنُ الربيع على ذلك، جَعَلَ آخِرَ الحديثِ من كلام ابنِ مسعود، ولم يرفَعْه إلى النبيِّ ﷺ[2].

الثامنة عشرة: واختلفَ العلماءُ في السلام، فقيل: واجبٌ، وقيل: ليس بواجب. والصحيحُ وجوبُه، لحديث عائشةَ[3] وحديثِ عليٍّ الصحيحِ، خرَّجه أبو داود والترمذيُّ، رواه[4] سفيانُ الثوريُّ عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن محمد ابنِ الحنفيَّة، عن عليٍّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِفْتاحُ الصَّلاةِ الطُّهورُ، وتَحرِيمُها التَّكبيرُ، وتَحلِيلُها التَّسليمُ»[5].

وهذا الحديثُ أصلٌ في إيجاب التَّكبير والتَّسليم، وأنه لا يُجزِئُ عنهما غيرُهما، كما لا يُجزِئُ عن الطهارة غيرُها باتِّفاق.

قال عبدُ الرحمن بنُ مَهْدي[6]: لو افتتحَ رجلٌ صلاتَه بسبعين اسماً من أسماء الله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٠٦)، وأبو داود (٩٧٠)، وابن حبان (١٩٦٢)، والدارقطني في السنن ١/ ٣٥٣ و٣٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٧٥. والقولان الرابع والخامس في التمهيد ١٠/ ٢١٢ و٢١٤، والاستذكار ٤/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) سنن الدارقطني ١/ ٣٥٣، والعلل له ٥/ ١٢٨. وزهير: هو ابن معاوية، وشَبَابة: هو ابن سَوَّار.

(٣) قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير... وكان يختم الصلاة بالتسليم. أخرجه أحمد (٢٤٠٣٠)، ومسلم (٤٩٨)، وسيذكره المصنف في الصفحة التالية.

(٤) في (م): ورواه.

(٥) سنن أبي داود (٦١) و(٦١٨)، وسنن الترمذي (٣). وهو في مسند أحمد (١٠٠٦). وسلف قطعة منه ص ٢٥٤. قال الترمذي: هذا الحديث أصحُّ شيء في هذا الباب وأحسن.

(٦) أبو سعيد العنبري، وقيل: الأزدي مولاهم، البصري، الناقد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٩/ ١٩٢.

عزَّ وجلّ، ولم يُكبِّرْ تكبيرةَ الإحرام، لم يَجْزِهِ، وإن أحدثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ لم يَجْزِهِ. وهذا تصحيحٌ من عبدِ الرحمن بنِ مهديٍّ لحديثِ عليٍّ، وهو إمامٌ في علم الحديث ومعرفةِ صحيحِه من سَقِيمِه، وحَسْبُك به[1].

وقد اختلف العلماءُ في وجوب التكبيرِ عند الافتتاح، وهي:

التاسعة عشرة: فقال ابنُ شِهاب الزهريُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّب، والأوزاعيُّ، وعبدُ الرحمن، وطائفةٌ: تكبيرةُ الإحرام ليست بواجبة. وقد رُوِيَ عن مالك في المأموم ما يَدُلُّ على هذا القول، والصحيحُ مِن مذهبه إيجابُ تكبيرةِ الإحرام، وأنها فَرْضٌ وركنٌ من أركان الصلاة، وهوالصوابُ، وعليه الجمهورُ، وكلُّ مَنْ خالفَ ذلكَ فَمَحْجُوجٌ بالسنَّة[2].

الموفية عشرين: واختلف العلماءُ في اللَّفظ الذي يدخلُ به في الصلاة. فقال مالكٌ وأصحابُه، وجمهورُ العلماء: لا يُجْزِئُ إلا التكبيرُ، لا يُجزِئُ منه تهليلٌ، ولا تسبيحٌ، ولا تَعظيمٌ، ولا تَحميدٌ. هذا قولُ الحجازيين وأكثر العراقيين. ولا يُجزئُ عند مالك إلا «الله أكبر» لا غيرُ ذلك. وكذلك قال الشافعيُّ، وزاد: ويُجزِئُ «الله الأكبر»، و«الله الكبير». والحُجَّةُ لمالك حديثُ عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصلاةَ بالتَّكبير، والقراءةَ بـ«الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، وحديثُ عليٍّ: «وتَحرِيمُها التَّكبيرُ»[3]، وحديثُ الأعرابي: «فَكَبِّرْ»[4]. وفي «سنن» ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بنُ أبي شيبةَ وعليُّ بنُ محمد الطَّنافِسِيُّ قالا: حدثنا أبو أُسامةَ قال: حدثني عبدُ الحميد بنُ جعفر قال: حدثنا محمدُ بنُ عمرو بنِ عطاء قال: سمعتُ أبا حُمَيْدٍ الساعِديَّ يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قامَ إلى الصلاةِ، استقبلَ القِبلَةَ، ورَفَعَ يَدَيْه، وقال: «الله أكبرُ»[5].

---

(١) الاستذكار ٤/ ١٢٦، والتمهيد ٩/ ١٨٦.

(٢) الاستذكار ٤/ ١٢٧، والتمهيد ٩/ ١٨٦.

(٣) سلف الحديثان في الصفحة السابقة.

(٤) سلف في ص ٢٦٢ من حديث أبي هريرة ورفاعة.

(٥) سنن ابن ماجه (٨٠٣)، ولم نجد في المطبوع منه طريق ابن أبي شيبة، وقد أشار إليه المِزِّي في تحفة الأشراف ٩/ ١٥١، وأخرجه أحمد (٢٣٥٩٩) عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبد الحميد بن جعفر، به، مطولاً.

وهذا نصٌّ صريحٌ، وحديثٌ صحيحٌ في تعيين لَفْظِ التَّكبير. وقال[١] الشاعرُ:

رأيـتُ اللهَ أكـبـرَ كـلِّ شـيءٍ محـاولـةً وأعـظـمَـه جـنـودا[٢]

ثم إنه يَتَضَمَّنُ القَدْر[٣]، وليس يَتضمَّنُه كبيرٌ، ولا عَظيمٌ، فكان أبلغَ في المعنى، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة: إنِ افتتَحَ بلا إله إلا الله، يَجْزِيه، وإن قال: اللهمَّ اغفِرْ لي، لم يَجْزِه، وبه قال محمدُ بنُ الحسن.

وقال أبو يوسف: لا يُجزِئه إذا كان يُحسِنُ التَّكبيرَ. وكانَ الحَكَمُ بنُ عُتَيْبة[٤] يقول: إذا ذَكَر الله مكانَ التَّكبير، أَجْزَأه.

قال ابنُ المنذر: ولا أعلمُهم يختلفون أنَّ مَنْ أَحسَنَ القراءةَ، فهلَّلَ وكبَّرَ، ولم يقرأ، أنَّ صلاتَه فاسدةٌ، فمن كان هذا مذهبَه، فاللَّازِمُ له أن يقولَ: لا يَجْزِيه مكانَ التكبير غيرُه. كما لا يَجزِي مكانَ القراءة غيرُها. وقال أبو حنيفة: يَجْزِيه التكبيرُ بالفارسية وإن كان يُحسِنُ العربية.

قال ابنُ المنذر: لا يَجزِيه؛ لأنه خِلافُ ما عليه جماعاتُ المسلمين، وخِلافُ ما علَّمَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ، ولا نعلَمُ أحداً وافقَه على ما قال. والله أعلم[٥].

الحادية والعشرون: واتفقتِ الأُمَّةُ على وجوبِ النيةِ عندَ تكبيرةِ الإحرام إلا شيئاً رُوِيَ عن بعض أصحابنا يأتي الكلامُ عليه في آية الطهارة.

وحقيقتُها: قَصْدُ التقرُّبِ إلى الآمر بفعل ما أَمَرَ به على الوجهِ المطلوب منه.

قال ابنُ العربي: والأصلُ في كلِّ نيةٍ أن يكونَ عَقْدُها مع التَّلَبُّسِ بالفعلِ المَنْويِّ

---

(١) في (م): قال.

(٢) قائله خِداش بن زهير، والبيت في ديوانه ص ٤١، وفيه: أكثر، وذكره المبرد في المقتضب ٤/ ٩٧، وعنده: محافظة وأكثرهم، بدل: محاولة وأعظمه. وذكره العيني في شرح الشواهد ٢/ ٣٧١، ضمن قصيدة.

(٣) في (د) و(م): القدم.

(٤) في (د): الحسن بن عتيبة، وفي (ظ): الحسن وابن عتيبة، وكلاهما خطأ، والمثبت من مصادر التخريج.

(٥) الأوسط ٣/ ٧٦ ـ ٧٨، والاستذكار ٤/ ١٣١ ـ ١٣٤.

بها، أو قبلَ ذلك بشرط استصحابِها، فإنْ تقَدَّمَتِ النِّيَّةُ، وطرأَتْ غَفْلَةٌ، فوقَعَ التَّلَبُّسُ بالعبادة في تلك الحالةِ لم يُعتَدَّ بها، كما لا يُعتَدُّ بالنيةِ إذا وقعَتْ بعد التَّلَبُّسِ بالفعل، وقد رُخِّصَ في تقديمها في الصوم لِعِظَمِ الحَرَجِ في اقترانها بأوَّله.

قال ابنُ العربي: وقال لنا أبو الحسن القروي بثَغْر عَسْقَلان: سمعتُ إمامَ الحرمين يقول: يُحضِرُ الإنسانُ عند التَّلَبُّس بالصلاة النِّيَةَ، ويُجَرِّدُ النَّظَرَ في الصانع، وحدوث العالَم، والنبوَّات حتى ينتهيَ نظرُه إلى نِيَّةِ الصلاة، قال: ولا يَحتاجُ ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكونُ ذلك في أوحى لحظةٍ؛ لأنَّ تعليمَ الجُمَلِ يفتقرُ إلى الزمان الطويل، وتَذْكارُها يكونُ في لحظة. ومِن تمامِ النِّيةِ أن تكونَ مُستصحَبةً على الصلاة كلِّها، إلا أنَّ ذلك لمَّا كان أمراً يُتعذَّر[1]، سمحَ الشرعُ في عُزوب النِّيةِ في أثنائها.

سمعتُ شيخَنا أبا بكر الفِهري[2] بالمسجد الأقصى يقولُ: قال محمدُ بن سُحنون: رأيتُ أبي سُحنوناً[3] ربَّما يُكمِلُ الصلاةَ، فَيُعِيدُها، فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: عَزَبَتْ نِيَّتي في أثنائها، فلأجل ذلك أَعَدْتُها.

قلتُ: فهذه جُملةٌ من أحكام الصلاة، وسائرُ أحكامِها يأتي بيانُها في مواضِعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتي ذِكْرُ الركوع، وصلاةِ الجماعة، والقِبلةِ، والمبادرةِ إلى الأوقات، وبعضِ صلاة الخوف في هذه السورة، ويأتي ذِكْرُ قَصْرِ الصَّلاة، وصلاةِ الخوف في «النساء»[4]، والأوقاتِ في «هود»، و«سبحان» و«الروم»[5] وصلاةِ الليل في «المزمل»[6]، وسجودِ التلاوة في «الأعراف»[7]، وسجودِ الشُّكر في «ص»[8]، كلٌّ في مَوْضعِه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (م): يتعذر عليه.

(٢) محمد بن الوليد الأندلسي، الطُّرْطوشي، شيخ المالكية. توفي سنة (٥٢٠هـ) انظر السير ١٩/ ٤٩٠.

(٣) عبد السلام بن حبيب، التنوخي، الحمصي الأصل، المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة. توفي سنة (٢٤٠هـ). السير ١٢/ ٦٣.

(٤) الآية (١٠١).

(٥) هود الآية (١١٤)، والإسراء الآية (٧٨)، والروم الآيتان (١٧) و(١٨).

(٦) الآيات (١ ـ ٤) و(٢٠).

(٧) الآية (٢٠٦).

(٨) الآية (٢٤).

الثانية والعشرون: قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: رزقناهم: أعطيناهم. والرِّزق عند أهل السُّنة: ما صَحَّ الانتفاعُ به، حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إنَّ الحرامَ ليس برزق؛ لأنه لا يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ، وإنَّ الله لا يرزُقُ الحرامَ، وإنما يرزُقُ الحلالَ، والرِّزْقُ لا يكونُ إلا بمعنى المِلْك[1].

قالوا: فلو نشأ صَبيٌّ مع اللُّصوص، ولم يأكُلْ شيئاً إلا ما أطعموه[2] اللصوص، إلى أن بلغ، وقَوِيَ وصار لِصًّا، ثم لم يَزَلْ يَتَلَصَّصُ، ويأكُلُ ما تَلَصَّصَهُ إلى أن ماتَ، فإنَّ الله لم يَرْزُقْه شيئاً، إذ لم يُمَلِّكه، وإنه يموتُ ولم يأكُلْ من رِزْقِ الله شيئاً!.

وهذا قولٌ فاسدٌ[3]، والدليلُ عليه: أنَّ الرزقَ لو كان بمعنى التَّمليك، لوجب ألا يكونَ الطِّفلُ مرزوقاً، ولا البهائمُ التي تَرْتَعُ في الصحراء، ولا السِّخالُ من البهائم؛ لأنَّ لبنَ أُمَّهاتها مِلْكٌ لصاحبها دون السِّخال.

ولما اجتمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الطفلَ والسِّخالَ والبهائمَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهم مع كونهم غيرَ مالِكين، عُلِمَ أنَّ الرِّزقَ هو الغذاءُ، ولأنَّ الأُمَّةَ مُجمِعةٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهم مع كونهم غيرَ مالِكين، فَعُلِمَ أنَّ الرِّزقَ ما قلناه، لا ما قالوه. والذي يَدُلُّ على أنه لا رازقَ سواه قولُه الحقُّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وهذا قاطعٌ، فالله تعالى رازقٌ حقيقةً، وابنُ آدمَ رازقٌ تَجوُّزاً، لأنه يَملِكُ مِلْكاً منتزَعاً كما بيَّناه في الفاتحة[4]، مرزوقٌ حقيقةً، كالبهائم التي لا مِلْكَ لها، إلا أنَّ الشيءَ إذا كان مَأْذوناً له في تناوله، فهو حلالٌ حُكماً، وما كان منه غيرَ مأذونٍ له في تناوله، فهو حرامٌ حُكماً، وجميعُ ذلك رِزْقٌ.

وقد خَرَّجَ بعضُ النبلاء من قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٥.

(٢) كذا في النسخ الخطية، وهي لغة، وفي (م): أطعمه.

(٣) في (م): وهذا فاسد.

(٤) ص ٢١٦.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، فقال: ذِكْرُ المغفرة يُشير إلى أنَّ الرِّزقَ قد يكونُ فيه حرامٌ.

الثالثة والعشرون: قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، الرِّزقُ مصدرُ رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقاً ورِزْقاً، فالرَّزْقُ، بالفَتْح: المصدرُ، وبالكسر: الاسمُ، وجمعُه أرزاقٌ، والرَّزْقُ: العطاء. والرَّازِقِيَّةُ: ثيابُ كَتانٍ. وارتزقَ الجندُ: أخذُوا أرزاقَهم. والرَّزْقةُ: المرَّةُ الواحدةُ. كذا[1] قال أهلُ اللغة. وقال ابنُ السِّكِّيت: الرِّزقُ بلغةِ أَزْدشَنُوءَة: الشُّكر، وهو قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: شُكركم التَّكذيب. ويقول: رزقني، أي: شَكَرني[2].

الرابعة والعشرون: قولُه تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾، يُنفقون: يُخرِجون. والإنفاقُ: إخراجُ المالِ من اليد، ومنه: نَفَقَ البيعُ، أي: خرجَ من يدِ البائع إلى المُشتَري. ونَفَقتِ الدَّابةُ: خَرَجَتْ رُوحُها، ومنه النافِقاءُ، لِجُحْرِ اليَرْبُوع الذي يَخرجُ منه إذا أُخِذَ من جهةٍ أُخرى. ومنه المنافق؛ لأنه يخرجُ من الإيمان، أو يخرجُ الإيمانُ من قلبه.

ونَيْفَقُ السَّراويل معروفةٌ، وهو مَخرجُ الرِّجْل منها[3]. ونَفَقَ الزادُ: فَنِيَ، وأنفقَه صاحبُه. وأنفقَ القومُ: فَنِيَ زادُهم، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

الخامسة والعشرون: واختلف العلماءُ في المراد بالنفقة هاهنا، فقيل: الزكاةُ المفروضةُ ـ رُوِيَ عن ابن عباس ـ لمقارنتها الصلاةَ. وقيل: نفقةُ الرجل على أهله ـ رُوِيَ عن ابن مسعود[4] ـ لأنَّ ذلك أفضلُ النفقة.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دِينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ الله، ودينارٌ أنفقتَه في رَقَبَة، ودينارٌ تَصدَّقْتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك، أَعْظمُها أجراً الذي أنفقتَه على أهلِكَ»[5].

---

(١) في (م): هكذا.

(٢) مجمل اللغة (رزق) ٢/ ٣٧٣.

(٣) في معاجم اللغة: نَيْفَقُ السراويل: الموضعُ المتَّسعُ منها.

(٤) أخرج هذين الخبرين الطبري في تفسيره ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

(٥) صحيح مسلم (٩٩٥). وهو في مسند أحمد (١٠١٧٤).

ورَوَى عن ثوبان[١] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أفضَلُ دينارٍ يُنفِقُهُ الرجلُ دينارٌ يُنفِقُه على عِياله، ودينارٌ يُنفِقُه الرجلُ على دابَّتِه في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ودينارٌ يُنفِقُه على أصحابِهِ في سبيلِ الله». قال أبو قِلابةَ[٢]: وبدأ بالعِيال [ثم] قال أبو قِلابةَ: وأيُّ رجلٍ أعظمُ أجراً من رجلٍ يُنفِقُ على عِيالٍ صِغارٍ يُعِفُّهم، أو يَنْفعُهم الله به، ويُغْنِيهم[٣].

وقيل: المرادُ صدقةُ التطوُّع ـ رُوي عن الضحَّاك ـ نظراً إلى أنَّ الزكاةَ لا تأتي إلا بلفظِها المُختَصِّ بها، وهو الزكاة، فإذا جاءَتْ بلفظٍ غيرِ الزكاة، احتَملَتِ الفرضَ والتطوُّعَ، فإذا جاءَتْ بلفظِ الإنفاق، لم تكن إلا التطوُّعَ. قال الضحَّاكُ: كانت النفقةُ قُرباناً يتقرَّبون بها إلى الله جل وعز على قَدْرِ جُهْدِهم[٤] حتى نزلت فرائضُ الصَّدقات، والناسخاتُ في «براءة».

وقيل: إنه الحقوقُ الواجبةُ العارضةُ في الأموال ما عدا الزكاةَ؛ لأنَّ الله تعالى لما قَرَنَه بالصلاة، كان فرضاً، ولمَّا عَدَلَ عن لفظها، كان فرْضاً سِواها.

وقيل: هو عامٌّ، وهو الصحيحُ؛ لأنه خَرَجَ مَخْرَجَ المَدْحِ في الإنفاق مما رُزِقوا، وذلك لا يكونُ إلا من الحلال، أي: يُؤتون ما ألزَمَهم الشرعُ من زكاة وغيرِها مما نصَّ[٥] في بعض الأحوال، مع ما ندَبَهم إليه.

وقيل: الإيمانُ بالغيب: حظُّ القلب، وإقامُ الصلاة: حظُّ البَدَن، ومما رزقناهم يُنفقون: حظُّ المال، وهذا ظاهرٌ.

وقال بعضُ المتقدِّمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ممَّا علَّمناهم يُعلِّمون. حكاه أبو نصر عبدُ الرحيم بنُ عبد الكريم القُشيري.

---

(١) مولى رسول الله ﷺ، صحبه ولازمه، وحفظ عنه كثيراً من العلم، مات بحمص سنة (٥٤هـ). السير ٣/ ١٥.

(٢) أحد رواة الحديث عند مسلم، وهو عبد الله بن زيد الجرمي، البصري، هرب إلى الشام حين أراد الحجاج أن يوليه القضاء، وتوفي فيها سنة (١٠٤هـ) وقيل بعدها. السير ٤/ ٤٦٨.

(٣) صحيح مسلم (٩٩٤) وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٢٤٥٣).

(٤) في (ظ) و(م): جدتهم، والمثبت من (د) وهو الموافق لخبر الطبري ١/ ٢٤٩.

(٥) في (م): مما يعنّ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

قيل: المرادُ مؤمنو أهلِ الكتابِ، كعبدِ الله بنِ سَلام[١] ، وفيه نزلت، ونزلت الأُولى في مُؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين. وعليه فإعرابُ «الذين» خفضٌ على العطف، ويصحُّ أن يكونَ رفعاً على الاستئناف، أي: وهم الذين. ومن جعَلها في صِنفين، فإعرابُ «الذين» رفعٌ بالابتداء، وخبرُه «أولئك على هُدًى»، ويَحتَمِلُ الخفضَ عطفاً[٢] .

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآنَ: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: الكُتُبَ السالفةَ، بخلاف ما فعله اليهودُ والنصارى حسب ما أخبرَ الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ٩١].

ويقال: لما نزلت هذه الآيةُ: «الذين يؤمنون بالغيب» قالت اليهودُ والنصارى: نحن آمنَّا بالغيب، فلما قال: «ويقيمُونَ الصلاةَ» قالوا: نحن نقيمُ الصلاةَ، فلما قال: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ» قالوا: نحن نُنفِقُ ونتصدَّقُ، فلما قال: «والذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» نَفَرُوا من ذلك[٣] .

وفي حديث أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يارسولَ الله، كم كتاباً أنزلَ الله؟ قال: «مئةُ كتابٍ وأربعةُ كُتُبٍ، أنزلَ الله على شيثَ خمسين صحيفةً، وعلى أَخْنُوخَ ثلاثين صحيفةً، وعلى إبراهيمَ عشرَ صحائفَ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشرَ صحائف، وأنزل التوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ والفرقانَ». الحديث أخرجه [محمد بن] الحسين الآجُرِّي[٤] ، وأبو حاتم البُسْتيّ[٥] .

---

(١) حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي ﷺ، كان من أحبار اليهود، وأسلم وقت الهجرة، توفي في المدينة سنة (٤٣هـ). السير ٢/ ٤١٣.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨٦.

(٣) ذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١.

(٤) سقط لفظ «محمد بن» من (ظ) و(م)، ووقع في (د): أبو حسين، وهو خطأ، وهو محمد بن الحسين الآجري أبو بكر، صاحب التآليف، توفي سنة (٣٦٠هـ). السير ١٦/ ١٣٣ ونقل ابن كثير الحديث عن الآجري في تفسير الآية (١٦٤) من سورة النساء.

(٥) صحيح ابن حبان (٣٦١)؛ قوله: أخنوخ هو إدريس عليه السلام.

وهنا مسألة: إن قال قائلٌ: كيف يُمكن الإيمانُ بجميعها مع تنافي أحكامِها؟ قيل له: فيه جوابان:

أحدهما: أنَّ الإيمانَ بأنَّ جميعَها نزلَ من عند الله، وهو قولُ من أسقطَ التعبُّدَ بما تقدَّم من الشرائع.

الثاني: أنَّ الإيمانَ بما لم يُنسَخْ منها، وهذا قولُ من أوجب التزامَ الشرائع المتقدِّمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: وبالبعث والنَّشر هم عالِمون.

واليقينُ: العِلْمُ دون الشَّكِّ، يقال منه: يَقِنْتُ الأمرَ، بالكسر، يَقْناً، وأَيْقَنْتُ، واسْتَيْقَنْتُ، وتَيَقَّنْتُ، كلُّه بمعنًى، وأنا على يقينٍ منه. وإنما صارت الياءُ واواً في قولك: مُوقِن، للضمة قبلَها، وإذا صَغَّرتَه، رَدَدْتَه إلى الأصل، فقلت: مُيَيْقِن - والتصغير يردُّ الأشياءَ إلى أصولها، وكذلك الجمع - وربما عبَّرُوا باليقين عن الظنِّ[٢]. ومنه قول علمائنا في اليمين اللَّغْو: هو أن يحلفَ بالله على أمرٍ يُوقِنُه، ثم يَتَبَيَّنُ له أنه خلافُ ذلك، فلا شيءَ عليه، قال الشاعر[٣]:

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وأيْقَنَ أنَّني بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغامِرُهْ[٤]

يقول: تَشَمَّم الأسَدُ ناقتي، يظنُّ أنني مُفْتَدٍ بها منه، وأستَحْمِي نفسي، فأتركُها له، ولا أقتحمُ المَهالِكَ بمقاتلته.

فأما الظنُّ بمعنى اليقين، فوردَ في التنزيل، وهو في الشعر كثيرٌ، وسيأتي[٥].

والآخرةُ: مُشتقَّةٌ من التأخُّر، لتأخُّرها عنَّا، وتأخُّرِنا عنها، كما أنَّ الدُّنيا مشتقَّةٌ من الدُّنُوِّ، على ما يأتي.

---

(١) في تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

(٢) الصحاح (يقن).

(٣) هو أبو سِدْرَة الأسدي، ويقال: الهُجَيْمي، كما في اللسان (يقن).

(٤) أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٣١٥ (وفيه: وأقبل، بدل: وأيقن)، والجوهري في الصحاح (يقن)، والبكري في سمط اللآلي ١/ ٥٣٩، والبغدادي في خزانة الأدب ٢/ ١١٨.

(٥) في تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾

قال النحاس[١]: أهلُ نَجْد يقولون: أُلَاك، وبعضُهم يقول: أُلالِكَ. والكاف للخطاب.

قال الكسائيُّ: من قال: أولئك، فواحِدُه: ذلك، ومن قال: أُلَاك، فواحِدُه: ذاك. وأُلَالِك[٢] مثل أولئك، وأنشد ابنُ السِّكِّيت[٣]:

أُلَالِكَ قَومي لم يكونوا أُشابةً وهل يَعِظُ الضِّلِّيلَ إلا أُلالِكَا

وربَّما قالوا: أولئك في غير العقلاء، قال الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعد مَنْزِلَةِ اللِّوَى والعيشَ بعد أُولئكَ الأيام[٤]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[٥] [الإسراء: ٣٦].

وقال علماؤنا: إنَّ في قوله تعالى: «مِنْ رَبِّهِمْ» ردًّا على القَدَرِيَّة في قولهم: يخلُقون إيمانَهم وهُداهم، تعالى الله عن قولهم. ولو كان كما قالوا، لقال: «مِنْ أنفسِهم»، وقد تقدَّمَ الكلامُ فيه وفي الهُدى[٦]، فلا معنى لإعادةِ ذلك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: «هم» يجوزُ أن يكونَ مبتدأً ثانياً، وخبرُه «المفلحون»، والثاني وخبرُه خبرُ الأوَّل، ويجوزُ أن تكون «هم» زائدةً، يُسمِّيها البصريون فاصلةً، والكوفيون عِماداً، و«المفلحون» خبرُ «أولئك»[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ١٨٣.

(٢) وقع رسم لفظَيْ: «أُلَاك»، و«أُلالِك» في النسخ الخطية والمصادر بزيادة واو تارةً، وبدونها تارة، وآثرنا رسمها بدونها، إذ لا التباس في قراءتها كما هو الحال في «أولئك». قال السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٠٣: كتبوا «أولئك» بزيادة واو قبل اللام، قيل: للفرق بينها وبين «إليك».

(٣) في إصلاح المنطق ص٤٢٣. ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل ١٠/ ٦ للأعشى. قوله: أُشابة، يعني أخلاطاً.

(٤) قائله جرير، والبيت في ديوانه ٢/ ٩٩٠، وفيه: «الأقوام» بدل «الأيام»، وعليه فلا شاهد فيه.

(٥) ينظر الكلام السالف في الصحاح (ألا).

(٦) ص ٢٣٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤.

والفَلْح[١]، أصله في اللُّغة: الشَّقُّ والقَطْعُ، قال الشاعر:

إن الحديدَ بالحديد يُفْلَحُ[٢]

أي: يُشَقُّ، ومنه فِلاحَةُ الأَرَضين، إنما هو شَقُّها للحرث، قاله أبو عبيد[٣]. ولذلك سُمِّيَ الأَكَّارُ فَلَّاحاً. ويقال للذي شُقَّت شَفَتُه السُّفْلى: أفلحُ، وهو بَيِّن الفَلَحة، فكأنَّ المُفْلِحَ قد قطع المصاعبَ حتى نالَ مطلوبَه.

وقد يُستعمل في الفوزِ والبقاءِ، وهو أصلُه أيضاً في اللغة، ومنه قولُ الرجل لامرأته: استفْلِحِي بأمْرِك، معناه: فُوزِي بأمرك، وقال الشاعر[٤]:

لو كان حَيٌّ[٥] مدركَ الفَلاحِ ... أَدْرَكَهُ مُلاعِبُ الرِّماحِ

وقال الأضبطُ بنُ قُرَيْع السَّعْدِي في الجاهلية الجَهْلاء:

لكلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ ... والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[٦]

يقول: ليس مع كَرِّ الليلِ والنهارِ بقاءٌ.

وقال آخر:

نحلُّ بلاداً كُلُّها حُلَّ قَبْلَنا ... ونرجو الفَلاحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَرِ[٧]

أي: البقاءَ. وقال عَبِيد[٨]:

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضَّـ ... ـعْفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

---

(١) في (د) و(ظ): الفلاح، والمثبت من (م).

(٢) عجز بيت من الرجز، صدره: قد عَلِمَتْ خيلُك أني الصَّحْصَحُ، أوردَه الزَّجَّاج في معاني القرآن ١/ ٧٦. وينظر اللسان (فلح).

(٣) في كتاب الأمثال ص٩٦.

(٤) هو لَبِيدُ بنُ ربيعة، والبيت في ديوانه ص٣٣٣.

(٥) في الديوان: لو أنَّ حيًّا.

(٦) البيت في غريب الحديث لأبي عُبيد ٤/ ٣٨، والأغاني ١٨/ ١٢٧، والمحرر الوجيز ١/ ٨٦، واللسان (فلح). والأضبط بن قريع من بني عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبرقان بن بدر. الشعر والشعراء ١/ ٣٨٢.

(٧) قائله لَبِيد بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص٥٧.

(٨) هو عَبِيد بن الأبرص، والبيت في ديوانه ص٢٦.

أي: ابقَ بما شئتَ[١] من كَيْس وحُمْق، فقد يُرزق الأحمقُ، ويُحرم العاقلُ[٢].

فمعنى «وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون»، أي: الفائزون بالجنة والباقون فيها.

وقال ابنُ أبي إسحاق[٣]: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا، ونَجَوْا من شرٍّ ما منه هَرَبُوا، والمعنى واحدٌ.

وقد استُعمِلَ الفَلاحُ في السَّحور، ومنه الحديث: حتى كادَ يَفُوتُنا الفلاحُ مع رسول الله ﷺ. قلتُ: وما الفلاح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود[٤]. فكأنَّ معنى الحديث: أنَّ السَّحورَ به بقاءُ الصوم، فلهذا سمَّاه فَلاحاً.

والفلَّاح، بتشديد اللام: المُكارِي في قول القائل[٥]:

لها رِطلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه وفَلَّاحٌ يَسوقُ لها حِماراً

ثم الفَلاحُ في العُرْف: الظَّفَرُ بالمطلوب، والنجاةُ من المَرْهوب.

مسألة: إن قال قائلٌ: كيف قرأ حمزةُ: عليهُم، وإليهُم، ولديهُم، ولم يقرأ: من ربِّهُم، ولا: فيهُم، ولا: جَنَّتَيْهُم[٦]؟ فالجواب: أنَّ عليهم، وإليهم، ولديهم، الياء فيه منقلبةٌ من ألف، والأصل: علاهم ولداهم وإلاهم، فأُقرَّت الهاء على ضمتها، وليس ذلك في: فيهم، ولا: من ربِّهم، ولا: جَنَّتَيْهِمْ. ووافقَه الكِسائي في: ﴿عَلَيْهُمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١] و﴿إِلَيْهُمُ ٱثْنَيْنِ﴾[٧] [يس: ١٤]. على ما هو معروف من القراءة عنهما.

---

(١) في (د): اتقِ وعش.

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٨.

(٣) كذا في النسخ الخطية و(م): ابن أبي إسحاق، وفي معاني القرآن للنحاس ١/ ٨٦: ابن إسحاق، وقد أخرج هذا القولَ الطبريُّ في تفسيره ١/ ٢٥٦ من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله. وأورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١ ولم ينسبه.

(٤) في السنن (١٣٧٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢١٤٤٧).

(٥) هو عمرو بن أحمر الباهلي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٧٦، واللسان (فلح).

(٦) وافق يعقوبُ حمزةَ في قراءة: عليهُم وإليهُم ولديهُم، بضم الهاء، لكن يعقوب يضم الهاء أيضاً في: فيهم، وجنتيهم، على أصله في ضم الهاء من ضمير التثنية والجمع إذا وقعت بعد ياء ساكنة. انظر السبعة ص ١٠٨، والتيسير ص ١٩، والنشر ١/ ٢٧٢.

(٧) أي حالة الوصل. أما في الوقف فيكسر الهاء، وحمزة يضم الهاء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

لما ذَكَرَ المؤمنين وأحوالَهم، ذكَر الكافرين ومآلَهم. والكُفْرُ ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية. وقد يكون بمعنى جُحود النعمةِ والإحسانِ، ومنه قولُه عليه السلام في النساء، في حديث الكسوف: «ورأيتُ النَّارَ، فَلم أَرَ منظراً كاليوم قطُّ أفْظَعَ، ورأيتُ أكثرَ أهْلِها النِّساء». قيل: بمَ يارسول الله؟ قال: «بكُفْرِهنَّ»، قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسانَ، لو أحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدهرَ كُلَّه، ثم رَأَتْ منك شيئاً، قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ». أخرجه البخاري وغيره[(١)].

وأصلُ الكُفر في كلام العرب: السَّتْرُ والتغطيةُ، ومنه قولُ الشاعر[(٢)]:

فـي لـيـلـةٍ كَـفَـرَ الـنُّـجُـومَ غَـمـامُـهـا

أي: سَتَرَها. ومنه سُمِّيَ الليلُ كافراً؛ لأنه يُغَطِّي كلَّ شيءٍ بسواده، قال الشاعر:

فَـتَـذَكَّـرا ثَـقَـلاً رَثِـيـداً بـعـدَمـا ألـقَـتْ ذُكـاءُ يَـمـيـنَـهـا فـي كـافـرِ[(٣)]

ذُكاء، بضم الذال والمدّ: اسمٌ للشمس. ومنه قول الآخر:

فَـوَرَدَتْ قـبـلَ انْـبِـلاجِ الـفَـجْـرِ وابـنُ ذُكـاءَ كـامـنٌ فـي كَـفْـرِ[(٤)]

أي: في ليلٍ.

والكافرُ أيضاً: البحر، والنهرُ العظيم[(٥)]. والكافر: الزَّارعُ، والجمع كُفَّار، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩]. يعني: الزُّرَّاع؛ لأنهم يُغَطُّون الحَبَّ. ورمادٌ مَكْفُورٌ: سَفَتِ الريحُ عليه الترابَ. والكافرُ من الأرض: ما بَعُدَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧١١)، والبخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هو لبيد بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص٣٠٩، وشطره الأول: يعلو طريقةَ مَتْنِها متواترٌ.

(٣) البيت لثعلبة بن صُعَيْر، يصف النعامة والظَّلِيمَ، وأنهما تذكَّرا بيضَهما، فأسرعا إليه عند غروب الشمس. وهو في المفضّليات ص ١٣٠، وفيها: فتذكّرت، وإصلاح المنطق ص٥٧ و٣٧٤، والمحتسب ٢/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١/ ٢٦٢.
قوله: رثيداً، أي: منضوداً. وذكر صاحب الصحاح (كفر) أن الكافر في هذا البيت بمعنى البحر أيضاً، كما سيذكر المصنف.

(٤) إصلاح المنطق ص١٤٣ و٣٧٤، ونسبه لحميد الأرقط. قوله: «ابن ذكاء»: يعني الصبح.

(٥) في (ظ): العظيمين.

عن الناس، لا يكادُ يَنْزِلُه ولا يمرُّ به أحدٌ، ومَنْ حَلَّ بتلك المواضع فهم أهلُ الكُفُور. ويقال: الكُفُور: القُرَى.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: مُعتدِلٌ عندهم الإنذارُ وتركُهُ، أي: سواءٌ عليهم هذا. وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثلُه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقال الشاعر:

وليلٍ يقولُ الناسُ من ظُلُماتِه سَواءٌ صحيحاتُ العيونِ وعُوْرُها[١]

قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإبلاغُ والإعلامُ، ولا يكادُ يكون إلا في تخويف يَتَّسِعُ زمانُه للاحتراز، فإنْ لم يَتَّسِعْ زَمانُه للاحتراز، كان إشعاراً، ولم يكن إنذاراً، قال الشاعر:

أنذرتُ عَمْراً وهو في مَهَلٍ قبلَ الصَّباحِ فقد عصى عَمْرُو[٢]

وتَنَاذَرَ بنو فلانٍ هذا الأمرَ: إذا خَوَّفَه بعضُهم بعضاً.

واختلفَ العلماءُ في تأويل هذه الآية، فقيل: هي عامَّة، ومعناها الخصوصُ فيمن حَقَّتْ عليه كلمةُ العذاب، وسَبَقَ في علم الله أنه يموت على كُفره[٣]. أرادَ الله تعالى أن يُعلِمَ أنَّ في الناس مَنْ هذه حالُه دون أن يُعَيِّنَ أحداً.

وقال ابنُ عباسٍ والكلبيُّ: نَزَلَتْ في رؤساء اليهود، منهم حُيَيُّ بنُ أَخْطَب، وكعبُ بنُ الأشْرَف ونظراؤهما[٤]. وقال الربيعُ بْنُ أنس[٥]: نزلَتْ فيمن قُتلَ يومَ بدرٍ من قادةِ الأحزاب[٦].

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٤٢٣، وفيه: «القوم» بدل «الناس»، و«بصيرات» بدل «صحيحات». وأورده ابن الشجري في الحماسة ٢/ ٧١٠ و٧٢٨، والبغدادي في الخزانة ٥/ ١٨ ونسباه لمضرس بن رِبْعي.

(٢) لم نقف له على مصدر، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٠٨.

(٣) في (ظ): يموت كافراً.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبريُّ في تفسيره ١/ ٢٥٨ بنحوه، وذكر قولَ الكلبيِّ أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١-٩٢.

(٥) ابن زياد البكري، الخراساني، بصري، كان عالم مرو في زمانه، سجنه أبو مسلم، وتحيَّل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه، توفي سنة (١٣٩هـ). السير ٦/ ١٦٩.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٥٩.

والأوَّل أصحُّ، فإنَّ مَنْ عيَّن أحداً، فإنما مَثَّلَ بمن كُشف الغيبُ عنه بموته على الكُفر، وذلك داخلٌ في ضمن الآية[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ موضعُه رفعٌ، خبرُ «إنَّ»، أي: إنَّ الذين كفروا لا يؤمنون.

وقيل: خبر «إنَّ» «سواءٌ»، وما بعده يقومُ مَقام الصِّلة، قاله ابنُ كَيْسان.

وقال محمدُ بن يزيد: «سواءٌ» رفع بالابتداء، «أأنذرتَهم أم لم تنذرهم» الخبر، والجملةُ خبرُ «إنَّ».

قال النحاس: أي إنهم تبالَهُوا، فلم تُغْنِ فيهم النِّذارةُ شيئاً[٢].

واختلف القرَّاءُ في قراءة «أأنذرتهم»، فقرأ أهلُ المدينة، وأبو عمرو، والأعمشُ، وعبدُ الله بنُ أبي إسحاق[٣]: «أأنذرتهم» بتَحقيق الأُولى وتَسهيل الثانية[٤]، واختارها الخليلُ وسيبويه، وهي لغةُ قريش وسعدِ بن بكر[٥]، وعليها قولُ الشاعر[٦]:

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بينَ جُلاَجِلٍ وبَيْنَ النَّقا آنتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ

هجاء «آنت» ألفٌ واحدة[٧].

وقال آخر[٨]:

تطالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُهُ فقلتُ له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٧.

(٢) إعراب القرآن ١/ ١٨٤. محمد بن يزيد: هو المبرّد.

(٣) زيدِ بنِ الحارث الحضرمي، النحوي، البصري، جدُّ يعقوب بن إسحاق، أحدِ القراء العشرة، مات سنة (١١٧هـ) وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٤١٠.

(٤) وهي أيضاً قراءة ابن كثير، وابن عامر الشامي في رواية هشام، لكن قرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين، وكذلك قرأ هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) كذا في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤، غير أنه لم يذكر لعبد الله بن أبي إسحاق هذا القراءة، إنما نقل عنه أنه حقَّقَ الهمزتين وأدخلَ بينهما ألفاً لئلا يجمع بينهما، وسيذكرها عنه المصنف قريباً.

(٦) هو ذو الرُّمَّة، والبيت في ديوانه ص ٧٦٧.

(٧) أورده سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٥١، والمبرد في المقتضب ١/ ١٦٣، والهروي في الأزهيّة ص٣٦، وابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٢٣، وابن يعيش في شرح المفصل ٩/ ١٩١، والمالقي في رصف المباني ص ٢٦، والبغدادي في شرح شواهد الشافية ٤/ ٣٤٧، لكن ذكروا أن الشاهد فيه إدخالُ ألف بين الهمزتين، وذكر البغدادي أنه يجوزُ فيه أيضاً أن تُحقَّقَ الهمزتان بلا زيادة ألف.

(٨) هو ذو الرُّمَّة أيضاً، والبيت في ملحق ديوانه ٣/ ١٨٤٩.

ورُوِيَ عن ابن مُحَيْصِن[١] أنه قرأ: «أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ» بهمزة لا ألفَ بعدَها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن «أم» تدلُّ على الاستفهام[٢]، كما قال الشاعر[٣]:

تَروحُ مِنَ الحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ وماذا يَضيرُكَ لو تَنْتَظِرْ

أراد: أَتروحُ، فاكتفى بأَمْ من الألف. ورُوي عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «أاأنذرتهم» فحقَّقَ الهمزتين، وأدخلَ بينهما ألفاً، لئلا يجمع بينهما[٤].

قال أبو حاتم: ويجوز أن تُدخِلَ بينهما ألفاً، وتُخَفِّفَ الثانية، وأبو عمرو ونافع[٥] يفعلانِ ذلك كثيراً.

وقرأ حمزةُ، وعاصمٌ، والكِسائيُّ بتحقيق الهمزتين: «أأنذرتهم»[٦]، وهو اختيار أبي عُبيد، وذلك بعيدٌ عند الخليل. وقال سيبويه: يُشبه في الثقل: ضَنِنُوا.

قال الأخفشُ: ويجوزُ تخفيفُ الأُولى من الهمزتين، وذلك رديء؛ لأنهم إنما يُخفِّفون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة.

قال أبو حاتم: ويجوزُ تخفيفُ الهمزتين جميعاً.

فهذه سبعةُ أوجهٍ من القراءات، ووجهٌ ثامنٌ يجوزُ في غير القرآن؛ لأنه مخالفٌ للسَّواد[٧]؛ قال الأخفشُ سعيدٌ: تُبدِلُ من الهمزة هاءً، تقول: هأنذرتهم، كما يقال: هيَّاك وإيَّاك[٨]، وقال الأخفشُ في قول الله تعالى: «ها أَنْتُمْ» إنما هو: أاأنتم.

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن مُحَيْصِن السهمي مولاهم، المكي، المقرئ، وقيل: اسمه عمرو، توفي سنة (١٢٣هـ). طبقات القراء ٢/ ١٦٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٠.

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١٥٤.

(٤) وهي رواية هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، مولاهم، المدني، أحد القراء السبعة والأعلام، أصله من أصبهان، توفي سنة (١٩٩هـ). طبقات القراء ٢/ ٣٣٠.

(٦) وهي أيضاً رواية ابن ذكوان. التيسير ص ٣٢.

(٧) في (ظ): للشواذ. وهنا ينتهي السقط في (ز).

(٨) معاني القرآن للأخفش، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ سبحانه في هذه الآية المانعَ لهم من الإيمان بقوله: «ختم الله». والخَتْم: مصدر خَتَمتُ الشيءَ خَتْماً؟ فهو مختومٌ، ومُخَتَّمٌ، شُدِّد للمبالغة، ومعناه: التغطيةُ على الشيء والاستيثاقُ منه حتى لا يَدْخُلَه شيءٌ، ومنه: خَتَم الكتابَ والبابَ، وما يُشبهُ ذلك، حتى لا يُوصَلَ إلى ما فيه، ولا يُوضَعَ فيه غيرُ ما فيه.

وقال أهلُ المعاني: وصف الله تعالى قلوبَ الكفار بعشرة أوصاف: بالخَتْم، والطَّبع، والضِّيق، والمرض، والرَّيْن، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّة، والإنكار.

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال في الحَمِيَّة: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال في الموت: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال في الرَّيْن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال في المَرَض: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال في الضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الطَّبْع: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال في الختم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. وسيأتي بيانُها كلِّها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

الثانية: الخَتْمُ يكون محسوساً ـ كما بيَّنَّا ـ ومعنًى، كما في هذه الآية، فالخَتْم على القلوب: عَدَمُ الوَعْي عن الحقِّ سبحانه مفهومَ مخاطَباتِه والفِكْرِ في آياته. وعلى السَّمْع: عدمُ فَهْمِهِم للقرآن إذا تُليَ عليهم، أو دُعُوا إلى وحدانيَّته. وعلى الأبصار: عدمُ هِدايتِها للنظر في مخلوقاته وعجائبِ مصنوعاته. هذا معنى قولِ ابن عباس وابن مسعود وقتادةَ، وغيرِهم.

الثالثة: في هذه الآيةِ أَدَلُّ دليل وأوضحُ سبيل على أنَّ الله سبحانه خالقُ الهُدى والضَّلالِ، والكُفرِ والإيمانِ،فاعتَبِروا أيها السامعون، وتَعَجَّبوا أيها المفكِّرون من عُقولِ القَدَريَّةِ القائلينِ بِخَلْق إيمانهم وهُداهم، فإنَّ الخَتْمَ هو الطبعُ، فمن أين لهم الإيمانُ ولو جَهَدوا، وقد طبع على قلوبهم وعلى سمْعِهم، وجعلَ على أبصارهم غِشاوةً، فمتى يهتدون، أو مَنْ يهديهم من بعد الله إذا أضلَّهم وأصمَّهم، وأعمى أبصارهم؟ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وكان فِعْلُ الله ذلك عَدْلاً فيمن أضلَّه وخَذَلَه، إذ لم يمنَعْه حقًّا وجبَ له، فتزولَ صِفةُ العَدْل، وإنما منعَهم ما كان له أن يتفضَّلَ به عليهم، لا ما وجبَ لهم.

فإن قالوا: إنَّ معنى الخَتْمِ والطَّبعِ والغِشاوةِ التسميةُ والحكمُ، والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعلُ.

قلنا: هذا فاسدٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الخَتْم والطَّبعِ إنما هو فِعْلُ ما يَصيرُ به القلبُ مطبوعاً مختوماً، لا يجوزُ أن تكونَ حقيقتُه التسميةَ والحُكم، ألا ترى أنه إذا قيل: فلانٌ طَبَعَ الكتابَ وخَتَمَه، كان حقيقةً أنه فَعَلَ ما صارَ به الكتابُ مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خِلافَ فيه بين أهل اللغة، ولأنَّ الأمةَ مجمعةٌ على أنَّ الله تعالى قد وصفَ نفسَه بالخَتْم والطَّبْع على قلوبِ الكافرين مُجازاةً لكُفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأجمعتِ الأمةُ على أنَّ الطَّبْعَ والخَتْمَ على قلوبهم من جهةِ النبيِّ ﷺ والملائكة والمؤمنين ممتنعٌ، فلو كان الخَتْمُ والطَّبعُ هو التسميةَ والحُكْمَ، لَمَا امتنعَ من ذلك

الأنبياءُ والمؤمنون؛ لأنهم كلَّهم يُسمُّون الكفارَ بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم، وأنهم مختومٌ عليها، وأنهم في ضلال لا يؤمنون، ويَحْكُمون عليهم بذلك. فثبتَ أنَّ الخَتْمَ والطَّبع هو معنًى غيرُ التسمية والحكم، وإنما هو معنًى يخلُقه الله في القلب يمنعُ من الإيمان به، دليلُه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الحجر: ١٢-١٣]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]. أي: لئلا يفقهوه، وما كان مثله.

الرابعة: قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على فضلِ القلبِ على جميع الجوارح. والقلبُ للإنسان وغيره. وخالصُ كلِّ شيء وأشرفُه قلبُه، فالقلبُ موضعُ الفِكر. وهو في الأصل مصدر: قَلَبْتُ الشيء، أقْلِبُه قلباً: إذا رددتَه على بَداءته. وقَلَبْتُ الإناءَ: رَدَدْتُه على وجهه. ثم نُقِلَ هذا اللفظُ، فسُمِّيَ به هذا العضوُ الذي هو أشرفُ الحيوان؛ لسرعةِ الخواطرِ إليه، ولتردُّدِها عليه، كما قيل:

ما سُمِّيَ القلبُ إلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ فاحذَرْ على القلبِ من قَلْبٍ وتحويلِ[(١)]

ثم لمّا نَقَلَتِ العربُ هذا المصدَر لهذا العضوِ الشريف، التزمَتْ فيه تفخيمَ قافِه، تفريقاً بينَه وبينَ أصلِه. روى ابنُ ماجه، عن أبي موسى الأشعريّ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القلبِ مَثَلُ رِيشةٍ تُقلِّبها الرياحُ بفَلاةٍ»[(٢)]. ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهمَّ يا مُثبِّتَ القلوب، ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعتِك»[(٣)]. فإذا كان

---

(١) البيت في ديوان الأحوص ص ١٢٠، وشطره الثاني بلفظ: والرأيُ يُصرف والأهواء أطوار. وذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ٧٣، وعنده: والإنسان أطوار. وابنُ منظور في اللسان (قلب) ولفظ شطره الثاني عنده: والرأي يصرفُ بالإنسان أطوارا.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨)، وفي إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف، وأخرجه الإمام أحمد (١٩٧٥٧) عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجريري، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري، به. ويزيد سمع من الجريري بعد اختلاطه، ورواه شعبة عن الجريري ـ وقد سمع منه قبل الاختلاط ـ فوقفه ولم يرفعه، كما في الجعديات (١٤٧٢) وقال الإمام أحمد عقب الحديث المذكور: لم يرفعه إسماعيل (يعني ابنَ عُلَيّة) عن الجريري.

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، بلفظ: «اللهم مصرفَ القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك». وأخرجه أحمد أيضاً في المسند (١٢١٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، و(١٧٦٣٠) من حديث=

النبيُّ ﷺ يقولهُ مع عظيم قَدْرِه، وجلالِ مَنْصِبِهِ، فنحن أَولى بذلك اقتداءً به، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وسيأتي.

الخامسة: الجوارحُ وإن كانت تابعةً للقلب، فقد يتأثرُ القلبُ - وإن كان رئيسَها ومَلِكَها - بأعمالها، للارتباطِ الذي بين الظاهر والباطن، قال ﷺ: «إن الرجل لَيصدُقُ، فتُنْكتُ في قلبه نكتةٌ بيضاء، وإن الرجل ليكذب الكَذْبة فيسودُّ قلبُه»[1]، وروى الترمذي وصحَّحه عن أبي هريرة: أنَّ الرجلَ لَيصِيبُ الذنبَ فيسودُّ قلبُه، فإن هو تاب، صُقِلَ قلبُه. قال: وهو الران[2] الذي ذكره الله في قوله[3]: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[4].

وقال مجاهد: القلبُ كالكفِّ يُقبَضُ منه بكلِّ ذنب إصبعٌ، ثم يُطبع[5].

قلت: وفي قول مجاهد هذا وقولهِ عليه السلام: «إنَّ في الجسد مُضْغةً إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ»[6] دليلٌ على أنَّ الخَتْمَ يكون حقيقيًّا، والله أعلم. وقد قيل: إنَّ القلبَ يُشبه الصَّنَوْبرةَ، وهو يَعْضُد قولَ مجاهد، والله أعلم.

وقد روى مسلمٌ، عن حذيفةَ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثين، قد رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظرُ الآخرَ، حدَّثنا: «أنَّ الأمانةَ نزلَتْ في جَذْرِ قلوبِ الرِّجالِ، ثم

= النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه، بلفظ: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، و(٢٦١٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك وطاعتك».

(١) لم نجده بهذا اللفظ.

(٢) في (م): الرَّيْن، وكلاهما بمعنى.

(٣) في (م): ذكره الله في القرآن في قوله.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، ولفظه: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، سُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.» وهو في مسند أحمد (٧٩٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/٢٦٦.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

نزلَ القرآنُ، فَعَلِموا من القرآن، وَعلموا من السُّنةِ». ثم حدَّثنا عن رَفْعِ الأمانة قال: «ينامُ الرجلُ النَّوْمةَ، فتُقْبَضُ الأمانةُ من قلبِهِ، فيَظَلُّ أثرُها مِثْلَ الوكْتِ، ثم ينامُ النَّوْمةَ، فَتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِهِ، فيظلُّ أثرُها مثلَ المَجْلِ، كَجمرٍ دَحْرجتَه على رِجْلك، فَنَفِطَ، فَتراهُ مُنتبراً وليس فيه شيء - ثم أخذَ حصاةً فدحرجها[1] على رِجْله - فيُصبِحُ الناسُ يتبايعون، لا يكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ حتى يقالَ: إنَّ في بَني فلانٍ رجلاً أميناً. حتى يُقالَ للرجل: ما أَجْلَدَهُ! ما أَظْرفَهُ! ما أَعْقلَهُ! وما في قَلْبه مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ من إيمان». ولقد أتى عَلَيَّ زمانٌ وما أُبالي أيَّكم بايعتُ، لئن كان مسلماً، لَيَرُدَّنَّه عليَّ دِيْنُه، ولئن كان نصرانيًّا، أو يهوديًّا، لَيَرُدَّنَّه عليَّ ساعِيهِ، وأما اليومَ، فما كنتُ أبايعُ[2] منكم إلا فلاناً وفلاناً[3].

ففي قوله: «الوَكْت» وهو الأثرُ اليسيرُ، ويقال للبُسْر إذا وقعَتْ فيه نُكتةٌ من الإرطاب: قد وَكَّتَ، فهو مُوَكِّتٌ. وقولِهِ: «المَجْل»، وهو أن يكونَ بين الجلدِ واللَّحم ماءٌ، وقد فسَّره النبيُّ ﷺ بقوله: «كجمرٍ دَحْرجتَه» أي: دوَّرْتَه «على رِجْلك، فَنَفِطَ. فتراه مُنتبراً»، أي: مرتفعاً، ما يَدُلُّ على أنَّ ذلك كلَّه محسوسٌ في القلب يفعل فيه، وكذلك الخَتْمُ والطَّبعُ، والله أعلم.

وفي حديث حذيفةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأيُّ قلب أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلب أنكرها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلْبين، على أبيضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامَتِ السماواتُ والأرضُ، والآخر أسودُ مُرْبادّ، كالكوزِ مُجخِّياً، لا يَعرِفُ معروفاً، ولا يُنْكِرُ منكراً، إلا ما أُشرِبَ من هواه». وذكر الحديث[4]. «مُجَخِّياً»: يعني مائلاً.

---

(١) في (م): حصًى فدحرجه.

(٢) في (م): لأبايع.

(٣) صحيح مسلم (١٤٣). وهو في مسند أحمد (٢٣٢٥٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٤٠)، ومسلم (١٤٤). قوله: مربادّ، هو شبه البياض في سواد. ينظر شرح مسلم للنووي ٢/ ١٧٣

السادسة: القلبُ قد يُعبَّرُ عنه بالفؤاد والصَّدْر، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني في الموضعين: قلبك.

وقد يُعبَّرُ به عن العقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي: عقل؛ لأنَّ القلبَ مَحَلُّ العقلِ في قول الأكثرين. والفؤادَ محلُّ القلب، والصَّدْرَ مَحَلُّ الفؤاد، والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استَدَلَّ بها مَنْ فَضَّلَ السَّمْعَ على البصر، لِتقدُّمِهِ عليه، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. قال: والسَّمْعُ يدْرَكُ به من الجِهات السِّت، وفي النور والظُّلمة، ولا يُدْرَكُ بالبصر إلا من جهةِ[1] المُقابلة، وبواسطةٍ من ضياءٍ وشُعاع. وقال أكثرُ المُتكلِّمين بتفضيل البصرِ على السَّمْع؛ لأنَّ السَّمْعَ لا يُدَرَكُ به إلا الأصواتُ والكلامُ، والبصر يُدرَكُ به الأجسامُ والألوانُ والهيئاتُ كلُّها. قالوا: فلما كانت تعلُّقاتُه أكثرَ، كان أفضلَ، وأجازوا الإدراكَ بالبصر من الجِهات السِّت.

الثامنة: إنْ قال قائلٌ: لِمَ جمعَ الأبصارَ، ووَحَّدَ السَّمْعَ؟ قيل له: إنما وحَّده؛ لأنه مصدرٌ يقعُ للقليل[2] والكثير، يقال: سَمِعْتُ الشيءَ أَسمَعُه سَمْعاً وسَماعاً، فالسَّمْعُ مصدرُ سَمِعْتُ. والسَّمعُ أيضاً اسمٌ للجارِحةِ المسموعِ بها، سُمِّيَتْ بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السَّمْعَ إلى الجماعة، دَلَّ على أنه يرادُ به أسماعُ الجماعة، كما قال الشاعر[3]:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها فبِيضٌ وأما جِلدُها فصَليبُ

إنما يريدُ جُلودها، فوحَّد؛ لأنه قد علم أنه لا يكونُ للجماعة جلدٌ واحد.

وقال آخرُ في مثله:

---

(١) في (م): الجهة.

(٢) في (د) و(ظ): على القليل.

(٣) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٤٠.

لا تُنكِرِ القتلَ وقد سُبِينا ... في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا[١]

يريد في حُلوقكم.

ومثله قولُ الآخر:

كأنه وَجْهُ تُرْكِيَّيْنِ قد غَضِبا ... مُسْتَهْدَفٌ لِطِعانٍ غير تذبيب[٢]

وإنما يريدُ وجهين، فقال: وجهُ تُركيَّيْنِ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجهٌ واحد، ومثله كثير جدًّا.

وقُرِئ: «وعلى أسماعهم»[٣].

ويَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وعلى مواضعِ سَمْعِهم؛ لأنَّ السمعَ لا يُختم، وإنما يُختم موضعُ السَّمع، فُحذِفَ المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مَقامَهُ.

وقد يكون السَّمْعُ بمعنى الاستماع، يقال: سَمْعُك حديثي يُعجبني[٤] أي: استماعُكَ إلى حديثي يُعجبني، ومنه قولُ ذي الرُّمَّةِ يصفُ ثوراً تَسمَّعَ إلى صوتِ صائد وكلاب:

وقد تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدُسٌ ... بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمْعِهِ كَذِب[٥]

أي: ما في استماعه كَذِبٌ، أي: هو صادقُ الاستماع. والنَّدُس: الحاذِق. والنَّبْأَة: الصوتُ الخَفِيّ، وكذلك الرِّكْز.

والسِّمْع، بكسر السين وإسكانِ الميم: ذِكْرُ الإنسان بالجميل، يقال: ذهبَ سِمْعُه في الناس، أي: ذِكْره. والسِّمْع أيضاً: وَلَدُ الذئب من الضَّبُع.

والوقف هنا: «وعلى سمعهم».

و«غِشَاوَةٌ» رفعٌ على الابتداء، وما قبلَه خبرٌ. والضمائرُ في «قلوبهم» وما عُطِف

---

(١) البيت في الكتاب ١/ ٢٠٩، وشرح المفصل ٦/ ٢٢، واللسان (شجا) ونسبه للمسيب بن زيد مناة. وعندهم: «لاتنكروا».

(٢) البيت للفرزدق، وأورده ابن الشجري في أماليه ١/ ١٧، والبغدادي في الخزانة ٧/ ٥٣٢ و٥٤٠، والقافية في الموضع الثاني: غير منحجر.

(٣) أوردها ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وأبو حيان في البحر ١/ ٤٩، ونسباها لابن أبي عبلة.

(٤) قوله: يعجبني، ليس في (م).

(٥) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٨٩.

عليه لمن سَبَقَ في عِلْم الله أنه لا يُؤمنُ من كفَّار قريش، وقيل: من المنافقين، وقيل: من اليهود، وقيل: من الجميع، وهو أصوبُ؛ لأنه يَعُمُّ. فالخَتْمُ على القلوب والأسماع، والغِشاوةُ على الأبصار.

والغِشاءُ: الغِطَاء. وهي:

التاسعة: ومنه غاشيةُ السَّرْج، وغَشَّيْتُ الشيءَ أُغَشِّيهِ. قال النابغة[1]:

هلّا سألْتِ بَني ذُبْيانَ ما حَسَبِي   إذا الدُّخانُ تَغشَّى الأشْمَطَ البَرَما

وقال آخرُ[2]:

صحبتُكَ إذْ عيني عليها غِشاوةٌ   فلما انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نفسي أَلُومُها

قال ابنُ كَيْسان: فإنْ جمعتَ غِشاوةً، قلتَ: غِشاء، بحذف الهاء[3]. وحَكى الفرَّاءُ: غَشاوَى مثل أداوَى[4]. وقُرِئ: «غِشاوةً» بالنصب[5] على معنى: وجعل، فيكون من باب قوله:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[6]

وقولِ الآخر:

يا ليت زوجَكِ قد غدا   مُتقلِّداً سَيْفاً ورُمْحا[7]

المعنى: وأَسْقَيْتُها ماءً، وحاملاً رمحاً؛ لأنَّ الرمحَ لا يُتَقَلَّد.

---

(١) في ديوانه ص١٠٢.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاص المخزومي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣١، وتفسير الطبري ١/ ٢٧١.

(٣) قال السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١١٥: لما حُذفت الهاء قُلبت الواو همزةً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٦ - ١٨٧.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٦.

(٦) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ٢/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠، وشطره الثاني: حتى شتت همَّالةً عيناها. ونسبه الفراء لبعض بني أسد.

(٧) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهو في ديوانه ص٣٢، وفي مجاز القرآن ٢/ ٦٨، والكامل ١/ ٤٣٢ و٤٧٧ و٢/ ٨٣٦، والخصائص ٢/ ٤٣١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٤٧، والإنصاف ٢/ ٦١٢، وشرح المفصل ٢/ ٥٠، وجاء الشطر الأول منه في النسخ: قد غدا زوجك في الوغى، والمثبت من (م) والمصادر.

قال الفارسي: ولا تكادُ تجد هذا الاستعمالَ في حال سَعةٍ واختيار، فقراءةُ الرفعِ أحسنُ. وتكون الواو عاطفةً جملةً على جملة. قال: ولم أسمَعْ من الغِشاوة فعلاً مُتَصرِّفاً بالواو.

وقال بعضُ المفسرين: الغِشاوةُ على الأسماع والأبصار، والوقفُ على «قلوبهم».

وقال آخرون: الخَتْمُ في الجميع، والغِشاوةُ هي الخَتْم، فالوقفُ على هذا على «غِشاوة»[(١)] . وقرأ الحسن: «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ[(٢)] بفتحها[(٣)] . ورُوِيَ عن أبي عمرو: «غَشْوة»[(٤)] ردَّه إلى أصل المصدر.

قال ابنُ كَيْسان: ويجوز: غَشْوة، وغِشْوة، وغُشْوة[(٥)]، وأجودُها غِشاوةٌ، كذلك تستعملُ العربُ في كل ما كان مشتملاً على الشيء، نحو عِمامة، وكنانة، وقِلادة، وعِصابة، وغير ذلك.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: للكافرين المُكَذِّبين ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نعتُه. والعذابُ: مثلُ الضَّرب بالسَّوط، والحرقِ بالنار، والقطعِ بالحديد، إلى غير ذلك مما يُؤلم الإنسان. وفي التنزيل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وهو مشتقٌّ من الحَبْس والمَنْع، يقال في اللغة: أعْذِبْهُ عن كذا، أي: إحْبِسْه وامنَعْه، ومنه سُمِّي: عُذوبة الماء؛ لأنها قد أُعذبت، واستُعذب بالحبس في الوعاء، لِيصفوَ ويُفارقَه ما خالطَهُ. ومنه قولُ عليٍّ رضي الله عنه: أَعْذِبُوا نساءَكم عن الخروج، أي: احبِسُوهنَّ. وعنه رضي الله عنه وقد شَيَّعَ سَرِيَّةً، فقال: أعْذِبُوا عن ذكر النساء فإنَّ ذلك يَكْسِرُكم عن الغَزْو.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٩، وقد نقل المصنف قول الفارسي بواسطة ابن عطية، وينظر الحجة للقراء السبعة ١/ ٣٠٠ و٣١٢.

(٢) هو شريح بن يزيد الحضرمي، الحمصي، صاحب القراءة الشاذة، ومقرئ الشام. توفي سنة (٢٠٣هـ). طبقات القراء ١/ ٣٢٥.

(٣) إعراب القرآن» للنحاس ١/ ١٨٦، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص٢.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٦، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. والقراءة المتواترة عن أبي عمرو هي قراءة الجماعة: غِشاوةٌ.

(٥) المصدر السالف، والكلام بعده لأبي جعفر النحاس.

وكلُّ من منعتَه شيئاً، فقد أعذَبْتَه[١]، وفي المثل: لأُلْجمنَّكَ لِجاماً مُعْذِباً[٢]، أي: مانعاً عن ركوب الناس.

ويقال: أَعْذَبَ، أي: امتنع، وأعْذَبَ غيرَه، فهو لازمٌ ومتعدٌّ. فسُمِّيَ العذابُ عذاباً؛ لأنَّ صاحبَه يُحبَسُ ويُمنَعُ عنه جميعُ ما يلائم الجسدَ من الخير، ويُهالُ عليه أضدادُها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: رَوى ابنُ جُريج عن مجاهد قال: نزلَتْ أربُع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، واثنتانِ في نعتِ الكافرين، وثلاثَ عشرة آيةً في المنافقين[٣].

وروى أسباطٌ عن السُّدِّي في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال: هم المنافقون[٤]. وقال علماءُ الصوفية: الناس اسم جِنْس، واسمُ الجِنْس لا يُخاطَب به الأولياء.

الثانية: واختلف النُّحاةُ في لفظ «الناس»، فقيل: هو اسمٌ من أسماء الجُموع، جمع إنسان وإنسانة[٥]، على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيْس، فالناسُ من النَّوْس، وهو الحركة، يقال: ناس ينُوس، أي: تحرَّك، ومنه حديثُ أُمِّ زَرْع: «أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيّ»[٦].

وقيل: أصلُه من نَسِيَ، فأصلُ ناس: نَسِيَ، قُلب فصار: نَيَسَ، تحركَتِ الياء، فانفتَحَ ما قبلَها، فانقلبَتْ ألفاً، ثم دخلت الألفُ واللام، فقيل: الناس.

قال ابنُ عباس: نَسِيَ آدمُ عهدَ الله، فسُمِّيَ إنساناً[٧]. وقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٧.
(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٠٠.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٤٥-٢٤٦ من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٧٦.
(٥) إعراب القرآن ١/ ١٨٧، وذكر الجوهري والفيروزآبادي أن «إنسانة» عامِّية.
(٦) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٧) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ٢/ ٦٠ - ٦١.

«نَسِيَ آدمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[١] . وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]. وسيأتي. فعلى هذا، فالهمزةُ زائدة، قال الشاعر[٢] :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنَّما سُمِّيتَ إنساناً لأنك ناسي

وقال آخر:

فإنْ نَسِيتُ عهوداً منك سالفةً فاغفِرْ فأوَّلُ ناسٍ أوَّلُ الناس[٣]

وقيل: سُمِّي إنساناً لأُنْسه بحواء. وقيل: لأُنْسه بربِّه، فالهمزةُ أصلية، قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ولا القلبُ إلا أنَّه يَتَقَلَّبُ[٤]

الثالثة: لما ذكَر الله جلَّ وتعالى المؤمنين أولاً، وبدأ بهم لِشَرَفهم وفَضْلِهم، ذكَرَ الكافرين في مقابلتهم، إذ الكفرُ والإيمانُ طرفان. ثم ذكَرَ المنافقين بعدَهم، وألحقَهم بالكافرين قبلَهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحقّ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ففي هذا ردٌّ على الكرَّاميَّة حيث قالوا: إنَّ الإيمانَ قولٌ باللسان، وإن لم يعتقدْ بالقلب، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٨٥]. ولم يقل: بما قالوا وأضمروا، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عَصَمُوا منِّي دماءَهم وأموالَهم»[٥] . وهذا منهم قُصورٌ وجُمودٌ، وتَرْكُ نَظَرٍ لما نَطَقَ به القرآنُ والسنة من العمل مع القولِ والاعتقاد، وقد قال

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) و(٣٣٦٨)، وابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم ١/ ٦٤ وصححه. وسيأتي عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآية (٦٨) من سورة الأنعام، والآية (١٧٢) من سورة الأعراف، والآية (٤٢) من سورة يوسف.

(٢) هو أبو تمَّام، والبيت المذكور في ديوانه ٢/ ٢٤٥.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢/ ٦١، ونسبه لأبي الفتح البُسْتي، والشطر الأول عنده: نسيت عهدك والنسيان مغتفر. وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٢٠، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٣٢٩.

(٤) لم نهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١١٩، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٣٢٨.

(٥) رُوي من حديث عدد من الصحابة: فأخرجه أحمد في المسند (٦٧)، والبخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠) من حديث أبي بكر وعمر وأبي هريرة، وأخرجه مسلم (٢٢) من حديث ابن عمر. وأخرجه أحمد (٨٩٠٤)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٣٠٥٦)، والبخاري (٣٩٢) من حديث أنس، وأخرجه أحمد (١٤٢٠٩)، ومسلم (٢١): (٣٥) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (١٦١٦٠) من حديث أوس بن أبي أوس الثقفي رضي الله عنهم أجمعين.

رسولُ الله ﷺ: «الإيمانُ معرفة بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان». أخرجه ابنُ ماجه في «سننه»[١].

فما ذهب إليه محمدُ بن كَرَّام السِّجِسْتاني[٢] وأصحابُه هو النِّفاقُ وعَيْنُ الشِّقاق، نعوذُ بالله من الخِذلان وسوءِ الاعتقاد.

الرابعة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمنُ ضربان: مؤمنٌ يُحبُّه الله ويُواليه، ومؤمنٌ لا يُحبُّه الله ولا يُواليه، بل يُبْغِضُه ويُعادِيه، فكلُّ مَنْ عَلِمَ الله أنه يُوافي بالإيمان، فالله مُحِبٌّ له، مُوالٍ له، راضٍ عنه. وكلُّ مَن عَلِمَ الله أنه يُوافي بالكفر، فالله مُبغِضٌ له، ساخطٌ عليه، معادٍ له، لا لأجل إيمانه، ولكن لِكُفرِه وضلالِه الذي يُوافي به.

والكافر ضربان: كافرٌ يُعاقَب لا محالة، وكافرٌ لا يُعاقَب. فالذي يُعاقَب هو الذي يُوافي بالكفر، فالله ساخطٌ عليه معاد له. والذي لا يُعاقَب هو الموافي بالإيمان، فالله غيرُ ساخطٍ على هذا ولا باغض[٣] له، بل مُحِبٌّ له مُوالٍ، لا لِكُفْرِه، لكن لإيمانه المُوافي به، فلا يجوزُ أنْ يُطْلَقَ القول، وهي:

الخامسة: بأنَّ المؤمنَ يستحِقُّ الثوابَ، والكافرَ يستحِقُّ العقابَ، بل يجبُ تقييدُه بالموافاة. ولأجل هذا قلنا: إنَّ الله راضٍ عن عمرَ في الوقت الذي كان يعبُدُ الأصنامَ، ومُريدٌ لثوابِه ودخولِه الجنةَ، لا لعبادتِه الصَّنمَ، لكن لإيمانه الموافي به[٤]. وإنَّ الله تعالى ساخطٌ على إبليسَ في حال عبادتِه، لِكفره الموافي به.

وخالفَتِ القَدَرِيَّةُ في هذا، فقالت[٥]: إنَّ الله لم يكن ساخطاً على إبليسَ وقتَ عبادتِه، ولا راضياً عن عمرَ وقتَ عبادتِه للصنم. وهذا فاسدٌ، لما ثبتَ أنَّ الله سبحانه عالمٌ بما يُوافي به إبليسُ لعنه الله، وبما يُوافي به عمرُ رضي الله عنه فيما لم يزل،

---

(١) برقم (٦٥) من حديث علي رضي الله عنه. وفي إسناده عبد السلام بن صالح بن سليمان، أبو الصلت الهروي. قال البوصيري في الزوائد ١/ ٥١: متفق على ضعفه.

(٢) المبتدع، شيخ الكرَّامية، كان زاهداً عابداً، ولكنه يروي الواهيات. توفي سنة (٢٥٥هـ) بأرض بيت المقدس. السير ١١/ ٥٢٣.

(٣) في (م): مبغض.

(٤) وذلك باعتبار المآلِ، وأنه سيوافي ربه بقلبٍ مؤمن صادق.

(٥) في (د): فقالوا، وفي (م): وقالت.

فثبتَ أنه كان ساخطاً على إبليسَ، مُحبًّا لعمر.

ويدلُّ عليه إجماعُ الأمة على أنَّ الله سبحانه وتعالى غيرُ مُحِبٍّ لمن عَلِمَ أنه من أهل النار، بل هو ساخطٌ عليه، وأنه مُحِبٌّ لمن عَلِمَ أنه من أهل الجنة، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «وإنما الأعمالُ بالخواتيم»[١]، ولهذا قال علماءُ الصوفية: ليس الإيمانُ ما يتزينُ به العبدُ قولاً وفعلاً، لكن الإيمان جَرْيُ السعادةِ في سوابقِ الأزل، وأما ظُهورُه على الهياكلِ، فربما يكونُ عارياً، وربما يكون حقيقةً.

قلت: هذا كما ثبت في «صحيح» مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ، وهو الصادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعين يوماً، ثم يكونُ في ذلك عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثم يكونُ في ذلك مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثم يُرسِلُ الله المَلَكَ، فينْفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَر بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ[٢] رِزْقِهِ، وأجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشقيٍ أو سعيد، فوالذي لا إلهَ غيره، إنَّ أحدَكم لَيَعْمَلُ بعملِ أهل الجنةِ حتى ما يكونَ بينَهُ وبينَها إلا ذِراعٌ[٣]، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فَيعمَلُ بعمل أهلِ النار، فَيَدْخُلُها. وإنَّ أحدَكم لَيَعملُ بعملِ أهل النارِ حتى ما يكونَ بينَه وبينَها إلا ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فَيعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ، فَيَدْخُلُها»[٤]. فإن قيل، وهي:

السادسة: فقد خرَّجَ الإمامُ الحافظُ أبو محمد عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد المصريّ من حديث محمد بن سعيدٍ الشامي المصلوب في الزندقة ـ وهو محمدُ بن أبي قيس ـ عن سليمانَ بن موسى ـ وهو الأشدق ـ عن مجاهد بن جبر، عن ابن عباس، أخبرنا أبو رَزِين العُقَيلي قال: قال لي النبي ﷺ: «لأشربنَّ أنا وأنتَ يا أبا رَزِين من لبن لم يَتغيَّرْ طعمُه» قال: قلتُ: كيف يُحيي الله الموتى؟ قال: «أما مَرَرْتَ بأرضٍ لك مُجْدِبةٍ، ثم مَرَرْتَ بها مُخْصِبةً، ثم مَرَرْتَ بها مُجدِبةً، ثم مَرَرْتَ بها مُخصِبةً» قلتُ: بلى. قال: «كذلك النُّشُورُ» قال: قلتُ: كيف لي أنْ أعلمَ أني مؤمنٌ؟ قال: «ليس أحدٌ مِن هذه الأمةِ ـ قال ابنُ أبي

---

(١) قطعة من حديث، أخرجه أحمد في المسند (٢٢٨٣٥)، والبخاري (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) في النسخ: فيكتب، والمثبت من (م)، وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٣) في (د) و(ز) في الموضعين: بينه وبينها إلا مقدار شبر أو ذراع.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٣)، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٢٠٨)، ومسند أحمد (٣٦٢٤).

قيس: أو قال: من أمتي - عَمِلَ حسنةً، وعَلِمَ أنها حسنةٌ، وأنَّ الله جازِيه بها خيراً، أو عَمِلَ سيِّئةً، وعَلِمَ أنها سيِّئةٌ، وأنَّ الله جازِيه بها شَرًّا أو يَغفِرُها، إلا مؤمنٌ»[1].

قلت: وهذا الحديثُ وإن كان سندُه ليس بالقوي، فإنَّ معناه صحيحٌ، وليس بمعارِض لحديث ابن مسعود، فإنَّ ذلك موقوفٌ على الخاتمة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وإنما الأعمالُ بالخواتيم»[2]. وهذا إنما يَدُلُّ على أنه مؤمنٌ في الحال، والله أعلم.

السابعة: قال علماءُ اللغة: إنما سُمِّيَ المنافقُ منافقاً، لإظهارِه غيرَ ما يُضمِرُ، تشبيهاً باليَربوع، له جُحر يقال له: النَّافِقاء، وآخرُ يقال له: القاصِعاء، وذلك أنه يَخرِقُ الأرضَ حتى إذا كاد يبلغُ ظاهرَ الأرض، أَرَقَّ الترابَ، فإذا رابَه رَيْبٌ، دفَع ذلك الترابَ برأسه فخرج، فظاهرُ جُحره ترابٌ، وباطنُه حفر. وكذلك المنافقُ ظاهرُه إيمانٌ، وباطِنُه كفرٌ، وقد تقدَّم هذا المعنى[3].

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

قال علماؤنا: معنى «يخادعون الله» أي: يُخادعونه عند أنفسِهم وعلى ظنِّهم[4]. وقيل: قال ذلك لِعَمَلِهم عملَ المُخادِع. وقيل: في الكلام حَذْفٌ، تقديرُه: يُخادِعون رسولَ الله ﷺ، عن الحسن وغيره. وجعل خِداعَهم لرسوله خداعاً له؛ لأنه دعاهم برسالته، وكذلك إذا خادعوا المؤمنين، فقد خادعوا الله. ومُخادَعتُهم: ما أظهروه من الإيمان خِلافُ ما أبطنوه من الكفر، لِيَحْقِنوا دماءَهم وأموالَهم، ويظنُّون أنهم قد نَجَوْا وخَدَعوا، قاله جماعةٌ من المتأوِّلين[5].

---

(١) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٢٨٨١) ونسبه لأبي يعلى (ولعله في الكبير). وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٦١٩٤) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رزين العقيلي، بنحوه، دون قوله: «لأشربنَّ أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه».

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) في (ظ): خلقهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٠.

وقال أهلُ اللغة[١]: أصلُ الخَدْع في كلام العرب الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي[٢]. وأنشد:

أبْيَضُ اللَّونِ لَذِيذٌ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيقِ إذا الرِّيقُ خَدَعْ[٣]

قلت: فـ «يُخادعون الله» على هذا، أي: يُفسِدون إيمانَهم وأعمالَهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرِّياء. وكذا جاء مفسَّراً عن النبيِّ ﷺ على ما يأتي[٤]. وفي التنزيل: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقيل: أصلُه الإخفاء، ومنه مُخْدَعُ البيت الذي يُحرَزُ فيه الشيء. حكاه ابنُ فارس[٥] وغيرُه. وتقول العرب: انْخدَعَ الضَّبُّ في جُحْره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ نفيٌ وإيجاب، أي: ما تَحُلُّ عاقبةُ الخَدْع إلا بهم. ومن كلامهم: مَنْ خَدَعَ مَن لايُخْدَع، فإنما يَخْدَعُ نفسَه. وهذا صحيح؛ لأنَّ الخِداعَ إنما يكون مع مَن لا يَعرِفُ البواطنَ، وأما مَنْ عَرَفَ البواطنَ، فمن دخلَ معه في الخِداع، فإنما يَخدَعُ نفسَه. ودَلَّ هذا على أنَّ المنافقين لم يعرِفوا الله، إذ لو عَرَفُوه، لَعَرَفوا أنه لا يُخْدَعُ، وقد تقدَّمَ من قوله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا تُخادِعِ الله، فإنه مَنْ يُخادِعِ الله، يَخدَعْهُ الله، ونفسَه يَخْدَعُ لو يَشْعر». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يُخادَعُ الله؟ قال: «تعملُ بما أمركَ الله به، وتَطْلُبُ به غيرَه»[٦]. وسيأتي بيانُ الخَدْعِ من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وقرأ نافعٌ وابن كثير وأبو عمرو: «يُخادعون» في الموضعين، ليَتَجانس اللفظان.

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/ ٣١٣.

(٢) هو محمد بن زياد، أبو عبد الله الهاشمي مولاهم، إمام اللغة، النسابة، توفي سنة (٢٣١هـ). السير ١٠/ ٦٨٧.

(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري، وهو في المفضليات ص١٩١.

(٤) عند تفسير الآية (٢٦٤) من سورة البقرة، والآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٥) في مجمل اللغة ١/ ٢٧٩.

(٦) تقدم ص ٣٥، باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر: «يخدعون» الثاني. والمصدر: خِدْع، بكسر الخاء، وخديعة. حكى ذلك أبو زيد[١].

وقرأ مُوَرِّق العِجْلِيُّ[٢]: «يُخَدِّعون الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير[٣]. وقرأ أبو طالوت عبدُ السَّلام بنُ شدَّاد[٤] والجارود[٥]: بضم الياء وإسكانِ الخاء وفتحِ الدال، على معنى: وما يُخْدَعون إلا عن أنفسِهم، فحذف حرف الجر، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يفطُنون أنَّ وبالَ خَدْعِهم راجعٌ عليهم، فيظنُّون أنهم قد نَجَوْا بخَدْعِهم وفازُوا، وإنما ذلك في الدُّنيا، وفي الآخرةِ يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] على ما يأتي.

قال أهلُ اللغة: شَعَرْتُ بالشيء: فَطِنْتُ له[٧]، ومنه الشاعر لِفِطْنتهِ، لأنه يَفطُنُ لما لا يَفْطُن له غيرُه من غريب المعاني. ومنه قولهم[٨]: ليت شِعْري، أي: ليتني عَلِمتُ[٩].

قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر. والمرضُ عبارةٌ مستعارةٌ للفساد

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/ ٣١٢-٣١٣، والسبعة لابن مجاهد ص ١٣٩، والتيسير للداني ص ٧٢.

(٢) أبو المعتمر البصري، الإمام، توفي في ولاية ابن هبيرة على العراق. السير ٤/ ٣٥٣. وقال الحافظ في التقريب: مات بعد المئة.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وأبو حيان في البحر ١/ ٥٧ وهي عندهما في قوله: «يخادعون» الثاني.

(٤) العبدي، القيسي، البصري، روى القراءة عن أبيه، وقد ولد أبوه يوم قبض النبي ﷺ. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٧٥، وطبقات القراء ١/ ٣٨٥.

(٥) ابن أبي سَبْرة الهذلي، أبو نوفل البصري، توفي سنة (١٢٠هـ)، وهو من رجال التهذيب.

(٦) القراءات الشاذة ص ٢، والمحتسب ١/ ٥١، والبحر المحيط ١/ ٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٧) في (م): أي: فطنت له.

(٨) لفظ: ومنه قولهم، من (م).

(٩) الصحاح (شعر)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٠٥.

الذي في عقائدهم. وذلك إما أن يكونَ شكًّا ونِفاقاً، وإما جَحْداً وتكذيباً[١].
والمعنى: قلوبُهم مرضى، لخلوِّها عن العِصْمةِ والتوفيق، والرعاية والتأييد.

قال ابنُ فارس اللُّغوي[٢]: المرضُ كلُّ ما خرجَ به الإنسانُ عن حدِّ الصحة من عِلَّةٍ، أو نفاقٍ، أو تقصيرٍ في أمر.

والقُرَّاءُ مُجمعون على فتحِ الراء من «مَرَض» إلا ما رَوَى الأصمعيُّ عن أبي عَمرو أنه سكَّنَ الراء[٣].

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قيل: هو دعاءٌ عليهم. ويكون معنى الكلامِ: زادهم الله شكًّا ونِفاقاً جزاءً على كُفرهم، وضعفاً عن الانتصار، وعَجْزاً عن القُدْرة، كما قال الشاعر[٤]:

يامُرْسِلَ الرِّيحِ جَنوباً وصَبَا ... إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غَضَبا

أي: لا تَهْدِها على الانتصار فيما غَضِبَتْ منه.

وعلى هذا يكون في الآيةِ دليلٌ على جواز الدعاء على المنافقين والطَّرْد لهم؛ لأنهم شَرُّ خلقِ الله[٥].

وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن زيادةِ مَرَضِهم، أي: فزادَهم الله مَرَضاً إلى مَرَضِهم، كما قال في آية أخرَى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال أربابُ المعاني: «في قُلُوبهِمْ مَرَضٌ» أي: بِسُكونهم إلى الدنيا، وحُبِّهم[٦] لها، وغَفْلِتهم عن الآخرة، وإعراضِهم عنها. وقوله: «فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً» أي: وَكَلَهم إلى أنفسِهم، وجَمَعَ عليهم همومَ الدنيا، فلم يتفرَّغوا من ذلك إلى اهتمامٍ بالدين. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» بما يفنى عما يبقى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٩٢.
(٢) مجمل اللغة ٣/ ٨٢٧.
(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٣.
(٤) هو الأخطل، والرجز في ديوانه ص٣١٩.
(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٥.
(٦) في (د) و(ز): وجهلهم، بدل: وحبهم.

وقال الجُنيد: عِلَلُ القلوبِ من اتِّباع الهَوَى، كما أنَّ عِلَلَ[1] الجوارح من مرضِ البَدَن.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: «أليم» في كلام العرب معناه: مؤلم، أي: مُوْجِع، مثل السَّميع بمعنى المُسْمِع، قال ذو الرُّمَّة يَصِفُ إبلاً:

ونرفعُ من صُدورِ شَمَرْدَلَاتٍ يَصُكُّ وجوهَها وَهَجٌ أَلِيمُ[2]

وآلَمَ إذا أَوْجَعَ. والإيلام: الإيجاع. والألَم: الوَجَع، وقد أَلِمَ يَأْلَمُ ألماً. والتألُّم: التوجُّع. ويُجمع أليمٌ على ألَمَاء، مثل: كَريم وكُرَماء، وآلام، مثل: أشْراف.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كانوا يُكَذِّبُون﴾[3] ما مصدرية، أي: بتكذيبهم الرسلَ، وردهم على الله جل وعز، وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائي بالتخفيف[4]، ومعناه: بِكَذِبهم وقولهم: آمنَّا، وليسوا[5] بمؤمنين.

مسألة: واختلف العلماءُ في إمساكِ النبيِّ ﷺ عن قَتْل المنافقين مع عِلْمه بنفاقِهم على أربعةِ أقوال:

القول الأول: قال بعضُ العلماء: إنما لم يَقتُلْهم؛ لأنه لم يعلمْ حالَهم أحدٌ سواه. وقد اتفَّق العلماءُ على بَكرة أبيهم على أنَّ القاضيَ لا يَقتُلُ بعلمه، وإن[6] اختلفوا في سائر الأحكام.

قال ابن العربي[7]: وهذا مُنتقِضٌ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصَّامت؛ لأنَّ المُجَذَّر قتلَ أباه سُوَيداً يومَ بُعاث[8]، فأسلَمَ الحارث، وأغْفلَهُ يومَ

(١) في (ز) و(ظ): علة.

(٢) ديوانه ٢/ ٦٧٧، قال الباهلي في شرحه: شمردلات: هي نوق طِوال سِراع. ويصكّ يضرب. ووهج، أي: حرٌّ شديد.

(٣) بالتشديد، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. الحجة ١/ ٣٢٩. والسبعة ص ١٤١، والتيسير ص ٧٢.

(٤) الحجة ١/ ٣٢٩.

(٥) في (ظ): ولم يكونوا.

(٦) في (ظ): وقد، وفي (م): وإنما.

(٧) في أحكام القرآن ١/ ١٢.

(٨) من مشاهير أيام العرب في الجاهلية، كان فيه حرب بين الأوس والخزرج. الأغاني ١٧/ ١١٨.

أُحُد، فقتَلَه، فأخبر به جبريلُ النبيَّ ﷺ، فقتَلَه به[١]؛ لأنَّ قَتْلَه كان غِيلةً، وقَتْلُ الغِيلةِ حَدٌّ من حدودِ الله.

قلت: وهذه غفلةٌ من هذا الإمام؛ لأنه إنْ ثبتَ الإجماعُ المذكورُ، فليس بِمُنتَقِضٍ بما ذكر؛ لأنَّ الإجماعَ لا ينعقدُ، ولا يثبُتُ إلا بعد موت النبي ﷺ وانقطاعِ الوحي، وعلى هذا، فتكون تلك قَضيَّةً في عَيْنٍ بَوحْي، فلا يُحتَجُّ بها، أو منسوخةً بالإجماع. والله أعلم.

القول الثاني: قال أصحابُ الشافعي: إنما لم يَقتلْهم النبي ﷺ[٢]؛ لأنَّ الزِّنديقَ ـ وهو الذي يُسرُّ الكفرَ ويُظهِرُ الإيمانَ ـ يُستتابُ، ولا يقتل.

قال ابنُ العربي[٣]: وهذا وهمٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسْتَتِبْهم، ولا نَقَلَ ذلك أحدٌ، ولا يقولُ أحدٌ: إنَّ استتابةَ الزنديق واجبةٌ[٤]. وقد كان النبيُّ ﷺ مُعْرِضاً عنهم مع علمه بهم. فهذا المتأخِّرُ من أصحاب الشافعيِّ الذي قال: إنَّ استتابةَ الزِّنديقِ جائزةٌ، قال قولاً لم يَصِحَّ لأحد.

القول الثالث: إنما لم يَقتلْهم مصلحةً، لتأليف القلوب عليه لئلا تَنْفِرَ عنه، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لعمر: «معاذَ الله أنْ يتحدَّثَ الناسُ أنِّي أقتلُ أصحابي». أخرجه البخاري ومسلم[٥]. وقد كان يُعطي للمؤلَّفةِ قلوبُهم مع علمه بسوء اعتقادِهم تألُّفاً، وهذا هو قولُ علمائنا وغيرهم.

قال ابنُ عطية[٦]: وهي طريقةُ أصحاب مالك رحمه الله في كفِّ رسول الله ﷺ

---

(١) ذكر هذه القصة ابن سعد في الطبقات ٣/ ٥٥٢، وابن عبد البر في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١٠/ ٢١٩.

(٢) قوله: النبي ﷺ، من (ظ).

(٣) في أحكام القرآن ١/ ١٢.

(٤) في (د) و(ز): إن الزنديق واجبة استتابته، وفي أحكام القرآن: غير واجبة.

(٥) صحيح البخاري (٣٥١٨)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤) وهو من حديث جابر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه». وهو في مسند أحمد (١٥٢٢٣).

(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٩٤ ـ ٩٦.

عن المنافقين. نَصَّ على هذا محمدُ بنُ الجَهْم[١]، والقاضي إسماعيلُ[٢]، والأبهري[٣]، وابنُ الماجشون، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١]. قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النِّفاقَ.

قال مالكٌ رحمه الله: النفاقُ في عهدِ رسول الله ﷺ هو الزَّندقةُ فينا اليوم، فيقتلُ الزنديقُ إذا شُهِد عليه بها دون استتابة. وهو أحدُ قولَي الشافعي.

قال مالكٌ: وإنما كفَّ رسولُ الله ﷺ عن المنافقين، لِيُبيِّنَ[٤] لأُمَّته أنَّ الحاكمَ لا يحكُمُ بعلمه، إذ لم يُشْهَدْ على المنافقين.

قال القاضي إسماعيلُ: لم يَشهَدْ على عبدِ الله بن أبي إلا زيدُ بن أرقم وحدَه، ولا على الجُلاس بن سُويد إلا عُمَيرُ بنُ سعد رَبِيبُه[٥]، ولو شَهِدَ على أحد منهم رجلان بكُفره ونفاقه لَقُتِل[٦].

وقال الشافعيُّ رحمه الله مُحتَجًّا للقول الآخر: السنَّةُ فيمن شُهِدَ عليه بالزندقة، فَجحَدَ، وأعلن بالإيمان، وتبرَّأ من كلِّ دين سوى الإسلامِ، أنَّ ذلك يَمنعُ من إراقةِ دمه. وبه قال أصحابُ الرأي، وأحمدُ، والطبريُّ، وغيرُهم.

قال الشافعي وأصحابُه: وإنما منعَ رسولَ الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يُظهِرونه من الإسلامِ مع العلم بنفاقهم؛ لأنَّ ما يُظهِرونه يَجُبُّ ما قبلَه.

---

(١) أبو بكر، المالكي، له من الكتب: شرح مختصر ابن عبد الحكم الصغير والرد على محمد بن الحسن. الفهرست ص٢٥٣.

(٢) ابن إسحاق بن إسماعيل ابن محدّث البصرة حماد بن زيد، الأزدي، مولاهم، البصري، المالكي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٢٨٢هـ). السير ١٣/ ٣٣٩.

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح، التميمي، المالكي، أبو بكر، نزيل بغداد. توفي سنة (٣٧٥هـ). السير ١٦/ ٣٣٢.

(٤) في (ز) و(ظ): ليسنّ.

(٥) ذكر ابنُ عبد البر قصةَ عبد الله بن أبي في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٤/ ٣٨ ـ ٣٩، وقصةَ الجلاس بن سويد ٢/ ١٩١ و٩/ ٣٢، وستأتي عند المصنف في تفسير الآية (٧٤) من سورة براءة: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾. وانظر تفسير الآية (١) من سورة «المنافقون».

(٦) في (ظ): لقتله.

وقال الطبريُّ: جعل الله تعالى الأحكامَ بين عباده على الظاهر، وتَولَّى الحكمَ في سرائرهم دون أحدٍ من خَلْقه، فليس لأحدٍ أن يَحكُمَ بخلاف ما ظهرَ؛ لأنه حكمٌ بالظُّنون، ولو كان ذلك لأحدٍ، كان أولى الناسِ به رسولُ الله ﷺ، وقد حكَمَ للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَلَ سرائرَهم إلى الله. وقد كذَّبَ الله ظاهرَهم في قوله[1]: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال ابن عطية[2]: يَنفصِلُ المالكيُّون عما لزموه من هذه الآية، بأنها لم تُعَيِّنْ أشخاصَهم فيها، وإنما جاء فيها توبيخٌ لكلِّ مَغموصٍ عليه بالنِّفاق، وبقيَ لكلِّ واحدٍ منهم أن يقولَ: لم أُرَدْ بها، وما أنا إلا مؤمنٌ، ولو عُيِّنَ أحدٌ، لما جَبَّ كَذِبُه شيئاً.

قلت: هذا الانفصالُ فيه نظرٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يَعْلَمُهم أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلامِ الله تعالى إيَّاه. وكان حُذيفةُ يعلمُ ذلك بإخبارِ النبيِّ ﷺ إيَّاه، حتى كان عمرُ رضي الله عنه يقول له: ياحذيفةُ، هل أنا منهم؟ فيقول له: لا[3].

القول الرابع: وهو أنَّ الله تعالى كان قد حَفِظَ أصحابَ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بكونه ثبَّتَهم أن يُفْسِدَهم المنافقون، أو يُفسِدوا دينَهم، فلم يكن في تَبْقِيَتهم ضَرَرٌ، وليس كذلك اليوم؛ لأنَّا لا نأمَنُ من الزنادقةِ أن يُفسِدوا عامَّتنا وجُهَّالَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾

«إذا» في موضعِ نصب على الظرف، والعاملُ فيها «قالوا»، وهي تُؤْذِنُ بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهريّ: «إذا» اسم يدلُّ على زمانٍ مستقبل، ولم تُستعمَلْ إلا مضافةً إلى جملة، تقول: أَجِيئُك إذا احمرَّ البُسْرُ، وإذا قَدِمَ فلانٌ، والذي يَدُلُّ على أنها اسْمٌ وقوعُها موقعَ قولِك: آتيكَ يومَ يَقْدَمُ فلانٌ، فهي ظرفٌ، وفيها معنى المجازاةِ.

وجزاءُ الشرط ثلاثة: الفعل، والفاء، و«إذا»:

فالفعلُ: قولك: إنْ تأتني آتِكَ، والفاء: إنْ تأتني فأنا أُحْسِنُ إليك، و«إذا»:

---

(١) في (د) و(ز): بقوله.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) ذكره الذهبي في السير ٢/ ٣٦٤، والهندي في كنز العمال ١٣/ ٣٤٤، ونسبه إلى رستة.

كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[١] [الروم: ٣٦].

ومما جاء من المجازاة بـ «إذا» في الشعر قولُ قيس بنِ الخطيم[٢]:

إذا قَصُرَتْ أسيَافُنا كان وَصْلُها خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ

فعطفَ «فنضارب» بالجزم على موضع «كان»[٣] لأنه مجزومٌ، ولو لم يكن مجزوماً، لقال: فنضاربَ، بالنصب.

وقد تزادُ على «إذا» «ما» تأكيداً، فيُجزمُ بها أيضاً، ومنه قولُ الفرزدق[٤]:

فقام أبو ليلى إليه ابنُ ظالم وكان إذا مايَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه[٥]: والجيِّدُ ما قال كعبُ بن زهير[٦]:

وإذا ما تشاءُ تبعثُ منها مغربَ الشمسِ ناشِطاً مَذْعُورا

يعني أنَّ الجيِّدَ ألا يُجزم بـ «إذا» كما لم يَجزم في هذا البيت.

وحُكي عن المبرِّد أنها في قولك في المفاجأة: خرجتُ فإذا زيدٌ، ظرفُ مكان، لأنها تضمَّنتْ جُثَّة. وهذا مردودٌ، لأنَّ المعنى: خرجتُ فإذا حضورُ زيد، فإنما تضمَّنتِ المصدرَ كما يَقتضيه سائرُ ظروفِ الزمان، ومنه قولهم: اليومَ خَمْرٌ وغداً أمرٌ[٧]، فمعناه: وجودُ خمرٍ ووقوعُ أمر[٨].

---

(١) الصحاح (إذا).

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدي، شاعر فارس من الأوس مات كافراً، قال ابن حجر في الإصابة: ذكره علي بن سعد العسكري في الصحابة، وهو وهم. الإصابة ٧/ ٢٥٩، وخزانة الأدب ٧/ ٣٤. والبيت في ديوانه ص٨٨، والكتاب ٣/ ٦٠.

(٣) في (م): بالجزم على كان.

(٤) هو همام بن غالب بن صعصعة، أبو فراس، التميمي، البصري، شاعر عصره، توفي سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٥٩٠. والبيت في ديوانه ١/ ٢١.

(٥) الكتاب ٣/ ٦٢.

(٦) ابن أبي سلمى صحابي معروف، ذكره ابن سلام في طبقاته ١/ ٩٧ في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية، وهو صاحب قصيدة البردة المشهورة. والبيت المذكور في ديوانه ص ٣٣.

(٧) قاله امرؤ القيس حين بلغه قتلُ أبيه وهو يشرب، ذكره أبو عُبيد في الأمثال ص٣٣٤ وأبو الفرج في الأغاني ٩/ ٨٨، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٤٣١، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٥٨، وذكر صاحب الجمهرة أنه لهمام بن مرة أيضاً.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٩٣.

قوله: ﴿قِيلَ﴾: من القَوْل، وأصلُه قُوِل، نُقِلتْ كسرةُ الواو إلى القاف، فانقلبَت الواو ياءً.

ويجوز: «قيلْ لَهم» بإدغام اللام في اللام[١]. وجاز الجمعُ بين ساكنين؛ لأنَّ الياء حرفُ مدٍّ ولِيْن.

قال الأخفشُ: ويجوزُ «قُيل» بضم القاف والياء[٢]. وقال الكسائي: ويجوزُ إشمامُ القاف الضمَّ، لِيَدُلَّ على أنه لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه، وهي لغةُ قَيْس. وكذلك: «جيءَ» و«غيضَ» و«حيل» و«سِيق» و«سيء» و«سيئت».

وكذلك روى هشامٌ[٣] عن ابن عامر[٤]، ورُوَيْسٌ[٥] عن يعقوبَ[٦]. وأَشَمَّ منها نافعٌ «سيء» و«سيئت» خاصَّة. وزاد ابنُ ذَكوان: «حِيلَ» و«سيق»، وكَسَرَ الباقون في الجميع[٧]. فأما هُذَيْلٌ وبنو دُبَيْر من أسد وبنو[٨] فَقْعَس فيقولون: «قُوْل» بواو ساكنة[٩].

قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾: «لا» نهي. والفسادُ ضدُّ الصَّلاح، وحقيقتُه: العُدولُ عن الاستقامةِ إلى ضِدِّها. فَسَدَ الشيءُ يَفْسُدُ فساداً، وفُسُوداً، وهو فاسدٌ، وفَسِيدٌ. والمعنى في الآية: لا تُفسِدوا في الأرض بالكفرِ ومُوالاةِ أهله، وتفريقِ الناس عن الإيمان بمحمدٍ ﷺ والقرآنِ.

وقيل: كانت الأرضُ قبلَ أن يُبعثَ النبيُّ ﷺ [يعملون] فيها الفساد، ويُفعَلُ[١٠]

---

(١) وهي رواية السوسي عن أبي عمرو البصري، السبعة ص ١١٧، والتيسير ص ٢٠.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس ١/١٨٨: وبالياء.

(٣) ابن عمار، أبو الوليد السلمي، ويقال: الظَّفري، الحافظ المقرئ، عالم أهل الشام، وخطيب دمشق، توفي سنة (٢٤٥هـ). السير ١١/ ٤٢٠.

(٤) في (م) و(ظ): ابن عباس وهو خطأ.

(٥) محمد بن المتوكل، أبو عبد الله اللؤلؤي البصري، مقرئ حاذق ضابط، توفي سنة (٢٣٨هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٣٤.

(٦) هو يعقوب بن إسحاق، أبو محمد الحضرمي مولاهم، مقرئ البصرة، أحد العشرة، ورجَّحه بعض الأئمة على الكسائي، توفي سنة (٢٠٥هـ). السير ١٠/ ١٦٩.

(٧) السبعة ص ١٤١-١٤٢، والتيسير ص ٧٢، والنشر ٢/٢٠٨.

(٨) في (م) و(ز) و(ظ): بني، والمثبت من (د).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٨، والمحرر الوجيز ١/ ٩٣.

(١٠) في (ز): ويعمل.

فيها بالمعاصي[١]، فلما بُعثَ النبيُّ ﷺ، ارتفعَ الفسادُ، وصَلَحت الأرضُ. فإذا عَملوا بالمعاصي، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحِها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[٢] [الأعراف: ٥٦].

قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الأرضُ مؤنثة، وهي اسمُ جنس، وكان حقُّ الواحدةِ منها أن يقالَ: أرْضة، ولكنهم لم يقولوا. والجمعُ أَرْضاتٌ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنَّثَ الذي ليست فيه هاءُ التأنيث بالتاء، كقولهم: عُرُسات. ثم قالوا: أَرَضون، فجمعوا بالواو والنون، والمؤنثُ لا يُجمع بالواو والنون، إلا أن يكونَ منقوصاً، كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً من حَذْفهم الألفَ والتاءَ، وتركوا فتحةَ الراء على حالها، وربما سُكِّنَتْ، وقد تُجمع على أُرُوض.

وزعم أبو الخطاب[٣] أنهم يقولون: أَرْضٌ، وآراضٌ، كما قالوا: أهل وآهالٌ[٤]. والأراضي أيضاً على غير قياس، كأنهم جَمعوا آرْضاً[٥]. وكل ما سَفَلَ فهو أَرْضٌ. وأَرْضٌ أَرِيضةٌ، أي: زَكيَّةٌ بيِّنةُ الأَرَاضةِ. وقد أَرُضَتْ، بالضم، أي: زَكَتْ. قال أبو عمرو: نزلنا أرضاً أَرِيضةً، أي: مُعجِبةً للعين، ويقال: لا أرضَ لك، كما يقال: لا أُمَّ لك. والأرضُ: أسفلُ قوائمِ الدابَّةِ، قال حُمَيدٌ[٦] يصفُ فَرَساً:

ولم يُقَلِّبْ أَرْضَها البَيْطارُ ولا لِحَبْلَيهِ بها حَبَارُ[٧]

(١) في (ظ): المعاصي.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦، وما بين معكوفتين منه.

(٣) عبد الحميد بن عبد المجيد البصري، وهو الأخفش الكبير، تخرج به سيبويه وحمل عنه النحو، قال الذهبي: ولم أقع له على وفاة. السير ٧/ ٣٢٣.

(٤) كذا في الصحاح (أرض)، والكلام كله منه. ونقل ابن منظور في اللسان (أرض) عن ابن بري قوله: الصحيح عند المحققين فيما حكي عن أبي الخطَّاب: أرض وأراضٍ، وأهل وأهالٍ.

(٥) ونقل ابن منظور أيضاً في اللسان عن ابن بُري قوله: صوابه أن يقول: جمعوا أَرْضَى، مثل أَرْطَى، وأما آرُض، فقياسه جمع أوَارِض.

(٦) ابن مالك، الأرقط، من شعراء الدولة الأموية، وسمي الأرقط لآثار كانت بوجهه. خزانة الأدب ٥/ ٣٩٥.

(٧) ذكره ابن منظور في اللسان (أرض)، وذكر الجوهريُّ شطره الأول، ومعناه (كما في اللسان): أي لم يقلِّب قوائمها لعلمه بها.

أي: أثر. والأَرْضُ: النَّفْضَة، والرِّعْدَة. رَوى حمَّادُ بنُ سَلَمةَ، عن قتادةَ، عن عبد الله بن الحارث قال: زُلْزِلَتِ الأرضُ بالبصرة، فقال ابنُ عباس: والله ما أدري، أزُلْزِلَت الأرضُ، أَمْ بي أَرْضٌ[١] ؟ أي: أَمْ بي رِعْدَةٌ.

وقال ذو الرُّمَّةِ يصفُ صائداً:

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً من سَنابِكِها أو كان صاحبَ أرْضٍ أو به المُومُ[٢]

والأَرْضُ: الزُّكام. وقد آرَضَهُ الله إيراضاً، أي: أَزْكمه، فهو مأْرُوضٌ. وفَسِيلٌ مُسْتأرِضٌ، وَوديَّةٌ[٣] مُستأرِضة، بكسر الراء: وهو أن يكونَ له عِرْقٌ في الأرض، فأما إذا نبتَ على جذْعِ النخل، فهو الراكب. والإِراضُ، بالكسر: بِساطٌ ضخمٌ من صوف أو وَبَر. ورجلٌ أَرِيضٌ، أي: متواضعٌ خَليقٌ للخير. قال الأصمعيُّ: يقال: هو آرَضُهم أن يفعلَ ذلك، أي: أَخْلَقُهم. وشيءٌ عريضٌ أَرِيضٌ، إتباعٌ له، وبعضُهم يُفرِدُه، ويقول: جَدْيٌ أَرِيضٌ، أي: سمين[٤].

قوله: ﴿نَحۡنُ﴾ أصل «نحن»: نَحُنْ، قُلِبَتْ حركةُ الحاء على النون، وأُسكنت[٥] الحاء، قاله هشامُ بن معاويةَ النَّحْوي[٦]. وقال الزَّجَّاج[٧]: «نحن» لجماعة، ومن علامةِ الجماعة الواو، والضمةُ من جنس الواو، فلما اضطُرُّوا إلى حركةِ «نحن» لالتقاءِ الساكنين، حرَّكوها بما يكونُ للجماعة. قال: ولهذا[٨] ضَمُّوا واوَ الجمعِ في قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦]. وقال محمدُ بن يزيد: «نحن» مثلُ: قَبْلُ، وبعدُ؛ لأنها مُتعلِّقةٌ بالإخبارِ عن اثنين وأكثرَ[٩]، فـ «أنا» للواحد،

---

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ص٨٤، والتمهيد ٣/ ٣١٨، والفائق للزمخشري ١/ ٣٧.

(٢) ديوانه ١/ ٤٤٩، وقال شارحه: السنبك: طرف الحافر، والموم: البِرْسام. وفي القاموس: البرسام: علة يُهذَى فيها.

(٣) في (د): واودية. وفي الصحاح (ودى): الوَدِيُّ: صغار الفسيل، واحدها: وَدِيَّة.

(٤) الصحاح: (أرض).

(٥) في (د) و(ز): وسكنت.

(٦) أبو عبد الله، الضرير، الكوفي، صاحب الكسائي، توفي سنة (٢٠٩هـ). إنباه الرواة ٣/ ٣٦٤.

(٧) معاني القرآن ١/ ٨٩.

(٨) في (م): لهذا.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٩.

و«نحن» للتثنية والجمع، وقد يُخبِرُ به المُتكلِّمُ عن نفسه في قوله: نحن قُمنا، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]. والمؤنَّثُ في هذا إذا كانت مُتكلِّمةً بمنزلة المذكَّر، تقول المرأةُ: قُمْتُ، وذهبتُ، وقُمنا، وذهبنا، وأنا فعلتُ ذاك، ونحن فعلنا. هذا كلامُ العرب فاعلم.

قوله تعالى: ﴿مُصْلِحُونَ﴾: اسمُ فاعل من «أصْلَح»، والصَّلاح: ضدُّ الفَساد. وصَلَح الشيء، بضم اللام وفتحها، لغتان، قاله ابنُ السِّكِّيت. والصُّلُوح، بضم الصاد: مصدر صَلُحَ، بضم اللام. قال الشاعر:

وكيف بأطرافي[1] إذا ما شَتَمْتَني   وما بعدَ شَتْمِ الوالِدَيْنِ صُلُوحُ[2]

وصَلاحِ من أسماء مكة. والصِّلْح، بكسر الصاد: نهر[3].

وإنما قالوا ذلك على ظَنِّهم، لأنَّ إفسادَهم عندهم إصلاحٌ، أي إنَّ ممالأتنا للكفار إنما نُريدُ بها الإصلاحَ بينهم وبين المؤمنين. قاله ابنُ عباس وغيرُه[4].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: ردًّا عليهم وتكذيباً لقولهم.

قال أربابُ المعاني: مَنْ أظهرَ الدعوى كَذَبَ، ألا ترى أنَّ[5] اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ وهذا صحيحٌ.

وكُسِرَتْ «إنَّ»، لأنها مبتدأةٌ، قاله النحاسُ[6]. وقال عليُّ بن سليمان[7]: يجوزُ

(١) في (ظ) و(م): بإطراقي، وفي (م): فكيف.

(٢) جمهرة اللغة ٢/ ١٦٤، وإصلاح المنطق ص١٢٤، ومجمل اللغة ٢/ ٥٣٩، ونسبه ابن دريد لعون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. قال ابن السكيت: أطرافه: أبواه، وإخوته، وأعمامُه، وكل قريب له محرم.

(٣) مجمل اللغة ٢/ ٥٣٩.

(٤) النكت والعيون للماوردي ١/ ٧٥، وأخرجه الطبري ١/ ٣٠٠.

(٥) لفظ (أن) ليس في (ز) و(ظ).

(٦) إعراب القرآن ١/ ١٨٩، والكلام الذي بعده منه.

(٧) أبو الحسن، الأخفش الصغير، العلامة، النحوي، لازم ثعلباً والمبرِّد. توفي سنة (٣١٥هـ). السير ١٤/ ٤٨٠.

فَتْحُها، كما أجاز سيبويهِ[١]: حقًّا أنك منطلِقٌ، بمعنى: ألا. و«هم» يجوزُ أن يكونَ مبتدأً، و«المُفْسِدُونَ» خبرُه، والمبتدأ وخبرُه خبرُ «إنَّ». ويجوزُ أن تكونَ «هم» توكيداً للهاء والميم في «إنهم»، ويجوزُ أن تكونَ فاصلةً، والكوفيون يقولون: عماداً. و«المفسدون»: خبرُ «إنَّ»، والتقديرُ: ألا إنهم المفسدون، كما تقدَّمَ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢] [البقرة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾: قال ابنُ كَيْسان: يقال: ما على مَن لم يعلم أنه مفسِدٌ من الذَّمِّ، إنما يُذَمُّ إذا عَلم أنه مفسد، ثم أَفْسدَ على عِلْم. قال: ففيه جوابان: أحدُهما: أنهم كانوا يَعملون الفسادَ سِرًّا، ويُظهِرون الصلاحَ، وهم لا يشعرون أنَّ أمرَهم يَظهرُ عند النبيِّ ﷺ. والوجه الآخرُ: أن يكونَ فسادُهم عندَهم صلاحاً، وهم لا يشعرون أنَّ ذلك فسادٌ، وقد عَصَوا اللهَ ورسولَه في تَرْكِهم تبيينَ الحقِّ واتِّباعِهِ[٣].

«ولكنْ»: حرفُ تأكيدٍ واستدراك، ولا بدَّ فيه من نَفْي وإثبات: إن كان قبلَه نفيٌ كان بعدَه إيجابٌ، وإن كان قبلَه إيجابٌ كان بعدَه نفيٌ. ولا يجوزُ الاقتصارُ بعدَه على اسمٍ واحدٍ إذا تقدَّمَ الإيجابُ، ولكنك تذكر جملةً مُضادَّةً لما قبلَها، كما في هذه الآيةِ، وقولِك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يجئ، ولا يجوزُ جاءني زيدٌ لكن عمرو، ثم تَسكُت؛ لأنهم قد استغنَوْا بـ «بل» في مثل هذا الموضعِ عن «لكن»، وإنما يجوزُ ذلك إذا تقدَّمَ النفيُ، كقولك: ما جاءني زيدٌ لكن عمرٌو[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين في قولِ مُقاتل[٥] وغيرِه. ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: صَدِّقوا بمحمدٍ ﷺ وشرعِهِ، كما صدَّقَ المهاجرون والمحقِّقون من

---

(١) الكتاب ٣/ ١٢٢.

(٢) ص ٢٧٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٩٣.

(٤) المقتضب للمبرد ١/ ١٢ و٤/ ١٠٨، والكتاب ١/ ٤٣٥.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦.

أهل يَثْرب[١].

وأَلِفُ «آمنُوا» ألفُ قَطْع؛ لأنك تقول: يُؤمن، والكافُ في موضع نصب؛ لأنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إيماناً كإيمان الناس[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ، عن ابن عباس[٣]. وعنه أيضاً: مُؤمِنو أهل الكتاب.

وهذا القولُ من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خَفاءٍ واستهزاء، فَأَطْلَعَ اللهُ نَبيَّه والمؤمنين على ذلك، وقرَّرَ أنَّ السَّفَهَ ورِقَّةَ الحُلُوم وفَسادَ البصائر، إنما هي في حَيِّزهم[٤] وصِفةٌ لهم، وأخبر أنهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون، للرَّين الذي على قلوبهم[٥].

وروى الكلبيُّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أنها نزلَتْ في شأن اليهود، أي: إذا[٦] قيل لهم - يعني اليهود - : آمنوا كما آمَنَ الناسُ: عبدُ الله بنُ سَلَام وأصحابُه، قالوا: أنؤمن كما آمَنَ السفهاءُ؟ يعني الجُهَّال والخُرَقاء[٧].

وأصلُ السَّفَهِ في كلام العرب: الخفَّةُ والرِّقَّةُ، يقال: ثوبٌ سَفِيهٌ: إذا كان رديءَ النَّسْجِ خفيفَه، أو كان بالياً رقيقاً. وتَسفَّهَتِ[٨] الريحُ الشجرَ: مالَتْ به، قال ذو الرُّمَّة:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رماحٌ تسفَّهَتْ أعالِيَها مَرُّ الرياح النَّواسِمِ[٩]

وتسفَّهت الشيءَ: استحقَرْتُه، والسَّفَهُ: ضِدُّ الحِلْم، ويقال: إنَّ السَّفَهَ أنْ يُكثِرَ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٩٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٠٣.

(٤) في (ظ): خبرهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٤.

(٦) في (م): وإذا.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦، وقد ردَّ ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٩٤ هذا التفسير، وقال: هذا تخصيص لا دليل عليه. اهـ. وقول المصنف: الخُرَقاء - ووقع عند أبي الليث: الخَرْقى - يعني جمع أخرق. والذي في القاموس أن الجمع: خُرْق.

(٨) في النسخ: سفهت، والمثبت من (م) وصحاح الجوهري.

(٩) ديوانه ٢/ ٧٥٤، وفيه: رويداً، بدل: مَشَيْن. وقال شارحه: النواسم: تنسمت الريح أي: تنفستْ، وهو أول هبوبها.

الرجلُ شُربَ الماء، فلا يَرْوَى[١].

ويجوزُ في همزتَي «السفهاء»[٢] أربعةُ أوجه:

أجودُها أن تُحقَّقَ الأُولى، وتقلبَ الثانيةَ واواً خالصة، وهي قراءةُ أهل المدينة، والمعروفُ من قراءةِ أبي عمرو[٣].

وإن شئتَ خفَّفْتَهما جميعاً، فجعلتَ الأولى بين الهمزة والواو، وجعلتَ الثانية واواً خالصةً[٤].

وإن شئتَ خفَّفتَ الأُولى وحقَّقْتَ الثانيةَ[٤].

وإن شئتَ حقَّقْتَهما جميعاً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مثل: «ولكنْ لا يَشْعُرُونَ»، وقد تَقَدَّمَ. والعلمُ معرفةُ المعلوم على ما هو به، تقول: عَلِمتُ الشيءَ أَعْلَمُه عِلْماً: عَرَفْتُه، وعالَمْتُ الرجلَ، فَعَلَمْتُهُ أَعْلُمُهُ، بالضم في المستقبل: غَلَبْتُهُ بالعلم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلَتْ هذه الآيةُ في ذكر المنافقين.

أصل لَقُوا: لَقِيُوا، نُقلت الضمةُ إلى القاف، وحُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين.

وقرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع اليمانيُّ: «لاقَوُا الذين آمنوا»[٧]. والأصلُ: لاقَيُوا، تحرَّكَتِ الياءُ وقبلَها فتحةٌ، انقلبَتْ الياءُ ألفاً[٨]، اجتمع ساكنان: الألفُ والواو،

---

(١) مجمل اللغة ٢/ ٤٦٣.

(٢) يعني في قوله: «السفهاءُ ألا».

(٣) وهي أيضاً قراءة ابن كثير. التيسير ص ٣٤.

(٤) وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠. وقرأ بتحقيق الهمزتين ابن عامر الشامي وعاصم وحمزة والكسائي. التيسير ص ٣٤.

(٦) الصحاح: (علم).

(٧) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، والعكبري في الإملاء في موضعها في سورة البقرة.

(٨) في (م): انقلبت ألفاً.

فَحُذِفتِ الألفُ لالتقاء الساكنَين، ثم حُرِّكت الواو بالضم.

فإن[١] قيل: لم ضُمَّت الواوُ في «لاقَوا» في الإدراج، وحُذفت من «لَقُوا»؟ فالجواب: أنَّ قبل الواو التي في «لَقُوا» ضَمَّةً، فلو حُرِّكتِ الواو بالضم، لَثقُلَ على اللسان النُّطقُ بها، فحذفت لثقلها، وحُرِّكتْ في «لاقَوا»؛ لأنَّ قبلَها فتحةً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾: إن قيل: لم وُصِلَتْ «خَلَوْا» بـ«إلى»، وعُرْفُها أن تُوصَلَ بالباء؟ قيل له: «خَلَوْا» هنا بمعنى: ذَهَبوا وانصرفوا، ومنه قولُ الفرزدق[٣]:

كيف تَرانِي قالباً[٤] مِجنِّي قد قتلَ الله زياداً عَنِّي[٥]

لما أنزلَه منزلة: صرف[٦].

وقال قومٌ: «إلى» بمعنى «مع»، وفيه ضعفٌ. وقال قومٌ: «إلى» بمعنى الباء، وهذا يأباهُ الخليلُ وسيبويهِ.

وقيل: المعنى: وإذا خَلَوْا من المؤمنين إلى شياطينهم، فـ«إلى» على بابها.

والشياطين جمعُ شيطان، على التكسير، وقد تقدَّم القولُ في اشتقاقه ومعناهُ في الاستعاذة[٧].

واختلف المفسِّرون في المراد بالشياطين هنا، فقال ابنُ عباس والسُّدِّي: هم رؤساءُ الكفر[٨]. وقال الكَلْبي: هم شياطينُ الجِنِّ[٩]. وقال جمعٌ من المفسرين: هم الكُهَّان.

---

(١) في (م): وإن.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠.

(٣) ديوانه ٢/ ٨٨١.

(٤) في (د) و(ز): قالياً. اهـ. أي: هاجراً، كناية عن عدم الحاجة إليه، فيما ذكر محققو المحتسب ١/ ٥٢.

(٥) قوله: المِجنّ: هوالتُّرس، وقال البغدادي في شرح شواهد المغني ٨/ ٨٦: قلبُ المِجَنِّ عبارةٌ عن رميه من يده لعدم الاحتياج إليه.

(٦) قال ابن جني في المحتسب ١/ ٥٢: استعمال «عن» هاهنا لما دخله من معنى: قد صرفه الله عني، لأنه إذا قتله، فقد صُرف عنه.

(٧) ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٠٧.

(٩) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٩٦: وهذا في هذا الموضع بعيد.

ولفظُ الشَّيْطَنةِ الذي معناه: البعدُ عن الإيمان والخيرِ يَعُمُّ جميعَ مَنْ[١] ذُكِر[٢]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مُكَذِّبون بما نُدْعَى إليه، وقيل: ساخرون، والهُزء: السخريةُ واللعب، يقال: هَزِئ به، واستهزأ، قال الراجز:

قد هَزِئَتْ مِنِّيَ أمُّ طَيْسَلَهْ قالت أُراه مُعْدِماً لا مالَ لَهْ[٣]

وقيل: أصلُ الاستهزاء: الانتقامُ، كما قال الآخرُ:

قد استهزؤوا منهم بألفيْ مُدجَّجٍ سَرَاتُهمُ وسْطَ الصَّحاصِحِ جُثَّمُ[٤]

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، أي: ينتقمُ منهم ويُعاقِبُهم، ويَسخَرُ بهم، ويُجازِيهم على استهزائهم، فسمَّى العقوبةَ باسمِ الذنب. هذا قولُ الجمهور من العلماء، والعربُ تستعملُ ذلك كثيراً في كلامهم[٥]، من ذلك قولُ عَمرو بنِ كُلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلِينا[٦]

فسمَّى انتصارَه جَهْلاً، والجهلُ لا يَفْتَخِرُ به ذو عقل، وإنما قاله لِيَزْدَوِجَ الكلامُ، فيكونَ ذلك أخفَّ[٧] على اللسان من المخالفة بينهما[٨]. وكانت العربُ إذا وضعوا

---

(١) في (د) و(ز): ما.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٩٦.

(٣) قائله صخر بن عمير الهذلي، كما في أمالي أبي علي القالي ٢/ ٢٨٤، ولفظه عنده:

تهزأ مني أختُ آلِ طَيْسَلَهْ قالت أُراه مُبْلِطاً لا شيءَ لَهْ

وهو في اللسان (طسل)، وفيه: قالت أراه في الوقار والعَلَهْ. وانظر تفسير الطبري ٢/ ٧٥.

(٤) لم نهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٥٠.
والصحاصح: جمع صحصح، وهي الأرض الجرداء المستوية، ذات حصى صغار. اللسان (صحح).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٦) هو في معلقته ص١١٧ بشرح ابن كَيْسان، وفي شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٤٢٦، وشرح القصائد التسع للنحاس ص٢/ ٨٣٤.

(٧) في (م): فيكون أخف.

(٨) الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٤٣٩.

لفظاً بإزاء لفظٍ جواباً له وجزاءً، ذكَروه بمثل لَفْظِهِ، وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآنُ والسنَّة. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]. والجزاءُ لا يكون سيئةً. والقِصاصُ لا يكون اعتداءً؛ لأنه حقٌّ وَجَبَ. ومثله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، و﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، و﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ، ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، وليس منه سبحانه مَكْرٌ، ولا هُزْءٌ، ولا كَيْدٌ، إنما هو جزاءٌ لمكرهم واستهزائهم، وجزاءُ كيدِهم. وكذلك ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، ولا يَسأَمُ حتى تَسأموا»[١]. قيل: «حتى» بمعنى الواو، أي: وتَمَلُّوا. وقيل: المعنى: وأنتم تَمَلُّون. وقيل: المعنى: لا يَقْطَعُ عنكم ثوابَ أعمالِكم حتى تَقْطَعوا العملَ. وقال قومٌ: إنَّ اللهَ تعالى يفعلُ بهم أفعالاً هي في تأمُّلِ البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ، حسب ما رُوي: إنَّ النارَ تَجمُدُ كما تَجمُدُ الإهالةُ، فيمشون عليها ويَظنونها مَنْجاةً، فتَخسِفُ بهم[٢].

وروى الكلبيُّ عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: هم منافقُو أهلِ الكتاب، فذكَرهم، وذكَر استهزاءَهم، وأنهم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم - يعني رؤساءَهم في الكفر، على ما تقدَّم - قالوا: إنا معكم على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بأصحاب محمد ﷺ. ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ في الآخرة، يُفتَحُ لهم بابُ جهنم من الجنة، ثم يقال لهم: تعالَوا، فيُقبلون يَسْبَحون[٣] في النار، والمؤمنون على الأرائك - وهي السُّرُر في الحِجَال - ينظرون إليهم، فإذا انتَهَوْا إلى الباب، سُدَّ عنهم، فَيضحَكُ المؤمنون منهم، فذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أي: في الآخرة، ويَضحَكُ المؤمنون منهم حين غُلِّقَتْ دونهم الأبوابُ، فذلك

---

(١) قوله منه: «إن الله لا يمل حتى تملوا» قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤١٢٤)، والبخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢)، وقوله منه: «ولا يسأم حتى تسأموا» أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٠٩٦)، ومسلم (٧٨٥) من حديثها أيضاً.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٩٧. والإهالة: هو ما أذيب من الألية والشحم. النهاية في غريب الحديث (أهل).

(٣) في (ز): يسيحون، وفي تفسير أبي الليث والأسماء والصفات: يُسحبون.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى أهل النار ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1] [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦].

وقال قومٌ: الخِداعُ من الله والاستهزاءُ: هو استدارجُهم بِدُرُورِ النِّعم الدنيويَّةِ عليهم، فاللهُ سبحانه وتعالى يُظهِرُ لهم من الإحسان في الدنيا خِلافَ ما يَغيبُ عنهم ويَسْتُرُ عنهم من عذابِ الآخرة[2]، فيظنُّون أنه راضٍ عنهم، وهو تعالى قد حَتَمَ عذابَهم، فهذا على تأمُّل البشر كأنه استهزاءٌ ومَكرٌ وخداعٌ[3].

ودلَّ على هذا التأويل قولُه ﷺ: «إذا رأيتم الله عزَّ وجلَّ يُعطي العبدَ ما يُحِبُّ وهو مُقيمٌ على معاصيه، فإنما[4] ذلك منه استدارجٌ»، ثم نزعَ بهذه الآيةِ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]: كلَّما أحدثوا ذنباً، أُحدِثَتْ[6] لهم نعمة[7].

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يُطِيلُ لهم المدَّة، ويُمْهِلُهم، ويُمْلي لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأصلُه: الزيادة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠١٨). وأورده مختصراً أبو الليث في تفسيره ١/ ٩٧.

(٢) في (ظ)، والأسماء والصفات: ويستتر من عذاب الآخرة.

(٣) الأسماء والصفات ٢/ ٤٤٠، والمحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٤) في (د): فإنَّ.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، والطبري في تفسيره ٩/ ٢٤٨، والطبراني في الكبير ١٧/ (٩١٣)، والأوسط (٩٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠)، والأسماء والصفات (١٠٢١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وسيأتي عند المصنف في تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام باختلاف في بعض ألفاظه.

(٦) في (م): أحدث.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢٤).

قال يونسُ بنُ حَبِيب[١] : يقال: مدَّ لهم في الشرِّ، وأمدَّ في الخير[٢] ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]، وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وحُكي عن الأخفش: مددتُ له إذا تركتَه، وأمدَدْتُه إذا أعطيتَه[٣] . وعن الفرّاء واللِّحياني: مددت، فيما كانت زيادتُه من مِثْلِهِ، يقال: مدَّ النَّهر[٤]، وفي التنزيل: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، وأمددتُ، فيما كانت زيادتُه من غيرِهِ، كقولك: أمددتُ الجيشَ بمَدَدٍ، ومنه: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وأمدَّ الجُرْحُ، لأن المِدَّةَ[٥] من غيره، أي: صارت فيه مِدَّة.

قوله تعالى: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: كفرهم وضلالهم. وأصلُ الطغيان مجاوزةُ الحدِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ارتفع، وعلا، وتجاوزَ المقدارَ الذي قدَّرَته الخُزَّان. وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] أي: أسرفَ في الدعوى حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. والمعنى في الآية: يمدُّهم[٦] بطولِ العمر حتى يزيدوا في الطغيان، فيزيدَهم في عذابهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَعْمَون[٧]. وقال مجاهد: أي: يتردَّدُون متحيِّرين في الكفر[٨].

وحكى أهلُ اللغة: عَمِهَ الرجلُ يَعْمَهُ عُمُوهاً وعَمَهاناً[٩]، فهو عَمِهٌ وعامِهٌ: إذا

---

(١) أبو عبد الرحمن، الضبي مولاهم، البصري، إمام النحو، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وحماد بن سلمة، وعنه: الكسائي وسيبويه والفراء، توفي سنة (١٨٣هـ). السير ٨/ ١٩١.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٦، والنكت والعيون ١/ ٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٦.

(٤) في اللسان (مدد): مدَّ النهرُ النهرَ: إذا جَرَى فيه. قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثَّره: مدَّه يمدُّه مدًّا.

(٥) أي: القيح.

(٦) في (د): يمددهم.

(٧) لم ترد لفظة: «يعمون» في (د)، ووقع في (ز) بدلاً منها: يعمهون.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٢٤.

(٩) في (م): عَمَهاً، بدل: وعمهاناً، وكلاهما صحيح.

حارَ، ويقال: رجل عامِهٌ وعَمِهٌ: حائرٌ متردِّد، وجمعه عُمَّهٌ. وذهبَتْ إبِلُه العُمَّهَى: إذا لم يدرِ أين ذهبت. والعَمَى في العين، والعَمَهُ في القلب، وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، قال سيبويه: ضُمَّت الواو في «اشتَروا» فَرْقاً بينها وبين الواو الأصلية[(١)]، نحو: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]. وقال ابنُ كَيْسان: الضمةُ في الواو أخفُّ من غيرها، لأنها من جنسها. وقال الزجَّاجُ[(٢)]: حُرِّكت بالضم، كما فُعل في «نحن».

وقرأ ابنُ أبي إسحاق ويحيى بنُ يَعْمَر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنَيْن[(٣)]. وروى أبو زيد الأنصاريُّ، عن قَعْنَب أبي السَّمَّال العَدَويِّ، أنه قرأ بفتح الواو[(٤)]، لخفَّة الفتحة، وأن قبلَها مفتوحاً[(٥)]. وأجازَ الكِسائيُّ همزَ الواو وضَمَّها كأدؤر[(٦)].

و«اشتروا»: من الشراء. والشراءُ هنا مُستعارٌ، والمعنى: استحبُّوا الكُفرَ على الإيمان، كما قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فعبر عنه بالشراء؛ لأنَّ الشراءَ إنما يكون فيما يُحبُّه مُشتريه. فأمَّا أن يكونَ معنى الشراءِ المعاوضة، فلا؛ لأنَّ المنافقين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعوا[(٧)] إيمانهم[(٨)].

---

(١) الكتاب ٤/ ١٥٥.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٨٩. وقد سلف ص ٣٠٨.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٤.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٤، قال الزجاج في معاني القرآن ١/ ٨٩: وهو شاذ جداً.

(٥) في النسخ الخطية: وأن ما قبلها مفتوحاً، وفي(م): وإن كان ما قبلها مفتوحاً، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٢ (والكلام منه).

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. قال النحاس: وهذا غلط، لأن همزة الواو إذا انضمت؛ إنما يجوز فيها إذا انضمت لغير علة. وبنحوه قال الزجاج في معاني القرآن ١/ ٩١، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٥.

(٧) في (ظ): فيضيعوا.

(٨) النكت والعيون ١/ ٧٩.

وقال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى[١]. ومعناه: استبدلوا واختاروا الكفرَ على الإيمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعاً؛ لأنَّ الشراءَ والتجارةَ راجعانِ إلى الاستبدال، والعربُ تستعمل ذلك في كلٍّ من استبدلَ شيئاً بشيء. قال أبو ذُؤيب[٢]:

فإنْ تَزْعُمِيني كنتُ أجهَلُ فيكمُ فإني شَرَيتُ الحِلْمَ بعدكِ بالجهل[٣]

وأصلُ الضلالة: الحَيْرة. ويُسمَّى النسيانُ ضلالةً، لِما فيه من الحَيْرة، قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: الناسين.

ويُسمَّى الهلاكُ ضلالةً، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] [السجدة: ١٠].

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾: أسندَ تعالى الربحَ إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: رَبِحَ بَيْعُك، وخَسِرَتْ صَفْقَتُك، وقولهم: ليلٌ قائمٌ، ونهارٌ صائم[٥]، والمعنى: رَبِحتَ وخَسِرْتَ في بيعك، وقُمتَ في ليلك، وصُمتَ في نهارك، أي: فما رَبِحوا في تجارتهم. وقال الشاعر:

نهارُكَ هائمٌ وليلُكَ نائمُ كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[٦]

ابن كَيْسان: ويجوزُ: تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ في اشترائهم[٨] الضلالةَ. وقيل: في سابق

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٢٥.

(٢) خويلد بن خالد بن محرِّث، الهذلي، شاعر جاهلي إسلامي، لم ير النبي ﷺ، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل: مات في غزوة إفريقية بمصر منصرفاً بالفتح مع ابن الزبير. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١١/ ٢٣٢.

(٣) البيت في شرح أشعار الهذليين للسكري ١/ ٩٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ١٠٠.

(٥) في (د): ليله قائم، ونهاره صائم.

(٦) لم نجده بهذا اللفظ، وقد أخرج أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩-٣٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٩٥) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله في هذا المعنى أبياتاً كان ينشدها، وسيذكر المصنف منها أربعة عند تفسير الآية (٢٠٧) من سورة الشعراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز): شرائهم.

علمِ الله. والاهتداءُ ضدُّ الضلال[١]، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فـ «مَثَلُهُم» رُفع بالابتداء، والخبرُ في الكاف، فهي اسم، كما هي في قول الأعشى:

أتنتهونَ ولن ينهى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يذهبُ فيه الزيتُ والفُتُلُ[٣]

وقولِ امرئ القيس[٤]:

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وَسْطَنا تَصَوَّبُ فيه العَيْنُ طَوْراً وتَرْتَقِي[٥]

أراد: مثل الطَّعن، وبمثل ابنِ الماء.

ويجوزُ أن يكونَ الخَبَرُ محذوفاً، تقديرُهُ: مَثَلُهم مستقرٌّ كَمَثَل، فالكافُ على هذا حرفٌ.

والمَثَلُ والمِثْل والمَثِيلُ واحدٌ، ومعناه: الشِّبْهُ[٦]. والمتماثلان: المتشابهان. هكذا قال أهلُ اللغة[٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى﴾ يقع للواحد والجمع، قال ابنُ الشَّجَرِي هبةُ الله بنُ عليٍّ[٨]: ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظِ الواحد، كما قال[٩]:

وإنَّ الذي حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

---

(١) في النسخ: الرشاد، وهو خطأ.

(٢) ص ٢٤٧.

(٣) ديوانه ص١١٣ وفيه: هل تنتهون ولا ينهى ذوي شطط. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٩٩.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، من فحول شعراء الجاهلية، ومن الطبقة الأولى، ويقال له: الملك الضِّلِّيل. الشعر والشعراء ١/ ١٠٥.

(٥) ديوانه ص١٧٦، وقد سلف شطره الأول ص ١٥٤.

(٦) في (م): الشبيه.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٩٨ ـ ٩٩.

(٨) في أماليه ٣/ ٥٧، وهبة الله بن علي الشجري هو أبو السعادات الهاشمي العلوي الحسني البغدادي، شيخ النحاة، توفي سنة (٥٤٢هـ). السير ٢٠/ ١٩٤.

(٩) هو الأشهب بن رُمَيْلة، والبيت في الكتاب ١/ ١٨٧، والمنصف ١/ ٦٧ وشرح المفصل ٣/ ١٥٥.

وقيل في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]: إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ قيل: المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فحمَل أوّلَ الكلام على الواحد، وآخرَه على الجمع. فأما قولُه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فإنَّ «الذي» هاهنا وصفٌ لمصدر محذوف، تقديره: وخُضتُم كالخوض[1] الذي خاضوا.

وقيل: إنما وَحَّدَ «الذي» و«استوقد»؛ لأنَّ المستوقِدَ كان واحداً من جماعة تولَّى الإيقادَ لهم، فلما ذهبَ الضوءُ، رَجَعَ عليهم جميعاً، فقال: «بنورهم».

واستوقد بمعنى: أَوْقَدَ، مثل: استجابَ، بمعنى: أجاب، فالسين والتاء زائدتان. قاله الأخفش[2]، ومنه قولُ الشاعر[3]:

وداعٍ دَعَا يا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى ... فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ

أي: يُجِبْهُ.

واختلف النُّحاة في جواب «لمَّا»، وفي عَوْدِ الضمير من «نورهم»، فقيل: جوابُ «لمَّا» محذوفٌ، وهو: طَفِئَتْ، والضميرُ في «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبارُ بهذا عن حالٍ تكونُ[4] في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[5] [الحديد: ١٣].

وقيل: جوابُه «ذهب»، والضمير في «نورهم» عائدٌ على «الذي». وعلى هذا القول يتمُّ تمثيلُ المنافق بالمُستوقِد؛ لأنَّ بقاءَ المُستوقِدِ في ظُلماتٍ لايُبْصِرُ كبقاء المنافقِ في حَيْرَتِه وتَرَدُّدِه.

والمعنى المرادُ بالآية: ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين، وذلك أنَّ ما[6] يُظْهِرُونه من

(١) في (د): كخوض.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢٠٨.

(٣) هو كعب بن سعد الغَنَوي، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٦٧، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٨، والأصمعيات ص٩٦.

(٤) في (د): والإخبار في هذا عن حال يكون.

(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٠: وهذا القول غير قوي.

(٦) في (د): بما.

الإيمان الذي تَثبُتُ لهم به أحكامُ المسلمين من المناكح والتوارُثِ والغنائمِ والأَمْنِ على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابةِ مَنْ أَوْقَدَ ناراً في ليلةٍ مظلمةٍ، فاستضاءَ بها، ورأى ما ينبغي أن يتقِيَه، وأَمِنَ منه، فإذا طَفِئَتْ عنه أو ذَهَبَتْ، وصلَ إليه الأذى، وبَقِيَ متحيِّراً، فكذلك المنافقون؛ لمَّا آمنوا اغترُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموتِ إلى العذابِ الأليم ـ كما أخبر التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ ويذهبُ نورُهم، ولهذا يقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وقيل: إنَّ إقبالَ المنافقين إلى المسلمين وكلامَهم معهم كالنار، وانصرافَهم عن[1] مَودَّتهم وارتِكاسَهم عندهم كذهابها. وقيل غيرُ هذا[2].

وقوله تعالى: ﴿نَارًا﴾: النارُ مؤنثةٌ، وهي من النُّور، وهو الضياء[3] والإشراق. وهي من الواو؛ لأنك تقولُ في التصغير: نُوَيْرة، وفي الجمع: نُورٌ وأَنْوُرٌ[4] ونيران، انقلبتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قَبْلَها[5].

وضاءَتْ وأضاءَتْ لغتان، يقال: ضاء القمرُ يَضُوء ضَوْءاً، وأضاء يُضيء، ويكون لازماً ومتعدِّياً. وقرأ محمدُ بنُ السَّمَيْفَع: ضاءَتْ، بغير ألف[6]، والعامَّةُ بالألف، قال الشاعر[7]:

أضاءَتْ لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُهْ

﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾: «ما» زائدةٌ مؤكِّدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْلَه» ظرفُ مكان،

---

(١) في النسخ: إلى.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٠٠.
(٣) في (م): أيضاً.
(٤) في (م): أنوار.
(٥) الصحاح: (نور).
(٦) وذكرها أبو حيان في البحر ١/ ٧٩.
(٧) أبو الطَّمَحان القَيْني، والبيت في الكامل ١/ ٦٨ و٢/ ١٠٣٤، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٨، وأمالي المرتضى ١/ ٢٥٧، وخزانة الأدب ٨/ ٩٥ ـ ٩٦. ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١ للقيط بن زرارة.

والهاء في موضع خفض بإضافته إليها. و﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوالُ الشيء، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أي: أبقاهم.

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ جمع ظُلْمة، وقرأ الأعمشُ: «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل[1]. ومَن قرأها بالضم، فللفرق بين الاسم والنعت. وقرأ أشْهَبُ العُقَيلي: «ظُلَمات» بفتح اللام[2]. قال البصريون: أبدلَ من الضمةِ فتحةً لأنها أخفُّ، وقال الكسائي: «ظُلَمات» جمعُ الجمع، حمع ظُلَم. ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل في موضع الحال[3]، كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقفُ على هذا على «ظلمات».

قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾: «صُمٌّ»، أي: هم صُمٌّ، فهو خبرُ ابتداء مُضمرٍ. وفي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة: صُمًّا بُكماً عُمياً[4]، فيجوز النصبُ على الذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٦١]، وكما قال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، وكما قال الشاعر:

سَقَوْني الخمرَ ثم تَكَنَّفُوني ... عُداةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ[5]

فنصبَ «عُداةَ الله» على الذَّم.

فالوقْفُ على «يُبصرون» على هذا المذهبِ صوابٌ حَسَن.

ويجوزُ أن ينصبَ صُمًّا بـ «تَرَكَهُمْ»، كأنه قال: وتركَهم صُمًّا بُكماً عُمْياً، فعلى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوَقْفُ على «يبصرون».

والصَّمَمُ في كلام العرب: الانْسِدادُ، يقال: قناةٌ صمَّاءُ: إذا لم تكن مُجوَّفةً،

---

(١) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٦، وأبو حيان في البحر ١/ ٨٠، ونسبوها للحسن وأبي السمال.

(٢) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٥٦ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢ ـ ٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٥) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٥٨، وفيه: «النَّسْء»، بدل: «الخمر»، وهو شراب بمعنى الخمر في إزالته للعقل.

وصَمَمْتُ القارورةَ: إذا سَدَدْتَها، فالأَصَمُّ: مَنِ انْسَدَّتْ خُروقُ مَسامِعِهِ[١].

والأبْكَمُ: الذي لا يَنْطِقُ ولا يَفهمُ، فإذا فَهِمَ، فهو الأخْرَس. وقيل: الأخْرَسُ والأبْكَمُ واحدٌ. ويقال: رجلٌ أبكمُ وبَكِيم، أي: أَخْرَسُ بَيِّنُ الخَرَس والبَكَم، قال:

فَلَيْتَ لِساني كان نِصْفَينِ منهما بَكيمٌ ونصفٌ عند مَجْرَى الكواكِب[٢]

والعَمَى: ذهابُ البصر، وقد عَمِيَ، فهو أَعْمَى، وقومٌ عُمْيٌ، وأعْمَاه اللهُ. وتَعامَى الرجلُ: أرى ذلك من نفسه. وعَمِيَ عليه الأمرُ إذا التبسَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾[٣] [القصص: ٦٦].

وليس الغرضُ مما ذكَرنا[٤] نفيَ الإدراكاتِ عن حواسِّهم جملةً، وإنما الغرضُ نفيُها من جهةٍ ما، كما[٥] تقول: فلانٌ أصمُّ عن الخَنا. ولقد أحسنَ الشاعرُ حيث قال:

أَصَمُّ عمَّا ساءَهُ سَمِيعُ[٦]

وقال آخرُ:

وعوراءِ الكلامِ صَمَمْتُ عنها ولو أني أشاءُ بها سَمِيعُ[٧]

وقال الدارمي:

أعْمَى إذا ما جارتي خَرَجتْ حتى يُواري جارتي الجَدْرُ[٨]

وقال بعضُهم في وَصَاتِهِ[٩] لرجلٍ يُكْثِرُ الدخولَ على الملوك:

---

(١) النكت والعيون ١/ ٨١.

(٢) الصحاح (بكم).

(٣) الصحاح (عمي).

(٤) في (م): ذكرناه.

(٥) ليست في (م).

(٦) جمهرة الأمثال ١/ ١٤٠، ومجمع الأمثال ١/ ٤٠٢.

(٧) لم نقف له على مصدر.

(٨) الشعر والشعراء ١/ ٥٤٥، وأمالي المرتضى ١/ ٤٤، ومعجم الأدباء ١١/ ١٣٢، وفيها: حتى يواري جارتي الخِدر، وفي معجم الأدباء: أغضي بدل أعمى. والدارمي: هو ربيعة بن عامر، ويلقب بالمسكين، ودارم بطن من تميم، كان شاعراً مجيداً سيداً شريفاً، وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ثم تكافًا، توفي سنة (٨٩هـ). معجم الأدباء ١١/ ١٢٦.

(٩) في (د) و(ظ): وصاية.

ادخُـلْ إذا مـا دَخَـلْـتَ أَعْـمَـى   واخـرُجْ إذا مـا خَـرَجْـتَ أخـرَسْ[(١)]

وقال قتادةُ: «صمٌّ» عن استماع الحقِّ، «بكمٌ» عن التكلُّم به، «عُمْيٌ» عن الإبصارِ له[(٢)].

قلت: وهذا المعنى هو المرادُ في وصف النبيِّ ﷺ وُلاةَ آخرِ الزمان في حديث جبريلَ: «وإذا رأيتَ الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكمَ ملوكَ الأرض، فذاك من أَشْراطها»[(٣)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إلى الحقِّ، لسابق علمِ الله تعالى فيهم. يقال: رَجَعَ بنفسه رُجوعاً، ورَجَعَه غيرُه، وهُذَيْل تقول: أَرْجَعَه غيرُه. وقولُه تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: يتلاومون فيما بينهم[(٤)]، حسب ما بيَّنَه التنزيلُ في سورة «سبأ».

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال الطبري[(٥)]: «أو» بمعنى الواو، وقاله الفرَّاء، وأنشد:

وقـد زَعَـمـتْ لـيـلـى بـأنِّـيَ فـاجـرٌ   لنفسي تُقَاها أو عليها فُجورُها[(٦)]

وقال آخرُ[(٧)]:

نـالَ الـخـلافـةَ أو كـانـت لـه قَـدَراً   كـمـا أتـى ربَّـه مـوسـى عـلـى قَـدَرِ

أي: وكانت.

---

(١) لم نهتد إلى قائله.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/٣٤٨.

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الصحاح (رجع).

(٥) في تفسيره ١/٣٥٤-٣٥٥.

(٦) البيت لتوبة بن الحُمَيِّر الخفاجي، وهو في أمالي أبي علي القالي ١/١٣١، وأمالي المرتضى ٢/٥٧، وأمالي ابن الشجري ٣/٧٤.

(٧) هو جرير، والبيت في ديوانه ١/٤١٦، والخزانة ١١/٦٩.

وقيل: «أو» للتخيير، أي: مثّلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحدِ الأمرين، والمعنى: أو كأصحابِ صَيّب. والصَّيِّبُ: المطر، واشتقاقُه من: صابَ يَصُوبُ: إذا نزلَ، قال عَلْقَمةُ[1]:

فلا تَعْدِلي بيني وبين مُغَمَّرٍ سَقَتْكِ روايا المُزْنِ حيثُ تَصُوبُ[2]

وأصله: صَيْوِب، اجتمعت الياء والواو، وسُبقَتْ إحداهما بالسكون، فَقُلبتِ الواو ياءً، وأُدغمتْ، كما فعلوا في ميّت وسيّد، وهيّن وليّن. وقال بعضُ الكوفيين: أصلُه: صَوِيب، على مثال فَعِيل[3].

قال النحاس[4]: لو كان كما قالوا لمَا جاز إدغامُه، كما لا يجوز إدغامُ «طويل». وجمعُ صيِّب: صَيَايِب.

والتقديرُ في العربية: مَثَلُهم كَمَثَل الذي اسْتَوْقَدَ ناراً، أوْ كصيِّب[5].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: السماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث، وتُجمعُ على أَسْمِيَةٍ وسماوات وسُمِيّ على فُعُول، قال العجاج:

تَلُفُّهُ الرِّياحُ والسُّمِيُّ[6]

والسماءُ: كلُّ ما عَلاَكَ فأظَلَّكَ، ومنه قيل لسقف البيت: سماء.

والسماء: المطر، سُمِّيَ به لنزولِهِ من السماء. قال حسانُ بنُ ثابت:

دِيارٌ من بني الحَسْحاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيها الرَّوامِسُ والسماءُ[7]

---

(١) ابن عَبَدة الملقب بالفحل، ذكره ابن سلّام ١/ ١٣٩ في الطبقة الرابعة من طبقات فحول الجاهلية.

(٢) ديوانه ص٣٤، قوله: مغمَّر، قال في اللسان (غمر): صبي مغَمَّر: لم يجرب الأمور والمغمَّر من الرجال إذا استجهله الناس.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٥) في (م): أو كمثل صيب.

(٦) كذا نسبه الجوهري في الصحاح (سما)، وتعقَّبه ابن منظور في اللسان، ونسبه لرؤبة وروايته:

تَلُفُّهُ الأرواحُ والسُّمِيُّ في دِفْءِ أرطاةٍ لها حَنِيُّ

(٧) ديوانه ص ٧. والروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار. الصحاح (رمس).

وقال آخرُ[١] :

إذا سَقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْناهُ وإنْ كانوا غِضابا

ويُسمَّى الطينُ والكلأُ أيضاً سماءً، يقال: مازِلْنا نطأُ السماءَ حتى أتيناكم. يريدون: الكلأَ والطين.

ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء، لعلوِّه، قال:

وأحمرَ كالدِّيباج أمَّا سماؤُه فَرَيَّا وأمَّا أرضُهُ فمُحُولُ[٢]

والسماءُ: ماعلا، والأرض: ما سَفَلَ، على ما تقدَّم[٣].

قولُه تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوفٌ عليه. وقال: «ظُلُماتٌ» بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمةِ الدَّجْن، وهو الغيم، ومن حيث تراكبُ[٤]، وتتزايدُ جُمعت[٥]. وقد مضَى ما فيه من اللغات[٦]، فلا معنى للإعادة، وكذا كلُّ ما تقدَّم، إن شاء الله تعالى.

واختلفَ العلماءُ في الرَّعْد، ففي الترمذي: عن ابن عباس قال: سألَتِ اليهودُ النبيَّ ﷺ عن الرَّعْدِ ما هو؟ قال: «مَلَكٌ من الملائكةِ بيده[٧] مخاريقُ من نارٍ، يسوقُ بها السَّحَابَ حيثُ شاءَ اللهُ». فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسمعُ؟ قال: «زَجْرُهُ بالسَّحَابِ إذا زَجرهُ حتى ينتهيَ إلى حيثُ أُمِرَ[٨]». قالوا: صَدَقْتَ. الحديث بطوله[٩].

---

(١) هو معاوية بن مالك، والبيت في الصحاح واللسان (سما)، وخزانة الأدب ٤/ ١٥٦.

(٢) هو في أدب الكاتب ص١١٨، والصحاح (سما)، وجمهرة الأمثال ١/ ٢١٤، ونسبه ابن منظور في «اللسان» لطفيل الغنوي.

(٣) ص ٣٠٧.

(٤) في (د) تراكم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٦) ص ٣٢٣.

(٧) في (م): معه.

(٨) في (د) و(م): أمره الله.

(٩) سنن الترمذي (٣١١٧)، وفي إسناده بُكير بن شهاب الكوفي، وهو مقبول (كما قال الحافظ في التقريب) يعني حيث يُتابع، وقد تفرَّدَ في هذا الحديث بذكر الرَّعد بأنه ملك، وكأنه أخذه من أخبار بني إسرائيل.

وعلى هذا التفسيرِ أكثرُ العلماء. فالرعدُ: اسمُ الصوتِ المسموعِ، وقاله عليٌّ رضي اللهُ عنه[١]، وهو المعلومُ في لغةِ العرب، وقد قال لَبِيدٌ في جاهليته:

فَجَّعَنِي الرعدُ والصواعقُ بالـ ـفارسِ يومَ الكريهةِ النَّجُدِ[٢]

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: الرعدُ ريحٌ تختنقُ بين السحابِ، فتُصوِّتُ ذلك الصوتَ[٣].

واختلفوا في البرق، فَرُوِيَ عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم: البرقُ مِخْراقُ حديدٍ بيد المَلَك يَسوقُ به السحابَ[٤].

قلت: وهو الظاهرُ من حديثِ الترمذي.

وعن ابن عباس أيضاً: هو سوطٌ من نُورٍ بيدِ الملك يزجُرُ به السحابَ[٥]. وعنه أيضاً: البرقُ مَلَكٌ يتراءى[٦].

وقالت الفلاسفةُ: الرعدُ: صوتُ اصطكاكِ أجرام السَّحابِ، والبرقُ: ما يَنقدِحُ من اصطكاكِها، وهذا مردودٌ لا يصِحُّ به نقلٌ[٧]، والله أعلم.

ويقال: أصلُ الرَّعدِ من الحركة. ومنه الرِّعْدِيدُ للجبان. وارْتَعَدَ: اضطربَ، ومنه الحديث: «فجِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائِصُهما». الحديث. أخرجه أبو داود[٨].

والبرقُ: أصلُه من البرِيق والضوء، ومنه البُرَاقُ: دابَّةٌ رَكِبَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢.

(٢) ديوانه ص١٥٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٦١.

(٤) أخرج خبر علي وابن عباس رضي الله عنهم الطبري في تفسيره ١/ ٣٦٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٦٢-٣٦٣، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، وعندهما: يُزجي، بدل: يزجر.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢.

(٧) وكذلك ما ذكره المصنِّف من آثار عن الرعد والبرق (وأوردها أكثر المفسرين) لم تصحّ، وإن الرعد والبرق من آيات الله التي ندبَ الشارع إلى النظر فيها، وقد ثبتَ علمياً أن الرعد هو الصوت الناتج عن تفريغ الشحنات الكهربائية المختلفة التي يحملها السحاب لدى تصادمها، وأن البرق هو الضوء الناتج عن هذا التفريغ.

(٨) برقم (٥٧٥) من حديث يزيد بن الأسود رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٧٤٧٥).

أُسْرِيَ به، ورَكِبَها الأنبياءُ عليهم السلام قبلَه.

ورَعَدتِ السماءُ من الرعد، وبَرَقتْ من البرق. ورَعَدتِ المرأةُ وبَرَقتْ: تَحسَّنَتْ وتزيّنتْ. ورَعَدَ الرجلُ وبَرَقَ: تَهَدَّدَ وأَوْعَدَ. قال ابنُ أحمر[١]:

يـاجَـلَّ مـا بَـعُـدَتْ عـلـيـكَ بِـلادُنـا ... وطِـلابُـنـا فـابْـرُقْ بـأَرِضـك وارعُـدِ[٢]

وأَرْعَدَ القومُ وأَبْرَقُوا: أصابَهم رعدٌ وبرقٌ. وحكى أبو عُبيدةَ وأبو عمرو: أرعدتِ السماءُ وأبرقَتْ، وأَرْعدَ الرجلُ وأَبْرقَ: إذا تهدَّدَ وأَوْعدَ، وأنكره الأصمعيُّ. واحتجَّ عليه بقول الكُمَيْت[٣]:

أَبْـرِقْ وأَرعِـد يـا يـزيـ ... ـدُ فـمـا وعـيـدُكَ لـي بِـضـائـرْ

فقال: ليس الكُمَيت بحجة[٤].

فائدة: روى ابنُ عباس[٥] قال: كُنَّا مع عمرَ بنِ الخطاب في سَفْرةٍ بين المدينةِ والشام، ومعنا كَعْبُ الأحبار، قال: فأصابتنا ريحٌ، وأصابَنا رعدٌ ومطرٌ شديدٌ وبردٌ، وفَرِقَ الناس. قال: فقال لي كعب: إنه مَنْ قالَ حين يسمعُ الرَّعد: سبحان مَن يُسبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ من خيفته، عُوفي مما يكون في ذلك السحابِ والبردِ والصواعقِ. قال: فقلتها أنا وكعب، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمرَ: يا أمير المؤمنين، كأنا كنا في غير ما كان فيه الناسُ، قال: وما ذاك؟ قال: فحدَّثتُه حديثَ كعب. قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقولَ كما قلتم؟! في رواية: فإذا بَرَدَةٌ قد أصابَتْ أنفَ عمرَ، فأثَّرَتْ به[٦]. وستأتي هذه الروايةُ في سورة الرعد[٧] إن شاء الله.

---

(١) عمرو بن أحمر بن العمرَّد، أبو الخطاب، الباهلي، أدرك الجاهلية والإسلام، الإصابة ٧/ ٢٧٥.

(٢) البيت في إصلاح المنطق ص٢١٦، وأدب الكاتب ص٣٧٤، وشرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري ص٥٢٣، والشطر الثاني عندهم: فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد.
قوله: ياجَلَّ، يعني ما أجلَّ، قاله في اللسان (جلل).

(٣) ابن زيد، الأسدي، الكوفي، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٣٨٨، والبيت في ديوانه ١/ ١٩٠.

(٤) الصحاح (رعد) و(برق).

(٥) في (د): روي عن ابن عباس.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٨٨).

(٧) عند تفسير الآية (١٣) منها.

ذكر الروايتَيْن أبو بكر أحمد بنُ عليّ بن ثابت الخطيب في «روايات[١] الصحابة عن التابعين»[٢] رحمة الله عليهم أجمعين.

وعن ابن عمر أن النبيَّ ﷺ كان إذا سمعَ الرعدَ والصواعقَ قال: «اللهُم لا تقتلْنا بغضبك، ولا تُهلكْنا بعذابك، وعافنا قبلَ ذلك»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ جعلُهم أصابعَهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآنَ فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام، وذلك عندهم كفر والكفرُ موتٌ.

وفي واحد الأصابع خمسُ لغات: إصْبَع: بكسر الهمزة وفتح الباء، وأَصْبِع: بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعاً، وضمِّهما جميعاً، وبكسرِهما جميعاً، وهي مؤنثة[٤]. وكذلك الأذنُ، وتُخفَّف وتُثقَّل وتُصغَّر، فيقال: أُذَيْنَة. ولو سمَّيتَ بها رجلاً ثم صغَّرتَه قلت: أذَيْن، فلم تؤنث؛ لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر. فأما قولهم: «أُذَيْنة» في الاسم العَلم، فإنما سُمِّي به مصغَّراً، والجمع آذان. وتقول: أَذَنْتُه: إذا ضربتَ أُذُنَه. ورجل أُذُنٌ: إذا كان يسمعُ مقال[٥] كلِّ أحد، يستوي فيه الواحد والجمع. وأُذانِيٌّ: عظيمُ الأُذُنَيْن. ونَعْجَةٌ أَذْناء، وكَبْشٌ آذَن. وأَذَّنْتُ النَّعلَ وغيرَها تأذيناً: إذا جعلْتَ لها أُذُناً. وأَذَّنْتُ الصَّبيَّ: عَرَكْتُ أُذُنَه[٦].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي: من أجلِ الصَّواعق. والصَّواعق: جمعُ صاعِقة. قال ابنُ عباس ومجاهد وغيرُهما: إذا اشتدَّ غضبُ الرَّعد ـ الذي هو المَلَك ـ طار النارُ من فيه، وهي الصَّواعق. وكذا قال الخليل؛ قال: هي الواقِعةُ الشَّديدةُ من صوتِ الرَّعدِ، يكون معها أحياناً قطعةُ نارٍ تُحرقُ ما أتَتْ عليه.

---

(١) في (د): رواية.

(٢) ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٢٩٢، وسماه: رواية الصحابة عن تابعي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٧٦٣)، والترمذي (٣٤٥٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٨). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٤.

(٥) في (م): كلام.

(٦) الصحاح (أذن).

وقال أبو زيد: الصَّاعقةُ: نارٌ تسقطُ من السَّماء في رعدٍ شديد. وحكى الخليل عن قوم: السَّاعقة، بالسين. وقال أبو بكر النقَّاش: يُقال: صاعِقة، وصَعِقَة، وصاقِعَة، بمعنًى واحد. وقرأ الحسن: من الصَّواقع، بتقديم القاف[1]. ومنه قولُ أبي النَّجْم:

يَحْكُون بالمَصْقُولَةِ القواطِعِ تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصَّواقِعِ[2]

قال النَّحاس[3]: وهي لغة تميم وبعضِ بني ربيعة.

ويقال: صَعَقَتْهُم السماء: إذا ألْقَتْ عليهم الصَّاعِقةَ. والصَّاعقةُ أيضاً: صيحة العذاب، قال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]. ويقال: صَعِقَ الرجلُ صَعْقَةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِيَ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأصْعَقَهُ غيره. قال ابنُ مُقْبِل:

تَرى النُّعَراتِ الزُّرْقَ تحتَ لَبانِه أُحادَ ومَثْنَى أصْعَقَتْها صَواهِلُه[4]

وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أي: مات[5].

وشبَّه الله تعالى في هذه الآية أحوالَ المنافقين بما في الصَّيِّب من الظُّلمات والرَّعدِ والبرقِ والصواعق. فالظُّلماتُ مَثَلٌ لما يعتقدونَه من الكُفر، والرعدُ والبرقُ مَثَلٌ لما يُخَوَّفون به.

وقيل: مَثَّلَ الله تعالى القرآنَ بالصَّيِّب لِمَا فيه من الإشكال عليهم، والعَمَى هو

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢ بتقديم وتأخير، وأثر ابن عباس ومجاهد وغيرهما أخرجه الطبري ١/ ٣٥٧-٣٦٠، وقول الخليل هو في العين ١/ ١٢٩، وقول أبي زيد في الصحاح (صعق)، وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٢) الزاهر ٢/ ٣١٩، واللسان (صقع)، وأبو النجم: هو الفضل بن قدامة العِجْلي، من الفحول وأحد رجّاز الإسلام المتقدمين من الطبقة الأولى، وعاصر هشام بن عبد الملك. الخزانة ١/ ١٠٣.

(٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٤) ديوانه ص ٢٥٢، وفيه: الخضر، بدل: الزُّرْق، وفرادى، بدل: أُحاد. قوله: النُّعَرات: جمع النُّعَرَة؛ قال في الصحاح (نعر): هو ذباب ضخم أزرق العين أخضر، وله إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وذكر البيت. واللَّبان: الموضع الذي يُشدُّ في صدر الدابة، وصواهل: جمع صاهلة، مصدر على فاعلة، كالصهيل. معجم متن اللغة (صهل).

(٥) الصحاح (صعق).

الظُّلُماتُ، وما فيه من الوعيد والزَّجْرِ هو الرعدُ، وما فيه من النُّور والحُجَج الباهرةِ التي تكادُ أحياناً أن تَبْهرَهم هو البرقُ. والصَّواعقُ مَثَلٌ لما في القرآن من الدُّعاء إلى القتال في العاجل، والوعيد في الآجل.

وقيل: الصواعقُ تكاليفُ الشَّرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرِهما(١).

قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ حَذَرَ وحِذَارَ بمعنًى؛ وقُرئ بهما(٢). قال سيبويه(٣): هو منصوب؛ لأنَّه موقوعٌ له، أي مفعولٌ من أجله، وحقيقتُه أنَّه مصدر؛ وأنشد سيبويه:

وأغْفِرُ عَوْراءَ الكريم ادِّخارَه ... وأُعْرِضُ عن شَتمِ اللئيم تكرُّما(٤)

وقال الفرَّاء(٥): هو منصوبٌ على التَّمييز.

والموتُ: ضدُّ الحياة. وقد مات يموت، ويَماتُ أيضاً، قال الراجز:

بُنَيَّتي(٦) سَيِّدَةَ البَنَاتِ ... عِيشي ولا يُؤْمَنُ أن تَماتي(٧)

فهو ميِّت ومَيْت، وقومٌ مَوْتَى وأموات، وميِّتون ومَيْتون. والمُوات، بالضم: المَوت. والمَوات؛ بالفتح: ما لا رُوح فيه. والمَوات أيضاً: الأرضُ التي لا مالك لها من الآدميِّين، ولا ينتفعُ بها أحد. والمَوَتان؛ بالتحريك: خلافُ الحَيَوان، يقال: اشْتَرِ المَوَتانَ، ولا تشترِ الحيوان، أي: اشْتَرِ الأرَضين والدُّور، ولا تَشْتَرِ الرَّقيقَ والدَّوابَّ. والمُوْتان؛ بالضم: مَوْتٌ يقعُ في الماشية، يقال: وَقَع في المال مُوتان. وأماتَه اللهُ ومَوَّته، شُدِّد للمبالغة. وقال:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، والنكت والعيون ١/ ٨٢.

(٢) قرأ الجمهور: حَذَرَ، وقرأ: حِذَارَ - بكسر الحاء - الضحاكُ بن مزاحم، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، وابن أبي ليلى كما في تفسير الزمخشري ١/ ٢١٨، واللؤلؤي عن أبيه كما في القراءات الشاذة ص ٣.

(٣) الكتاب ١/ ٣٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) البيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص ٨١، وفيه: وأصفح، بدل: وأعرض.

(٥) معاني القرآن ١/ ١٧.

(٦) في (د): بنيّ.

(٧) الرجز دون نسبة في جمهرة اللغة ٣/ ٤٨٥ برواية:

بنيَّ يا سيدة البنات ... عيشي ولا يومى بأن تَماتي

وفي صحاح الجوهري واللسان (موت).

فَعُروةُ ماتَ مَوتاً مُستَريحاً ... فها أنا ذا أُمَوَّتُ كلَّ يومِ[(١)]

وأماتتِ الناقةُ: إذا ماتَ ولدُها، فهي مُمِيت ومُمِيتَة. قال أبو عُبيد: وكذلك المرأة، وجمعُها مَماوِيت. قال ابنُ السِّكيت: أماتَ فلانٌ: إذا ماتَ له ابنٌ أو بَنُونَ. والمُتَماوِتُ من صفةِ النَّاسكِ المُرائي. ومَوْتٌ مائتٌ، كقولك: ليلٌ لائِلٌ، يُؤخَذ من لفظه ما يُؤكَّد به. والمُسْتَمِيتُ للأمر: المُسْتَرسِلُ له، قال رُؤبة:

وزَبَدُ البحرِ له كَتِيتُ ... واللَّيلُ فوقَ الماءِ مُسْتَمِيتُ[(٢)]

الكَتِيتُ: صوت البَكْر، وهو فوق الكَشِيش. يقال: كَتَّ البعيرُ يَكِتُّ، بالكسر: إذا صاح صياحاً ليِّناً. وكتَّ الرجلُ من الغضب، وكَتَّتِ القِدرُ: غَلَت، وكذلك الجرَّة جديدة[(٣)] إذا صُبَّ فيها الماء، ومثله زَبدُ البحر، ويقال: أتانا بجيش ما يُكَتُّ، أي: ما يُحصى عددُه. والكتكتةُ في الضحك: دون القهقهة. قال الجوهري[(٤)]: والمستميتُ أيضاً: المُسْتَقْتِلُ الذي لا يُبالِي في الحرب من المَوْت، وفي الحديث: «أرى القومَ مُسْتَميتِين»[(٥)]، وهم الذين يقاتلون على الموت.

والمُوْتةُ؛ بالضمِّ: جنسٌ من الجُنون والصَّرَعِ يعتري الإنسان، فإذا أفاقَ عاد إليه كمالُ عقلِه، كالنَّائم والسَّكران.

ومُؤْتة[(٦)] بضمِّ الميم وهَمْزِ الواو: اسمُ أرضٍ قُتلَ بها جعفرُ بنُ أبي طالب عليه السلام[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ابتداء وخبر، أي: لا يُفوتُونه. يقال: أحاط

---

(١) البيت في صحاح الجوهري، ولسان العرب (موت).

(٢) الصحاح ولسان العرب (موت).

(٣) في الصحاح (كت) (والكلام منه): الجديد، وفي اللسان: الحديد (بالحاء). وانظر جمهرة اللغة ١/ ٤٢.

(٤) من قوله: الكتيت صوت... إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٥) من كلام عتبة بن ربيعة ينهى المشركين عن القتال يوم بدر، أخرجه أحمد (٩٤٨) ضمن قصة غزوة بدر من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) موضع في الأردن جنوب شرق البحر الميت، وقعت فيه المعركة المشهورة في السنة الثامنة للهجرة.

(٧) الصحاح (موت).

السُّلطانُ بفلانٍ: إذا أخذَه أخْذاً حاصِراً من كلِّ جهة[١]. قال الشاعر[٢]:

أحَطْنا بهم حتَّى إذا ما تَيَقَّنُوا بما قد رَأَوْا مالُوا جميعاً إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

وأصلُه مُحْيِط، نُقِلت حركةُ الياء إلى الحاء، فسكنت، فالله سبحانه مُحيط بجميع مخلوقاته[٣]، أي: هي في قبضته وتحت قهره، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقيل: مُحيطٌ بالكافرين، أي: عالم بهم. دليلُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقيل: مُهْلِكُهم وجامعُهُم. دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: إلّا أن تَهلِكُوا جميعاً. وخصَّ الكافرين بالذِّكر لتقدُّم ذكرهم في الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يُقارب، يقال: كاد يفعلُ كذا: إذا قاربَ ولم يفعل. ويجوزُ في غير القرآن: يكاد أن يفعل، كما قال رُؤْبة:

قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحا[٤]

مشتقٌ من المَصْحِ، وهو الدَّرْسُ. والأجودُ أن تكون بغير «أنْ»، لأنها لمُقاربة الحال، و«أنْ» تَصرفُ الكلامَ إلى الاستقبال، وهذا[٥] مُتنافٍ. قال الله عز وجل:

---

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في (م): المخلوقات.

(٤) هو في الكتاب ٣/ ١٦٠، والمقتضب ٣/ ٧٥، والكامل ص ٢٥٣، والجمل للزجاجي ص ٢٠٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ٦١، وما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز القيرواني (٩٧). وينظر خزانة الأدب ٩/ ٣٤٧.

(٥) في (ز) و (ظ): وهو.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]. ومن كلام العرب: كاد النَّعامُ يطير[١]، وكاد العروسُ يكون أميراً[٢]، لقُرْبِهما من تلك الحال. وكاد فعلُ متصرِّف على فَعَل يَفْعَل. وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال: وما كِدْتُ آيِباً[٣]. ويجري مجرى «كاد»: كَرَبَ، وجَعَلَ، وقارَبَ، وطَفِقَ، في كون خبرِها بغير «أنْ». قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]؛ لأنَّها كلَّها بمعنى الحالِ والمقاربة، والحالُ لا يكونُ معها «أنْ»، فاعلمْ.

قولُه تعالى: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخَطْفُ: الأَخْذُ بسرعة، ومنه سُمِّيَ الطيرُ خُطَّافاً لسُرْعتِهِ. فمَن جعلَ القرآنَ مَثَلاً للتَّخويف فالمعنى: أنَّ خَوْفَهم مما ينزلُ بهم يكادُ يُذهِبُ أبصارَهم. ومن جعلَه مَثَلاً للبيان الذي في القرآن فالمعنى: أنَّهم جاءهم من البيان ما بَهرَهم.

ويَخْطَفُ ويَخْطِف لُغتان، قُرِئَ بهما. وقد خَطِفَه بالكسر يَخْطَفُه خَطْفاً، وهي اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش[٤]: خَطَف يَخْطِف. الجوهري: وهي قليلة رديئةٌ لا تكاد تُعرَف. وقد قرأ بها يونُس في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم﴾[٥].

وقال النحاس[٦]: في «يَخْطَفُ» سبعةُ أوجه: القراءةُ الفصيحة: يَخْطَف. وقرأ

(١) يضرب لقرب الشيء مما يتوقع منه، لظهور بعض أماراته. مجمع الأمثال ٢/ ١٦٢، والمقتضب ٣/ ٧٤، والكامل ص ٢٥٣.

(٢) المقتضب، والكامل، وفي مجمع الأمثال ٢/ ١٥٨: كاد العروس يكون ملكاً، العرب تقول للرجل عروس وللمرأة أيضاً، ويراد ههنا الرجل، أي: كاد يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.

(٣) قطعة من بيت لتأبط شرّاً، وتمامه:

فأبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدْتُ آئباً ... وكم مثلُها فارقتُها وهي تَصْفِرُ

وهو في ديوانه ص ٩١، والخصائص ١/ ٣٩١، وشرح المرزوقي على حماسة أبي تمام ١/ ٨٣، وخزانة الأدب ٨/ ٣٧٤.

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٠٩.

(٥) كذا نسبها إلى يونس: الجوهري في صحاحه (خطف)، وأما الأخفش فقد نسب في معاني القرآن ١/ ٢٠٩ - ٢١٠ إلى يونس: يَخِطِّفُ، بكسر الخاء لاجتماع الساكنين، وانظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ١/ ٦٢.

(٦) إعراب القرآن ١/ ١٩٥ - ١٩٦.

عليُّ بن الحسين ويحيى بنُ وَثّاب: يَخْطِفُ بكسر الطاء[١]، قال سعيد الأخفش[٢]: هي لغة. وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِيُّ[٣] وأبو رجاء العُطاردي[٤]: بفتح الياء وكسر الخاء والطاء[٥]. وُروي عن الحسن أيضاً أنّه قرأ بفتح الخاء[٦]. قال الفراء[٧]: وقرأ بعضُ أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطَّاء. قال الكسائي والأخفش والفرّاء[٨]: يجوز: يِخِطِّفُ، بكسر الياء والخاء والطاء. فهذه ستَّةُ أوجه[٩] موافقة للخط[١٠].

والسابعةُ حكاها عبد الوارث[١١] قال: رأيتُ في مصحف أُبيٍّ بن كعب: يَتَخَطَّفُ[١٢]، وزعم سيبويه والكسائي أنَّ مَن قرأ: يَخِطِّفُ، بكسر الخاء والطاء، فالأصلُ عنده يَخْتَطِفُ، ثمَّ أدغم التَّاء في الطاء؛ فالتقى ساكنان، فكُسِرت الخاء لالتقاء الساكنين. قال سيبويه: ومَن فتح الخاء ألقى حركة التَّاء عليها. وقال الكسائيُّ: ومَن كسر الياء فلأنَّ الألفَ في اختطفَ مكسورة. فأمَّا ما حكاه الفرَّاء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام؛ فلا يُعرَف ولا يجوز، لأنه جمع بين ساكنين. قاله النَّحاس[١٣] وغيرُه.

---

(١) وكذا نسبها إليهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٣، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٦٢، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣، والزمخشري ١/ ٢١٩ إلى الحسن ومجاهد.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢٠٩، وحكاه عنه النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٥.

(٣) ابن العجاج، أبو المجَشِّر البصري، قرأ القرآن على نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن البصري وغيرهم، توفي سنة (١٢٨هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٢١٠.

(٤) عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد الفتح، ولم ير النبي ﷺ، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ٤/ ٢٥٣.

(٥) يعني مع تشديد الطاء، كما في المحرر الوجيز ١/ ١٠٣.

(٦) الكشاف ١/ ٢١٩، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٣.

(٧) معاني القرآن ١/ ١٨، وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس، كما ذكر.

(٨) معاني القرآن للفراء ١/ ١٨، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٢١٠.

(٩) وهي أوجه شاذة، انظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ١/ ٥٩.

(١٠) في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٥ - ١٩٦: موافقة للسواد.

(١١) ابن سعيد، أبو عبيدة العنبري مولاهم، البصري، المقرئ، توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٣٠٠.

(١٢) المحرر الوجيز ١/ ١٠٣، والكشاف ١/ ٢١٩.

(١٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٦.

قلتُ: وقد رويَ[١] عن الحسن أيضاً وأبي رجاء: «يَخْطِفُ». قال ابن مجاهد: وأظنُّه غلطاً، واستدلَّ على ذلك بأنَّ ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] لم يقرأهُ أحدٌ بالفتح[٢].

﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهي حاسَّةُ الرؤية. والمعنى: تكاد حُجَجُ القرآنِ وبراهينُه الساطعةُ تَبْهَرُهم[٣]. ومن جعل البَرْقَ مَثَلاً للتَّخويف؛ فالمعنى: أنَّ خوفَهم مما ينزلُ بهم يكاد يُذهِبُ أبصارَهم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ «كلَّما» منصوبٌ لأنَّه ظرف. وإذا كانت[٤] «كلما» بمعنى «إذا» فهي موصولة[٥]، والعامل فيه: «مَشَوا» وهو جوابُه، ولا يعملُ فيه «أضاء» لأنَّه في صلة «ما». والمفعول في قول المبرِّد محذوف، التقدير عنده: كلَّما أضاء لهم البرقُ الطريقَ. وقيل: يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَل بمعنًى، كَسَكت وأسْكَت، فيكون أضاء وضاء سواءً، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول. قال الفرَّاء[٦]: يُقال: ضاءَ وأضاءَ، وقد تقدَّم[٧].

والمعنى: أنَّهم كلما سمعوا القرآنَ وظَهَرَتْ لهم الحُجَجُ، أَنِسُوا، ومَشَوْا معه، فإذا نزلَ من القرآن ما يَعْمَوْنَ فيه، ويَضِلُّون به، أو يُكَلَّفونه، قاموا، أي: ثبتوا على نفاقهم، عن ابن عباس[٨].

وقيل: المعنى: كلما صَلحت أحوالُهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النِّعم[٩] قالوا: دِين محمد دينٌ مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، وأصابتهم شِدَّة

---

(١) في (م): وروي.

(٢) المحتسب ١/٦٢، وقال ابن عطية ١/١٠٣: ونسب المهدوي هذه القراءة - يَخْطِفُ - إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٠٤.

(٤) في (م): كان.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٦.

(٦) معاني القرآن ١/١٨.

(٧) ص ٣٢٢.

(٨) المحرر الوجيز ١/١٠٤.

(٩) في (م): وتوالت النعم.

سَخطوا، وثبَتوا في نفاقهم، عن ابن مسعود وقتادة[١]. قال النحاس: وهذا قولٌ حسن، ويدلُّ على صِحَّته: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

وقال عُلماء الصوفية[٢]: هذا مَثَلٌ ضرَبه الله تعالى لمَنْ لم تَصِحَّ له أحوالُ الإرادة بدءاً، فارتَقَى من تلك الأحوال بالدَّعاوَى إلى أحوال الأكابر، كأنْ تضيءَ عليه أحوالُ الإرادة لو صحَّحَها بُملازمةِ آدابِها، فلمَّا مزَجَها بالدَّعاوَى، أذهبَ الله عنه تلك الأنوار، وبقي في ظُلُماتِ دَعاوِيه، لا يُبصِرُ طريقَ الخروج منها.

ورُويَ عن ابن عبَّاس أنَّ المرادَ اليهودُ؛ لمَّا نُصِرَ النبيُّ ﷺ ببَدْر، طَمِعُوا وقالوا: هذا والله النبيُّ الذي بَشَّرَنا به موسى لا تُردُّ له راية، فلمَّا نُكِبَ بأُحُد ارتدُّوا وشَكُّوا. وهذا ضعيف. والآيةُ في المنافقين، وهو[٣] أصحُّ عن ابن عباس، والمعنى يتناولُ الجميع.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ «لو» حرفُ تَمَنٍّ، وفيه معنى الجزاءِ، وجوابُه اللام. والمعنى: ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم، فذهبَ منهم عِزُّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلِهم وإخراجِهم من بينهم. وخصَّ السمعَ والبصرَ لتقدُّمِ ذكرِهما في الآية أوَّلاً، أو لأنهما أشرفُ ما في الإنسان. وقرئ: بأسماعِهم، على الجمع، وقد تقدَّم الكلامُ في هذا[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلِّمين: فيما يجوزُ وصفُه تعالى بالقُدرةِ عليه[٥]. وأجمعت الأمَّةُ على تسميةِ الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قديرٌ قادرٌ مقتدِرٌ.

والقديرُ أبلغُ في الوصفِ من القادر. قاله الزَّجَّاجيُّ[٦]. وقال الهرويُّ: والقديرُ

---

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٤، وأخرجه الطبري ١/٣٦٨ و٣٧١.

(٢) بنحوه في لطائف الإشارات ١/٣٦٨ و٣٧١.

(٣) في (م): وهذا.

(٤) ص ٢٩٠، وتقدم تخريج القراءة ثَمَّ.

(٥) المحرر الوجيز ١/١٠٤.

(٦) اشتقاق أسماء الله ص ٤٨.

والقادرُ بمعنًى واحد. يقال: قَدَرْتُ على الشيء أقدِر قَدْراً وقَدَراً ومَقْدِرةً ومَقْدُرةً وقَدَراناً، أي: قُدْرَةً.

والاقتدارُ على الشيء: القُدْرةُ عليه، فالله جلَّ وعزَّ قادِرٌ مقتَدرٌ قديرٌ على كلِّ ممكن يقبلُ الوجودَ والعدَمَ. فيجبُ على كلِّ مُكَلَّفٍ أنْ يعلمَ أنَّ الله تعالى قادِرٌ، له قدرةٌ بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء وَفْقَ[1] عِلْمِه واختيارِه. ويجبُ عليه أيضاً أنْ يعلَم أنَّ للعبد قُدْرةً يكتسبُ بها ما أَقْدَرَه الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنَّه غيرُ مستبدٍّ بقدرته. وإنَّما خَصَّ هنا تعالى صفتَه ـ التي هي القدرةُ ـ بالذِّكر دونَ غيرها لأنه تقدَّم ذِكرُ فِعْلٍ مُضَمَّنُه[2] الوعيدُ والإخافةُ، فكان ذِكرُ القُدرةِ مناسباً لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آيةً على عدد الكوفيِّين: أربعُ آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيَّتُها في المنافقين. وقد تقدَّمت الروايةُ فيها عن ابن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضاً[3].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ قال عَلْقَمة ومجاهد: كلُّ آيةٍ أوَّلُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنَّما نزلَتْ بمكة، وكلُّ آية أوَّلُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنَّما نزلَتْ بالمدينة[4].

قلت: وهذا يردُّه[5] أنَّ هذه السُّورة والنِّساء مدنيَّتان، وفيهما: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأمَّا قولُهما في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فصحيحٌ.

وقال عُروة بنُ الزُّبير: ما كان من حَدٍّ أو فريضةٍ، فإنَّه نزل بالمدينة، وما كان مِنْ

---

(١) في (م): على وفق.

(٢) في (د): تضمن.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ص ٢٩٣.

(٤) أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢ قول علقمة، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٥ قول مجاهد.

(٥) في (د) و(ز): يرد على من يقول.

ذِكْر الأمم والعذابِ، فإنَّه نزل بمكَّةَ[1]. وهذا واضحٌ.

و«يا» في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ حرفُ نداء. «أيُّ» منادى مفردٌ مبنيٌّ على الضَّمِّ؛ لأنَّه مُنادَى في اللَّفظ، و«ها» للتَّنبيه. «النَّاسُ» مرفوعٌ صفةٌ لـ «أيّ» عند جماعةِ النَّحويِّين، ما عدا المازنيَّ، فإنَّه أجازَ النَّصبَ قياساً على جَوازه في: يا هذا الرَّجُلَ[2].

وقيل: ضُمَّتْ «أيُّ» كما ضُمَّ المقصودُ المفردُ، وجاؤوا بـ«ها» عِوضاً عن ياءٍ أخرى، وإنَّما لم يأْتوا بياء؛ لئَلا ينقطِعَ الكلامُ، فجاؤوا بـ «ها» حتى يَبْقَى الكلامُ متَّصلاً. قال سيبويه: كأنَّك كرَّرت «يا» مرَّتين، وصار الاسمُ بينهما، كما قالوا: ها هو ذا[3].

وقيل: لمَّا تَعَذَّرَ عليهم الجمعُ بين حرفي تعريفٍ أَتَوْا في الصُّورة بمنادى مجرَّدٍ عن حرفِ تعريفٍ، وأَجْرَوْا عليه المعرَّف باللَّام المقصودَ بالنِّداء، والتزمُوا رَفْعَه؛ لأنَّه المقصودُ بالنِّداء، فجعلُوا إعرابَه بالحركةِ التي كان يستحقُّها لو باشَرَها النِّداءُ، تنبيهاً على أنَّه المنادى، فاعْلَمْه.

واختُلِفَ مَن المرادُ بالنَّاس هنا على قولين: أحدُهما: الكفَّار الذين لم يعبُدوه، يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾.

الثاني: أنَّه عامٌّ في جميع الناس، فيكون خطابُه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها. وهذا حَسَنٌ.

قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا﴾ أمرٌ بالعبادةِ له، والعبادةُ هنا عبارةٌ عن توحيدِه والتزامِ شرائعِ دينِه.

وأصلُ العبادة: الخضوعُ والتذلُّلُ. يقال: طريقٌ مُعَبَّدة: إذا كانت مَوْطُوءةً بالأقدام.

قال طَرَفة:

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٢٢، وفيه: حجّ، بدل: حد.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٨٢.

(٣) الكتاب ٢/ ١٩٧، وفيه: وصار الاسم بينهما، كما صار «هو» بين «ها» و«ذا» إذا قلت: ها هو ذا.

وَظيفاً وَظيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ[١]

والعبادةُ: الطَّاعة، والتعبُّد: التَّنسُّك، وعبَّدتُ فلاناً: اتَّخذتُه عبداً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ خصَّ تعالى خَلْقَه لهم من بين سائر صفاته، إذ كانت العربُ مُقِرَّةً بأنَّ الله خلقَها، فذكر ذلك حجَّةً عليهم، وتقريعاً لهم. وقيل: ليُذَكِّرهم بذلك نعمتَه عليهم.

وفي أصل الخَلْق وجهان:

أحدُهما: التَّقدير، يقال: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاء: إذا قَدَّرتَه قبل القَطْع. قال الشاعر:

ولأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي[٢]

وقال الحجَّاج: ما خَلَقْتُ إلَّا فَرَيْتُ، ولا وعدتُ إلَّا وَفَيْتُ[٣].

الثاني: الإنشاءُ والاختراع والإبداع. قال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيقال: إذا ثبتَ عندهم خَلْقُهم، ثبتَ عندهم خَلْقُ غيرهم؟ فالجواب: أنَّه إنَّما يجري الكلامُ على التَّنبيه والتَّذكير ليكون أبلغَ في العِظَة، فذكَّرهم مَنْ قبلَهم ليعلموا أنَّ الذي أماتَ مَنْ قبلَهم[٤]، وهو خَلَقَهم، يُميتُهم، وليفكِّروا فيمن مضى قبلَهم كيف كانوا، وعلى أيِّ الأمور مَضَوْا من إهلاكِ مَنْ أُهلِكَ، وليعلموا أنَّهم يُبْتَلَوْن كما ابتُلوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلَّ» متَّصلةٌ بـ «اعبُدُوا» لا بـ «خَلَقَكم»، لأنَّ مَنْ ذَرَأه الله لجهنَّم لم يَخْلُقْه ليتَّقيَ.

---

(١) عجز بيت من معلقته، وصدرُه: تُباري عِتاقاً ناجياتٍ وأتبعَتْ.
وهو في ديوانه ص ٢٢. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق. اللسان (وظف). والمَور: الطريق. اللسان (مور).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ١١٩، والصحاح: (خلق). وتَفْري، أي: تقطع. يعني: إنك إذا قدرت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه.

(٣) الصحاح: (خلق).

(٤) في (ز) و(ظ): قبلكم.

وهذا وما كان مثلُه ممَّا[1] وَرَدَ في كلام الله تعالى من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فيه ثلاث تأويلات[2]:

الأول: أنَّ «لعلَّ» على بابِها من التَّرجِّي والتوقُّعِ، والتَّرجِّي والتوقُّعُ إنَّما هو في حيِّزِ البشر، فكأنَّه قيلَ لهم: افعلُوا ذلك على الرَّجاء منكم والطَّمَعِ أن تَعْقِلُوا، وأن تَذَكَّروا، وأن تَتَّقوا. هذا قولُ سيبويه ورؤساءِ اللِّسان. قال سيبويه[3] في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤]. اذهبا إلى طَمَعِكُما ورجائكما أن يتذكَّر أو يخشى. واختار هذا القولَ أبو المَعالي.

الثاني: أنَّ العربَ استعملتْ «لعلَّ» مجَرَّدةً من الشكِّ بمعنى لامِ «كي». فالمعنى: لِتَعْقِلوا، ولِتذَكَّروا، ولِتتَّقوا، وعلى ذلك يدلُّ قول الشاعر:

وقلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلَّنا ... نَكُفُّ ووَثَّقْتُم لنا كلَّ مَوْثِقِ
فلمَّا كَفَفْنا الحَرْبَ كانت عهودُكُم ... كَلَمْعِ سَرَابٍ في المَلا مُتَألِّقِ[4]

المعنى: كُفُّوا الحروبَ لنكُفَّ، ولو كانت «لعلَّ» هنا شكًّا لم يُوَثِّقُوا لهم كلَّ مَوْثِق. وهذا القول عن قُطْرُبٍ والطَّبريِّ[5].

الثالث: أن تكون «لعلَّ» بمعنى التعرُّض للشيء، كأنَّه قيل: افعلُوا ذلك متعرِّضين لأن تعقِلوا، أو لأن تَذكَّروا، أو لأن تَتَّقُوا.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلَّكم أنْ تجعلُوا بِقَبول ما أمَرَكُم الله به وِقايةً بينَكم وبينَ النار. وهذا من قول العرب: اتَّقاه بحقِّه: إذا

(١) في (م): فيما.
(٢) أمالي ابن الشجري ١/ ٧٦ ـ ٧٧.
(٣) الكتاب ١/ ٣٣١. وقد نقله القرطبي بواسطة ابن الشجري في أماليه ١/ ٧٦.
(٤) البيتان في تفسير الطبري ١/ ٣٨٧، وأمالي ابن الشجري ١/ ٧٧ (والكلام له)، والحماسة البصرية ١/ ٢٥ ـ ٢٦ غير منسوبين.
(٥) تفسير الطبري ١/ ٣٨٧.

استقبَلَه به، فكأنَّه جعلَ دَفْعَه حقَّه إليه وِقايةً له من المُطالبة، ومنه قولُ عليٍّ رضي الله عنه: كنَّا إذا احمرَّ البأْسُ اتَّقَيْنا بالنبيِّ ﷺ[1]. أي: جعلناه وِقايةً لنا من العدوِّ.

وقال عنترة[2]:

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه حتى اتَّقَتْني الخيلُ بابنَيْ حِذْيَم[3]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ معناه هنا: صيَّر؛ لِتَعَدِّيه إلى مفعولين.

ويأتي بمعنى خَلَق، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

ويأتي بمعنى: سَمَّى، ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ١- ٣]، وقولُه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أي: سَمَّوْهم.

ويأتي بمعنى: أخَذَ، كما قال الشاعر:

وقد جَعَلَتْ نفسي تَطِيبُ لِضَغْمَةٍ لِضَغْمِهِماها يَقْرَعُ العَظْمَ نابُها[4]

وقد تأتي زائدة، كما قال الآخر:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٧)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٥).

(٢) ابن عمرو بن شداد العبسي، الشاعر الفارس المشهور، شهد حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان. الشعر والشعراء ١/ ٢٥٠.

(٣) البيت من معلقته، وهو في أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري ٢/ ١٢٣، وانظر المعلّقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ص ١٣٤. ابنا حِذْيَم: قيل: هما هرم وحصين ابنا ضمضم المري، كان عنترة قد قتل أباهما ضمضماً، فكانا يتوعَّدانِه.

(٤) البيت لمُغَلِّس بن لَقِيط الأسدي. قوله: ضغمة، أي: عضَّة، أراد بها الشدة، وقوله: لضغمهماها، أي: لضغمهما إياها، والبيت من شواهد سيبويه ٢/ ٣٦٥، وهو في معجم الشعراء ص ٣٠٨.

وقد جَعَلْتُ أرَى الإثنينِ أربعةً والواحد[1] اثْنَينِ لمَّا هَدَّني الكِبَرُ[2]

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: إنَّها زائدةٌ.

وجَعَلَ واجتَعَلَ بمعنًى واحدٍ. قال الشاعر:

ناطَ أمرَ الضِّعافِ واجْتَعَلَ اللَّيـ ـلَ كَحَبْلِ العادِيَّةِ المَمْدُودِ[3]

﴿فِرَٰشًا﴾ أي: وِطاءً يفترشونَها ويستقرُّون عليها، وما ليس بفراشٍ، كالجبال والأوْعارِ والبحار[4]، فهي من مصالح ما يُفْتَرَشُ منها؛ لأنَّ الجبالَ كالأوتاد، كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧]. والبحارُ تُركَبُ إلى سائر منافعها[5]، كما قال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

الثانية: قال أصحابُ الشافعيِّ: لو حلَفَ رجلٌ ألَّا يبيتَ على فراشٍ، أو لا يَسْتَسْرِجَ بِسِراجٍ، فباتَ على الأرض، وجَلَس في الشمس، لم يحنَثْ، لأنَّ اللفظَ لا يرجعُ إليهما عُرْفاً.

وأمَّا المالكيَّةُ؛ فَبَنَوْهُ على أصلِهم في الأَيْمان أنَّها محمولةٌ على النِّيَّة، أو السَّبَبِ، أو البِساطِ[6] الذي جَرَتْ عليه اليمينُ، فإن عُدِمَ ذلك، فالعُرْفُ[7].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت، ولهذا قال ـ وقولُه الحقُّ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وكلُّ ما علا فأظَلَّ قيل

---

(١) في النسخ الخطية: والأربع، والمثبت من (م) والمصادر الآتية.

(٢) نسبه القالي في أماليه ٢/ ١٦٣ لعبدٍ من عبيد بَجيلة، ونسبه المرزباني كما في الخزانة ٩/ ٣٥٨ لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو عندهما برواية:

فقد جعلت أرى الشخصين أربعةً والواحدَ اثنين مما بورك البصرُ

(٣) البيت لأبي زُبيد حرملة بن المنذر الطائي. وهو من قصيدة طويلة يرثي بها اللجلاجَ ابنَ أخته، وهو في ديوانه ص ٦٠٤ (شعراء إسلاميون)، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٤٢، والاختيارين ص ٥٣٤. قوله: ناط، أي: حمل وكفى، والعاديَّة: البئر القديمة، أي: يسير الليل كله لا ينثني.

(٤) في (ظ): والنجاد.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠٥.

(٦) المقصود بالبساط هنا: السبب المثير لليمين لتعرف منه، قال ابن شاس في عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة ١/ ٥٢٥: وذلك أن القاصد إلى اليمين لابدَّ أن تكون له نيَّةٌ، وإنما يذكرها في بعض الأوقات، وينساها في بعضها، فيكون المحرِّكُ على اليمين ـ وهو البساط ـ دليلاً عليها، لكن قد يظهر مقتضى المحرِّك ظهوراً لا إشكال فيه، وقد يخفى في بعض الحالات، وقد يكون ظهوره وخفاؤه بالإضافة.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٣.

له: سماءٌ، وقد تقدَّم القولُ فيه[١].

والوقفُ على ﴿بِنَآءً﴾ أحسنُ منه على ﴿تَتَّقُونَ﴾، لأنَّ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ نعتٌ للرَّبِّ[٢].

ويقال: بَنَى فلانٌ بيتاً، وبَنَى على أهلِهِ ـ بناءً فيهما ـ أي: زَفَّها، والعامَّةُ تقول: بَنَى بأهله، وهو خطأٌ[٣]، وكان الأصلُ فيه أنَّ الداخلَ بأهله كان يضرِبُ عليها قُبَّةً ليلة دخولِه بها، فقيل لكلِّ داخلٍ بأهله: بانٍ.

وبَنَّى قُصوراً[٤]: شُدِّدَ للكثرة، وابْتَنَى داراً وبَنَى بمعنًى، ومنه بُنْيان الحائط، وأصلُه: وَضْعُ لَبِنَةٍ على أُخرى حتى تَثْبُتَ.

وأصل «الماء»: مَوَه، قُلِبت الواو ألفاً لتحرّكها وتحرُّك ما قبلَها، فقلتَ: ماه، فالتقى حرفان خفيَّان، فأبدلتَ من الهاء همزة، لأنَّها أجلَدُ، وهي بالألف أشبَهُ، فقلت: ماء، الألفُ الأُولى عينُ الفعل، وبعدها الهمزةُ التي هي بدلٌ من الهاء، وبعدَ الهمزة ألفٌ بدلٌ من التَّنوين. قال أبو الحسن[٥]: لا يجوز أن يُكتَبَ إلاَّ بألِفَين عند البصريِّين، وإن شئتَ بثلاثٍ، فإذا جمعُوا أو صغَّروا ردُّوا إلى الأصل، فقالوا: مُوَيْهٌ وأَمْواهٌ ومِياهٌ، مثلُ جِمال وأجْمال[٦].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الثَّمراتُ: جمعُ ثمرة، ويقال: ثَمَر، مثل شَجَر، ويقال: ثُمُر، مثل خُشُب، ويقال: ثُمْر، مثل بُدْن. وثِمار

---

(١) ص ٣٢٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٥٠٢.

(٣) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بنى). وقد تعقّبه غير واحد كما ذكر الزبيدي في تاج العروس، قال ابن الأثير في النهاية: قد جاء في غير موضع من الحديث وغير الحديث، وعاد الجوهري فاستعمله في كتابه! وذكر الزبيدي أنه قد ورد «بنى بأهله» في شعر جِران العَوْد، قال:

بنيتُ بها قبل المِحاقِ بليلةٍ ... فكان مِحاقاً كلُّه ذلك الشهرُ

(٤) في (م): «مقصوراً».

(٥) لعله علي بن سليمان الأخفش الصغير.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٩.

مثل إكام، جمع ثَمَر[١]، وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الأنعام» إن شاء الله[٢]. وثمارُ السِّياط: عُقَدُ أطرافها.

والمعنى في الآية: أخرجنا لكم ألواناً من الثَّمرات، وأنواعاً من النَّبات.

﴿رِزْقًا﴾: طعاماً لكم، وعَلَفاً لدوابِّكم، وقد بيَّنَ هذا قولُه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢]. وقد مضى الكلامُ في الرِّزق مستوفىً، والحمدُ لله[٣].

فإن قيل: كيف أطلَقَ اسمَ الرِّزق على ما يخرُجُ من الثَّمرات قبل التملُّكِ؟

قيل له: لأنَّها مُعَدَّة لأنْ تُملَكَ، ويصحّ بها الانتفاعُ، فهي رزقٌ[٤].

الخامسة: قلتُ: ودلَّتِ هذه الآيةُ على أنَّ الله تعالى أغْنَى الإنسانَ عن كلِّ مخلوق، ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى: «والله لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ على ظهرِه، خيرٌ له من أن يسأل أحداً، أعطاه أو مَنَعَه». أخرجه مسلم[٥]. ويدخُلُ في معنى الاحتطاب جميعُ الأشغال من الصَّنائع وغيرها، فمن أحوَجَ نفسه إلى بشر مثلِه بسببِ الحِرْص والأمل والرَّغبة في زُخْرف الدنيا، فقد أخَذَ بطرفِ مَنْ جَعَلَ لله نِدّاً[٦].

وقال علماء الصُّوفية: أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآية سبيلَ الفقر، وهو أن تجعَلَ الأرضَ وِطاءً، والسماءَ غِطاءً، والماءَ طِيباً، والكلأَ طعاماً، ولا تعبُدَ أحداً في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

(٥) صحيح مسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني من الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك...». وكذلك أخرجه البخاري (١٤٧٠) بنحو ما ذكره المصنف. وهو في المسند (٧٣١٧).

(٦) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أتاحَ[١] لك ما لا بدَّ لك منه، من غير مِنَّةٍ فيه لأحدٍ عليك.

وقال نَوْف البِكَاليُّ[٢]: رأيتُ عليَّ بن أبي طالب خَرَج فنظَرَ إلى النُّجوم، فقال: يا نَوْفُ، أراقِدٌ أنتَ أم رامِقٌ؟ قلتُ: بل رامِقٌ يا أميرَ المؤمنين، قال: طُوبَى للزَّاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة، أولئك قومٌ اتَّخذوا الأرضَ بِساطاً، وتُرابَها فِراشاً، وماءها طِيباً[٣]، والقرآنَ والدعاءَ دِثاراً وشِعاراً، فرفضوا[٤] الدُّنيا على منهاج المسيح عليه السلام. وذكر باقي الخبرِ[٥]، وسيأتي تمامُه في هذه السُّورة عند قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [الآية: ١٨٦] إن شاء الله تعالى.

السادسة: قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ نَهْيٌ.

﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أكْفاءَ وأمثالاً ونُظَراءَ، واحدُها نِدٌّ، وكذلك قرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع: «نِدّاً»[٦]. قال الشاعر:

نَـــحْـــمَـــدُ الله ولا نِـــدَّ لَـــه ... عِـنْـدَه الـخَـيـرُ ومـا شـاءَ فَـعَـلْ[٧]

وقال حَسَّان:

أتَـــهْـــجُـــوهُ ولَـــسْـــتَ لَـــه بِـــنِـــدٍّ ... فَـشَـرُّكُـمـا لِـخَـيـرِكُـمـا الـفِـداءُ[٨]

ويقال: نِدٌّ ونَدِيدٌ على المبالغة. قال لَبيد:

---

(١) في النسخ: أباح، والمثبت من (م)، والكلام بنحوه في لطائف الإشارات ١/ ٦٨.

(٢) ابن فضالة الحميري، وهو ابن امرأة كعب الأحبار، قال ابن حبان في الثقات: كان راوية للأخبار، وذكره البخاري في الأوسط في فصل من مات بين التسعين والمئة. تهذيب التهذيب ٤/ ٢٤٩.

(٣) في (ظ): وماءها طيباً وكلأها طعاماً.

(٤) في حلية الأولياء و(د) وهامش (ظ) و(ز): فرضوا.

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧٩ و ٦/ ٥٣.

(٦) ذكرها الفخر الرازي في تفسيره ٢/ ١١٢.

(٧) قائله لَبِيد بن ربيعة العامري، والبيت في ديوانه ص ١٧٤، وروايته فيه:

أحـــمَـــدُ الله فـــلا نـــدَّ لـــه ... بـيـديـه الـخـيـرُ مـا شـاء فـعـل

(٨) هو في ديوانه ص ٩، وفيه: بكفءٍ، بدل: بندٍّ.

والبيت من قصيدة طويلة قالها حسان في فتح مكة يهجو بها أبا سفيان قبل إسلامه، وكان قد هجا النبي ﷺ.

لـكـيـلا يـكـونَ الـسَّـنْـدَرِيُّ نَـدِيـدَتـي وأجعـلَ أقـوامـاً عُـمـومـاً عَـمـاعِـمَـا[١]

وقال أبو عُبَيدة[٢]: ﴿أَندَادًا﴾: أضداداً.

النحاسُ[٣]: ﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول، و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع الثاني.

الجوهريّ[٤]: والنَّدُّ ـ بفتح النون ـ التَّلُّ المرتفعُ في السماء، والنَّدُّ: من الطِّيب، ليس بعربيٍّ، ونَدَّ البعيرُ يَنِدُّ نَدّاً ونِداداً ونُدُوداً: نَفرَ وذَهَبَ على وجهِه، ومنه قرأ بعضُهم: «يَومَ التَّنادِّ»[٥]. ونَدَّدَ به، أي: شَهَّرَه وسَمَّعَ به.

السابعة: قولُه تعالى[٦]: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، والجملةُ في موضعِ الحال، والخطابُ للكفار[٧] والمنافقين. عن ابن عباس[٨].

فإن قيل: كيف وصَفَهم بالعلم وقد نَعَتَهم بخلافِ ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يريدُ العلمَ الخاصَّ في أنَّ[٩] الله تعالى خَلَقَ الخلقَ، وأنزل الماءَ، وأنبَتَ الرِّزْقَ[١٠]، فيعلمون أنَّه المُنعِمُ عليهم دون الأنداد.

---

(١) ديوانه ص ٢٨٦، وفيه: لكيما. والسَّنْدَرِي شاعر كان مع علقمة بن عُلاثة، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل، فدعي لبيد إلى مهاجاته، فأبى. العماعم: الجماعات المتفرقون. والمعنى: وأجعل أقواماً مجتمعين فِرَقاً. اللسان: (عمم).

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤.

(٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٩.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) بالتشديد، وهي من سورة المؤمن، الآية ٣٢، ونسبت هذه القراءة لابن عباس والضحاك وأبي صالح والكلبي، وهي قراءة شاذة. القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣.

(٦) في النسخ: قوله تعالى وهي السابعة، والمثبت من (م).

(٧) في (م): للكافرين.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٩٣.

(٩) في (م): بأن

(١٠) المحرر الوجيز ١/ ١٠٦.

الثاني: أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون وَحْدانِيَّته بالقوَّةِ والإمكان لو تَدَبَّرتُم ونَظَرْتُم، والله أعلم.

وفي هذا دليلٌ على الأمر باستعمال حُجَج العقول، وإبطالِ التقليد.

وقال ابنُ فُورَك: يَحتَمِلُ أن تتناولَ الآيةُ المؤمنين، فالمعنى: لا تَرتَدُّوا أيُّها المؤمنون وتجعلُوا لله أنداداً بعد عِلْمكم ـ الذي هو نفيُ الجهل ـ بأنَّ الله واحدٌ[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شكٍّ. ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني القرآنَ، والمرادُ: المشركون الذين تُحدُّوا، فإنَّهم لمَّا سمِعُوا القرآنَ قالوا: ما يُشبِهُ هذا كلامَ الله، وإنَّا لَفي شكٍّ منه، فنزلت الآيةُ.

ووجْهُ اتِّصالها بما قبلَها أنَّه سبحانه لمَّا ذَكر في الآية الأُولى الدلالةَ على وحدانيَّته وقُدْرتِهِ، ذكَرَ بعدَها الدلالة على نُبوّة نبيِّه، وأنَّ ما جاء به ليس مُفترًى من عنده.

قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، والعبدُ مأخوذٌ من التعبُّد، وهو التذلُّلُ، فسُمِّيَ المملوكُ ـ من جنس ما يفعَلُه ـ عبداً، لتذلُّله لمولاه[2]. قال طَرَفَة:

إلى أنْ تَحامَتْني العشيرةُ كُلُّها ... وأُفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ[3]

أي: المُذَلَّل.

قال بعضُهم: لمَّا كانتِ العبادةُ أشرَفَ الخِصال، والتسمِّي بها أشرفَ الخُطَط، سَمَّى نبيَّه عَبْداً، وأنشدوا:

يا قومِ قلبي عند زَهْراءِ ... يَعرِفُه السامعُ والرَّائي

لا تَدْعُني إلَّا بِيَا عبدَها ... فإنَّه أشرَفُ أسمائي[4]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) النكت والعيون للماوردي ١/ ٨٤.

(٣) البيت من معلقته، وهو في ديوانه ص ٣١.

(٤) البيتان في نفح الطيب ٢/ ٦٦٥ من غير نسبة لقائله، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول: يا عمرو=

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ الفاءُ جوابُ الشَّرط، اِئتوا مقصورٌ لأنَّه من باب المجيء؛ قاله ابن كَيْسان[١].

وهو أمرٌ معناه التعجيز؛ لأنَّه تعالى عَلِمَ عَجْزَهم عنه. والسورةُ: واحدةُ السُّوَر، وقد تقدَّم الكلام فيها وفي إعجاز القرآن[٢]، فلا معنى للإعادة.

و«مِن» في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ زائدةٌ، كما قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]. والضميرُ في «مثله» عائدٌ على القرآن عند الجمهور من العلماء، كقتادةَ ومجاهدٍ[٣] وغيرِهما.

وقيل: يعودُ على التَّوراة والإنجيل، فالمعنى: فَأْتُوا بسورةٍ من كتابٍ مثلِه، فإنَّها تُصَدِّق ما فيه.

وقيل: يعود على النبيِّ ﷺ، المعنى: من بَشَرٍ أُمِّيٍّ مثلِه، لا يكتُبُ ولا يقرأ[٤]. فـ: «مِنْ» على هذين التأويلين للتَّبعيض.

والوقفُ على «مثله» ليس بتامٍّ؛ لأنَّ «وادْعُوا» نَسَقٌ عليه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ معناه أعوانكم ونُصَرَاءَكم. الفَرَّاءُ[٦]: آلهَتكم.

وقال ابن كَيْسان: فإن قيل: كيف ذَكَرَ الشُّهداءَ ها هنا، وإنَّما يكون الشُّهداء لِيَشْهَدُوا أمراً، أو لِيُخْبِرُوا بأمْرٍ شَهِدُوه، وإنَّما قيلَ لهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ المعنى: استعينوا بمن وجدتُموه من علمائكم، وأَحْضِروهم لِيُشاهِدُوا ما تأتُون به، فيكون الردُّ على الجميع أوكَدَ في الحُجَّة عليهم.

قلتُ: هذا هو معنى قولِ مجاهد؛ قال مجاهد: معنى ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ أي:

= نادِ عبدَ زهراء.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٩.

(٢) ص ١٠٦ و١١٢ ـ ١٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ١/ ٣٩٦ـ٣٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٥٠٣.

(٦) معاني القرآن ١/ ١٩.

ادْعوا ناساً يشَهدونَ لكم[١]، أي: يشهَدون لكم أنَّكم عارَضْتُموه. النحَّاس[٢]: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ نصب بالفعل، جَمْعُ شهيد، يقال: شاهدٌ وشهيدٌ، مثل قادرٌ وقديرٌ.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من غيره، و«دون» نقيضُ «فوقَ»، وهو تقصيرٌ عن الغاية، ويكون ظرفاً. والدُّون: الحقيرُ الخَسيس.

قال:

إذا ما عَلا المرءُ رامَ العلاء ... وَيقْنَعُ بالدُّونِ مَنْ كان دُونا[٣]

ولا يُشتقُّ منه فعلٌ، وبعضُهم يقول منه: دان يَدُون دَوْناً، ويقال: هذا دُونَ ذاك، أي: أقربُ منه، ويقال في الإغراء بالشيء: دُونَكَه. قالت تَميم للحجَّاج: أقْبِرنا صالِحاً ـ وكان قد صَلَبَه ـ فقال: دُونَكُموه[٤].

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما قلتُم من أنَّكم تَقْدِرون على المعارضة، لقولهم في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

والصِّدْقُ: خِلافُ الكذب، وقد صَدَق في الحديث، والصَّدْق: الصُّلب من الرِّماح، ويقال: صَدَقُوهم القتال، والصِّدِّيق: الملازِمُ للصِّدق، ويقال: رجلُ صِدْقٍ، كما يقال: نِعْمَ الرجل، والصَّداقةُ مشتقَّةٌ من الصِّدق في النُّصح والوُدِّ[٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ يعني فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي: تُطِيقُوا ذلك فيما يأتي.

---

(١) أخرجه الطبري ١/٣٩٩.

(٢) إعراب القرآن ١/١٩٩.

(٣) هو في الصحاح واللسان (دون) من غير نسبة.

(٤) الصحاح (دون) وأورد هذا الخبر أيضاً ابن السكيت في إصلاح المنطق ١/ ٢٦٢، وابن الأثير في النهاية، وابن منظور في اللسان (قبر) نقلاً عن أبي عبيدة. ومعنى قولهم: أقبرنا صالحاً، أي: أمكِنَّا من دفنه في القبر. وصالح: هو ابن عبد الرحمن، وينظر ما سيرد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١].

(٥) مجمل اللغة لابن فارس (صدق).

والوقفُ على هذا على: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ تامٌّ، وقال جماعة من المفسِّرين: معنى الآية: وادْعُوا شهداءَكم من دون الله إنْ كنتُم صادقين، ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتَّقوا النار. فعلى هذا التفسيرِ لا يتمُّ الوقفُ على ﴿صَٰدِقِينَ﴾[1].

فإن قيل: كيف دخَلَت «إن» على «لم» ولا يدخُلُ عاملٌ على عامل؟

فالجوابُ أنَّ «إنْ» ها هنا غيرُ عاملةٍ في اللفظ، فدخَلتْ على «لم» كما تدخُلُ على الماضي؛ لأنَّها لا تعمَلُ في «لم» كما لا تعمَلُ في الماضي؛ فمعنى «إن لم تفعلوا»: إن تركتُم الفِعْلَ[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ نصب بـ «لن» ومن العرب مَن يجزمُ بها. ذكره أبو عُبيدة[2]، ومنه بيتُ النابغة:

فلن أُعَرِّضْ أبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ[3]

وفي حديث ابنِ عمر حين ذُهِبَ به إلى النَّار في منامه: فقيل لي: لن تُرَعْ[4]. هذا على تلك اللغةِ.

وفي قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ إثارةٌ لِهمَمِهِم، وتحريكٌ لنفوسهم؛ ليكون عجزُهم بعد ذلك أبدَعَ، وهذا من العيوب التي أخبَرَ بها القرآنُ قبل وُقوعِها[5].

وقال ابن كَيْسان: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾[6] توقيفاً لهم على أنَّه الحقُّ، وأنَّهم ليسوا

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٥٠٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٠.

(٣) هذا عجز بيت من معلقته، وصدره: هذا الثناء فإن تسمع به حسناً. و«لن أعرض» رواية ابن عطية ١/ ١٠٧، ورواية الديوان ص ٣٧: فلم أعرض، ورواية النحاس في شرح القصائد ٢/ ٧٦٥: فما عرضت. قوله: الصفد: العطاء، قال الأصمعي: ولا يكون الصفد ابتداءً، إنما هو بمنزلة المكافأة. وسيورد المصنف البيت عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الحجر، وروايته: فلم.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في المصنف (١٦٤٥)، وأخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٨) بلفظ: لم ترع، وعند البخاري كذلك (٧٠٣٠) بلفظ: لم تراع. قال الحافظ في الفتح ٣/ ٧: ووقع في رواية القابسي: لن ترع، بحذف الألف. قال ابن التين: وهي لغة قليلة. أي: الجزم بلن... وينظر تتمة كلامه.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠٧.

(٦) في النسخ: وإن لم تفعلوا: والمثبت من (م).

صادقين فيما زعموا من أنَّه كذبٌ، وأنَّه مفترًى، وأنَّه سحرٌ، وأنَّه شِعْر، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، وهم يدَّعون العلمَ، ولا يأتون بسورة من مِثْله.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جوابُ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: فاتَّقوا النارَ بتصديقِ النبيِّ ﷺ وطاعةِ الله تعالى. وقد تقدَّم معنى التقوى[1]، فلا معنى لإعادتها. ويقال: إنَّ لغةَ تميم وأسد: «فتَقُوا النار»، وحكى سيبويه[2]: تَقَى يَتْقي، مثل: قَضَى يقضي. «النارَ» مفعولةٌ.

«التي» من نعتها[3]، وفيها ثلاثُ لغات: «التي» و«اللَّتِ» بكسر التاء، و«اللَّتْ» بإسكانها، وهي اسم مُبْهَم للمؤنَّث، وهي معرفةٌ، ولا يجوز نَزْع الألفِ واللامِ منها للتَّنْكير، ولا تتمُّ إلا بصِلَةٍ. وفي تثنيتها ثلاثُ لغات أيضاً: «اللَّتانِ» و«اللَّتا» بحذف النون، و«اللَّتانِّ» بتشديد النون. وفي جمعها خمسُ لغات: «اللَّاتي»، وهي لغةُ القرآن، و«اللَّاتِ» بكسر التاء بلا ياء، و«اللَّواتي»، و«اللَّواتِ» بلا ياء.

وأنشد أبو عُبَيدة[4]:

مِن اللَّواتي والتي واللَّاتي ... زَعَمْنَ أنْ قَدْ كَبِرَتْ لِدَاتي[5]

و«اللَّوا» بإسقاط التاء. هذا ما حكاه الجوهريُّ[6] وزاد ابنُ الشَّجَرِيِّ[7]: «اللَّائي» بالهمز وإثبات الياء، و«اللَّاءِ» بكسر الهمزة وحذف الياء، و«اللَّا» بحذف الهمزة، فإن جمعتَ الجمعَ قلتَ في «اللَّاتي»: «اللَّواتي»، وفي «اللَّاء»: «اللَّوائي». قال الجوهريُّ: وتصغير «التي» «اللَّتَيَّا» بالفتح والتشديد. قال الراجز[8]:

---

(١) ص ٢٤٨.

(٢) الكتاب ٤/ ١١٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٠ - ٢٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

(٥) البيت في مجاز القرآن ١/ ١١٩، الشعر والشعراء ١/ ٨٨، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٤ من غير نسبة.

(٦) الصحاح: (لتي).

(٧) في أماليه ٣/ ٦٠.

(٨) هو العجاج، والشطر الأول من شواهد سيبويه ٢/ ٣٤٧ و٣/ ٤٨٨، والبيت في المقتضب ٢/ ٢٨٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٤.

بعد اللَّتَيَّا واللَّتَيَّا والتي إذا عَلَتْها أنفُسٌ تَرَدَّتِ

وبعضُ الشعراء أدخَلَ على «التي» حرفَ النِّداء، وحروفُ النِّداء لا تدخُلُ على ما فيه الألفُ واللامُ إلَّا في قولنا: يا الله، وحدَه، فكأنَّه شبَّهها به من حيثُ كانت الألفُ واللامُ غيرَ مفارِقَتين لها، وقال:

مِنَ اَجْلِك يا التي تَيَّمْتِ قلبي وأنتِ بخيلةٌ بالوُدِّ عنِّي[1]

ويقال: وقَعَ فلان في اللَّتَيَّا والتي، وهما اسمان من أسماء الدَّاهية.

و«الوَقُود» بالفتح: الحَطَب، وبالضمِّ: التَّوقُّد.

و«الناس» عمومٌ، ومعناه الخصوصُ فيمن سَبَق عليه القضاءُ أنه يكون حطباً لها، أجارَنا الله منها.

و«الحجارة»: هي حجارة الكِبْرِيت الأسودِ؛ عن ابن مسعود والفرَّاء[2]. وخُصَّت بذلك لأنَّها تزيدُ على جميع الأحجار بخمسة أنواعٍ من العذاب: سرعة الاتِّقاد، نَتْنُ الرائحة، كَثْرة الدُّخَان، شدَّة الالتصاق بالأبدان، قوةُ حَرِّها إذا حَمِيَت[3].

وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ دليلٌ على أن ليس فيها غيرُ الناس والحجارة، بدليل ما ذَكَره في غير موضعٍ من كَوْن الجنِّ والشياطين فيها.

وقيل: المرادُ بالحجارة الأصنامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبُ جهنَّم، وعليه فتكون الحجارةُ والناسُ وَقُوداً للنار، وذَكَر ذلك تعظيماً للنار أنَّها تُحرِقُ الحجارةَ مع إحراقها للناس.

وعلى التأويل الأول يكونون معذَّبين بالنار والحجارة.

---

(١) في الصحاح: بالوصل عني، والبيت من شواهد سيبويه ٢/١٩٧، وهو في المقتضب ٤/٢٤١، واللامات للزجاجي ص ٣٤، والإنصاف ١/٣٣٦ ـ والرواية فيه: فَديتُكِ يا التي ـ وشرح المفصل ٢/٨، ولم ينسبوه لقائله.

(٢) معاني القرآن ١/٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٤٠، والطبري ١/٤٠٣ و٤٠٤، والحاكم ٢/٢٦١، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٠٧.

وقد جاء الحديثُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «كلُّ مُؤْذٍ في النار»[١]. وفي تأويله وجهان:

أحدُهما: أنَّ كلَّ مَنْ آذى الناسَ في الدنيا عذَّبه الله في الآخرة بالنار.

الثاني: أنَّ كلَّ ما يُؤذي الناسَ في الدنيا من السِّباع والهَوامِّ وغيرِها في النار مُعَدٌّ لعقوبةِ أهل النار.

وذهَبَ بعضُ أهلِ التأويل أنَّ[٢] هذه النارَ المخصوصةَ بالحجارة هي نارُ الكافرين خاصَّةً. والله أعلم.

روى مسلم[٣] عن العباس بنِ عبدِ المُطَّلب قال: قلت: يا رسولَ الله، إنَّ أبا طالبٍ كان يَحُوطُك وينصُرُك، فهل نفَعَه ذلك؟ قال: «نعم، وَجَدْتُه في غَمَراتٍ من النار، فأخرجتُه إلى ضَحْضاح». في رواية: «ولولا أنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ من النار».

«وَقُودُهَا» مبتدأ، «النَّاسُ» خَبَرُه، «والحجارةُ» عطفٌ عليهم، وقرأ الحَسَن ومجاهدٌ وطَلْحة بنُ مُصَرِّف: «وُقُودها» بضم الواو[٤]، وقرأ عُبَيد بنُ عُمَير: «وَقِيدُها الناسُ»[٥].

قال الكِسائيُّ والأخفش[٦]: الوَقود بفتح الواو: الحَطَب، ، وبالضم: الفعل.

يقال: وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقوداً، بالضم، ووَقْداً، وَقِدَةً، [ووَقَداً]، ووَقَداناً، أي: تَوَقَّدَت، وأَوْقَدتُها أنا، واستوقدتُها أيضاً، والاتِّقاد[٧] مثلُ التَّوقُّد، والموضع مَوْقِد،

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٤٩، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٢٩٩ من حديث علي رضي الله عنه، وفيه عثمان بن الخطاب الأشج المعروف بأبي الدنيا، وهو ضعيف.

(٢) في (م): إلى أن.

(٣) رقم (٢٠٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٦٨)، والبخاري (٣٨٨٣).

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤، والمحتسب لابن جني ١/ ٦٣.

(٥) في (د): وقرأ أبو عبيد بن عمير، ولم نقف على من ذكر هذه القراءة. وأوردها أبو حيان في البحر ١/ ١٠٧.

(٦) معاني القرآن ١/ ٢١٢، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢٠٢.

(٧) في النسخ: والإيقاد، والمثبت من (م).

مثلُ مَجْلِس، والنارُ مُوقَدةٌ. والوَقْدَة: شدَّةُ الحرِّ، وهي عشرةُ أيام، أو نصفُ شهر[١].

قال النحاس[٢]: يجب على هذا ألا يُقرأ إلَّا: «وَقُودها» [بفتح الواو] لأنَّ المعنى: حطبُها، إلَّا أنَّ الأخفشَ قال: وحُكِيَ أنَّ بعضَ العرب يجعَلُ الوَقود والوُقود بمعنى الحَطَب والمصدر.

قال النحاس: وذهبَ إلى أنَّ الأوّل أكثرُ. قال: كما أنَّ الوَضُوء الماءُ، والوُضُوء المصدر.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ظاهرُه أنَّ غيرَ الكافرين لا يدخُلُها، وليس كذلك؛ بدليل ما ذَكَرَه في غيرِ موضعٍ من الوعيد للمُذنبين، وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يأتي[٣].

وفيه دليلٌ على ما يقولُه أهلُ الحقِّ من أنَّ النارَ موجودةٌ مخلوقةٌ، خلافاً للمبتدعة في قولهم: إنَّها لم تُخْلَق حتى الآن، وهو القولُ الذي سَقَطَ فيه القاضي منذر بنُ سعيد البَلُّوطيُّ الأندلسيُّ[٤].

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود[٥] قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ إذ سمعَ وَجْبةً فقال النبيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ ما هذا؟» قلنا[٦]: الله ورسولُه أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّار منذُ سبعينَ خَرِيفاً، فهو يَهْوِي في النار الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِها».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «احْتَجَّتِ النارُ والجنَّةُ،

---

(١) الصحاح (وقد)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٢٠١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٨، ومنذر بن سعيد البلوطي: فقيهٌ محقِّق، وخطيب مفوَّه، قاضي الجماعة بقرطبة، وهو من موضع قريب منها، يقال له فحص البلُّوط، توفي سنة (٣٥٥هـ)، السير ١٦/ ١٧٣.
وقال أبو حيان في البحر المحيط ١/١٠٨: وكان قاضي القضاة بالأندلس، وكان معتزلياً في أكثر الأصول، ظاهرياً في الفروع... وسرى إليه ذلك القول من كثير من المعتزلة.

(٥) رقم (٢٨٤٤)، وهو من حديث أبي هريرة لا من حديث ابن مسعود كما قال المصنف.

(٦) في (م): قال قلنا.

فقالت هذه: يدخُلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعفاءُ والمساكين، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ من أشاء، وقال لهذه: أنتِ رَحْمَتي أرحَمُ بكِ من أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلْؤها». وأخرجه مسلم بمعناه[١].

يقال: احتجَّتْ بمعنى تحتجُّ؛ للحديث المتقدِّم حديثِ ابن مسعود[٢]، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قد أُرِيَهما في صلاة الكُسُوف[٣]، ورآهما أيضاً في إسرائه[٤]، ودَخَلَ الجنةَ[٥]، فلا معنى لما خالَفَ ذلك. وبالله التوفيق.

و﴿أُعِدَّتۡ﴾ يجوز أن يكون حالاً للنَّار على معنى مُعَدَّة، وأُضمِرَتْ معه «قد»، كما قال: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء: ٩٠]، فمعناه: قد حَصِرَتْ صدُورُهم، فمع[٦] «حَصِرَتْ» «قد» مضمَرةٌ، لأنَّ الماضيَ لا يكون حالاً إلَّا مع «قد»، فعلى هذا لا يتمُّ الوقفُ على «الحجارة».

ويجوز أن يكون كلاماً منقطعاً عمَّا قبلَه، كما قال: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال السِّجْستانيُّ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من صلةِ «التي»، كما قال في آل عمران: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ١٣١]. ابنُ الأنبارِيِّ[٧]: وهذا غَلَط، لأنَّ التي في سورة البقرة قد وُصِلَت بقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ فلا يجوز أن تُوصَلَ بصلةٍ ثانية، وفي آل عمران ليس لها صِلةٌ غيرَ «أُعِدَّت».

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦) (٣٤)، غير أن لفظه لمسلم، وهو عند البخاري بمعناه خلافاً لما ذكره المصنف.

(٢) سلف أنه من حديث أبي هريرة.

(٣) سلف ص ٢٨٠.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٨٥)، والترمذي (٣١٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) في النسخ: فمعناه حصرت صدورهم، ومع حصرت قد...، والمثبت من (م).

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥، والكلام الذي قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ جزاءَ الكافرين، ذَكَرَ جزاءَ المؤمنين أيضاً.

والتبشيرُ: الإخبارُ بما يَظْهَرُ أثرهُ على البَشَرة ـ وهي ظاهِرُ الجِلْد ـ لِتغيُّرِها بأوَّلِ خَبَر يَرِدُ عليك، ثم الغالبُ أن يُسْتَعْمَل في السُّرور مُقَيداً بالخبر المُبَشَّر به، وغيرَ مقيَّدٍ أيضاً، ولا يُستعمَلُ في الغَمِّ والشَّرِّ إلَّا مُقَيَّداً منصوصاً على الشرِّ المُبَشَّر به، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [آل عمران: ٢١] ويقال: بَشَّرْتُه وبَشَرْتُه ـ مخفَّف ومشدَّد[2] ـ بِشارةً، بكسر الباء، فأبشَرَ واستبشَرَ، وبَشِرَ يَبْشَر: إذا فَرِح، ووَجْهٌ بشيرٌ إذا كان حَسَناً بَيِّنَ البَشارة، بفتح الباء، والبُشْرَى: ما يُعطاه المُبَشِّر، وتَباشِيرُ الشيء: أَوَّلُه.

الثانية: أجمعَ العلماءُ على أنَّ المكلَّفَ إذا قال: مَنْ بَشَّرني من عَبِيدي بكذا فهو حُرٌّ، فبَشَّرَه واحدٌ من عبيده فأكثرَ، فإنَّ أوّلَهم يكون حرّاً دون الثاني.

واختلفوا إذا قال: مَنْ أخبرني من عَبِيدي بكذا فهو حُرٌّ، فهل يكون[3] الثاني مثلَ الأول؟ فقال أصحابُ الشافعيِّ: نعم، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم مُخْبِرٌ، وقال علماؤنا: لا، لأنَّ المكلَّفَ إنَّما قصَدَ خبراً يكون بِشارةً، وذلك يختصُّ بالأوّل، وهذا معلومٌ عُرْفاً، فوجَبَ صَرْفُ القول[4] إليه[5]، وفرَّقَ محمد بنُ الحَسَن بين قوله: أخبرني، أو حَدَّثني، فقال: إذا قال الرجل: أيُّ غلام لي أخبَرَني بكذا، أو أعلَمَني بكذا وكذا، فهو حُرٌّ ـ ولا نِيَّة له ـ فأخبَرَه غلامٌ له بذلك، بكتابٍ أو كلامٍ أو رسول، فإنَّ الغلامَ

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٨.
(٢) في (د): مخففاً ومشدداً.
(٣) لفظ: يكون، ليس في النسخ.
(٤) في النسخ: الأول.
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/١٥.

يَعْتِقُ؛ لأنَّ هذا خبرٌ، وإن أخبَرَه بعد ذلك غلامٌ له، عَتَق، لأنَّه قال: أيُّ غلامٍ أخبَرَني فهو حُرٌّ، ولو أخبروه كلُّهم عَتَقوا؛ وإن كان عَنَى - حين حلَفَ - بالخبر كلامَ مشافهةٍ، لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلاَّ أن يُخبِرهُ بكلامِ مشافهةً بذلك الخبر، قال: وإذا قال: أيُّ غلامٍ لي حدَّثني، فهذا على المُشافهة، لا يَعتِقُ واحدٌ منهم[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ رَدٌّ على من يقول: إنَّ الإيمانَ بمجرَّدِه يقتضي الطاعات؛ لأنَّه لو كان ذلك ما أعادها[2]، فالجنةُ تُنال بالإيمان والعملِ الصالح، وقيل: الجنةُ تُنال بالإيمان، والدَّرجاتُ تُستَحقُّ بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ «أنَّ» في موضعِ نصبٍ بـ «بَشِّرْ»، والمعنى: وبشِّر الذين آمنوا بأنَّ لهم، أو: لأنَّ لهم، فلمَّا سقَطَ الخافضُ عَمِلَ الفعلُ، وقال الكسائيُّ وجماعةٌ من البصريين: «أنَّ» في موضعِ خفضٍ بإضمار الباء.

﴿جَنَّاتٍ﴾ في موضعِ نصبٍ اسمُ «أنَّ»، و«أنَّ» وما عملت فيه في موضعِ المفعول الثاني.

والجنَّاتُ: البساتين، وإنَّما سُمِّيت جنَّات، لأنَّها تُجِنُّ مَنْ فيها، أي: تستُره بشجرها، ومنه: المِجَنُّ والجَنِينُ والجِنّ[3] والجِنَّة.

﴿تَجْرِي﴾ في موضعِ النَّعتِ لـ«جنَّات»، وهو مرفوعٌ، لأنَّه فِعْلٌ مستقبلٌ، فحُذِفت الضَّمةُ من الياء لِثِقَلها معها[4].

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارِها، ولم يَجْرِ لها ذِكْر، لأنَّ الجنَّاتِ دالَّةٌ عليها.

﴿الْأَنْهَارُ﴾ أي: ماءُ الأنهار، فنُسِبَ الجَرْيُ إلى الأنهار تَوَسُّعاً، وإنَّما يجري الماءُ وحدَه، فُحذف اختصاراً، كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلَها.

---

(١) المحدث الفاصل ص ٥١٩، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٤٣٧.
(٢) المحرر الوجيز ١/١٠٨.
(٣) لفظ: والجن، ليس في (م).
(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠١.

وقال الشاعر:

نُبِّئْتُ أنَّ النارَ بعدَكَ أُوقِدَتْ واسْتَبَّ بعدَكَ يا كُلَيْبُ المجلِسُ[١]

أراد: أهلَ المجلس، فحُذف.

والنَّهر: مأخوذٌ من: أنْهَرْتُ، أي: وسَّعتُ، ومنه قولُ قَيْس بنِ الخَطِيم:

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنْهَرْتُ فَتْقَها يَرى قائمٌ مِنْ دونها ما وراءَها[٢]

أي: وسَّعتُها، يصفُ طَعْنة، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «ما أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلُوه»[٣]. يعني[٤]: ما وَسَّعَ الذبحَ حتى جرى[٥] الدَّمُ كالنهر[٦].

وجمع النَّهر: نُهُرٌ وأنهار، ونَهْرٌ نَهِر: كثيرُ الماء، قال أبو ذُؤيب:

أقامَتْ به فابْتَنَتْ خَيْمَةً على قَصَبٍ وفُراتٍ نَهِرْ[٧]

وَرُوِيَ أنَّ أنهار الجنةِ ليست في أخاديدَ، إنَّما تجري على سطح الجنة منضبطةً بالقدرة حيث شاء أهلُها[٨].

والوقفُ على «الأنهار» حَسَن وليس بتامٍّ، لأنَّ قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ من وصف الجنَّات[٩].

---

(١) قائله مهلهل بن ربيعة، والبيت في الحماسة ٢/ ٩٢٨ (بشرح المرزوقي)، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٨. ومعنى الشطر الثاني: إن أهل المجلس تنازعوا الكلام بعدك، حتى صار بعضهم يسب بعضاً، ولا شيء يردعهم.

(٢) البيت في ديوانه ص ٤٦، والحماسة ١/ ١٨٤ (بشرح المرزوقي) ورواية الديوان: يرى قائماً من خلفها ما وراءها. ورواية الحماسة: يرى قائماً من دونها.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٠٦)، والبخاري (٢٤٨٨)، ومسلم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(٤) في (م): معناه.

(٥) في (م): يجري.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٠٨.

(٧) البيت في ديوان الهذليين ص ١٤٦، وروايته: وفرات النهر. قوله: القصب، يعني مجاري الماء من العيون. الصحاح (قصب).

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١٠٨. وأخرج ابن جرير ١/ ٤٠٦ من طريق أبي عبيدة، عن مسروق، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نزعت ثمرة عادت مكانَها أخرى، وماؤها يجري في غير أخدود. وانظر صفة الجنة لأبي نعيم ٢/ ١٦٧ - ١٦٩

(٩) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠٦.

﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وقد تقدَّم القولُ في الرزق[١].

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: يعني: في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّهم قالوا: هذا الذي وُعِدْنا به في الدنيا. والثاني: هذا الذي رُزِقْنا في الدنيا، لأنَّ لونَها يُشبِهُ لونَ ثمار الدنيا، فإذا أكلُوا وجدوا طعمَه غيرَ ذلك.

وقيل: «مِن قبلُ» يعني في الجنة، لأنَّهم يُرزَقون ثم يُرزَقون، فإذا أُتُوا بطعام وثمار في أوَّل النهار فأكلُوا منها، ثم أُتُوا منها في آخر النهار، قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قَبْلُ، يعني: أُطْعِمْنَا في أوَّل النهار؛ لأنَّ لونَه يُشبِهُ ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غيرَ طعمِ الأول[٢].

﴿وَأُتُوا۟﴾ فُعِلُوا، من: أتيتُ، وقراءةُ[٣] الجماعةِ بضمِّ الهمزة والتاء، وقرأ هارون الأعور: «وأَتَوا» بفتح الهمزة والتاء[٤]، فالضميرُ في القراءة الأُولى لأهل الجنة، وفي الثانية للخُدَّام.

﴿بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ حالٌ من الضمير في «به»، أي: يُشبِهُ بعضُه بعضاً في المنظر[٥]، ويختلفُ في الطَّعم. قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ والحَسَن وغيرهم. وقال عِكْرمة: يُشبِهُ ثَمَرَ الدنيا، ويُبايِنُه في جُلِّ[٦] الصفات. ابنُ عباس: هذا على وجه التعجُّب، وليس في الدنيا شيءٌ ممَّا في الجنة سوى الأسماء، فكأنَّهم تعجَّبوا لِمَا رأَوه من حُسْن الثمرة وعِظَم خَلْقها. وقال قتادة: خِياراً لا رَذْل فيه، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه، لأنَّ فيها خِياراً غيرَ خِيار[٧].

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ ابتداءٌ وخبر. وأزواج: جمع زَوْج، والمرأة: زَوْج الرجل،

(١) ص ٢٧٣.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٠٨-٤٠٩، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٩.

(٣) في (م): وقرأه.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٣، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٩.

(٥) في النسخ: النظر، والمثبت من (م).

(٦) في (د) يشبه ثمار الدنيا في كل الصفات.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ١٠٩، وتخريج هذه الآثار عند الطبري ١/ ٤١٣-٤١٦.

والرجل زَوْج المرأة. قال الأصمعيُّ: ولا تكادُ العربُ تقول: زوجة، وحكى الفَرَّاء[١] أنَّه يقال: زوجة، وأنشد الفرزدق:

وإنَّ الذي يسعى لِيُفسِد زَوْجتي ... كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُها[٢]

وقال عمَّار بنُ ياسر في شأن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها: والله إنّي لأعلَمُ أنَّها زوجتُه في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله ابتلاكم. ذكره البخاريُّ[٣]، واختاره الكسائيُّ.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزوج، ومُطَهَّرةٌ في اللغة أجمعُ من طاهرة وأبلغُ، ومعنى هذه: الطهارةُ من الحَيْض والبُصاق وسائل أقذار الآدِميَّات[٤].

ذكر عبد الرزاق[٥] قال: أخبرني الثَّوريُّ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: «مطهَّرة» قال: لا يَبُلْنَ، ولا يَتَغوَّطْنَ، ولا يَلِدْنَ، ولا يَحِضْنَ، ولا يُمْنِينَ، ولا يَبْزُقْنَ[٦]. وقد أتينا على هذا كلِّه في وَصْفِ أهلِ الجنة وصِفةِ الجنة ونعيمِها من كتاب «التذكرة»[٧]، والحمد لله.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ «هم» مبتدأٌ. «خالدون» خبره، والظرف مُلْغىً، ويجوز في غير القرآن نصبُ خالدين على الحال[٨].

والخلود: البقاء، ومنه جنَّة الخُلْد، وقد تُستعمَلُ مجازاً فيما يطولُ، ومنه قولهم في الدعاء: خَلَّد الله مُلْكَه، أي: طَوَّله. قال زُهير:

ألَا لا أرى على الحوادث باقياً ... ولا خالداً إلَّا الجبالَ الرَّواسيا[٩]

---

(١) في المذكر والمؤنث ص ٢٦.

(٢) البيت في ديوانه ٢/ ٦٠٥، وفي الأضداد لابن الأنباري ص ٣٧٤، والصحاح: (بول)، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٩. ورواية ابن الأنباري: وإن الذي يمشي يحرش زوجتي كماشٍ... وقوله: يستبيلها، أي: يأخذ بولها في يده.

(٣) رقم (٣٧٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١٠٩.

(٥) في تفسيره ١/ ٤١.

(٦) في (د): ينزفن، وفي (م): يصقن، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو موافق لتفسير عبد الرزاق.

(٧) ص ٤٣٨ وما بعدها.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٢.

(٩) ديوانه ص ٢٨٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: لمَّا ضرب الله سبحانه هذَين المَثَلَيْن للمنافقين، يعني: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يَضْرِبَ الأمثال، فأنزلَ الله هذه الآية[١].

وفي رواية عطاءٍ عن ابن عباسٍ، قال: لمَّا ذكر الله آلهةَ المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وذكر كيدَ الآلهة، فجعلَه كبيت العنكبوت، قالوا: أرأيتَ حيث ذَكَرَ الله الذُّبابَ والعنكبوتَ فيما أنزل من القرآن على محمد، أيُّ شيء يصنعُ؟ فأنزل الله الآية.

وقال الحسن وقتادةُ: لمَّا ذكر الله الذُّبابَ والعنكبوتَ في كتابه، وضَرَبَ للمشركين به المَثَل، ضَحِكتِ اليهود، وقالوا: ما يُشبِهُ هذا كلامَ الله، فأنزل الله الآيةَ[٢].

و﴿يَسْتَحْىِۦٓ﴾ أصلُه: يَسْتَحْيِيُ، عينُه ولامُه حرفا علَّة، أُعِلَّت اللامُ منه بأن استُثقلت الضَّمةُ على الياء فسكنت، واسم الفاعل على هذا: مُسْتَحْيٍ، والجمع: مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين. وقرأ ابن مُحَيْصن: «يَسْتَحِي» بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة[٣]، ورُوِيَ عن ابن كثير، وهي لغة تميم، وبكرِ بنِ وائلٍ، نُقِلتْ فيها حركةُ الياء الأُولى إلى الحاء، فسكنت، ثم استُثقِلَت الضمةُ على الثانية فسكنت، فحُذفت إحداهما للالتقاء، واسمُ الفاعل مُسْتَحٍ، والجمع: مُسْتَحُون ومُسْتَحِين. قاله الجوهريُّ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٢٣.

(٢) الأخبار الثلاثة في أسباب النزول للواحدي عند هذه الآية. وأخرج قول قتادة أيضاً الطبري في تفسيره ١/ ٤٢٤.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤.

(٤) صحاح الجوهري (حيا)، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١٠.

واختلف المتأولون في معنى «يستحيي» في هذه الآية، فقيل: لا يخشى، ورَجَّحَه الطبريُّ[١]، وفي التنزيل: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، بمعنى تستحي. وقال غيره: لا يَترك، وقيل: لا يمتنع.

وأصلُ الاستحياء: الانقباضُ عن الشيءِ، والامتناعُ منه، خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محالٌ على الله تعالى.

وفي «صحيح» مسلم[٢]: عن أمِّ سَلَمة رضي الله عنها قالت: جاءت أمُّ سُلَيم[٣] إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لاَ يَسْتَحِيِي من الحقِّ. المعنى: لا يأمُرُ بالحياء فيه، ولا يمتنعُ من ذِكْره.

قوله تعالى: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ «يضرب» معناه: يُبيِّن، و«أنْ» مع الفعل في موضع نصبٍ بتقدير حذف «من». «مثلاً» منصوبٌ بـ: «يضرب».

«بَعُوضةً»: في نصبها أربعةُ أوجه:

الأوّل: تكون «ما» زائدةً، و«بعوضةً» بدلاً من «مَثَلاً».

الثاني: تكون «ما» نكرةً في موضع نصبٍ على البدل من قوله: «مَثَلاً»، و«بعوضةً» نعتٌ لـ «ما»، فوُصِفَت «ما» بالجنس المنكَّر لإبهامها، لأنَّها بمعنى قليل. قاله الفرَّاء والزَّجَّاج وثعلب[٤].

الثالث: نُصِبت على تقدير إسقاط الجارِّ، المعنى: أن يضرِبَ مثلاً ما بين بعوضةٍ، فحُذِفت «بين» وأُعربت «بعوضة» بإعرابها. والفاء بمعنى «إلى»، أي: إلى ما

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٢٧. وليس فيما قاله الطبري ما يدل على أنه رجح هذا المعنى، ويظهر أن القرطبي قد تابع ابن عطية في هذا.

(٢) رقم (٣١٣)، وأخرجه البخاري (٣٣٢٨).

(٣) الغميصاء بنت ملحان الأنصارية الخزرجية، أم أنس بن مالك، مات زوجها مالك بن النضر مشركاً، ثم تزوجها أبو طلحة، وشهدت حنيناً وأحداً، وماتت في خلافة عثمان. السير ٢/ ٣٠٤.

(٤) حكاه عنهم المهدوي، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١١. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١٠٤.

فوقَها. وهذا قولُ الكِسائيّ والفَرَّاء[(١)] أيضاً، وأنشدَ أبو العباس[(٢)]:

يـا أحسـنَ النـاسِ مـا قَرْنـاً إلى قَـدَمٍ ولا حِبـالَ مُحِـبٍّ وَاصـلٍ تَـصِـلُ

أراد: ما بين قَرْنٍ، فلمَّا أسقط «بين» نَصَبَ.

الرابع: أن يكون «يضرب» بمعنى يجعَلُ، فتكون «بعوضةً» المفعولَ الثاني.

وقرأ الضحَّاك وإبراهيم بنُ أبي عَبْلة ورُؤْبة بنُ العَجَّاج: «بعوضةٌ» بالرفع[(٣)]، وهي لغةُ تميم.

قال أبو الفتح[(٤)]: ووجهُ ذلك أنَّ «ما» اسمٌ بمنزلة «الذي»، و«بعوضةٌ» رفع على إضمار المبتدأ، التقدير: لا يستحيي أن يضربَ الذي هو بعوضةٌ مثلاً، فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ. ومثلُه قراءةُ بعضهم: «تماماً على الذي أحسنُ»[(٥)] أي: على الذي هو أحسنُ.

وحكى سيبويه[(٦)]: ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئاً، أي: هو قائلٌ.

قال النحاس[(٧)]: والحذف في «ما» أقبحُ منه في «الذي»، لأن «الذي» إنَّما له وَجْهٌ واحدٌ، والاسمُ معه أطولُ.

ويقال: إنَّ معنى ضربتُ له مَثَلاً: مَثَّلتُ له مَثَلاً، وهذه الأبنيةُ على ضَرْبٍ واحد، وعلى مثال واحد، ونوع واحد، والضَّرْبُ: النَّوْع.

---

(١) معاني القرآن ١/ ٢٢، وقد نقل المصنف الأوجه الثلاثة عن النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢٠٣.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: وأنكر أبو العباس هذا الوجه (يعني نصب بعوضة على تقدير إسقاط الجار).
والبيت في الأضداد ص ٢٥١، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣٥٤، وفيه: وأنشد الفراء. ونقله أبو حيان في البحر ١/ ١٢٢ عن الفراء، عن أعرابي من بني سليم.

(٣) ذكرها ابن عطية ١/ ١١١، واقتصر ابن خالويه ص٤، وابن جني ١/ ٦٤ على نسبتها لرؤبة.

(٤) المحتسب ١/ ٦٤.

(٥) يعني بالضم، وهي قراءة ابن يعمر فيما ذكر ابن جني في المحتسب ١/ ٢٣٤. وقراءة العشرة: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] بالفتح، وانظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤١.

(٦) الكتاب ٢/ ١٠٨، وقد حكاه عن الخليل.

(٧) إعراب القرآن ١/ ٢٠٣ و٢٠٤.

والبَعُوضة: فَعُولَة، من: بَعَضَ: إذا قطَعَ اللحمَ، يقال: بَضَعَ وبَعَضَ، بمعنًى، وقد بَعَّضتُه تبعيضاً، أي: جَزَّأتُه فتبعَّضَ، والبَعُوض: البَقُّ، الواحدة بعوضةٌ، سُمِّيت بذلك لصِغَرها. قاله الجوهريُّ وغيره[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قد تقدَّم أنَّ الفاء بمعنى «إلى»، ومَنْ جعلَ «ما» الأُولى صلةً زائدةً فـ «ما» الثانية عطفٌ على «بعوضة»، ومن جعلها اسماً، فـ «ما» الثانية[٢] عطفٌ عليها، وقال الكسائي وأبو عُبَيدة[٣] وغيرهما: معنى «فما فوقَها» ـ والله أعلم ـ: ما دونَها، أي: إنّها فوقَها في الصِّغر، قال الكسائي: وهذا كقولك في الكلام: أتراه قصيراً؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك، أي: هو أقصرُ ممَّا ترى، وقال قتادة وابن جُريج[٤]: المعنى: في الكِبَر.

والضمير في «أنَّه» عائدٌ على المَثَل، أي: إن المثل حقٌّ.

والحقُّ خلافُ الباطل، والحقُّ: واحدُ الحقُوق، والحَقَّة ـ بفتح الحاء ـ أخَصُّ منه، يقال: هذه حَقَّتي، أي: حَقِّي[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لغةُ بني تميم وبني عامرٍ في «أمَّا»: أيْمَا، يُبْدِلُون من إحدى الميمينِ ياءً كراهيةَ التضعيف، وعلى هذا يُنْشَدُ بيتُ عمرَ بنِ أبي ربيعة:

رَأَتْ رجلاً أيْمَا إذا الشمسُ عارَضَتْ فيَضْحَى وأيْما بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ[٦]

---

(١) الصحاح: (بعض)، وانظر المحرر الوجيز ١/ ١١١.

(٢) من قوله: عطف على بعوضة، سقط من (د) و(م)، وينظر المحرر الوجيز ١/ ١١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥.

(٤) ذكره ابن عطية ١/ ١١١، وأخرج الطبري ١/ ٤٢٦ من طريق معمر، عن قتادة، قال: البعوضة أضعف ما خلق الله. وعزا نحوه لابن جريج.

(٥) الصحاح: (حقق).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٤، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٦٤، وروايته فيه: «أما» بدل: «أيما» في الموضعين. قال البغدادي في خزانة الأدب ١١/ ٣٦٧: أورده أبو العباس المبرد في الكامل في ثلاثة مواضع، فرواه في أول الثلث الثالث بالإبدال في الأول فقط [٣/ ١١٥٣ ووقع في مطبوعه «أما» في الموضعين] ورواه في الثلث الأول [١/ ٣٨٤] على الأصل في الموضعين بلا إبدال، ورواه في أوائله [١/ ٩٨] بالإبدال في الموضعين. =

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًاۘ﴾ اختلفَ النَّحويُّون في «ماذا»، فقيل: هي بمنزلة اسمٍ واحد بمعنى: أيُّ شيءٍ أرادَ الله؟ فيكون في موضع نصبٍ بـ «أراد».

قال ابن كَيْسان: وهو الجيِّد. وقيل: «ما» اسمٌ تامٌّ في موضع رفعٍ بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبرُ الابتداء، ويكون التقدير: ما الذي أراده الله بهذا مثلاً. ومعنى كلامهم هذا الإنكارُ بلفظ الاستفهام. و«مثلاً» منصوبٌ على القطع، التقدير: أراد مثلاً. قاله ثعلب، وقال ابنُ كَيْسان: هو منصوب على التمييز الذي وقعَ موقعَ الحال[1].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ قيل: هو من قول[2] الكافرين، أي: ما مرادُ الله بهذا المَثَل الذي يُفرِّق به الناسَ إلى ضلالة وإلى هُدى؟ وقيل: بل هو خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ، وهو أشبَهُ؛ لأنَّهم يُقِرُّون بالهُدى أنَّه من عنده، فالمعنى: قل: يُضِلُّ اللهُ به كثيراً، ويهدي به كثيراً، أي: يوفِّق ويَخْذِل، وعليه فيكون فيه رَدٌّ على مَنْ تقدَّم ذِكْرُهم من المعتزلة وغيرهم[3] في قولهم: إنَّ الله لا يخلُقُ الضَّلال ولا الهُدى؛ قالوا: ومعنى ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾: التسميةُ هنا، أي: يُسَمِّيه ضالًّا[4]، كما يقال: فَسَّقْتُ فلاناً، يعني: سَمَّيْتُه فاسقاً، لأنَّ الله تعالى لا يُضِلُّ أحداً. هذا طريقُهم في الإضلال، وهو خلافُ أقاويلِ المفسِّرين، وهو غيرُ محتَمَلٍ في اللغة؛ لأنَّه يقال: ضَلَّلَه إذا سمَّاه ضالًّا، ولا يقال: أَضَلَّه إذا سمَّاه ضالًّا، ولكنَّ معناه ما ذكرهُ المفسرون أهلُ التأويل من الحقِّ[5]: أنَّه يَخْذُلُ به كثيراً من الناس مجازاةً لكفرهم.

= وقال أيضاً في شرحه للبيت: ومعارضة الشمس: ارتفاعها حتى تصير في حيال الرأس، قال صاحب الصحاح: وضَحِيتُ بالكسر ضَحىً: عرقت اهـ. وقوله: فيخصر (كما في المعجم الوسيط) أي: يؤلمه البرد في أطرافه.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٤.

(٢) في (د): كلام.

(٣) ص ٢٨٥.

(٤) في (ز) و(ظ): التسمية أي: سميته ضلالاً.

(٥) قوله: من الحق، ليس في «ظ»، ولا في تفسير أبي الليث والكلام منه ١/ ١٠٥.

ولا خلافَ أنَّ قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أنَّه من قول الله تعالى.

و«الفاسقين» نُصب بوقوع الفعل عليهم، والتقدير: وما يُضلُّ به أحداً إلَّا الفاسقين الذين سَبَقَ في علمه أنَّه لا يهديهم.

ولا يجوز أن تَنصِبَهم على الاستثناء؛ لأنَّ الاستثناءَ لا يكون إلَّا بعد تمام الكلام[١].

وقال نَوْف البِكاليُّ: قال عُزَيْرٌ فيما يُناجي ربَّه عزَّ وجلَّ: إلهي، تخلُق خلقاً، فتُضِلُّ من تشاءُ وتهدي من تشاء. قال: فقيل: يا عُزَيْر، أعْرِضْ عن هذا، لَتُعْرِضَنَّ عن هذا أو لأَمْحُونَّك[٢] من النبوة، إني لا أُسْألُ عمَّا أفعلُ وهم يُسألون[٣].

والضَّلال أصلُه: الهلاك، يقال منه: ضَلَّ الماءُ في اللبن: إذا استُهلك، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] وقد تقدَّم في الفاتحة[٤].

والفِسْق أصلُه في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء، يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبَة: إذا خرجت عن قِشرها، والفأرةُ من جُحْرِها.

والفُوَيْسقَة: الفأرة، وفي الحديث: «خمسٌ فواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَم: الحيَّةُ، والغُرابُ الأبْقَعُ، والفأرةُ، والكلبُ العَقُور، والحُدَيَّا». روته عائشة عن النبيِّ ﷺ، أخرجه مسلم. وفي رواية: «العقرب» مكان «الحية»[٥]. فأطلَقَ ﷺ عليها اسمَ الفِسْق لأذِيَّتها، على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٥.

(٢) في (د): أعرض عن هذا وإلا محوتُك.

(٣) هذا الخبر من الإسرائيليات. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٣٤٣)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٥٠. ونوف البكالي - راوي الخبر - هو ابن امرأة كعب الأحبار، ولم يذكره أحدٌ بجرح ولا تعديل، وذكره ابن حبان في «الثقات» ٥/ ٤٨٣ وقال: يروي القصص، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: مستور.

(٤) ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٥) صحيح مسلم (١١٩٨) (٦٧)، وأخرجه البخاري أيضاً (٣٣١٤). ورواية: «العقرب» عند مسلم (١١٩٨) (٦٨)، وعند البخاري كذلك (١٨٢٩).

(٦) ص ٤٧٣ - ٤٧٤، وكذلك عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥].

وفَسَقَ الرجلُ يَفْسُقُ ـ ويَفْسِقُ أيضاً عن الأخفش ـ فَسْقاً وفُسوقاً، أي: فَجَر. فأمَّا قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] فمعناه: خرج. وزعم ابنُ الأعرابيِّ أنَّه لم يُسْمَعْ قطُّ في كلام الجاهلية ولا في شعرهم: فاسق. قال: وهذا عجبٌ، وهو كلام عربيٌّ. حكاه عنه ابن فارس والجوهريُّ[1].

قلت: قد ذكر أبو بكر بنُ الأنباريِّ في كتاب «الزاهر» له لمَّا تكلَّم على معنى الفِسْق قولَ الشاعر[2]:

يهوين[3] في نَجْدٍ وغَوْراً غائِرا فَواسِقاً عن قَصْدِهم[4] جَوائرا

والفِسِّيق: الدائمُ الفِسْقِ، ويقال في النداء: يا فُسَقُ، ويا خُبَثُ، يريد: يا أيُّها الفاسقُ، ويا أيُّها الخبيثُ.

والفِسْقُ في عُرْفِ الاستعمالِ الشرعيِّ: الخروجُ من طاعة اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد يَقعُ على مَنْ خَرَجَ بكُفْرٍ، وعلى مَنْ خَرَجَ بعصيان[5].

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ «الذين» في موضع نصبٍ على النَّعت للفاسقين، وإن شئتَ جعلتَه في موضع رفعٍ على أنَّه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هم الذين. وقد تقدَّم[6].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿يَنقُضُونَ﴾ النَّقْض: إفسادُ ما أبرمتَه من بناءٍ أو حَبْلٍ أو عَهْد.

---

(١) مجمل اللغة ٣/ ٧٢٠، والصحاح: (فسق).

(٢) الزاهر ١/ ١٢٠. ونسب البيت المذكور إلى رؤبة، ونسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٩٤ إلى العجّاج.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): تهوين، وفي (م): يذهَبْن، والمثبت من الزاهر.

(٤) في (م): قصدها، وفي الزاهر: قصده.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١١٢.

(٦) ص ٢٥١.

والنُّقاضة: ما نُقِضَ من حَبلِ الشَّعر، والمُناقضةُ في القول: أن يتكلَّم بما يناقض[١] معناه. والنَّقِيضةُ في الشِّعر: ما يُنْقَض به، والنِّقْض: المنقوض[٢].

واختلف الناسُ في تعيين هذا العهد:

فقيل: هو الذي أخذَه الله على بني آدمَ حين استخرجَهم من ظهره.

وقيل: هو وصيةُ الله تعالى إلى خلقِه، وأمْرُه إيَّاهم بما أمرَهم به من طاعته، ونَهْيُه إيَّاهم عمَّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنةِ رسُلِه، ونَقْضُهم ذلك: تركُ العملِ به.

وقيل: بل نَصْبُ الأدلةِ على وحدانيَّته بالسماوات والأرض وسائِر الصَّنْعة هو بمنزلة العَهْد، ونَقْضُهم: تركُ النظرِ في ذلك.

وقيل: هو ما عَهِدَهُ إلى مَنْ أُوتِيَ الكتابَ أنْ يُبيِّنوا نبوَّةَ محمد ﷺ ولا يكتموا أمرَه، فالآيةُ على هذا في أهل الكتاب[٣].

قال أبو إسحاق الزَّجَّاج[٤]: عَهْدُه جَلَّ وعَزَّ: ما أخَذَه على النَّبيين ومن اتَّبعهم ألَّا يكفُروا بالنبي[٥] ﷺ، ودليلُ ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي.

قلت[٦]: وظاهر ما قبل وما بعد يدلُّ على أنَّها في الكفار. فهذه خمسةُ أقوال، والقول الثاني يجمعها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الميثاق: العهدُ المؤكَّد باليمين، مِفْعال، من الوَثاقة والمعاهدة[٧]: وهي الشِّدَّة في العَقْد والرَّبْط ونحوه، والجمعُ: المواثيق،

---

(١) في (م): أن تتكلم بما تناقض.
(٢) الصحاح: (نقض).
(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٣، والنكت والعيون ١/ ٨٩.
(٤) معاني القرآن ١/ ١٠٥.
(٥) في معاني القرآن: بأمر النبيِّ.
(٦) في (ز): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.
(٧) في (ظ): «المعاقدة».

على الأصل ـ لأنَّ أصلَ مِيثاق: مِوْثاق، صارت الواو ياءً لانكسار ما قبلها ـ والمياثِقُ والمياثيقُ أيضاً. وأنشد ابنُ الأعرابيِّ:

حِمًى لا يُحَلُّ الدَّهرَ إلَّا بإذْننا ولا نَسْألُ الأقوامَ عَهْدَ المَياثِقِ[1]

والمَوْثِق: المِيثاق، والمُواثقة: المعاهدة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾[2] [المائدة: ٧].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القَطْعُ معروفٌ، والمصدر ـ في الرَّحِم ـ القطيعة، يقال: قطعَ رَحِمَهُ قطيعةً، فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة، مثال هُمَزَة. وقطعتُ الحَبْلَ قَطْعاً، وقطعتُ النهر قُطُوعاً، وقَطَعَتِ الطيرُ قُطوعاً وقَطاعاً وقِطاعاً: إذا خرجت من بلدٍ إلى بلد، وأصابَ الناسَ قُطْعَةٌ: إذا قَلَّت مياهُهم، ورجل به قُطْعٌ، أي: انْبِهار[3].

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ «ما» في موضع نصبٍ بـ «يقطعون». و«أنْ» إن شئتَ كانت بدلاً من «ما»، وإن شئتَ من الهاء في «به»، وهو أحسنُ، ويجوز أن يكون: لئلَّا يُوْصَلَ، أي: كراهَةَ أن يُوْصل.

واختُلِف: ما الشيءُ الذي أَمَرَ بوصلِه؟.

فقيل: صِلةُ الأرحام.

وقيل: أمَرَ أنْ يُوصَلَ القولُ بالعمل، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعمَلوا.

وقيل: أمَرَ أن يُوصَلَ التَّصديقُ بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضِهم وتكذيب بعضهم.

وقيل: الإشارةُ إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامةِ شرائعهِ، وحفظِ

---

(١) البيت في اللسان: (وثق)، وقد نسبه لعياض بن درة الطائي، وكذا جاء منسوباً له في بعض نسخ الصحاح (وثق)، كما ذكر في حواشيه، وهو في إصلاح المنطق ص ١٥٥، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٦، والخصائص ٣/ ١٥٧ من غير نسبة. وفيها: عقد المياثق.

(٢) الصحاح: (وثق).

(٣) الانبهار، من البُهْر: وهو تتابع النفس. الصحاح: (بهر)، إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٥، والصحاح: (قطع).

حدوده[١] فهي عامَّةٌ في كلٍّ ما أَمَرَ الله تعالى به أن يُوصل. هذا قولُ الجمهور، والرَّحِمُ جزءٌ من هذا[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: يعبدون غيرَ الله تعالى، ويَجُورون في الأفعال، إذ هي بِحَسَبِ شَهَواتِهم، وهذا غايةُ الفساد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، و«هم» زائدة، ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ «الخاسرون» خبرُه، والثاني وخبرُه خبرُ الأول، كما تقدَّم[٣].

والخاسر: الذي نقَصَ نفسَه حَظَّها من الفلاح والفَوْز، والخُسْران: النُّقصان، كان في ميزان أو غيرِه. قال جرير:

إنَّ سَلِيطاً في الخَسار إنَّهْ أولادُ قومٍ خُلِقُوا أقِنَّهْ[٤]

يعني بالخَسارِ: ما ينقُصُ من حظوظهم وشرفهم.

قال الجوهريُّ[٥]: وخَسَرتُ الشيءَ - بالفتح - وأخسرتُه: نَقَصْتُه، والخَسَار والخَسارة والخَيْسرى: الضَّلال والهلاك. فقيل للهالك: خاسر؛ لأنَّه خَسِرَ نَفسَه وأهلَه يومَ القيامة، ومُنِعَ منزلَه من الجنة.

السابعة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الوفاءَ بالعهد والتزامَه، وكلَّ عهدٍ جائزٍ ألزَمَه المرءُ نفسَه، فلا يحلُّ له نقضُه، سواءٌ أكان بين[٦] مسلمٍ أم غيرِه، لذمِّ الله تعالى مَنْ نقَضَ عهدَه. وقد قال: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]. وقال[٧] لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلَّا بنقض العهد، على ما يأتي بيانُه في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (د): عهوده.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ١١٣.
(٣) ص ٢٧٧.
(٤) ديوانه ١/ ١٠٧١. وأقنة، جمع قِنّ، وهو (كما في مختار الصحاح) العبد إذا مُلك هو وأبواه.
(٥) الصحاح: (خسر).
(٦) في (د) و(ظ): من.
(٧) في (م): وقد قال.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

«كيف» سؤالٌ عن الحال، وهي اسمٌ في موضع نصبٍ بـ «تكفرون»، وهي مبنيةٌ على الفتح، وكان سبيلُها أن تكون ساكنةً، لأنَّ فيها معنَى الاستفهامِ الذي معناه التعجُّبُ، فأشْبهت الحروف، واختير لها الفتحُ لخِفَّته[1]، أي: هؤلاء ممَّن يجبُ أن يُتعجَّب منهم حين كفروا وقد ثبتَتْ عليهم الحُجَّة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطابُ لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله؟

فالجواب: ما سبَقَ من أنَّهم لمَّا لم يُثبِتُوا أمرَ محمد ﷺ ولم يُصدِّقوه فيما جاء به، فقد أشركوا؛ لأنَّهم لم يُقِرُّوا بأنَّ القرآنَ من عند الله، ومَنْ زعمَ أنَّ القرآنَ كلامُ البشر فقد أشركَ بالله، وصارَ ناقضاً للعهد.

وقيل: «كيف» لفظُه لفظُ الاستفهام، وليس به، بل هو تقريرٌ وتوبيخٌ، أي: كيف تكفرون بالله ونعمُه عليكم[2] وقدرتُه هذه؟!

قال الواسطيُّ[3]: وَبَّخَهم بهذا غايةَ التوبيخ؛ لأنَّ المَوَاتَ والجمادَ لا يُنازِعُ صانعَه في شيء، وإنَّما المنازعَةُ من الهياكل الروحانية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ هذه الواوُ واوُ الحال، و«قد» مضمرةٌ. قال الزجَّاج[4]: التقدير: وقد كنتم، ثم حُذِفت قد. وقال الفرَّاء[5]: «أمواتاً» خبر «كنتُم».

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٦.

(٢) في (م): «كيف تكفرون نعمه عليكم»، وفي (د): «كيف تكفرون ونعمة الله عليكم». والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ١١٣.

(٣) أبو بكر محمد بن موسى، المعروف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري، وكان عالماً بالأصول والفروع. توفي بمرو سنة ٣٢٠هـ. طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩، والوافي بالوفيات ٥/ ٨٥.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ١٠٧، وبلفظه في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٦.

(٥) لم نجد هذا القول في معاني القرآن للفراء، وهو تتمة الكلام السابق في إعراب القرآن للنحاس.

﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا وقفُ التمام، كذا قال أبو حاتم[1]. ثم قال: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

واختلف أهلُ التأويل في ترتيب هاتَيْن المَوْتَتَيْنِ والحياتَيْن، وكم من مَوْتةٍ وحياةٍ للإنسان؟

فقال ابنُ عباس وابنُ مسعود: أي: كنتُم أمواتاً معدُومين قبل أن تُخلَقُوا، فأحياكم ـ أي: خلقَكم ـ ثم يُميتُكم عند انقضاء آجالِكم، ثم يُحييكم يوم القيامة[2]. قال ابن عطية[3]: وهذا القولُ هو المرادُ بالآية، وهو الذي لا مَحيدَ للكفار عنه، لإقرارِهم بهما، وإذا أذْعَنَتْ نفوسُ الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها، قَوِيَ عليهم لزومُ الإحياء الآخِر، وجاء جَحْدُهم له دَعْوَى لا حُجَّةَ عليها.

قال غيره: والحياةُ التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياةِ الدنيا. وقيل: لم يعتدَّ بها كما لم يعتدَّ بموت[4] مَنْ أماتَه في الدنيا ثم أحياه في الدنيا.

وقيل: كنتُم أمواتاً في ظهر آدم، ثم أخرَجكم مِنْ ظهرِه كالذَّرِّ، ثم يُميتكم موتَ الدنيا، ثم يبعثُكم.

وقيل: كنتُم أمواتاً ـ أي: نُطَفاً ـ في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء، ثم نقلكم من الأرحام، فأحياكم، ثم يميتُكم بعد هذه الحياةِ، ثم يُحييكم في القبر للمسألة، ثم

---

(١) هو السجستاني، والذي نقله عنه أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥١٠: أن الوقف التام على قوله: «فأحياكم» لأنهم إنما وبخوا بما يعرفونه ويقرون به، وذلك أنهم كانوا يقرون بأنهم كانوا أمواتاً إذ كانوا نطفاً في أصلاب آبائهم ثم أُحيوا من النطف ولم يكونوا يعترفون بالحياة بعد الموت، فقال الله موبخاً لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: ويحكم كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم ابتدأ فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد تعقبه الأنباري بقوله: وهذا الذي قال تنقضه الآية عليه؛ لأنه زعم أن الله لا يوبخهم إلا على ما يعترفون به، وقد قال: «كيف تكفرون» فوبخهم بالكفر ولم يكونوا يعترفون بأنهم كفار.

(٢) أخرج قوليهما الطبري في تفسيره ١/ ٤٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٤.

(٤) في (ظ): بموتة.

يُميتُكم في القبر، ثم يُحييكم حياةَ النَّشْر إلى الحَشْر، وهي الحياةُ التي ليس بعدها موتٌ.

قلتُ: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتاتٍ، وثلاثُ إحياءات. وكونُهم موتى في ظهر آدم، وإخراجُهم من ظهره والشهادةُ عليهم، غيرُ كونِهم نُطَفاً في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء، فعلى هذا تجيءُ أربعُ موتاتٍ وأربعُ إحياءات.

وقد قيل: إنَّ الله تعالى أوجَدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء[1]، ثم أماتَهم، فيكون على هذا خُمس موتاتٍ، وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أُمَّة محمد ﷺ إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتَهم الله إماتةً، حتى إذا كانوا فَحْماً أُذِنَ في الشفاعة، فجيء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فَيَنْبُتون نباتَ الحِبَّة تكون[2] في حَمِيل السَّيل». فقال رجلٌ من القوم: كأنَّ رسولَ الله ﷺ قد كان يَرْعَى بالبادية[3]. أخرجه مسلم[4].

قلتُ: فقوله: «فأماتَهم الله» حقيقةٌ في الموت، لأنه أكَّده بالمصدر، وذلك تكريماً لهم.

وقيل: يجوز أن يكون «أماتهم»[5] عبارةً عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة، والأول أصحُّ، وقد أجمعَ النَّحْويون على أنَّك إذا أكَّدتَ الفعل بالمصدر لم يكن مَجازاً، وإنَّما هو على الحقيقة، ومثله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (ز) و(ظ): كالبهائم.

(٢) في (ز): يكون، وليس في (د) و(ظ).

(٣) في (ز) و(ظ): في البادية.

(٤) رقم (١٨٥): (٣٠٦). وفيه: قد كان بالبادية. وهو في المسند (١١٠٧٧). وقوله: ضبائر، أي: جماعات في تفرقة، والحِبة، بكسر الحاء، بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول، وحَمِيل السيل: هو ما جاء به السيل من طين أو غُثاء، ومعناه: محمول السيل، والمراد التشبيه في سرعة الإنبات وحسنه وطراوته. شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٢٣ و ٢٨.

(٥) في (ظ) إماتتهم.

وقيل: المعنى: وكنتُم أمواتاً بالخُمول، فأحياكم بأن ذُكِرتُم وشُرِّفتُم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم، ثم يُميتُكم، فيموتُ ذِكْرُكم، ثم يُحيِيكم للبَعْث.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى عذابه مرجعُكم، لكفركم، وقيل: إلى الحياة وإلى المسألة[1]، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فإعادتُهم كابتدائهم، فهو رجوعٌ.

و«تُرْجَعون» قراءةُ الجماعة. ويحيى بنُ يَعْمر وابنُ أبي إسحاق ومجاهدٌ وابنُ مُحَيْصِن وسلام ويعقوب[2] يفتحون حرفَ المضارعة، ويكسرون الجيمَ حيثُ وقعَتْ[3].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه عشرُ مسائل:

الأولى: ﴿خَلَقَ﴾ معناه: اخترَعَ، وأوجَدَ بعد العَدَم، وقد يقال في الإنسان: خَلَق، عند إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

مَنْ كان يَخْلُق ما يقو ... لُ فحِيلَتي فيه قليلهْ[4]

وقد تقدَّم هذا المعنى[5].

وقال ابن كَيْسان: «خلقَ لكم» أي: من أجلكم، وقيل: المعنى: إنَّ جميعَ ما في الأرض مُنْعَمٌ به عليكم، فهو لكم، وقيل: إنَّه دليلٌ على التوحيد والاعتبار.

---

(١) في (د) و(ظ): المساءلة.

(٢) في (د) و(ظ) و(م): سلام بن يعقوب وهو خطأ، والمثبت من (ز). يعقوب ـ وهو ابنُ إسحاق الحضرمي ـ من العشرة. وينظر النشر ٢/ ٢٠٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٤.

(٤) نسبه الباقلاني في إعجاز القرآن ص ١٥٤ لبشار، ونُسب في معجم الشعراء ص ٤٩٢ ليحيى بن مروان بن أبي حفصة. ونُسب في معجم الأدباء ١٩/ ١٨٦، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٩٠، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٤٨٣ لأبي الحسن منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه، وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٨٨٢، والمحرر الوجيز ١/ ١١٤ من غير نسبة. ورواية الكامل ومعجم الشعراء: من كان يكذب ما يريد.

(٥) ص ٣٤١.

قلتُ: وهذا هو الصَّحيح على ما نُبيِّنُه، ويجوزُ أن يكون عنى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء.

الثانية: استدلَّ من قال: إنَّ أصلَ الأشياء التي يُنتَفع بها الإباحةُ بهذه الآية، وما كان مثلُها، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآية [الجاثية: ١٣]، حتى يقومَ الدليلُ على الحَظْر، وعَضَد هذا بأن قال[١]: إنَّ المآكِلَ الشهيةَ خُلِقَتْ مع إمكان ألَّا تُخْلَق، فلم تُخلَق عبثاً، فلا بدَّ لها من منفعة، وتلك المنفعةُ لا يصحُّ رجوعُها إلى الله تعالى، لاستغنائه بذاته، فهي راجعةٌ إلينا، ومنفعتنا إمَّا في نَيل لَذَّتها[٢]، أو في اجتنابها لنُخْتَبَر بذلك، أو في اعتبارنا بها، ولا يحصُلُ شيءٌ من تلك الأمور إلَّا بذوقها، فلزِمَ أن تكون مباحةً.

وهذا فاسدٌ، لأنَّا لا نُسلِّمُ لُزومَ العَبَث مِنْ خلقها إلَّا لمنفعة، بل خلقها كذلك، لأنَّه لا يجبُ عليه أصلُ المنفعة، بل هو الموجِبُ، ولا نُسلِّم حصرَ المنفعة فيما ذكروه، ولا حصولَ بعض تلك المنافع إلَّا بالذَّوق، بل قد يُستدلُّ على الطُّعوم بأمورٍ أُخَر، كما هو معروف عند الطبائعيين.

ثم هو معارَضٌ بما يُخاف أن يكون سموماً مُهلِكةً، ومعارَضُون بشبهات أصحابِ الحَظْر.

وتوقَّفَ آخرون وقالوا: ما من فعلٍ لا نُدرِكُ[٣] منه حُسناً ولا قُبْحاً إلاَّ ويمكن أن يكون حَسَناً في نفسه، ولا مُعيِّن قبل ورودِ الشرع، فتعيَّنَ الوقفُ إلى ورود الشرع. وهذه الأقاويلُ الثلاثةُ للمعتزلة.

وقد أطلق الشيخُ أبو الحَسَن وأصحابهُ وأكثرُ المالكية والصَّيرفيُّ[٤] في هذه

---

(١) في (م): وعضدوا هذا بأن قالوا.

(٢) في (د) و(ظ): لذاتها.

(٣) في النسخ: يدرك.

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله، الشافعي، البغدادي، اشتهر بالحذق في النظر وفي القياس وعلم الأصول، وهو أحد أصحاب الوجوه في المذهب، قال القفال: إن أبا بكر الصيرفي كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي. من تصانيفه: شرح الرسالة وكتاب في الشروط. توفي سنة ٣٣٠هـ. الوافي بالوفيات ٣/ ٣٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٨٦.

المسألة القولَ بالوقف، ومعناه عندهم أن لا حكمَ فيها في تلك الحال، وأنَّ للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأنَّ العقلَ لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره[١]، وإنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هي عليه. قال ابنُ عطية[٢]: وحكى ابن فُورَك عن ابن الصائغ أنَّه قال: لم يَخْلُ العقلُ قطُّ من السمع، ولا نازلةَ إلَّا وفيها سَمْع، أو لها تعلُّقٌ به، أو لها حالٌ تُستصحَب. قال: فينبغي أن يُعتمد على هذا، ويغني عن النَّظر في حظرٍ وإباحةٍ ووقفٍ.

الثالثة: الصَّحيحُ في معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: الاعتبارُ، يدلُّ عليه ما قبلَه وما بعدَه من نصبِ العِبَر: الإحياء والإماتة والخَلْق، والاستواء إلى السماء وتسويتها، أي: الذي قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السموات والأرض لا تَبعُدُ منه القدرةُ على الإعادة.

فإن قيل: إنَّ معنى «لكم»: الانتفاعُ، أي: لتنتفعوا بجميع ذلك. قلنا: المرادُ بالانتفاع الاعتبارُ لما ذكرنا.

فإن قيل: وأيُّ اعتبارٍ في العقارب والحَيَّات؟ قلنا: قد يتذكَّر الإنسانُ ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدَّ الله للكفار في النار من العقوبات، فيكون سبباً للإيمان وتركِ المعاصي، وذلك أعظمُ الاعتبار.

قال ابنُ العربيِّ[٣]: وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحةً ولا وقفاً، وإنَّما جاء ذِكْرُ هذه الآية في مَعْرِض الدلالةِ والتنبيه ليُسْتَدَلَّ بها على وحدانيَّته.

وقال أرباب المعاني في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: لتَتَقوَّوْا به على طاعته[٤]، لا لتصرفوه في وجوه معصيته.

---

(١) في (د): بغيره.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٣) أحكام القرآن ١/ ١٤.

(٤) في (د): لتبقوا على طاعته، وفي (ز): ليتقوا به.

وقال أبو عثمان: وَهَبَ لك الكلَّ وَسَخَّره لك لِتستدِلَّ به على سَعَة جُودِه[1]، وتَسْكُنَ إلى ما ضَمِنَ لك من جَزِيل عطائه في المَعَاد، ولا تستكثِرَ كثيرَ بِرِّه على قليلِ عملك، فقد ابتدأكَ بعظيم النِّعم قبل العمل، وهو التوحيد.

الرابعة: روى زيد بنُ أسلم، عن أبيه، عن عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، أنَّ رجلاً أتَى رسولَ الله ﷺ، فسألَه أن يُعطِيَه، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما عندي شيءٌ، ولكن ابْتَعْ عَلَيَّ، فإذا جاء شيءٌ قَضَيْنا». فقال له عمر: هذا أعطيتَ إذا كان عندك، فما كَلَّفَكَ الله ما لا تَقْدِرُ، فَكَرِهَ رسولُ الله ﷺ قولَ عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفِقْ ولا تَخَفْ[2] من ذي العرش إقلالاً، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وعُرِفَ السُّرور في وجهه لقول الأنصاريِّ، ثم قال رسول الله ﷺ: «بذلك أُمِرتُ»[3].

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فخوفُ الإقلال من سوء الظنِّ بالله، لأنَّ الله تعالى خلقَ الأرضَ بما فيها لولد آدم، وقال في تنزيله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. فهذه الأشياءُ كلُّها مسخَّرة للآدميِّ قَطْعاً لعُذْرِه وحُجَّةً عليه، ليكونَ له عبداً كما خلقَه عبداً، فإذا كان العبدُ حَسَنَ الظنِّ بالله لم يخفِ الإقلال، لأنَّه يُخْلِفُ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) في النسخ: وجوده.

(٢) في (م): ولا تخش.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٤٨)، والبزار في مسنده (٢٧٣)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٣، والضياء المقدسي في المختارة (٨٨).

وقوله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، روي من قوله ﷺ لبلال في سياق آخر أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٠) و(١٠٣٠٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٤٩، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٩) من حديث ابن مسعود، وأخرجه أبو يعلى (٦٠٤٠)، والطبراني (١٠٢٤) و(١٠٢٥) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البزار في مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦٦) من حديث عائشة، وقال المناوي في «فيض القدير» ٣/ ٦١: أطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه، لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في «زوائد البزار»: إسناد حديثه حسن.

وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: سَبَقَتْ رحمتي غَضَبي، يا ابنَ آدم، أنفِقْ أُنفِقْ عليك، يمينُ الله ملأى، سَحَّاءُ لا يَغِيضُها شيءٌ الليلَ والنهارَ»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُصْبِحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكانِ يَنْزِلان، فيقولُ أحدُهما: اللهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[٢]. وكذا في المساء عند الغروب ينادِيانِ أيضاً. وهذا كلُّه صحيحٌ رواه الأئمة، والحمد لله.

فمن استنارَ صدرُه، وعَلِمَ غِنَى ربِّه وكرمَه، أنفَقَ ولم يَخَفِ الإقلالَ، وكذلك من ماتَتْ شهواتُه عن الدنيا، واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئتُه لنفسه، فهذا يُعطي مِنْ يُسْرِه وعُسْرِه، ولا يخافُ إقلالاً، وإنَّما يخافُ الإقلالَ مَنْ له مشيئةٌ في الأشياء، فإذا أعطى اليومَ وله غداً مشيئةٌ في شيء خافَ ألَّا يُصيبَ غداً، فيضيق عليه الأمر في نفقة[٣] اليوم لمخافة إقلاله.

روى مسلم[٤] عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «انْفَحِي - أو انْضَحِي أو أنْفِقي - ولا تُحْصي، فيُحصيَ الله عليك، ولا تُوعِي، فيُوعِيَ الله عليكِ».

وروى النسائيُّ[٥] عن عائشة قالت: دخل عليَّ سائلٌ مرَّةً وعندي رسولُ الله ﷺ، فأمرتُ له بشيء، ثم دعوتُ به، فنظرتُ إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أما تريدين ألَّا يدخُلَ بيتَكِ شيءٌ ولا يخرجَ إلَّا بعلمك؟» قلتُ: نعم. قال: «مهلاً يا عائشة، لا تُحصي، فيُحصيَ الله عزَّ وجلَّ عليكِ».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ «ثم» لترتيب الإخبارِ، لا لترتيب الأمر في نفسه. والاستواء في اللغة: الارتفاعُ والعُلُوُّ على الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]،

---

(١) قوله: «سبقت رحمتي غضبي» أخرجه أحمد (٧٢٩٩)، والبخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥)، وقوله: «يا ابن آدم، أنفق...» أخرجه أحمد (٧٢٩٨) والبخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) (٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأورده بتمامه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٥١.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في النسخ: نفقته.

(٤) صحيح مسلم (١٠٢٩)، وأخرجه كذلك البخاري (٢٥٩١)، وهو في المسند (٢٦٩٢٢).

(٥) المجتبى ٥/ ٧٣، وهو بنحوه في المسند (٢٤٤١٨).

وقال الشاعر:

فـأَوْرَدْتُـهُـم مـاءً بـفَـيـفـاءَ قَـفْـرةٍ   وقد حَلَّقَ النَّجْمُ اليمانيُّ فاسْتَوَى[1]

أي: ارتفَعَ وعَلا. واستوتِ الشمسُ على رأسي، واستوتِ الطيرُ على قمَّة رأسي، بمعنى علا.

وهذه الآيةُ من المُشْكلات، والناسُ فيها وفيما شاكَلَها على ثلاثة أوجه:

قال بعضُهم: نقرؤها[2] ونؤمن بها ولا نُفسِّرُها، وذهَبَ إليه كثيرٌ من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أنَّ رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال مالك: الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعةٌ، وأُراك رجلَ سوء! أخرجوه[3].

وقال بعضهم: نقرؤها ونُفسِّرُها على ما يَحتمِلُه ظاهرُ اللغة. وهذا قولُ المُشَبِّهة.

وقال بعضهم: نقرؤها ونتأوَّلُها، ونُحِيلُ حَمْلَها على ظاهرها[4].

وقال الفرَّاء[5] في قوله عز وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ قال: الاستواءُ في كلام العرب على وجهين: أحدُهما: أن يستويَ الرجلُ وينتهي شبابُه وقوَّته، أو يستوي عن[6] اعوجاجٍ. فهذان وجهان. ووجهٌ ثالثٌ: أن تقول: كان مقبلاً على [فلانٍ، ثم استوى عليَّ] يُشاتِمُني وإليَّ، سواء، على معنى أقبلَ إليَّ وعليَّ، فهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس: ثم استوى إلى السماء: صَعِد[7]. وهذا كقولك: كان قاعداً فاستوى قائماً، وكان قائماً

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٥، واللسان، وتاج العروس (صبح)، وفيها: وصبَّحهم، بدل: فأوردتُهم.

(٢) في (د): نقرأ بها، وفي (ز): يقرؤها.

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦) و(٨٦٧)، وأخرجه اللالكائي (٦٦٣) من قول أمّ سَلَمة رضي الله عنها.
وقد فسَّر السلف رضي الله عنهم لفظ الاستواء الوارد في النصوص بأربعة معانٍ؛ هي: العلوّ، والارتفاع، والصعود، والاستقرار. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٤٤٠-٤٤١.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ١٠٦-١٠٧.

(٥) معاني القرآن ١/ ٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: من، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في معاني القرآن.

(٧) أخرجه البيهقيُّ في الأسماء والصفات (٨٧٢). وفيه: صعد أمره إلى السماء.

فاستوى قاعداً، وكلُّ ذلك في كلام العرب جائزٌ.

قال البيهقيُّ أبو بكر أحمد بنُ عليِّ بن الحُسَين[(١)]: قوله: «استوى» بمعنى أقبل صحيحٌ، لأنَّ الإقبالَ هو القصدُ إلى خلق السماء، والقصدُ هو الإرادة، وذلك جائزٌ في صفات الله تعالى، ولفظة «ثم» تتعلَّقُ بالخلق لا بالإرادة، وأمَّا ما حَكَى[(٢)] عن ابن عباس؛ فإنَّما أخَذَه عن تفسير الكلبيِّ، والكلبيُّ ضعيفٌ.

وقال سفيانُ بن عُيينة وابنُ كَيْسان في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: قَصَدَ إليها، أي: بخلقه واختراعه. فهذا قول.

وقيل: علا دون تكييفٍ ولا تحديد، واختاره الطبريُّ[(٣)].

ويُذكر عن أبي العالية الرِّياحيِّ في هذه الآية أنه يقال: استوى بمعنى أنَّه ارتفَعَ[(٤)]. قال البيهقيُّ[(٥)]: ومرادُه من ذلك ـ والله أعلم ـ ارتفاعُ أمره، وهو بخارُ الماء الذي وقَعَ منه خَلْقُ السماء. وقيل: إنَّ المستوي الدخانُ.قال ابن عطية[(٦)]: وهذا يأباه وصفُ[(٧)] الكلام. وقيل: المعنى استولى، كما قال الشاعر[(٨)]:

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العراقِ مِن غيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْراقِ

قال ابن عطية: وهذا إنَّما يجيء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

قلت: قد تَقَدَّم في قول الفَرَّاء: عليَّ وإليَّ بمعنًى، وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في سورة «الأعراف»[(٩)] إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأسماء والصفات ٢/ ٣١٠.

(٢) يعني الفرَّاء، والكلام للبيهقي في الأسماء والصفات.

(٣) تفسيره ١/ ٤٥٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) الأسماء والصفات ٢/ ٣١١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٧) في المحرر الوجيز: رصف، وهو الأشبه.

(٨) هو الأخطل كما في المحرر الوجيز ١/ ١١٥، وتاج العروس: (سوى)، والبيت من غير نسبة في الصحاح: (سوى)، والأسماء والصفات ٢/ ٣٠٩،و البحر المحيط ١/ ١٣٤.

(٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الآية: ٥٤.

والقاعدةُ في هذه الآية ونحوها منعُ الحركة والنُّقلة[١].

السادسة: يظهر من هذه الآية أنَّه سبحانه خَلَقَ الأرضَ قبل السماء، وكذلك في «حم السجدة»[٢]. وقال في النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، فوصفَ خلقَها، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾. فكأنَّ السماءَ على هذا خُلِقت قبل الأرض، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وهذا قولُ قتادة: إنَّ السماءَ خُلِقت أولاً. حكاه عنه الطبريُّ[٣]. وقال مجاهد وغيره من المفسرين: إنَّه تعالى أيبَسَ الماءَ الذي كان عرشُه عليه، فجعلَه أرضاً، وثارَ منه دخانٌ، فارتفَعَ، فجعلَه سماءً، فصار خَلْق الأرض قبل خَلْق السماء، ثم قصَدَ أمرُه إلى السماء، فسوَّاهنَّ سبعَ سموات، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك، وكانت إذ خَلقَها غيرَ مَدْحُوَّة[٤].

قلتُ: وقولُ قتادة يُخَرَّجُ على وجهٍ صحيحٍ إن شاء الله تعالى: وهو أنَّ الله تعالى خَلَقَ أولاً دخانَ السماء، ثم خَلَق الأرضَ، ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فسوَّاها، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الدخانَ خُلِقَ أولاً قبل الأرض ما رواه السُّدِّيُّ، عن أبي مالك، وعن أبي صالحٍ، عن ابن عباس. وعن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابن مسعود. وعن ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: إنَّ الله تبارك وتعالى كان عرشُه على الماء، ولم يخلُقْ شيئاً قبل الماء، فلمَّا أرادَ أن يخلُقَ الخلقَ أخرج من الماء دخاناً، فارتفَعَ فوق الماء، فسَما عليه، فَسمَّاه سماءً، ثم أيبس الماء، فجَعلَه أرضاً واحدةً، ثم فَتَقها، فجعلها سبعَ أرضين في يومين، في الأحد والاثنين، فجعل الأرضَ على حُوتٍ - والحُوتُ هو النُّون الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن بقوله:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٢) في قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين...﴾ الآيات [٩-١١].

(٣) في تفسيره ٩/ ١٤٥.

(٤) أخرج ابن جرير ١/ ٤٦٣ عن مجاهد في تفسير هذه الآية قوله: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] - والحوتُ في الماء، و[الماء][١] على صَفاة[٢]، والصَّفاةُ على ظهر مَلَك، والمَلَكُ على الصَّخرة، والصَّخرة في الريح - وهي الصَّخرةُ التي ذكر لقمانُ - ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرَّك الحوتُ، فاضطربَ، فتزلزلت الأرضُ، فأرسى[٣] عليها الجبالَ، فقرَّت، فالجبالُ تَفْخرُ على الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وخلقَ الجبالَ فيها وأقواتَ أهلِها وشجرَها وما ينبغي لها في يومين: في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ يقول: أقواتها لأهلها[٤] ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقول: من سأل فهكذا الأمر ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وكان ذلك الدخانُ مِنْ تنفُّس الماء حين تنفَّسَ، فجعلها سماءً واحدة، ثم فَتَقَها، فجعَلَها سبعَ سموات في يومين: في الخميس والجمعة، وإنَّما سُمِّيَ يومَ الجمعة لأنَّه جُمع فيه خَلْقُ السماوات والأرض ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ٩-١٢] قال: خلقَ في كلِّ سماءٍ خَلْقَها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم، ثم زيَّنَ السماءَ الدنيا بالكواكب، فجعَلَها زِينةً وحِفْظاً تُحفظُ من الشياطين، فلمَّا فرغَ من خلق ما أحبَّ، استوى على العرش. قال: فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام[٥]، على ما يأتي بيانُه في هذه

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير الطبري ١/ ٤٦٢.

(٢) الصفاة: صخرة ملساء. الصحاح: (صفا).

(٣) في (م) والنسخ الخطية: «فأرسل»، والمثبت من تفسير الطبري.

(٤) قوله: يقول أقواتها لأهلها، ليس في (م).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٦٢-٤٦٣، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٧). وقد غمز الطبري في هذا الإسناد ١/ ٣٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾، فقال: ولستُ أعلمه صحيحاً، إذ كنتُ بإسناده مرتاباً.
وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تفسير الطبري ١/ ١٥٦ - ١٦٠.

السورة إن شاء الله تعالى[١].

وروى وكيع، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس قال: إنَّ أولَ ما خلقَ الله عزَّ وجلَّ من شيءٍ القلمُ، فقال له: اكتب، فقال: يا ربِّ، وما أكتبُ؟ قال: اكتب القَدَر، قال: فجرى بما هو كائنٌ من ذلك اليوم إلى قيام الساعة. قال: ثم خلقَ النُّونَ، فدحا الأرضَ عليها، فارتفعَ بخارُ الماء، ففَتَقَ منه السماوات، واضطربَ النُّونُ، فمادَتِ الأرضُ، فأُثْبِتَت بالجبال، فإنَّ الجبالَ تَفْخَرُ على الأرض إلى يوم القيامة[٢]. ففي هذه الرواية خلقُ الأرضِ قبل ارتفاع بخار الماء الذي هو الدُّخان، خلافاً للرواية الأولى، والرواية الأُولى عنه وعن غيره أَولى، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] والله أعلم بما فعل، فقد اختلفت فيه الأقاويلُ، وليس للاجتهاد فيه مدخل.

وذكر أبو نُعيم[٣] عن كعب الأحبار أنَّ إبليسَ تغلغلَ إلى الحوت الذي على ظهره الأرضُ كلُّها، فألقى في قلبِه، فقال: هل تدري ما على ظهركَ يا لوثيا من الأُمم والشجر الدَّوابِّ والناس والجبال؟ لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع. قال: فهمَّ لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابَّةً، فدخَلَتْ في مِنْخَرِه، فعجَّ إلى الله منها، فخرجت. قال كعب: والذي نفسي بيده، إنَّه لينظُرُ إليها بين يديه وتنظُرُ إليه، إنْ هَمَّ بشيء من ذلك عادَتْ حيثُ كانت[٤].

السابعة: أصلُ خَلْقِ الأشياء كلِّها من الماءِ، لما رواه ابنُ ماجه في «سننه»، وأبو حاتم البُسْتيُّ في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك، طابَتْ نفسي، وقرَّتْ عَيْني، أنبِئْني عن كلِّ شَيْءٍ. قال: «كُلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء». فقلتُ: أخبرني بشيءٍ[٥] إذا عملتُ به دخلتُ الجنة. قال: «أَطْعِم الطعامَ، وأَفْشِ السَّلامَ، وصِلِ الأرحامَ، وقُمِ الليلَ والناسُ نيامٌ، تدخُلِ الجنةَ بسلام»[٦].

---

(١) ص ٤١٧ ـ ٤١٩.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٣ و٥٠ ـ ٥١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٤).

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٨.

(٤) خبر إسرائيلي لا أساس له، وكان من الأولى بالمصنف أن ينزّه كتابه عن مثل هذا.

(٥) في (م): عن شيء.

(٦) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وهو في المسند (٧٩٣٢)، ولم نقف عليه في سنن ابن ماجه من حديث=

قال أبو حاتم[١]: قولُ أبي هريرة: أَنْبِئْني عن كلِّ شيء، أراد به[٢]: عن كلِّ شيء خُلق من الماء، والدليلُ على صحَّة هذا جوابُ المصطفى ﷺ إياه حيث قال: «كلُّ شيء خُلق من الماء». [فهذا جوابٌ خرج على سؤال بعينه، لا أنَّ كلَّ شيء خُلق من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً.

وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس أنَّه كان يُحَدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أوّلَ شيءٍ خلقَه الله القلمُ، وأمرَه، فكتَبَ كلَّ شيء يكون»[٣]. ويُروى ذلك أيضاً عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ مرفوعاً[٤].

قال البيهقيُّ[٥]: وإنَّما أراد ـ والله أعلم ـ: أولُ شيء خلقَه بعد خلقِ الماء والريح والعرشِ القلمُ، وذلك بَيِّنٌ في حديث عِمرانَ بنِ حُصَيْن: «ثم خَلقَ السماوات والأرض»[٦].

وذكر عبد الرزاق[٧]، عن[٨] عمرَ بنِ حَبيب المكيِّ، عن حُمَيْد بن قَيْس الأعرج، عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: ممَّ خُلِقَ الخلقُ؟ قال: من الماء والنُّورِ والظُّلمة، والريح والتراب. قال الرجل: فممَّ خُلق

= أبي هريرة، وقد أخرج المرفوع منه برقم (٣٢٥١) من حديث عبد الله بن سلام، بلفظ: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، وادخلوا الجنة بسلام».

(١) هو ابنُ حبان، وقد قاله بإثر حديثه المذكور، وما بين حاصرتين من صحيحه.

(٢) في (د) مراده.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٦، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٣).

(٤) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، والترمذي (٢١٥٥)، و(٣٣١٩)، وهو في المسند (٢٢٧٠٥). قال الترمذي في الموضع الأول: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقال في الموضع الثاني: هذا حديث حسن غريب.

(٥) الأسماء والصفات ٢/ ٢٣٨.

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٨) ضمن حديث طويل، وفيه: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشُه على الماء، ثم خلق السماواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذكر كل شيء».

(٧) في تفسيره ٢/ ٢١٣، وأخرجه أيضاً الحاكم ٢/ ٤٥٢، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٢٩).

(٨) في (د) و(م): «بن»، وهو خطأ.

هؤلاء؟ قال: لا أدري. قال: ثم أتى الرجلُ عبدَ الله بنَ الزُّبير، فسأله، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو. قال: فأتى الرجلُ عبدَ الله بنَ عباس، فسأله، فقال: ممَّ خُلق الخلقُ؟ قال: من الماء والنُّور والظُّلمة والريح والتراب. قال الرجل: فممَّ خُلق هؤلاء؟ فتلا عبد الله بنُ عباس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. فقال الرجل: ما كان ليأتيَ بهذا إلا رجلٌ من أهل بيت النبيِّ ﷺ.

قال البيهقيُّ[١]: أراد أنَّ مصدرَ الجميعِ منه، أي: مِنْ خلقِه وإبداعه واختراعه، خَلَق الماءَ أولاً، أو الماءَ وما شاء مِنْ خلقِه، لا عن أصلٍ، ولا على مثالٍ سَبَق، ثم جعلَه أصلاً لِما خَلَقَ بعد، فهو المبدعُ، وهو البارئ، لا إلهَ غيره، ولا خالقَ سواه، سبحانه جلَّ وعزَّ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ ذكر تعالى أن السماوات سبعٌ، ولم يأتِ للأرض في التنزيل عَدَدٌ صريحٌ لا يَحتملُ التأويلَ إلَّا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقد اختُلِفَ فيه: فقيل: «ومن الأرضِ مِثْلَهنّ» أي: في العدد؛ لأنَّ الكيفيةَ والصِّفَةَ مختلفةٌ بالمشاهدة والأخبار، فتَعيَّنَ العددُ. وقيل: «ومن الأرض مثلهنّ» أي: في غِلَظِهنَّ وما بينهنَّ. وقيل: هي سبعٌ، إلَّا أنَّه لم يَفْتِقْ بعضَها من بعض. قاله الداوُديُّ. والصَّحيحُ الأولُ، وأنَّها سبعٌ، كالسموات سبعٌ.

روى مسلمٌ[٢]، عن سعيد بنِ زيد[٣] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَخذَ شِبْراً من الأرض ظُلْماً طُوِّقَه إلى سبع أَرَضِين». وعن عائشةَ رضي الله عنها مثلَه، إلَّا أنَّ فيه: «من» بدل «إلى»[٤]. ومن حديث أبي هريرة: «لا يأخُذُ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حقِّه إلَّا طَوَّقه الله إلى سبع أَرَضين [يوم القيامة]»[٥].

---

(١) الأسماء والصفات ٢/ ٢٦٦.

(٢) رقم (١٦١٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٣١٩٨).

(٣) القرشي العدوي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، مات سنة (٥١هـ). السير ١/ ١٢٤.

(٤) صحيح مسلم (١٦١٢)، وأخرجه أيضاً البخاري (٢٤٥٣).

(٥) صحيح مسلم (١٦١١) وما بين حاصرتين منه.

وروى النَّسائيُّ، عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، علِّمني شيئاً أذْكُرُكَ به وأدعوكَ به. قال: يا موسى، قل: لا إله إلَّا الله. قال موسى: يا ربِّ، كلُّ عبادكَ يقول هذا. قال: قل: لا إله إلَّا الله. قال: لا إله إلَّا أنت، إنَّما أريدُ شيئاً تَخُصُّني به. قال: يا موسى، لو أنَّ السماوات السبعَ وعامِرَهنَّ غيري والأَرَضين السبعَ في كِفَّةٍ، ولا إله إلَّا الله في كِفَّةٍ، مالَتْ بهنَّ لا إله إلَّا الله»[1].

وروى الترمذيُّ، عن أبي هريرة قال: بينما نبيُّ الله ﷺ جالسٌ وأصحابهُ، إذ أتى عليهم سحابٌ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «هل تَدْرُون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «هذا العَنان، هذه رَوايا الأرضِ، يَسُوقُه الله إلى قوم لا يشكرونَه ولا يدعونَه». قال: «هل تَدْرُون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «فإنَّها الرَّقيعُ، سقفٌ محفوظٌ، وموجٌ مكفوفٌ». ثم قال: «هل تَدْرُون ما[2] بينكم وبينها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها [مسيرةُ] خمسِ مئة عام». ثم قال: «هل تَدْرُون ما فوقَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «[فإن فوق ذلك] سماءين، بُعْدُ ما بَيْنَهما [مسيرة] خمس مئة سنة». ثم قال كذلك حتى عدَّ سبعَ سماوات، ما بين كلِّ سماءين ما بين السَّماءِ والأرض. ثم قال: «هل تَدْرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «فإنَّ فوق ذلك العرشَ، وبينَه وبين السَّماء بُعْدُ ما بين السَّماءين». ثم قال: «هل تَدْرُون ما الذي تحتكم؟». قالوا: الله ورسُوله أعلم. قال: «فإنَّها الأرضُ». ثم قال: «هل تَدْرُون ما تحتَ ذلك؟» قالوا: الله ورسوُله أعلم. قال: «إن تحتها أرضاً أخرى[3]، بينهما مسيرةُ خمسِ مئة سنة». حتى عدَّ سبعَ أَرَضين، بين كلِّ أَرَضَيْن مسيرةُ خمس مئة سنة. ثم قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو أنَّكم دَلَّيتُم [رجلاً] بحبل إلى

---

(١) السنن الكبرى (١٠٦٠٢) و(١٠٩١٣)، وهو من رواية أبي السمح درَّاج بن سمعان عن أبي الهيثم سليمانَ بنِ عمرو العُتْواري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ودرَّاج ضعَّفه أحمد والنسائي وأبو حاتم الرازي والدارقطني ـ وقال في موضع: متروك ـ وفَضْلَك الرازي، وثقه يحيى بن معين. وقال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد. اهـ. وهذه منها.

(٢) في (م): كم.

(٣) في (م): فإن تحتها الأرض الأخرى.

الأرض السُّفلى لهبَطَ على الله». ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. قال أبو عيسى: قراءةُ رسولِ الله ﷺ الآية تدلُّ على أنَّه أرادَ: لَهَبَطَ على عِلْم الله وقدرتِه وسلطانِه. [علمُ الله وقدرتُه وسلطانُه] في كلِّ مكانٍ، وهو على عَرْشه كما وصَفَ نفسَه في كتابه. قال: هذا حديثٌ غريبٌ، والحَسَن لم يسمَعْ من أبي هريرة[١].

والآثارُ بأنَّ الأَرَضين سبعٌ كثيرةٌ، وفيما ذكرنا كفاية.

وقد روى أبو الضُّحى ـ واسمُه مسلم ـ عن ابن عباس أنَّه قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قال: سبعَ أَرَضين، في كلِّ أرضٍ نبيٌّ كنبيِّكم، وآدمُ كآدم، ونوحٌ كنوح، وإبراهيمُ كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقيُّ[٢]: إسنادُ هذا عن ابن عباس صحيحٌ، وهو شاذٌّ بمرَّة، لا أعلمُ لأبي الضُّحى عليه متابعاً[٣]، والله أعلم.

التاسعة: قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ابتداءٌ وخبر. «ما» في موضع نصبٍ. ﴿جَمِيعًا﴾ عند سيبويه نصب على الحال[٤].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أهلُ نَجد يُميلون لِيَدُلُّوا على أنَّه من ذوات الياء، وأهلُ الحجازُ يُفخِّمون.

﴿سَبْعَ﴾ منصوبٌ على البدل من الهاء والنون، أي: فسوَّى سبعَ سمواتٍ، ويجوزُ أن يكون مفعولاً على تقدير: فسَوَّى منهنَّ[٥] سبعَ سموات، كما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. قاله النحاس[٦]. وقال الأخفش: انتصَبَ على الحال.

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٨)، وقد أشار الترمذي إلى علة الحديث، وهو في المسند (٨٨٢٨). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/٢٨: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.

(٢) في الأسماء والصفات، بعد إخراجه تفسير ابن عباس المذكور (٨٣١) (٨٣٢).

(٣) في (د) و(ظ) و(م): «دليلاً».

(٤) الكتاب ١/٣٧٦.

(٥) في (د) و(م): «يسوّي بينهن».

(٦) إعراب القرآن ١/٢٠٦.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. والأصلُ في «هو» تحريكُ الهاء، والإسكانُ استخفاف.

والسماءُ تكون واحدةً مؤنَّثة، مثل عَنان، وتذكيرُها شاذٌّ، وتكون جمعاً لِسَماوة في قول الأخفش، وسماءة في قول الزَّجَّاج[(١)]، وجمعُ الجمعِ سماوات وسماءات[(٢)]، فجاء «سوَّاهنَّ» إمَّا على أن السماءَ جمعٌ، وإما على أنها مفردٌ اسمُ جنس، ومعنى «سَوَّاهنَّ»: سوَّى سُطوحَهنَّ بالإملاس[(٣)]، وقيل: جعلهنَّ سواءً[(٤)].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾أي: بما خلَقَ، وهو خالقُ كلِّ شيء، فوجَبَ أن يكون عالماً بكلِّ شيء، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، فهو العالمُ والعليمُ بجميع المعلومات بعلمٍ قديمٍ أزليٍّ واحدٍ قائمٍ بذاته.

ووافَقَنا المعتزلةُ على العالِمِيَّة دون العِلْمية. وقالت الجَهْمِيَّة: عالمٌ بعلمٍ قائمٍ لا في محلٍّ! تعالى الله عن قولِ أهل الزَّيْغ والضَّلالات، والردُّ على هؤلاء في كتب الدِّيانات.

وقد وصَفَ نفسَه سبحانه بالعلم، ، فقال: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِۦ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية.

وسندلُّ على ثبوتِ علمه وسائرِ صفاته في هذه السورة عند قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [الآية: ١٨٥] إن شاءَ الله تعالى.

وقرأ الكِسائيُّ وقالُون[(٥)] عن نافعٍ بإسكان الهاء من: «هو» و«هي» إذا كان قبلَها فاءٌ، أو واوٌ، أو لامٌ، أو ثُمَّ، وكذلك فعَلَ أبو عَمرو إلَّا مع ثُمَّ[(٦)].

---

(١) معاني القرآن ١/١٠٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٨.

(٣) في (د) و(ز): بالامتلاس.

(٤) المحرر الوجيز ١/١١٥.

(٥) عيسى بن مينا، أبو محمد، مولى بني زريق، مقرئ المدينة، لقَّبه نافع بقالون لجودة قراءته، مات سنة (٢٢٠هـ). السير ١٠/٣٢٦.

(٦) التيسير ص ٧٢، وقوله: «ثمَّ» يعني في آية «القصص» ٦١: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾.

وزاد أبو عَوْن[1]، عن الحُلْواني[2]، عن قالُون إسكانَ الهاء من ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والباقون بالتحريك[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فيه سبعَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إذ» و «إذا» حرفا توقيتٍ؛ فـ «إذ» للماضي، و«إذا» للمستقبل، وقد تُوضَعُ إحداهُما موضعَ الأخرى. وقال المُبَرِّد: إذا جاء «إذ» مع مستقبلٍ كان معناه ماضياً، نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. معناه: إذ مكروا، وإذ قلتَ، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]، أي: يجيء. وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عُبَيدة[4]: «إذ» زائدةٌ، والتقدير: وقال ربُّك. واستشهد بقول الأسود بن يَعْفُر[5]:

فإذ وذلك لا مَهَاهَ لِذِكْرِه ... والدَّهْرُ يُعْقِبُ صالحاً بفسادِ[6]

---

(١) محمد بن عمرو بن عون السلمي الواسطي، المقرئ، المحدث، قيل: مات قبل سنة (٢٧٠هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢١.

(٢) هو أحمد بن يزيد، أبو الحسن، مات سنة (٢٥٠هـ). طبقات القراء ١/ ١٤٩.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٢٣٤، وما ذكره المصنف عن قالون هو من طريق النشر ٢/ ٢٠٩.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٦ - ٣٧.

(٥) هو أبو الجراح، شاعر جاهلي، مقدم فصيح فحل، ليس بمكثر، كان ينادم النعمان بن المنذر، وكان ممن يهجو قومه، والبيت من قصيدة له مشهورة هي من مختار شعر العرب وروائعه. طبقات فحول الشعراء ١/ ١٤٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٠٥.

(٦) المفضليات ص ٢٢٠، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٦، وروايته: فإذا، بدل: فإذ. وذكر الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ١/ ٤٣٩ أن أبا عبيدة أخطأ فيه، وأن الشاهد في زيادة «إذا»=

وأنكر هذا القولَ الزجَّاجُ والنحَّاس وجميعُ المفسرين. قال النحَّاس: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ «إذ» اسمٌ، وهي ظرفُ زمانٍ، ليس ممَّا تُزاد[١]، وقال الزجَّاج: هذا اجترامٌ من أبي عُبيدة، ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَ الناسِ وغيرِهم، فالتقديرُ: وابتدأَ خَلْقَكُم إذ قال[٢]. فكان هذا من المحذوف الذي دلَّ عليه الكلام، كما قال[٣]:

فإنَّ المَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَها فسوفَ تُصادِفُه أينما

يريدُ: أينما ذهَبَ.

ويحتَمل أن تكون متعلِّقةً بفعل مقدَّر تقديرُه: واذكر إذ قال. وقيل: هو مردودٌ إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فالمعنى: الذي خلقكم إذ قال ربُّك للملائكة.

وقولُ الله تعالى وخطابُه للملائكة مُتَقَرِّرٌ قديمٌ في الأزل بشرطِ وجودِهم وفَهْمِهم، وهكذا[٤] البابُ كلُّه في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته. وهذا مذهبُ الشيخ أبي الحسن الأشعريِّ، وهو الذي ارتضاه أبو المعالي[٥]، وقد أتينا عليه في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنى وصفاتِ الله العُلَى»[٦].

والربُّ: المالكُ والسيِّدُ والمصلِحُ والجابِرُ، وقد تقدّم بيانه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الملائكةُ: واحدُها مَلَك. قال ابن كَيْسان

= لا في زيادة «إذ». اهـ قوله: لامهاه لذكره، يعني لا طعم ولا فضل. قاله أبو عبيدة.

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٠٧. وسقط من مطبوعه كلام أبي عبيدة!.

(٢) معاني القرآن ١/ ١٠٨. وفيه: إقدام، بدل: اجترام.

(٣) هو النَّمِر بن تولَب، والبيت في ديوانه ص ٣٧٨ (شعراء إسلاميون)، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٨، وتفسير الماوردي ١/ ٩٣، وخزانة الأدب ١١/ ١٠١.

(٤) في (د): وكذا، وفي (ظ): وهذا.

(٥) وقال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٦: المأثور عن أئمة الحديث والسنة أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوتُ المعين قديماً.

(٦) لم نقف عليه في المطبوع من الأسنى.

(٧) ص ٢١١.

وغيرُه: وزن مَلَك: فَعَل، من المُلْك[١].

وقال أبو عُبَيدة: هو مَفْعَل من لأَكَ: إذا أرسَلَ، والأَلُوكة والمَأْلَكة والمَأْلُكة: الرسالة. قال لَبِيد[٢]:

وغـلام أرسـلَـتْـهُ أمُّـه بـألُـوكٍ فـبـذَلْـنـا مـا سـأَلْ

وقال آخر:

أبْـلِـغ الـنُّـعْـمـانَ عَـنِّـي مَـأْلُـكـاً إنّـه[٣] قد طالَ حَـبْـسي وانـتـظاري[٤]

ويقال: ألِكْني، أي: أرسِلْني، فأصلُه على هذا: مَأْلَك، الهمزةُ فاءُ الفعل؛ لكنَّهم[٥] قلبوها إلى عينه، فقالوا: مَلْأَك، ثم سَهَّلوه فقالوا: مَلَك.

وقيل: أصلُه: مَلْأَك، من مَلَك يملِك، نحو شَمْأَل، من شَمَل، فالهمزةُ زائدةٌ. عن ابن كيسان أيضاً، وقد تأتي في الشعر على الأصل، قال الشاعر:

فـلـسـتَ لإنْـسِـيٍّ ولـكـنْ لِـمَـلْأَكٍ تَـنَـزَّلَ مـن جَـوِّ الـسـمـاء يَـصُـوبُ[٦]

وقال النَّضْر بنُ شُمَيْل: لا اشتقاقَ للمَلَك عند العرب. والهاء في الملائكة تأكيدٌ لتأنيث الجمع، ومثلُه: الصَّلادمة، والصَّلادم: الخيلُ الشِّداد، واحدُها صِلْدِم. وقيل: هي للمبالغة، كعلَّامة ونسَّابة.

وقال أرْبابُ المعاني: خاطَبَ الله الملائكةَ لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ١١٦. هو من: مَلَكَ يملك.

(٢) ديوانه ص ١٧٨.

(٣) في (م): إنني.

(٤) البيت لعدي بن زيد وهو في الشعر والشعراء ١/ ٢٢٩، وتفسير الطبري ١/ ٤٧٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، والأغاني ٢/ ١١٤، وخزانة الأدب ٨/ ٥١٣. وعند الطبري: مَلْأكاً، وقال: وقد ينشد: مَأْلكاً.

(٥) في (م): فإنهم.

(٦) نسب هذا البيت في المفضليات ص ٣٩٤، وتحصيل عين الذهب ص ٥٩٠ لعلقمة بن عبدة، وهو في زيادات ديوانه ص ١١٨. ونسب في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣، والصحاح: (ملك) لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك. وهو في كتاب سيبويه ٤/ ٣٨٠، والمنصف ٢/ ١٠٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٠٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، وتفسير الطبري ١/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ١/ ١١٦ غير منسوب.

فيهم من رؤية الحركات والعبادةِ والتسبيح والتقديس، ثم ردَّهم إلى قيمتهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعلٌ» هنا بمعنى خالق. ذكره الطبريُّ[١] عن أبي رَوْق، ويقضي بذلك تعدِّيها إلى مفعولٍ واحد، وقد تقدم[٢].

و«الأرض» قيل: إنَّها مكة. روى ابنُ سابطٍ[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: «دُحِيَتِ الأرضُ من مكة». ولذلك سُمِّيَتْ أمَّ القُرَى، قال: وقبرُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشُعَيب بين زمزم والركن والمقام[٤].

و«خليفة» يكون بمعنى فاعل، أي: يخلُفُ مَنْ كان قبلَه من الملائكة في الأرض، أو مَنْ كان قبلَه من غير الملائكة على ما رُوي. ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أي: يُخْلَفُ[٥]، كما يقال: ذبيحةٌ، بمعنى مفعولة[٦]. والخَلَف، بالتحريك: من الصالحين، وبتسكينها: من الطالحين، هذا هو المعروفُ. وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في الأعراف إن شاء الله[٧].

و«خليفة» بالفاء قراءةُ الجماعة، إلَّا ما رُوي عن زيد بن عليٍّ، فإنَّه قرأ: «خليقة» بالقاف[٨].

والمعني بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميعِ أهل التأويل: آدمُ

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٧٥، وانظر المحرر الوجيز ١/ ١١٦.

(٢) ص ٣٤٣.

(٣) عبد الرحمن بن سابط، ويقال: ابن عبد الله بن سابط، القرشي المكي الجمحي، كان كثير الحديث، مات سنة (١١٨هـ). تهذيب الكمال ١٧/ ١٢٣.

(٤) أخرجه الطبري ١/ ٤٧٦. وقال ابن كثير ١/ ٢١٥ بعد أن أورد الحديث من رواية ابن أبي حاتم: وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مدرج: وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. اهـ.

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): مخلف، والمثبت من (د).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧.

(٧) في تفسير الآية (١٦٩).

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١١٧. ولم نقف على من ذكر هذه القراءة الشاذة غيره.

عليه السلام[١]، وهو خليفةُ الله في إمضاء أحكامِه وأوامرِه، لأنّه أوّلُ رسولٍ إلى الأرض، كما في حديث أبي ذرٍّ؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أنبيًّا كان مُرسَلًا؟ قال: «نعم». الحديث[٢]. ويقال: لِمنْ كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ فيقال: كان رسولاً إلى ولدِه، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كلِّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى، وتوالدوا حتى كَثُروا، كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. وأنزلَ عليه[٣] تحريمَ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير، وعاش تسع مئة وثلاثين سنة. هكذا ذكر أهلُ التوراة، ورُوِيَ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنَّه عاشَ ألفَ سنة، والله أعلم.

الرابعة: هذه الآيةُ أَصْلٌ في نَصْبِ إمامٍ وخليفةٍ يُسْمَع له ويُطاع، لتجتمعَ به الكلمةُ، وتَنْفُذَ به أحكامُ الخليفة، ولا خلافَ في وجوب ذلك بين الأُمة ولا بين الأئمة، إلَّا ما رُوِيَ عن الأصمِّ[٤] حيث كان عن الشريعة أصمَّ، وكذلك كلُّ من قال بقوله واتَّبعه على رأيه ومذهبِه، قال: إنَّها غيرُ واجبةٍ في الدِّين، بل يَسُوغُ ذلك، وإنَّ الأُمةَ متى أقاموا حَجَّهم وجهادَهم، وتَناصَفُوا فيما بينهم، وبذَلوا الحقَّ من أنفسهم، وقَسَمُوا الغنائمَ والفَيْءَ والصَّدَقاتِ على أهلها، وأقاموا الحدودَ على مَنْ وَجَبَتْ عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجبُ عليهم أن ينصبوا إماماً يتولَّى ذلك!

ودليلُنا قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، أي: يجعَلُ منهم خلفاءَ، إلى غير ذلك من الآي.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره: وفي ذلك نظر، بل الخلافُ في ذلك كثير، حكاه الرازي في تفسيره وغيرُه، والظاهر أنه لم يُرِدْ آدمَ عَيْناً. اهـ وقول ابن مسعود وابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧٩-٤٨٠، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١٧.

(٢) أخرجه الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٢١٥٥٢)، وأخرجه مطولاً ابن حبان (٣٦١).

(٣) في (م): عليهم.

(٤) هو عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر، شيخ المعتزلة، صاحب مقالات في الأصول، وله تفسير عجيب، وكتاب خلق القرآن، وافتراق الأمة، والرد على الملحدة وغيرها، مات سنة (٢٠١هـ). السير ٩/ ٤٠٢، ولسان الميزان ٣/ ٤٢٧.

وأجمعت الصَّحابةُ على تقديم الصِّدِّيق بعد اختلافٍ وقَعَ بين المهاجرين والأنصار في سَقِيفَة بني ساعِدَة في التعيين، حتى قالت الأنصار: منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فدَفَعهم أبو بكر وعمرُ والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم: إنَّ العربَ لا تَدِينُ إلَّا لهذا الحَيِّ من قريش، ورَوَوْا لهم الخبرَ في ذلك[1]، فرجعوا وأطاعوا لقريش، فلو كان فرضُ الإمامة غيرَ واجبٍ لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرةُ والمحاورةُ عليها، ولَقال قائل: إنَّها ليست بواجبةٍ لا في قريش ولا في غيرهم[2]، فما لتنازعهم[3] وجهٌ ولا فائدةٌ في أمرٍ ليس بواجب، ثم إنَّ الصِّديقَ رضي الله عنه لمَّا حضرته الوفاةُ عَهِدَ إلى عمر في الإمامة[4]، ولم يقل له أحدٌ: هذا أمرٌ غيرُ واجب علينا ولا عليك، فدلَّ على وجوبها، وأنَّها ركنٌ من أركان الدِّين الذي به قِوام المسلمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقالت الرافضة: يجبُ نَصْبُه عقلاً، وإنَّ السمعَ إنَّما وردَ على جهة التأكيد لقضية العقل، فأمَّا معرفةُ الإمام فإنَّ ذلك مُدْرَكٌ من جهة السمع دون العقل. وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ العقلَ لا يُوجِبُ ولا يحظُرُ ولا يُقَبِّح ولا يُحسِّن، وإذا كان كذلك ثبتَ أنَّها واجبةٌ من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضحٌ.

فإن قيل وهي

الخامسة: إذا سلم أنَّ طريقَ وجوبِ الإمامة السمعُ، فخبِّرونا هل يجبُ من جهة السَّمع بالنَّصِّ على الإمام من جهة الرسول ﷺ، أم من جهة اختيارِ أهل الحَلِّ والعَقْد له، أم بكمال خصالِ الأئمة فيه، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كافٍ فيه؟.

فالجواب أن يقال: اختلفَ الناسُ في هذا الباب: فذهبت الإماميَّةُ وغيرُها إلى أن

---

(١) حديث السقيفة أخرجه أحمد (٣٩١) والبخاري (٦٨٣٠) من حديث عمر، وأخرجه الإمام أحمد (١٨) مختصراً من حديث أبي بكر، وفيه: «قريش ولاة الأمر، فبرُّ الناس تبعٌ لِبرِّهم، وفاجرُهم تبع لفاجرهم». وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) ولفظه: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم». وانظر ص ٢٧٠ من هذا الجزء، وتفسير الآية (٤٠) من سورة التوبة.

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص ١٩.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): لتنازعكم، والمثبت من (د).

(٤) أخرجه هناد في الزهد (٤٩٦).

الطريق الذي يُعرفُ به الإمام هو النصُّ من الرسول ﷺ، ولا مَدْخَل للاختيار فيه، وعندنا: النَّظَرُ طريقٌ إلى معرفة الإمام، وإجماعُ أهل الاجتهاد طريقٌ أيضاً إليه، وهؤلاء الذين قالوا: لا طريقَ إليه إلَّا النصُّ، بَنَوْه على أصلهم أنَّ القياسَ والرأيَ والاجتهادَ باطلٌ لا يُعْرَفُ به شيءٌ أصلاً، وأبطلوا القياسَ أصلاً وفرعاً.

ثم اختلفوا على ثلاثِ فرقٍ:

فرقة تدَّعي النصَّ على أبي بكر، وفرقة تدَّعي النصَّ على العباس، وفرقة تدَّعي النصَّ على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

والدليل على فَقْد النص وعدمِه على إمامٍ بعينه هو أنَّه ﷺ لو فرضَ على الأمة طاعة إمام بعينه بحيثُ لا يجوزُ العُدُولُ عنه إلى غيره، لعُلِمَ ذلك، لاستحالة تكليفِ الأُمَّة بأسْرِها طاعةَ الله في غير معيَّن، ولا سبيلَ لهم إلى العلم بذلك التكليف، وإذا وَجَبَ العلمُ به لم يَخْلُ ذلك العلمُ من أن يكون طريقُه أدلَّةَ العقول أو الخبرَ، وليسَ في العقل ما يدلُّ على ثبوت الإمامة لشخص معيَّن، وكذلك ليس في الخبر ما يُوجِبُ العلمَ بثبوتِ إمام معيَّن، لأنَّ ذلك الخبرَ إمَّا أن يكون تواتراً أوجَبَ العلمَ ضرورةً أو استدلالاً، أو يكونَ من أخبارِ الآحاد، ولا يجوزُ أن يكون طريقُه التواترَ الموجِبَ للعلم ضرورةً أو دلالةً، إذْ لو كان كذلك لكان كلُّ مُكَلَّفٍ يجدُ من نفسه العلمَ بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن، وأنَّ ذلك مِنْ دِينِ الله عليه، كما أنَّ كلَّ مكلَّفٍ عَلِمَ أنَّ مِنْ دين الله الواجبِ عليه خمسَ صلواتٍ، وصومَ رمضان، وحجَّ البيت، ونحوَها، ولا أحدَ يعلمُ ذلك من نفسه ضرورةً، فبطَلَت هذه الدَّعوى، وبَطَلَ أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد؛ لاستحالة وقوعِ العلمِ به.

وأيضاً؛ فإنَّه لو وجَبَ المصيرُ إلى نقل النصِّ على الإمام بأيِّ وجهٍ كان، وجَبَ إثباتُ إمامةِ أبي بكر والعباس، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهما قوماً ينقُلُون النصَّ صريحاً في إمامته، وإذا بطَلَ إثباتُ الثلاثةِ بالنصِّ في وقت واحد؛ على ما يأتي بيانُه؛ كذلك الواحدُ، إذ ليس أحدُ الفِرَقِ أولى بالنصِّ من الآخَر، وإذا بَطَلَ ثبوتُ النصِّ لعدم الطريق المُوصِلِ إليه، ثَبَتَ الاختيارُ والاجتهادُ.

فإنْ تعسَّفَ مُتَعَسِّفٌ وادَّعَى التواترَ والعلمَ الضروريَّ بالنَّصِّ فينبغي أن يُقابَلوا على الفَوْرِ بنقيض دعواهم في النصِّ على أبي بكر، وبأخبارٍ في ذلك كثيرةٍ تقومُ أيضاً في

جملتها مقامَ النصّ. ثم لا شكَّ في تصميم مَنْ عدا الإماميَّةَ على نفي النصّ، وهم الخلقُ الكثيرُ والجمُّ الغفير، والعلمُ الضروريُّ لا يجتمعُ على نفيه مَنْ ينحطُّ عن مِعْشار أعداد مخالفي الإماميَّة، ولو جاز ردُّ الضروريِّ في ذلك، لجاز أن يُنكِر طائفةٌ بغدادَ والصِّينَ الأقصى وغيرهما[١].

السادسة: في ردِّ الأحاديث التي احتجَّ بها الإماميةُ في النصِّ على عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ الأمة كفرَتْ بهذا النصِّ وارتدَّت، وخالفت أمرَ الرسول عِناداً:

منها قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كنتُ مَوْلاه فَعَليٌّ مَوْلاه، اللهمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»[٢]. قالوا: والمَوْلى في اللغة بمعنى أولى، فلمَّا قال: «فعليٌّ مولاه» بفاء التعقيب، عُلِمَ أنَّ المرادَ بقوله: «مَوْلى» أنَّه أحقُّ وأوْلَى، فوجَبَ أن يكون أراد بذلك الإمامةَ، وأنَّه مفتَرَضُ الطاعة!

وقولُه عليه الصلاة والسلام لعليٍّ: «أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»[٣]. قالوا: ومنزلةُ هارون معروفةٌ، وهو أنَّه كان مشاركاً له في النبوة، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان أخاً له، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان خليفةً، فعُلِمَ أنَّ المرادَ به الخلافةُ! إلى غير ذلك ممَّا احتجُّوا به، على ما يأتي ذِكْرُه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[٤].

والجواب عن الحديث الأول: أنَّه ليس بمتواترٍ، وقد اختُلِفَ في صحَّته[٥]، وقد

---

(١) الإرشاد للجويني ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) أخرجه بتمامه أحمد في مسنده (٩٥٠) من حديث علي، وبرقم (١٨٤٧٩) من حديث البراء بن عازب، وبرقم (١٩٣٠٢) من حديث علي وزيد بن أرقم، وأخرج شطره الأول أحمد كذلك (٢٣١٠٧) من حديث خمسة أو ستة من أصحاب النبي ﷺ، وبرقم (٢٣٥٦٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري، وأورد السيوطي شطره الأول في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة ص ١٣١، ونقل ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ١٨٨ عن الذهبي قوله: صدر الحديث متواتر، أتيقَّن أن رسول الله ﷺ قاله، وأما: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فزيادة قوية الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص. وأورده السيوطي في الأزهار المتناثرة (١٠١).

(٤) في تفسير الآية (١٤٢) من سورة الأعراف.

(٥) ينظر منهاج السنة لابن تيمية ٧/ ٣١٩ وما بعدها.

طعَنَ فيه أبو داود السجستانيُّ وأبو حاتم الرازيُّ[١]، واستدلَّا على بطلانه بأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مُزَينةُ وجُهَينةُ وغِفارُ وأَسْلَمُ مواليَّ دون الناس كلِّهم، ليس لهم مَوْلى دون الله ورسوله»[٢]. قالوا: فلو كان قد قال: «مَنْ كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه» لكان أحدُ الخبرَيْنِ كَذِباً.

جواب ثانٍ: وهو أنَّ الخبرَ؛ وإنْ كان صحيحاً؛ رواه ثقة عن ثقةٍ، فليس فيه ما يدلُّ على إمامتِه، وإنَّما يَدُلُّ على فضيلته، وذلك أنَّ المَوْلَى بمعنى الوليِّ، فيكون معنى الخبر: من كنتُ وَلِيَّه فعليٌّ وَلِيُّه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤]، أي: وَلِيُّه، فكان المقصودُ من الخبر أنْ يعلمَ الناسُ أنَّ ظاهرَ عليٍّ كباطنِه، وذلك فضيلةٌ عظيمةٌ لعليٍّ.

جواب ثالث: وهو أنَّ هذا الخبرَ وَرَدَ على سبب، وذلك أنَّ أسامةَ وعليًّا اختصما، فقال عليٌّ لأسامة: أنتَ مولاي، فقال: لستُ مولاكَ، بل أنا مَوْلى رسولِ الله ﷺ، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ، فقال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[٣].

جواب رابع: وهو أنَّ عليًّا عليه السلام لمَّا قال للنبيِّ ﷺ في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها: النساءُ سواها كثيرٌ، شقَّ ذلك عليها، فوجَدَ أهلُ النفاق مجالًا، فطعنوا عليه وأظهروا البراءةَ منه، فقال النبيُّ ﷺ هذا المقالَ ردًّا لقولهم، وتكذيباً لهم فيما أقدَموا[٤] عليه من البراءة منه والطعنِ فيه[٥]، ولهذا ما رُوي عن جماعةٍ من الصحابة أنَّهم قالوا: ما كنَّا نعرفُ المنافقين على عهدِ رسول الله ﷺ إلَّا ببغضهم لعليٍّ عليه السلام[٦].

---

(١) ينظر الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ١/١٠٧.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٢)، ومسلم (٢٥٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) سلف تخريج الحديث، ولم نقف على هذه القصة.
(٤) في (م): قدموا.
(٥) قصة الإفك أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
ولم نقف على من ذكر أن النبي ﷺ قال هذا الحديث ردًّا على أهل النفاق في تلك الحادثة.
(٦) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٠٨٦) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه الترمذي (٣٧١٧) من طريق أبي هارون عمارة بن جُوين العَبْدي، عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث=

وأما الحديث الثاني، فلا خلافَ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُرِدْ بمنزلة هارون من موسى الخلافةَ بعدَه، ولا خلافَ أنَّ هارونَ مات قبل موسى عليهما السلام ـ على ما يأتي من بيانِ وفاتيهما في سورة المائدة[١] ـ وما كان خليفةً بعدَه، وإنَّما كان خليفة[٢] يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى» الخلافةَ، لقال: أنت منِّي بمنزلة يُوشع من موسى، فلمَّا لم يقل هذا، دلَّ على أنَّه لم يُرِدْ هذا، وإنَّما أراد: إنِّي استخلفتُك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمَّا خرج إلى مناجاة رَبِّه. وقد قيل: إنَّ هذا الحديثَ خرج على سببٍ[٣]، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا خرَجَ إلى غَزْوة تبُوك، استخلَفَ عليًّا عليه السلام في المدينة على أهله وقومِه، فأرجَفَ[٤] أهلُ النفاق، وقالوا: إنَّما خلَّفَه بُغْضاً وقِلًى له، فخرج عليٌّ، فلحِقَ بالنبيِّ ﷺ، وقال له: إنَّ المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال: «كَذَبوا، بل خلَّفتُكَ كما خلَّفَ موسى هارونَ». وقال: «أما تَرْضَى أن تكون منِّي بمنزلة هارونَ من موسى؟»[٥].

وإذا ثبَتَ أنَّه أراد الاستخلافَ على زعمهم، فقد شارك عليًّا في هذه الفضيلة غيرُه؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ استخلَفَ[٦] في كلِّ غَزاةٍ غزاها رجلاً من أصحابه، منهم: ابنُ أُمِّ مكتوم[٧]، ومحمد بنُ مَسْلَمة[٨]، وغيرُهما من أصحابه، على أنَّ مدارَ هذا الخبرِ

= غريب، إنما نعرفه من حديث أبي هارون، وقد تكلم شعبة في أبي هارون، وقال فيه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَنْ كذَّبه.

(١) في الآية (٢٦).

(٢) في (م): الخليفة.

(٣) الإرشاد للجويني ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٤) في (م): أرجف به.

(٥) أخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (٨٠٨٢) من حديث سعد بن أبي وقاص، وابن سعد ٣/ ٢٤ من حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم. وانظر ما سلف ص ٣٩٨، تعليق رقم (٣).

(٦) في (د): خلف.

(٧) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو داود (٢٩٣١)، وابن حبان (٢١٣٤) من حديث أنس بن مالك.

(٨) ذكر ابن سعد ٢/ ١٦٥ أنَّ النبي ﷺ استخلف محمد بن مسلمة على المدينة حين خرج إلى تبوك، ثم قال: وهو أثبت عندنا ممن قال: استخلف غيره. وقيل: إنه استخلفه في غزوة قرقرة الكُدْر، فيما ذكر=

على سعد بن أبي وَقَّاص، وهو خبرُ واحدٍ[١]. ورُوِيَ في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أَولى منه. ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ لما أنْفَذَ معاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليمن قيل له: ألا تُنْفِذُ أبا بكر وعمر؟ فقال: «إنَّهما لا غِنَى بي عنهما، إنَّ منزلَتَهما منِّي بمنزلة السَّمع والبصر من الرأس»[٢]. وقال: «هما وَزِيرايَ في أهلِ الأرض»[٣]. ورُوي عنه عليه السلام أنَّه قال: «أبو بكرٍ وعمرُ بمنزلة هارون من موسى»[٤]. وهذا الخبرُ ورد ابتداءً، وخبرُ عليٍّ ورَدَ على سببٍ، فوجَبَ أن يكون أبو بكرٍ أولى منه بالإمامة، والله أعلم.

السابعة: واختُلِفَ فيما يكون به الإمامُ إماماً، وذلك ثلاث طرق: أحدُها: النصُّ، وقد تقدَّم الخلافُ فيه، وقال به أيضاً الحنابلةُ، وجماعةٌ من أصحاب الحديث، والحَسَنُ البصريُّ، وبَكْر ابنُ أختِ عبد الواحد[٥] وأصحابُه، وطائفةٌ من

= ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠/ ٤٥، وابن الأثير في أسد الغابة ٥/ ١١٢.
ومحمد بن مسلمة هو أبو عبد الله الأنصاري الأوسي، شهد بدراً وغيرها، وكان ممن اجتنب الفتنة فلم يحضر الجمل ولا صفين، مات سنة (٤٣هـ). السير ٢/ ٣٦٩.

(١) سلف في تخريج الحديث ص ٣٩٨ أن السيوطي عده من الأحاديث المتواترة.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٤٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو. ولفظه: «إن منزلتهما من الدين بمنزلة السمع والبصر من الجسد»، وفي إسناده بقية بن الوليد، مدلِّس، وقد عنعن، وفيه أيضاً من لم نعرفه. وأخرجه بنحوه كذلك أبو نعيم في الحلية ٤/ ٧٣ من حديث ابن عباس، وفيه الوليد بن الفضل العنزي، قال ابن حبان: يروي موضوعات، لا يجوز الاحتجاج به بحال. وأخرجه بنحوه كذلك الطبراني في الأوسط (٤٩٩٦)، وابن عدي ٢/ ٧٨٦ من حديث ابن عمر، وفيه حمزة بن أبي حمزة النصيبي: كان يضع الحديث.
وأخرجه بنحوه كذلك الحاكم ٣/ ٧٤ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه حفص بن عمر العدني، قال الذهبي: هو واهٍ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفي إسناده عطية ا لعوفي، وهو ضعيف. قال الترمذي: هذا حسن غريب.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٣٠، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥ من حديث ابن عباس. وهو حديث منكر فيما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٩٠.

(٥) هو البصري الزاهد، قال الحافظ في لسان الميزان ٢/ ٦٠: ذكره ابن حزم في الملل والنحل في جملة الخوارج، وعبد الواحد: هو ابن زيد البصري الزاهد شيخ الصوفية. لسان الميزان ٤/ ٨١.

الخوارج. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ نصَّ على أبي بكر بالإشارة[١]، وأبو بكر على عمر[٢].

فإذا نصَّ المسْتَخْلِفُ على واحدٍ معيَّنٍ كما فعلَ الصدِّيقُ، أو على جماعةٍ كما فعل عمر[٣] ـ وهو الطريقُ الثاني ـ ويكون التخييرُ إليهم في تعيين واحد منهم كما فعلَ الصحابةُ رضي الله عنهم.

الطريقُ الثالث: إجماعُ أهل الحَلِّ والعَقْد، وذلك أنَّ الجماعةَ في مصرٍ من أمصار المسلمين إذا ماتَ إمامُهم ولم يكن لهم إمامٌ، ولا اسْتَخْلَفَ، فأقام أهلُ ذلك المِصْرِ الذي هو حضرةُ الإمامِ وموضعُه إماماً لأنفسهم اجتمعوا[٤] عليه ورَضُوه، فإنَّ كلَّ مَنْ خَلْفَهم وأمامَهم من المسلمين في الآفاق يَلزمُهم الدخولُ في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمامُ مُعْلِناً بالفسق والفساد، لأنَّها دعوةٌ محيطةٌ بهم، تجبُ إجابتُها، ولا يَسَعُ أحداً التخلُّفُ عنها، لما في إقامة إمامَيْنِ من اختلاف الكلمةِ وفسادِ ذات البَيْن، قال رسول الله ﷺ : «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ: إخلاصُ العمل لله، ولزومُ الجماعة، ومناصحةُ وُلاةِ الأمر، فإنَّ دعوةَ المسلمين من ورائهم محيطةٌ»[٥].

الثامنة: فإنْ عَقَدَها واحدٌ من أهل الحَلِّ والعَقْد، فذلك ثابت، ويلزمُ الغيرَ فعلُه، خلافاً لبعض الناس حيث قال: لا تنعقدُ إلا بجماعةٍ من أهل الحَلِّ والعَقْد، ودليلُنا أنَّ عمر رضي الله عنه عقَدَ البيعةَ لأبي بكرٍ، ولم يُنْكِرْ أحدٌ من الصحابة ذلك[٦]، ولأنَّه عقدٌ، فوجَبَ ألا يفتقر إلى عددٍ يعقدونه، كسائر العقود. قال الإمام

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري (٧٢١٧)، ومسلم (٢٣٨٧) ـ واللفظ له ـ من حديث عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً؛ فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».
ومن ذلك أيضاً ما أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥)، والترمذي (٣٦٦٢)، و ابن ماجه (٩٧) من حديث حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر». قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) سلف تخريجه ص ٣٩٦.

(٣) سيرد تخريجه ص ٤٠٣.

(٤) في (ز) و(ظ): أجمعوا.

(٥) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، وابن ماجه (٣٠٥٦) من حديث جبير بن مطعم. وأخرجه أحمد كذلك (٢١٥٩٠) من حديث زيد بن ثابت. وينظر التمهيد ٢١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٦) سلف حديث السقيفة ص ٣٩٦.

أبو المَعالي[١]: من انعقدت له الإمامةُ بعقدٍ واحدٍ فقد لزمت، ولا يجوزُ خلعُه من غير حَدَث وتغيُّرِ أمرٍ، قال: وهذا مُجْمَعٌ عليه.

التاسعة: فإنْ تَغَلَّبَ مَنْ له أهليَّةُ الإمامة، وأخَذَها بالقَهْر والغَلَبَة، فقد قيل: إنَّ ذلك يكون طريقاً رابعاً، وقد سُئل سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ[٢]: ما يجبُ علينا لمن غَلَبَ على بلادنا وهو إمام؟ قال: تُجيبُه، وتؤدِّي إليه ما يُطالبُكَ[٣] من حقِّه، ولا تُنكِرُ فِعالَه، ولا تَفِرُّ[٤] منه، وإذا ائتمنَك على سرٍّ من أمرِ الدِّين لم تُفْشِهِ. وقال ابن خُوَيزمَنداد[٥]: ولو وثبَ على الأمرِ مَنْ يصلُحُ له من غير مشورةٍ ولا اختيارٍ، وبايَعَ له الناسُ، تَمَّتْ له البَيْعة، والله أعلم.

العاشرة: واختُلف في الشهادة على عَقْدِ الإمامة، فقال بعضُ أصحابنا: إنَّه لا يفتقرُ إلى الشهود؛ لأنَّ الشهادةَ لا تثبُتُ إلَّا بسمعٍ قاطعٍ، وليس هاهنا سمعٌ قاطعٌ يدلُّ على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يَفْتَقِرُ إلى شهودٍ، فمن قال بهذا احتجَّ بأن قال: لو لم تعقد فيه الشهادةُ أدَّى إلى أن يَدَّعيَ كلُّ مدَّعٍ أنَّه عُقِدَ له سرًّا، ويؤدِّي إلى الهَرْج والفتنة، فوجَبَ أن تكونَ الشهادةُ معتبرةً، ويكفي فيها شاهدان، خلافاً للجبَّائيِّ[٦] حيث قالَ باعتبارِ أربعةِ شهودٍ وعاقدٍ ومعقودٍ له؛ لأنَّ عمر حيثُ جعلَها شُورى في ستةٍ دلَّ على ذلك[٧]. ودليلُنا أنَّه لا خلافَ بيننا وبينه أنَّ شهادةَ الاثنين معتبرةٌ، وما زادَ مختلَفٌ فيه، ولم يدلَّ عليه الدليلُ، فيجب ألَّا يُعتبر.

---

(١) في الإرشاد ص ٣٥٨.

(٢) أبو محمد الزاهد، صحب ذا النون المصري، مات سنة (٢٨٣هـ). السير ١٣/ ٣٣٠.

(٣) في (ظ): يطالبك به.

(٤) في (ظ): تنفر.

(٥) في (د): خواز منداد، وفي (ز): خواز منداذ، وفي (ظ): خوازبنداد، والمثبت من (م). وانظر ص ١٨٠.

(٦) المعروف بهذه النسبة: محمد بن عبد الوهاب البصري، أبو علي، شيخ المعتزلة، له كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الأسماء والصفات وغيرها، مات سنة (٣٠٣هـ). السير ١٤/ ١٨٣. وابنُه عبد السلام، أبو هاشم المعتزلي، له كتاب الجامع الكبير، وكتاب العَرَض، وغيرهما، مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٥/ ٦٣.

(٧) أخرج البخاري (١٣٩٢) من طريق عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر رضي الله عنه قال: إني لا أعلم أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة، فاسمعوا وأطيعوا، فسمى عثمانَ وعليًّا وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن بنَ عوف وسعدَ بنَ أبي وقاص.

الحاديةَ عشرة: في شرائط الإمام[١]، وهي أحدَ عشر:

الأوَّل: أن يكون من صميمِ قريشٍ؛ لقوله ﷺ: «الأئمةُ من قريش»[٢]. وقد اختُلِف في هذا.

الثاني: أن يكون ممَّن يصلُحُ أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين، مجتهداً لا يحتاجُ إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث؛ وهذا مُتَّفَقٌ عليه.

الثالث: أن يكون ذا خبرةٍ ورأيٍ حَصيفٍ بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسدِّ الثُّغور، وحمايةِ البيضة، ورَدْعِ الأُمة، والانتقامِ من الظالم، والأخذِ للمظلوم.

الرابع: أن يكون ممَّن لا تلحقه رِقَّةٌ في إقامة الحدود، ولا فَزَعٌ من ضربِ الرقاب، ولا قطعِ الأبشار.

والدليلُ على هذا كلِّه إجماعُ الصحابة رضي الله عنهم، لأنَّه لا خلافَ بينهم أنَّه لا بدَّ من أن يكون ذلك كلُّه مجتمعاً فيه، ولأنَّه هو الذي يولِّي القُضاةَ والحُكَّامَ، وله أن يُباشرَ الفَصْلَ والحُكْمَ، ويتفحَّصَ أمورَ خلفائه وقُضاتِه، ولن يصلُحَ لذلك كلِّه إلَّا من كان عالماً بذلك كلِّه قيِّماً به[٣].

الخامس: أن يكون حُرًّا، ولا خَفاءَ باشتراطِ حرِّيةِ الإمام وإسلامِه، وهو السادس.

السابع: أن يكون ذكراً، سليمَ الأعضاء، وهو الثامن.

وأجمعوا على أنَّ المرأةَ لا يجوزُ أن تكون إماماً، وإن اختلفوا في جواز كونِها قاضيةً فيما تجوزُ شهادتُها فيه.

التاسع والعاشر: أن يكون بالغاً عاقلاً، ولا خلافَ في ذلك.

الحادي عشر: أن يكون عَدْلاً؛ لأنَّه لا خلافَ بين الأُمَّة أنَّه لا يجوزُ أن تُعقَدَ الإمامةُ لفاسقٍ.

---

(١) ينظر الإرشاد للجويني ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٠٧)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه الطيالسي (٩٦٨)، وأحمد (١٩٧٧٧) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٣) في (م) زيادة: والله أعلم.

ويجبُ أن يكون من أفضلِهم في العلم، لقوله عليه السلام: «أئمَّتُكم شفعاؤكم، فانظروا بمن تستشفعون»[١]. وفي التنزيل في وصف طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فبدأ بالعلم، ثم ذكرَ ما يدلُّ على القوَّةِ وسلامةِ الأعضاء. وقوله: «اصطفاه» معناه: اختاره، وهذا يدلُّ على شرطِ النَّسَب.

وليس من شرطِه أن يكون معصوماً من الزَّلَلِ والخطأ، ولاعالماً بالغيب، ولا أفرَسَ الأُمة، ولا أشْجَعَهم، ولا أن يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قريش، فإنَّ الإجماعَ قد انعقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، وليسوا من بني هاشم.

الثانية عشرة: يجوز نصبُ المفضول مع وجودِ الفاضل[٢] خوفَ الفتنةِ وألَّا يستقيمَ أمرُ الأُمة، وذلكَ أنَّ الإمامَ إنَّما نُصِبَ لدفعِ العدوِّ، وحمايةِ البَيْضَةِ، وسَدِّ الخَلَل، واستخراجِ الحقوق، وإقامة الحدود، وجباية[٣] الأموال لبيت المال وقسمتِها على أهلها، فإذا خيفَ بإقامةِ الأفضل الهَرْجُ والفسادُ وتعطيلُ الأمور التي لأجلها يُنْصَبُ الإمامُ، كان ذلك عُذْراً ظاهراً في العدول عن الفاضل إلى المفضول، ويدلُّ على ذلك أيضاً علمُ عمرَ وسائرِ الأمة وقت الشُّورى بأنَّ الستةَ فيهم فاضلٌ ومفضولٌ، وقد أجازَ العقدَ لكلِّ واحدٍ منهم إذا أدَّى المصلحةَ إلى ذلك، واجتمعت كلمتُهم عليه من غير إنكارِ أحدٍ عليه[٤]، والله أعلم.

الثالثةَ عشرة: الإمامُ إذا نُصِبَ، ثم فَسَقَ بعد انبرامِ العَقْدِ:

فقال الجمهور: إنَّه تنفسخُ إمامتُه، ويُخلع بالفسقِ الظاهر المعلوم، لأنَّه قد ثبتَ أنَّ الإمامَ إنَّما يُقام لإقامة الحدود، واستيفاءِ الحقوق، وحفظِ أموالِ الأيتامِ

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وذكره ابن قدامة في المغني ٣/ ٤٠٩. وأخرج الدارقطني في السنن ٢/ ٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «اجعلوا أئمتكم خياركم، فإنهم وَفْدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل». قال البيهقي: إسناد هذا الحديث ضعيف. وسيورده المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] المسألة الرابعة والعشرون.

(٢) في (ز) و(ظ): الأفضل.

(٣) في (د): وحيازة.

(٤) في (م): عليهم.

والمجانينِ والنظرِ في أمورهم، إلى غير ذلك ممَّا تقدَّم ذِكْره، وما فيه من الفسق يُقْعِدُه عن القيام بهذه الأمور والنهوضِ بها[١]، فلو جوَّزْنا أن يكون فاسقاً، أدَّى إلى إبطال ما أُقيمَ لأجله، ألا ترى في الابتداء أنَّما لم يَجُزْ أن يُعقَدَ للفاسق لأجل أنَّه يؤدي إلى إبطال ما أُقيم له؟ وكذلك هذا مثلُه.

وقال آخرون: لا ينخلعُ إلَّا بالكفرِ، أو بتركِ إقامةِ الصلاة، أو التَّركِ إلى دعائها، أو شيءٍ من الشريعة، لقوله عليه السلام في حديث عُبادة: وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه. [قال]: «إلَّا أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً، عندَكم من الله فيه برهانٌ»[٢].

وفي حديث عوفِ بنِ مالك[٣]: «لا، ما أقامُوا فيكم الصلاةَ»[٤] الحديث[٥]. أخرجَهما مسلم. وعن أمِّ سَلَمةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّه يُستَعمَلُ[٦] عليكم أمراءُ، فتَعرِفُون وتُنْكِرون، فمن كَرِهَ فقد بَرِئ، ومَنْ أنْكَرَ فقد سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابَعَ»[٧]. قالوا: يا رسول الله، ألَا نُقاتِلُهم؟ قال: «لا، ما صَلَّوْا». أي: من كَرِه بقلبه وأنكر بقلبه. أخرجه أيضاً مسلم[٨].

الرابعةَ عشرة: ويجبُ عليه أن يخلَعَ نفسَه إذا وجدَ في نفسه نقصاً يؤثِّر في الإمامة، فأمَّا إذا لم يجد نَقْصاً؛ فهل له أن يَعزِلَ نفسَه ويعقِدَ لغيره؟ اختلَفَ الناسُ فيه: فمنهم من قال: ليس له أن يَفْعَلَ ذلك، وإن فعلَ لم تَنْخَلِعْ إمامتُه. ومنهم من قال: له أن يفعل ذلك.

والدليلُ على أنَّ الإمامَ إذا عَزَلَ نفسَه انعزل: قولُ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: أقِيلُوني، أقِيلُوني. وقولُ الصحابة: لا نُقِيلُكَ ولا نستقيلُك، قدَّمك رسولُ الله ﷺ

(١) في النسخ: والنهوض فيها، والمثبت من (م).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٠) وما بين حاصرتين منه.
(٣) هو أبو عبد الرحمن، الأشجعي الغطفاني، شهد فتح مكة وغزوة مؤتة، مات سنة (٧٣هـ). السير ٢/ ٤٨٧.
(٤) صحيح مسلم (١٨٥٥)، وهو في المسند (٢٣٩٨١).
(٥) في (ز): والحديثين.
(٦) في (د): سيستعمل.
(٧) في (ظ): ويابع.
(٨) رقم (١٨٥٤) (٦٣)، وهو في المسند (٢٦٥٢٨).

لِدِينِنا، فمَنْ ذا يؤخِّرك؟ رَضِيَكَ رسولُ الله ﷺ لِدِينِنا فلا[1] نرضاك؟![2]» فلو لم يكن له أن يفعلَ ذلك لأنكرت الصحابةُ ذلك عليه، ولقالت له: ليس لك أن تقول هذا، وليس لك أن تفعلَه، فلمَّا أقرَّته الصحابةُ على ذلك، عُلِمَ أنَّ للإمام أن يفعلَ ذلك، ولأنَّ الإمامَ ناظرٌ للغير[3]، فيجب أن يكونَ حكمُه حكمَ الحاكمِ والوكيلِ إذا عزَلَ نفسَه، فإنَّ الإمامَ هو وكيلُ الأمةِ ونائبٌ عنها، ولمَّا اتُّفِقَ على أنَّ الوكيلَ والحاكمَ وجميعَ مَنْ نابَ عن غيره في شيءٍ له أن يَعْزِلَ نفسَه، كذلك الإمامُ يجبُ أن يكونَ مثلَه. والله أعلم.

الخامسةَ عشرة: إذا انعقدت الإمامةُ باتفاق أهلِ الحَلِّ والعَقْد - أو بواحدٍ على ما تقدَّم - وجَبَ على الناس كافَّةً مبايعتُه على السمع والطاعة، وإقامةِ كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ومن تَأَبَّى عن البَيعة لعُذْرٍ عُذِرَ، ومَنْ تَأَبَّى لغيرِ عُذْر جُبِرَ وقُهِرَ، لئلَّا تفترق كلمةُ المسلمين.

وإذا بُويع لخليفتين، فالخليفةُ الأول، وقُتِلَ الآخرُ، واختُلف في قتله: هل هو محسوسٌ، أو معنًى؛ فيكونَ عزلُه قتلَه وموتَه؟ والأوَّلُ أظهَرُ. قال رسول الله ﷺ: «إذا بُويعَ لخليفتين فاقْتُلُوا الآخَرَ منهما». رواه أبو سعيد الخُدريُّ، أخرجه مسلم[4].

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمعَه يقول: «ومَنْ بايَعَ إماماً، فأعطاه صَفْقَةَ يدِه وثمرةَ قلبه، فلْيُطِعْه إنِ استطاع، فإن جاء آخرُ ينازِعُه فاضربوا عنقَ الآخَرِ». رواه مسلم[5] أيضاً، ومن حديث عَرْفَجَة[6]: «فاضْرِبُوه بالسيف كائناً مَنْ[7]

---

(١) في (د) و(ظ): أفلا.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣) مختصراً، وفيه تليد بن سليمان: رماه ابن معين بالكذب، وأورد الحافظ هذا الحديث في تلخيص الحبير ٤/ ٤٥، وعزاه لأبي خير الطالقاني في السنة، ثم قال: وهو منكر متناً، ضعيف منقطع سنداً.

(٣) في (م): للغيب.

(٤) رقم (١٨٥٣).

(٥) رقم (١٨٤٤)، وهو في المسند (٦٥٠١).

(٦) ابن شُرَيح، ويقال غير ذلك، الأشجعي، له صحبة، روى له مسلم وأبو داود والنسائي حديثاً واحداً، وهو هذا الحديث. تهذيب الكمال ١٩/ ٥٥٥، والإصابة ٦/ ٤١١.

(٧) في (ظ): ما.

كان»[١]. وهذا أدلُّ دليلٍ على منعِ إقامة إمامين، ولأنَّ ذلك يؤدِّي إلى النفاقِ والمخالفةِ والشِّقاق، وحدوثِ الفتن، وزوالِ النعم، لكن إن تباعدتِ الأقطارُ وتباينت، كالأندلس وخُراسان جاز ذلك[٢]، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

السادسة عشرة: لو خرجَ خارجيٌّ على إمامٍ معروفِ العدالة، وجَبَ على الناس جهادُه، فإن كان الإمامُ فاسقاً والخارجيُّ مظهرٌ للعدلِ، لم ينبغ للناس أن يُسرعوا إلى نُصْرة الخارجيِّ حتى يتبيَّنَ أمرُه فيما يُظهر من العدل، أو تتفقُ كلمةُ الجماعة على خَلْع الأول، وذلك أنَّ كلَّ مَنْ طَلَبَ مثلَ هذا الأمرِ أظهَرَ من نفسِه الصَّلاحَ، حتى إذا تمكَّن رجَعَ إلى عادته من خلافِ ما أظهَرَ.

السابعةَ عشرة: فأمَّا إقامةُ إمامَيْن أو ثلاثة في عصرٍ واحد وبلدٍ واحد، فلا يجوزُ إجماعاً لما ذكرنا.

قال الإمام أبو المَعَالي[٣]: ذهبَ أصحابُنا إلى منع عقدِ الإمامة لشخصين في طرفي العالَم، ثم قالوا: لو اتفَقَ عقدُ الإمامة لشخصين، نزلَ ذلك منزلةَ تزويجِ وَلِيَّين امرأةً واحدةً من زوجين من غير أن يشعُرَ أحدُهما بعقد الآخر. قال: والذي عندي فيه أنَّ عقدَ الإمامةِ لشخصين في صُقْع واحدٍ متضايقِ الخِططِ والمخاليفِ غيرُ جائزٍ، وقد حصلَ الإجماعُ عليه، فأمَّا إذا بَعُدَ المَدَى، وتخلَّل بين الإمامين شُسوع النَّوَى، فللاحتمال في ذلك مجالٌ، وهو خارجٌ عن القواطع.

وكان الأستاذ أبو إسحاق[٤] يُجَوِّز ذلك في إقليمين متباعدَيْن غايةَ التباعُد، لئلَّا تتعطَّلَ حقوقُ الناس وأحكامُهم، وذهبت الكَرَّاميةُ إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل، ويلزمُهم إجازةُ ذلك في بلدٍ واحد، وصارُوا إلى أنَّ عليًّا ومعاويةَ كانا إمامين.

(١) صحيح مسلم (١٨٥٢)، وهو في المسند (١٨٢٩٥).

(٢) في (د): فإن ذلك جائز.

(٣) الإرشاد ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٤) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، الأصولي، المتكلم، الفقيه، الشافعي، أحد المجتهدين في عصره، وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور. من تصانيفه: «جامع الخلي في أصول الدين والرد على الملحدين» و«تعليقة في أصول الفقه». توفي سنة ٤١٨هـ. طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٥٦، والسير ١٧/ ٣٥٣.

قالوا: وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كلٌّ واحدٍ منهما أَقْوَمَ بما في يديه وأضبطَ لما يَلِيه، ولأنَّه لمَّا جازَ بِعْثةُ نبيَّين في عصرٍ واحدٍ، ولم يُؤدِّ ذلك إلى إبطال النبوة، كانت الإمامةُ أَولى، ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة، والجوابُ أنَّ ذلك جائزٌ لولا منعُ الشرعِ منه، لقوله: «فاقتلوا الآخَرَ منهما»[1]. ولأنَّ الأُمَّة عليه، وأمَّا معاويةُ فلم يدَّعِ الإمامةَ لنفسه، وإنَّما[2] ادعى ولايةَ الشام بتولية مَنْ قبلَه من الأئمة، وممَّا يدلُّ على هذا إجماعُ الأمة في عصرهما على أنَّ الإمامَ أحدُهما[3]، ولا قال أحدُهما: إنِّي إمامٌ، ومخالفي إمامٌ. فإن قالوا: العقلُ لا يُحِيلُ ذلك، وليس في السمع ما يمنعُ منه، قلنا: أقوى السَّمْعِ الإجماعُ، وقد وُجِدَ على المنع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أنَّ الملائكةَ لا تعلمُ إلَّا ما أُعْلِمَتْ، ولا تَسبِقُ بالقول، وذلك عامٌّ في جميع الملائكة، لأنَّ قوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] خرج على جهة المَدْح لهم، فكيف قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾؟

فقيل: المعنى أنَّهم لمَّا سمعوا لفظَ «خليفة» فهمُوا أنَّ في بني آدمَ مَنْ يُفسِدُ، إذ الخليفةُ المقصودُ منه الإصلاحُ وتركُ الفسادِ، لكن عمَّموا الحكمَ على الجميع بالمعصية، فبيَّن الربُّ تعالى أنَّ فيهم مَنْ يُفسِدُ ومن لا يُفسِدُ، فقال تطييباً لقلوبهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾، وحَقَّقَ ذلك بأنْ عَلَّمَ آدمَ الأسماءَ، وكشَفَ لهم عن مكنون عِلْمِه.

وقيل: إنَّ الملائكة قد رَأَتْ وعَلِمَتْ ما كان من إفسادِ الجنِّ وسَفْكِهم الدماءَ، وذلك لأنَّ الأرضَ كان[4] فيها الجنُّ قبل خَلْق آدمَ، فأفسدوا وسَفَكوا الدماءَ، فبعثَ الله إليهم إبليسَ في جندٍ من الملائكة، فقتلَهم وألحقَهم[5] بالبحار ورؤوس الجبال[6]، فمن حينئذٍ دخلَته العِزَّة، فجاء قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ على جهة الاستفهام

---

(١) سلف تخريجه ص ٤٠٧.

(٢) في (ظ): بل.

(٣) في (د): أحد هؤلاء.

(٤) في (ز): كانت.

(٥) في (د): وألحقوهم.

(٦) لم يثبت في ذلك خبر مرفوع، إنما أخرج الحاكم ٢/ ٢٦١ نحوه عن ابن عباس قولَه.

المَحْض: هل هذا الخليفةُ على طريقة من تقدَّم من الجنِّ أم لا؟ قاله أحمد بنُ يحيى ثعلبُ.

وقال ابن زيد[١] وغيره: إنَّ الله تعالى أعلَمَهم أنَّ الخليفةَ سيكون من ذُرِّيته قومٌ يُفسِدون في الأرض ويسفكون الدماءَ، فقالوا لذلك هذه المقالةَ، إمَّا على طريق التعجُّب من استخلاف الله من يَعصِيه، أو مِنْ عِصْيان الله مَنْ يستخلفُه في أرضه ويُنعم عليه بذلك، وإمَّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين[٢] جميعاً: الاستخلاف والعصيان[٣].

وقال قتادة: كان الله أعلَمَهم أنَّه إذا جعلَ في الأرض خلقاً[٤] أفسدوا وسفكُوا الدماءَ، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أهو الذي أعلَمَهم أم غيرُه؟

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق[٥] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: كان الله أعلَمَهم أنَّه إذا كان في الأرض خَلْقٌ أفسدوا فيها، وسَفَكُوا الدماء، فلذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وفي الكلام حذفٌ على مذهبه، والمعنى: إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا: أتجعلُ فيها الذي أعلَمْتناه أم غيره؟ والقولُ الأوّلُ أيضاً حسنٌ جدًّا، لأنَّ فيه استخراجَ العلمِ واستنباطَه من مقتضى الألفاظِ، وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسنٌ، فتأمَّلْه.

وقد قيل: إنَّ سؤالَه تعالى للملائكة بقوله: «كيف تركتُم عبادي؟» ـ على ما ثبتَ

---

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر رضي الله عنه، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، وهو أخو أسامة وعبد الله، وفيهم لين، توفي سنة (١٨٢هـ). السير ٨/ ٣٤٩.

(٢) في (ظ): للمفصلين.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٧. وقوله: إما على طريق التعجب... إلخ، ليس من كلام ابن زيد، بل من كلام ابن عطية.

(٤) في (د): خلفاء، وفي (ز): خليفة.

(٥) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٢.

في صحيح مسلم[١] وغيره - إنَّما هو على جهة[٢] التوبيخ لمن قال: «أتجعلُ فيها»، وإظهارٌ لما سَبَقَ في معلومه إذ قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ «مَنْ» في موضع نَصْب على المفعول بـ «تجعل»، والمفعول الثاني يقوم مقامَه «فيها».

«يُفسد» على اللفظ، ويجوزُ في غير القرآن: يفسدون، على المعنى. وفي التنزيل: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ [محمد: ١٦]. على اللفظ، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ﴾ [يونس: ٤٢] على المعنى.

﴿وَيَسۡفِكُ﴾ عطف عليه، ويجوزُ فيه الوجهان. ورَوى أُسيد عن الأعرج[٣] أنه قرأ: «ويَسْفِكَ الدّماءَ» بالنصب[٤]، يجعلُه جوابَ الاستفهام بالواو[٥]، كما قال[٦]:

ألم أكُ جارَكُم ويكونَ[٧] بيني وبينَكُم المودَّةُ والإخاءُ[٨]

والسَّفْكُ: الصَّبُّ، سفكتُ الدَّمَ أَسْفِكُه سَفْكاً: صَبَبْتُه، وكذلك الدمعُ، حكاه ابنُ فارس والجوهريُّ[٩]. والسفَّاكُ: السفَّاحُ، وهو القادرُ على الكلام. قال المهدويُّ: ولا يستعمل السفكُ إلا في الدم، وقد يستعملُ في نثر الكلام، يقال: سفكَ الكلامَ: إذا نثرَه.

وواحدُ الدماء دَمٌ، محذوفُ اللام، قيل[١٠]: أصلُه دَمْيٌ، وقيل: دَمَيٌ، ولا يكون

---

(١) رقم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٥)، وهو في المسند (٧٤٩١).

(٢) في (د): سبيل.

(٣) أسيد هو ابن يزيد المديني، والأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز، الحافظ المقرئ، مات مرابطاً بالاسكندرية سنة (١١٧هـ). التاريخ الكبير ٢/ ١٥، والجرح والتعديل ٢/ ٣١٦، و السير ٥/ ٦٩.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧.

(٦) في (د) و(ظ): كما قال الشاعر.

(٧) في (ز) و(م): وتكون، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٨) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه ص ٩٨، وروايته فيه: ألم أكُ مسلماً فيكونَ بيني. وهو من شواهد سيبويه ٣/ ٤٣.

(٩) مجمل اللغة ٢/ ٤٦٣، والصحاح: (سفك).

(١٠) في (م): وقيل.

اسمٌ على حرفين إلا وقد حُذِفَ منه، والمحذوفُ منه ياءٌ، وقد نُطِقَ به على الأصل[١]، قال الشاعر:

فلو أنَّا على حجرٍ ذُبِحنا جَرى الدَّمَيان بالخبرِ اليقين[٢]

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نُنَزِّهُك عمَّا لا يَليقُ بصفاتك، والتسبيحُ في كلامهم: التنزيهُ من السُّوء على وجهِ التعظيم، ومنه قولُ أعْشَى بني ثَعْلَبَة[٣]:

أقُولُ لمَّا جاءني فَخرُه سبحانَ مِن عَلْقَمَةَ الفاخرِ

أي: براءة من عَلْقَمة.

وروى طلحةُ بنُ عُبَيد الله[٤] قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «هو تنزيهُ الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ سُوء»[٥]. وهو مشتقٌّ من السَّبْح، وهو الجَرْيُ والذهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، فالمسبِّح جارٍ في تنزيه[٦] الله تعالى وتبرئته من السُّوء.

وقد تقدَّم الكلامُ في «نحن»[٧]، ولا يجوز إدغامُ النون في النون لئلَّا يلتقيَ ساكنان[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧، وقال الجوهري في الصحاح (دما): أصله: دَمَوٌ، بالتحريك، وإنما قالوا: دَمِيَ يَدْمَىٰ، لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رَضِيَ يَرْضَىٰ.

(٢) نسب البيت في أمالي الزَّجَّاجي ص ٢٠، وخزانة الأدب ٣/ ٣٥١ (طبعة بولاق) لعلي بن بدَّال، ونسبه في الحماسة البصرية ١/ ٤٠ للمثقب العبدي، ونسب لغيرهما كذلك فيما ذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٣٥٣، غير أنه رجح نسبته لعلي بن بدَّال، وهو في اللسان: (دمي) غير منسوب.

(٣) هو الأعشى الكبير، والبيت في ديوانه ص ١٩٣.

(٤) أبو محمد القرشي، التيمي، المكي، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قُتل يوم الجمل. السير ١/ ٢٣.

(٥) أخرجه الشاشي في مسنده (١٠)، والحاكم ١/ ٥٠٢ من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل لم يصح؛ فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري... إلخ.

(٦) في (د): تسبيح.

(٧) ص ٣٠٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨. لكن إدغام النونين في قوله: ﴿ونحن نسبح﴾ هو من الإدغام الكبير لأبي عمرو من السبعة في رواية السوسي، فهو يدغم النون في مثلها ولا ينظر إلى ما قبلَها. التذكرة ١/ ١١١ لابن غلبون.

مسألة: واختلَفَ أهلُ التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ابنُ مسعود وابنُ عباس: تسبيحُهم صلاتُهم[١]، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من المُصَلِّين[٢]. وقيل: تسبيحُهم رفعُ الصوت بالذِّكر. قالَه المُفَضَّل، واستشهد بقول جرير:

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلَّما ... سَبَحَ الحجيجُ وكَبَّروا إهلالا[٣]

وقال قتادة: تسبيحُهم: سبحان الله، على عُرْفِه في اللغة[٤]. وهو الصَّحيح، لما رواه[٥] أبو ذَرٍّ أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئل: أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده]: سبحان الله وبحمده». أخرجه مسلم[٦]. وعن عبد الرحمن بن قُرْط[٧]، أنَّ رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به سمع تسبيحاً في السماوات العُلا: «سبحان العليِّ الأعلى، سبحانه وتعالى». ذكره البيهقي[٨].

قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: وبحمدك، نَخلِطُ التسبيحَ بالحمد، ونَصِلُه به. والحمدُ: الثناء، وقد تقدم[٩]. ويحتمل أن يكون قولهم: «بحمدك» اعتراضاً بين الكلامين، كأنَّهم قالوا: ونحن نسبِّحُ ونقدِّسُ، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي: وأنت[١٠] المحمودُ في الهداية إلى ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نُعَظِّمُك ونُمجِّدُك، ونُطَهِّرُ ذِكْرَكَ عمَّا لا يليقُ بك ممَّا نَسَبَكَ إليه الملحدون. قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما[١١]. وقال الضَّحَّاك

---

(١) أخرجهما الطبري ١/ ٥٠٤.

(٢) في (م): أي المصلين.

(٣) ديوانه ١/ ٥٢. وفيه: شبح الحجيج. وفسره ابن حبيب شارحُه بقوله: الشبح: رفع الأيدي بالدعاء.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١/ ٥٠٥.

(٥) في (ظ): روى.

(٦) رقم (٢٧٣١) وما بين حاصرتين منه. وهو في المسند (٢١٥٢٩).

(٧) الثُّمالي، الحمصي، كان من أهل الصُّفَّة، سكن الشام. الإصابة ٦/ ٣١٧.

(٨) لم نجده عند البيهقي، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٤)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٧ ـ ٨.

(٩) ص ٢٠٥.

(١٠) في (ز): أي ونحمدك وأنت، وفي (ظ): أي نحمدك وأنت.

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٠٦.

وغيره: المعنى نُطَهِّر أنفسَنا لك ابتغاءَ مرضاتك[١]. وقال قومٌ منهم قتادة: «نقدِّسُ لك» معناه: نصلِّي. والتقديسُ: الصلاةُ[٢]. قال ابن عطية[٣]: وهذا ضعيف.

قلت: بل معناه صحيحٌ، فإنَّ الصلاةَ تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوس رَبُّ الملائكةِ والرُّوح». روته عائشة، أخرجه مسلم[٤]. وبناء «قدَّس»[٥] كيفما تصرَّفَ فإنَّ معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: المُطَهَّرة. وقال: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٤٣] يعني[٦] الطاهر، ومثله: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]. وبيتُ المَقْدِس سُمِّيَ به لأنَّه المكانُ الذي يُتقدَّسُ فيه من الذنوب، أي: يُتَطهَّر، ومنه قيل للسَّطْل: قَدَس، لأنَّه يُتوضَّأ فيه ويُتَطَهَّر؛ ومنه القادوس[٧]. وفي الحديث: «لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يُؤخذ لضعيفها مِن قَوِيِّها». يريد: لا طَهَّرَها الله. أخرجه ابنُ ماجه في «سُنَنه»[٨] فالقُدْس: الطُّهْر من غير خلاف، وقال الشاعر:

فأدْرَكْنَهُ يأخُذْنَ بالسَّاق والنَّسَا ... كما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ[٩]

أي: المطهّر[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١/ ٥٠٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٤٢، والطبري ١/ ٥٠٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٨.

(٤) رقم (٤٨٧)، وهو في المسند (٢٤٠٦٣).

(٥) في (د) و(ظ) قدوس.

(٦) في (د) و(ظ): أي.

(٧) هو إناء من خَزَف أصغر من الجرَّة، يُخرج به الماء من السواقي، والجمع قواديس. تاج العروس (قدس).

(٨) رقم (٤٠١٠) من حديث جابر بن عبد الله، ولفظه: «كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟». وأخرجه كذلك (٢٤٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيفُ فيها حقَّه غير متعتع».

(٩) قائله امرؤُ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٠٤. والنَّسا: عرق يخرج من الورك، فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب، حتى يبلغ الحافر. وشبرق: خرَّق ومزَّق، والمقدَّس: الراهب الذي يأتي بيت المقدس، وكان إذا نزل من صومعته يجتمع الصبيان إليه، فيخرِّقون ثيابه ويمزقونها تمسحاً به وتبركاً، والشاعر يصف ثوراً لاحقته الكلاب، فأدركته وفعلت به ما فعلت. ينظر شرح الديوان، والصحاح: (نسا).

(١٠) النكت والعيون ١/ ٩٧.

فالصلاة طُهْرَةٌ للعبد من الذنوب، والمُصَلِّي يدخلُها على أكمل الأحوال لكونها[١] أفضلَ الأعمال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ «أعلم» فيه تأويلان: قيل: إنَّه فعل مستقبل. وقيل: إنَّه اسمٌ بمعنى فاعل، كما يقال: الله أكبر، بمعنى كبير، وكما قال:

لـعَـمْـرُكَ مـا أدري وإنِّـي لَأَوْجَـلُ ... عـلـى أيِّـنـا تَـعْـدُو الـمـنـيَّـةُ أوَّلُ[٢]

فعلى أنَّه فعل، تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ: «أعلمُ»، ويجوز إدغامُ الميم في الميم. وإن جعلتَه اسماً بمعنى عالم، تكون «ما» في موضع خفضٍ بالإضافة[٣]. قال ابن عطية[٤]: ولا يصحُّ فيه الصرفُ بإجماعٍ[٥] من النُّحاة، وإنَّما الخلافُ في «أفعل» إذا سُمِّيَ به وكان نكرةً، فسيبويه[٦] والخليلُ لا يَصْرِفانِه، والأخفشُ يَصْرِفُه. قال المَهْدَويُّ: يجوز أن يُقدَّرَ[٧] التنوينُ في «أعلم» إذا قدَّرتَه بمعنى عالم، وتنصبَ «ما» به، فيكون مثلُ: حَواجُّ بيتَ الله. قال الجوهريُّ[٨]: ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة: إذا كنَّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنَّ حَجَجْنَ، قلتَ: حواجُّ بيتَ الله، فتنصبُ البيتَ، لأنَّك تريدُ التنوينَ في «حواجُّ»، [إلا أنه لا ينصرف].

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ اختلف علماءُ التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: فقال ابنُ عبَّاس: كان إبليسُ ـ لعنه الله ـ قد أُعجِبَ، ودَخَلَهُ الكِبْرُ لمَّا جعلَه خازنَ السماء وشرَّفَه، فاعتقد أنَّ ذلك لمزِيَّةٍ له، فاستخفَّ[٩] الكفرَ والمعصيةَ في جانب آدم عليه السلام. وقالت الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ وهي

---

(١) في (ظ): لأنها.

(٢) قائله معن بن أوس، والبيت في ديوان الحماسة ٣/ ١١٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٧٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٥) في (د): بالإجماع.

(٦) الكتاب ٣/ ١٩٣.

(٧) في (م): تقدر.

(٨) الصحاح: (حجج) وما بين حاصرتين منه.

(٩) في المحرر الوجيز ١/ ١١٩ (والكلام منه): فاستحقب.

لا تعلمُ أنَّ في نفس إبليسَ خلافَ ذلك، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١].

وقال قتادة: لمَّا قالت الملائكةُ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ وقد علمَ الله أنَّ فيمن يُستخلَفُ في الأرض أنبياءَ وفضلاءَ وأهلَ طاعة، قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢].

قلتُ: ويحتملُ أن يكون المعنى إنِّي أعلمُ ما لا تعلمون، ممَّا كان، وممَّا يكون، وممَّا هو كائن، فهو عامٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ عَلَّمَ: معناه عَرَّفَ، وتعليمُه هنا إلهامُ عِلْمِهِ ضرورةً. ويَحتمِلُ أن يكونَ بواسطة مَلَك[٣]، وهو جبريلُ عليه السلام، على ما يأتي.

وقُرِئ: «وعُلِّمَ» غيرُ مسمَّى الفاعل[٤]. والأوَّل أظهَر، على ما يأتي.

قال عُلماء الصوفية: عَلِمَها[٥] بتعليم الحقِّ إيَّاه، وحَفِظَها بحفظِه عليه، ونَسِيَ ما عَهِدَ إليه، لأنَّه[٦] وكَلَه فيه إلى نفسه فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]. وقال ابنُ عطاء: لو لم يُكشف لآدم عِلْمُ تلك الأسماء، لكان أعجزَ مِن الملائكة في الإخبار عنها. وهذا واضحٌ.

وآدمُ عليه السَّلام يُكْنَى أبا البشر، وقيل: أبا محمد؛ كُنِّي بمحمّد خاتمِ الأنبياء[٧]

(١) أخرجه الطبري بنحوه في تفسيره ١/ ٤٨٦-٤٨٧، وذكر ص ٣٧٥ أنه مرتاب بإسناده.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٩١، والكلام في المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٤) هي قراءة الحسن كما في المحتسب ١/ ٦٤، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) في (د): علمه.

(٦) في (م): لأن.

(٧) في (ظ): النبيين.

صلواتُ الله عليهم؛ قاله السُهَيْليّ[(١)]. وقيل: كُنيتُه في الجنَّة أبو محمَّد، وفي الأرض أبو البَشَر.

وأصلُه بهمزتين، لأنَّه أَفْعَل، إلَّا أنَّهم ليَّنُوا الثانية، فإذا احتجْتَ إلى تحريكها جعلتَها واواً فقلت: أَوَادِم في الجمع؛ لأنَّه ليس لها أصلٌ في الياء مَعروف، فجعَلْتَ الغالبَ عليها الواو. عن الأخفش[(٢)].

واختُلِفَ في اشتقاقه، فقيل: هو مُشتَقٌّ من أَدَمَةِ الأرضِ وأديمها، وهو وَجْهُها، فسُمِّي بما خُلِقَ منه، قاله ابنُ عباس[(٣)]. وقيل: إنه مُشتَقٌّ من الأُدْمَة وهي السُّمْرة. واختلفوا في الأُدْمَة، فزعم الضَّحَّاك أنَّها السُّمْرَة، وزَعَمَ النَّضْر أنَّها البياض، وأنَّ آدمَ عليه السلام كان أَبيضَ، مأخوذٌ من قولهم: ناقَةٌ أَدْماءُ: إذا كانت بَيضاء. وعلى هذا الاشتقاق جَمْعُه أُدْمٌ وأَوادِم؛ كحُمْرٍ وأَحامِر، ولا يَنصرِفُ بوَجْه. وعلى أنَّه مُشتَقٌّ من الأُدْمَة جَمْعُه آدَمُون، ويلزم قائلو هذه المقالَةِ صَرْفُه.

قلتُ: الصَّحيحُ أنَّه مشتقٌّ من أديمِ الأرضِ. قال سعيدُ بن جُبير: إنَّما سُمِّي آدَمَ لأنَّه خُلِقَ من أَدِيم الأرض، وإنما سُمِّيَ إنساناً لأنه نَسِي، ذكره ابنُ سعد في الطبقات[(٤)].

ورَوى السُّدِّيُّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس. وعن مُرّة الهَمْدانيّ عن ابن مسعود[(٥)] في قصَّة خَلْق آدمَ عليه السَّلام قال: فبعثَ الله جبريل عليه السَّلام إلى الأرض لِيَأتيَه بطينٍ منها، فقالت الأرضُ: أعوذُ بالله منك أن تنقصَ[(٦)] منِّي أو تَشِينَني؛ فرجَعَ ولم يأخُذْ، وقال: ربِّ[(٧)]، إنَّها عاذَتْ بك فأعذْتُها. فبعثَ

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ، أبو القاسم وأبو زيد الخثعمي الأندلسي المالقي، صاحب الروض الأُنُف في شرح السيرة، توفي سنة (٥٨١هـ). الوافي بالوفيات ١٨/ ١٧٠. وكلامه المذكور أعلاه في التعريف والإعلام ص ١٩.

(٢) نقله عنه الجوهري في الصحاح (أدم).

(٣) أخرج نحوه الطبري ١/ ٥١١، وابن سعد في الطبقات ١/ ٢٥-٢٦.

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦، وابن سعد هو محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله البغدادي، الهاشمي مولاهم، كاتب الواقدي مات سنة (٢٣٠هـ). السير ١٠/ ٦٦٤.

(٥) غمز الطبري في تفسيره بهذين الإسنادين، ينظر تفسيره ١/ ٣٧٥.

(٦) في (د): تقبض.

(٧) في (م): يا ربّ.

ميكائيل، فعاذَتْ منه فأَعاذَها، فرجع، فقال كما قال جبريل. فبعثَ مَلَكَ الموت، فعاذَتْ منه، فقال: وأنا أعوذُ بالله أنْ أرجِعَ ولم أُنفِذْ أمرَه. فأخذَ من وَجهِ الأرض وخَلَطَ، ولم يأخُذْ من مكانٍ واحد، وأخذ من تُرْبَةٍ حَمْراءَ وبَيضاءَ وسَوداءَ، فلذلك خرجَ بنو آدم مختَلِفين ـ ولذلك سُمّي آدمَ، لأنه أُخذ من أديم الأرض ـ فصَعِدَ به، فقال الله تعالى له: أمَا رَحِمتَ الأرض حين تَضَرَّعتْ إليك؟ فقال: رأيتُ أمرَك أوجَبَ من قولها. فقال: أنت تَصلُح لقَبْض أرواح ولَدِه. فبلَّ التُّرابَ حتَّى عادَ[١] طيناً لازِباً ـ اللَّازِبُ: هو الذي يلتصقُ بعضُه ببعض ـ ثم تُرك حتَّى أنتَنَ، فذلك حيثُ يقول: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]. قال: مُنْتِن. ثُم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، فخلقَه الله بيده لكيلا[٢] يتكبَّر إبليسُ عنه. يقول: أتتكبَّر عمَّا خلقتُ بيديَّ ولم أتكبَّر أنا عنه؟ فخلقَه بشراً، فكان جسداً من طينٍ أربعينَ سنَة من مقدار يوم الجُمعة، فمرَّت به الملائكةُ، ففَزِعوا منه لمَّا رأَوْه، وكان أشدَّهُم منه فزَعاً إبليسُ، فكان يمرُّ به فيضرِبُه، فيصوِّتُ الجسدُ كما يصوِّتُ الفَخَّارُ تكون له صَلْصَلَة، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقول: لأمرٍ مَّا خُلقتَ!. ودخل من فمِه[٣] وخرج من دُبُره، فقال إبليسُ للملائكة: لا ترهَبُوا من هذا فإنَّه أجْوَفُ، ولئِنْ سُلِّطتُ عليه لأُهلِكَنَّه. ويُقال: إنَّه كانَ إذا مَرَّ عليه مع الملائكة يقول: أرأيتُم هذا الذي لم تَرَوْا من الخلائق يُشبههُ إنْ فُضِّلَ عليكم وأُمِرتُم بطاعته ما أنتُم فاعلون؟ قالوا: نُطيع أمرَ ربِّنا، فأسَرَّ إبليسُ في نفسه لئن فُضِّلَ عليَّ فلا أُطيعه، ولئن فُضِّلتُ عليه لأُهلِكَنَّه، فلما بلغَ الحِينُ الذي أُريد أنْ يَنْفُخَ فيه الرُّوحَ، قالَ للملائكة: إذا نفخْتُ فيه من رُوحي فاسجُدوا له[٤]. فلمَّا نفخَ فيه الرُّوحَ، فدخلَ الرُّوحُ في رأسِهِ عَطَس، فقالت له الملائكةُ: قُل الحَمدُ لله، فقال: الحمدُ لله، فقال الله له: رَحِمَكَ ربُّك، فلما دخل

---

(١) في (ظ): صار.

(٢) في (د): لئلا، وفي (ظ): كيلا.

(٣) في (د): من فيه.

(٤) في (ظ): فقعوا له ساجدين.

الرُّوحُ في عينيه نظَر إلى ثمار الجنَّة، فلما دخلَ في جوفه اشتَهى الطَّعامَ، فوثَبَ قبْلَ أن يبلُغَ الرُّوح رجلَيهِ عَجْلانَ إلى ثمار الجنَّة، فذلك حين[1] يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠ ـ ٣١]. وذكر القصة[2].

وروى الترمذيُّ[3] عن أبي موسى الأشْعَريِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقَ آدمَ من قَبضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاءَ بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاءَ[4] منهم الأحمَرُ والأبيضُ والأسودُ، وبينَ ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطيِّبُ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ صحيح.

أديم: جمعُ أَدَم؛ قال الشاعر:

النـاسُ أخيـافٌ وشَـتَّى فـي الـشِّـيَـمْ   وكـلُّـهـم يـجـمـعُـهُـم وَجـهُ الأَدَمْ[5]

فـ«آدم» مشتقٌّ من الأَدِيم والأَدَمِ، لا من الأُدْمَة؛ والله أعلم.

ويحتملُ أن يكون منهما جميعاً. وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في خَلْقِ آدم في «الأنعام»[6] وغيرها إن شاء الله تعالى.

و«آدم» لا يَنصَرِفُ. قال أبو جعفر النحَّاس[7]: «آدمُ» لا ينصرفُ في المعرفة بإجماع النَّحْويين، لأنَّه على أفْعَل، وهو معرفة، ولا يَمتنعُ شيءٌ من الصَّرْفِ عند

---

(١) في (ظ): أن تبلغ الروح... حيث يقول.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٨٦ـ٤٨٨ أطول منه، وفي تاريخه ١/ ٩٠، وأورد ابن كثير القصة عند تفسيره هذه الآية وقال: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم.

(٣) في سننه (٢٩٥٥)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٨٢).

(٤) في (د) و(ظ): جاء.

(٥) الرجز في جمهرة أمثال العرب للعسكري ٢/ ٣٠٣، ولسان العرب (أدم)، وروايته: يجمعهم بيت الأدم.

(٦) عند تفسير قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الآية ٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وفيه قول الزجاج المذكور.

البصريين إلا لعلَّتين. فإنْ نكَّرتَه ولم يكن نعتاً، لم يَصرفْه الخليل وسيبويه، وصَرَفَه الأخفَش سعيد؛ لأنَّه إنما منعه من الصرف[1]؛ لأنه كان نعتاً وهو على وزْنِ الفعل، فإذا لم يكن نعتاً صَرَفه. قال أبو إسحاق الزجَّاج: القولُ قولُ سيبويه، ولا يُفرَّق بين النَّعت وغيره؛ لأنَّه هو ذاك بعينه.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: الأسماءُ هنا بمعنى العبارات، فإنَّ الاسم قد يُطلَقُ ويُرادُ به المسمَّى، كقولك: زيدٌ قائم، والأسدُ شُجاعٌ. وقد يُرادُ به التَّسميَةُ ذاتُها، كقولك: أَسَدٌ ثلاثةُ أحرُف، ففي الأوَّل يُقال: الاسم هو المسمَّى، بمعنى يُرادُ به المسمَّى، وفي الثاني لا يُرادُ به المسمَّى.

وقد يَجري اسمٌ في اللُّغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثَرُ من استعمالها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ على أشهر التأويلات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً»[2].

ويجري مجرى الذَّات، يُقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنًى، وعلى هذا حَمَلَ أكثرُ أهلِ العلم قولَه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

الثالثة: واخْتَلَفَ أهلُ التَّأويل في معنى الأسماء التي عَلَّمَها لآدم عليه السلام، فقال ابنُ عباس وعِكرمةُ وقَتادةُ ومُجاهدُ وابنُ جُبيرٍ: علَّمه أسماءَ جميعِ الأشياء كلّها جَليلِها وحَقيرِها[3]. روى[4] عاصِمُ بنُ كُلَيب، عن سَعْد مولى الحسنِ بن عليّ قال: كنتُ جالساً عند ابنِ عبَّاس، فذكروا اسمَ الآنيةِ واسمَ السَّوْط، قال ابنُ عباس: «وعلَّم آدم الآسماء كلَّها».

قلت: وقد رُوِيَ هذا المعنى مرفوعاً على ما يأتي، وهو الذي يقتَضيه لفظُ «كُلَّها» إذ هو اسمٌ موضُوعٌ للإحاطةِ والعُموم. وفي البخاريِّ من حديث أنس، عن النبيِّ ﷺ

---

(١) قوله: لأنه إنما منعه من الصرف، ليس في (م).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) تفسير الطبري ١/٥١٤-٥١٦.

(٤) في (م): وروى.

قال: «ويجتمعُ المؤمنون يومَ القيامة، فيقولون: لو استَشْفَعْنا إلى ربِّنا، فيأتون آدمَ، فيقولون: أنت أبو النَّاس، خَلَقَكَ الله بيدِه، وأسجدَ لك ملائكتَه، وعَلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيء»[١] الحديث. قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد[٢]: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ اللُّغة مأخوذةٌ توقيفاً، وأن الله تعالى علَّمها آدمَ عليه السلام جملةً وتفصيلًا. وكذلك قال ابن عباس: علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ حتى الجَفْنة والمِحْلَب. وروى شيبان، عن قتادة قال: علّم آدمَ من الأسماء أسماءَ خلقِه ما لم يُعلِّم الملائكةَ، وسمَّى كلَّ شيء باسمه وأنْحَى منفعةَ كلِّ شيء إلى جنسه[٣]. قال النَّحاس: وهذا أحسَنُ ما رُوِيَ في هذا. والمعنى: عَلَّمَه أسماءَ الأجناسِ وعَرَّفَهُ مَنافِعَها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا.

وقال الطبريّ: علَّمه أسماء الملائكة وذرِّيتِه، واختار هذا ورجَّحه بقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. وقال ابنُ زيد: علَّمه أسماء ذرِّيته كلّهم.

الربيع بن خُثَيْم[٤]: أسماء الملائكةِ خاصَّة[٥].

القُتَبِيّ: أسماء ما خلقَ في الأرض[٦]. وقيل: أسماء الأجناسِ والأنواع.

قلتُ: القولُ الأوَّلُ أصحُّ، لما ذكرناه آنفاً، ولِمَا نبيِّنُه إن شاء الله تعالى.

الرابعة: واختلفَ المتأوِّلون أيضاً: هل عَرَضَ على الملائكةِ أشخاص الأسماء[٧] أو الأسماء دونَ الأشخاص، فقال ابنُ مسعود وغيره: عرضَ الأشخاص[٨] لقوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وتقولُ

---

(١) صحيح البخاري (٧٤١٠)، وصحيح مسلم (١٩٣)، وهو في المسند (١٢١٥٣).

(٢) في (د) و(ظ): ابن خواز منداد، وفي (ز): أبو خواز منداد، والمثبت من (م)، وانظر ص ١٨٠.

(٣) تفسير الطبري ١/٥١٧، وتاريخه ١/٩٨.

(٤) أبو يزيد الثوري، الكوفي، أدرك زمان النبي ﷺ، وكان أورع أصحاب ابن مسعود، مات قبل سنة (٦٥هـ). السير ٤/٢٥٨.

(٥) تفسير الطبري ١/٥١٧، واختيار الطبري وترجيحه في ١/٥١٨، وتاريخه ١/٩٩.

(٦) غريب القرآن ص ٥٦، والقُتَبيّ هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب صاحب التصانيف، كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس، صنف غريب القرآن والحديث وأدب الكاتب والشعر والشعراء وغيرها، توفي سنة (٢٧٦هـ). السير ١٣/٢٩٦.

(٧) في (م): أسماء الأشخاص.

(٨) المحرر الوجيز ١/١١٩.

العربُ: عَرَضْتُ الشيءَ فأَعْرَض، أي: أظهرتُه فظهَر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع[١]. وفي الحديث: «إنه عَرَضَهم أمثالَ الذَّرِّ»[٢].

وقال ابنُ عباس وغيرُه: عرضَ الأسماء[٣]. وفي حرفِ ابنِ مسعود: «عَرَضَهُنَّ» فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأنّ الهاء والنون أخصُّ بالمؤنث. وفي حرف أُبيّ «عَرَضَها»[٤]. مجاهد: أصحاب الأسماء[٥]. فمَنْ قال في الأسماء: إنها المسمَّيات[٦]، فاستقامَ على قراءةِ أُبَيّ: «عَرَضَها». ويقول[٧] في قراءة مَنْ قرأ: «عَرَضَهُم»: إنَّ لفظَ الأسماء يدلُّ على أشخاص، فلذلك سَاغَ أن يقول[٨] للأسماء: «عَرَضَهُم». وقال في «هؤلاء»: المرادُ بالإشارة إلى أشخاص الأسماء، لكنْ وإن كانت غائبةً؛ فقد حَضَرَ ما هو منها بسَبَبٍ، وذلك أَسماؤها.

قال ابنُ عطيَّة[٩]: والذي يظهرُ أنَّ الله تعالى عَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ وعَرَضَ عليه مع ذلك الأجناسَ أشخاصاً[١٠] ثم عرضَ تلكَ على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها[١١] التي قد تعلَّمها، ثم إنَّ آدمَ قال لهم: هذا اسمُه كذا، وهذا اسمُه كذا. وقال الماوَرْدِيّ[١٢]: فكانَ[١٣] الأصحُّ توجُّهَ العَرْضِ إلى المُسَمَّيْن. ثم في زمن عَرْضِهم

---

(١) الصحاح (عرض).

(٢) سيذكره المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٤) ذكر القراءتين ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٤، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٩٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٥٢١.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): التسميات، وهو خطأ، والمثبت من (د).

(٧) في (م): وتقول.

(٨) في (م): يقال.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(١٠) اضطربت العبارة في (د) و(ظ) و(م)، فقد وقع فيها: وعرضهن عليه مع ذلك الأجناس بأشخاصها، إلا أن في (ظ): أشخاصاً، بدل: بأشخاصها، وفي (م): تلك، بدل: ذلك. والمثبت من (ز) وهو المناسب لما في المحرر الوجيز، فاللفظ فيه: وعرض مع ذلك عليه الأجناسَ أشخاصاً.

(١١) في (د): مسمياتها.

(١٢) في النكت والعيون ١/ ٩٩-١٠٠.

(١٣) في (م): وكان.

قولان: أحدُهما: أنَّه عرَضَهم بعد أنْ خلَقَهم. الثاني: أنَّه صوَّرهم لقلوبِ الملائكةِ، ثُمَّ عَرَضَهُم.

الخامسة: واختُلِفَ في أوَّل مَنْ تكَلَّمَ باللِّسان العربيِّ[1]، فرُوِيَ عن كَعب الأحبار أنَّ أوَّل مَنْ وَضعَ الكتابَ العربيَّ والسُّرْيانيَّ والكتبَ كلَّها وتكلَّمَ بالألسنة كلِّها آدمُ عليه السلام. وقاله غيرُ كعب الأحبار.

فإن قيل: قد رُوِيَ عن كعب الأحبار من وجهٍ حَسَن قال: أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالعربيَّةِ جبريلُ عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسانِ نوحٍ عليه السلام، وألقاها نوحٌ على لسانِ ابنه سام، رواه ثَوْرُ بنُ يزيد[2]، عن خالدِ بنِ مَعْدان، عن كعب. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أوَّلُ مَنْ فُتِقَ لسانُه بالعربيَّةِ المُبِينة إسماعيلُ وهو ابنُ عشرِ سنين»[3]. وقد رُوِيَ أيضاً: أنَّ أوَّلَ مَنْ تكلَّمَ بالعربية يَعْرُبُ بنُ قَحْطان، وقد رُوِيَ غيرُ ذلك.

قلنا: الصَّحيحُ أنَّ أوَّل مَن تكلَّم باللُّغاتِ كلِّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآنُ يشهد له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، واللُّغاتُ كلُّها أسماء، فهي داخلةٌ تحتَه، وبهذا جاءت السُّنَّة، قال ﷺ: «وعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها حتَّى القَصْعَةَ والقُصَيعَة»[4] وما ذكروه يَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ به: أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالعربيَّةِ من ولدِ إبراهيمَ عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام. وكذلك إن صحَّ ما سواه؛ فإنَّه يكونُ محمولًا على أنَّ المذكورَ أوَّلُ مَنْ تكلَّم من قبيلتِه بالعربيَّة بدليلِ ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريلُ أوَّلُ مَنْ تكلَّم بها من الملائكةِ، وألقاها على لسانِ نُوح بعد أنْ عَلَّمها الله آدمَ أو جِبريل، على ما تقدَّم، والله أعلم.

---

(١) القصد والأمم لابن عبد البر ص ١٩-٢٦.

(٢) في (م): ورواه ثور بن زيد.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٢-٥٥٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من نطق بالعربية ووضع الكتاب على لفظه ومنطقه... إسماعيل بن إبراهيم، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» من حديث علي رضي الله عنه ونسبه للشيرازي في «الألقاب» وفيه: وهو ابن أربع عشرة سنة.

(٤) أخرجه الطبري ١/ ٥١٥ و٥١٦ موقوفاً على ابن عباس.

قولُه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: لفظٌ مبنيٌّ على الكسر، ولغةُ تَميم وبعضِ قيس وأسَد فيه القَصْرُ[(١)]، قال الأعشى[(٢)]:

هَـؤُلَا ثـم هَـؤُلَا كـلًّا أعـطـيـ ـتَ نِـعـالاً مَـحْـذُوَّةً بـمـثـالِ

ومن العرب مَنْ يقولُ: هَوْلاء، فيحذفُ الألفَ والهمزة[(٣)].

السادسة: قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ شرطٌ، والجوابُ محذوفٌ تقديرُه: إنْ كنتُم صادقين أنَّ بني آدم يُفسدون في الأرض فأنبئوني، قاله المبرِّد[(٤)].

ومعنى «صادقين» عالِمينَ، ولذلك لم يَسُغْ للملائكةِ[(٥)] الاجتهادُ، وقالوا: «سُبحانَك». حكاه النقَّاش قال: ولو لم يشترِطْ عليهم الصِّدق[(٦)] في الإنباءِ لجازَ لهمُ الاجتهادُ كما جاز للَّذي أماتَه الله مئةَ عام حين قال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فلم يشترطْ عليه الإصابةَ، فقالَ، ولم يُصِبْ، ولم[(٧)] يُعنَّفْ، وهذا بيِّنٌ لا خفاءَ فيه[(٨)]. وحكى الطبريُّ وأبو عُبَيْد: أنَّ بعضَ المفسِّرين قال: معنى[(٩)] «إن كنتم»: إذْ كنتم، وقالا: هذا خطأ[(١٠)]. و«أَنبِئُوني» معناه أخبروني. والنَّبأ: الخَبر، ومنه النبيءُ بالهمز[(١١)]، وسيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى[(١٢)].

السابعة: قال بعضُ العلماء: يخرج من هذا الأمرِ بالإنباء تَكْليفُ ما لا يُطاق؛

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٢) ديوانه ص ٦١ من قصيدة يمدح فيها الأسود بن المنذر اللخمي.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، يعني حذف ألف «ها»، وقلب همزة «أولاء» واواً، كما في خزانة الأدب ٥/ ٤٣٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٥) في (د) و(ز): لم يسعِ الملائكة.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): إلا الصدق، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

(٧) في (ز) و(ظ): فلم.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٩) في (م): إن معنى.

(١٠) تفسير الطبري ١/ ٥٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(١١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(١٢) في تفسير قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

لأنَّه عَلِمَ أنَّهم لا يعلمون. وقال المحقِّقون من أهلِ التَّأويل: ليسَ هذا على جهةِ التَّكليفِ، وإنَّما هو على جهةِ التقرير والتَّوقيفِ[١]. وسيأتي القولُ في تكليفِ ما لا يُطاق: هل وقعَ التكليفُ به أمْ لا، في آخر السُّورة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن أنْ يعلَمَ الغيبَ أحدٌ سواك. وهذا جوابُهم عن قوله: «أَنْبِئُوني»، فأجابوا أنَّهم لا يعلمون إلا ما أعلَمَهم به، ولم يتعاطَوْا ما لا عِلْمَ لهم به كما يفعلُه الجُهَّالُ منَّا. و«ما» في «ما عَلَّمتَنا» بمعنى «الذي»، أي: إلا الذي علَّمتَنا، ويجوزُ أن تكون مَصدريَّة بمعنى: إلا تعليمَكَ إيَّانا.

الثانية: الواجبُ على مَنْ سُئِل عن علمٍ أنْ يقولَ إن لم يعلمْ: الله أعلَم، ولا أدري، اقتداءً بالملائكةِ والأنبياءِ والفُضَلاء من العُلَماء، لكنْ قد أخبرَ الصادِقُ أنَّ بموتِ العُلَماءِ يُقبَضُ العِلمُ، فيبقَى ناسٌ جُهَّالٌ يُستفتَوْن، فيُفْتُون برأيهم، فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّون[٢].

وأمَّا ما وردَ من الأخبار عن النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ والتَّابعين بعدَهم في معنى الآية؛ فَرَوَى البُسْتِيّ[٣] في المسندِ الصَّحيح لهُ عن ابنِ عُمرَ أنَّ رجلًا سألَ رسولَ الله ﷺ: أيُّ البقاعِ شرٌّ؟ قال: «لا أدري حتَّى أسألَ جبريلَ»، فسألَ جبريلَ، فقال: «لا أدري حتَّى أسألَ ميكائيلَ»، فجاءَ فقال: «خيرُ البِقاع المساجِدُ، وشَرُّها الأسواقُ».

وقال الصِّدِّيقُ للجَدَّة: ارجعي حتَّى أسألَ النَّاسَ[٤]. وكان عليٌّ يقول: وابَرْدَها على الكبِد! ثلاثَ مرَّات. قالوا: وما ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: أنْ يُسألَ الرَّجلُ عمَّا لا يعلمُ، فيَقُول: الله أعلَم.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٦٥١١)، والبخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): النسائي، وهو خطأ، والحديث في صحيح ابن حبان (١٥٩٩)، ولم يرد في الكتب الستة.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٩٨٠)، وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في الكبرى (٦٣٠٥)، وابن ماجه (٢٧٢٤) من حديث قَبيصة بن ذؤيب.

وسألَ ابنَ عمر رجلٌ عن مَسْألةٍ، فقال: لا عِلْمَ لي بها، فلمَّا أدبرَ الرجُلُ قال ابنُ عمر: نِعْمَ ما قالَ ابنُ عُمَر، سُئِل عمَّا لا يَعْلَمُ، فقالَ: لا عِلْمَ لي به. ذكره الدَّارِمِيُّ في مسنده[١].

وفي صحيح مُسلم[٢] عن أبي عَقِيل يحيى بنِ المتوكِّل صاحبِ بُهَيَّة قال: كنتُ جالساً عندَ القاسمِ بن عُبيدِ الله ويَحيى بنِ سعيد[٣]، فقال يحيى للقَاسم: يا أبا محمَّد، إنَّه قَبيحٌ على مثلِكَ عظيمٌ أن يُسْأَلَ عن شيءٍ من أمرِ هذا الدِّين، فلا يُوجَدَ عندَكَ منه عِلْمٌ ولا فَرَجٌ، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَجٌ؟ فقال له القاسم: وعَمَّ ذاك؟ قال: لأنَّك ابنُ إمَامَيْ هُدًى: ابنُ أبي بكر وعُمرَ. قال: يقولُ له القاسم: أقْبَحُ مِن ذاكَ عندَ مَنْ عَقَلَ عن الله أن أقُولَ بغير عِلْم، أو آخُذَ عن غيرِ ثِقَةٍ. فسكتَ فما أجابَهُ.

وقال مالكُ بنُ أنس: سمعتُ ابنَ هُرْمُزٍ[٤] يقول: يَنبغي للعالِم أن يُوَرِّثَ جُلَساءَه مِن بعدِه لا أدري، حتَّى يكونَ أصلًا في أيديهم، فإذا سُئل أحدُهم عمَّا لا يدري قال: لا أدري[٥].

وذكر الهَيْثَمُ بنُ جَميل[٦] قال: شَهِدْتُ مالكَ بنَ أنس سُئل عن ثمانٍ[٧] وأربعينَ مَسألةً، فقال في اثنتَينِ وثلاثينَ منها: لا أدري[٨].

---

(١) الأثران عن علي وابن عمر في مسند الدارمي (١٨٤) و(١٨٥)، وأخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٧١ و١٧٢ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص ٣٠٨.

(٢) في مقدمته ص ١٧.

(٣) يحيى بن المتوكل: هو العُمري المدني، الحذَّاء الضرير، مات ببغداد سنة (١٦٧هـ)، روى له مسلم في مقدمة كتابه وأبو داود. والقاسم بن عُبيد الله: هو ابنُ عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، أبو محمد المدني، روى له البخاري في الأدب، ومسلم والنسائي، مات في حدود الثلاثين ومئة. ويحيى بن سعيد: هو الأنصاري، أبو سعيد المدني، قاضي المدينة، كان ثقة كثير الحديث، مات سنة (١٤٣هـ) وقيل غير ذلك. تهذيب الكمال ٢٣/ ٣٩٩ و٣١/ ٣٤٦، ٥١١.

(٤) في (د): أبا هريرة، وهو خطأ، وابن هرمز هو عبد الله بن يزيد الأصم، أبو بكر، فقيه المدينة، كان عابداً زاهداً، مات سنة (١٤٨هـ). السير ٦/ ٣٧٩.

(٥) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٧٣، والتمهيد لابن عبد البر ١/ ٧٣.

(٦) أبو سهل الأنطاكي، البغدادي، الحافظ، مات سنة (٢١٣هـ). السير ١٠/ ٣٩٦.

(٧) في النسخ: ثمانية، والمثبت من (م).

(٨) التمهيد ١/ ٧٣.

قلتُ: ومثلُه كثيرٌ عن الصَّحابة والتَّابعين وفقهاءِ المسلمين، وإنَّما يَحمل على تركِ ذلك الرِّياسةُ، وعدمُ الإنصافِ في العلمِ. قال ابنُ عبد البرّ: مِن بركَةِ العِلم وآدابِهِ الإنصافُ فيه، ومن لم يُنْصِفْ لم يَفْهَم ولم يَتَفَهَّم. روى يونسُ بنُ عبدِ الأعلى قال: سمعتُ ابنَ وَهْب يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقول: ما في زمانِنا شيءٌ أقلّ من الإنصافِ[١].

قلتُ: هذا في زمنِ مالك، فكيفَ في زماننا اليوم الذي عمَّ فيه[٢] الفسادُ، وكثُر فيه الطَّغَام[٣]، وطُلِبَ فيه العلمُ للرِّياسَةِ لا للدِّراية، بل للظُّهورِ في الدُّنيا، وغلَبَة الأقران بالمِراءِ والجِدال الذي يُقَسِّي القلبَ ويُورِثُ الضِّغن، وذلك مما يَحمِلُ على عدمِ التَّقوى، وتركِ الخوفِ من الله تعالى؟! أينَ هذا مما رُوِيَ عن عمرَ رضي الله عنه وقد قال: لا تَزِيدوا في مُهورِ النِّساء على أربعينَ أُوقِيَّة ولو كانت بنتَ ذي الغَصَّة[٤] ـ يعني يزيدَ بنَ الحُصين الحارثي[٥] ـ فَمَنْ زادَ ألقيتُ زيادتَه في بيت المال؛ فقامت امرأةٌ من صَوْبِ[٦] النِّساء طويلةٌ فيها فَطَسٌ، فقالت: ما ذلكَ لكَ. قال: ولِمَ؟ قالت: لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]. فقال عُمَر: امرأةٌ أصابَتْ ورجلٌ أخطأ[٧].

وروى وَكيع، عن أبي مَعْشَر، عن محمَّد بنِ كعب القُرَظِيِّ قال: سألَ رجلٌ عليًّا رضي الله عنه عن مسألةٍ، فقال فيها، فقال الرجُل: ليس كذلك يا أميرَ المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال عليٌّ: أصبْتَ وأخطأْتُ، وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليم[٨].

---

(١) جامع بيان العلم ص ١٧٤ و١٧٥.

(٢) في (م): فينا.

(٣) هم أوغاد الناس، كما في الصحاح (طغم).

(٤) في النسخ: ذي العصبة.

(٥) كذا وقع الاسم عند القرطبي هنا، وعند ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، وسماه ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن الأثير في أسد الغابة، والحافظ ابن حجر في الإصابة: الحصين بن يزيد، قال الحافظ: ذو الغَصَّة: بفتح المعجمة وتشديد المهملة... لُقِّب بذلك لأنه كان في حلقه شبه الحوصلة، ويقال: إنه رَأَس بني الحارث بن كعب مئة سنة. اهـ.

(٦) في جامع بيان العلم ص ١٧٥ : صفّ.

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٥٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٤ ـ ١٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٣٣.

(٨) جامع بيان العلم ص ١٧٥.

وذكر أبو محمَّد قاسمُ بنُ أَصْبَغ[١] قال: لمَّا رَحَلْتُ إلى المشرق نزلْتُ القَيْرَوان، فأخذتُ على بكر بنِ حَمَّاد[٢] حديثَ مُسَدّد[٣]، ثمَّ رحلتُ إلى بَغداد ولقيْتُ النَّاس، فلمَّا انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مُسَدّد، فقرأتُ عليه فيه يوماً حديثَ النبيِّ ﷺ أنَّه قَدِم عليه قومٌ من مُضَر مِن مُجْتابِي النِّمار، فقال: إنَّما هو مُجْتابي الثِّمار، فقلتُ: إنَّما هو مُجتابي النِّمار، هكذا قرأتُه على كلِّ مَنْ قرأتُه عليه بالأنْدَلُس والعراق، فقال لي: بدخولكَ العراقَ تُعارِضُنا وتفخَرُ علينا! أو نحو هذا. ثم قال لي: قُمْ بنا إلى ذلك الشَّيخ ـ لشيخ كان في المسجدِ ـ فإنَّ له بمثلِ هذا عِلماً، فقُمنا إليه، فسألناه عن ذلك فقال: إنَّما هو مُجْتابي النِّمار ـ كما قلتُ، وهم قَومٌ كانوا يلبَسونَ الثِّيابَ مشقَّقةً، جيوبُهم أمامَهم. والنِّمار: جَمعُ نَمِرة ـ فقال بَكرُ بنُ حَمَّاد ـ وأخذَ بأنفِه ـ رَغِمَ أنْفِي للحقِّ، رَغِمَ أنْفِي للحقِّ. وانصرفَ[٤].

وقال يزيدُ بنُ الوليد بنِ عبد الملك[٥] فأحسنَ:

إذا ما تَحَدَّثْتُ في مجلسٍ ... تَناهَى حديثي إلى ما عَلِمتْ
ولم أَعْدُ علمي إلى غيرِه ... وكانَ إذا ما تَناهَى سَكَتّ

الثالثة[٦]: قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ سُبحانَ: منصوبٌ على المصدر عند الخليلِ وسيبويه، يؤدِّي عن معنى: نُسَبِّحُك تسبيحاً. وقال الكِسائيّ: هو منصوبٌ على أنَّه نداءٌ مُضاف[٧].

---

(١) الحافظ، محدث الأندلس، القرطبي، مولى بني أمية، صنف كتاب برّ الوالدين، والمنتقى في الآثار، مات سنة (٣٤٠هـ). السير ١٥/ ٤٧٢.

(٢) هو أبو عبد الرحمن، الفقيه، الإمام، الثقة، مات بالقاهرة سنة (٢٩٥هـ). شجرة النور الزكية ص ٧٢.

(٣) هو ابن مُسَرْهَد بن مُسَرْبَل، أبو الحسن، الأسدي، البصري، الحافظ، روى له الجماعة سوى مسلم وابن ماجه، مات سنة (٢٢٨هـ). السير ١٠/ ٥٩١.

(٤) الحديث أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧)، والقصة بتمامها أخرجها ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٨.

(٥) أبو خالد، الأموي، القرشي، الخليفة، مات سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٣٧٤، والبيتان المذكوران له في جامع بيان العلم ص ١٧٦.

(٦) في (م) الثانية، وهو خطأ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ٢٢٦.

و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فَعيل للمبالغة والتَّكثيرِ في المعلومات في حقِّ[١] الله تعالى.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ معناه الحاكِمُ، وبينهما مَزِيَّة[٢] المبالغة. وقيل: معناه المُحْكِم، ويجيءُ الحكيمُ على هذا من صفاتِ الفِعْل[٣]، صُرِفَ عن مُفعِل إلى فَعِيل، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَميع، ومُؤلِم إلى أليم. قاله ابنُ الأنباري[٤].

وقال قوم: الحكيمُ: المانعُ من الفَساد، ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام، لأنَّها تمنعُ الفرسَ من الجَرْي والذَّهابِ في غيرِ قَصْدٍ[٥]. قال جرير[٦]:

أَبَني حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم ... إنِّي أخافُ عليكُمُ أنْ أَغْضَبَا

أي: امنَعوهم من الفساد. وقال زُهير[٧]:

القائدُ الخيلَ مَنْكوباً دوابِرُها ... قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

القِدُّ: الجِلْد. والأَبَق: القِنَّب[٨]. والعربُ تقول: أَحْكِم اليتيمَ عن كذا وكذا، يريدون: امْنَعْه[٩].

والسُّورةُ المُحْكَمة: الممنوعةُ من التَّغييرِ وكُلِّ التَّبديلِ، وأن يُلحقَ بها ما يَخرُجُ عنها، ويُزادَ عليها ما ليسَ منها.

والحِكمةُ من هذا، لأنَّها تمنعُ صاحبَها من الجَهْلِ، ويُقال: أَحْكَمَ الشيءَ: إذا أتقنَهُ ومنَعهُ من الخروجِ عمَّا يريدُ. فهو مُحْكِمٌ وحَكيمٌ على التَّكثيرِ[١٠].

---

(١) في (د) و(م): خلق، وهو خطأ.

(٢) في (د) و(م): مزيد.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٢.

(٤) الزاهر ١/ ٨٠.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٢٢، والصحاح (حكم).

(٦) ديوانه ص ٤٤٦.

(٧) ديوانه (بشرح ثعلب) ص ٤٩.

(٨) في النسخ: القتب، وهو خطأ، والمثبت من (م)، والقنَّب: ضرب من الكتان. اللسان.

(٩) في (م): منعه.

(١٠) تهذيب اللغة للأزهري ٤/ ١١٠، والصحاح، واللسان (حكم).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ أمَرَه الله أن يُعْلِمَهم بأسمائهم بعد أنْ عَرَضَهم على الملائكةِ، ليعلموا أنّه أعلمُ بما سألَهم عنه، تنبيهاً على فَضْلِه وعُلُوِّ شأنِه، فكان أفضلَ منهم بأن قدَّمَه عليهم، وأسجدَهم له، وجعلَهم تلامذَتَه، وأمرَهم بأن يتعلَّموا منه، فحصلَتْ له رتبةُ الجَلال والعَظَمَةِ بأن جعلَه مسجوداً[1] له، مختصًّا بالعِلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على فضلِ العلمِ وأهلِه، وفي الحديث: «وإنَّ الملائكةَ لَتَضعُ أجْنِحَتَها رِضًا لطالب العلم»[2] أي: تخضعُ وتتواضَعُ، وإنما تفعلُ ذلك لأهلِ العلم خاصَّةً مِن بين سائر عِيالِ الله، لأنَّ الله تعالى ألزَمَها ذلك في آدمَ عليه السلام، فتأدَّبَتْ بذلك الأدب، فكُلَّما ظهرَ لها عِلْمٌ في بَشَرٍ خَضَعَتْ له، وتواضعَتْ وتذلَّلَتْ، إعظاماً للعِلم وأهلِه، ورِضًى منهم بالطَّلَبِ له والشُّغْلِ به. هذا في الطُّلَّاب منهم، فكيف بالأحبارِ فيهم والربَّانيِّين منهم؟! جعلَنا الله منهم وفيهم، إنَّه ذو فضلٍ عظيم.

الثالثة: اختلَفَ العلماءُ من هذا[3] الباب: أيُّما أفضلُ: الملائكةُ، أو بنو آدم، على قولين:

فذهبَ قومٌ إلى أنَّ الرُّسُل من البشر أفضلُ من الرُّسلِ من الملائكة، والأولياء من البشر أفضلُ من الأولياءِ من الملائكة.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ الملأَ الأعلى أفضلُ.

احتجَّ مَنْ فَضَّلَ الملائكةَ بأنَّهم﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء]. ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢].

---

(١) في (د): حصل سجوداً، وفي (ز): حصل مسجوداً، وفي (ظ): جعل مسجوداً، والمثبت من (م).

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) في (د): في هذا.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وفي البخاريِّ[١]: «يقولُ الله عز وجل: مَنْ ذكَرني في مَلأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم». وهذا نَصٌّ.

واحتجَّ[٢] مَنْ فضَّلَ بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾ [البينة: ٧]. بالهَمْز، مِن: بَرَأَ الله الخلقَ، وبقوله[٣] عليه السلام: «وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنحتَها رِضاً لطالبِ العلم» الحديث، أخرجه أبو داود[٤]. وبما جاء في أحاديثَ مِن أنَّ الله تعالى يُباهي بأهل عَرفات الملائكة[٥]، ولا يُباهي إلا بالأفضلِ، والله أعلم.

وقال بعضُ العُلماء: ولا طريقَ إلى القَطْعِ بأنَّ الأنبياءَ أفضلُ من الملائكةِ، ولا القَطْعِ بأنَّ الملائكةَ خيرٌ منهم؛ لأنَّ طريقَ ذلك خبرُ الله تعالى وخبرُ رسولِه، أو[٦] إجماعُ الأمَّة، وليس ها هنا شيءٌ من ذلك، خِلافاً للقَدَريَّة والقاضي أبي بكر[٧] رحمه الله، حيثُ قالوا: الملائكةُ أفضَلُ. قال: وأمَّا مَنْ قال مِن أصحابنا والشِّيعةِ: إنَّ الأنبياءَ أفضلُ، لأنَّ الله تعالى أمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدم، فيُقال لهم: المسجودُ له لا يكونُ أفضلَ من السَّاجد، ألا تَرى أنَّ الكعبةَ مسجودٌ لها[٨]، والأنبياءُ والخلقُ يسجدون نحوَها، ثمَّ إنَّ الأنبياءَ خيرٌ من الكعبة باتِّفاق الأُمَّة، ولا خِلافَ أنَّ السُّجودَ لا يكونُ إلَّا لله تعالى، لأنَّ السُّجودَ عِبادةٌ، والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك؛ فكَونُ

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضاً (٢٦٧٥): (٢). وهو في المسند (٧٤٢٢).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م). احتج، دون واو، والمثبت من (د).

(٣) في (م): وقوله.

(٤) في سننه (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٥) من ذلك ما أخرجه أحمد (٨٠٤٧)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، وابن حبان (٣٨٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د) و(ظ): وإجماع.

(٧) هو الباقلاني. انظر تفسير الرازي ٢/ ٢١٥.

(٨) ليس السجود للكعبة، بل السجود لله عزّ وجلّ، وقد أمرنا بالتوجّه لها، فالسجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، وهو ما سيذكره المصنف.

السُّجودِ إلى جهةٍ لا يدُلُّ على أنَّ الجِهةَ خيرٌ من السَّاجدِ العابد، وهذا واضحٌ. وسيأتي له مزيدُ بيان في الآية بعد هذا[١].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دليلٌ على أنَّ أحداً لا يعلمُ من الغيب إلّا ما أعلمَه الله، كالأنبياء، أو مَنْ أعلمَهُ[٢] الله تعالى، فالمنَجِّمون والكُهَّان وغيرُهم كَذَبَةٌ. وسيأتي بيانُ هذا في الأنعام إنْ شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الآية: ٥٩].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي من قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ حكاه مَكِّيّ والماوَرْدِيّ[٣]. وقال الزَّهْراويُّ: ما أبدَوْه هو بِدارُهُم[٤] بالسُّجود لآدم.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وسعيدُ بنُ جُبير[٥]: المرادُ ما كتَمَه إبليسُ في نفسه من الكِبْرِ والمعصيَةِ.

قال ابنُ عطيَّة[٦]: وجاءَ «تكتُمون» للجماعَةِ؛ والكاتِمُ واحد في هذا القول على تجوُّزِ العرب واتِّساعِها، كما يُقال لقومٍ قد جَنَى سَفِيهٌ منهم: أنتمُ فعلتُم كذا. أي: منكم فاعِلُه، وهذا مَعَ قَصْدِ تعنيف، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. وإنما ناداه منهم عُيَيْنَةُ، وقيل: الأقرعُ. وقالت طائفةٌ: الإبداءُ والمكتُوم ذلك على معنى العُموم في معرفةِ أسرارهم وظواهرِهم أجمع.

وقال مَهديُّ بنُ مَيمون[٧]: كنَّا عندَ الحسَنِ، فسألَه الحسنُ بنُ دِينار[٨]: ما الذي

(١) ص ٤٣٥.

(٢) تكرر قوله: من أعلمه، في (م).

(٣) النكت والعيون ١/ ١٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): بداؤهم.

(٥) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره ١/ ٥٣١-٥٣٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٣.

(٧) أبو يحيى، الكردي، الأزدي، أحد الأثبات المعمرين، مات سنة (١٧٢هـ). السير ٨/ ١٠.

(٨) أبو سعيد البصري، التميمي، مولى بني سليط، قال النسائي: متروك، وقال أبو خيثمة: كذاب. تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٣.

كتمتِ الملائكةُ؟ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا خلقَ آدمَ رأتِ الملائكةُ خَلْقاً عَجَباً، وكأنَّهم دخلَهم من ذلك شيءٌ، قال: ثمَّ أقبلَ بعضُهم على بعضٍ، وأسرُّوا ذلك بينَهم، [فقالوا: و] ما يُهِمُّكُم من هذا المخلوق؟! إنَّ الله لم[1] يَخلُقْ خلقاً إلا كُنَّا أكرمَ عليه منه[2].

و«ما» في قوله: «ما تُبدون» يجوزُ أن ينتصب بـ «أعلمُ» على أنَّه فِعلٌ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى عالم، وتنصبُ به «ما» فيكونُ مثلَ: حَوَاجُّ بيتَ الله، وقد تقدّم[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر. وأما قولُ أبي عُبيدة: إنَّ «إذْ» زائدةٌ، فليس بجائز، لأن «إذ» ظرفٌ، وقد تقدّم[4].

وقال: «قلنا» ولم يقل: قلتُ، لأن الجبارَ العظيمَ يُخبِرُ عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً وإشادةً بذكره.

والملائكة جمع مَلَك، وقد تقدّم[5]. وتقدّم القولُ أيضاً في آدم واشتقاقه[6]، فلا معنى لإعادته.

ورُوي عن أبي جعفر بن القَعْقاع[7] أنه ضَمَّ تاء التأنيث من «الملائكة» إتباعاً

---

(١) في سنن سعيد بن منصور: «لا»، وفي تفسير الطبري: «لن».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (١٨٥)، والطبري في تفسيره ١/ ٤٩٩. وما بين حاصرتين منهما. وقد صرح مهدي بن ميمون في هذا الإسناد بأنه سمع جواب الحسن البصري حين سأله الحسن بن دينار، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري: وقد نبهتُ على هذا خشية أن يظن أنه من رواية مهدي عن الحسن بن دينار، والحسن بن دينار كذاب لا يوثق به.

(٣) ص ٤١٥.

(٤) ص ٣٩١.

(٥) ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٦) ص ٤١٧.

(٧) هو يزيد بن القعقاع المدني، أحد الأئمة العشرة في القراءات، مات سنة (١٢٧هـ). السير ٥/ ٢٨٧.

لضمة[١] الجيم في «اسجُدوا»[٢]. ونظيرُه: «الحمدِ لِلّه».

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ السجودُ معناه في كلام العرب التذلُّلُ والخضوع، قال الشاعر:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراتِه ... ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للحوافِرِ[٣]

الأُكْمُ: الجبال الصِّغار، جعلها سُجَّداً للحوافر، لقهر الحوافرِ إياها، وأنها لا تمنعُ عليها. وعَيْنٌ ساجدةٌ، أي: فاترةٌ عن النظر.

وغايتُه وضعُ الوجه بالأرض. قال ابن فارس[٤]: سَجَد: إذا تطامَنَ، وكلُّ ما سجدَ فقد ذَلَّ، والإسجادُ: إدامةُ النَّظر، قال أبو عمرو: وأسجد: إذا طأطأ رأسَه، قال:

فُضُولَ أزِمَّتِها أسجدَتْ ... سجودَ النصارى لأربابِها[٥]

قال أبو عُبيد[٦]: وأنشدني أعرابيٌّ من بني أسد:

---

(١) في (م): لضم.

(٢) هي من القراءات العشر، وقد ضعف هذه القراءة الزجاج في معاني القرآن ١/ ١١١-١١٢، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٧١، والزمخشري في الكشاف ١/ ٢٧٣، وذكرها ابن عطية ١/ ١٢٤، ونقل عن أبي علي قوله: وهذا خطأ. وقد ردَّ أبو حيان في البحر المحيط ١/ ١٥٢، وابن الجزري في النشر ٢/ ٢١٠-٢١١ قول من ضعفها، وذكرا أنها لغة أزد شنوءة. وسلف الكلام على قراءة «الحمدِ لِله» و«الحمدُ لُله» ص ٢١٠-٢١١.

(٣) قائله زيد الخيل، والبيت في ديوانه ص ٦٦، والكامل ٢/ ٧٣٥، وتفسير الطبري ١/ ٧١٥، باختلاف في الرواية، وهو في الصحاح: (سجد) بمثل رواية المصنف. والبُلْق: جمع أبلق وبلقاء، والبَلَق: سواد وبياض، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين. اللسان (بلق). والحجرات: مفرده حَجْرة، وحَجْرة القوم: ناحية دارهم. الصحاح: (حجر).

(٤) مجمل اللغة: (سجد).

(٥) البيت لحميد بن ثور، يصف نساءً، وقبله:

فلما لَوَيْنَ على مِعْصَمٍ ... وكفٍّ خَضِيبٍ وإسوارِها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أزمّة أجمالهن على معاصمهن أسجدت الجمالُ لهن، وطأطأت رؤوسها ليركبنها. والبيت في ديوانه ص ٩٦، وإصلاح المنطق ص ٢٧٥، والمجمل، والصحاح (سجد).

ووقع في (م): «لأحبارها»، وهي رواية الديوان، ونقل ابن منظور في اللسان (سجد) عن ابن بري أنها الصواب في رواية البيت.

(٦) في (ز) و(م): أبو عبيدة (وذكر محقق المجمل أنه في الغريب المصنف لأبي عبيد).

فقلنَ[١] له أسْجِدْ لِلَيلَى فأسجدا[٢]

يعني البعيرَ إذا طأطأ رأسَه.

ودَراهِمُ الإسجاد: دَراهِمُ كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها، قال:

وافَى بها لدراهم[٣] الإسجاد[٤]

الثالثة: استدلَّ مَنْ فضَّل آدمَ و بنِيه بقوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾ قالوا[٥]: وذلك يدلُّ على أنه كان أفضلَ منهم.

والجوابُ أن معنى ﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾: اسجدوا لي مستقبلين وَجْهَ آدم، وهو كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: عند دُلوك[٦] الشمس، وكقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، أي: فقعوا لِي عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين، وقد بيَّنَّا أن المسجودَ له لا يكونُ أفضلَ من الساجد، بدليل القِبْلة[٧].

فإن قيل: فإذا لم يكن أفضلَ منهم، فما الحكمةُ في الأمر بالسجود له؟

قيل له: إنَّ الملائكةَ لمَّا استعظَمُوا بتسبيحهم[٨] و تقديسهم، أمَرَهُم بالسجودِ لغيره، لِيُرِيَهم استغناءَه عنهم وعن عبادتهم.

وقال بعضُهم: عَيَّرُوا آدمَ و استَصْغَرُوه، ولم يَعرِفُوا خصائصَ الصُّنْع به، فأُمِرُوا بالسجود له تكريماً.

---

(١) في (م): «وقلن».

(٢) هو في المجمل والصحاح: (سجد).

(٣) في النسخ: وأوفى، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصادر البيت، وفي (م): كدراهم.

(٤) عجز بيت للأسود بن يعفر، وصدره:

مِن خمرِ ذي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ

والبيت في المفضليات ص ٢١٨، وهو في المجمل والصحاح: (سجد) من غير نسبة.

(٥) في (د): قال.

(٦) في (ظ): طلوع.

(٧) ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٨) في (ز) و(ظ): تسبيحهم.

ويَحتملُ أن يكون الله تعالى أَمَرَهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكان عَلِمَ منهم أنه إن خاطَبَهم أنهم قائلُون هذا، فقال لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. وجاعلُه خليفةً، فإذا نَفَخْتُ فيه من رُوحي فقَعوا له ساجدين. والمعنَى: ليكونَ ذلك عقوبةً لكم في ذلك الوقت على ما أنتُم قائلون لي الآن.

فإن قيل: فقد استدلَّ ابنُ عباس على فضل البشر بأنَّ الله تعالى أقسمَ بحياة رسوله ﷺ، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١] [الحجر: ٧٢]. وأَمَّنَه من العذاب بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وقال للملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قيل له: إنما لم يُقسِمْ بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه، فلم يقل: لَعَمري، وأقسمَ بالسماء والأرض، ولم يدلَّ[٢] على أنهما أرفعُ قدراً من العرش والجِنانِ السَّبع، وأقسمَ بالتِّين والزيتون، وأمَّا قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ فهو نظيرُ قوله لنبيِّه عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فليس فيه إذاً دلالةٌ، والله أعلم.

الرابعة: واختلفَ الناسُ في كيفية سجودِ الملائكة لآدمَ بعد اتفاقِهم على أنه لم يكن سجودَ عِبادةٍ.

فقال الجمهور: كان هذا أمراً[٣] للملائكة بوضع الجِباهِ على الأرض لآدم، كالسجود المُعتاد في الصلاة، لأنه الظاهرُ من السجود في العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل: كان ذلك السجودُ تكريماً لآدمَ وإظهاراً لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدمُ كالقِبْلة لنا، ومعنى «لآدم»: إلى آدم، كما يقال صلَّى للقِبْلة، أي: إلى القبلة.

وقال قوم: لم يكن هذا السجودَ المعتادَ اليومَ، الذي هو وضعُ الجبهة على الأرض، ولكنَّه مُبْقًى على أصل اللُّغة، فهو من التذلُّلِ والانقياد، أي: اخضعوا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٩١-٩٢، وليس فيه أن ابن عباس استدل بذلك على فضل البشر، والله أعلم.

(٢) في (د): يدلا.

(٣) في (د): الأمر، وفي (ظ): أمرٌ.

لآدم، وأَقِرُّوا له بالفضل، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ أي: امتثلوا ما أُمِرُوا به.

واختُلِف[1] أيضاً: هل كان ذلك السجودُ خاصًّا بآدمَ عليه السلام، فلا يجوزُ السجودُ لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى: أم كان جائزاً بعدَه إلى زمانٍ يعقوبَ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فكان آخرَ ما أُبِيحَ من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثرُ أنه كان مباحاً إلى عصر رسول الله ﷺ، وأنَّ أصحابَه قالوا له حين سجدَتْ له الشجرةُ والجمل: نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجملِ الشارد، فقال لهم: «لا ينبغي أن يُسْجَد[2] لأحدٍ إلا لله ربِّ العالمين»[3].

روى ابنُ ماجه في «سُننه»، والبُسْتِيُّ في «صحيحه» عن أبي واقِدٍ[4]، قال: لمَّا قَدِمَ معاذُ بنُ جَبَلٍ من الشام سجَدَ لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟!» فقال: يا رسولَ الله، قدمتُ الشامَ، فرأيتُهم يسجدون لِبَطارِقَتهم وأساقِفَتهم، فأردتُ أن أفعلَ ذلك بك، قال: «فلا تفعل[5]؛ فإني لو أمرتُ شيئاً أن يسجدَ لشيء لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها، [والذي نفسي بيده] لا تُؤدي المرأةُ حقَّ ربِّها حتى تؤديَ حقَّ زوجها، حتى لو سألَها نفسَها وهي على قَتَب لم تمنعه». لفظ البُسْتيّ. ومعنى القَتَب أنَّ العربَ يَعِزُّ عندهم وجودُ كرسيٍّ للولادة، فيحملون نساءهم على القَتَب عند الولادة[6]، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر، وأَمَرَ بالمصافحة[7].

---

(١) في النسخ: والخامسة: واختلف، والمثبت (م) وهو الموافق لقول المصنف فيه عشر مسائل.

(٢) في (د): لا ينبغي السجود، وفي (ظ): أن تسجد.

(٣) أخرج نحوه الإمام أحمد في المسند (٢٤٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وابن حبان (٤١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحارث بن عوف المدني، شهد بدراً والفتح، وقيل: أسلم يوم الفتح، توفي سنة (٦٨هـ). السير ٢/ ٥٧٤. والحديث في سنن ابن ماجه (١٨٥٣)، وصحيح ابن حبان (٤١٧١)، وما بين حاصرتين منه، وهو من حديث ابن أبي أوفى، لا من حديث أبي واقد.

(٥) في (ظ): فقال: لا تفعل.

(٦) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٣٠. والقَتَب: رَحْلٌ صغير على قدر السَّنام. الصحاح (قتب).

(٧) لم نقف عليها.

قلتُ: وهذا السجودُ المنهيُّ عنه قد اتخذَه جُهَّالُ المتصوِّفةِ عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فترى[١] الواحدَ منهم إذا أخَذَه الحالُ بزعمه، يسجدُ للأقدام لجهله، سواءٌ كان للقِبلة أم[٢] غيرِها جهالةً منه[٣]، ضلَّ سَعْيُهم وخابَ عملُهم.

الخامسة[٤]: قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتَّصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابنِ عباس، وابنِ مسعود، وابنِ جُريج، وابنِ المُسَيّب وقَتادةَ، وغيرهم[٥]، وهو اختيارُ الشيخ أبي الحسن، ورَجَّحَه الطبريُّ[٦]، وهو ظاهرُ الآية.

قال ابن عباس: وكان اسمُه عزازيل[٧]، وكان من أشراف الملائكة، وكان من أولي[٨] الأجنحة الأربعة، ثم أَبْلَسَ بعدُ[٩].

روى سِمَاك بنُ حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان إبليسُ من الملائكة، فلمَّا عصى الله غضبَ عليه، فلعنَه، فصار شيطاناً[١٠].

وحكى الماوَرديُّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صِنْف من الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[١١].

---

(١) في (م): فيرى.
(٢) في (د) و(ظ): أو، وفي (ز): وغيرها، والمثبت من (م).
(٣) في (د) و(ظ): منهم.
(٤) في النسخ: السادسة، والمثبت من (م) وهو الموافق لقول المؤلف: فيه عشر مسائل.
(٥) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول ابن جريج ـ الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥ـ٥٣٩، وذكرها الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٢.
(٦) في تفسيره ١/ ٥٤٢.
(٧) في (ظ): عزاييل.
(٨) لفظ: أولي، ليس في (م).
(٩) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ٣٣٦، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٢٢، وأبلس من رحمة الله؛ أي: يئس.
(١٠) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٤٩).
(١١) لم نجد قول قتادة هذا في تفسير الماوردي، وقد حكى ١/ ١٠٣ عن ابن عباس أنهم حي من الملائكة يسمون جناً كانوا من أشد الملائكة اجتهاداً.

وقال سعيد بنُ جُبير: إن الجِنَّ سِبْطٌ من الملائكة خُلقوا من نارٍ، وإبليسُ منهم، وخلق سائر[1] الملائكة من نور.

وقال ابنُ زيد والحسنُ وقتادةُ أيضاً: إبليسُ أبو الجنِّ، كما أنَّ آدمَ أبو البشر، ولم يكن مَلَكاً[2]، ورُوي نحوه عن ابن عباس، وقال: اسمُه الحارث[3].

وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ[4] وبعضُ الأصوليين: كان من الجِنِّ الذين كانوا في الأرض، وقاتَلَتْهم الملائكةُ، فسَبَوْه صغيراً، وتَعَبَّد مع الملائكة، وخُوطِبَ، وحكاه الطبريُّ عن ابن مسعود[5]. والاستثناءُ على هذا منقطعٌ، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] في أحد القولين، وقال الشاعر:

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ إلا الرُّقادَ والرُّقادُ ممنوعْ[6]

واحتجَّ بعضُ أصحابِ هذا القولِ بأنَّ الله جلَّ وعزَّ وصفَ الملائكةَ، فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، والجنُّ غيرُ الملائكة.

أجابَ أهلُ المقالة الأُولى بأنه لا يمتنعُ أن يَخرجَ إبليسُ من جملة الملائكة لما سبقَ في علم الله بشقائه عدلاً منه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وليس في خلقه من نارٍ ولا في تركيب الشهوة حين غضبَ عليه ما يدفعُ أنه من الملائكة.

وقول من قال: إنه كان من جِنِّ الأرض فسُبِيَ، فقد رُوي في مقابلته أنَّ إبليسَ هو الذي قاتلَ الجنَّ في الأرض مع جُندٍ من الملائكة[7]، حكاه المهدَويُّ وغيره.

---

(١) في (د) و(ز): معاشر، وفي (ظ): آدم ومعاشر، والمثبت من (م)، ولم نقف على تخريجه.

(٢) قول ابن زيد والحسن أخرجهما الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٩-٥٤٠، وقول قتادة لم نقف عليه.

(٣) سيذكره المصنف قريباً مطولاً.

(٤) أبو سعيد الأشعري، الشامي، مولى أسماء بنت يزيد الأنصارية، من كبار علماء التابعين، توفي سنة (١١٢هـ). السير ٤/ ٣٧٢.

(٥) في تفسيره ١/ ٥٤٠-٥٤١، وفيه: عن سعد بن مسعود، وكذلك نقله عنه ابن كثير ١/ ٢٣١، وتابع المصنف ابنَ عطية ١/ ١٢٤ في قوله: عن ابن مسعود.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) أخرجه الطبري ١/ ٤٨٢-٤٨٤ عن ابن عباس، وانظر ما سلف ص ٤٠٩.

وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عباس: أنَّ إبليسَ كان من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنُّ، خُلِقُوا من نار السَّمُوم، وخُلِقتِ الملائكةُ من نور، وكان اسمُه بالسّريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزَّان الجنة، وكان رئيسَ ملائكةِ السماءِ الدنيا، وكان له سلطانُها وسلطانُ الأرض، وكان من أشدِّ الملائكة اجتهاداً وأكثرِهم علماً، وكانَ يَسُوسُ ما بينَ السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمةً، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى، فمسخَه شيطاناً رجيماً[١].

فإذا كانت خطيئة الرجل في كِبْرٍ فلا تَرْجُهُ، وإن كانت خطيئتُه في معصية فارْجُه، وكانت خطيئةُ آدم عليه السلام معصيةً، وخطيئةُ إبليس كِبْراً.

والملائكةُ قد تُسَمَّى جِنًّا؛ لاستتارها، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال الشاعر[٢] في ذِكْر سليمان عليه السلام:

وسَخَّرَ مِن جِنِّ الملائِكِ تِسعةً ... قياماً لَدَيهِ يعملونَ بلا أجرِ

وأيضاً لمَّا كان من خُزَّان الجَنَّة نُسِب إليها، فاشْتُقَّ اسمُه من اسمها، والله أعلم.

وإبليسُ وزنُه إفعيل، مشتقٌّ من الإبلاس: وهو اليأسُ من رحمة الله تعالى، ولم[٣] ينصرف؛ لأنه معرفةٌ، ولا نظيرَ له في الأسماء، فشُبِّه بالأعجمية[٤]. قاله أبو عُبيدة[٥] وغيره، وقيل: هو أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فلم ينصرِفْ للعُجْمة والتعريف، قاله الزجَّاج[٦] وغيره.

السادسة[٧]: قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾ معناه امتنعَ من فعل ما أُمِرَ به، ومنه الحديثُ

---

(١) أخرجه مقطعاً الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥-٥٣٧، وأبو الشيخ في العظمة (١١٣٦) و(١١٤٨)، ولم يثبت في ذلك نصّ صحيح.

(٢) هو أعشى بني قيس، والبيت في الأضداد لابن الأنباري ص ٣٣٥، وتفسير الطبري ١/ ٥٣٩، والنكت والعيون ١/ ١٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٥.

(٣) في (ظ): ولا.

(٤) في (د) و(ظ): بالعجمية.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٨، وانظر تفسير الطبري ١/ ٥٤٤.

(٦) معاني القرآن ١/ ١١٤.

(٧) في النسخ: السابعة، والمثبت من (م).

الصحيحُ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ [فسَجَدَ] اعتزل الشيطانُ يبكي يقول: يا وَيْلَه - وفي رواية: يا ويلتا[١] - أُمِر ابنُ آدمَ بالسجود فسَجَدَ، فله الجنةُ، وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ، فليَ النارُ». خرجه مسلم[٢]. يقال: أَبَى يأبَى إباءً، وهو حرفٌ نادرٌ جاء على فَعَل يَفْعَل، ليس فيه حرفٌ من حروف الحَلْق، وقد قيل: إنَّ الألفَ مُضارِعةٌ لحروفِ الحَلْق. قال الزَّجاجُ. سمعتُ إسماعيلَ بنَ إسحاقَ القاضيَ يقول: القولُ عندي أنَّ الألفَ مضارِعةٌ لحروف الحَلْق. قال النحَّاس[٣]: ولا أعلمُ أنَّ أبا إسحاقَ[٤] روى عن إسماعيلَ نحواً غيرَ هذا الحرف.

السابعة[٥]: قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبارُ: الاستعظامُ، فكأنه كَرِهَ السجودَ في حقِّه، واستعظَمَه في حقِّ آدم، فكان تركه[٦] السجودَ لآدمَ تسفيهاً لأمرِ الله وحكمته، وعن هذا الكِبر عبَّر عليه السلام بقوله: «لا يدخلُ الجنة مَن [كان] في قلبه مثقالُ حبَّة من خَرْدَلٍ من كِبْر». في رواية: فقال رجل: إن الرجلَ يُحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسناً، ونعلُه حسنةً، قال: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ». أخرجه مسلم[٧]. ومعنى بَطَر الحقّ: تسفيهُه وإبطالُه، وغَمْط الناس: الاحتقار لهم والازدراء[٨] بهم. ويُروى: «وغمص» بالصاد المهملة، والمعنى واحد، يقال: غَمصه يَغْمِصه غَمْصاً واغتمصه، أي: استصغره، ولم يره شيئاً، وغَمَصَ فلانٌ النعمةَ: إذا لم يشكرها، وغَمَصْتُ عليه قولًا قاله، أي: عِبتُه عليه[٩].

---

(١) في (ظ): يا ويلتي، وفي (م): يا ويلي.

(٢) برقم (٨١)، وما بين حاصرتين منه، وهو في المسند (٩٧١٣).

(٣) إعراب القرآن ١/٢١٣.

(٤) يعني الزَّجَّاج.

(٥) في النسخ: الثامنة، والمثبت من (م).

(٦) في (م): ترك، وفي (د): تركه للسجود.

(٧) برقم (٩١) و(١٤٧) من حديث ابن مسعود، وما بين حاصرتين منه، وفيه: «مثقال ذرة»، وهو في المسند (٤٣١٠).

(٨) في (ز) و(ظ): والإزراء.

(٩) الصحاح (غمص).

وقد صرَّح اللّعينُ بهذا المعنى فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فكَفَّرَه الله بذلك.

فكلُّ مَنْ سَفَّه شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمْرِ رسوله عليه السلام، كان حُكْمُه حُكْمَه، وهذا ما لا خلافَ فيه.

وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أنَّ أوّل معصيةٍ كانت الحسدَ والكِبْرَ [والشحَّ]، حَسَدَ إبليسُ آدمَ [وتكبَّرَ]، وشحَّ آدمُ في أكله من شجرةٍ[١] [قد نُهي عن قُربها][٢].

وقال قتادة: حَسَد إبليسُ آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريٌّ وهذا طِينيٌّ، وكان بَدءُ الذنوب الكِبْر، ثم الحرصُ حتى[٣] أكلَ آدمُ من الشجرة، ثم الحسدُ إذ حسدَ ابنُ آدم أخاه[٤].

الثامنة[٥]: قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قيل: «كان» هنا بمعنى «صار»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]. وقال الشاعر:

بِتَيهاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنَّها ... قطا الحَزْنِ قد كانَتْ فِراخاً بُيوضُها[٦]

أي: صارت.

---

(١) في (م): الشجرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): حين.

(٤) أخرجه مختصراً الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٢٣.

(٥) في النسخ: التاسعة، والمثبت من (م).

(٦) البيت لابن أحمر، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/ ٥٧٥، واللسان: (عرض) و(كون)، والخزانة ٩/ ٢٠١، وقبله:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... صحيح السُّرى والعِيسُ تجري عروضُها

والتيهاء: الأرض التي لا يهتدي فيها، اللسان: (تيه)، والحَزْن: ما غلظ من الأرض، اللسان: (حزن)، وأضاف القطا إليه؛ لأنه يكون قليل الماء، فيكون قطاه أكثر عطشاً، فإذا أرادَ الماء كان سريع الطيران، وقد شبه الشاعر المطيَّ بالقطا التي فارقت فراخها لتحمل إليها الماء فتسقيها، فهو أسرع لطيرانها. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية ٢٦ من سورة المائدة.

وقال ابن فُورَك: «كان» هنا بمعنى «صار» خطأٌ تردُّه[1] الأصول، وقال جمهور المتأوّلين: المعنى: أي كان في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأنَّ الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذي قد علم الله منه الموافاةَ[2].

قلت: وهذا صحيحٌ، لقوله ﷺ في «صحيح» البخاري: «وإنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[3].

وقيل: إن إبليسَ عبَدَ الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأُعطيَ الرياسةَ والخِزانةَ في الجنة على الاستدراج، كما أُعطيَ المنافقون شهادةَ أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، وكما أُعطِيَ بَلْعامُ الاسمَ الأعظمَ على طرف لسانه، فكان في رياسته، والكِبْرُ في نفسه متمكِّن.

قال ابن عباس: كان يرى لنفسه أن له فضيلةً على الملائكة بما عنده، فلذلك قال: أنا خيرٌ منه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، أي: استكبرتَ ولا كِبْر لكَ، ولم أتكبَّر أنا حين خلقتُه بيديَّ والكِبْرُ لي! فلذلك قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وكان أصلُ خِلقته من نار العِزَّة، ولذلك حَلَفَ بالعِزَّة، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. فالعِزَّةُ أورثته الكِبْرَ حتى رأى الفضلَ له على آدم عليه السلام[4].

وعن أبي صالح قال: خُلقت الملائكةُ من نُور العِزَّة، وخُلق إبليسُ من نار العِزَّة[5].

التاسعة[6]: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: مَنْ أظْهَرَ اللهُ تعالى على يديه ممَّن ليس بنبيٍّ كراماتٍ وخَوارِقَ للعادات، فليس ذلك دالًّا على ولايته، خلافاً لبعض

---

(١) في النسخ: يردّه، والمثبت من (م).

(٢) المحرر الوجيز ١/١٢٦.

(٣) سلف ص ٢٩٦.

(٤) انظر ما سلف ص ٤٤٠.

(٥) لم نقف عليه من قول أبي صالح، وأخرجه إسحاق في مسنده (٧٨٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٩١٩) من طريق أبي صالح، عن عكرمة.

(٦) في النسخ: العاشرة، والمثبت من (م).

الصُّوفية والرافضة؛ حيث قالوا: إنَّ ذلك يدلُّ على أنه وَليٌّ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهرَ الله على يديه ما أظهَرَ.

ودليلُنا أنَّ العلمَ بأنَّ الواحدَ منَّا وليٌّ لله تعالى لا يصحُّ إلا بعد العلم بأنه يموتُ مؤمناً، وإذا لم يُعلم أنه يموتُ مؤمناً لم يُمكِنَّا أن نقطعَ على أنه وليٌّ للهِ تعالى، لأن الوليَّ للهِ تعالى مَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى أنّه لا يوافيه إلا بالإيمان، ولمَّا اتفقنا على أننا لا يمكنُنا أن نقطعَ على أن ذلك الرجلَ يُوافي بالإيمان، ولا الرجلُ نفسُه يقطعُ على أنه يُوافي[1] بالإيمان، عُلِم أنَّ ذلك ليس يدلُّ على ولايته لله. قالوا: ولا نمنعُ[2] أن يُطْلِعَ الله بعضَ أوليائه على حُسْن عاقبتِه وخاتمةِ عملِه وغيرِه معه. قاله الشيخُ أبو الحسن الأشعريُّ وغيره.

وذهب الطَّبريُّ[3] إلى أن الله تعالى أرادَ بقصة إبليس تقريعَ أشباهِه من بني آدم، وهم اليهودُ الذين[4] كفروا بمحمد ﷺ مع علمهم بنبوته، ومع قِدَم نِعَمِ الله عليهم وعلى أسلافهم.

العاشرة[5]: واختُلف هل كان قبلَ إبليسَ كافرٌ أو لا؟ فقيل: لا، وإنَّ إبليسَ أولُ من كفرَ، وقيل: كان قبلَه قومٌ كفار، وهم الجنُّ، وهم الذين كانوا في الأرض.

واختلف أيضاً هل كفر إبليسُ جهلاً أو عِناداً؟ على قولين بين أهل السُّنة، ولا خلافَ أنه كان عالماً بالله تعالى قبل كفره، فمن قال: إنه كفر جهلًا، قال: إنه سُلِبَ العلم عند كفره، ومن قال: كفر عِناداً، قال: كفر ومعه علمُه. قال ابنُ عطية[6]: والكفر [عِناداً] مع بقاء العلم مستبعدٌ، إلا أنه عندي جائزٌ لا يستحيلُ مع خَذْل الله لمن يشاء.

---

(١) في النسخ: لا يوافي، في الموضعين، والمثبت من (م).

(٢) في (د): يمتنع، وفي (ظ): يمنع.

(٣) في تفسيره ١/ ٥٤٥.

(٤) في (م): الذي.

(٥) في النسخ: الحادية عشرة، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما قال قبل: فيه عشر مسائل.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٦، وما بين حاصرتين منه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاثَ[1] عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾: لا خلافَ أن الله تعالى أخرجَ إبليسَ عند كفره[2] وأبعَدَه عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدمَ: اسْكُن[3]، أي: لازِم الإقامةَ، واتَّخِذْها مسكناً، وهو محلُّ السكون، وسَكَنَ إليه يَسْكُنُ سُكوناً، والسَّكَن: النار، قال الشاعر:

قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان[4]

والسَّكَن: كلُّ ما سُكِنَ إليه.

والسِّكِّين معروفٌ، سُمِّيَ به؛ لأنه يُسَكِّن حركةَ المذبوح.

ومنه المِسْكين، لقلَّة تصرُّفِه وحركته.

وسُكَّان السفينة عربيٌّ؛ لأنه يُسَكِّنُها عن الاضطراب[5].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيهٌ على الخروج، لأن السُّكْنَى لا تكونُ مِلْكاً، ولهذا قال بعضُ العارفين: السُّكْنَى تكونُ إلى مدَّةٍ ثم تنقطعُ، فدخولُهما في الجنة كان دخولَ سُكْنَى لا دخولَ إقامة[6].

قلت: وإذا كان هذا، فيكونُ فيه دَلالةٌ على ما يقولُه الجمهور من العلماء: إنَّ من أسكنَ رجلًا مسكناً له أنه لا يملكُه بالسُّكْنَى، وأنَّ له أن يُخرِجَه منه إذا انقضت مدَّةُ الإسكان.

---

(١) في (د) و(ز): اثنتا، وفي (ظ): اثنتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لعدد المسائل الآتية.

(٢) في (د): بكفره.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٦.

(٤) مقاييس اللغة ٣/ ٨٨، ومجمل اللغة ٢/ ٤٦٨. وفي إصلاح المنطق ص ٦٥، وتهذيب اللغة ١٠/ ٦٥، واللسان (سكن) برواية: أقامها، بدل: قد قوّمت. والشاعر يصف قناة ثقَّفها بالنار والدهن.

(٥) مجمل اللغة (سكن)، وسُكَّانُ السفينة يعني ذَيْلها الذي تسكَّن به، وتُمنعُ به من الحركة والاضطراب. تاج العروس (سكن).

(٦) في النسخ: ثواب، والمثبت من (م). وسيذكر المصنف أحكام السُّكْنَى والعمرى والرُّقْبَى، وكلام الفقهاء في ذلك؛ قال أبو حيان في البحر ١/ ١٥٦: ليس في الآية ما يدلُّ على شيءٍ مما ذكر.

وكان الشعبيُّ يقول: إذا قال الرجلُ: داري لك سُكْنَى حتى تموتَ، فهي له حياتَه وموتَه، وإذا قال: داري هذه اسكُنْها حتى تموتَ، فإنَّها ترجعُ إلى صاحبها إذا مات(١).

ونَحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أنَّ الخلافَ في العُمْرَى أقوى منه في السُّكْنَى. وسيأتي الكلامُ في العُمْرَى في «هود» إن شاء الله تعالى(٢).

قال الحَرْبيّ(٣): سمعتُ ابنَ الأعرابيِّ يقول: لم يختلف العربُ في أن هذه الأشياءَ على مِلْك أربابها، ومنافعُها لمن جُعلت له: العُمْرَى، والرُّقْبَى، والإفقارُ، والإخبالُ، والمِنحةُ، والعَرِيَّةُ، والسُّكْنَى، والإطراق.

وهذا حجةُ مالكٍ وأصحابِه في أنه لا يُملَكُ شيءٌ من العطايا إلا المنافعُ دون الرِّقاب، وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط(٤).

والعُمْرَى: هي(٥) إسكانُك الرجلَ في دارٍ لك مدَّةَ عمرِك أو عُمُرِه، ومثلُه الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إنْ مُتَّ قبلي رجعَتْ إليَّ، وإن مُتُّ قبلك فهي لك، وهي من المراقبة، والمراقبة: أن يَرْقُب كلٌّ واحد منهما موتَ صاحبه، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها: فأجازها أبو يوسف والشافعيُّ، وكأنها وَصِيَّةٌ عندهم، ومنعها مالكٌ والكوفيون، لأنَّ كلَّ واحد منهم يقصدُ إلى عِوَضٍ لا يدري هل يحصُلُ له، و يتمنَّى كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه.

وفي الباب حديثان أيضاً بالإجازة والمنع ذكرهما ابنُ ماجه في «سُننه»:

الأوَّل: رواه جابر بنُ عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «العُمْرَى جائزةٌ لمن

---

(١) التمهيد ٧/١١٩، والاستذكار ٢٢/٣٢٣.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [الآية: ٦١].

(٣) إبراهيم بن إسحاق، أبو إسحاق البغدادي، صنف غريب الحديث وغيره، مات سنة (٢٨٥هـ). السير ١٣/٣٧١.

(٤) المفهم ٤/٥٩٢ ـ ٥٩٣، ويزيد بن قُسيط: هو أبو عبد الله الليثي، المدني، الأعرج، الفقيه، مات سنة (١٢٢هـ). السير ٥/٢٦٦.

(٥) في (ظ) و(م): هو.

أُعْمِرَها، والرُّقْبى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها»[١] ففي هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى في الحكم.

الثاني: رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رُقْبَى، فمن أُرْقِبَ شيئاً فهو له حَياتَه ومَماتَه»[٢]. قال: والرُّقْبَى أنْ يقول هو للآخر: مِنِّي ومنك موتاً[٣].

فقولُه: «لا رُقْبى» نَهْيٌ[٤] يدلُّ على المنع، وقولُه: «فمن[٥] أُرْقِبَ شيئاً فهو له» يدلُّ على الجواز، وأخرجَهما أيضاً النَّسائي[٦]، وذَكَرَ عن ابن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء[٧].

وقال ابن المنذر: ثبتَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعْمِرَها، والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها». فقد صحَّحَ الحديثَ ابنُ المنذر، وهو حجةٌ لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواءٌ، ورُوي عن عليٍّ[٨]، وبه قال الثَّوريُّ وأحمد، وأنها لا ترجعُ إلى الأوّل أبداً، وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَنْ أُرْقِبَ شيئاً فهو سبيلُ[٩] الميراث[١٠].

والإفقارُ: مأخوذ من فَقار الظَّهر، أفْقَرْتُك ناقتي: أعَرْتُك فَقارَها لتركبَها، وأفقرَك الصيدُ: إذا أمكنك من فَقاره حتى ترميَه، ومثله الإخبالُ، يقال: أخبلتُ فلاناً: إذا أعَرْتَه ناقةً يركبها، أو فرساً يغزو عليه[١١]، قال زهير:

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٨٣).

(٢) في (ظ): وموته.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٨٢)، والمجتبى ٦/ ٢٧٣، والسنن الكبرى (٦٥٢٨).

(٤) في (ظ): نفي.

(٥) في (م): من.

(٦) في المجتبى ٦/ ٢٧٣ و٢٧٤، والكبرى (٦٥٢٨) و(٦٥٣٥).

(٧) المجتبى ٦/ ٢٧٠، والكبرى (٦٥٠٦).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ١٤٤.

(٩) في (ظ): سبيل إلى.

(١٠) أخرجه النسائي في المجتبى ٦/ ٢٧٠، وفي الكبرى (٦٥٠٩) إلا أنه من طريق طاوس عن النبي ﷺ، مرسلاً، وفيه: «بسبيل».

(١١) في (د): عليها.

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلُوا وإن يُسألوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[١]

والمِنْحَة: العَطِيَّة، والمِنْحَة: مِنحةُ اللَّبن، والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاةُ يُعطيها الرجلُ آخرَ يحتلبُها، ثم يردُّها، قال رسول الله ﷺ: «العاريَّة مُؤدَّاةٌ، والمِنْحَةُ مَرْدُودةٌ، والدَّيْنُ مَقْضِيٌّ، والزَّعيمُ غارمٌ». رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذيُّ والدارقطنيُّ وغيرهما[٢]، وهو صحيحٌ.

والإطْراق: إعارةُ الفحل، استطرقَ فلانٌ فلاناً فَحْلَه: إذا طَلَبَه لِيضربَ في إبله، فأطرقَه إياه، ويقال: أَطْرِقني فَحْلَكَ، أي: أعِرْني فَحْلَكَ لِيضربَ في إبلي، وطَرَقَ الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طُروقاً، أي قَعا عليها، وطَرُوقةُ الفحل: أُنثاه، يقال: ناقةٌ طَروقة الفحل للتي بلغت أن يضربَها الفَحْلُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيدٌ للمضمَر الذي في الفعل، ومثله ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولا يجوز: اسْكُنْ وزوجُك، ولا: اذْهَبْ وربُّك، إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

قلتُ إذْ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى كنِعاجِ المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلا[٣]

فـ «زُهْر» معطوف على المضمر في «أقبلتْ» ولم يؤكِّد ذلك المضمر، ويجوز في غير القرآن على بُعْدٍ: قم وزيدٌ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لغةُ القرآن «زَوْجٌ» بغير هاء، وقد تقدَّم القولُ فيه[٤]. وقد جاء في «صحيح» مسلم[٥] «زوجة»: حدَّثنا عبد الله بنُ مَسْلَمة بن قَعْنَب، قال: حدَّثنا حماد بنُ سَلَمَة، عن ثابت البُنانيِّ، عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ كان مع إحدى

---

(١) ديوانه ص ١١٢ (بشرح ثعلب)، وص ٤٢ (بشرح الأعلم الشنتمري)، ومعنى قوله: وإن ييسروا يغلوا: أنهم إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر، فيقامرون عليها لا ينحرون إلا غاليةً. قاله الأعلم.

(٢) سنن الترمذي (٢١٢٠)، وسنن الدارقطني ٣/ ٤٠ ـ ٤١، وهو في المسند (٢٢٢٩٤).

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ملحق ديوانه ص ٤٩٨، وهو من شواهد سيبويه ٢/ ٣٧٩. قال الأعلم الشنتمري في شرحه: والزُّهر: جمع زهراء: وهي البيضاء المشرقة، وتَهادَى: تمشي المشي الرويد الساكن، والنعاج: بقر الوحش، والمَلا: الفَلاة الواسعة، وتعسَّفْن: سِرْن بغير هداية، وإذا مشت في الرمل كان أسكنَ لمشيها، لصعوبة ذلك.

(٤) ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٥) رقم (٢١٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٤٠٤٢).

نسائه، فمرَّ به رجل، فدعاه فجاء، فقال: «يا فلانُ، هذه زوجتي فلانةُ» فقال: يا رسول الله، مَنْ كنتُ أظنُّ به فلم أكن أظنُّ بك! فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مَجْرَى الدَّم».

وزوجُ آدم عليه السلام هي حوَّاءُ عليها السلام، وهو أوّلُ مَنْ سمَّاها بذلك حين خُلقت من ضِلَعه من غير أن يُحِسَّ آدم عليه السلام بذلك[1]، ولو أَلِمَ بذلك لم يَعْطِف رجلٌ على امرأته، فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأةٌ، قيل: وما اسمُها؟ قال: حوّاء، قيل: ولِمَ سُمِّيت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أُخِذت، قيل: ولمَ سُمِّيت حوّاء؟ قال: لأنها خُلقت من حيٍّ. رُوِيَ أن الملائكةَ سألته عن ذلك لتجربَ علمَه، وأنهم قالوا له: أتحبُّها يا آدمُ؟ قال: نعم. قالوا لحوَّاء: أتحبينَه يا حوَّاءُ؟ قالت: لا. وفي قلبها أضعافُ ما في قلبه من حبِّه. قالوا: فلو صَدَقتِ امرأةٌ في حبِّها لزوجها لصَدَقت حوّاء.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أُسْكِن آدمُ الجنةَ مشى فيها مستوحشاً، فلمَّا نام خُلقت حوّاءُ مِن ضِلَعه القُصَيْرى[2] مِن شقِّه الأيسر، ليسكن إليها ويأنَسَ بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنتِ؟! قالت: امرأةٌ خُلِقتُ من ضِلَعك لتسكن إليَّ[3]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال العلماء: ولهذا كانت المرأةُ عَوْجاءَ، لأنها خُلقت من أعوجَ، وهو الضِّلَع.

---

(١) ليس في الآثار الصحيحة ما يشير إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، ومن ذهب إلى ذلك جعل «من» في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١) تبعيضية. والأشبه أن تكون لبيان الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ (الروم: ٢١). وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن المرأة خلقت من ضلع» إنما هو على جهة التمثيل كما جاء ذلك صريحاً في رواية الشيخين: «المرأة كالضِّلَع».

(٢) في (ز): القصير، وفي (ظ) و(م): القصرى، والمثبت من (د)، وهو الموافق لمصادر تخريجه.

(٣) أخرجهما باختصار الطبري في تفسيره ١/٥٤٨، وفي تاريخه ١/١٠٣ من طريقين: عن ابن عباس وابن مسعود، وفي إسنادهما ضعف. وانظر المحرر الوجيز ١/١٢٦، وعرائس المجالس ص ٣٠.

وفي «صحيح» مسلم[(١)] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المرأةَ خُلقت من ضِلَع ـ في رواية: «وإنَّ أعوجَ شيء[(٢)] في الضِّلَع أعلاهُ» ـ لن تستقيمَ لك على طريقةٍ واحدةٍ، فإن استمتعتَ بها استمعتَ [بها] وبها عِوَجٌ، وإن ذَهبْتَ تُقِيمُها كسرتَها، وكَسْرُها طلاقُها». وقال الشاعر[(٣)]:

هي الضِّلَعُ العَوْجاءُ لَسْتَ تُقِيمُها ... ألا إنَّ تَقْويمَ الضُّلوعِ انْكِسارُها

أتجمعُ ضَعْفاً واقْتِداراً على الفَتَى ... أليسَ عجيباً ضَعْفُها واقتدارُها

ومن هذا الباب استدلَّ العلماء على ميراث الخُنْثَى المُشْكِل إذا تساوت فيه علاماتُ النساء والرجال من اللِّحية والثَّدْي والمَبال بنقص الأعضاء، فإنْ نَقَصَتْ أضلاعُه عن أضلاع المرأة أُعْطِيَ نصيبَ رجلٍ ـ رُوِيَ ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه[(٤)] ـ لخلقِ حوّاءَ من أحدِ أضلاعه، وسيأتي في المواريث بيانُ هذا إن شاء الله تعالى[(٥)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنَّة: البُستان، وقد تقدَّمَ القولُ فيها[(٦)].

ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلةُ والقَدَرِيَّةُ من أنه لم يكن في جنة الخُلْد، وإنما كان في جنةٍ بأرضِ عَدَن، واستدلُّوا على بِدْعَتِهم بأنها لو كانت جنةَ الخُلْد، لما وصلَ إليه إبليسُ، فإن الله يقول: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، وأنه لا يُخرَجُ منها أهلُها لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٩]. وأيضاً؛ فإنَّ جنةَ الخُلدِ هي دارُ القُدْس، قُدِّسَتْ عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها، وقد لَغا فيها إبليسُ وكَذَب، وأُخْرِجَ منها آدمُ وحَوَّاءُ بمعصيتهما.

---

(١) برقم (١٤٦٨) (٥٩) و(٦٠) وما بين حاصرتين منه، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٣٣١).

(٢) في (د): ما.

(٣) هو حاجب بن دينار، والبيت الأول في اللسان: (ضلع)، ووقع فيه حاجب بن ذبيان. وانظر حاشية البيان والتبيين ٢/ ١٨٣.

(٤) لم نقف على من أخرجه، وقد ذكر ابن قدامة في المغني ٩/ ١١٠ أن هذا القول مروي عن علي والحسن رضي الله عنهما.

(٥) في تفسير الآية (١١) من سورة النساء.

(٦) ص ٣٥٩.

قالوا: وكيف يجوزُ على آدمَ مع مكانه من الله وكمالِ عقلِه أن يطلبَ شَجَرةَ الخُلْدِ ـ وهو في دار الخُلْدِ ـ والمُلْكَ الذي لا يَبْلَى؟

فالجوابُ: أنَّ الله تعالى عَرَّفَ الجنةَ بالألف واللام، ومن قال: أسألُ الله الجنةَ، لم يُفهَم منه في تعارُفِ الخلق إلا طلبُ جنةِ الخُلْد، ولا يستحيلُ في العقل دخولُ إبليسَ الجنةَ لتغرير[1] آدم، وقد لَقِيَ موسى آدمَ عليهما السلام، فقال له موسى: أنتَ أشْقَيْتَ ذُرِّيَّتَك، وأخْرَجْتَهم من الجنة[2]، فأدخلَ الألفَ واللامَ ليدلَّ على أنها جنةُ الخُلْد المعروفةُ، فلم يُنْكِرْ ذلك آدمُ، ولو كانت غيرَها لَرَدَّ على موسى، فلمَّا سَكَتَ آدمُ على ما قَرَّرَه موسى صَحَّ أنَّ الدارَ التي أخْرَجَهم الله عزَّ وجلَّ منها بخلاف الدار التي أُخْرِجُوا إليها.

وأمَّا ما احتجُّوا به من الآي؛ فذلك إنما جعلَه الله فيها بعْدَ دخولِ أهلِها فيها يومَ القيامة، ولا يمتنعُ أن تكون دارَ خُلْد[3] لمن أرادَ الله تخليدَه فيها، وقد يخرجُ منها مَنْ قُضِيَ عليه بالفناء. وقد أجمعَ أهلُ التأويل على أن الملائكةَ يدخلون الجنةَ على أهل الجنة ويخرُجون منها، وقد كان مفاتيحُها بيد إبليسَ، ثم انتُزِعَت منه بعد المعصية، وقد دخلَها النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراء، ثم خرجَ منها، وأخبرَ بما فيها[4]، وأنها هي جنةُ الخُلْد حقًّا.

وأما قولهم: إن الجنةَ دارُ القُدْس، وقد طهَّرها الله تعالى من الخطايا، فجهلٌ منهم، وذلك أن الله تعالى أمرَ بني إسرائيلَ أن يدخلوا الأرضَ المقدَّسةَ، وهي الشام، وأجمع أهلُ الشرائع على أنَّ الله تعالى قَدَّسها، وقد شُوهِدَ فيها المعاصي والكفرُ والكذبُ، ولم يكن تقديسُها مما يمنعُ فيها المعاصي، وكذلك[5] دار القُدْس.

قال أبو الحسن بنُ بطّال: وقد حكى بعضُ المشايخ أن أهلَ السُّنّة مُجمعون على أنَّ جنةَ الخُلْد هي التي أُهْبِطَ منها آدمُ عليه السلام، فلا معنى لقولِ مَنْ خالَفَهم.

---

(١) في (د): لتعذير، وفي (ز) و(ظ): لتعزير، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (م): الخلد.

(٤) سلف ص ٣٥٧.

(٥) في (د): فلذلك سمّيت، وفي (ز) و(ظ): فكذلك، والمثبت من (م).

وقولهم: كيف يجوزُ على آدم في كمال عقله أن يطلبَ شجرةَ الخُلْد وهو في دار الخُلْد؟ فيُعكَس عليهم، ويقال: كيف يجوزُ على آدم وهو في كمال عقلِه أن يطلبَ شجرةَ الخُلْد في دار الفناء؟! هذا ما لا يجوزُ[1] على مَنْ له أدنى مُسْكةٍ من عقل، فكيف بآدم الذي هو أرجحُ الخلقِ عقلاً! على ما قال أبو أُمامة، على ما يأتي[2].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ قراءةُ الجمهور: «رَغَداً» بفتح الغين، وقرأ النَّخَعيُّ وابنُ وَثَّاب بسكونها[3]، والرَّغَد: العيشُ الدَّارُّ الهَنِيُّ الذي لا عَناءَ فيه. قال:

بينما المرءُ تَراهُ ناعماً يأمَنُ الأحداثَ في عيشٍ رَغَد[4]

ويقال: رَغُدَ عيشُهم ورَغِدَ[5] ـ بضمِّ الغين وكسرِها ـ وأرغَدَ القومُ: أخْصَبُوا وصارُوا في رَغَدٍ من العيش، وهو منصوبٌ على الصفة لمصدر محذوف[6].

وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثُ وحَوْثَ وحَوْثِ[7] وحاثَ، كلُّها لغاتٌ، ذكرها النَّحاسُ وغيره[8].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تقربا بأكل؛ لأن الإباحةَ فيه وقعت. قال ابن العربيّ: سمعتُ الشَّاشيَّ[9] في مجلس النَّظَرِ[10] يقول: إذا قيل:

---

(١) في (د): هذا مما لا يجوز، وفي (ظ): وهذا وهذا لا يجوز.

(٢) ص ٤٥٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٣ للنخعي.

(٤) البيت لامرئ القيس، كما في تفسير الطبري ١/ ٥٥٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٥) في (ظ): رغُد عيشهم يَرغَد ورغِد.

(٦) أو أن يكون مصدراً في موضع الحال، كما حكاه النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٣ عن ابن كيسان، وسيذكره المصنف ص ٤٦١.

(٧) اللفظة الثالثة: وحَوْثِ، من (د) و(ز)، وهو موافق لما في كتب اللغة.

(٨) إعراب القرآن ١/ ٢١٣، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٩٩. وانظر الصحاح: (حوث)، والدر المصون ١/ ٢٨٢.

(٩) هو محمد بن أحمد بن الحسين، أبو بكر التركي، شيخ الشافعية، له حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء. كان يسمى الجنيد لورعه. مات سنة (٥٠٧هـ). السير ١٩/ ٣٩٣.

(١٠) كذا في النسخ الخطية، ونقله عنه أبو حيان في «البحر» ١/ ١٥٨ وقال: في مجلس النضر بن شُميل، ثم=

لا تقرَب - بفتح الراء - كان معناه: لا تَلَبَّس بالفعل، وإذا كان بضم الراء، فإنَّ معناه: لا تَدْنُ منه.

وفي «الصحاح»: قَرُبَ الشيءُ - بالضمّ - يقرُبُ قُرْباً، أي: دَنَا، وقَرِبْتُه - بالكسر - أَقْرَبُه قُرْباناً، أي: دنَوْتُ منه، وقَرَبْتُ أقرُبُ قِرابةً - مثل: كَتَبتُ أكتُبُ كِتابةً - إذا سِرتَ إلى الماء وبينك وبينه ليلةٌ، والاسم: القَرَب، قال الأصمعيُّ: قلتُ لأعرابيٍّ: ما القَرَبُ؟ فقال: سَيْرُ الليل لوِرْد الغد.

وقال ابن عطية[1]: قال بعضُ الحُذَّاق: إنَّ الله تعالى لما أرادَ النهيَ عن أكل الشجرةِ، نهى عنه بلفظٍ يقتضي الأكلَ وما يدعو إليه[2]، وهو القُرْب. قال ابن عطية: وهذا مثالٌ بَيِّنٌ في سَدِّ الذرائع.

وقال بعض أرباب المعاني: قوله: «ولا تَقْرَبا» إشعارٌ بالوقوع في الخطيئة والخروجِ من الجنة، وأنَّ سُكْناه فيها لا يدوم، لأنَّ المُخَلَّدَ لا يُحْظَر عليه شيءٌ، ولا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى، والدليلُ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فدلَّ على خُروجه منها.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الاسمُ المبهَم يُنعَتُ بما فيه الألفُ واللام لا غير، كقولك: مررتُ بهذا الرجل، وبهذه المرأة، وهذه الشجرة.

وقرأ ابن مُحَيْصِن: «هذي الشجرة» بالياء، وهو الأصل، لأنَّ الهاء في هذه بدلٌ من ياء، ولذلك انكسر ما قبلها، وليس في الكلام هاءُ تأنيثٍ قبلَها كسرةٌ سواها، وذلك لأنَّ أصلَها الياء[3].

= تعقبَه بقوله: وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يُتعجب من حاكيها...، وبين النضر والشاشيّ من السنين مئون! إلا إن كان ثَمَّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل، فيمكن. اهـ. وستتكرر عبارة مجلس النظر في ٣/ ٧٤، ٤٨٦ ولعل المراد به مجلس المناظرة، كما هو وارد في كتب الأصوليين. ينظر المنثور في القواعد للزركشي ٣/ ٢١٧، وأصول البزدوي ٣/ ٢٦٩.

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧.

(٢) في (م): وما يدعو إليه العرب، ولفظة «العرب» مقحمة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لابن كثير في بعض رواياته.

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة: ثلاثُ لغات، وقُرئ: «الشِّجَرة» بكسر الشين[١].

والشَّجَرة والشِّجَرة[٢]: ما كان على ساقٍ من نبات الأرض، وأرضٌ شَجِيرة وشَجْراء، أي: كثيرةُ الأشجار، ووادٍ شَجِير، ولا يقال: وادٍ أشجر. وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأتِ من الجمع على هذا المثال إلا أحرفٌ يسيرة: شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفة وحَلْفاء[٣]، وكان الأصمعيُّ يقول في واحد الحَلْفاء: حَلِفَة ـ بكسر اللام ـ مخالفةً لأخواتها. وقال سيبويه: الشَّجْراءُ واحدٌ وجَمْع، وكذلك القَصْباءُ والطَّرْفاء والحَلْفاء. والمَشْجَرة[٤]: موضعُ الأشجار، وأرضٌ مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه، أي: أكثرُ شَجَراً، قاله الجوهريُّ[٥].

التاسعة: واختلفَ أهلُ التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نُهيَ عنها، فأكل منها، فقال ابنُ مسعود وابنُ عباس وسعيد بنُ جُبير وجَعْدة بنُ هُبيرة[٦]: هي الكَرْم، ولذلك حُرِّمت علينا الخمر. وقال ابنُ عباس أيضاً وأبو مالك وقتادةُ: هي السُّنْبُلة، والحَبَّةُ منها كَكُلَى البقر، أحْلَى من العسل، وألْيَن من الزُّبْد، قاله وَهْب بن مُنَبِّه. ولمّا تاب الله على آدم جعلَها غذاءً لبنيه. وقال ابنُ جُريج عن بعض الصحابة: هي شجرةُ التِّين[٧]، وكذا روى سعيد[٨] عن قتادة. ولذلك تُعَبَّر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها. ذكره السُّهَيليُّ[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لأبي السمَّال، وابن جني في المحتسب ١/ ٧٤ لهارون الأعور عن بعض العرب.

(٢) في (ظ): والشَّجرَ والشِّجَر، وفي (د): والشَّجر والشِّجرة.

(٣) في (د) و(ز): وحلقة وحلقاء، وفي (ظ): وخلفة وخلفاء، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ: والمشجر، والمثبت من (م) والصحاح.

(٥) الصحاح (شجر).

(٦) ابن أبي وهب، المخزومي، أمُّه أمّ هانئ بنت أبي طالب، وهو من رجال التهذيب.

(٧) أخرج الأخبار السالفة الطبريُّ في تفسيره ١/ ٥٥١-٥٥٦.

(٨) في (د): شعبة، وأخرج الطبري ١/ ٥٥٢ من طريق سعيد، عن قتادة قال: هي السنبلة.

(٩) التعريف والإعلام ص ٢٠.

قال ابن عطية[١]: وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصوابُ أن يُعتقَد أن الله تعالى نهى آدمَ عن شجرةٍ، فخالف هو إليها، وعصى في الأكل منها.

وقال القُشيري أبو نصر: وكان الإمام والدي رحمه الله يقول: يُعلَم على الجملة أنها كانت شجرةَ المِحْنة[٢].

العاشرة: واختلفوا كيف أكَلَ منها مع الوعيد المقترن بالقُرب، وهو قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فقال قوم: أكلا من غير التي أُشيرَ إليها، فلم يتأوَّلا النهيَ واقعاً على جميع جنسها، كأن إبليس غَرَّه [بالأخذ] بالظاهر. قال ابن العربي[٣]: وهي أوّل معصيةٍ عُصِيَ الله بها على هذا القول.

قال: وفيه دليلٌ على أنَّ من حلفَ ألا يأكل من هذا الخبز، فأكل من جنسه، حَنِثَ، وتحقيقُ المذاهب فيه أنَّ أكثر العلماء قالوا: لا حِنْثَ فيه، وقال مالك وأصحابه: إن اقْتَضَى بِساطُ اليمين[٤] تعيينَ المشارِ إليه، لم يَحْنَثْ بأكل جنسِه، وإن اقْتَضَى بِساطُ اليمين أو سَبَبُها أو نيَّتُها الجنسَ حُمِلَ عليه، وحَنِثَ بأكل غيرِه، وعليه حُمِلَتْ قصةُ آدمَ عليه السلام، فإنه نُهِيَ عن شجرة عُيِّنَتْ له وأُريدَ به[٥] جنسُها، فحَمَلَ القولَ على اللفظ دون المعنى.

وقد اختلف علماؤنا في فَرْعٍ من هذا: وهو أنه إذا حلَفَ ألا يأكل هذه الحنطةَ، فأكل خبزاً منها، على قولين: قال في «الكتاب»[٦]: يحنَثُ، لأنَّها هكذا تؤكلُ، وقال ابنُ المَوَّاز[٧]: لا شيء عليه، لأنه لم يأكل حنطةً، إنما[٨] أكل خبزاً، فَرَاعَى الاسمَ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

(٢) لطائف الإشارات ١/ ٨٠.

(٣) أحكام القرآن ١/ ١٨ و١٩، والكلام السابق وما بين حاصرتين منه.

(٤) هوا لسبب المثير لليمين لتُعرف منه، وسلف ذكره ص ٣٤٤.

(٥) في (ظ) و(م): بها.

(٦) المدونة الكبرى ٢/ ١٢٧، ونقله المصنف بواسطة ابن العربي.

(٧) محمد بن إبراهيم بن زياد، أبو عبد الله، الإسكندراني، المالكي، فقيه الديار المصرية، صاحب التصانيف، توفي سنة (٢٦٩هـ). السير ١٣/ ٦.

(٨) في (م) وأحكام القرآن: وإنما.

والصفةَ. ولو قال في يمينه: لا آكلُ من هذه الحنطة، لَحَنِثَ بأكل الخبز المعمولِ منها، وفيما اشتُرِيَ بثمنها من طعام، وفيما أَنبتت خلافٌ.

وقال آخرون: تأوّلا النَّهيَ على النَّدب. قال ابن العربيّ: وهذا وإن كانت[1] مسألة[2] من أصول الفقه، فقد سقطَ ذلك هاهنا، لقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فقرنَ النَّهْيَ بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقال ابن المُسَيِّب: إنما أكلَ آدمُ بعد أن سَقَته حوَّاءُ الخمر، فسَكِر، وكان في غير عقلِه. وكذلك قال يزيدُ بن قُسيط[3]، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقِلُ. قال ابن العربيّ[4]: وهذا فاسدٌ نقلًا وعقلًا، أما النّقلُ فلم يَصِحَّ بحالٍ، وقد وَصَفَ الله عزَّ وجلَّ خمرَ الجنة، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]. وأما العقلُ فلأنَّ الأنبياءَ بعد النبوّة معصومون عما يؤدّي إلى الإخلال بالفرائض واقتحامِ الجرائم.

قلت: قد استنبطَ بعضُ العلماء نبوّةَ آدمَ عليه السلام قبل إسكانه الجنةَ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ فأمرَه الله تعالى أن يُنبئَ الملائكةَ بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ.

وقيل: أكلَها ناسياً، ومن الممكن أنهما نَسِيا الوعيدَ.

قلت: وهو الصحيحُ؛ لإخبار الله تعالى في كتابه[5] بذلك حتماً وجزماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. لكن لمَّا كان الأنبياءُ عليهم السلام يلزمهم من التحفُّظ والتيقُّظ ـ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ـ ما لا يلزم غيرَهم، كان تشاغلُه[6] عن تذكُّر النّهي تضييعاً صارَ به عاصياً، أي: مخالفاً.

---

(١) في (م): كان.

(٢) في أحكام القرآن ١/ ١٩: وأما حمل النهي على التنزيه فهي وإن كانت مسألة...

(٣) قول ابن المسيب أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٦٦ من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط، عنه، أنه سمعه يحلف بالله ما يستثني: ما أكل آدم من الشجرة و هو يعقل.
وقول يزيد لم نقف على من ذكره منسوباً له. وانظر المحرر الوجيز ١/ ١٢٩.

(٤) أحكام القرآن ١/ ١٩.

(٥) في (ظ): الكتاب.

(٦) في (د) و(ظ): تشاغلهم.

قال أبو أُمامة: لو أن أحلامَ بني آدمَ منذ خَلَقَ الله الخَلْقَ إلى يوم القيامة وُضِعت في كِفَّة ميزان، ووُضع حِلْم آدمَ في كِفَّة أخرى، لَرَجَحَهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1].

قلت: قولُ أبي أُمامةَ هذا عمومٌ في جميع بني آدم، وقد يَحتمِلُ أن يُخصَّ من ذلك نبيُّنا محمد ﷺ؛ فإنه كان أوفرَ الناس حِلْماً وعقلاً، وقد يَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: لو أنَّ أحلامَ بني آدم من غير الأنبياء. والله أعلَم.

قلتُ: والقولُ الأوّل[2] أيضاً حَسَن، فظَنَّا أنَّ المرادَ العَيْنُ، وكان المرادُ الجنسَ، كقول النبيِّ ﷺ حين أخذ ذهباً وحريراً، فقال: «هذانِ حرامانِ على ذكورِ أُمتي»[3].

وقال في خبرٍ آخر: «هذان مُهلكانِ أُمتي»[4]. وإنما أرادَ[5] الجنسَ لا العين.

الحاديةَ عشرة: يقال: إن أوّل مَنْ أكلَ من الشجرة حوّاءُ بإغواء إبليس إياها، على ما يأتي بيانُه[6]، وإن أوّلَ كلامه كان معها؛ لأنها وسواسُ المِخَدَّة، وهي أوّلُ فِتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال: ما مُنِعْتُما هذه الشجرةَ إلا أنها شجرةُ الخُلْد؛ لأنه علمَ منهما أنهما كانا يُحِبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا ـ حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ[7] ـ فلما قالت حوّاء لآدمَ أنكرَ عليها، وذكرَ العهدَ، فألحَّ على حوّاءَ، وألَحَّتْ حوّاءُ على آدم، إلى أن قالت: أنا آكلُ قبلكَ، حتى إنْ أصابني شيءٌ سَلِمْتَ أنت، فأكلتْ فلم يضرَّها، فأتَتْ آدمَ، فقالت: كُلْ، فإني قد أكَلْتُ فلم يضرَّني، فأكل، فبَدَتْ لهما سوآتُهما، وحصلا في حكم الذنب، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٥.

(٢) يعني ما سلف في أول المسألة ص ٤٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٠)، والنسائي ٨/ ١٦٠ ـ ١٦١ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) في (د): المراد.

(٦) في الآية التالية.

(٧) هو من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه. المسند (٢١٦٩٤)، والقصة في تفسير الطبري ١/ ٥٦١-٥٦٦، وتاريخه ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فجمعهما في النَّهي، فلذلك لم تنزل بهما[١] العقوبةُ حتى وُجِدَ المنهيُّ عنه منهما جميعاً، وخَفِيت على آدمَ هذه المسألةُ.

ولهذا قال بعضُ العلماء: إنَّ مَنْ قالَ لزوجتيه أو أَمَتَيه: إن دخلتُما الدارَ، فأنتما طالقتان أو حُرَّتان: إن الطلاقَ والعتقَ لا يقعُ بدخول إحداهما.

وقد اختلفَ علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: قال ابن القاسم: لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا باجتماعهما في الدخول، حملاً على هذا الأصل، وأخذاً بمقتضى مُطلَقِ اللفظ. وقاله سُحْنون.

وقال ابن القاسم مرةً أخرى: تطلقان جميعاً وتَعتِقان جميعاً بوجود الدخول من إحداهما؛ لأنّ بعضَ الحِنْثِ حِنْثٌ، كما لو حلفَ ألّا يأكلَ هذين الرغيفين، فإنه يحنَثُ بأكل أحدهما، بل بأكل لُقمةٍ منهما.

وقال أشهب: تَعتِقُ وتَطْلُقُ التي دخلت وحدَها، لأن دخول كلّ واحدةٍ منهما شرطٌ في طلاقها أو عِتْقها. قال ابن العربي[٢]: وهذا بعيدٌ، لأن بعضَ الشرط لا يكون شرطاً إجماعاً.

قلت: الصحيحُ الأوّل، وإنَّ النَّهْيَ إذا كان معلَّقاً على فعلين لا تتحقَّقُ المخالفةُ إلا بهما، لأنك إذا قلتَ: لا تدخلا الدار، فدخل أحدُهما، ما وُجدت المخالفةُ منهما، لأن قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نَهْيٌ لهما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جوابُه، فلا يكونا من الظالمين[٣] حتى يفعلا، فلما أكلَتْ لم يُصِبْها شيءٌ؛ لأن المنهيَّ عنه ما وُجد كاملاً، وخَفِيَ هذا المعنى على آدم، فطمعَ ونسيَ هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، وقيل: نسي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. والله أعلم.

الثانيةَ عشرة: واختلف العلماءُ في هذا الباب: هل وقعَ من الأنبياء ـ صلوات الله

---

(١) في (ز) و(م): بها، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق لأحكام القرآن ١/ ١٧.

(٢) أحكام القرآن ١/ ١٧.

(٣) في (د) و(ز): فلا يكونا ظالمين.

عليهم أجمعين ـ صغائرُ من الذنوب يُؤاخذون بها، ويُعاتَبون[(١)] عليها، أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كلِّ رذيلةٍ فيها شَيْنٌ ونقصٌ، إجماعاً عند القاضي أبي بكر. وعند الأستاذ أبي إسحاق[(٢)] أنَّ ذلك مقتضى دليلِ المعجزة، وعند المعتزلة أنَّ ذلك مقتضى دليلِ العقل على أصولهم:

فقال الطبريُّ وغيره من الفقهاء والمتكلّمين والمحدِّثين: تقعُ الصغائر منهم، خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنَّهم معصومون من جميع ذلك، واحتجُّوا بما وقعَ من ذلك في التنزيل، وثبتَ من تنصُّلهم[(٣)] من ذلك في الحديث، وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ فيه.

وقال جمهورٌ من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلِّها كعصمتهم من الكبائر أجمعِها، لأنا أُمِرْنا باتِّباعهم في أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمراً مطلقاً من غير التزامِ قرينةٍ، فلو جوَّزنا عليهم الصغائرَ لم يكن الاقتداءُ بهم، إذ ليس كلُّ فعل من أفعالهم يتميزُ مقصدُه من القُرْبة والإباحة، أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحُّ أن يؤمر المرءُ بامتثال أمرٍ لعلَّه معصيةٌ، لاسيَّما على مَنْ يرى تقديمَ الفعلِ على القول إذا تعارضا من الأصوليين.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسْفَرايني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثرُ أن ذلك غيرُ جائزٍ عليهم، وصار بعضُهم إلى تجويزها، ولا أصلَ لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل: الذي ينبغي أن يقال: إنَّ الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسَبَها إليهم، وعاتَبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصَّلوا منها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكلُّ ذلك وَرَد في مواضعَ كثيرةٍ لا يقبَلُ التأويلَ جملتُها، وإن قَبِل ذلك آحادُها، وكلُّ ذلك مما لا يُزْرِي بمناصبهم، وإنما تلك الأمورُ التي وقعت منهم على جهة النُّدور[(٤)]، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقِّهم سيِّئاتٌ [بالنسبة

---

(١) في (ز) و(ظ): ويعاقبون.

(٢) في النسخ: الأستاذ أبي بكر، وهو خطأ، ينظر الشفاء للقاضي عياض ٢/ ١٤٤.

(٣) في (د) و(ز): تفضلهم، وفي (ظ) تفضيلهم. والمثبت من (م).

(٤) في (ظ): النذير.

إلى مناصبهم وعُلوِّ أقدارِهم، إذ قد يُؤاخَذُ الوزيرُ بما يُثابُ عليه السائسُ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمانِ والسلامةِ. قال: وهذا هو الحقُّ.

ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[١]، فهم ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ وإن كان قد شهدتِ النصوصُ بوقوع ذنوبٍ منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَح في رُتَبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحَهم، وزكَّاهم، واختارَهم، واصطفاهم، صلواتُ الله عليهم وسلامه.

الثالثةَ عشرة: قولُه تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظُّلم: أصلُه وضعُ الشيءِ في غير موضعه، والأرضُ المظلومةُ: التي لم تُحفَر قطُّ، ثم حُفِرت. قال النابغة:

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائلُها عَيّتْ جواباً وما بالرَّبع مِن أحدِ
إلا الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها والنُّؤْيُ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَد[٢]

ويُسمَّى ذلك التراب: الظَّلِيم. قال الشاعر:

فأصبَحَ في غبراءَ بعدَ إشاحةٍ على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها[٣]

وإذا نُحِرَ البعيرُ من غير داءٍ به فقد ظُلم، ومنه:

ظَلّامون للجُزُر[٤]

ويقال: سقانا ظَلِيمةً طَيِّبة: إذا سقاهم اللبنَ قبل إدراكِه، وقد ظَلَمَ وَطْبَه[٥]: إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوبَ ويُخرَجَ زُبْدُه، واللّبنُ مظلومٌ وظَليم. قال:

---

(١) ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ أنه من كلام أبي سعيد الخراز.

(٢) ديوانه ص٣٠. وأصيلالاً: تصغير أُصْلان جمع أصيل، والأواري: جمع آريّ، وهو محبِسُ الدابة. واللأي: الشدة والإبطاء. والنؤي: حفيرة حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر. والجلد: الأرض الصلبة. الصحاح (أرا) (أصل) (جلد) (تأى).

(٣) البيت في رثاء رجل، وهو في الصحاح (ظلم) من غير نسبة. قال في اللسان (ظلم): يعني حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها.

(٤) هذا جزء من بيت لابن مقبل، والبيت بتمامه:

عادَ الأذِلَّةُ في دار وكان بها هُرْتُ الشقاشِقِ ظلاّمون للجُزُر

وهو في ديوانه ص٨١، والصحاح (ظلم).

(٥) الوَطْب: سِقاءُ اللبن خاصة، ويعمل من جلد الجَذَع فما فوقه. الصحاح (وطب).

وقـائـلـةٍ ظـلـمـتُ لـكـم سِـقـائـي وهل يَخْفَى على العَكِدِ[1] الظَّلِيمُ[2]

ورجلٌ ظِلِّيم: شديدُ الظُّلم[3].

والظُّلم: الشِّرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ حُذفت النون من «كُلاَ» لأنه أمْر، وحُذفت الهمزةُ لكثرة الاستعمال، وحذفُها شاذٌّ. قال سيبويه[4]: من العرب من يقول: أُؤْكل؛ فيُتِمّ.

يقال منه: أَكَلْتُ الطعامَ أكْلاً ومَأْكَلاً. والأَكْلة، بالفتح: المرّةُ الواحدةُ حتى تشبَعَ، والأُكْلة، بالضم: اللُّقْمة، تقول: أكلتُ أُكْلَةً واحدةً [أي: لُقْمة]، وهي القُرْصةُ أيضاً. وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك، أي: طُعْمَةٌ لك، والأُكْلُ أيضاً: ما أُكل، ويقال: فلانٌ ذو أُكْل: إذا كان ذا حظٍّ من الدنيا ورزقٍ واسعٍ[5].

﴿رَغَدًا﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أكْلاً رَغَداً. قال ابن كَيْسان: ويجوزُ أن يكون مصدراً في موضع الحال، وقال مجاهد: «رَغَداً» أي: لا حسابَ عليهم[6]. والرَّغَدُ في اللغة: الكثيرُ الذي لا يُعَنِّيك، ويقال: أرغَدَ القومُ، إذا وقعوا في خِصْب وسَعَة. وقد تقدّم هذا المعنى[7].

و﴿حَيْثُ﴾ مبنيَّة على الضَّم، لأنها خالفت أخواتِها الظروفَ في أنها لا تُضافُ، فأشبهت «قبلُ» و«بعدُ» إذا أُفرِدتا، فضُمَّتْ[8]. قال الكسائيُّ: لغةُ قَيس وكِنانة الضمُّ، ولغةُ تميم الفتحُ. قال الكسائيُّ: وبنو أسَدٍ يخفضونها في موضع الخفض، وينصبونها

(١) في النسخ: العكر (براء) والمثبت من المصدر. والعَكِد: السمين. معجم متن اللغة (عكد).

(٢) البيت في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٨٣، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩، ومجمل اللغة ١/ ٦٠٢، والصحاح، واللسان (ظلم).

(٣) الصحاح: (ظلم).

(٤) الكتاب ٤/ ٢١٩.

(٥) الصحاح (أكل)، وما بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٥٠.

(٧) في المسألة السادسة ص ٤٥٢.

(٨) في (ظ): بضم.

في موضع النصب، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وتُضمُّ وتُفتح[١].

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من «هذه» بدلٌ من ياء الأصل، لأنَّ الأصلَ: هذي[٢]. قال النحاس[٣]: ولا أعلم في العربية هاءَ تأنيثٍ مكسوراً ما قبلَها إلا هاء «هذه». ومن العرب من يقول: هاتا هندٌ، ومنهم من يقول: هاتي هندٌ.

وحكى سيبويه[٤]: هذِهْ هندٌ، بإسكان الهاء.

وحكى الكِسائيُّ عن العرب: «ولا تَقْرَبا هذي الشجرة».

وعن شِبْلِ بنِ عَبَّاد[٥] قال: كان ابنُ كَثير وابنُ مُحَيْصِن لا يُثْبِتانِ الهاءَ في «هذه» في جميع القرآن[٦].

وقراءةُ الجماعة: «رَغَداً» بفتح الغين، ورُوِيَ عن ابن وَثَّاب والنَّخَعيِّ أنهما سَكَّنا الغين[٧]. وحكى سلمةُ عن الفرّاء قال: يقال: هذه فعلَتْ، وهذي فعلَتْ، بإثبات ياء بعد الذال، وهذِ فعلَتْ، بكسرِ الذال من غير إلحاقِ ياءٍ ولا هاء، وهاتا فعلَتْ. قال هشام[٨]: ويقال: تافعلَتْ. وأنشد:

خَلِيليَّ لَوْلَا ساكنُ الدَّارِ لم أُقِمْ ... بِتا الدَّارِ إلّا عابرَ ابنَ سبيلِ[٩]

قال ابنُ الأنباريّ: و«تا» بإسقاط «ها» بمنزلة «ذي» بإسقاط «ها» من «هذي» وبمنزلة «ذه» بإسقاط «ها» من «هذه». وقد قال الفرّاء: مَن قال: هذِ قامتْ، لا يُسقِط «ها»، لأنَّ الاسمَ لا يكون على ذالٍ واحدة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٣.

(٢) وسلف الكلام فيها ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ في المسألة الثامنة.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢١٤.

(٤) الكتاب ٤/ ١٨٢.

(٥) المكي صاحب عبد الله بن كثير المقرئ، مات سنة (١٤٨هـ)، تهذيب الكمال ١٢/ ٣٥٦.

(٦) قراءة ابن محيصن سلفت ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤ أن في بعض روايات ابن كثير: هذي، بالياء.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧ وسلفت هذه القراءة ص ٤٥٢.

(٨) ابن معاوية النحوي، سلفت ترجمته ص ٣٠٨.

(٩) البيت من غير نسبة في الزاهر ١/ ٢٧٥، والمذكر والمؤنث ١/ ٢٢٨ لابن الأنباري.

﴿فَتَكُونَا﴾ عطفٌ على «تقربا»، فلذلك حُذفت النونُ، وزعم الجَرْميُّ أن الفاءَ هي الناصبةُ، وكلاهما جائز.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشرُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾: قرأ الجماعةُ: «فَأَزَلَّهما» بغير ألف، من الزَّلَّة، وهي الخطيئةُ، أي: استزلَّهما، وأوقعَهما فيه، وقرأ حمزةُ: «فأزالَهما» بألف[1]، من التَّنحية، أي: نَحَّاهما، يقال: أزلْتُه فزال. قال ابن كَيْسان: فأزالَهما، من الزوال، أي: صَرَفَهما عمَّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

قلتُ: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى، إلّا أنَّ قراءةَ الجماعة أمكنُ في المعنى. يقال منه: أزْلَلْته فَزَلَّ، ودلّ على هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقولُه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]. والوسوسةُ إنَّما هي إدخالُهما في الزَّلَلِ بالمعصية، وليس للشيطان قدرةٌ على زوال أحدٍ من مكان إلى مكان، إنما قدرتُه [على] إدخاله في الزَّلَل، فيكون ذلك سبباً إلى زواله من مكانٍ إلى مكان بذنبه.

وقد قيل: إن معنى «أزلّهما» مِن: زَلَّ عن المكان: إذا تَنَحَّى، فيكون في المعنى كقراءة حمزة، من الزوال. قال امرؤ القيس:

يُـزِلُّ الـغـلامَ الـخِـفَّ عـن صَـهَـواتِـه ... ويُـلْـوي بـأثـواب الـعَـنيـفِ الـمُـثَـقَّـلِ[2]

وقال أيضاً:

كُـمَـيْـتٍ يَـزِلُّ الـلِّـبْـدُ عـن حـال مَـتْـنِـه ... كـمـا زَلَّـتِ الـصَّـفْـواءُ بـالـمُـتـنـزِّلِ[3]

---

(١) السبعة لابن مجاهد ص١٥٣. والتيسير للداني ص ٧٣.

(٢) ديوانه ص٢٠، والبيت من معلقته، ورواية الديوان: يُطِير الغلامَ، ويمثل رواية المصنف رواه ابن الأنباري في شرح القصائد ص٨٧.

(٣) ديوانه ص٢٠، والبيت من معلقته كذلك. قال الأعلم الشنتمري ١/ ٣٧ كُميت: أحمر اللون، وقيل: أملس المتن سَهْلُه، والحال: موضعُ اللِّبد من ظهره، والصفواء: الصخرة الملساء، والمتنزِّل: الموضع المنحدر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جُعِلَ «أزال» من: زال عن المكان، فقوله: «فأخرَجَهما» تأكيدٌ وبيانٌ للزوال، إذ قد يمكنُ أن يزولا عن مكانٍ كانا فيه إلى مكانٍ آخرَ من الجنة، وليس كذلك، وإنَّما كان[1] إخراجُهما من الجنة إلى الأرض، لأنهما خُلِقا منها، وليكون آدمُ خليفةً في الأرض.

ولم يَقصِدْ إبليسُ ـ لعنه الله ـ إخراجَه منها، وإنما قصَدَ إسقاطَه من مرتبته، وإبعادَه كما أُبعِدَ هو، فلم يبلُغْ مَقْصِدَه، ولا أدركَ مُرادَه، بل ازداد سُخْنَةَ عَين[2]، وغَيظَ نفسٍ، وخَيبةَ ظنٍّ. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فصار عليه السلام خليفةَ الله في أرضه بعدَ أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفةِ والجار ﷺ. ونُسب ذلك إلى إبليس، لأنه كان بسببه وإغوائه.

ولا خلافَ بين أهل التأويل وغيرهم أنَّ إبليسَ كان متولِّي إغواء آدم، واختُلفَ في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهةً[3]، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، والمقاسمةُ ظاهرُها المشافهة. وقال بعضهم ـ وذكره عبد الرزاق[4] عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ـ: دخل الجنةَ في فم الحيّة، وهي ذاتُ أربعٍ كالبُخْتِيَّة[5]، من أحسن دابةٍ خلقَها الله تعالى، بعد أن عرضَ نفسَه على كثيرٍ من الحيوان، فلم يُدْخِلْه إلا الحيّةُ، فلما دخلَتْ[6] به الجنةَ خرجَ من جَوْفها إبليسُ، فأخذَ من الشجرة التي نهى الله آدمَ وزوجَه عنها؛ فجاء بها إلى حوّاءَ، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها، وأطيبَ طعمَها، وأحسنَ لونَها! فلم يزل يُغْوِيها حتى أَخَذَتْها حوّاءُ، فأكلَتْها، ثم أغْوَى آدمَ، وقالت له حوّاء: كُلْ؛ فإني قد أكلتُ، فلم يضرَّني[7]، فأكلَ منها، فبدَتْ لهما سوآتُهما،

(١) في (ظ): فإنما جاز.

(٢) سُخْنَةُ العين ضدُّ قُرَّتِها.

(٣) أخرجه الطبري ١/ ٥٦٣.

(٤) في تفسيره ٢/ ٢٢٦، والخبر من الإسرائيليات.

(٥) في (د): كالنجيبة.

(٦) في (ظ): فلما أدخلته.

(٧) في (د): تضرني.

وحصلا في حكم الذنب، فدخل آدمُ في جوف الشجرة، فناداه ربُّه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا ربّ، قال: ألا تخرجُ؟ قال: أستحيي[١] منك يا ربّ، قال: اهبِطْ إلى الأرض التي خُلقت منها. ولُعنت الحيّةُ، ورُدَّت قوائمُها في جوفها، وجُعلت العداوةُ بينها وبين بني آدم، ولذلك أُمِرنا بقتلها، على ما يأتي بيانُه. وقيل لحوّاء: كما أدْمَيْتِ الشجرةَ فكذلك يصيبُكِ الدّمُ كلَّ شهرٍ، وتحملين وتضعين كُرْهاً تُشرِفين به على الموت مراراً[٢]! زاد الطبريُّ[٣] والنقاش: وتكوني سَفِيهةً وقد كنتِ حَلِيمةً.

وقالت طائفة: إنَّ إبليسَ لم يدخل الجنةَ إلى آدم بعد ما أُخرج منها، وإنَّما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه[٤] التي أعطاه الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّم»[٥]. والله أعلم.

وسيأتي في الأعراف[٦] أنه لمَّا أكلَ بقيَ عُرْياناً، وطلبَ ما يَستَتِرُ به، فتباعَدَتْ عنه الأشجارُ وبَكَّتُوه بالمعصية، فرحمته شجرةُ[٧] التّين، فأخَذَ من ورقه[٨] فاستتر به، فبُلِيَ بالعُرْيِ دونَ الشجر[٩]! والله أعلم.

وقيل: إنَّ الحكمةَ في إخراج آدمَ من الجنة عِمارةُ الدنيا[١٠].

(١) في (م) أستحي (بياء واحدة) وكلاهما صحيح.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٥٦١-٥٦٢، والخبر من الإسرائيليات التالفة. قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله في الإسرائيليات في كتب التفسير ص١٨٠: وسوسة إبليس لآدم لا تتوقف على دخوله في بطن الحية، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا، ولم تكن لها قوائم كالبختي، ولا شيء من هذا.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٦٥-٥٦٦، ولكن هذه الزيادة في حديث ابن زيد، وليست في حديث ابن وهب، وينظر المحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

(٤) في (د) و(ظ): ووساوسه.

(٥) سلف تخريجه ص ٤٤٩.

(٦) عند تفسير الآية (٢٢).

(٧) في (ز): فرحمه شجر.

(٨) في (ظ): ورقها.

(٩) الخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.

(١٠) في (د) و (ظ): الأرض.

الثالثة: يُذكر أنَّ الحيةَ كانت خادمَ آدمَ عليه السلام في الجنة، فخانته بأن مكَّنت عدوَّ الله من نفسها، وأظهرتِ العداوةَ له هناك، فلمَّا أُهبِطوا تأكَّدت العداوةُ، وجُعِل رزقُها الترابَ، وقيل لها: أنتِ عدوُّ بني آدم، وهم أعداؤك، وحيثُ لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسَك[1].

روى ابنُ عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ يقتلُهنَّ المُحْرِمُ»[2] فذكَر الحية فيهن[3].

ورُوِيَ أنَّ إبليسَ قال لها: أدخِلِيني الجنةَ وأنتِ في ذِمَّتي. فكان ابنُ عباس يقول: أخْفِرُوا ذِمَّةَ إبليس[4].

ورَوَتْ ساكنةُ بنتُ الجَعْد، عن سَرَّى[5] بنت نَبْهان الغَنَويَّة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقتُلوا الحيَّاتِ؛ صَغِيرَها وكَبِيرَها، وأسودَها وأبيضَها، فإنَّ مَنْ قتلَها كانَتْ له فِداءً من النار، ومَنْ قَتَلَتْه كان شهيداً»[6].

قال علماؤنا: وإنَّما كانت له فداءً من النار لمشاركتها إبليسَ وإعانته على ضررِ آدمَ وولدِه، فلذلك كان مَن قتلَ حيَّةً فكأنَّما قتلَ كافراً[7]. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعُ كافرٌ وقاتلهُ في النار أبداً». أخرجه مسلم[8] وغيره.

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٥٠.

(٢) في (د) و(ظ): خمس يقتلن في الحرم.

(٣) ذكره بهذا اللفظ الحكيم الترمذي في نوادره ص٥٠، وأخرجه أحمد (٤٥٤٣)، والبخاري (١٨٢٨)، ومسلم (١١٩٩)، بنحوه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٥٦٧٨)، ومسلم (١١٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ذكره الحكيم الترمذي ص٥٠، وأخرجه الطبري في التفسير ١/ ٥٦٦-٥٦٧، وفي إسناده ضعف.

(٥) في (م): سرّاء، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: بفتح أولها وتشديد الراء، مع المد، وقيل القصر، صحابية لها حديث.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٧٧٩)، (وتحرف فيه ساكنة إلى شاكية) وفيه أحمد بن الحارث الغساني، قال أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ٤٧: متروك الحديث.

(٧) إشارة إلى حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «من قتل حية فكأنما قتلَ رجلاً مشركاً قد حلَّ دمه» روي مرفوعاً وموقوفاً، ووقفُه أصح كما في المسند (٣٧٤٦).

(٨) برقم (١٨٩١): (١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٩١٦٣).

الرابعة: روى ابنُ جُريج، عن عَمرِو بنِ دِينار، عن أبي عُبيدة، عن[1] عبد الله بن مسعود قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ بمنًى، فمرَّت حيّة، فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوها». فسبقتنا إلى جُحْر، فدخلَتْه، فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا بسَعَفةٍ ونارٍ، فأضرِموها عليه ناراً»[2].

قال علماؤنا: وهذا الحديثُ يخصُّ نهيَه عليه السلام عن المُثْلة[3]، وعن أن يُعذِّبَ أحدٌ بعذابِ اللهِ تعالى، قالوا: فلم يُبقِ لهذا العدوّ حُرْمةً حيث فاتَه، حتى أوصلَ إليه الهلاكَ من حيث قَدِر.

فإن قيل: قد رُويَ عن إبراهيمَ النَّخعيّ أنه كَرِهَ أن تُحرَّقَ[4] العقربُ بالنار، وقال: هو مُثْلَة[5]. قيل له: يحتملُ أن يكون لم يبلُغه هذا الأثرُ عن النبيِّ ﷺ، وعَمِلَ على الأثر الذي جاء أنْ: «لا تُعذِّبوا بعذابِ الله»[6]، فكان على هذا سبيلُ العملِ عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلمٌ[7] عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في غار وقد أُنزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فنحن نأخُذُها مِنْ فِيهِ رَطْبةً، إذْ خرجَتْ علينا حيّة، فقال: «اقتُلوها»، فابتدرناها لِنقتلَها، فسبَقَتْنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «وقاها الله شَرَّكم كما وقاكم شَرَّها». فلم يُضرِمْ ناراً، ولا احتالَ في قتلها؟

قيل له: يحتملُ أن يكون لم يجد ناراً فتركَها، أو لم يكن الجُحْر بهيئةٍ يُنتفع بالنار هناك مع ضررِ الدخان، وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم.

وقوله: «وقاها الله شرّكم» أي: قَتْلَكم إيّاها، «كما وقاكم شَرَّها» أي: لَسْعَها.

---

(١) في النسخ: بن، وهو خطأ، فالحديث من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، كما في مصادر الحديث.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٠٩، وينظر نوادر الأصول ص٥٠ .

(٣) ينظر في مسند أحمد حديث ابن عمر (٤٦٢٢)، وحديث المغيرة بن شعبة (١٨١٥٢).

(٤) في (د) و(ظ): يحرق.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٤١٦).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس.

(٧) في صحيحه (٢٢٣٤)، وأخرجه البخاري كذلك (١٨٣٠)، وهو في المسند (٤٠٦٣).

الخامسة: الأمْرُ بقتل الحَيَّات من باب الإرشاد إلى دَفْعِ المَضَرَّة المَخُوفة من الحيَّات، فما كان منها متحقِّقُ الضَّرر، وجَبَتْ المبادرةُ إلى قتله، لقوله: «اقتلوا الحيَّات، واقتلوا ذا الطُّفْيَتَيْن والأبْتَر، فإنَّهما يَخْطِفانِ البصرَ، ويُسقِطانِ الحَبَلَ»[١]. فخصَّهما بالذِّكر مع أنَّهما دخلا في العموم، ونبَّه على [أن] ذلك بسببِ عِظَم[٢] ضررهما. وما لم يتحقَّق ضررُه؛ فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضاً، لظاهر الأمر العام، ولأنَّ نوعَ الحيات غالبُه الضَّرر، فيُستصحَبُ ذلك فيه، ولأنه كلَّه مُرَوِّعٌ بصورته، وبما في النفوس من النُّفرة عنه، ولذلك قال ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ الشجاعةَ ولو على قتل حيَّة»[٣]. فشَجَّعَ على قتلها. وقال فيما خرَّجه أبو داود[٤] من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: «اقتلوا الحيَّاتِ [كلَّهن]، فمن خافَ ثأرهنَّ فليس منّي». والله أعلم[٥].

السادسة: ما كان من الحيّات في البيوت؛ فلا يُقتَلُ حتى يُؤذَنَ ثلاثةَ أيام، لقوله عليه السلام: «إنَّ بالمدينة جِنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتُم منهم شيئاً؛ فآذِنُوه ثلاثةَ أيام»[٦]. وقد حملَ بعضُ العلماءِ هذا الحديثَ على المدينة وحدَها لإسلام الجنِّ بها؛ قالوا: ولا نعلمُ هل أسلم مِن جنِّ غيرِ المدينة أحدٌ أمْ[٧] لا. قاله ابنُ نافع. وقال مالك: يُنهى[٨]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) (١٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وذو الطفيتين: ضرب من الحيات في ظهره خطان أبيضان، وعنهما عبر بالطفيتين، وأصل الطفية: خُوص المُقْل، فشبه الخط الذي على ظهر هذه الحية به. المفهم ٥/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٢) في (د) و(ظ): عظيم.

(٣) أخرجه مطولاً ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٠٢، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ٧٧ نقلاً عن ابن عدي، ثم قال: لا يصح، عبد الله بن محمد يروي الموضوعات عن الأثبات. وذكر الفتني في تذكرة الموضوعات ص٦٤ أن الصغاني حكم عليه بالوضع.

(٤) في سننه (٥٢٤٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) هذه الفقرة والتي تليها نقلهما المؤلف من شيخه أبي العباس القرطبي من المفهم ٥/ ٥٣٠ ـ ٥٣١. وما بين حاصرتين منه.

(٦) سيرد تخريجه في الصفحة ٤٧٠.

(٧) في (م): أو.

(٨) في (م): نهى.

عن قتل جِنَّان[١] البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيحُ؛ لأنَّ الله عز وجل قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. وفي «صحيح» مسلم[٢] عن عبد الله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ قال: «أتاني داعي الجنّ، فذهبتُ معهم، وقرأتُ[٣] عليهم القرآنَ»، وفيه: وسألوه الزادَ، وكانوا من جِنّ الجزيرة. الحديث. وسيأتي بكماله في سورة الجن إن شاء الله تعالى.

وإذا ثبتَ هذا؛ فلا يُقتل شيءٌ منها حتى يُحرَّجَ عليه ويُنذَر، على ما يأتي بيانهُ إن شاء الله تعالى.

السابعة: روى الأئمةُ عن أبي السَّائب مَوْلى هشام بنِ زُهْرة، أنه دخلَ على أبي سعيد الخُدْريّ في بيته، قال: فوجدتُه يصلّي، فجلستُ أنتظر[٤] حتى يقضيَ صلاتَه، فسمعتُ تحريكاً في عَراجِينَ ناحيةَ البيت، فالتفتُّ، فإذا حيَّةٌ، فوثبتُ لأقتلَها، فأشارَ إليَّ أنِ اجْلِسْ، فجلستُ، فلما انصرفَ أشارَ إلى بيتٍ في الدار، فقال: أترى هذا البيتَ؟ فقلتُ: نعم. فقال: كانَ فيه فَتًى منّا حديثُ عهدٍ بِعُرْس. قال: فخرَجْنا مع رسول الله ﷺ إلى الخَنْدَق، فكان ذلك الفتى يستأذنُ رسولَ الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجعُ إلى أهله، فاستأذنَه يوماً، فقال [له] رسول الله ﷺ: «خُذْ عليكَ سلاحكَ، فإنِّي أخْشَى عليك قُرَيْظَة». فأخذَ الرجلُ سلاحَه ثم رَجَع، فإذا امرأتُه بين البابين قائمةٌ، فأهْوَى إليها الرُّمح[٥] لِيطعُنَها به، وأصابته غَيرةٌ، فقالت له: اكفُفْ عليك رمحَك، وادخل البيتَ حتى تنظرَ ما الذي أخرجني. فدخل، فإذا بحيَّةٍ عظيمة منطوية على الفراش، فأهْوَى إليها بالرمح، فانتظَمَها به، ثم خرج، فركَزه[٦] في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرَى[٧] أيُّهما كان أسرعَ موتاً، الحيَّةُ أمِ الفتى! قال: فجئنا إلى

---

(١) في (د) و(ز): حيات، وفي (ظ): الحيات، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المفهم ٥/ ٥٣١ والجِنَّان بتشديد النون، جمع الجان، حيّة بيضاء صغيرة دقيقة. المفهم ٥/ ٥٣٤.

(٢) (٤٥٠): (١٥٠).

(٣) في (م): فقرأت.

(٤) في (م): أنتظره.

(٥) في (م): بالرمح.

(٦) في (ظ): فأركزها.

(٧) في (د) و(ظ): ندري.

رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادعُ الله يُحييه [لنا]، فقال: «استغفروا لأخيكم». ثم قال: «إنَ بالمدينة جِنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتُم منهم شيئاً، فآذِنوه ثلاثة أيام، فإنْ بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه؛ فإنَّما هو شيطانٌ»[١].

وفي طريق أُخرى: فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لهذه البيوت عَوامِرَ، فإذا رأيتُم شيئاً منها؛ فَحرِّجُوا عليها ثلاثاً، فإنْ ذهبَ؛ وإلا فاقتلوه، فإنه كافرٌ». وقال لهم: «اذهبوا فادفِنُوا صاحبَكم»[٢].

قال علماؤنا رحمة الله عليهم[٣]: لا يُفهمُ من هذا الحديث أنَّ هذا الجانَّ الذي قتلَه الفتى[٤] كان مسلماً، وأن الجنَّ قتلته به قِصاصاً؛ لأنه لو سُلِّم أنَّ القِصاصَ مشروعٌ بيننا وبين الجنِّ، لكان[٥] إنما يكون في العمد المحض، وهذا الفتى لم يَقْصِدْ ولم يَتَعمَّدْ قتلَ نفسٍ مسلمة، إذْ لم يكن عنده علمٌ من ذلك، وإنَّما قصدَ إلى قتل ما سُوِّغَ قتلُ نوعِهِ شرعاً، فهذا قتلُ خطأ، ولا قِصاصَ فيه، فالأولى أن يقال: إن كفارَ الجنِّ - أو فَسَقَتَهم - قتلُوا الفتى بصاحبهم عَدْواً[٦] وانتقاماً.

وقد قتلتْ سعدَ بنَ عُبادة رضي الله عنه؛ وذلك أنه وُجِدَ ميتاً في مغتسله وقد اخضرَّ جسدُه، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يرونَ[٧] أحداً:

قد[٨] قتلنا سيِّدَ الخزْ رَجِ سَعْدَ بنَ عُبادَه
ورَمَيْناه بسهمَيْـ ـنِ فلم نُخطِ فؤادَه[٩]

وإنما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ بالمدينةِ جِنّاً قد أسلمُوا» لِيُبيِّنَ طريقاً يحصُلُ به التحرُّزُ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦): (١٣٩)، وما بين حاصرتين منه.
(٢) هو عند مسلم أيضاً (٢٢٣٦): (١٤٠).
(٣) قاله أبو العباس القرطبي، في المفهم ٥/٥٣٨.
(٤) في (م): قتله هذا الفتى.
(٥) في النسخ والمفهم: لكن، والمثبت من (م).
(٦) في (ظ): عدواناً.
(٧) في (د): ولم يَرَو.
(٨) في (ظ): نحن.
(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٣٩٠-٣٩١، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٤/ ١٥٩.

من قتلِ المسلم منهم، ويتسلَّط به على قتل الكافر منهم.

رُوِيَ من وجوهٍ أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قتلَتْ جانّاً[١]، فأُرِيتْ في المنام أن قائلاً يقول لها: لقد قتلتِ مسلماً، فقالت: لو كان مسلماً لم يدخُلْ على أزواج النبيِّ ﷺ. قال: ما دخلَ عليك إلا وعليكِ ثيابُك. فأصبحت فأمرَتْ باثني عشرَ ألفِ درهم؛ فَجُعِلت في سبيل الله. وفي رواية: ما دخلَ عليكِ إلا وأنت مستترةٌ. فتصدَّقَتْ[٢] وأعتقَتْ رِقاباً[٣].

وقال الربيع بنُ بدر[٤]: الجانُّ من الحيَّات التي نَهى رسول الله ﷺ عن قتلها هي التي تمشي ولا تلتوي. وعن علقمةَ نحوه[٥].

الثامنة: في صفة الإنذار؛ قال مالك: أَحَبُّ إليَّ أنْ يُنْذَرُوا ثلاثةَ أيام. وقال[٦] عيسى بنُ دينار: وإن ظهرَ في اليوم مراراً، ولا يُقتَصَر على إنذاره ثلاثَ مِرارٍ في يوم واحد حتى يكونَ في ثلاثة أيام.

وقيل: يكفي ثلاثُ مِرارٍ، لقوله عليه السلام: «فَلْيُؤْذِنْهُ ثلاثاً»، وقوله: «حَرِّجُوا عليه ثلاثاً»، ولأنَّ ثلاثاً للعدد المؤنث، فظهرَ أن المرادَ ثلاثُ مرَّات.

وقولُ مالكٍ أولى؛ لقولِهِ عليه السلام: «ثلاثةَ أيام». وهو نَصٌّ صحيحٌ مقيِّد لتلك المُطْلَقات، ويُحمل «ثلاثاً» على إرادة ليالي الأيام الثلاث، فغلَّبَ الليلةَ على عادة العرب في باب التاريخ، فإنها تُغلِّبُ فيها التأنيثَ.

قال مالك: ويكفي في الإنذار أن يقول: أُحَرِّجُ عليكَ بالله واليوم الآخر ألا تَبْدُوا لنا، ولا تُؤْذُونا[٧].

---

(١) في (ز): جناناً، وفي (ظ): جناً.

(٢) في النسخ: فصدقت، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٧٧، والحارث في مسنده (٤١٩) (زوائد)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٩، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ١١٨.

(٤) لعله ابن عمرو، أبو العلاء البصري، الملقب عُليلة، مات سنة (١٧٨هـ)، من رجال التهذيب، ضعيف.

(٥) ذكر القولين الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٥١.

(٦) في (ز) و(م): وقاله، والمثبت من (د) و(ظ) والمفهم.

(٧) المفهم ٥/ ٥٣٨.

وذكر ثابتٌ البُنانيُّ عن عبد الرحمن بنِ أبي ليلى أنه ذُكِرَ عنده حياتُ البيوت، فقال: إذا رأيتُم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا: أنشُدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم نوحٌ عليه السلام، وأنشُدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم سليمانُ عليه السلام، فإذا رأيتُم منهنَّ شيئاً بعدُ، فاقتُلُوه[١].

قلتُ: وهذا يدلُّ بظاهره أنه يكفي في الإذْن مرَّةٌ واحدةٌ، والحديثُ يردُّه. والله أعلم.

وقد حكى ابنُ حبيب عن النبيِّ ﷺ أنَّه يقول: «أَنْشُدُكنَّ بالعهد الذي أخذَ عليكنَّ سليمانُ عليه السلام ألاّ تُؤذِينَنا، وألاّ تَظْهَرْنَ علينا»[٢].

التاسعة: روى جُبيرُ بن[٣] نُفير، عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِ - واسمه جُرْثُوم - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجِنُّ على ثلاثة أثلاث: فثلُثٌ لهم أجنحةٌ يطيرونَ في الهواء، وثُلُثٌ حياتٌ وكلابٌ، وثلثٌ يَحُلُّون[٤] ويَظعَنون»[٥].

وروى أبو الدَّرداء - واسمه عُوَيْمر - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَ الجنُّ ثلاثةَ أثلاث: فثُلُثٌ كلابٌ وحيَّاتٌ وخَشاشُ الأرض، وثُلُثٌ رِيحٌ هَفَّافةٌ، وثُلُثٌ كبني آدمَ، لهم الثوابُ وعليهم العقابُ، وخَلَقَ اللهُ الإنسَ ثلاثةَ أثلاثٍ: فثُلُثٌ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، وأعينٌ لا يُبْصِرُون بها، وآذانٌ لا يسمعونَ بها، إنْ هم إلا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً، وثلثٌ أجسادُهم كأجسادِ بني آدمَ، وقلوبُهم قلوبُ[٦] الشياطين، وثلثٌ في ظلِّ الله يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه»[٧].

العاشرة: ما كانَ من الحيوان أصلُه الإذايةُ، فإنه يُقتلُ ابتداءً؛ لأجل إذايته من غير

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) المفهم ٥/٥٣٨ - ٥٣٩.

(٣) في (م): عن، وهو خطأ.

(٤) في (د): يرتحلون.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٥، والاستذكار ٢٧/ ٢٦٠ - ٢٦١، وقال عقبه: وهذا إسناد جيد، رواته أئمة ثقات.

(٦) في (ز) و(ظ): كقلوب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٦ - ٢٦٧، وذكر ابن عبد البر أن حديث أبي ثعلبة (السالف قبله) خير منه إسناداً.

خِلاف، كالحيّة، والعقرب، والفأر[١]، والوَزَغ، وشِبْهِه. وقد قال رسولُ الله ﷺ: «خمسٌ فواسقُ يُقتلن في الحِلِّ والحَرَم»[٢]. وذكر الحديث.

فالحيّةُ أبدَتْ جوهرَها الخبيثَ حيث خانت آدمَ بأن أدخلت إبليسَ[٣] الجنةَ بين فَكَّيها، ولو كانت تُبرِزُه ما تركها[٤] رضوانُ تدخلُ به، وقال لها إبليسُ: أنتِ في ذِمَّتي[٥]، فأمرَ رسول الله ﷺ بقتلها، وقال: «اقتُلُوها ولو كنتمُ في الصلاة»[٦] يعني: الحيةَ والعقربَ.

والوَزَغةُ نفخت على نارِ إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدوابِّ فلُعِنت، وهذا من نوع ما يُرْوى[٧] في الحية[٨]. ورُويَ عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قتلَ وَزَغةً فكأنَّما قتل كافراً»[٩]. وفي «صحيح» مسلم[١٠]، عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: «مَن قتل وَزَغةً في أوّل ضربةٍ، كُتبت له مئةُ حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك» وفي راويةٍ أنه قال: «في أوَّل ضربةٍ سبعين[١١] حسنةً».

والفأرةُ أبدَتْ جوهرَها بأن عمَدت إلى حبالِ سفينة نوحٍ عليه السلام، فقطعتها[١٢]. وروى عبد الرحمن بنُ أبي نُعْم[١٣]، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

(١) في (ظ): والفأرة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨) (٦٧) من حديث عائشة.
(٣) في (د): دخلت بإبليس.
(٤) في النسخ: تركه، والمثبت من (م).
(٥) تفسير الطبري ١/ ٥٦٦، والخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.
(٦) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٧٠، والبيهقي ٧/ ٢٧٢ من حديث ابن عباس.
(٧) في (د) و(ز): روي.
(٨) أخرج البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٢٢٣٧) من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمرَ بقتل الأوزاغ. وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام».
(٩) سلف ص ٤٦٦ بلفظ: من قتل حية، وأن وقفه أصح.
(١٠) (٢٢٤٠): (١٤٧).
(١١) في (م): «سبعون».
(١٢) تاريخ الطبري ١/ ١٨١، ونوادر الأصول ص١٣١، والخبر من الإسرائيليات.
(١٣) في النسخ: نعيم، وهو خطأ.

«يَقتل المُحْرِمُ الحيّةَ، والعقربَ، والحِدأةَ والسَّبُعَ العادِيَ، والكلبَ العقورَ، والفُوَيْسِقَة». واستيقظَ رسولُ الله ﷺ وقد أخَذَتْ فَتِيلةً لِتَحْرِقَ البيتَ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ بقتلها[1].

والغرابُ أبدى جَوْهرَه حيثُ بَعَثَه نبيُّ الله نوحٌ عليه السلام في السفينة ليأتيَه بخبر الأرض، فتركَ أمرَه، وأقبلَ على جِيفةٍ[2].

هذا كلُّه في معنى الحيّة، فلذلك ذكرناه. وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في التعليل في المائدة وغيرِها إن شاء الله تعالى[3].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبعُ[4] مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ حُذفت الألفُ من «اهبِطُوا» في اللفظ؛ لأنها ألفُ وصل، وحُذفت الألفُ من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدَها.

وروى محمد بنُ مصَفًّى[5] عن أبي حَيْوَةَ ضمَّ الباء في «اهبطوا»[6]، وهي لغةٌ يُقوِّيها[7] أنه غيرُ متعدٍّ، والأكثرُ في غير المتعدّي أن يأتيَ على يَفْعُل.

والخطابُ لآدمَ وحواءَ والحيةِ والشيطان في قول ابن عباس[8]، وقال الحسن: آدمُ وحواءُ والوسوسة[9]، وقال مجاهدٌ والحسنُ أيضاً: بنو آدمَ وبنو إبليس[10].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٥٥)، وأبو داود (١٨٤٨)، والترمذي (٨٣٨)، وابن ماجه (٣٠٨٩)، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه أحمد (٤٤٦١)، والبخاري (١٨٢٧)، ومسلم (١١٩٩)، وعن جابر أخرجه البخاري (٣٣١٦)، وعن عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤٠٥٢)، والبخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٨١، ونوادر الأصول ص١٣٢، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) في تفسير الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٤) في (ظ): تسع.

(٥) أبو عبد الله القرشي، الحافظ، عالم أهل حمص، العبد الصالح، مات سنة (٢٤٦هـ). السير ١٢/ ٩٤.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾؛ الآية (٦١)، وليس لهذه الآية، وزاد نسبتها للحسن.

(٧) في (د): يقرأ بها.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٢٩ عن السدي.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩.

(١٠) قول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، وقول الحسن ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٨.

والهبوطُ: النزول من فوق إلى أسفل، فأُهبِطَ آدمُ بسَرَنْدِيبَ في الهند بجبل يقال له: «نَوْذ»[(١)]، ومعه ريحُ الجنة، فعَلِقَ بشجرها وأوديتها، فامتلأ ما هنالك طِيباً، فمن ثَمَّ يُؤتى بالطِّيب من ريح آدمَ عليه السلام. وكان السحابُ يمسحُ رأسَه فأصلع، فأورث ولدَه الصَّلَع[(٢)]!

وفي البخاريِّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «خلَقَ اللهُ آدمَ وطولُه ستُّون ذراعاً» الحديث. وأخرجه مسلم وسيأتي[(٣)]. وأُهبطت حواء بجُدَّة، وإبليسُ بالأُبُلَّة، والحيّة بِبَيْسان، وقيل: بِسَجِستان، وسجستان أكثرُ بلاد الله حياتٍ، ولولا العِرْبَدُّ الذي يأكلُها ويُفني كثيراً منها، لأُخليت سجستانُ من أجل الحيات. ذكره أبو الحسن المسعوديُّ[(٤)].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ «بعضكم» مبتدأ، «عدوّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على الحال، والتقديرُ: وهذه حالُكم. وحُذفت الواو من: وبعضُكم؛ لأنَّ في الكلام عائداً، كما يقال: رأيتُك السماءُ تمطر عليك.

والعدوّ: خلافُ الصَّدِيق، وهو مِنْ: «عدا»: إذا ظَلَم، وذئب عَدَوان: يَعْدُو على الناس، والعُدْوان: الظُّلم الصُّراح. وقيل: هو مأخوذٌ من المجاوزَة؛ من قولك: لا يَعْدُوك هذا الأمرُ؛ أي: لا يتجاوزك، وعدَاه: إذا جاوزه، فسُمِّي عدوّاً لمجاوزة الحدِّ في مكروهِ صاحبِه؛ ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة المَشْي[(٥)]، والمعنيان متقاربان، فإنَّ من ظلَم فقد تجاوز[(٦)].

---

(١) في النسخ الخطية: بود، وفي (م): بوذ. وهي بفتح النون وسكون الواو وبالذال المعجمة. كما قيدها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٣١٠.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٥ مطولاً. وفي إسناده الكلبي، وهو متهم بالكذب.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، وصحيح مسلم ٢٨٤١. وهو في مسند أحمد (٨١٧١)، وسيرد في تفسير الآية (٨٦) من سورة النساء، والآية (٧) من سورة الفجر.

(٤) مروج الذهب ١/ ٦٠. والعِرْبَدُّ: نوع من الحيات. الحيوان للجاحظ ٦/ ٢١، ٣٣، ٤٧٣. وأبو الحسن المسعودي: هو علي بن الحسين، البغدادي، كان معتزلياً، توفي سنة (٣٤٥هـ). السير ١٥/ ٥٦٩.

(٥) في (م) و(د) و(ز): «الشيء»، والمثبت من (ظ).

(٦) مجمل اللغة: (عدا).

قلت: وقد حملَ بعضُ العلماء قولَه تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ على الإنسان نفسِه، وفيه بُعْدٌ، وإن كان صحيحاً معنًى، يدلُّ عليه قولُه عليه السلام: «إنَّ العبدَ إذا أصبَحَ تقول جوارحُهُ للسانه: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنك إن[1] استقمتَ استقمنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[2].

فإن قيل: كيف قال: «عدوّ»، ولم يقل: أعداء؟ ففيه جوابان:

أحدهما: أن «بَعْضاً» و«كُلاً» يُخبَر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك في القرآن، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] على اللفظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] على المعنى.

والجواب الآخر: أنّ عدوّاً يُفرَد في موضع الجمع، قال الله عز وجل: ﴿مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] بمعنى أعداء، وقال تعالى ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال ابنُ فارس[3]: العدوّ اسمٌ جامعٌ للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يُجمَع.

الثالثة: لم يكن إخراجُ اللهِ تعالى آدمَ من الجنة وإهباطُه منها عقوبةً له؛ لأنه أهبطَه بعدَ أن تابَ عليه وقَبِلَ توبتَه، وإنما أهبطَه إما تأديباً، وإما تغليظاً للمِحْنة، والصحيحُ في إهباطه وسُكْناه في الأرض ما قد ظهرَ منَ الحكمة الأزليّة في ذلك، وهي نشرُ نَسله فيها لِيُكلِّفَهم ويَمتحِنَهم، ويرتِّبَ على ذلك ثوابَهم وعقابَهم الأُخْرَوِيَّ، إذ الجنةُ والنار ليستا[4] بدار تكليف، فكانت تلك الأكلةُ سببَ إهباطه من الجنة، ولله أن يفعلَ ما يشاء، وقد قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذه مَنْقَبةٌ عظيمةٌ، وفضيلةٌ كريمة شريفة، وقد تقدَّمت الإشارةُ إليها مع أنه خُلِقَ من الأرض[5]. وإنَّما قلنا: إنَّما أهبطَه بعد أن تابَ عليه لقوله ثانيةً: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ وسيأتي.

---

(١) في (م): إذا.

(٢) أخرجه أحمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) مجمل اللغة: (عدو).

(٤) في النسخ: ليست، والمثبت من (م).

(٥) ص ٤١٧.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: موضع استقرار. قاله أبو العالية وابنُ زيد. وقال السُّدِّيّ: «مُسْتَقَرٌّ» يعني القبور[١].

قلت: وقولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [المؤمن: ٦٤] يحتملُ المعنيين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ المتاع: ما يُستمتع به من أكلٍ ولُبْسٍ، وحياة وحديث، وأُنْس، وغير ذلك، ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح، لأنها يُتَمَتَّع[٢] بها. وأنشد سليمان بنُ عبد الملك[٣] حين وقف على قبر ابنه أيوب إثْرَ دفنهِ:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ ... متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ[٤]

السادسة: قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ اِختلف المتأوّلون في الحين على أقوال: فقالت فرقةٌ: إلى الموت. وهذا قولُ من يقول: المستقَرُّ هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام الساعة. وهذا قولُ من يقول: المستقَرُّ هو القبر[٥]. وقال الربيع: «إلى حين»: إلى أجل[٦].

والحين: الوقت البعيد، فحينئذ: تبعيدٌ من قولك: الآن. قال خُوَيلد[٧]:

كابي الرَّمادِ عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُهُ ... حِينَ الشتاءِ كحوض المُنْهِلِ اللَّقِفِ[٨]

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٥-٥٧٦.

(٢) في (د): تمتع، وفي (ز): تنتفع، وفي (ظ): تتنفع، والمثبت من (م).

(٣) ابن مروان بن الحكم، أبو أيوب، الخليفة الأموي، بُويع بعد أخيه الوليد سنة (٩٦هـ)، كان ديّناً فصيحاً عادلاً، واستَخْلَفَ بعده عمر بن عبد العزيز، مات سنة (٩٩هـ). السير ٥/ ١١١.

(٤) البيان والتبيين ٤/ ٥٩، والكامل للمبرد ٣/ ١٤١٨. وفي البيان والتبيين: «وقوف» بدل: «وقفت»، وفيهما: «مقيم» بدل: «غريب».

(٥) في (م): القبور.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٨.

(٧) هو خويلد بن مرة، أبو خراش الهذلي.

(٨) البيت في الصحاح (لقف) و(حين)، وفي ديوان الهذليين ٢/ ١٥٦، والاشتقاق لابن دريد ص٢٠٤، والرواية فيهما: «عند الشتاء».

لَقِفَ الحوضُ لَقَفاً، أي: تهوَّرَ من أسفله واتَّسعَ، يقال: فلان كابي الرَّماد، أي: عظيم الرماد ينهال(١).

وربَّما أدخلوا عليه التاء. قال أبو وَجْزَة:

العاطفون تَحِينَ ما مِن عاطفٍ والمُطْعِمونَ زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ(٢)

والحِينُ أيضاً: المدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الدهر: ١]. والحِينُ: الساعة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ [الزمر: ٥٨]. قال ابن عَرَفة(٣): الحِينُ: القطعةُ من الدهر، كالساعةِ فما فوقَها. وقولهِ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي: حتى تَفْنَى آجالُهم. وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. أي: كلَّ سنة، وقيل: بل كلَّ ستةِ أشهر، وقيل: بل غُدْوةً وعَشِيّاً.

قال الأزهريّ(٤): الحينُ: اسمٌ كالوقت، يصلُحُ لجميع الأزمان كلِّها، طالَتْ أو(٥) قَصُرَتْ. والمعنى أنه يُنتفَعُ بها كلَّ(٦) وقتٍ، ولا ينقطعُ نفعُها البَتَّة. قال: والحِينُ يومُ القيامة.

والحينُ: الغُدْوة والعَشِيّة، قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. ويقال: عاملتُه مُحايَنةً، من الحِين. وأحينتُ بالمكان: إذا

---

(١) قوله: يقال: فلان كابي الرماد... من (ز)، وهو في الصحاح (كبى). وقوله: المُنْهِل، يعني الذي قد أنهلَ إبلَه، أي سقاها أول سقية. قاله ابن دريد.

(٢) البيت في الصحاح: (حين)، والإنصاف ١/١٠٨، والشطر الأول منه في مجالس ثعلب ١/ ٣٧٤. وهو من قصيدة مدح بها أبو وجزة السعدي آل الزبير بن العوام، لكنه مركب من مصراعي بيتين. الخزانة ٤/ ١٧٥ - ١٧٩. وأبو وجزة: هو يزيد بن عبيد، السعدي، المدني، الشاعر، ثقة، مات سنة (١٣٠هـ). تقريب التهذيب.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان، أبو عبد الله، الحافظ النحْوي، الأخباري، المشهور بنفطويه، توفي سنة (٣٢٣هـ). السير ١٥/ ٧٥.

(٤) تهذيب اللغة ٥/ ٢٥٥. والأزهري إنما ينقل عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ١٦١، وتفسير الحين بيوم القيامة نقله الأزهري عن الليث.

(٥) في (د) و(ظ): أم.

(٦) في (م): في كل.

أقمتَ به حِيناً. وحان حِينُ كذا، أي: قرُب. قالت بُثَيْنة[١]:

وإنَّ سُلُوِّي عن جميلٍ لَساعةٌ من الدهر ما حانَتْ ولا حانَ حِينُها

السابعة: لمَّا اختلفَ أهلُ اللسان في الحِين اختلف فيه أيضاً علماؤنا وغيرُهم: فقال الفَرَّاء: الحينُ حِينان: حِينٌ لا يُوقَفُ على حدِّه، والحِينُ الذي ذكَره[٢] الله جل ثناؤه: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ ستةُ أشهر.

قال ابن العربي[٣]: الحِينُ المجهول لا يتعلَّق به حُكم، والحين المعلومُ هو الذي تتعلّق به الأحكام، ويرتبط به التكليف، وأكثرُ المعلومِ سنةٌ، ومالك يرى في الأحكام والأيمان أعمَّ الأسماء والأزمنة، والشافعيُّ يرى الأقلَّ، وأبو حنيفة توسَّط، فقال: ستةُ أشهر. ولا معنى لقوله؛ لأنَّ المُقدَّرات عنده لا تثبتُ قياساً[٤]، وليس فيه نصٌّ عن صاحب الشريعة[٥]، وإنما المعوَّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغةً، فمن نَذَر أن يُصلِّيَ حِيناً، فيُحمَلُ على ركعة عند الشافعيِّ؛ لأنه أقلُّ النافلة، قياساً على ركعة الوتر. وقال مالك وأصحابه: أقلُّ النافلة ركعتان، فيتقدَّر الزمانُ بتقدير[٦] الفعل.

وذكر ابن خُوَيْزمَنْداد في «أحكامه»: أنَّ مَنْ حلفَ ألّا يُكلِّمَ فلاناً حِيناً، أو لا يفعلَ كذا حيناً، أنَّ الحينَ سَنَةٌ. قال: واتَّفقوا في الأحكام أنَّ مَنْ حلفَ ألّا يفعلَ كذا حيناً، أو لا يُكلِّمَ فلاناً حيناً، أنَّ الزيادةَ على سَنَةٍ لم تدخلْ في يمينه.

قلت: هذا الاتفاقُ إنَّما هو في المذهب. قال مالك رحمه الله: مَنْ حَلَفَ ألا يفعلَ شيئاً إلى حينٍ أو زمانٍ أو دَهْر، فذلك كلُّه سَنَةٌ. وقال عنه ابنُ وهب: إنه شكٌّ في الدهر أن يكون سَنَةً. وحكى ابنُ المنذر عن يعقوبَ وابن الحسن[٧]: أنَّ الدهر

---

(١) هي بثينة بنت حبأ بن ثعلبة، صاحبة جميل، وقصتهما معروفة، الأغاني ٨/ ٩٢. والبيت قالته ترثي جميلاً، وهو في الأضداد ص٢٤٤، والصحاح: (حين)، والأغاني ٨/ ١٥٤.

(٢) في (د) و(م): ذكر.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٨.

(٤) في (ظ): فيه قياساً.

(٥) في (د): الشرع.

(٦) في (م): بقدر.

(٧) يعني أبا يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة رحمهم الله.

ستة أشهر[١]. وعن ابن عباس وأصحابِ الرأي وعكرمةَ وسعيدِ بن جُبير وعامرٍ الشَّعْبيِّ وعَبِيدةَ في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَآ﴾ أنه ستةُ أشهر[٢]. وقال الأوزاعيُّ وأبو عُبَيد: الحينُ ستةُ أشهر. وليس عند الشافعيِّ في الحين وقتٌ معلوم، ولا للحينِ غايةٌ، قد يكون الحينُ عنده مدّةَ الدنيا. وقال: لا نُحَنِّثُهُ أبداً، والوَرَع أن يقضيَه قبل انقضاء يوم. وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغةُ، يقال: قد جئتُ من حين، ولعلَّه لم يجئ من نصفِ يوم[٣].

قال الكِيَا الطبريُّ الشافعيُّ[٤]: وبالجملة، الحينُ له مصارف، ولم ير الشافعيُّ تعيينَ محمَلٍ من هذه المحامل، لأنه مجملٌ[٥] لم يوضع في اللغة لمعنًى معيَّن.

وقال بعضُ العلماء[٦]: في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فائدةُ بِشارةٍ لآدَمَ عليه السلام[٧]، ليعلم أنه غيرُ باقٍ فيها، ومنتقلٌ إلى الجنة التي وُعِدَ بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالةٌ على المعاد فحسب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ تَلَقَّى؛ قيل: معناه: فَهِمَ وفَطِنَ. وقيل: قَبِلَ وأَخَذَ، وكان عليه السلام يتلقَّى الوَحْيَ، أي: يستقبلُه ويأخذُه ويتلقَّفُه[٨]. تقول: خرجنا نتلقَّى الحجيجَ، أي: نستقبلُهم.

---

(١) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٢٦٣.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٦-٦٤٨، والمحلى ٨/ ٥٨. وعَبِيدة: هو ابن عمرو السلماني.

(٣) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٢٦٣، والمحلى ٨/ ٥٨-٥٩، والمغني لابن قدامة ١٣/ ٥٧٢.

(٤) علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الهراسي، شيخ الشافعية، مدرس النظامية إلى أن مات سنة (٥٠٤هـ). السير ١٩/ ٣٥٠. وكلامه في أحكام القرآن ٢/ ٢٣٨.

(٥) في (د): محل، وفي (ز) و(ظ): محمل.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٣٠.

(٧) في (د) و(م): إلى آدم، ولفظة «بشارة» ليست في (ز).

(٨) في (د) و(ظ): ويتلقنه.

وقيل: معنى تلقَّى: تلقَّن. وهذا في المعنى صحيحٌ، ولكن لا يجوز أن يكون التلقِّي مِن التلقُّن في الأصل؛ لأنَّ أحدَ الحرفين إنما يُقلب ياءً إذا تجانسا، مثل: تظنَّى مِن تظنَّن، وتقصَّى من تقصَّص، ومثله: تسرَّيتُ من: تسرَّرتُ، وأمليتُ من: أمللت، وشِبْهُ ذلك، ولهذا لا يقال: تَقَبَّى مِن تقبَّل، ولا تلقَّى مِن تلقَّن، فاعلم.

وحَكَى مكيٌّ أنه أُلهِمَها فانتفعَ بها[1]. وقال الحسن: قبولُها: تعلُّمه لها، وعملُه بها.

الثانية: واختلفَ أهلُ التأويل في الكلمات: فقال ابنُ عباس والحسنُ وسعيد بنُ جُبَير والضَّحَّاك ومجاهد: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][2].

وعن مجاهد أيضاً: سبحانكَ اللَّهُمَّ، لا إلهَ إلاّ أنت ربّي، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنك أنتَ الغفور الرحيم[3].

وقالت طائفةٌ: رأى مكتوباً على ساق العرش: محمد رسول الله، فتشفَّع بذلك[4]، فهي الكلمات. وقالت طائفة: المرادُ بالكلمات: البكاءُ والحياء والدعاء. وقيل: الندمُ والاستغفار والحزن.

قال ابن عطية[5]: وهذا يقتضي أنَّ آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود. وسُئل بعضُ السلف عما ينبغي أن يقولَه المذنب، فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية. وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]. وقال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣٠.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الثعلبي وابن المنذر فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٣٦، وقول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٤-٥٨٦، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٦، وقول الضحاك أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٥، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٧.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٦١٥ من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، وصححه، وتعقَّبه الذهبي بقوله: بل موضوع.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

وعن ابن عباس ووَهْبِ بنِ مُنَبِّه أن الكلمات: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، لا إلهَ إلا أنتَ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنك[1] خَيْرُ الغافرين، سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلهَ إلا أنتَ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الرحيم[2].

وقال محمد بنُ كعب[3]: هي قوله: لا إلهَ إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، لا إلهَ إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت أرحمُ[4] الراحمين[5].

وقيل: الكلماتُ: قولُه حين عَطَسَ: الحمدُ لله.

والكلمات: جمعُ كلمةٍ، والكلمةُ تقع على القليل والكثير. وقد تقدَّم[6].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِلَ توبتَه، أو: وفَّقه للتوبة، وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم جمعة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتاب العبدُ: رجع إلى طاعة ربِّه، وعبدٌ توَّاب: كثيرُ[7] الرجوع إلى الطاعة، وأصلُ التوبة: الرجوع، يقال: تابَ وثابَ، وآبَ وأنابَ: رجع.

الرابعة: إن قيل: لِمَ قال: «عليه»، ولم يقل: عليهما، وحوّاءُ مشاركةٌ له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؟

فالجواب: أن آدمَ عليه السلام لمَّا خُوطبَ في أوّل القصة بقوله: «اسْكُنْ» خصَّه

---

(١) في (ظ): يا خير.

(٢) قول ابن عباس أخرجه ابن عساكر بنحوه فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٦٠.

(٣) أبو حمزة، وقيل: أبو عبد الله القُرظي، كان كثير الحديث، عالماً بالقرآن، مات سنة (١٠٨هـ)، وقيل غير ذلك. السير ٥/ ٦٦.

(٤) في (د) و(م): إنك أرحم.

(٥) ذكره مختصراً البغوي في تفسيره ١/ ٦٥.

(٦) ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٧) في (ظ): كثير التوبة كثير الرجوع.

بالذِّكْر في التلقِّي، فلذلك كَمُلت القصةُ بذِكْره وحدَه، وأيضاً؛ فلأنَّ المرأة حُرْمةٌ ومستورةٌ، فأراد الله السَّتْر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1] [طه: ١٢٢]، وأيضاً لمَّا كانت المرأةُ تابعةً للرجل في غالب الأمر لم تُذكر[2]، كما لم يُذكر فَتَى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥].

وقيل: إنه دلَّ بذِكْر التوبة عليه أنه تاب عليها[3]، إذ أمرُهما سواءٌ. قاله الحسنُ.

وقيل: إنه مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أي: التجارة؛ لأنها كانت مقصودَ القوم، فأعاد الضميرَ عليها، ولم يقل: إليهما، والمعنى متقاربٌ. وقال الشاعر:

رمَاني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي ... بَريئاً ومِن فَوْقِ الطَّوِيِّ رَماني[4]

وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، فحُذِف إيجازاً واختصاراً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفَ نفسَه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب، وتكرَّر في القرآن معرَّفاً ومنكَّراً، واسماً وفعلاً، وقد يُطلق على العبد أيضاً توّابٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الربِّ سبحانه بأنه توّابٌ ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنه يجوزُ في حقِّ الربِّ سبحانه وتعالى، فيُدْعَى به، كما في الكتاب والسُّنّة، ولا يُتأوَّل.

وقال آخرون: هو وصفٌ حقيقيٌّ لله سبحانه وتعالى، وتوبةُ الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٧٤.

(٣) في (د) و(ظ): عليهما.

(٤) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو من شواهد سيبويه ١/ ٧٥، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٣٦، والرواية فيهما: ومن أجل الطويِّ، وذكره ابن منظور في اللسان (جول) وفيه: ومن جُولِ الطَّوِيِّ. والجُول ـ بالضم ـ جدار البئر. وانظر شرح شواهد الكتاب للشنتمري ص٩٨. قوله: الطوي: هي البئر المطوية بالحجارة.

وقال آخرون: توبةُ الله على العبدِ قَبُولُه[١] توبتَه، وذلك يحتملُ أن يرجِعَ إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلتُ توبتَك، وأن يرجعَ إلى خلقه الإنابةَ والرجوعَ في قلب المسيء وإجراءَ الطاعات على جوارِحِه الظاهرة.

السادسة: لا يجوزُ أن يُقال في حقِّ الله تعالى: تائبٌ، اسمُ فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلَقَه هو على نفسه، أو نبيُّه عليه السلام، أو جماعةُ المسلمين، وإن كان في اللغة محتمِلاً جائزاً. هذا هو الصحيحُ في هذا الباب، على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى». قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وإنما قيل لله عز وجل: تَوَّابٌ، لمبالغة الفعل، وكثرةِ قَبولِهِ توبةَ عبادِه، لكثرة من يتوبُ إليه.

السابعة: اِعلم أنه ليس لأحدٍ قُدرةٌ على خلق التّوبة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو المنفردُ بخلق الأعمال، خلافاً للمعتزلة ومَن قال بقولهم، وكذلك[٢] ليس لأحدٍ أن يقبَلَ توبةَ مَنْ أسرف على نفسه، ولا أن يعفوَ عنه.

قال علماؤنا: وقد كفرت اليهودُ والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدِّين، اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله جلَّ وعزَّ، وجعلوا لمن أذنبَ أن يأتيَ الحَبْرَ أو الراهبَ، فيُعطيَه شيئاً، ويحطَّ عنه ذنوبَه، افتراءً على الله، قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين.

الثامنة: قرأ ابنُ كثير: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمَ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٌ﴾، والباقون برفع «آدم» ونصب «كلمات»[٣]، والقراءتان ترجعان[٤] إلى معنًى، لأنَّ آدم إذا تلقَّى الكلماتِ، فقد تلقَّتْه.

---

(١) في (د): قبول.

(٢) في (ظ): وكذا.

(٣) السبعة في القراءات لابن مجاهد ص١٥٣، والحجة في القراءات للفارسي ٢/ ٢٣ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز): ترجع، وفي (ظ): يرجع، والمثبت من (م).

وقيل: لمَّا كانت الكلماتُ هي المُنقِذةَ لآدم بتوفيق الله تعالى له لقَبوله إياها ودعائه بها، كانت الكلماتُ فاعلةً، وكأنَّ الأصلَ على هذه القراءة: «فتلقَّتْ آدمَ مِنْ ربِّه كلماتٌ»، لكن لمَّا بَعُدَ ما بين المؤنث وفعلِه، حَسُن حذفُ علامة التأنيث، وهذا أصلٌ يجري في كلِّ القرآن والكلام؛ إذا جاء فعلُ المؤنَّث بغير علامة، ومنه قولُهم: حضر القاضيَ اليومَ امرأةٌ. وقيل: إنَّ الكلمات لمَّا لم يكن تأنيثُه[1] حقيقيّاً، حُمِل على معنى الكَلِم، فذُكِّر.

وقرأ الأعمش: «آدمْ مِّن ربِّه» مدغَماً[2].

وقرأ أبو نَوْفل بنُ أبي عَقْرَب: «أنَّه» بفتح الهمزة[3]، على معنى: لأنَّه، وكسر الباقون على الاستئناف.

وأدغم الهاءَ في الهاء أبو عَمرو وعيسى وطلحةُ؛ فيما حكى أبو حاتم عنهم[4]. وقيل: لا يجوز؛ لأنَّ بينهما واواً في اللفظ، لا في الخطِّ. قال النحاس[5]: أجاز سيبويه[6] أن تُحذَفَ هذه الواو، وأنشد:

لـه زَجَـلٌ كـأنَّـهُ صَـوْتُ حـادٍ ... إذا طَـلَـبَ الـوَسِـيـقَـةَ أو زَمِـيـرُ[7]

فعلى هذا يجوزُ الإدغامُ.

---

(١) في (د): لما لم تكن تأنيثاً، وفي (ظ): تأنيثه قوياً حقيقياً.

(٢) وهو مذهب أبي عمرو بن العلاء من السبعة في رواية السوسي. التذكرة لابن غلبون ١/ ١٢٣، والنشر لابن الجزري ١/ ٢٨٢ و٢/ ٢١١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٣١. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ إلى العباس بن الفضل.

(٤) نقله عنه أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٥.

(٥) إعراب القرآن ١/ ٢١٥، وهي رواية السوسي.

(٦) الكتاب ١/ ٢٩-٣٠.

(٧) البيت للشَّمَّاخ بن ضرار الذُّبياني، وهو في ديوانه ص١٥٥، والرواية فيه: له زجلٌ تقولُ أَصَوْتُ حادٍ. وحينئذٍ فلا شاهد فيه.
والزَّجَل: صوتٌ فيه حنينٌ وترنّم، والوسيقة: أنثى الحمار؛ يصف حمار وحش هائجاً، فيقول: إذا طلب أنثاه صوَّتَ بها، فكأن صوته لما فيه من الحنين وحسن التطريب صوتُ حادٍ بإبل يتغنَّى فيُطرِبُها، أو صوتُ مزمار. شرح الشواهد للشنتمري ص٦٤.

و«هو» رفعٌ بالابتداء، «التوّاب» خبرُه، والجملةُ خبر «إنَّ»، ويجوز أن يكون «هو» توكيداً للهاء، ويجوز أن تكون فاصلةً، على ما تقدّم[١].

وقال سعيد بن جُبير: لما أُهبِطَ آدمُ إلى الأرض لم يكن فيها شيءٌ غير النَّسْرِ في البرِّ، والحوتِ في البحر، فكان النَّسْرُ يأوي إلى الحوت، فيبيتُ عنده، فلمَّا رأى النَّسْرُ آدمَ قال: يا حوتُ، لقد أُهبِطَ اليومَ إلى الأرض شيءٌ يمشي على رجليه، ويبطِشُ بيديه! فقال الحوتُ: لئن كنتَ صادقاً، مالي منه في البحر مَنْجى، ولا لك في البرِّ منه مَخْلَص[٢]!.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾: كرَّرَ الأمرَ على جهة التغليظ وتأكيده، كما تقول لرجل: قُمْ قُمْ، وقيل: كرَّر الأمرَ لمَّا علَّق بكلِّ أمرٍ منهما حُكماً غيرَ حُكم الآخر، فعلَّق بالأوّل العداوةَ، وبالثاني إتيانَ الهُدى.

وقيل: الهبوطُ الأوّلُ من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض[٣]. وعلى هذا يكون فيه دليلٌ على أنَّ الجنةَ في السماء السابعة، كما دلَّ عليه حديث الإسراء[٤]، على ما يأتي.

﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال.

---

(١) ص ٣١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٧٨. والخبر ـ على أنه مقطوع ـ من رواية محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، عن يعقوب بن عبد الله القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة القمي، عن سعيد بن جبير. وجعفر هذا ليس بالقوي في سعيد بن جبير. تهذيب التهذيب.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) (٢٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وهو في المسند (١٧٨٣٣)، وسيورده المصنف من حديث أنس في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
وأخرج أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٣ عن عبد الله بن مسعود قال: الجنة في السماء السابعة العليا، ثم قرأ: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: لمَّا هبَطَ[١] آدمُ عليه السلام إلى الأرض قال إبليسُ للسِّباع: إنَّ هذا عدوٌّ لكم فأهْلِكوه. فاجتمَعوا وولَّوْا أمرَهم إلى الكلب، وقالوا: أنتَ أشجعُنا، وجعلوه رئيساً؛ فلمَّا رأى ذلك آدمُ عليه السلام تحيَّر في ذلك، فجاءه جبريلُ عليه السلام، وقال له: اِمسحْ يدَكَ على رأس الكلب، ففعل، فلمَّا رأت السِّباعُ أنَّ الكلبَ أَلِفَ آدمَ تفرَّقوا، واستأمَنَه الكلبُ فأمِنَه آدمُ، فبقيَ معه ومع أولاده[٢].

وقال الترمذيُّ الحكيمُ نحوَ هذا[٣]، وأنَّ آدم عليه السلام لمَّا أُهبط إلى الأرض جاء إبليسُ إلى السِّباع، فأشلاهم على آدم[٤] ليؤذوه، وكان أشدَّهم عليه الكلبُ، فأُمِيتَ فؤادُه، فرُوِيَ في الخبر أنَّ جبريل عليه السلام أمرَه أن يضع يدَه على رأسه، فوضعَها، فاطمأنَّ إليه وأَلِفَه، فصار ممَّن يحرسُه ويحرسُ ولدَه ويألَفُهم، وبموت فؤادِه يفزَعُ من الآدميِّين، فلو رُمِيَ بمَدَرٍ[٥] لَوَلَّى[٦] هارباً، ثم يعودُ آلِفاً لهم، ففيه شعبةٌ من إبليس، وفيه شعبةٌ من مَسحة آدم عليه السلام، فهو بشعبة إبليس ينبحُ ويَهِرُّ ويعدو على الآدميِّ، وبمَسحة آدم ماتَ فؤادُه، حتى ذلَّ وانقادَ وأَلِفَ به وبولده يحرسُهم، ولَهَثُه على كلِّ أحواله من موت فؤاده، ولذلك شَبَّه الله سبحانه وتعالى العلماءَ السوءَ بالكلب ـ على ما يأتي بيانه في الأعراف[٧] إن شاء الله تعالى ـ ونزلت عليه تلك العصا التي جعلَها الله آيةً لموسى[٨]، فكان يطرُدُ بها السِّباعَ عن نفسه.

---

(١) في (د) و(ظ): أهبط.

(٢) ذكر نحو هذا الخبر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ١/ ٢٠٥، وهو والخبر الذي بعده من الإسرائيليات التالفة.

(٣) لم نقف عليه في نوادر الأصول.

(٤) قوله: أشلاهم على آدم، أي: أغراهم به. قال ابن منظور: أجاز الكسائي: أشليت الكلب على الصيد بمعنى أغريته. اللسان: (شلا).

(٥) المَدَر: الطين اللزج المتماسك، القطعة منه: مَدَرَة. المعجم الوسيط .

(٦) في (م): ولَّى.

(٧) في تفسير الآية (١٧٦) منها.

(٨) ليس في ذلك خبر صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ اختلف في معنى قوله: «هُدًى»: فقيل: كتاب الله. قاله السُّدِّيُّ[١]. وقيل: التوفيق للهداية. وقالت فرقة: الهُدَى: الرسل، وهي إلى آدمَ من الملائكة، وإلى بنيه من البشر، كما جاء في حديث أبي ذَرّ، وخرَّجه الآجُرّيُّ[٢] .وفي قوله: «مِنّي» إشارةٌ إلى أنَّ أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى، خلافاً للقَدَرية وغيرهم، كما تقدَّم.

وقرأ الجَحْدَريُّ: «هُدَيَّ»[٣]، وهي[٤] لغةُ هُذَيْل، يقولون: هُدَيَّ وعَصَيَّ ومَحْيَيَّ[٥]. وأنشد النحويون لأبي ذُؤَيْب يرثي بنيه:

سَبَقُوا هَوَيَّ وأعنَقُوا لِهَواهُمُ فتُخُرِّمُوا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٦]

قال النحاس[٧]: وعلَّةُ هذه اللغة عند الخليل وسيبويه[٨] أنَّ سبيلَ ياء الإضافة أن يُكسرَ ما قبلَها، فلما لم يَجُز أن تتحرَّك الألف، أُبدلت ياءً وأُدغمت.

و«ما» في قوله: «إمّا» زائدةٌ على «إنْ» التي للشرط، وجوابُ الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله: «فَمَنْ تَبِعَ»، و«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، و«تَبِعَ» في موضع جزم بالشرط، «فَلاَ خَوْفٌ» جوابُه. قال سيبويه: الشرطُ الثاني وجوابُه هما جوابُ الأوّل. وقال الكسائي: «فلا خَوْفٌ عليهِم» جوابُ الشرطين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الخوف: هو الذُّعْر، ولا يكون إلا في المستقبل. وخاوَفَني فلان فَخِفْتُه، أي: كنتُ أشدَّ خوفاً منه. والتخوُّف:

---

(١) زاد المسير ١/ ٧١.

(٢) لم نقف عليه عنده، ولعل المصنف يريد الحديث السالف ص ٣٩٥.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥ لابن أبي إسحاق. وأوردها ابن جني في المحتسب ١/ ٧٦، وزاد نسبتها لأبي الطفيل، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر الثقفي.

(٤) في (د): على، وفي (م): وهو.

(٥) يعني في : هُداي وعَصاي ومَحياي.

(٦) البيت في المفضليات ص٤٢١، وديوان الهذليين ص٢، والمحتسب لابن جني ١/ ٧٦، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٩، وشرح المفصل ٣/ ٣٣.

(٧) إعراب القرآن ١/ ٢١٦.

(٨) الكتاب ٣/ ٤١٤.

التنقُّص، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل: ٤٧]. وقرأ الزُّهْرِيُّ والحسن وعيسى بنُ عمر[١] وابنُ أبي إسحاق ويعقوب: «فلا خوفَ» بفتح الفاء على التبرئة[٢]، والاختيارُ عند النحويين الرفعُ والتنوينُ على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفةٌ، لا يكون فيه إلا الرفع، لأنَّ «لا» لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأوّل الرفعَ أيضاً ليكونَ الكلامُ من وجهٍ واحد. ويجوزُ أن تكون «لا» في قولك: فلا خوفٌ، بمعنى «ليس».

والحُزْن والحَزَن: ضدُّ السُّرور، ولا يكونُ إلا على ماضٍ، وحَزِنَ الرجلُ - بالكسر - فهو حَزِنٌ وحَزِينٌ، وأَحْزَنَه غيرُه وحَزَنَه أيضاً، مثل: أسلَكَه وسلَكَه، ومحزونٌ بُنِيَ عليه. قال اليزيديُّ[٣]: حَزَنَه لغةُ قريش، وأَحْزَنَه لغةُ تميم، وقد قُرِئَ بهما. واحْتَزَنَ وتحزَّنَ بمعنًى[٤].

والمعنى في الآية: فلا خَوْفٌ عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتَهم من الدنيا. وقيل: ليس فيه دليلٌ على نفي أهوالِ يومِ القيامة وخوفها على[٥] المطيعين؛ لما وصفَه الله تعالى ورسولُه من شدائد القيامة، إلا أنه يُخَفِّفُه عن[٦] المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أشركوا، لقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾

(١) أبو عمر الثقفي، البصري، إمام النحو، كان صديقاً لأبي عمرو بن العلاء، وأخذ القراءة عرْضاً عن عبد الله بن أبي إسحاق وابن كثير المكي. السير ٧/ ٢٠٠.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ١٣٢. و«لا» التبرئة، يعني النافية للجنس. وقراءة يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٢١١.
(٣) في (ظ): الترمذي، وهو خطأ.
(٤) الصحاح (حزن).
(٥) في (ظ): عن.
(٦) في (د) و(ظ): على.

الصُّحبة: الاقترانُ بالشيء في حالةٍ ما، في زمانٍ ما، فإن كانت الملازمةُ والخُلْطة؛ فهي كمالُ الصُّحْبَة، وهكذا هي صحبةُ أهل النار لها[1]. وبهذا القول ينفكُّ الخلافُ في تسمية الصحابة رضي الله عنهم؛ إذْ مَرَاتِبُهم متباينةٌ، على ما نُبَيِّنُه في «براءة» إن شاء الله تعالى[2]، وباقي ألفاظ الآية تقدَّم معناها، والحمد لله.

تمَّ الجزء الأول من تفسير القرطبي ويليه الجزء الثاني، وأوَّله تفسيرُ قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣٢.

(٢) في تفسير الآية (٤٠) منها.

فهرس الجزء الأول